أبيض وتراب

سِـيرَة النَبيُ مُحَـمّدْ

هارون فان ألتنبيرغ

الطبعة الرابعة

١٤٤٧ هـ / ٢٠٢٦ م

ISBN: ٩٧٨-٦-١٤-٨٢٠٨٠٤٨-٧

للتواصل مع المؤلف: weisserunderdvater@hotmail.com

المُقَدِّمَةْ

قبلَ أكثرَ من ١٤٤٠ سنةٍ، شهدَتْ شبْهُ الجزيرةِ العربيةِ نشأةَ الإسلامِ، وهي قصةٌ تُعدُّ واحدةٌ من أهمِّ الفصولِ في تاريخِ الإنسانيةِ، وقد بدأتْ أحداثُ هذه القصةِ في بيئةٍ صحراويةٍ قاسيةٍ، وفي زمنٍ كان يمتازُ بالتحدياتِ الإنسانيةِ والصراعاتِ المستميتةِ بينَ الإمبراطوريتينِ الرومانيةِ والساسانيةِ، وفي قلبِ هذه القصةِ، نجدُ النبيَّ محمدًا بنَ عبدِ اللهِ، المؤسسَ الرئيسَ للدينِ الإسلاميِّ، ومن هناكَ انتشرَ الإسلامُ إلى كلِّ أنحاءِ العالمِ.

رُويَ أنَّ محمدًا أوصى في أواخرِ حياتهِ قائلاً: "إنِّي تاركٌ فيكم ما إنْ تمسَّكتُم بهِ لنْ تضلُّوا بعديْ ـ أحدُهما أعظمُ من الآخَرِ ـ:كتابُ اللهِ، حبْلٌ ممدودٌ منَ السَّماءِ إلى الأرض، وعِترتي أهلُ بيتي، ولن يتفرَّقَا حتى يرِدَا عليَّ الحوضَ، فانظروا كيفَ تَخلُفوني فيهما"(١)، في هذه الوصيةِ يشيرُ محمدٌ أنّهُ سيتركُ للناسِ شيئينِ للتمسُّكِ بهما لكيلا يضِلّوا بعدَهُ : كتابَ اللهِ وهو القرآنُ وعترتَهُ (أهلَ بيتهِ)، وأكّدَ أنَّ هذينِ الشيئينِ لن يتفرَّقا حتّى يومِ القيامَةِ.

إنَّ أهمَّ قاعدةٍ في كتابةِ سيرَةِ محمدٍ هو اختيارُ المصادرِ الصحيحةِ تاريخياً، ولأنَّ التراثَ الإسلاميَّ نُقِلَ بطرُقٍ مختلفَةٍ، فيها الصادقُ وفيها الكاذبُ، صارَ من الأساسيِّ انتخابُ المصادرِ الصادقةِ، وهذا يُمثِّلُ أكبرَ تحدٍّ لكُتّابِ السيرةِ، لكنْ لو رجعْنا إلى وصيَّةِ النبيِّ محمدٍ السابقةِ، نستطيعُ أن نفهمَ أنّ القرآنَ وأهلَ بيتهِ هما أصدقُ ما يُمكنُ أنْ يأخُذَ بهِ المرءُ لمعرفَةِ دينهِ وحياةِ نبِيّهِ، وما عدا ذلكَ فهناكَ فرصةٌ للضلالِ والانحرافِ.

فلو أردْنا معرفةَ سيرةِ محمدٍ الصحيحةِ دونَ زياداتٍ أو نقصانٍ، فعلينا أنْ نسلكَ هذا الطريقَ الذي أرشدَنا هو عليهِ وهو طريقُ القرآنِ وأهلِ البيتِ، إذْ أنّ أهلَ بيتِ محمدٍ أعلمُ بهِ من غيرِهم، كما يقولُ المثلُ: "أهلُ مكةَ أدرى بشِعابِها"، والقرآنُ هو الكتابُ الذي جاءَ به محمدٌ عن طريقِ الوحي منَ اللهِ، يقولُ القرآنُ في إحدى آياتهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(٢)، فُسِّرَتِ الآيةُ على أنّها إعلانٌ للناسِ، بأنّ اللهَ

---

١ الشِّعْبُ : انفراجٌ بين الجبلين، الطريقُ، والجمع : شِعابٌ، طرق.

أرسلَ لهم بُرهانًا وهو شخصُ محمدٍ والمسدَّدُ بالدلائلِ والبراهينِ الواضحةِ، وفُسِّرَ النورُ بالقرآنِ، وقد ذكرَتْ بعضُ الرواياتِ، بأنّ النورَ هو ابنُ عمِّ محمدٍ وهو عليٌّ بنُ أبي طالب(٣) .

لقد أثبتتْ الدراسَةُ اللغويةُ للمخطوطاتِ القرآنيةِ التي قامَ بها الدكتورُ/ فان بوتين /في عامِ ٢٠٢٢ م، بأنّ القرآنَ قد حُفِظَ منَ التغيُّراتِ والتحريفاتِ وتمَّ نقْلهُ بحِرفيَّةٍ دقيقةٍ منذ عامِ ٦٥٠ م عبرَ الأجيالِ حتّى وصلَ إلينا (٤)، وهذا الاكتشافُ يؤكدُ ما وعدَه اللهُ في القرآنِ نفسهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ١ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٥)، وهو ذاتُه ما كانَ وما زالَ يردِّدُهُ المسلمونَ طِوالَ السنينَ، إنّ هذا الاكتشافَ المثيرَ لا يثبتُ فقط أنّ القرآنَ قد تمَّ فعلًا حفظُه، بلْ يبيّنُ أيضاً أنّ القرآنَ سيبقى محفوظًا إلى الأبدِ، وذلك لأنّ زمنَ التحريفِ والتغييرِ في النصوصِ الأثريّةِ قد ولّى من غيرِ رجعةٍ، بفضلِ المطابعِ وحقوقِ النشرِ وطُرقِ الحفظِ والتعاملِ مع النصوصِ التاريخيةِ، وبذلك تحقَّقَ هذا الوعدُ الذي جاءتْ بهِ الآيةُ السابقةُ، من أجلِ ذلكَ فإنّ القرآنَ يُعدّ أحدُ أهمِّ وأصدقِ المصادرِ الرئيسّةِ التي لا تُقدَّرُ بثمنٍ لدراسةِ حياةِ المجتمعِ العربي في القرنِ السابعِ، إلاَّ إنّ الاعتمادَ الكليَّ على القرآنِ لكتابةِ تاريخِ تلك الحِقْبَةِ بصورةٍ عامةٍ وكتابةِ سيرةِ محمدٍ بصورةٍ خاصةٍ غير ممكنٍ، لأنّ القرآنَ – على الرغمِ من قدِمِ وأصالةِ نصوصِهِ (٦) - إلاَّ إنّه ليس كتابَ تاريخٍ أو كتابَ سيرةٍ، ثمّ أنّ معلوماتِه عن تفاصيلِ حياةِ محمدٍ شحيحةٌ، لا تكفي لكتابةِ سيرتهِ، لذلك أصبحَ الاستنادُ على المادةِ الروائيةِ أيضاً أمرٌ لا بدَّ منه.(٧)

تنقسِمُ المصادرُ الروائيةُ إلى قسمينِ: المصادرُ الإسلاميةُ والمصادرُ غيرِ الإسلاميةِ أو الخارجيةِ، فيما يخصُّ المصادرَ الإسلاميةَ، فقد قامَ العلماءُ بدراسةِ جميعِ الأحاديثِ دراسةً مُستفيضَةً بواسطةِ عِلمِ الحديثِ وعِلمِ الرجالِ، لمعرفةِ الأحاديثِ والرواياتِ الصحيحةِ منَ

---

١ الذِكرُ هي تسمية أخرى للقرآن.

٢ علمُ الحديثِ: هو العلم الذي يبحث في حديث النبي محمد من حيث نقله وضبط ألفاظه وتدوينه. علم الرجال: علم وضعه العلماء لتقييم رواة الحديث بصورة دقيقة لا تقبل التسامح لتشخيص وتعيين هوية الراوي بصورة كاملة، وذلك على أسس علمية وقواعد مرسومة.

الرواياتِ الموضّوعةِ، وبعد هذا الفرْزِ للأحاديثِ قامَ العلماءُ بعَرضِ الحديثِ على القرآنِ ليتمَّ فحصُ الأحاديثِ ما إذا طابقَتْ معانيَ القرآنِ أم لا (٣)، لأنّ القرآنَ هو كلامُ الله كما قالَ محمدٌ وهو مُصانٌ من التحريفِ كما أسلفْنا، فما طابقَ منها القرآنَ، أخذوا به وما لم يطابقْ منها القرآنَ تركوهُ، ليتحصَّلَ لنا مجموعةٌ من الرواياتِ الصحيحةِ التي يُمكنُ الاعتمادُ عليها في دراسةِ التاريخِ وكتابتِه.

إنّ دراسةَ التاريخِ ليستْ مجرَّدَ قراءةٍ للأحداثِ الماضيةِ، بل هي محاولةٌ لفَهمِ الماضي وتفسيرِهِ، ودراستُه تتطلَّبُ عنايةً ودِقّةً عاليةً، فالباحثُ التاريخيُّ يجبُ أنْ يكونَ أيضاً على دِرايةٍ عميقةٍ بالمصادرِ التاريخيةِ، وأنْ يكونَ قادرًا على تمييزِ الحقائقِ منَ الخرافاتِ، ولكي يحقِّقَ ذلك، يجبُ على الباحثِ التاريخيِّ أنْ يقرأَ المصادرَ التاريخيّةَ بحذَرٍ ووعي، وأنْ يبحثَ عن مصادرَ متعدِّدةٍ للتأكُّدِ من صحةِ المعلوماتِ الواردةِ فيها، كما يجبُ عليه أن يفكرَ نقديًّا في المعلوماتِ، ويعتمدُ على الأدلَّةِ والشواهدِ التاريخيةِ لتأييدِ أو رفضِ المعلوماتِ الواردةِ في المصادرِ، إضافةً إلى ذلك، يجبُ أن يكونَ الباحثُ التاريخيُّ منفتحًا على الآراءِ المختلفةِ، وأن يكونَ قادرًا على تقييمِها بموضوعيَّةٍ، و أنْ يكونَ صادقًا مع نفْسهِ ومع الآخرينَ، وأنْ يسعى إلى تقديمِ صورةٍ صادقةٍ للتاريخِ (٨)، وأخيرًا، يجبُ أن يكونَ هناك معيارٌ ثابتٌ يعتمدُ عليه في تقييمِ الأحداثِ والشخصيّاتِ، يُعدُّ هذا المعيارُ مقياسًا مرجعيًا لمعرفةِ حقيقةِ الأمورِ وتشخيصِها، لأنّ البحثَ العلميَّ وحدَهُ لا يكفي للبتِّ في هذه القضايا، لذلك يجبُ على الكاتبِ العودةُ إلى هذه المرجعيّةِ لتوضيحِ صِحّةِ البحثِ، ومنْ هنا جاءتْ فِكرةُ اعتمادِ مرجعيةٍ مثْلَ القرآنِ وأهلِ البيتِ في هذا الكتابِ، حتى لو كانتْ هذه الفكرةُ تحملُ دَلالةً لاهوتيَّةً، فإنّ الفجوةَ الزمنيةَ والمكانيةَ بين الكاتبِ من جهةٍ والوقائعِ التاريخيةِ من جِهةٍ أخرى تجعلُ في بعضِ الأحيانِ المعرفَةَ بحقائقِ الأمورِ شِبهَ مستحيلةٍ دونَ شاهدٍ يثِقُ بهِ الكاتبُ ويرجعُ إليه، ليتحقَّقَ من صحّةِ كتاباتِه.

لقد راعيْتُ أمورًا عِدّةً في كتابةِ هذه السيرةِ، كان أهمّها:

أولا: التمسُّكُ بالأسلوبِ السهلِ في الكتابةِ دونَ تكلُّفٍ، واستعمالُ اللغةِ العربيةِ الحديثَةِ، وإعطاءُ معاني المفرداتِ القديمةِ والغريبةِ في الرواياتِ.

ثانياً: لم أكتفِ بمُجرَّدِ سَردِ الوقائعِ التاريخيّةِ، بلْ قمتُ أيضًا بتحليلِها وشرحِ معاني بعضِ الأحداثِ بطريقةٍ مُوجزَةٍ.

ثالثًا: الإعتمادُ على الرواياتِ الصحيحةِ المتوافقَةِ مع القرآنِ، والمأخوذَةِ من أهلِ البيتِ والمصادرِ الأخرى الموثوقَةِ، كما تمَّ تجاهُلُ بعضِ الرواياتِ في كُتبِ السيرةِ لعَدمِ صحَّتِها حَسَبَ تحقيقاتِ السيدِ جعفرِ العامِليْ، وذلك لتحَرّي الاختصارَ وتجنُّبَ الإطالَة.

رابعًا: استعمالُ بعضِ الصُّورِ الفوتوغرافيةِ والرسومِ لتقريبِ الفِكرةِ، وهذه الرسومُ هي أشكالٌ تجريديَّةٌ أو رُسومٌ مجسَّمَةٌ تخيُّليةٌ تمَّ تشكيلُها باستخدامِ تقنيَّةِ الذكاءِ الاصطناعيّ لا تمتُّ إلى الشخصياتِ الحقيقيّةِ أو الرموزِ الدينيّةِ بِصِلةٍ وإنَّما هي مُجرَّدُ صُورٍ رمزيةٍ لتوضيحِ فكرةٍ معيَّنةٍ في النصِّ، فالرجاءُ من- القارئِ الكريمِ- ألاّ يظُنَّ أو يتصوَّرَ أنّ هذه الرسومَ أو الصورَ هي تصويرٌ حقيقيٌّ لأصحابِها أو للشخصيّاتِ التاريخيةِ ويؤاخِذَنا عليها.

خامسًا: توحيدُ الخِطابِ مع شخصيّةِ محمدٍ في السيرةِ بالنبيِّ محمدٍ أو رسولِ الله وكذا في بقِيَّةِ الشخصياتِ التاريخيةِ التي لها ألقابٌ عُرِفَتْ بها وكانتْ تُكْنى بها، كما سأستخدمُ لفْظَةَ اللهِ بَدَلَ إلهٍ، وذلكَ مِن أجلِ أنْ يكونَ الخطابُ موحَّداً وأكثرَ وضوحًا في الكتابِ كما وردَ في الرواياتِ التاريخيّةِ الإسلاميةِ، ومُراعاةً للرسْمِ القرآنيِّ تَمَّ وضْعُ الآياتِ القرآنيةِ داخلَ هذه الأقواسِ: ﴿﴾ والفاصلةُ بينَ الآياتِ يُرمَزُ لها بهذا الرمزِ: ۝.

سادسًا: لقد راعيتُ في كتابةِ سيرةِ محمدٍ بأنْ أُسلِّطَ الضوءَ على جوانِبَ متعددةٍ من شخصيتِهِ، مِثْلَ الجانبِ: الأخلاقيِّ، والاجتماعيِّ، والإنسانيِّ، والقياديِّ والشخصيِّ وليس الاقتصارَ على الجانبِ العسكريِّ فقطْ، كما فعلَهُ الكثيرُ من كُتّابِ السيرةِ والمغازي، وذلك لكي أنقلَ الصورَةَ الأكملَ للقارئ عن سيرةِ النبيِّ أو شخصيَّتِهِ، وقد اعتمدتُ في كتابةِ هذا الكتابِ بالدرجةِ الأولى على القرآنِ وعلى كتابِ / الصحيحُ من سيرةِ النبيِّ الأعظمِ / للعلّامَةِ المحقِّقِ السيِّدِ جعفر مرتضى العاملي، الذي يتميزُ بتوسُّعهِ في البحثِ والتحليلِ في جميعِ الرواياتِ عن الفُرقِ الإسلاميةِ الأخرى وما وردَ من رواياتٍ عن أهلِ البيتِ.

الحيادِيّةُ في القراءةِ:

للتغَلُّبِ على الفاصلِ الزمنيِّ الكبيرِ بيننا وبينَ الأحداثِ التاريخيةِ والتقالِيدِ والأعرافِ المختلفةِ التي كانتْ سائدَةً في المجتمعِ آنذاكَ، يجبُ علينا أنْ نفهمَ أنّ الثوابتَ الأخلاقيةَ والقِيمَ الإنسانيةَ هي المعيارُ الحقيقيُّ الذي يجبُ أن نتسلحَ به لفَهمِ وتقييمِ تلك الأحداثِ، كما يجبُ علينا أنْ نُجرّدَ أنفسَنا من كلِّ الأفكارِ المُسبَقةِ والإعتقاداتِ الخاطئةِ والأخبارِ الكاذبةِ وأنْ نبدأ بنِيّةٍ خالصةٍ صادقةٍ في التعلُّمِ ومعرفةِ الحقيقةِ لغرضِ الإستفادةِ والتنويرِ، بذلكَ، ستكونُ قراءتُنا حِياديّةً ومثمرةً.

توضيحٌ أخيرٌ:

لم يكنِ القصْدُ منَ الكتابِ إثارةَ النعَراتِ الطائفيةِ أو الخلافاتِ المذهبيّةِ، إذْ أنّ المجتمعاتِ تواجِهُ أزماتٍ كُبرى وتحدّياتٍ هائلةً تمسُّ حاضرَها وتهدّدُ مستقْبلَها، ما يدعونا جميعاً إلى رصِّ الصفوفِ ونبْذِ الفُرْقَةِ، فأنا أؤكّدُ على احترامِ وتقديرِ جميعِ الشخصياتِ المقدسَةِ لدى المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ التي وردَ ذكرُها في الكتابِ، وإنَّما وددْتُ أنْ أقدِّمَ بهذا الكتابِ، بحثاً علميّاً رصيناً يستندُ إلى حقائقَ تاريخيةٍ صحيحةٍ، يكونُ في مُتناولِ جميعِ طبقاتِ المجتمعِ بمختَلفِ خلفيّاتِهم الثقافيةِ، لكي يطَّلِعوا على التاريخِ الإسلاميِّ من أنقى منابعِه. وفي الختامِ أتمنّى لكم أوقاتًا ممتعَةً وأجواءَ روحانيةً عند قراءتِكم هذه السيرةِ الممَيَّزةِ، وأسألُ الربَّ لكمُ التوفيقَ والهدايَةَ، وأنْ يتقبَّلَ هذا العملَ البسيطَ وأنْ يغفرَ لي ما غفلْتُ عنهُ.

٢١-٠٨-٢٠٢٢ | ٢٢-٠١-١٤٤٤

المؤلّف

الجزءُ الأوّلُ

قراءةُ مُحمّدٍ في سياقِ التّاريخِ

يمكنُ للقرّاءِ الذينَ يرغَبونَ في البَدءِ مُباشرةً بالقِصة الانتقالُ إلى الجزءِ الثاني.

مُحَمَّدٌ التاريخيٌّ

هل كانَ محمدٌ موجوداً؟ أو هل أنّ محمدًا شخصيّةٌ حقيقيّةٌ؟

قد يبدو هذا السؤالُ للقارئ العربيِّ غريبًا ولا يتبادرُ إلى الذهنِ بَتاتاً، كونُه يعيشُ في عالَمٍ مملوءٍ بالدلالاتِ والشواهدِ في جميعِ جوانبهِ، التي تدلُّ على وجودِ النبيِّ محمدٍ كما يقولُ المثَلُ: لا دُخَانَ بلا نارٍ، أمّا بالنسبةِ لبعضِ المُستشرقينَ فهذا يُمَثِّلُ موضوعًا يحتاجُ إلى تحقيقٍ وإثباتٍ علميٍّ، أنا لن أناقِشَ هنا أسبابَ التشْكيكِ في وجودِ محمدٍ، لكنّيْ سأُماشي هذه الفكرةَ وأذكرُ بعضَ الدلائلِ التاريخيةِ المؤكدةِ لوجودِ محمدٍ منَ المصادرِ غيرِ الإسلاميّةِ، وسأبدأُ بهذا النصِّ:

„عندما كنتُ في قيساريّة[١] انطلقتُ على مَتْنِ قاربٍ إلى شيكامونه[٢] فوجدتُ الناسَ تقولُ قُتِلَ الحرسُ الملكيُّ البيزنطيُّ ونحن كيهودٍ ابتهجْنا للخبرِ، وكانوا يقولونَ لقد ظهرَ النبيُّ وهو قادمٌ مع العربِ، وهو يعلنُ عن قدومِ المسيحِ الذي سيأتي، فذهبتُ أنا إبراهيمَ إلى رجلٍ عجوزٍ مُطَّلعٍ للغايةِ على الأسفارِ المقدّسَةِ وأحلتُ إليهِ المسألةَ، وسألتُه: ما رأيُكَ، أيُّها السيّدُ والمعلِّمُ، بالنبيّ الذي ظهرَ بين العربِ؟ أجابَ، وهو يتأوّهُ للغايةِ: «إنّه دجّالٌ، هل يأتي الأنبياءُ بالسيوفِ والمركباتِ؟ حقًا هذه أعمالُ فوضى بدأتْ اليومَ، وأخشى أنّ المسيحَ الذي جاءَ قبْلَ ذلك، والذي يعبُدهُ المسيحيّونَ، هو الذي أرسلَهُ اللهُ، وبدلاً منهُ سنقبلُ هيرمولاوس[٣] ، لأنّ أشعياء[٤] قال إنّنا نحنُ اليهودُ لدينا قلبٌ خاطئٌ ومتصلِّبٌ، حتى تصيرَ الأرضُ كلُّها

---

١ قيساريةُ : هي مدينةٌ فلسطينية.

٢ شيكامونه: مدينةٌ تقع بالقربِ من ساحلِ البحر على حيفا – فلسطين.

٣ هيرمولاوس: كان أحدَ القساوسة الثلاثة الذين قُتِلوا سنة ٣٠٥ ب،م، على يد الإمبراطور ماكسيميان في نيكوميديا، وهي مدينة في تركيا.

٤ أشعياء: أحدُ أنبياء بني إسرائيل ولد سنةَ ٧٦٦ ق.م، و عاش في القدس.

صحراءَ، لكنْ اذهبْ، يا سيدُ ابراهيمُ، واستعلمْ عنِ النبيّ الذي ظهرَ»، وهكذا، قمتُ أنا، إبراهيمَ، بتحريّاتي، وأخبرَني أولئكَ الذينَ التقوهُ أنّه ليس ثَمْةَ من حقيقةٍ يُمكنُ أن توجَدَ عند النبيّ المزعومِ، سوى إراقةِ الدماءِ، أمّا ما تقوله حولَ امتلاكِه لمفاتيحِ الجنَّةِ، فهو أمرٌ غيرُ قابلٍ للتصديقِ"(٩).

يُعَدُّ هذا النصُّ أحدَ أقدمِ الرواياتِ التي تُروى عن طريقِ غيرِ المسلمينَ، وفيها ذِكرُ محمدٍ، ويُسمَّى بتعاليمِ يعقوبَ، وقد كُتِبَتْ سنةَ ٦٣٤ م في أفريقيا، يتكوّنُ النصُّ من حِوارٍ خياليٍّ بين التاجرِ اليهودي يعقوبَ وابنِ عمِّهِ جوستس الذي كانَ منْ فلسطينَ، وخلالَ رحلةِ عملٍ إلى قرطاجةَ، تمَّ تعميدُ يعقوبَ بالقوّةِ بأمرِ الإمبراطورِ هرقِلْ، لكنّه سُرعانَ ما اقتنعَ بالإيمانِ بالمسيحيّةِ بنفْسِه، عندما وصلَ ابنُ عمِّه جوستس منْ فلسطينَ، دخَلا في نقاشٍ حولَ المسيحيّةِ واليهوديّة، وفي سَيْرِ النقاشِ، قالَ جوستس إنّه تلقّى رسالةً من شقيقِه إبراهيمَ في فلسطينَ تذكرُ قدومَ نبيٍّ جديدٍ.

أولَّ ما نلاحظُهُ في النصِّ السابقِ هو وجودُ نبيٍّ في هذه المنطقَةِ وفي هذا الزمنِ، والشخصُ الوحيدُ الذي أعلنَ نبُوّتَهُ؛ كان هو محمدًّا. كما نلاحظُ في النصِّ فرحَةَ اليهودِ بالخلاصِ من الحرسِ البيزنطي الظالمِ وانتظارَهم النبيَّ المُخلِّصَ. كما نلاحظُ حُكْمَ الرجلِ العجوزِ على النبيّ المزعومِ دونَ التثبُّتِ والتأكُّدِ من حقيقتِه. ويبدو أنّها كانتْ إحدى الغزواتِ التي قامَ بها المسلمونَ تلك السنةِ، إذ جرى فيها قتالٌ ضدَّ الرومِ، أمّا اللّافِتُ هنا هو أنّ هذا النبيَّ الجديدَ بـشّرَ بقدوم المخلّصِ من بعدِه وادَّعى امتلاكَه مفاتيحَ الجنَّة!

هناكَ دليلٌ آخرٌ قديمٌ يعودُ إلى سنةِ ٦٣٦ م وِجدَ في مخطوطةٍ سريانيّةٍ من القَرنِ السادسِ تحتوي على إنجيلِ مَتَّى وإنجيلِ مُرقُسْ، و قد كُتِبتْ على الصفحةِ الأماميةِ بعضُ السطورِ عن معركةٍ بين العربِ والروم، والكتابةُ شاحبةٌ جدًا وليستْ جميعُ كلماتِها واضحةً:

"في يناير {أخذَ شَعْبُ} حِمْصَ كلمةً لحياتِهم (أيْ تعهَّدوا بالخضوعِ مقابِلَ حياتِهم) ودُمِّرتِ العديدُ من القُرى بقتلِ {أتباعِ} محمدٍ ، وقُتِلَ العديدُ من الناسِ و{أُسِرَ} من الجليلِ إلى بيتِ... وفي {ستةٍ وعشرين} مايو ذهبَ / ساكِلارا /من محيطِ حِمصَ وطاردَهم الرومانُ {... }،

في العاشرِ {من أغسطس} هربَ الرومانُ من محيطِ دمشقَ {وقُتِلَ} كثيرٌ {من الناس}، نحو عشرةِ آلافٍ، وفي نهايةِ {السنة} جاء الرومانُ، في العشرينَ من أغسطسْ في سنةِ {تسع مئةٍ وأربعين-} وسبعةٍ تجمّعَ في جابثا {جمهورٌ} من الرومانِ ، وقُتِلَ كثيرٌ من شعبِ {الرومان}، {تقريباً} خمسونَ ألفًا."(١٠)

نلاحظُ ذكرًا صريحًا لاسمِ محمدٍ في المخطوطةِ، والتاريخُ المذكورُ في النصِّ يتفقُ مع تاريخِ معركةِ اليرموكِ، وهو ٢٠ أغسطس سنةَ ٦٣٦ للميلادِ المصادفُ ١٢ رجب سنةَ ١٥ للهجرةِ، وبعد فحصِ النصِّ استنتجَ نولدكة ومن قبلِهِ/ رأيت/ بأنّ هذه الملاحظاتِ، تدلُّ على أنّ كاتبَها كان شخصًا معاصرًا للأحداثِ في تلكَ السنةِ. (١١)



شكل(١): درهم عبد الملك بن عبد الله، والي الزبير في بيشابور، سنة ٦٦ هـ / ٦٨٥-٦٨٦ م، وفيه أول ظهور لاسم "محمد" على عملة.

أودُّ أنْ أشيرَ أيضاَ إلى أقدمِ عُملةٍ نقديَّةٍ تحملُ اسمَ محمدٍ ومكتوبٌ عليها: "بسمِ اللهِ، محمدٌ رسولُ اللهِ" إذ أضافَ المسلمونَ هذه العبارةَ إلى العُملةِ بعدما سيطروا على بلادِ فارس سنةَ ٦٨٥-٦٨٦ م (١٢).

كما تعد "الكرونيكا المارونيّة لعام ٧١٣ م" (Maronite Chronicle of ٧١٣) واحدةً من أهمّ الأدلةِ التاريخيّةِ التي توثّق وجودَ النبيِّ محمدٍ من منظورٍ خارجيٍّ معاصر. لفهمِ

أهميّةِ هذا الدليل، يجب تتبّعُ رحلةِ البحثِ العلميّ التي بدأت بفرضياتٍ وانتهت باكتشافٍ ماديٍّ ملموس.

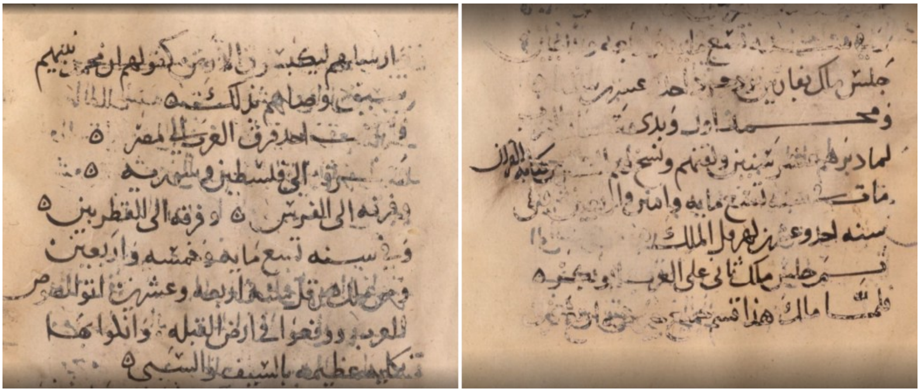
لاحظ المؤرخون تشابهًا دقيقًا في المعلومات بين المؤرخين البيزنطيين والسريان. استنتج العالم روبرت هويلاند (Robert G. Hoyland) في كتابه الشهير "رؤية الإسلام كما رآه الآخرون" وجودَ مصدرٍ قديمٍ مفقودٍ أطلق عليه "المصدر الشرقي المشترك (Syriac " (Eastern Source) أو Common Source) .
اعتقد هويلاند أن هذا المصدر هو تاريخُ ثيوفيلوس الرهاوي (Theophilus of Edessa's Chronicle)، وهو عالمُ فلكٍ ومؤرخٌ سريانيٌّ عاش في بلاط العباسيين وتوفي عام ٧٨٥ م. قدّم هويلاند إعادةَ بناءٍ لهذا التاريخ المفقود في كتابه:

Theophilus of Edessa's Chronicle and the Circulation of Historical Knowledge in Late Antiquity and Early Islam (Liverpool University Press, ٢٠١١).

وفي عام ٢٠٢٤/٢٠٢٥، أحدث العالم أدريان بيرتاي (Adrian C. Pirtea) من الأكاديمية النمساوية للعلوم (ÖAW) ثورةً في هذا المجال. فقد نجح في تحديد نصٍّ تاريخيٍّ داخل مخطوطةٍ في دير سانت كاترين في سيناء تحمل الرقم التصنيفي:(Sinai Arabic ٥٩٧) .

أثبت بيرتاي أن هذا النص هو ترجمةٌ عربيةٌ من القرن الثالث عشر لـ "Chronicle" سريانيٍّ كُتب في الأصل عام ٧١٣ م. هذا الاكتشاف أثبت أن هذا هو "المصدر الشرقي" الذي تحدث عنه هويلاند وهو أقدمُ بكثيرٍ مما كان يُعتقد، وأنه كُتب في قلب الدولة الأموية، وتحديدًا في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، مما يجعله أقربَ زمنيًّا للأحداث من أي تاريخٍ إسلاميٍّ مكتوب.

يرد في المخطوطة نصٌّ صريحٌ يتحدث عن النبي محمد، وهو نصٌّ استثنائيٌّ يربط بين شخصيته التاريخية وبين "القرآن" والتشريع. يقول النص في المخطوطة:



الشكل ١ب: مخطوطة سيناء العربية ٥٩٧، الورقتان ١٤٨a–١٤٨b.

الورقة ١٤٨a:

ومحمدٌ الأول، بدأ سادَ العربَ،

لمّا دبَّرَهم عشرَ سنين، ولقَّنَهم ونسَخَ لهم شرائعَه في كتابه القرآن.

ماتَ في سنةِ تسعِ مائةٍ واثنين وأربعين،

وهي سنةُ إحدى وعشرين لهرقل الملك.

ثم جلسَ ملكٌ ثانٍ على العربِ أبو بكر.

ولمّا مَلَكَ هذا قسَّمَ جميعَ جيوشه أربعَ فِرَق.

الورقة ١٤٨b:

فأرسلهم ليكبسوا الأرضَ كقولهم أنَّ محمداً نبيَّهم بسيفٍ ووصاهم بذلك.

فأُرسِلَت إحدى فِرَق العرب إلى مصر.

وفِرقة إلى فلسطين وسورية.

وفِرقة إلى الفرس. وفِرقة إلى القُطريين.

وفي سنةٍ تسعَ مائةٍ وخمسةٍ وأربعين،

ومن مُلكِ هرقل سنةَ أربعةٍ وعشرين ــــ أتوا لصوصُ العرب.

ودفعوا في أرضِ القِبلة وأنكَوا بها نَكِيلةً عظيمة بالسيف والسَّبي.

حينئذٍ ثاوذُوِّرَكيُ أخو الملك أخذ جيشَ الروم.

وسارَ للقاءِ العربِ فغلبوا الروم.

وخضعوا بين أيديهم.

وظهرَت آيةٌ مذهلةٌ في السماء،

توضِّح الغضبَ الذي يحلّ بالأرض على أيديهم.

تعد هذه المخطوطة دليلًا واضحًا وحاسمًا على وجود النبي محمد؛ فهي توثق بدقةٍ زمنَ ظهوره، مدةَ حكمه للعرب (عشر سنين)، كتابه (القرآن)، وتاريخَ وفاته بدقةٍ مذهلة (سنة ٩٤٢ سلوقية المقابلة لعام ٦٣٢ م). إن كتابة هذا النص في عام ٧١٣ م ــــ أي قبل تدوين السيرة النبوية الرسمية بأكثر من قرن ــــ يجعله شهادةً تاريخيةً لا تقبل الشك من خارج البيئة الإسلامية. (٤٩٩).

سأكتفي بهذا القدْرِ وأتركُ الأمرَ للباحثِ بأنّ يتوسَّعَ فـي المصادرِ التاريخيةِ الأخرى حتى لا يطولَ الكلامُ ويخرجَ الكتابُ عن هدفِه الرئيسِ، وأقولُ: من المصادرِ السابقةِ صارَ واضحًا لدينا بأنّ شخصيةَ محمدٍ حقيقةٌ وليستْ خياليةً، فقد وصلَ صيتُها إلى المناطقِ البعيدَةِ في الجزيرةِ العربيةِ، ووثِقَت عند غيرِ المسلمينَ ومن قِبَلِ أعدائهِ أيضاً، وبهذا لا يبقى أدنى مجالٍ للشكِّ بأنّ محمدًا كان موجوداً فعلاً في تلك البُقعةِ في الجزيرةِ العربيةِ في القَرنِ السابعِ الميلاديْ و كانَ لهُ دورٌ قياديٌّ ونبويٌّ.

كتابةُ السيرَةِ النبويَّةِ

على الكاتبِ أن يكونَ محايدًا في كتابتِه، دقيقًا في نَقْدِه، موضوعيًا في طرحِه، لكنْ، هل يوجدُ كاتبٌ محايدٌ؟ إنّ كلَّ كاتبٍ لديهِ أفكارٌ واعتقاداتٌ وقناعاتٌ خاصةٌ تربَّى عليها، يحملُها في عقلِه، ستنعكسُ في كتاباتِه وأسلوبِ طرحِه، فإنّك تكادُ لا تجدُ كاتبًا موضوعيًّا مئةً بالمئةِ، حيثُ تراهُ يوظِّفُ بحثَه وكتاباتِه ليُطابقَ أهدافَه، وهو شيءٌ لا يستطيعُ الكاتبُ إخفاءَهُ مهما حاولَ، فلو طالعتَ كُتُبَ السيرةِ سوفَ تجدُ أنّ المسلمينَ يأخذونَ موقفَ المدافعِ عن محمدٍ، ويظهرونَه بالصورةِ الحسنَةِ التي يريدونَها، فالسُنَّةُ يُمَيلّونَ محمدًا إلى الصحابَةِ وأبي بكرٍ وعُمَرَ، والشيعةُ يُمَيلّون محمدًا إلى عليٍّ، أمّا المستشرقونَ فهم يلتزِمونَ جانبَ الإنكارِ، ويحاولونَ أنْ يُشكِّكوا في كلِّ ما جاءَ عن محمدٍ، والكثيرُ منهم يذهَبُ إلى أبعدَ من ذلك، فيكتبُ السيرةَ فقطْ بالرجوعِ إلى الرواياتِ التاريخيةِ التي تهاجمُ محمدًا أو تصوّرُه بصورةٍ سيِّئة[١٣]، إنّ كُلَّ هؤلاءِ قد يتَّبعونَ النهجَ العلميَّ في البحثِ والكتابةِ وهذا النهجُ يكونُ مُلزمًا للكاتبِ، ولكنَّهم يختلفونَ في تحليلاتِهم وتفسيراتِهم واستنتاجاتِهم للأحداثِ والمواقفِ والشخصياتِ، فيترجمُ كاتبٌ حَدَثًا ما بطريقةٍ، بينما يترجِمُه آخرٌ بطريقةٍ أخرى، وبذلكَ يضعونَ قناعاتِهم وتصوّراتِهم الشخصيةِ على كتابةِ السيرةِ من حيثُ يعلمونَ أو لا يعلمونَ، وأنا هنا لا أختلفُ عن بقيّةِ الكُتّابِ وقد أفصحتُ في مقدّمةِ الكتابِ عن طريقتي في كتابَةِ السيرةِ وأنا لا أقولُ بأنّ هذا الأسلوبَ خاطئٌ في الكتابةِ وأنّ على الكاتبِ ألّا يُبدي رأيَه لكي يكونَ منصفاً، كلّا، فللكاتبِ أيضاً الحقُّ في إبداءِ رأيِهِ وطرحِ فكرتِه ويبقى على القارئ الحُكمُ النهائيُّ واختيارُ الطرحِ الذي يناسبُ ذوقَه واعتقادَه.

والقرّاءُ أيضاً مختلفونَ حسْبَ خلفياتِهم وثقافتِهم وقد يكونوا انتقائيّينَ في قراءتِهم وفهمِهم، وذلكَ نتيجةً لأفكارِهم المُسبَقةِ، والأفضلُ بينَهم هو الذي يتنَّبهُ لهذه الحقيقةِ فيضعُ عواطفَه وأحكامَه المسبقةَ جانباً ويحاولُ أن يقرأ بحياديّةٍ، ويضعَ ميزانًا له في فَهْمِ النصوصِ حتّى لا يظلِمَ نصًّا أو يُضلِّلَ بنصٍّ (راجع الحيادية في القراءة في صفحة ٧).

ونهْجي في الكتابةِ سيكونُ سرْدًا لنتائجِ تحقيقاتِ السيدِ جعفر العاملي في الأغلبِ إلّا من بعضِ المواضِعِ البسيطةِ التي ساهمْتُ بإثرائِها بمجهودي الشخصي، وسأكتفي بالإشارةِ إلى مصدرِ البحثِ للسيدِ جعفر دونَ إعادةِ تفاصيلِ استدلالِه إلاّ بتعقيبٍ مُختَصرٍ في بعضِ الأحيانِ، كما ذكرتُ في المقدمةِ، وذلك لكيلا أُطيلَ على القارئ، على سبيلِ المثالِ: هناكَ ٨ آراءٍ لدى العلماءِ لعُمْرِ خديجةَ حينما تزوّجتْ محمدًا، والسيدُ جعفر رجَّحَ بعد البحثِ أنّ عُمرَها كان ثمانٍ وعشرينَ سنةً ١٤، فسأكتفي في هذا الكتابِ بذكْرِ نتيجةِ ما وصلَ إليه في تحقيقِه وهو عُمرُ الثمانيةِ والعشرينَ دونَ ذِكرِ السببِ حتى أسترسلَ في روايةِ السيرةِ ولا أتوقَّفُ عند كل جُزئيّةٍ وأقومُ بتعليلِها في عدّةِ صفحاتٍ، وللقارئ الرجوعُ إلى المصادر إذا أحبَّ الاطلاعَ على التحقيقِ المفصَّلِ، وهذا الأمرُ ينطبقُ على جميعِ المواضيعِ التي تناولْتها في هذه السيرةِ.

دراسَةُ الحديثِ عندَ المُستشرِقينَ

كما ذكرْنا، تتمثّلُ مصادرُ كتابةِ السيرةِ في القرآنِ والحديثِ والرواياتِ، ورُغمَ أنّ بعضَ الأشخاصِ قد يفضِّلونَ إضافةَ المصادرِ من غيرِ المسلمينَ، إلّا أنّهُ يبدو أنّ هذه المصادرَ نادرةُ الوجودِ ولا تتمتّعُ بالموثوقيّةِ الكافيةِ، خاصةً في فَترةِ صدرِ الإسلامِ، إضافةً إلى ذلك، فإنّ هذه المصادرَ قد لا تكونُ محايدةً، وعلى الرغمِ من ذلك، هناكَ بعضُ المستشرقينَ الذينَ حاولوا الاعتمادَ على المصادِرِ الخارجيةِ فقطْ، ولكنَّهم لم يُحقِّقوا نجاحًا في ذلك.(١٥)

لقد حرصَ العلماءُ المسلمونَ على دراسةِ القرآنِ والحديثِ لأجيالٍ طويلةٍ تعودُ إلى القرنِ الأولِّ الهجريِّ، فأسّسوا علومًا تختصُّ بذلكَ ومؤسساتٍ تُعْنى بطلبةِ العِلمِ في العراقِ وإيرانَ ومصرَ وغيرِها، وكتبوا حولَ ذلك آلافَ الكتبِ والبحوثِ العلميَّةِ في مختَلَفِ اللغاتِ.

أمّا المستشرقونَ، فلم يأتِ توجُّههُم إلى دراسةِ الأحاديثِ النبويةِ إلّا في وقتٍ متأخرٍ، ولعلَّ أولَّ محاولةٍ لها أهميَّتُها قامَ بها جولدتسهير في كتابهِ (دراساتُ مُحَمَّدْ) سنةَ ١٨٩٠ م وأصبحَ منذ ذلك الوقتِ من أهمِّ المصادرِ التي يرجِعُ إليها الباحثونَ، وذكرَ بأنّ الأحاديثَ الإسلاميَةَ قد تكوَّنتْ في القرنينِ الثاني والثالثِ الهجريينِ في ظلِّ خلافاتٍ متعددةٍ، وهي لا تصلُحُ كمصدرٍ تاريخيٍّ عن صدرِ الإسلامِ،(١٦) هذا الرأيُ أيَّدهُ / لامينس / وأضافَ بأنّ السيرةَ الموجودةَ مبنيَّةٌ على قَصَصٍ مُفبرَكةٍ من بعضِ التلميحاتِ الموجودةِ في القرآنِ، والتي رُتِّبَتْ بتسلسلٍ زمنيٍّ لِتُعطيَ شكلَ القصَّة(١٧)، وقد أعادتْ /كرون/ هذا الادعاءَ بقولِها: „إنّ الكثيرَ من التراثِ التاريخيِّ على ما يبدو هو في الواقعِ من أصلٍ تفسيريٍّ للقرآنِ ...وأمّا ما بقيَ فهو حديثٌ فقهيٌّ وعقائديٌّ مُنكرٌ“١٨ واستعرضَتْ /كرون/ في كتابِها (التجارةُ المكيَّةُ) الذي نُشِرَ سنةَ ١٩٨٧م، محاولتَها لتفسيرِ سورةِ قريشٍ بالاعتمادِ على كُتبِ تفسيرٍ مختلفةٍ، لإظهارِ كيفَ يتِمُّ تلفيقُ المعلوماتِ منَ المفسّرينَ، وسورةُ قريشٍ هي: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (١٩)

لم تستطعْ/ كرون / فهمَ معنى كلمةِ إيلافِ وأدرجتْها دونَ تَرْجَمَةٍ بلْ لم تهتدي إلى فَهْمٍ كاملٍ للسورةِ وهو نفسُ الفهمِ أو عدمُ الفهمِ الذي واجهُهُ /كوك /قبْلَها(٢٠)، ووصلَتْ /كرون/ إلى نتيجَةٍ بعد بحثٍ مُطوَّلٍ ومشَوَّشٍ مفادُهُ: " أنّ المعنى الحقيقيَّ للآياتِ غيرُ موجودٍ وأنّ ما بين أيدينا من تفسيرٍ للسورةِ لا يعدوا كونَهُ تخميناتِ المفسّرينَ، وهي لا تمَثِّلُ ما كان في ذهنِ محمدٍ عندما قرأ هذه الآياتِ؛ والمعنى الأصليُّ لهذه الآياتِ كانَ مجهولًا لديهِمْ“، (٢١) لم يتَّفِقْ جميعُ المستشرقينَ بهذا الطرحِ المتطَرِّفِ، وذلك لأنّ دراستَها لآياتِ القرآنِ افتقرَتْ إلى الحِرفيَّةِ والاطلاعِ الكافي على اللغةِ العربيةِ والتاريخِ العربيِّ، ما أدى إلى تفسيرٍ خاطئٍ للنصوصِ القرآنيةِ، فقالَ /روبرت بيرترام سيرجانت / حولَ كتابِ (التجارةُ

المكيَّةُ): "أنّهُ مرتبِكٌ وغيرُ منطقيٍّ وغيرُ عقلانيٍّ، إضافةً إلى كونهِ معقَّدًا بسوءِ فهمِها للنصوصِ العربيةِ، وعدَمِ فهمِها للبُنْيةِ الاجتماعيةِ في شِبهِ الجزيرةِ العربيةِ، وتحريفِ المعنى الواضحِ للكتاباتِ الأخرى، القديمةِ والحديثةِ، لتُناسبَ مزاعَمها"(٢٢)

إنَّنا لو رجِعْنا إلى كُتبِ التفسيرِ، فسنجدُ الطرحَ العلميَّ لجميعِ معاني الألفاظِ الواردةِ في الآياتِ ثمَّ الاستدلالَ إلى المعنى الكُلّيِّ المناسبِ للآيةِ حَسَبَ السياقِ والأدلَّةِ المختلفةِ، يقولُ الشيخُ مكارمُ الشيرازي: „"إيلافُ" مصدرُ آلفَ، و"آلفَهُ" أيْ جعلَهُ يألَفُ، أيْ جعلهُ يجتمِعُ اجتماعاً مقروناً بالانسجامِ والأُنسِ والالتئامِ، وقالَ بعضُهم: "الإيلافُ" منَ المؤالفةِ، وهي العهدُ والميثاقُ، ولا يتناسبُ هذا المعنى مع محتَوى السورةِ، على كلّ حالٍ، المقصودُ إيجادُ الأُلفةَ بينَ قريشٍ وهذه الأرضِ المقدَّسةِ وهي مكّةُ والبيتُ العتيقُ، لأنّهُمْ وكلُ أهلِ مكَّةَ اختاروا السكَنَ في هذه الأرضِ لمكانَتِها وأمنِها "،(٢٣) ويضيفُ صاحبُ تفسيرِ الميزانِ: "و قولُه: «لإيلافِ قريش» اللامُ فيها للتعليلِ وفاعلُ الإيلافِ هو اللهُ وقريشٌ مفعولُهُ الأولٌ و مفعولهُ الثاني محذوفٌ يدلُّ عليهِ ما بعدَهُ، وقولُهُ: «إيلافِهِمْ رحلةُ الشتاءِ و الصيفِ» بدلٌ من إيلافِ قريشٍ وفاعلُ إيلافِهِم هو اللهُ، ومفعولُهُ الأولُّ ضميرُ الجَمْعِ و مفعولُهُ الثاني رحلةُ.. الخ، و التقديرُ لإيلافِ اللهِ قريشاً رحلةُ الشتاءِ والصيفِ،"(٢٤) فيكونُ المعنى: أنّ اللهَ يُعطي قريشًا نِعمةَ السلامِ والأمانِ بالقربِ من بيتِ اللهِ، وهذا يسمحُ لهُمْ بالإستقرارِ والألفَةِ في المنطقةِ والإستمرارِ في رحلاتِهم التجاريةِ المعتادةِ في الشتاءِ والصيفِ، لذا، يجبُ على قريشٍ أنْ تعبدَ اللهَ، ربَّ بيتِ الكعبةِ، كَشُكرٍ لهُ على هذه النِّعَمِ. (٢٥)

استمرَ النهجُ التشكيكيُّ للمستشرقينَ في التعاملِ مع الحديثِ، ما صعَّبَ عليهم فهمَ التاريخِ الإسلامِيِّ كما فَهِمَهُ العلماءُ المسلمونَ (٢٦)، ولم يرجعوا إلى السبُلِ العلْميَّةِ التي اتبعَها علماءُ الحديثِ منذُ مئاتِ السنينَ، بلْ أرادُوا اختراعَ العجلةِ مجدَّداً ودراستَه من الصفرِ لاستخراجِ نواةٍ صحيحةٍ منَ التراثِ يكتبونُ من خلالِها السيرَةَ (٢٧)، فكانَ المعيارُ عندَهم هو إذا كانتْ الأحاديثُ والأخبارُ تصوِّرُ محمدًا بصورةٍ سيِّئةٍ فيُأخَذُ بها (١٣).

وفي ١٩٥٠م قدَّمَ /شاخت /ما سمّاهُ بنظريةِ الإرتباطِ المشتَركِ كحلٍّ لمشكلةِ الأحاديثِ، وفكرةُ هذه النظريةِ هي أنْ تُجمعَ الإصداراتُ المختلفةُ لحديثٍ معيَّنٍ، والنظرُ في أسانيدِهِ ومعرفةُ ما إذا كانَ هناكَ شخصٌ معيَّنٌ يظهرُ فيها جميعًا (الرابط المشترك)؛ وعلى هذا فإنَّ من المرجَّحِ أن يكونَ هذا الشخصُ هو المُنشئُ للحديثِ، فوضعَ /شات/ حسبَ نظريتهِ تاريخَ نشوءِ هذه الأحاديثِ،(٢٨) /جوينبول / تبنّى فكرةَ /شاخت/ ووسَّعَ هذه الفكرةَ بعد دراسةِ عددٍ كبيرٍ من الأحاديثِ؛ حيثُ لاحظَ أنّ بعضَ نُقّالِ الحديثِ في السندِ (الرابطِ المشتَركِ) يعودونَ إلى محمدٍ عبرَ ناقِلٍ واحدٍ للحديثِ وهو بدورهِ يعودُ إلى شخصٍ واحدٍ ثمّ إلى صحابيٍّ واحدٍ حتى تنتهي إلى محمدٍ واستنتجَ من ذلك بأنّ الحديثَ والسندَ الراجعَ إلى محمدٍ هو من اختراعِ ذلك الرابطِ المشتَركِ. (٢٩)

رغمَ أنّ المحاولاتِ المتواضعةِ من المستشرقينَ لدراسَةِ الحديثِ قد جاءتْ متأخرةً، إلاّ أنّها تتجهُ في الاتجاهِ الصحيحِ، فقد انتقلوا من الإنكارِ الكليِّ للتُراثِ الإسلاميِّ إلى الإيقانِ بالحاجةِ إلى تطويرِ سُبلِ دراستهِ لمعرفةِ الصحيحِ منهُ.

دراسةُ الحديثِ عندَ المسلمينَ

لقد تنبّهَ المحدِّثونَ المتقدّمونَ إلى حقيقةِ حالَةِ النصوصِ التاريخيةِ، فبدأوا من القرنِ السابعِ في استخدامِ مناهجِ البحثِ العلميِّ في دراساتِها وكانتْ أبحاثُهم في التأليفِ والنقدِ سبّاقةً في هذا الميدانِ، وهم بذلكَ يُعدّونَ أولَ مَنْ أسّس لهذا العلمِ، لقد ألَّفَ علماءُ اللغةِ كُتُباً جمعوا فيها ألفاظَ المفرداتِ مع بيانِ معانِيها، وكُتباً دوّنوا فيها القواعدَ العربيةَ كالصرْفِ والنحوِ، وألَّفَ المسلمونَ كُتباً لجمعِ الحديثِ، وكُتباً لرُواةِ الحديثِ، وكُتباً لنقدِ الحديثِ، ويحوي النوعُ الأولُ المعتقداتِ والأنباءَ، والأوامرَ والنواهيَ، وأنواعَ المعاملاتِ تتصلُ بالتسلسلِ إلى المعصومِ ، والنوعُ الثاني يشتملُ على أسماءِ الرواةِ، فيذكرُ كلَّ راوٍ باسمهِ وصفاتهِ، ويُسمَّى

---

١ يُطلقُ لقبُ المعصومينَ على الأربعة عشر معصوم في عقيدة الشيعة، وهم النبي محمد وابنته فاطمة والأئمة الاثنا عشر من نسل الإمام علي بن أبي طالب وفاطمة.

هذا علْمُ الرجالِ، وفي النوعِ الثالثِ يذكرُ فيه النُّظمَ العامةَ والقواعدَ الكليَّةَ لمعرفةِ الأحاديثِ الصحيحةِ من غيرِها، ويُسمَّى علمُ الدرايَةِ، والغرضُ من هذه الأنواعِ الثلاثةِ واحدٌ، وهو إثباتُ السُنَّةِ النبويةِ بالطرُقِ الصحيحةِ (٣٠).

والدارسُ في علمِ الدرايَةِ يعلمُ أنّ الحديثَ: هو الكلامُ الذي يروي قولَ المعصومِ أو فعلَهُ أو تقريرَهُ، والخبرُ: هو ما يقابلُ الإنشاءَ أحيانًا، وأحيانًا أخرى ما يُروى عن غيرِ المعصومِ من الصحابيِّ والتابعيِّ ونحوهما، أمّا الأثَرُ: فهو أعمُّ من الخبرِ والحديثِ، وللخبرِ أقسامٌ:

- الخبرُ المتواترُ: هو الذي استُنبِطَ معناهُ من عدَّةِ أخبارٍ مشتَركةٍ، ويفيدُ بنفسهِ القطعُ بصدقهِ،
- الخبرُ الآحادُ: هو الذي لا يفيدُ بنفسِهِ إلّا ظنًّا، إذا عُلِمَتْ سلسلتُهُ بأجمعِها فهو مُسنَدٌ، وإذا سقطَ من أولِها واحدٌ فصاعِدًا فهو معلَّقٌ، إذا نقلَهُ أكثرُ من ثلاثةٍ في كلِّ مرتبةٍ فهو مستفيضٌ، وإذا انفردَ بها واحدٌ في أحدِها فهو غريبٌ. (٣١)

أمّا الحديثُ: فلهُ قِسمانِ: متواترٌ، وآحادٌ، والمتواترُ: أنْ ينقلَهُ جماعةٌ بلغوا من الكثرةِ حدًّا يمتْنعُ اتفاقُهم وتواطؤهمْ على الكذبِ، وهذا النوعُ منَ الحديثِ حُجَّةٌ يجبُ العملُ بهِ، أمّا حديثُ الآحادِ: فهو ما لا ينتهي إلى حَدِّ التواترِ، سواءً أكانَ الراوي واحداً أو أكثرَ، (٣٢) ومن علاماتِ وضعِ الحديثِ عند الشيعةِ أنْ يكونَ مخالِفاً لنصِّ القرآنِ، أو لِما ثبَتَ في السُنَّةِ النبويةِ، أو للعقلِ، أو أنْ يكونَ ركيكاً غيرَ فصيحٍ، أو يكونَ إخباراً عن أمرٍ مُهِمٍّ تتوافَرُ الدواعي لنقْلِهِ، ومع ذلك لم ينقلْهُ إلّا واحدٌ، أو يكونَ الراوي مناصراً للحاكِمِ الجائرِ.

وينقسمُ حديثُ الآحادِ إلى أربعةِ أقسامٍ:

- الصحيحُ: إذا كانت سلسلةُ السندِ مكوَّنَةً من إمامَينِ ممدوحَيْنِ بالتوثيقِ في كلِّ طبقةٍ،
- الحَسَنُ: إذا اعتراهُ شذوذٌ أو بدونِهِ؛ كُلٌّ أو بعضٌ مع توثيقِ الباقي،

- موثَّقٌ وقويٌّ: إذا كان عنْ غيرِ إمامَينِ كلٌّ أو بعضٌ مع توثيقِ الجميعِ، وما سوى ذلك فهو ضعيفٌ، قد يكونُ مقبولًا إذا اشتُهِرَ العملُ بمضمونهِ، وإلّا فغيرُ مقبولٍ.

أمّا راوي الحديثِ فيُشترَطُ فيه شروطٌ خمسةٌ: التكليفُ والإسلامُ إجمالًا، والإيمانُ والعدالةُ والضبْطُ ، العدالةُ هي تعديلُ القُوى النفسانيَّةِ وتقويمُ أفعالِها بحيثُ لا يُغلّبُ بعضَها على بعضٍ، والضبطُ تعني أنْ يكونَ الراوي حافظاً، فَطِناً، واعياً، متحرّزاً عنْ التحريفِ والخطأِ، ولا يُشترَطُ فيه الحريةُ والذكورةُ، لكنْ ينبغي لهُ المعرفةُ بالعربيةِ.

أمّا كيفيَّةُ معرفَةِ عدالةِ راوٍ ففيهِ أيضاً تفصيلٌ، واختصاراً يجبُ أنْ يحصلَ الراوي على تزْكيةٍ أو شهادةٍ من أهلِ العِلمِ أو العُدولِ، فيُؤخَذُ بكلامهِ، وإذا كانَ الراوي غيرَ صادقٍ أو مشكوكًا في مصداقيَّتِهِ أو رجاحةِ عقلهِ حَسْبَ رأيِ العُدولِ، فيُردُّ قولُه، وفي هذا المجالِ تفصيلٌ كبيرٌ ومؤلفاتٌ عدَّةٌ تحتَ ما يُسمَّى الجَرحُ والتعديلُ، ليس مقامُها في هذا الكتابِ.

هذا هو نهجُ المسلمينَ الشيعةِ في التعاملِ مع الرواياتِ الإسلاميةِ -بإيجازٍ- وهناك تفصيلاتٌ كثيرةٌ موجودةٌ في الكُتبِ التخصصيَّةِ بهذا الأمرِ، والمسلمونَ السنَّةُ لهم أيضاً نهجُهم في تصحيحِ الحديثِ، وقد جمعَ العلماءُ منَ المسلمينَ السنَّةِ الرواياتِ الصحيحةَ في كُتبٍ وأسموها بالصِحاحِ، كصحيحِ البخاري وصحيحِ مُسلِمٍ واعتبروها صحيحةً كصحّةِ القرآنِ، أمّا المسلمونَ الشيعةُ فلا يعتبرونَ غيرَ القرآنِ صحيحاً وما عداهُ يجبُ أنْ يُفحَصَ ويُحقَّقَ.

-ممّا لا شكَّ فيهِ - أنّ على الباحثِ دراسةَ الأحاديثِ والأخبارِ الصحيحةِ الخاصةِ بحياةِ محمدٍ لكتابةِ السيرةِ، وقد قامَ المحقِّقُ /جعفر مرتضى العاملي/ على مدى عشرينَ عاماً بهذه المَهمَّةِ، فأعدَّ موسوعةً كبيرةً في سيرةِ محمدٍ معتمِدًا على ما يقاربُ من ١٧٠٠ مصدرٍ وكانَ منهجُه يقومُ على سَردِ الرواياتِ المختلفَةِ في الفترتَينِ المكيَّةِ والمدينيَّةِ بالترتيبِ التاريخيّ والتسلسلِ الزمنيّ للأحداثِ باستفاضةٍ كبيرةٍ، ثم يقومُ بتحليلِها من مختلَفِ الجوانبِ، باستخدامِ معاييرَ معرفةِ الأخبارِ والأحاديثِ، ثم يُرجِعُها إلى القرآنِ للتمييزِ بين الرواياتِ الصحيحةِ والضعيفَةِ، على الرغمِ من أنّ المؤلفَ اتجهَ في بعضِ الأحيانِ إلى

تحليلِ المُعطياتِ التاريخيةِ باستخدامِ المعتقداتِ اللاهوتيَّةِ، إلّا أنّهُ بشكلٍ عامٍ حاولَ تقديمَ عملٍ علميٍّ يعتمدُ على مناهجِ البحثِ، (٣٣) وقد حظيَ كتابُهُ "الصحيحُ مِنْ سيرةِ النبيِّ الأعظمِ" باهتمامِ الأوساطِ الأكاديميَّةِ والعلماءِ والجامعيينَ، وحصلَ على جائزةِ كتابِ العامِ منَ الجمهوريةِ الإسلاميةِ الإيرانيةِ.

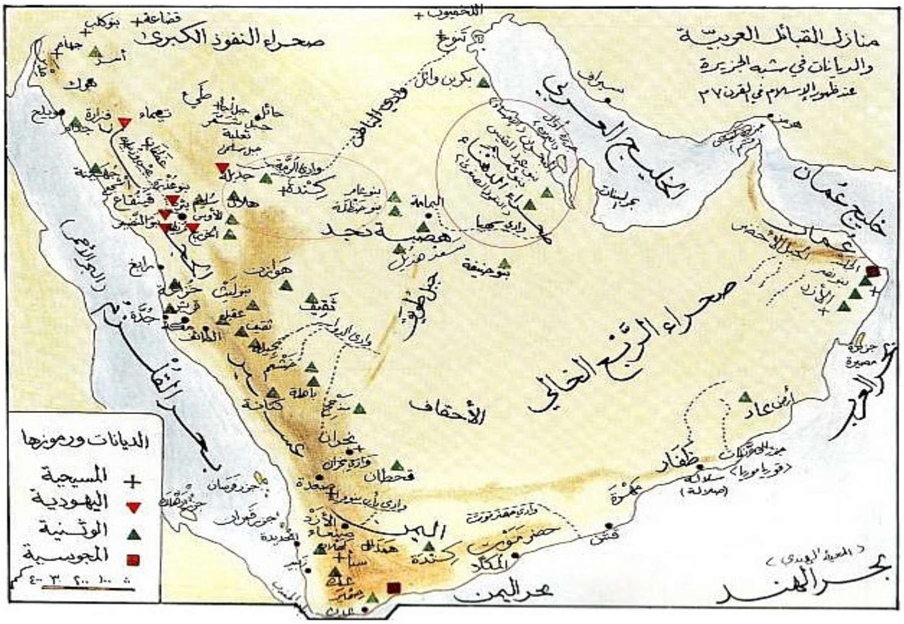
وقد تمحورَتْ مصادرُ هذا الكتابِ حولَ كتابِ الصحيحِ من سيرةِ النبيِّ الأعظمِ للمحقِّقِ السيِّدِ جعفر العاملي، وهو الأساسُ لهذه السيرةِ، فإنّ كتابَه أصلحُ ما صُنِّفَ في هذا المعنى، غيرَ أنّه أطالَ الخُطبَ فيهِ وأوردَ فيه كثيراً ممّا لا يُحتاجُ إليهِ، فكانَ لا بدَّ من الاختصارِ والتهذيبِ لبعضِ المواضيعِ.

الجزءُ الثاني

قِصَّةُ مُحمَّد

شِبْهُ الجزيرَةِ العربيَّةِ

شِبْهُ الجزيرةِ العربيةِ هي منطقةٌ جغرافيةٌ تقعُ في جنوبِ غربِ آسيا عند التقاءِ قارةِ آسيا مع قارةِ أفريقيا، وهي محاطةٌ من الغربِ بالبحرِ الأحمرِ، ومن الشمالِ الشرقي بالخليجِ



شكل(٢): شبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام

العربي، ومنَ الجنوبِ الشرقي بالمحيطِ الهندي، وشمالًا بحدودٍ بريّةٍ (٣٤)، وكانَ أغلبُ شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ صحراءَ قاحلةً وأكثرُها جبالٌ وأوديةٌ وسهولٌ جرداءُ لا تصلحُ للزراعةِ والعملِ، يسقطُ المطرُ في مناطقَ منها، ولا يوجدُ فيها حتّى نهرٌ واحدٌ(٣٥)، فكان سكانُها من الأعرابِ يعتمدونَ في حياتِهم اليوميّةِ على المياهِ الجوفِيّةِ، وبعضِ الواحاتِ، بينما قد ترتفعُ درجةُ الحرارةِ فيها لتصلَ إلى ٥٤ درجةً مئويةً، فهي لا تساعدُ على الاستقرارِ وتنظيمِ الحياةِ، لذلكَ كانَ أكثرُ سكّانِها من البدوِ الرحَّلِ الذينَ يمسونَ في مكانٍ ويصبحونَ في آخرَ.

لم تكنْ هناك دولةٌ أو حكومةٌ لها سيطرةٌ على شبْهِ الجزيرةِ العربيةِ آنذاكَ بشكلٍ كاملٍ، وكانتْ تحيطُها الإمبراطوريّةُ الفارسيةُ شرقًا، والإمبراطوريّةُ الرومانيةُ شمالاً، وقد جعلَ هذا الوضعُ الجغرافيُّ الصعبُ المنطقةَ في مأمَنٍ من مطامعِ الرومِ والفرسِ، ولكنْ نتيجةٌ لهذهِ الظروفِ الجغرافيةِ القاسيةِ وانعدامِ الروادعِ الإنسانيةِ والدينيَّةِ، التجَأَ الناسُ -في كثيرٍ منَ الأحيانِ- إلى السلْبِ والنهْبِ من بعضِهم البعضِ لتوفيرِ سُبلِ العيشِ، فسادَ الحُكمُ القبليُّ المتعصِّبُ وانتشرَ الفقرُ والجوعُ وبعضُ المفاهيمِ الخاطئةِ، وراحَ الناسُ فيها يفتخرونَ بالإغارةِ والهجومِ على بعضِهم البعضِ، وينتصرونَ لأبناءِ قبيلَتِهم سواءً كانوا مُصيبينَ أم مخطئينَ، فكانوا يقتلونَ بناتِهم خشْيةَ وقوعهِنَّ في الأسرِ وما يتبعُهُ من عارٍ عند وقوعِ الغاراتِ، أو خشيةَ الإنفاقِ عليهنَّ بسببِ الفقرِ والفاقةِ (٣٦)، وكانوا أيضاً يُسيئونَ معاملةَ النساءِ ويتصرفونَ بهنَّ كيفما شاءوا مثْلَ الأمتعةِ والبهائمِ التي كانوا يمتلكونَها(٣٧)، أمّا مستواهمُ الثقافي فكانَ -بالإجمالِ- متدنيًّا إلّا من بعضِ النفرِ من أهلِ الحضرِ، الذين كانوا يكتبونَ ويقرأونَ ويُطالعونَ الكُتبَ بمكّةَ ولهم إلمامٌ بكتبٍ أعجميةٍ، ومن هؤلاءِ "الأحناف[١]" وكانوا يجيدونَ بعضَ اللغاتِ الأعجميةِ، وقد اطلعوا على كُتبِ اليهودِ والنصارى وعلى كتبٍ أخرى. (٣٨)

من الحِرفِ المتداولةِ قبلَ الإسلامِ: النجارةُ والحدادةُ والحياكةُ والنساجةُ والخياطةُ والصياغةُ والدباغةُ والبناءُ ونحوها من حِرفٍ، يحترفُها الحضَرُ في الغالبِ، أمّا الأعرابُ فقد كانوا يأنفونَ من الإشتغالِ بها، وينظرونَ إلى المشتغلينَ بها نظرةَ احتقارٍ وازدراءٍ؛ لأنّها في عُرفِهم حِرفٌ وضيعةٌ، خُلقتْ للعبيدِ والرقيقِ والمولي ولا تليقُ بالحُرِّ(٣٩)، فكانوا يستنكفونَ من هذه الأعمالِ والحِرفِ اليدويةِ والعملِ في الزراعةِ، ويرونَ الفخرَ وعزَّةَ النفسِ في فرضِ القوةِ والسيطرةِ، فأدّى هذا النمطُ من الحياةِ إلى إحساسِهم بالعيشِ بحريّةٍ بلا قيودٍ وأنْ يكونوا شُجعانًا وأوفياءَ وأنْ يُكرِموا الضيفَ؛ ليتمكّنوا من البقاءِ، ويستطيعونَ أن يتعايشوا مع بقيّةِ القبائلِ في المنطقةِ.

---

١ الاحنافُ سوف نأتي إلى معنى الأحناف قريباً.

سُمّيَ العصرُ قبلَ الإسلامِ بعصرِ الجاهليَّةِ، و"الجاهليّةُ" هو اصطلاحٌ مستحدَثٌ، ظهرَ بظهورِ الإسلام، وتعني كلمةُ "الجاهليّةِ": السفَهَ والحمَقَ والخِفَّةَ والغضبَ وعدَمَ الإنقيادِ لِحُكمٍ وشريعةٍ وإرادةٍ إلهيّةٍ وما إلى ذلك من حالاتٍ انتقصَها الإسلامُ، (٤٠) ولا يشترط - بالطبعِ- أن يكونَ ذلك الرجلُ جاهلاً أُميًّا، أي ليس لهُ عِلمٌ، وليس بقارئٍ كاتبٍ، (٤١) وقد أُطلِقَ على الحالِ قبل الإسلامِ تمييزًا وتفريقاً لها عن الحالةِ التي صارَ عليها العربُ بظهورِ الرسالةِ، على النحوِ الذي يحدثُ عندنا وعند غيرِنا من الأُممِ من إطلاقِ تسمياتٍ جديدةٍ للعهودِ القائمةِ، (٤٢) وقد وردتْ لفظةُ "الجاهليّةِ"، في القرآنِ، في السُّورِ المدنيّةِ دونَ السُّورِ المكيّةِ؛ أي في السُّورِ التي نزلتْ في المدينةِ وليس في مكّةَ، فدلَّ ذلك على أنّ ظهورَها كان بعد هجرةِ محمدٍ إلى يثربَ، وأنّ إطلاقَها بهذا المعنى كانَ بعد الهجرةِ، وأنّ المسلمينَ استعملوها منذ هذا العهْدِ فما بعدَه. (٤٣)

كانتْ أفعالُ العربِ الوثنيّينَ وتصرفاتُهم غيرَ مقيَّدةٍ وفاضحةً إلى درجةٍ كبيرةٍ، وقد انعكسَ ذلك بشكلٍ جليٍّ في أشعارِهم، فتراهمْ من جهةٍ يتغنَّونَ بالنبيذِ والصيدِ والألعابِ والحبِّ، ومن جهةٍ أخرى يفخرونَ بالانتقامِ والخلافاتِ والسرقةِ والسبْيِ، كانتْ دوافعُهم للأفعالِ النبيلةِ هي الشرفُ والشعورُ بالعائلةِ، لا يذكرونَ الآلهةَ كثيراً، ناهيكَ عن الشعورِ بأيِّ حاجةٍ إليها، يضعُ الرجلُ كلَّ ثقتِهِ في نفسهِ، يركبُ وحدَه في الصحراءِ، يساعدُه سيفُهُ في الخطرِ، لا يقفُ إلهٌ بجانبهِ، لا يتضرّعُ بدعاءٍ يحمي روحَه، قد يتوسّعُ اندفاعُه المتهوّرُ إلى التضحيةِ بالنفسِ منْ أجلِ العائلةِ والقبيلةِ، لكنَّ في هذه البطولةِ لا تُوجدُ دوافعُ دينيةٌ تحرِّكُهُ بلْ عصبيةٌ قبليةٌ، (٤٤) وقد يشعرُ بعضُهم بتأنيبِ الضميرِ لتلك الأفعالِ التي تخالفُ فطرتَهُ، فتعتريهِ مشاعرُ دينيّةٌ، خاصةً حينَ يشعرُ بالضعفِ أو حينَ يغلبُهُ شعورٌ أنّ عاصفةَ الحياةِ قاربتْ على النهايةِ، فتراهُ يتحسَّرُ على التفاني الفارغِ وبذْلِ الجهدِ في سراب.

عندما نتأملُ في أبياتِ الشاعرِ امرئِ القيسِ[1] الذي عاشَ في عصرِ الجاهلية، نستطيعُ فَهمَ وجهةِ نظرهِ تجاهَ الحياةِ ومغرياتِها، كما نتعرّفُ على الدروسِ التي تعلَّمها من تجاربهِ في الحياةِ، والقناعةُ التي اكتسبَها بأنّ الموتَ هو النهايةُ الحتميّةُ، وبناءً على هذا، قرَّرَ أن يضعَ مكارمَ الأخلاقِ كهدفٍ له. (٤٥)

أرانا مُوضِّعِينَ لأمرِ غَيْبٍ — وَنُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ

عَصافيرٌ، وَذُبَّانٌ، وَدودٌ، — وأجْرأُ مِنْ مُجَلِّحَةِ الذِّئابِ

فبعضَ اللَّومِ عاذِلَتي فإنّي — ستكفيني التجاربُ وانتسابي

إلى عِرقِ الثرى وشَجَتْ عروقي — وهذا الموتُ يسلبُنيْ شبابي

ونفسي، سَوفَ يَسْلُبُها، وجِرْمي، — فَيُلحِقُني وشيْكاً بالترابِ

ألمْ أُنضِ المطيَّ بكلِّ خرْقٍ — أمَقِّ الطُّولِ، لمَّاعِ السَّرابِ

---

١ امرؤ القيس الكندي: وهو شاعر عربي معروف عاش قبل الإسلام وتوفي سنة ٥٤٠ م.

٢ مُوضِّعِينَ: مسرعين في السير و نُسحر: أي نعلل، فكأنا نسحر ونخدع بهما.

٣ المجلح: جرو الذئب.

٤ فبعضَ اللوم: أي أقلّي عليّ اللوم، عاذل: من يلوم ويعاتب، انتسابي: إذا لم أجد بيني وبني أحد حيًّا كفاني وعلمت أني سأموت.

٥ عرق الثرى: يقال آدم، وشجت: اتصلت.

٦ جِرْمي: جسدي، جسمي، وشيكاً: سريعاً

٧ أنضي: أُهْزِلُ، الخرق: الفلاة، الارض الواسعة، الأمق: الطويل و أمق الطول: طويل الطول.

وأركبُ في اللّهامِ المَجْرَ حتى | أنالَ مآكِلَ القُحَمِ الرِّغابِ
وكُلُّ مَكارِمِ الأخْلاقِ صارَتْ | إلَيْهِ هِمَّتي، وَبِهِ اكتِسابي
وقد طَوَّفْتُ في الآفاقِ، حَتى | رَضيْتُ منَ الغنيمةِ بالإيابِ!
أبعدَ الحارثِ الملكِ ابنِ عمرو | وَبَعْدَ الخيرِ حجْرٍ، ذي القِبابِ
أُرجّيْ منْ صروفِ الدهرِ ليناً | ولم تغفلْ عنِ الصُّمِّ الهضابِ
وأعلَمُ أنّني، عَمّا قَريبٍ، | سأُنشَبُ في شَبا ظِفْرٍ ونابِ
كما لاقى أبيْ حِجْرٌ وجدّي | ولا أنسى قتيلاً بالكُلابِ

---

١ الهامُ: الجيش الكبير، المجر: الثقيل، القحم: الدفعات من المال، الرغاب: الواسعة، المأكل: الغنائم و غيرها مما يُظفر به.

٢ طوَّفت: أكثرت من الطواف في نواحي الأرض.

٣ الحارث بن عمرو: جده وحجر بن الحارث بن عمرو هو أبوه وهما ملوك أصحاب أبنية بقباب.

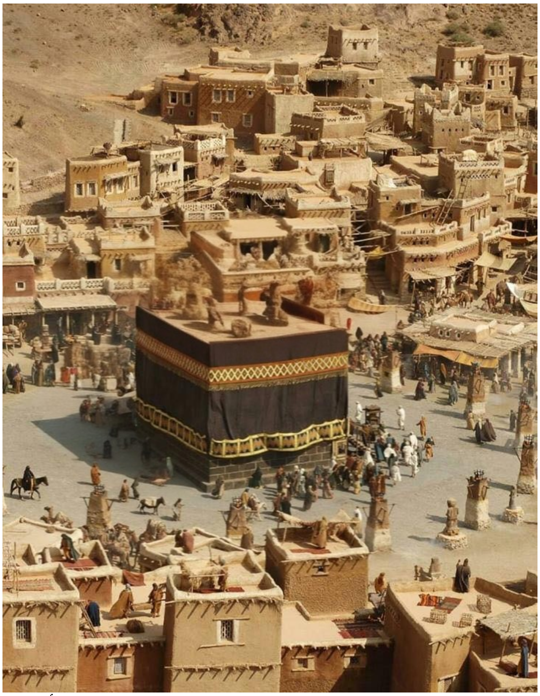
٤ الصم: أي مصَّمت، صمَّت فلانٌ الشَّيءَ: جعله مُصْمَتًا أي جامدًا لا جوف له كالحجر، صَمَّتَ الْخَطِيبُ : سَكَتَ عَنِ الْكَلاَمِ.

٥ أنشب: أعلق، الشّبا: الحدّ.

٦ الكلاب: اسم ماء كانت عنده وقعة؛ ولذلك قالوا: الكلاب الأول والثاني، وهما يومان مشهوران، والمراد بالقتيل: عمه شرحبيل بن عمرو.

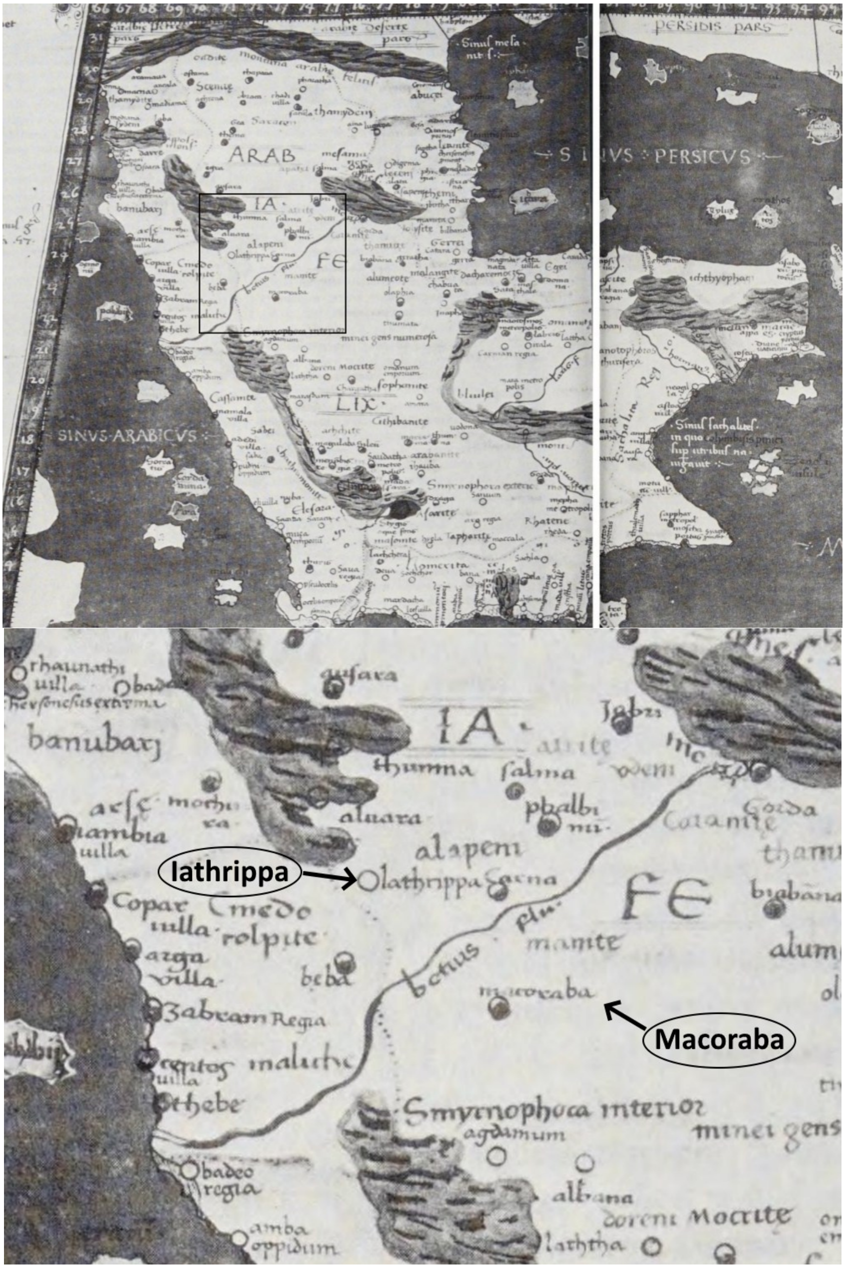
مَكَّةُ

كانَتْ مَكَّةُ منْ أشهرِ المُدنِ في شِبْهِ الجزيرةِ العربيةِ، وكانتْ معمورَةً منْذُ زمنِ النبيّ إبراهيم. (٤٦) وقد جاءَ في كتابِ "الجغرافية" للعالِمِ اليوناني المعروفِ بطليموس



شكل(٤): صورة تخيلية لمكة عند ظهور الإسلام، لاحظ الأصنام فوق وحول الكعبة.

"Ptolemy"الذي عاشَ في القرنِ الثاني بعدَ الميلادِ، اسمُ مدينةٍ دُعِيَتْ ب "مَكْرَبَة" "مَكْرَبا"Macoraba" "، وقد ذهبَ الباحثونَ إلى أنّ المدينةَ المذكورةَ هي "مَكَّةٌ" وهذا يدلُّ على أنّها كانتْ قد اشتُهِرَتْ بينَ العربِ في القرنِ الثاني بعد الميلادِ، وأنَّها كانتْ مدينةً مقدسةً يقصدُها الناسُ من مواضعَ بعيدةٍ، وبفضْلِ هذهِ القدسِيَّةِ والمكانةِ بلغَ اسمُها مسامعَ هذا العالِمِ الجغْرافيِّ اليوناني البعيدِ، (٤٧) (انظر شكل ٣).



شكل(٣): في الأعلى: خريطة الجزيرة العربية من كتاب الجغرافية لبطليموس الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد، وفي الأسفل: تقريب الصورة، نلاحظ اسم "Macoraba" و "lathrippa" و هما مدينة مكة ومدينة يثرب.

الكعبةُ

وفي مكّةَ كانَتْ ولا زالتْ الكعبةُ موجودةً، فإنّ لها مكانَتها لدى الإنسانِ العربي لأنّها مكانُ العبادةِ الأولُ لدى العربِ، وفيها مَجْمَعُ أصنامِهم وأوثانِهم، إضافَةً إلى كونِها مركزاً تجاريًّا، إذ تحجُّ إليها القبائلُ للتجارةِ والعبادَةِ، فكانتْ عبادتُهم للأصنامِ ملَوَّنةً باللّونِ القَبَلِي، فلكلِّ قبيلةٍ بلْ لكلّ بيتٍ وثنٌ، وطريقةٌ، وكثيرًا ما كانتْ دوافعُهم إلى عبادةِ تلك الأصنامِ عاطفيةً، بعيدَةً عن أساليبِ التبريرِ العقليْ المنطقي، فارتباطُ العربيّ بهذا الصَّنَمِ إنّما هو لأنّ هذا الصنمَ مرتبطٌ بتأريخِ أبيهِ أو جدّهِ (٤٨)، وكانتْ الأممُ الأخرى تنظرُ إلى الكعبةِ بعينِ الحسَدِ لأنّ القبائلَ تحجُّ إليها وتقدّسُها، فبنوا مقابِلَها بيوتًا وكعْباتٍ ليُحوّلوا مسيرَ الحجيجِ إلى مُدنِهم، كما فعلَ الغساسنةُ وأهلُ نجرانَ وأهلُ الشامِ واليمن. (٤٩)

الدِّيَانَاتُ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ قَبْلَ الإِسْلَامِ

لقد تبيَّنَ من دراسةِ النصوصِ الأثريةِ، أنّ ديانَةَ الأقوامِ المتقدّمينَ قبلَ الإسلامِ تقومُ على أساسِ عبادةِ الأجرامِ السماويةِ والتقرُّبِ إليها بالأدعيةِ والصلواتِ لتلبِّي حاجاتِ الناسِ، لقد عبدَ العربُ قبلَ الإسلامِ الأجرامَ السماويّةَ مثْلَ الكواكبِ والشمسِ والقمرِ وكانَتْ تُسمّيْ الشمسَ الإلهَ "تعظيمًا لها، (٥٠) كما وجِدَ اسمُ الإلهِ "وُدْ"، وهو إلهٌ معروفٌ عندَ الثموديينَ، وقد ذكروهُ في كتاباتِهم، كما رمَزَ إليهِ العربُ بصورةِ رأسِ ثورٍ، وقد عَمَّتْ عبادتُهُ كلَّ جزيرةِ العربِ، وبقيَ يُعبَدُ إلى أنْ جاءَ الإسلامُ .

وقد وجِدَ اسمُ "العُزّى" على صورَةِ: "هنعزى" في كتاباتٍ عُثِرَ عليها في مدينةِ العلا في الحجازِ، والعُزَّى منَ الآلهةِ التي بقِيتْ عبادتُها إلى الإسلامِ، كما قد وردتْ كلمةُ " رحمنن "، أي "الرحمنُ"، في نصٍّ يهوديٍّ يعودُ إلى الفترةِ قبلَ الميلادِ، يقولُ:" مباركٌ اسمُ الرحمنِ الذي في السماءِ، وإسرائيلُ وإلهُهُمْ، ربُّ اليهودِ الذي أعانَ عبدَهُ شَرَمَ..." (٥١)، وقد حملَ هذا النصُّ بعضَ الباحثينَ على القولِ بأنّ العربَ الجنوبيّينَ قد أخذوا هذه الكلمةَ وفكرتَهم عنِ اللهِ من اليهوديةِ، وأنّ فكرةَ التوحيدِ هذه إنّما ظهَرتْ بتأثيرِ اليهوديةِ التي

دخلتْ إلى اليمنِ، غيرَ أنّ منَ الباحثينَ مَنْ رأى خلافَ هذا الرأي، رأى أنّ افتتاحَ النصِّ بذِكرِ الرحمنِ، ثمّ إشارتُه بعد ذلكَ إلى إلهٍ يهوديٍّ، و وُرودُ كلمةِ " رَحمنْ بَعلْ سمنْ"، أيْ



شكل(٥): بعض تماثيل الإله قبل الإسلام التي عثر عليها في اليمن. (٠)



شكل(٦): اللات، إله الحرب عند العرب قبل الإسلام، وهي الشخصية التي في وسط النحت الحجري، وقد عثر عليها في الحضر، أما الشخصيتان الأنثويتان، اللتان تحيطان بها؛ فهما على الأرجح ابنتيها العُزة والمُناة.

"الرحمنُ ربُّ السماءِ" في نقشٍ آخرَ مُأرَّخٍ يعودُ إلى سنةِ ٤٥٩ للميلاد(٥٢)، كما وردَتْ كلمةُ الرحمنِ في نصٍّ آخرَ يعودُ إلى سنةِ ٤٦٨ للميلادِ، كتبهُ صاحبُه شُكراً للرحمنِ الذي ساعدَهُ في بناءِ بيتِه(٥٣)، و وردَتْ عبادةُ الرحمنِ في نصوصٍ عربيةٍ جنوبيةٍ أخرى وفي نصوصٍ عُثِرَ عليها في أعاليَ الحجازِ بعيدةٌ عن وجودِ اليهود(٥٤)، كلُّ هذه الأسبابِ، تُناقِضُ رأيَ القائلينَ بأنّ عقيدةَ الرحمنِ عقيدةٌ اقتُبِسَتْ من اليهودِ (٥٥)، فأهلُ مكّةَ كانوا على عِلمٍ بالرحمنِ، ولا شكَّ، ولَعلَّهُمْ استخدموا الكلِمَةَ بِمَعنَى الله. (٥٦)

أمّا اللّاتُ، فتظهرُ عبادتُها في النقوشِ العربيةِ الجنوبيّةِ، لكنَّها كانتْ أكثَرَ بُروزاً في شمالِ شِبْهِ الجزيرةِ العربيةِ والحجازِ، ووصلتْ عبادتُها إلى سوريّا، (٥٧) ويُحكى أنّ كاهناً يُدعى عَمْرو بنُ لَحْي هو أولُّ مَنْ جلبَ الأصنامَ منَ الشامِ وأدخلَها إلى مكّةَ، فتعلَّمَ الناسُ عبادَتَها(٥٨)، وهناكَ نقوشٌ أثريّةٌ كثيرةٌ وجِدَتْ تدلُّ على عبادةِ آلهةٍ أخرى مثلَ يَعوقَ وغيرِها لا يسَعُ المجالُ هنا لذكرِها، وقد ذُكِرَ في التراثِ الإسلامي عن الإلهِ قبلَ الإسلامِ؛ فقد جاءَ في القرآنِ أيضاً دلالاتٌ على ذلكَ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٥٩) وجاء أيضاً: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ (٦٠) وفي آيةٍ أخرى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ[١] آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٦١)، وقد خاطبَ القرآنُ الذينَ يعبدونَ الأوثانَ ولا يعبدونَ اللهَ بالكافرينَ تارةً، وتارَةً أخرى بالمشركينَ، وذلك لأنّهمْ كانوا يدَّعونَ أنّ هذه الأوثانَ آلِهةٌ تقرّبُهم إلى اللهِ.

الأَحْنَاف

كانَ هناكَ كذلِك أفرادٌ يتَّبعونَ الحنيفيةَ، يُدعَونَ بالحُنَفاءِ، وهم جماعةٌ سَخِرَتْ منْ عبادةِ الأصنامِ، وثارتْ عليها وعلى المُثُلِ الأخلاقيةِ التي كانتْ سائدةً في ذلك الزمنِ، ودعتْ إلى إصلاحاتٍ واسعةٍ في الحياةِ وإلى محاربةِ الأمراضِ الإجتماعيةِ العديدةِ التي كانتْ متفشيةً في ذلك العهدِ، وقد دعاها إلى ذلك ما رأتْهُ في قومِها من عبادةِ الأصنامِ ومن إسفافٍ في شُربِ الخمرِ والقتلِ والظلمِ، فرفعَتْ صوتَها كما يرفَعُ المصلِحونَ أصواتَهم في كلِّ زمانٍ ينادونَ بالإصلاحِ، وقد أثارَتْ دعوتُهم هذه المحافظينَ وأصحابَ الجاهِ والنفوذِ وسَدَنةَ الأوثانِ شأْنَ كُلِّ دعوةٍ إصلاحيةٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ من بينِ هؤلاءِ مَنْ مالَ إلى النصرانيَّةِ، ولكنّهم لم يكونوا أنفُسَهم يهوداً أو نصارى، إنّما هم أصحابُ ديانةٍ من دياناتِ التوحيدِ تُسمَّى الحنيفيَّةُ وتعودُ إلى زمنِ النبيِّ إبراهيم،(٦٢) وقد عَدَّ بعضُ المستشرقينَ الحُنفاءَ فِرقةً من فرقِ النصرانيَّةِ - أي الذين يحملونَ ثقافَةً مسيحيّةً- وعَدُّوهم نصارى عَربًا زُهّادًا كيَّفوا

---

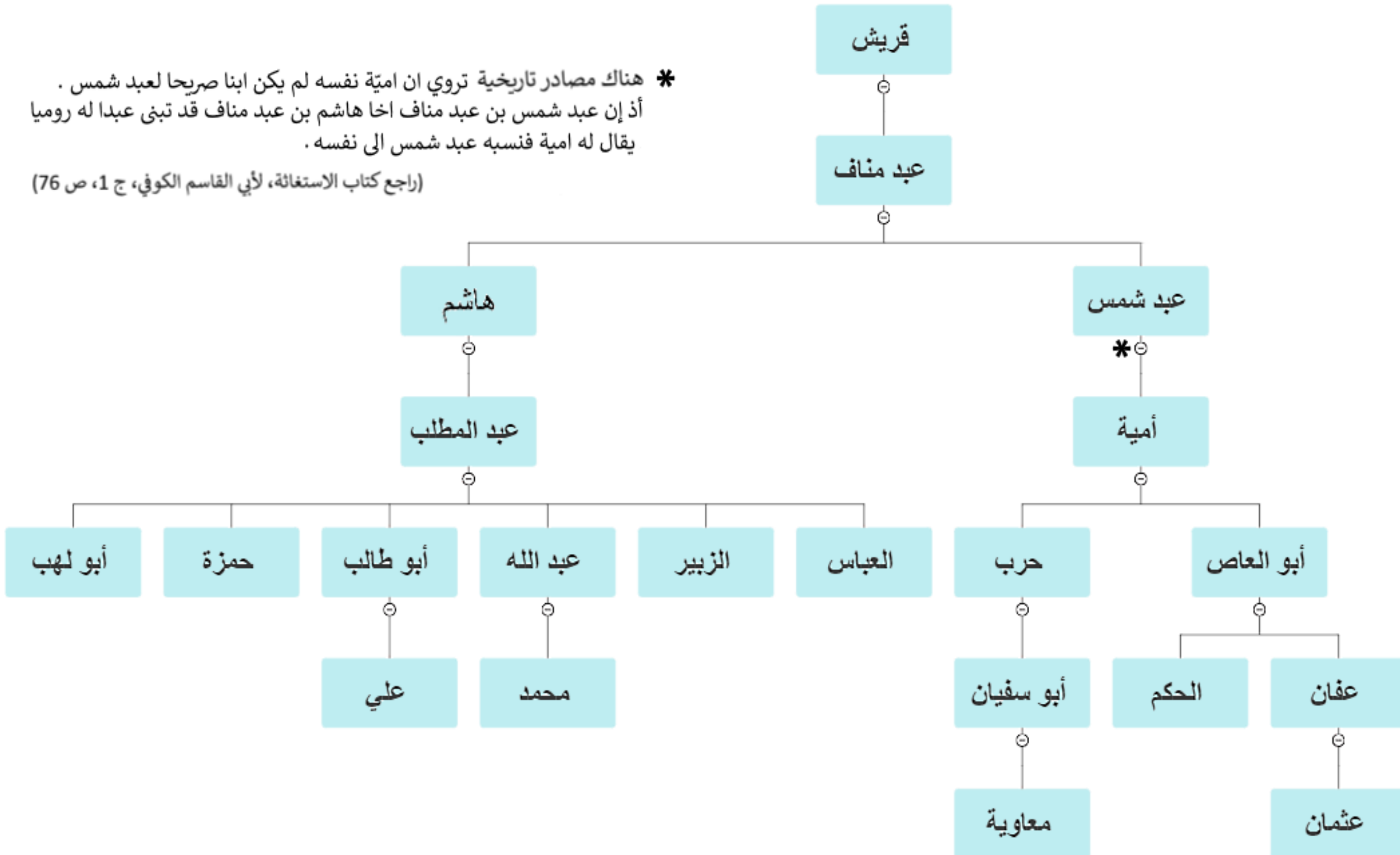
١ تذر: تترك.

النصرانيّةَ بعضَ التكييفِ؛ وخلطوا فيها بعضَ التعاليمِ منْ غيرِها، وقد استدلّوا على ذلكَ بما جاءَ من تَنصُّرِ بعضِهمْ ، وبما جاءَ في بعضِ الأشعارِ الجاهليةِ من مواضعَ يُفْهَمُ منها على تفسيرِهم أنّ المُرادَ بهِم شيعَةٌ من شِيَعِ النصرانيةِ، (٦٣) غيرَ أنّ القرآنَ قد نصَّ نصًّا صريحاً على أنّ الحُنفاءَ لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وإنّما كانوا ينتمونَ في عقيدتِهم إلى إبراهيم: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٤)

كان أكثرُ الحنفاءِ رحّالةً يجوبونَ البُلدانَ بحثاً عن العِلْمِ وهروبًا منَ الواقعِ الوثنيِّ، فتعلَّموا القراءةَ والكتابةَ وصاروا أهلَ علمٍ وحِكمةٍ، وأحدُ الأمثلةِ على الحُنفاءِ هو قِسُّ بنُ ساعدَةَ الإياديُّ، الذي كانَ منَ الحُكماءِ المعمِّرينَ والمُتَّبعينَ للحنيفيّةِ وكانَ له خُطُبٌ يعظُ فيها الناسَ في سوقِ عُكاظٍ في مكَّةَ، (٦٥) وأمّا زيدُ بنُ عَمْرو بنُ عبدِ العُزّى فهو من قريشٍ من بني عَديٍّ، لم تعجبْهُ عبادةُ قومِه، فانتقدَها وسخَّفَها ولم يدخُلْ في يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ، وفارقَ دينَ قومِه ، فاعتزلَ الأوثانَ، وامتنَعَ عن أكلِ ما ذُبِحَ للأصنامِ وغيرِها من أفعالِ الوثنِيّينَ. (٦٦)

قَبِيلَةُ قُرَيْشٍ

وَمِنْ أَشْهَرِ القَبَائِلِ فِي مَكَّةَ كَانَتْ قَبِيلَةَ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ تَتَكَوَّنُ مِنَ العَوَائِلِ مِنْ ذُرِّيَّةِ النَّبِيِّ إِسْمَاعِيلَ الَّتِي تَجَمَّعَتْ وَسَكَنَتْ حَوْلَ الكَعْبَةِ، وكانَ أشهرَ فروعِ قريش بنو هاشمٍ، وقد تميَّزَ الهاشِميّونَ بالشرفِ والمكانةِ العاليةِ لأنّهم أشرفُ سادةِ مكَّةَ ومن سَدَنةِ الكعبةِ (٦٧)، وكانَ أكثرُ أفرادِها لا يعبدونَ الأصنامَ بلْ على دِينِ "الحنيفيَّةِ"، وكانوا يحجّونَ البيتَ الحرامَ ويعظِّمونَهُ، ويقولونَ: هو بيتُ ربِّنا (٦٨)، ومن أهَمِّ أبناءِ بني هاشمٍ؛ عبدُ المطَّلبِ، وهو أحدُ أبرزِ سادةِ مكةَّ، وكانَ له عِدَّةَ أولادٍ منهم: أبو طالبٍ سيِّدُ مكّةَ في عصرِهِ، والعبّاسُ، وحمزةُ، وعبدُ الله والدُ محمدٍ وأبو لهبٍ (انظر الشكل التالي).



* هناك مصادر تاريخية تروي ان اميّة نفسه لم يكن ابنا صريحا لعبد شمس .
أذ إن عبد شمس بن عبد مناف اخا هاشم بن عبد مناف قد تبنى عبدا له روميا يقال له امية فنسبه عبد شمس الى نفسه .

(راجع كتاب الاستغاثة، لأبي القاسم الكوفي، ج 1، ص 76)

ولادةُ مُحَمَّدٍ بنِ عبدِ اللهِ

في عامِ ٥٧٠-٥٧١ للميلادِ قادَ أَبْرَهَةُ بنُ الأشرمِ حاكمُ اليمنِ حملةً عسكريةً بجيشٍ مع فِيَلَةٍ نحو مكّةَ لهدمِ الكعبةِ لكي يغيِّرَ مسيرَ القوافلِ من مكّةَ إلى اليمنِ، وتزدهرُ بذلكَ تجارةُ اليمنِ، لكِنَّ حمْلتَهُ هذه باءتْ بالفشلِ بعد أنْ أرسلَ اللهُ على جيشهِ طيوراً رَمتْهُمْ بالحجارةِ ودمَّرَتْهم(٦٩)، وقد عُثِر على نقوشٍ تبيِّنُ بعضَ حملاتِ أبرهةَ، آخرُها سنةَ ٥٥٨ م، (٧٠) أمّا حملتُه على مكّةَ، فيُعتَقدُ أنّهُ لم يُؤرّخْها وماتَ بعدَها بقليلٍ (٧١) ولأهميَّةِ هذا الحدَثِ كان العربُ يؤرّخونَ أحداثَهم ومواليدَهُم من هذا العامِ، وأسموهُ عامَ الفيلِ. وفي هذا العامِ كانَ اليهودُ ينتظِرونَ ولادةَ النبيِّ الموعودِ، فراحوا يبحثونَ عنهُ في عوائلِ بنيْ إسرائيلَ اعتقادًا منهمْ أنّهُ سوفَ يأتي منهُم وإليهِم، وأنّه سوفَ يفضِّلُهُم ويقدِّمُهم على بقيَّةِ الناسِ اجتماعيّاً، ماديًّا ومعنويًّا.

استوطنَ اليهودُ منذ القرنِ الثاني الميلادي مدائنَ عِدّةً في شبهِ الجزيرةِ العربيةِ، منها: مدينةُ يثربَ، ودَومَةُ الجَنْدَلِ، وخيْبرُ وغيرُها منَ المناطقِ المجاورةِ بالتدريجِ، وكانَ بعضُهم يبحثُ عن النبيِّ الموعودِ الذي سيأتي في منطقَةِ الجزيرةِ العربيةِ حسْبَ ما أشارتْ إليهِ كتبُهمُ المقدَّسةُ (٧٢)، وما تناقلَتْه الأخبارُ التي توارثوها جيلًا بعد جيلٍ، فتعلّموا اللغَةَ العربيّةَ، وأصبحَتْ لهم صِلاتٌ وثيقةٌ بالقرشِيِّينَ، وكانَ العربُ يحترمونَهم، إذْ كانَ فيهِم علماءٌ أحبارٌ، يرجِعُ إليهِمُ العربُ في مسائلِ التأريخِ، وفي معرفةِ بعضِ تنبُّؤاتِ وما يأتي في مستَقْبَلِ الأيامِ.

أمّا النصارى فلم يتوغَّلوا في قلْبِ الجزيرةِ العربيةِ، بلْ كانوا يسكنونَ على أطرافِها في: الحيْرَةِ، وبلادِ الشامِ، وكانتْ بعضُ القبائلِ على تديُّنٍ بالنصرانيّةِ، دونَ أنْ يلتزِموا بطقوسِها الدينيّةِ إلّا بصورةٍ ضعيفةٍ (انظر شكل ٢).(٧٣)

كانَ أكثرُ العربِ في ذلك الزمانِ أُميِّينَ لا يدرسونَ كتابًا ولا يعرفونَ من الرسُلِ عهْداً ولا يعرفونَ جَنَّةً ولا نارًا ولا بَعْثاً ولا قيامةً إلّا شيئاً ممّا يرويهِ مِمَّنْ كانَ منهُم على دينِ

الحنيفيّةِ، أو ما يسمعونَهُ منْ أهلِ الكتابِ، وهو غيرُ راسخٍ في صدورِهم ولا تعِيْهِ عقولُهم، ولا يعملونَ بِهِ شيئاً في حياتِهم، وكانَ ممّا سَمِعَ العربُ من الأحبارِ وما بلغَهُ عنهُم أنّ هناك نبيًّا سوفَ يظهرُ في الجزيرةِ العربيةِ (٧٤)، وكان اليهودُ إذا نالَهم من العربِ ما يكرهونَ قالوا إنّ نبيّاً مبعوثاً الآنَ قد قَرُبَ زمانُه، سوفَ نتَّبعُه ونكونَ معهُ لكي نقتلَكم قتْلَ عادٍ وإرَم (٧٥)

وكانَ ممَّنْ ولِدَ في مكّةَ في عامِ الفيل(٧٦) في اليومِ السابعِ عشرَ من ربيعٍ الأوَّل(٧٧) طفلٌ لعبدِ الله بنِ عبدِ المطَّلبِ سُمّيَ مُحمَّدٌ، لكنَّه ولِدَ يتيمًا حيثُ تُوفيَ أبوهُ عبدُ اللهِ قبلَ أنْ يُولَدَ(٧٨)، فتكفَّلَ برعايَتِه وتربيتِهِ جَدُّهُ عبدُ المطلبِ، وبعد ولادتهِ قامتْ أمُّه آمنةُ بنتُ وهبٍ بإرضاعِهِ لعدَّةِ أيامٍ، وكانَ من عادةِ أهلِ مكّةَ إذا أتمَّ المولودُ سبعةَ أيامٍ، بحثوا لهُ عنْ مُرضعةٍ ترضعُهُ، وحينما أرادَ عبدُ المطلبِ أنْ يجدَ لمحمدٍ مرضعَةً تطاولَتْ النساءُ وتنازعَتْ لرضاعتِه، كُلُّ واحدَةٍ تريدُ أنْ تحظى بهذا المولودِ، الذي هو منْ أشرفِ البيوتِ في مكّةَ، فاختارَ لهُ عبدُ المطلبِ المرضعَةَ حليمَةَ السَّعديَّةَ (٧٩).

إنّ الحظَّ لم يُحالفْ اليهودَ في إيجادِ المولودِ الذي يبحثونَ عنهُ في بني إسرائيلَ فخشوا أن يكونَ قد ولِدَ في عائلةٍ عربيّةٍ، لذا؛ أرسلوا مَنْ يبحثُ عنهُ في العوائلِ العربيةِ.



شكل(٧): صورة تخيلية لإحدى العوائل المكّيّة وهي تحتفل بمولودها الجديد.

كانَ أشرافُ مكّةَ يرسلونُ أبناءَهم إلى الباديةِ ليترَعرَعوا هناكَ، لأنّهمْ كانوا يعتقدونَ أنّ ذلك يجعلُ أبناءَهم أصحَّ أبدانًا، وأفصحَ ألسنةً، وأصفى فكراً، إلاّ أنّ الطفلَ محمداً كانَ غنيًّا عنْ ذلكَ كُلِّهِ، لأنّه من بنيْ هاشمٍ، الذينَ كانوا أفصحَ العربِ ألسنةً، وأفضلَ عقيدةً من بني سعدٍ، قبيلةِ آمنةٍ، فبقاؤهُ في كنَفِ بنيْ هاشمٍ سيكونُ أفضلَ لهُ، -على الرغمِ منْ ذلكَ - فقد أُرسِلَ الطفلُ محمدٌ إلى قريةِ بنيْ سعدٍ في الطائفِ مع حليمةٍ السعديّةِ ليعيشَ هناكَ في باديَتِهم. (٨٠) قد يبدو أنّ عبدَ المطَّلبِ قد أرسلَ حفيدَهُ لأجلِ أنْ يكونَ أكثرَ فصاحةً، وينشأَ بأجواءَ أكثرَ هدوءً، وأنقى هواءً، ولكن هذا ما أرادَ عبدُ المطلبِ إظهارَهُ للناسِ، وفي الحقيقةِ كانَ إرسالُ هذا الطفلِ إلى الباديةِ هو لدواعٍ أمنيَّةٍ، وهي في الحقيقةِ خُطَّةٌ أمنيّةٌ دبَّرَها عبدُ المطلبِ لحمايةِ الطفلِ محمدٍ من محاولةِ اغتيالٍ ممكِنةٍ، فأرادَ إبعادَه عنْ مَكّةَ وعن عيونِ المراقِبينَ، و-خصوصًا- اليهودَ الذينَ كانوا يبحثونَ عنْ هذا المولودِ الذي يترقَّبونهُ منذ مدّةٍ طويلةٍ، وقد عرفَ اليهودُ أنّ صفاتِ النبيِّ الموعودِ لم تأتِ في طفلٍ منْ بنيْ إسرائيلَ وإنّما كانتْ في عائلةٍ عربيةٍ منْ سُلالةِ النبيِّ إسماعيلَ، فخشوا على دينِهم من ظهورِ دينٍ جديدٍ في المنطقةِ ينافسُهم ويهدّدُ وجودَهم، فخطّطوا لقتْلِه(٨١)، لم يكُنْ فُراقُ آمنةٍ لابنِها سهلًا ويسيراً خاصةً بعد فقدِها زوجَها عبدَاللهِ قبلَ مدَّةٍ ليستْ بالطويلةِ، لكنَّ خطورَةَ الوضعِ أجبرتْها على الموافقَةِ على قرارِ عبدِ المطّلبِ، للحفاظِ على حياةِ محمدٍ.

نشأَ الطفلُ محمدٌ في بنيْ سعدٍ في بيتِ حليمةٍ السعديَّةِ، وكانَ حضورُهُ في بني سعدٍ مصدرًا للبركَةِ والخيرِ عليهم، إذ زالَ عنهم القحْطُ والجدْبُ، وسَمِنَتْ أغنامُهم، ونعِمَتْ هي وأبناؤها بحياةٍ راضيةٍ هادئةٍ بعد حياةِ الفقرِ والعَوزِ(٨٢)، عادَ محمدٌ إلى أمِّهِ في الخامسةِ منَ العمُرِ، لكنَّ الفرحةَ بلقاءِ الأمِّ والصدرِ الحنونِ لم تدُمْ طويلًا، إذْ فقَدَها في السادسةِ من العمُرِ، لقد شاءتْ الإرادةُ الإلهيَّةُ أنْ يفقدَ محمدٌ أبويْهِ وهو لا يزالُ طفلًا صغيرا(٧٨)، فتكفَّلُه جدُّهُ عبدُ المطَّلبِ، حيثُ أصبحَ بمكانَةِ الوالدِ الذي فقَدَهُ، كانَ جدُّه يعلّمُه القيَمَ والأخلاقَ، ويرعاهُ خيرَ رِعايةٍ وكانَ لا يأكلُ طعاماً إلّا إذا حضَرَ، وكانَ عارفِاً بأنّه طفلٌ مباركٌ وسيكونُ لهُ أمرٌ عظيمٌ، لمِا رأى من دلائلَ وإشاراتٍ رسَّختْ هذا الاعتقادَ في نفسِ عبْدِ المطّلبِ، وجعَلَتْ لمحمدٍ مكانةً خاصةً عنْدَه(٨٣).

وعندما أصبحَ في الثامنةِ منَ العمرِ تُوفِّيَ جدُّهُ عبدُ المطّلبِ، وقد أوصى عبدُ المطّلبِ قبلَ وفاتِه ابنَهُ أبا طالبٍ، الذي صارَ سَيّدَ مكَّةَ بعد أبيهِ، أنْ يتكفَّلَ هذا الطفلَ ويقومَ بشؤونِهِ ويرعاهُ أتَمَّ الرعايةِ. (٨٤)

حَادِثَةُ الاسْتِسْقَاءِ

إنّنا حينَ ننظرُ إلى حادثةِ الاستسقاءِ، ندركُ مدى إيمانِ بني هاشمٍ بالطفلِ محمدٍ وكيفَ كانوا يعتقدونَ بأنّهُ طفلٌ مُبارَكٌ، ففي يوم انحبسَ المطَرُ عن مكّةَ وأصابَها الجفافُ الشديدُ، وراحوا يتضرَّعونَ لآلهتِهِمْ ليسقطَ المطرُ، فقائلٌ منهم يقولُ: التَجِئوا إلى اللّاتِ والعُزّى، وقائلٌ منهم يقولُ: التجِئوا إلى مُناةَ، فقالَ شيخٌ منهم سديدُ الرأيْ: كيفَ تتضرَّعونَ إلى تلكمُ الآلهةِ وفيكمْ باقيةُ إبراهيمَ وسلالةُ إسماعيلَ، قالوا: كأنَّكَ عَنَيْتَ أبا طالبٍ؟ قالَ: نعمْ، فقاموا بأجمعِهِمْ ودقّوا عليه البابَ، فخرجَ إليهمْ فقالوا لهُ: يا أبا طالبٍ، أقحطَ الوادي وأجدبَ العيالُ وأنتَ فيهم أما تستسقيَ؟ فخرجَ أبو طالبٍ ومعهُ غلامٌ صغيرٌ يُسمَّى مُحَمَّدٌ حَسَنُ الوجهِ وحولَ محمدٍ أطفالٌ صغارٌ، فأخذَهُ أبو طالبٍ وألصَقَ ظهرَهُ بالكعبةِ، وأشارَ الغلامُ بإصبعِهِ إلى السماءِ كالمتضرِّعِ المُلتجِئِ وما في السماءِ قِطعةُ سحابٍ، فأقبلَ السحابُ منْ هنا وهناكَ، والصبيانُ يُحدِّقونَ فزِعينَ في السماءِ، فتجمَّعَتِ الغيومُ وأمطرتْ بغزارةٍ في الوادي وأخصبَ أهلُ الحَضَرِ وأهلُ الباديةِ (٨٥).

إنّ أبا طالبٍ لم يكنْ أكبرَ وِلْدِ عبدِ المطّلبِ سِنًّا ولا أكثرَهُم مالًا، ولكنَّهُ كانَ أكثرَهم حُبًّا لهذا الطفلِ، وأحرصَهم عليهِ، كما إنّه شقيقُ عبدِ اللهِ والدِ محمدٍ لأبِيهِ وأُمِّهِ، فكانَ خيرَ راعٍ لهُ بعدَ جدِّهِ، وأكبرَ ناصرٍ لهُ في مكَّةَ طوالَ حياتِه. (٨٦)

مَرحلَةُ الشَّبابِ

وعندما كَبُرَ محمدٌ سافرَ إلى الشّامِ -لأولّ مرَّةٍ- بصُحبةِ عمِّهِ أبي طالبٍ في رحلةٍ تجاريةٍ، وحينَ وصولِهِم إلى مدينَةِ بُصرَى الشّامِ التقيا بالراهِبِ بُحيرى فتحدَّثَ معَ محمدٍ، وسألُه

بعضَ الأسئلةِ عنْ حالةِ نومِهِ وهيئتِهِ وأمورِهِ، فجعلَ محمدٌ يخبرُهُ فيوافقَ ذلكَ ما عندَ الراهبِ بُحيرى منَ الصفاتِ التي ذُكِرتْ في الكُتبِ الدينيةِ التي عندَه، فعرفَ الراهبُ أنَّه هو النبيُّ الموعودُ، وأنَّه يحملُ صفاتِ خاتَمِ الأنبياءِ، ولمّا فرَغَ منَ الحديثِ معهُ، أقبلَ على عمِّهِ أبي طالبٍ وقالَ لهُ: لِمَنْ هذا الغلامُ؟ فقالَ أبو طالبٍ: إنّهُ ابنيْ، قالَ لهُ بُحيرى: ما هو بابنِكَ، وما ينبغي لهذا الغلامِ أنْ يكونَ أبوهُ حيّاً، قالَ أبو طالبٍ: فإنَّهُ ابنُ أخي، فقالَ الراهبُ: فما فعلَ أبوهُ؟ قالَ أبو طالبٍ: ماتَ وأُمُّهُ حُبْلى بهِ، فقالَ الراهبُ: صدقْتَ فارجِعْ بابنِ أخيكَ إلى بلدِهِ، واحذرْ عليهِ من اليهودِ، فواللهِ لئنْ رأوهُ وعرِفُوا منهُ ما عَرفْتُ ليبغونَهُ شرّاً، فإنّه كائنٌ لابنِ أخيكَ هذا شأنٌ عظيمٌ فارجعْ بهِ إلى بلادهِ، فقامَ أبو طالبٍ بإخراجِه وإرجاعِه إلى مكَّة (٨٧).

حَرْبُ الفِجَارِ

وحينَ بلغَ محمدٌ السنةَ الخامسةَ عشرةَ إلى العشرينَ منْ عمرِهِ، نشبَتْ حربٌ بينَ قبيلةِ قيسٍ من جهةٍ وقبيلةِ قريشٍ وكِنانَةٍ من جهةٍ أُخرى، وكانتْ الحربُ بين هذه القبائلِ تهيْجُ وتهدأُ (٨٨)، واستمَرَّتْ قُرابَةَ أربعِ سنواتٍ، وسُمِّيَتْ بحربِ الفُجّارِ لأنّها دارتْ في "الأشهُرِ الحُرُمِ" التي حرَّمَ العربُ القتالَ فيها حتّى يتسنّى لهم أن يُقيمُوا أسواقَهم ويستغلُّونَها بالكَسْبِ والتجارةِ، لقد شهِدَ محمدٌ حربَ الفجّارِ لكنّهُ لم يُشاركْ فيها ولم ينتهِكْ حُرمَةَ الأشهرِ الحُرُم(٨٩)، وقد عُرِفَ عن أبي طالبٍ أنّه مَنَعَ منْ أنْ يكونَ أحدٌ من بني هاشمٍ في هذهِ الحربِ، إذْ أخرجَ الزبيرَ بنَ عبدِ المطّلبِ منها، وقالَ عنها: هذا ظلْمٌ وعدوانٌ وقطيعةُ رَحِمٍ واستحلالٌ للشهرِ الحرامِ، ولا أحضرُها ولا أحدٌ منْ أهلي. (٨٢)

حِلْفُ الفُضُولِ

وبعدما انصرفَتْ قريشٌ منْ حربِ الفجّارِ عامَ ٥٨٩ بعد الميلادِ ، دعا الزبيرُ بنُ عبدِ المطلبِ إلى "حِلْفِ الفُضولِ" وعقدَ اجتماعاً في دارِ عبدِ الله بنِ جدعانَ، فغمسوا أيديَهُمْ في

ماءِ زَمْزمَ[1]، وتحالفوا وتعاقدوا على نصرةِ المظلومِ والتأسِّيْ بالمعاشِ والنهيِ عنِ المُنكرِ، والمتحالفونَ على ذلك همْ: بنو هاشمٍ بنِ عبدِ مُنافٍ، وبنو المطَّلِبِ بن عبدِ منافٍ، وبنو أسدٍ بن عبد العُزّى، وبنو زهرةٍ بنِ كِلابٍ، وبنو تَيْمٍ بنِ مُرَّةَ (٨٩)، وقد حضرَ هذا الحِلفَ محمدٌ بنُ عبدِ اللهِ، وكانَ حينَها في العشرينَ منَ العُمرِ، ورُويَ عنهُ أنّه قالَ فيهِ: لقد شهدْتُ مع عمومتي حِلْفاً في دارِ عبدِ الله بنِ جدعانَ، ما أحبُّ أنَّ لي بهِ حُمْرَ النَّعَم[2]، ولو دَعَيتُ بهِ إلى الإسلامِ لأُجِبْتُ، ويُعتبرُ حِلفُ الفضولِ أشرفَ حِلفٍ عند العربِ، إذ إنّه يتَّفِقُ مع مبادئِ الإسلامِ وشرائعِه، وينسجمُ مع الفطرةِ السليمةِ والعقلِ القويم(٩١).

زواجُ مُحَمَّدٍ مِنْ خديجةْ

بدأ محمدٌ العملَ بالتجارةِ وتعرَّفَ على السيدةِ خديجةَ، التي كانتْ تعملُ بالتجارةِ وتُسيّرُ القوافلَ التجاريةَ إلى الشّامِ، تُعتبَرُ خديجةُ منْ أشرفِ نساءِ قريشٍ وأكثرِهنَّ مالًا، وأحسنِهنّ جمالًا، وكانتْ تُدعى بسيّدةِ قريشٍ(٩٢)، حَثَّ أبو طالبٍ محمدًا بنَ عبدِ اللهِ على المضاربةِ والإتِّجارِ بأموالِها، فسافرَ إلى الشامِ مرَّةً أخرى للتجارةِ وكان في الخامسةِ والعشرينَ من عُمُره(٩٣)، وسمِعَتْ السيدةُ خديجةُ بأمانةِ محمدٍ، وإخلاصِه في العملِ، وأخلاقِه العاليةِ، فأبْدَتْ رغبَتَها في الزواجِ منه(٩٤)، فذهبَ أبو طالبٍ ونَفَرٌ من قريشٍ إلى وليّها لخِطبَتِها، ووليُّها كانَ عمُّها عَمْرو بنُ أسدٍ؛ لأنّ أباها كانَ قد قُتلَ قبلَ ذلكَ في حربِ الفجّارِ(٩٥)، قالَ أبو طالبٍ حينما حضَرَ لخِطبةِ خديجةَ: "الحمدُ لربِّ هذا البيتِ الذي جعلَنا من زَرْعِ إبراهيمَ وذريّةِ إسماعيلَ، وأنزلَنا حَرَمًا آمِناً، وجعلَنا الحُكّامَ على الناسِ، وباركَ لنا في بلدِنا الذي نحنُ فيهِ، ثمَّ إنّ ابنَ أخي هذا -يعني محمدًا- ممَّنْ لا يُوزَنُ برجلٍ من قريشٍ إلا رَجحَ بهِ، ولا يُقاسُ بهِ رجلٌ إلّا عَظُمَ عنهُ، ولا عِدْلَ لهُ في الخلْقِ، وإنْ كانَ مُقِلًّا في المالِ، فإنّ المالَ رزقٌ حائلٌ[3]، وظِلٌ زائلٌ، ولهُ في خديجةَ رغبةٌ، وقد جئناكَ لنخطِبَها إليكَ، برضاها وأمرِها،

---

١ ماء من بئر زمزم هو بئر ماء قديم في الحرم المكي بمكة المكرمة، يعود تاريخه إلى عهد النبي إبراهيم وابنه إسماعيل.

٢ حمر النعم: هي كرائم الإبل، يضرب بها المثل في الرغائب والنفاس.

٣ الرزق الحائل: هو الرزق المتغيّر الذي يأتي ويروح.

والمهْرُ عليَّ في مالي الذي سألتُموهُ عاجلُهُ وآجِلُهُ ، ولهُ وربِّ هذا البيتِ حظٌّ عظيمٌ، ودِينٌ شائعٌ، ورأيٌ كاملٌ." (٩٦)

حَيَاةُ مُحَمَّدٍ مَعَ خَدِيجَةَ

تزوجَتْ خديجةُ في الثامنَةِ والعشرينَ من العُمُر(٩٧)، وهي خيرُ مثالٍ للمرأةِ الحُرَّةِ الكريمةِ العاقلةِ، فلا تغرُّها زَبارِجُ الدنيا وبهارجُها، ولا يهُمُّها المالُ والشهرةُ، لذلكَ رفضَتْ الزواجَ منْ عُظماءِ قريشٍ و أغنيائها الذينَ كانوا يرغبونَ بالزواجِ منها، وعرضَتْ نفسَها على رجلٍ فقيرٍ لا مالَ لهُ، ناظرَةً فقطْ إلى أخلاقِه الساميَةِ، وسجاياهُ الكريمِةِ، وصفاتِهِ الفاضلةِ التّي لا نظيرَ لها في شبابِ قريشٍ، (٩٨) ولما تزوّجَها محمدٌ غَضِبَ عليها نساءُ قريشٍ وهجَرْنَها، وقُلْنَ لها: خطبَكِ أشرافُ قريشٍ وأُمراؤها فلمْ تتزوّجي بأحدٍ منهُم، وتزوجْتِ محمدًا، يتيمَ أبي طالبٍ، فقيرًا لا مالَ لهُ. (٩٩)

لم تكنْ خديجةُ الوحيدَةَ التي أُعجِبتْ بأخلاقِ محمدٍ وصفاتِه الساميةِ، بلْ كلُّ مَنْ في مَكّةَ يعرفُ صِدقَه وأمانتَه وسموَّ منزلَتِه ورجاحةَ عقلِهِ وحكمَتِه، لذا؛ صارَ مضربَ الأمثالِ في الأخلاقِ الساميةِ في ذلكَ المجتمعِ الذي غرِقَ في الجهالةِ والظلْمِ. (١٠٠)

هيّأتْ خديجةُ لزوجِها كلَّ أسبابِ الراحةِ، وشَعرَ محمدٌ بالسعادةِ والراحَةِ معها؛ لهُ زوجةٌ صالحةٌ، ولهُ بيتٌ يعيشُ فيه ومالٌ يكفيْهما، ثمَّ إنّه رجلٌ قانِعٌ لا يميلُ إلى مَتاعِ الدنيا، ولا يرغبُ في النعيمِ، لولا حادثٌ كدَّرَ صَفْوَهُ، وأثَّرَ فيهِ كثيرًا كما أثَّرَ في خديجةَ أيضًا، هو وفاةُ ابنِهما البِكرِ القاسمِ، ثمَّ وفاةُ ابنِهما الآخرِ عبدِ اللهِ، وقد كانا أوّلا طِفلَينِ رُزِقُهما النبيُّ من خديجةَ، ولِما نعرفُه من أهميّةِ الولدِ عندَ العربِ، ندركُ مبلغَ حزنِ محمدٍ وخديجةَ في الحادثَينِ، ومِقدارَ تأثُّرِهما بهما. (١٠١)

انصرفَ محمدٌ بعد زواجِه إلى التفكيرِ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وفي الخالقِ وفي أحوالِ قومِه، لقد تغلَّبَ هذا التفكيرُ عليه ودفعَه إلى اعتزالِ الناسِ و الابتعادِ عنهم خارجَ مكّةَ، ليكونَ في خُلوتِهِ هذه بعيدًا عن المزعجاتِ والمضايقاتِ، منصرفاً إلى التفكيرِ انصرافًا

تامّاً، وصارتْ هذه الخلوةُ أحبَّ شيءٍ إليهِ، فكانَ يَتَحنَّثُ[1] في الغارِ كما كانَ يفعلُ جدُّهُ عبدُ المطلبِ من قبلُ(١٠٢)، لقد كانَ محمدٌ يشعرُ قبلَ نبوّتِه أنّ عليهِ رسالَةً وواجبًا تجاهَ قومِه، وأنّ لهُ رأياً يختلفُ عن رأيِ قومِه في كثيرٍ من الأمورِ، وكان كلّما تقدّمَ في السنِّ ازدادَ شعورُه بذلكَ، وازدادَ يقيناً برسالتِه هذه وبوجوبِ هدايَةِ قومِه وإرشادِهم، وهذا الشعورُ هو الذي حمَلَهُ على التحَنُّثِ و الانزواءِ عن الناسِ والابتعادِ عن عبادةِ الأصنامِ وعَدَمِ مشاركةِ قومِه في احتفالاتِهم بأعيادِهم، لِما لها منْ علاقةٍ بالوثنيَّة. (١٠٣)

ولادةُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ

يومَ الثالثِ عشرَ منْ رجبٍ قبلَ الهجرةِ بثلاثٍ وعشرينَ سنةً ولِدَ طفلٌ لأبي طالبٍ عمِّ محمدٍ بنِ عبدِ اللهِ في جَوفِ الكعبةِ أسماهُ عليًّا، وكانتْ ولادتُه أمراً عجيباً حيثُ لم يسبقْ لأحدٍ أنْ ولِدَ في جوفِ الكعبَةِ، وهو أشرفُ مكانٍ في مكّةَ، ففرحَ محمدٌ بولادةِ هذا المولودِ، وكانَ يتفاءلُ بهذهِ السنةِ ويعتبرُها سنةَ خيرٍ وبركةٍ، (١٠٤) وبعدَ مدَّةٍ قالَ محمدٌ لعمِّهِ أبي طالبٍ: إنّي أحبُّ أنْ تدفعَ إليَّ بعضَ ولدِكَ، يُعينُني على أمري ويكفيَني، وأشكرُ لكَ بلاءَكَ عندي، فقالَ له أبو طالبٍ: خذْ أيَّهُمْ شئْتَ، فأخذَ عليّاً، فانتقلَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ وهو طفلٌ صغيرٌ إلى كفيلِه محمدٍ، فتربّى في حِجْرِهِ ولم يفارِقْهُ، وكانتْ فاطمةُ بنتُ أسدٍ زوجُ أبي طالبٍ، كالأمِّ لمحمدٍ، وكذلكَ كانتْ خديجةُ بنتُ خُويلدٍ كالأمِّ لعليٍّ، فنشأ عليٌّ في بيتِ محمدٍ، يرعاهُ ويُربّيهِ بأخلاقِه الساميةِ ويقومُ بجميعِ شؤونِه، فحازَ بذلكَ من الشرفِ ما لمْ يحزْهُ أحدٌ غيرُهُ، إذْ نشأ يستلْهمُ من معلِّمهِ الأولِّ معالمَ الأخلاقِ، ومراتبَ الصفاتِ الروحيّةِ الفكريَّةِ. (١٠٥)

---

١ التحنث: هوترك عبادة الأصنام والأعتكاف والتوجه بالصلاة إلى الله.

تجديدُ بناءِ الكَعْبَةِ

وفي السنةِ الثامنةِ عشرةَ قبلَ الهجرةِ قامتْ قريشٌ بتجديدِ بناءِ الكعبةِ، وهو حَدثٌ لهُ أهميةٌ كبيرةٌ في نفوسِ المكيّينَ، لذلكَ فإنّ قبائلَ مكّةَ جميعَها تشاركُ في البناءِ لتنالَ شرفَ المشاركةِ وتفتخرَ بهِ بين العربِ، ولمّا بلغَ البُنيانُ موضعَ الحجَرِ الأسودِ اختصموا، فكلٌّ قبيلةٍ تريدُ أنْ تنالَ شرفَ رفْعِه ووضعِهِ في موضعِه، وكادَ أنْ يصلَ بهِمُ الأمرُ إلى الإقتتالِ، إذْ جاءَ بنو عبدِ الدّارِ وبنو عَدِيٍّ بإناءٍ فيهِ دمٌ، ثمّ وضعوا أيديَهم فيهِ ومعهم بنو سَهْمٍ وبنو مخزومٍ، وتحالفوا على الموتِ، فسَمُّوا هذا التحالُفَ: «لَعْقَةُ الدمِ»، ثمّ أشارَ عليهمْ أبو أميّةَ بنُ المُغيرةِ، وهو أحدُ أشرافِ قريشٍ، لحلِّ النزاعِ بأنْ يُحكِّموا أوّلَ داخلٍ عليهِم منْ بابِ السَّلامِ، فكانَ محمدٌ أولَ داخلٍ عليهمْ، فلمّا رأوهُ قالوا: هذا الصادقُ الأمينُ، رضيْنا، هذا محمدٌ ولمّا أخبروهُ بالأمرِ، طلبَ ثوباً، فمدَّهُ ثمّ أخذَ الحجَرَ فوضعَهُ عليهِ بيدِه، ثمّ قالَ: لِتَأخذَ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ منَ الثوبِ ثمّ ارفعوهُ جميعاً، ففعلوا، فلمّا حاذوا موضعَهُ، أخذَهُ محمدٌ بيدهِ، فوضعَه مكانَهُ، وبذلكَ رُفِعَ النزاعُ الذي وقعَ بينَهم، ورضيَ القومُ بهذا الحلِّ الحكيمِ.

إنّ ما تقدمَ يدلُّ على أنّ أهلَ مكّةَ كانوا يتعاملونَ بالمنطقِ القبليِّ حتّى في تعاونِهم على بناءِ البيتِ الحرامِ، ووضْعِ الحجرِ الكريمِ مكانَه، وهو أقدسُ مقدّساتِهم، ورمْزُ عزَّتِهم ومجدِهم وكرامتِهم، بلْ وعليه تقومُ حياتُهم، وإنّ تحالُفَ «لعقةُ الدمِ» حينَ الإختصامِ في مَنْ يرفعُ الحجرَ إلى موضعِه، ليُعتَبرُ الذروةَ في هذا الأمرِ، الذي يمجُّهُ الذوقُ، وتنبو عنهُ الفِطْرةُ، ويرفضُه العقلُ السليمُ. (١٠٦)

ُحَمَّدٌ قَبْلَ الإِسْلَامِ

كانَ محمدٌ في شبابِه يخرجُ إلى الصحراءِ ويصعدُ الجبالَ ليتأمّلَ في الخلْقِ ويتفكرَ في حكمةِ الوجودِ، ويعبدَ اللهَ، ويُزكِّيَ نفْسَه على الطريقةِ الحنيفيّةِ حيثُ كان يذهبُ إلى الغارِ في جبلِ حَراءَ على بُعدِ خمسةِ كيلواتٍ منْ مكّةَ في كلِّ عامٍ شهرٌ، يعتكفُ فيهِ ليتعبّدَ بعيداً عنِ الناسِ، فيناجيَ اللهَ -ليلًا ونهاراً- في هذه الخُلوةِ، [١٠٧] ويُفكّرَ في حالةِ قومِه، وفي أوضاعِهم، وفي تقرُّبِهم منَ الأوثانِ، وفي الكونِ والحياةِ ومصيرِ الإنسانِ والموتِ وما بعدَ الموتِ، وفيما شاكَلَ ذلكَ منْ أمورٍ تطوفُ برأسِ المفكِّرِ المتصَبِّرِ في هذه الحياةِ، فتصرفُهُ إلى النظرِ فيها،



شكل(٨): صورة تخيلية لمحمد و هو يتأمل في الصحراء.

وتبعدهُ عن التفكيرِ في التِماسِ ملذّاتِ الحياةِ، التي يقعُ في غرامِها الإنسانُ في هذه السنِّ على المعتادِ، لكنَّ محمَّدًا لم يَهُنْ ولم يضعفْ بلْ ازدادَ في التفكيرِ في حالِ العالمِ كلمّا تقدّمتْ بهِ السنُّ، وما أخبارُ عُزْلتِهِ في الغارِ، وانقطاعِه فيه عن الناسِ، وابتعادِهِ عن قضاءِ وقتِه في مجالسةِ مَنْ في سنِّهِ وقتلِ وقتْهِ بالعبَثِ واللَّهوِ على عادةِ الناسِ في ذلكَ العهدِ وعادةِ كلِّ مجتمعٍ فيه فراغٌ، إلّا دلالةً على هذه الفترةِ التي مرَّ بها محمدٌ، وهي فترةٌ كانَ فيها حائرًا مفكِّرًا يريدُ الوصولَ فيها إلى شيءٍ، مُقنعٍ لهُ مُطَمْئنٍ، يحُلُّ له كلَّ هذه الأسئلَةِ والأفكارِ التي كانتْ قد تراكمتْ في فكرهِ، وتوالتْ عليهِ، وأفضلُ ما تُوصفُ به هذه الفترةُ

القلِقَةُ منَ التفكيرِ والتأمُّلِ التي مرَّ بها محمدٌ، هو الوصفُ البليغُ الموجزُ في سُورةِ الضُّحى: ﴿ووجدَكَ ضالاً فَهدَى﴾

إنّها تتحدّثُ عن ذلكَ القلقِ الشديدِ الذي كانَ قد أصابَ قلبَ الرسولِ قبلَ نزولِ الوحيِ عليه، قلقٌ جعلَهُ يسهرُ اللياليَ، ولا سيَّما في أواخرِها، مفكراً في تلكَ المشكلاتِ، وفي أوضاعِ قومِه وما كانوا عليهِ، إنّها أوضاعٌ لم تعجبْه، وجدَها ضلالًا وجهلًا وحماقةً لا بدَّ من تنبيهِ قومِهِ عليها ومِن دلالتِهم على فسادِها، ولكنْ كيفَ وبأيَّةِ وسيلةٍ، وما طُرقُ الإصلاحِ وأسبابِهِ، والمناهجُ اللازمةُ لرفْعِ مستوى الناسِ من الجهالةِ والضلالةِ إلي الهُدى والصراطِ المستقيمِ؟ (١٠٨)

السنةُ الثالثةُ عشرةَ قبلَ الهجرةِ (٦٠٨ ـ ٦٠٩ م)

المَبْعَثُ النبَويُّ

في السابعِ والعشرينَ من شهرِ رجبٍ بعد عامِ الفيلِ بأربعينَ عامًا، وهي السنةُ الثالثةُ عشرةُ قبلَ الهجرةِ، عندما كانَ محمدٌ في غارِ حَراءَ يتعبَّدُ، تراءى له الملاكُ جبريلُ -لأولِ مرَّةٍ - وكلَّمَهُ، وكانَ قبلَ ذلك يسمعُ الصوتَ ولا يرى الشخصَ، فبشَّرهُ جبريلُ بأنّه نبيٌّ هذه الأمّةِ وأنزلَ عليهِ أُولى آياتِ القرآنِ منْ عندِ الله (١٠٩)، وهي: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ﴿اقرأْ باسمِ ربِّكَ الذي خلقَ ۝ خلقَ الإنسانَ من علقٍ ۝ اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ ۝ الذي علَّمَ بالقلمِ ۝ عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلمْ ۝﴾ (١١٠)



شكل(٩): صورة حاكية لمحمد وهو يصلي في الغار.

هذا أولُ ما نزلَ على قلبِ محمدٍ وفيهِ أمرٌ لهُ أنْ يبتدئَ بقراءةِ اسمِ اللهِ وأنْ يقولَ «بسمِ اللهِ» في بدايةِ قراءتِه لكلِّ سورةٍ؛ اقرأْ باسمِ ربِّكَ الذي خلقَ الخلقَ وقامَ على تدبيرِهم، وخلقَ

الإنسانَ تمثُّناً، وكانتْ بدايةُ خلقهِ من علقَة[1]، التي تلتصقُ بجدارِ الرحِمِ، ثمّ أخذتْ تتطورُ وتتكاملُ حتّى خرجَ الإنسانُ إلي الحياةِ ثمّ ارتقى ليصبحَ رجلًا، فاقرأْ يا محمدُ، فإنّكَ بكرمِ اللهِ وهو أكرمُ الأكرمينَ أفاضَ عليكَ هذا العطاءَ فجعَلكَ قارِئاً، وهذه نِعمةٌ عظيمةٌ حيْثُ هو مَنْ علَّمَ الإنسانَ أنْ يكتبَ بالقلمِ، وبالقلمِ تُدونُ الحضاراتِ والمعلوماتِ والأفكارِ والمكتباتِ ويُنقلُ بالقلمِ ما يعجزُ عن نقلهِ الرواةُ والمحدِّثونَ ويبقى التراثُ الإنسانيُّ محفوظاً من التلفِ، ينتقلُ من جيلٍ إلى جيلٍ، فالإنسانُ لا يعلمُ شيئاً ولكنّ اللهَ خلقَ له السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ التي بها يكتسِبُ العلمَ فأصبحَ بعد جهلهِ عالِما.

تلقَّى النبيُّ محمدٌ كلماتِ ربّهِ بقلبٍ مطمئنٍ دونَ فزعٍ أو خوفٍ، عالمًا أنّ ما يُوحى إليهِ إنّما هو من عند اللهِ، والوحيُ هو كلامُ اللهِ، أُنزِلَ على محمدٍ وهو القرآنُ الذي حفظَهُ محمدٌ عن جبريلَ، فهو كتابُ اللهِ، وكذلكَ اعتقدَ اليهودُ أنّ الوحيَ هو كلامُ يَهْوهْ[2] أُوحيَ إلي أنبيائهِ، فكتُبُهم هي كتبُ يَهْوهْ. (١١١)

أَوَّلُ المُسْلِمِينَ

بعدَها عادَ النبيُّ محمدٌ إلى أهلهِ مستَبشِراً موقِنًا أنّه قد رأى أمراً عظيمًا (١١٢)، ولمّا دخلَ على خديجةَ قالَ: "أرأيْتَكَ[3] الذي كنتُ حدّثْتكَ أنّي رأيتُهُ في المنامِ، فإنّ جبريلَ استعلنَ إليَّ، أرسلَهُ إليَّ ربّي عزَّ وجلَّ "، وأخبرَها بالذي جاءهُ منَ اللهِ مطمئنّاً إلى المهمَّةِ التي أُوكِلتْ إليهِ مسروراً بما أكرمهُ اللهُ بهِ، إذ جعلهُ نبيَّ هذه الأمّة (١١٣)، فآمنتْ هي وعليُّ بنُ أبي طالبٍ بنبوّتهِ وأسلما وكانَ عُمْرُ عليّ عشرَ سنواتٍ أو اثنتي عشرةَ سنةً، وكانا أوَّلا مَنْ آمنَ بهِ منَ الناس. (١١٤)

---

١ العلقة: تدعى في علم الأجنة بالكيسة الأريمية وهي البويضة المخصبة من النطفة والمتكيسة.

٢ يهوه: Jahwe Zebaoth.

٣ أرأيتكِ: أي أخبريني، أو تنبّه و تذكّرْ والكاف لتأكيد المخاطبة.

كان محمدٌ معروفًا بين أهلِهِ وعشيرتِهِ وناسِهِ بالأخلاقِ والاستقامةِ والتديُّنِ على الحنيفية، فالكلُّ يعرفُ توجُّهاتِهِ الدينيةَ، التي كان يُنمّيها ويطورُها بطولِ تحَنُّثِهِ في الغارِ، إلى أنْ توّجَها بعدَ سنينَ طويلةٍ من العبادةِ لربِّه ومناجاتِه، بأنِ اختارَهُ ربُّه ليحملَ دينَه، كما اصطَفى ربُّهُ من قبلِهِ موسى وعيسى لحَملِ رسالاتِ السماءِ، إنّ ما جاءَ بِهِ محمدٌ لهو تحُوُّلٌ كبيرٌ



شكل(١٠): غار حراء، هو الغار الذي كان يختلي فيه محمد ، قبل البعثة ونزول القرآن عليه بواسطة المَلَك جبريل، وغار حراء يقع في شرق مكة المكرمة في أعلى جبل النور، على ارتفاع ٦٣٤ متراً (الصورة مُعَّدلة كومبيوترياً).

بالنسبةِ للبشريةِ، بعد انقطاعِ الوحي لأكثرَ منْ ٥٠٠ عامٍ، فجاءَ بالبُشرى إلى الناسِ، يدعوهم فيها إلى التصديقِ والتسليمِ لربِّهم وهو اللهُ الذي كان القِسْمُ منهم وما زالَ يؤمنُ بهِ ويتقَرّبُ إليه في صلواتِه، كما جاءَ بالإنذارِ للقِسْمِ الآخرِ منَ الناسِ الذينَ كانوا يعبدونَ آلهةً غيرَ اللهِ، فدعاهم جميعاً إلى التسليمِ والإقرارِ بالدين الجديدِ وهو الإسلامُ. (١١٥)

إنّ النبيَّ لم يكنْ حينما بُعِثَ مأموراً بدعوةِ عامةِ الناسِ بَعدُ، فكان يعرضُ هذا الدينَ سِرًّا على الناس في بادئ الأمرِ، فأخذَ الناسُ يُسلِمونَ تِباعاً، وكانَ من أوائلِ الذين أسلموا: زيدُ بنُ حارثةٍ، وخالدٌ بن سعيدٍ بن العاص، وسعدٌ بنُ أبي وقّاص، وعمرو بن عبسةٍ، وعُتبةُ بنُ

غزوانَ، ومصعبٌ بنُ عميرٍ، والأرقمُ بن أبي الأرقمِ، ومِن الأوليِّنَ أيضاً كانَ جعفرَ بن أبي طالبٍ، وبلالًا، وخبابَ بنَ الأرتِّ، والزبيرَ بنَ العوامِ. (١١٦)

وبينما كان عليٌّ بن أبي طالبٍ يمشي في المسجدِ الحرامِ إذا بهِ يشاهدُ رجلًا غريباً مضطجِعاً في ناحيةٍ من نواحي المسجدِ الحرامِ، فسألَهُ مَنِ الرجلُ؟ فقالَ: أبو ذرٍّ من قبيلةِ غِفارٍ، فاستضافَه عليٌّ ثلاثةَ أيامٍ، ثمّ سألهُ أبو ذرٍّ عنِ النبيِّ محمدٍ، فأخذَه عليٌّ إليهِ سِرّاً، إذ أمرهُ أنْ يتبعَهُ دونَ أن يلفِتَ نظرَ أحدٍ إليه، فالتقى بالنبيِّ وأسلمَ، ثم رجعَ إلى أبناءِ قبيلتهِ يدعوهُم إلى الإسلامِ فآمنَ نصفُهم. (١١٧)

بعد زيادةِ عددِ المسلمينَ عرفَ الناسُ في مكّةَ بخبرِ النبيِّ محمدٍ ورسالتِه، والذين آمنوا معه، فأخذَ بعضُ رجالِ قريشٍ يترصّدونَ المسلمينَ، ويتعمَّدونَ إيذاءَهم خاصةً عندما يخرجونَ للصلاةِ بين الجبالِ والوديانِ، فلمّا رأى النبيُّ خطورةَ الوضعِ خشيَ من أذى قريشٍ وكيدِهم، فاختارَ داراً بعيدةً عن أنظارِهم في أطرافِ مكّةَ، وهي دارُ الأرقمِ التي تقعُ على الصَّفا ليجعلَها مركزاً لدعوتِه، ومحلًّا لاجتماعِ أصحابِهِ، وقد كان هذا الأسلوبُ في ذلكَ الوقتِ ضروريًّا من أجلِ الحفاظِ على مستقبلِ الدعوةِ، حتى لا تتعرّضَ لعملٍ مسلَّحٍ يقضي عليها في مهدِها، إذْ لا بدَّ من إيجادِ ثُلَّةٍ منَ المؤمنينَ، ومن مختلَفِ القبائلِ يحملونَ هذه العقيدةَ ويدافعونَ عنها، فكانتْ هذه الدارُ هي مركزَ دعوةِ النبيِّ ومنطلقَ حركتهِ ونشاطاتهِ، وقد استمرّتْ هذه المرحلَةُ ثلاثَ سنواتٍ حتى بلغَ عددُ المسلمينَ أربعينَ رجلاً، وعند ذلك بدأ النبيُّ بإعلانِ دعوتهِ للناس كافةً، ولتبدأ مرحلةٌ جديدةٌ من الدعوةِ، هي أصعبُ وأخطرُ مرحلةٍ في مكّةَ. (١١٨)

بدايةُ إعلانِ الدعوةْ

استمرَّ نزولُ الآياتِ على النبيِّ عن طريقِ الوحيِ الإلهيِّ، وكانَ النبيُّ يخبِرُ الذينَ آمنوا بكلماتِ اللهِ تِباعاً ليتعبّدوا بها، حتّى أنزلَ اللهُ أمرَهُ إلى نبيِّهِ: (وأنذِرْ عشيرَتَكَ الأقرَبين۝) (١١٩)، ليأمرَهُ بدعوةِ العشيرةِ والأقاربِ إلى الإسلامِ، فدعا النبيُّ محمدٌ عليًّا، وأمرَهُ أنْ يصنعَ طعامًا ويدعو لهُ بني عبدِ المطَّلبِ ليكلِّمَهم ويبلِّغَهم ما أمرَهُ اللهُ بِه، فصنعَ عليٌّ صاعًا

منَ الطعامِ، وجعلَ عليهِ رِجْلَ شاةٍ، وملأ عَسًّا من لَبَنٍ، ثمّ دعاهُم وهم يومئذٍ أربعونَ رجلاً، فيهم أعمامُ النبيِّ: أبو طالبٍ وحمزةُ والعبّاسُ وأبو لهبٍ، فأكلوا، قالَ عليٌّ: فأكلَ القومُ،حتّى ما لهم بشيءٍ من حاجةٍ وما أرى إلّا موضعَ أيديهِم وأيْمُ اللهِ الذي نفسيْ بيدهِ وإنْ كانَ الرجلُ الواحدُ منهم ليأكلُ ما قدَّمتُ لجميعِهم، ثمّ قالَ النبيُّ: اسقِ القومَ، فجئتُهم بذلكَ العسِّ، فشربوا منهُ حتّى رَووا منهُ جميعًا وأيْمُ اللهِ أنّهُ كانَ الرجلُ الواحدُ منهمْ ليشربَ مثلَه، فلمّا أرادَ النبيُّ محمدٌ أنْ يكلِّمَهم، بادرَهُ عمُّهُ أبو لهبٍ فقالَ للنبيِّ: هؤلاءِ همْ عمومتُكَ وبنو عمِّكَ فتكلَّمْ ودَعْ الصَّبأةَ! واعلمْ أنّه ليس لقومِكَ بالعربِ قاطبةً طاقةٌ! وأنا أحقُّ مَنْ أخذَكَ! فحسْبُكَ بنو أبيكَ، وإنْ أقمَتَ على ما أنتَ عليهِ فهو أيسرُ عليهم من أنْ يثبَ عليكَ بطونُ قريشٍ وتمدَّهمُ العربُ. (١٢٠)

وأنهى كلامَه بلَومِ النبيِّ لومًا شديدًا، وأضافَ أبو لهبٍ: فما رأيتُ أحداً جاءَ على بني أبيهِ بشَرٍّ ممّا جئتُم بهِ! وسكتَ النبيُّ وقرَّرَ أنْ يُفوِّتَ الفرصةَ لتجنُّبِ الصدامِ مع عمِّهِ، ولم يدخلْ في جَدَلٍ مع أبي لهبٍ، ولم يتكلَّمْ في ذلك المجلسِ، وآثرَ تأجيلَ الكلامِ إلى موعدٍ لاحقٍ يبادرُ هو فيهِ بالكلامِ، فتفرّقَ القومُ ولم يكلِّمْهمْ النبيُّ محمدٌ، فأمرَ النبيُّ محمدٌ عليًّا في اليومِ الثانيْ أنْ يفعلَ كما فعلَ آنِفاً، وبعد أنْ أكلوا وشرِبوا قالَ لهم النبيُّ محمدٌ: يا بنيْ عبدِ المطّلبِ إنّي لكم نذيرٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وإنّي أتيتُكم بما لم يأتِ بهِ أحدٌ منَ العربِ، فإنْ تطيعوني ترشُدوا وتُفلِحوا وتنجحوا، إنّ هذه مائدةً أمرَني اللهُ بِها، فصنعتُها لكم كما صنعَ عيسى بنُ مريمَ لقومِه، ومَنْ كفرَ بعد ذلكَ منْكم فإنّ اللهَ يعذِّبُه عذابًا شديدًا لا يعذِّبُه أحدًا منَ العالمينَ، واتَّقوا اللهَ واسمعوا ما أقولُ لكم، واعلموا يا بنيْ عبدِ المطّلبِ أنّ اللهَ لم يبعَثْ رسولًا إلّا جعلَ لهُ أخًا ووزيرًا ووصيًّا ووارثًا من أهلِه، وقد جعلَ ليْ وزيرًا كما جعلَ للأنبياءِ من قبْلي، وإنّ اللهَ قد أرسلَني إلى الناسِ كافةً وأنزلَ عَليَّ: وأنذرْ عشيرتَكَ الأقربينَ ورهطَكَ المخلِصينَ، وقدْ واللهِ أنبأني بهِ وسمّاهُ ليْ، ولكنْ أدعوكُم وأنصحُ لكمْ وأعرِضُ عليكم، لئلّا يكونَ لكم الحُجَّةُ فيما بعدُ، وأنتمْ عشيرَتي وخالصُ رَهْطي، فأيُّكم يسبقُ إليها على أنْ يُؤاخيَني في اللهِ، ويؤازِرَني على هذا الأمرِ على أنْ يكونَ أخيْ ووصيِّي وخليفَتي فيكم؟ فأحجمَ القومُ عنْها جميعاً، وقالَ عليٌّ: أنا يا نبيَّ اللهِ أكونُ وزيرَكَ عليهِ، فأخذَ برقبَةِ عليٍّ ثمَّ قالَ: إنّ هذا أخي ووصيِّي وخليفَتي فيكم، فاسمعوا لهُ وأطيعوا، فقامَ القومُ يضحكونَ ويقولونَ لأبي

طالبٍ: قد أمرَكَ أنْ تسمعَ لابنِكَ وتطيعَ، فقالَ أبو لهبٍ لهمْ: لَقديماً سَحَرَكُم صاحبُكم! لمّا رأى أبو طالبٍ موقفَ أبي لهبٍ، وكيفَ كان يحاولُ إفشالَ الإجتماعِ وإنهائهِ بلا نتيجةٍ، توجَّهَ إليه قائلاً: يا عورةً، واللهِ لننصُرنَّه ثم لنعيننَّهُ، ثم التفتَ إلى الرسولِ قائلًا له: يا بنَ أخي إذا أردتَ أنْ تدعو إلى ربِّكَ فأعلِمْنا حتّى نخرجَ معكَ بالسلاحِ.

إنّ عليًّا وإنْ كانَ ذلك الوقتَ صغيرًا في السنِّ إلّا أنّه كان في الواقعِ كبيرًا في فضائلِه ومَلَكاتِه، كبيرًا في روحهِ ونفسهِ، كبيراً في آمالِه وأهدافِه، -والدليلُ على ذلك- أنّه كانَ أوّلَ من فهِمَ مقاصِدَ الرسولِ ودعوتَهُ، وأوّلَ مَنِ استجابَ إليه دون كلِّ مَنْ حضرَ من رجالِ ذلك الإجتماعِ سوى أبيهِ أبي طالبٍ، ليُسانِدَه في هذا الأمرِ ويُعينَه عليه، فخرجَ رسولُ اللهِ من ذلك الإجتماعِ بوزيرٍ لهُ ووصيٍّ، وهو عليُّ بنُ أبي طالبٍ إضافَةً إلى تعهُّدٍ أكيدٍ بالعونِ والنصرةِ من شيخِ الأبطحِ وسيدِ مكّةَ عمِّهِ أبي طالبٍ. (١٢١)

مُعَانَاةُ النَّبِيِّ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ

بعد أنْ أنذرَ الرسولُ عشيرتَه الأقربينَ وانتشرَ خبرُ نبوّتِه في مَكّةَ، بدأتْ قريشٌ تعرفُ خطورةَ هذه القضيّةِ عليها وتدركُ أبعادَها، فراحتْ تتعرّضُ لشخصِ النبيِّ بالاستهزاءِ والسخريةِ وأنواعِ التُهمِ، فأنزلَ اللهُ عليهِ قرآنًا يأمرُهُ بإظهارِ الدعوةِ وذلك حينَ نزلَ قولُ اللهِ: ﴿ فاصْدَعْ[١] بِما تُؤمَرُ وأعرضْ عن المشركينَ ۝ إنّا كفيناكَ المستهزئينَ۝ ﴾ (١٢٢)، فامتثلَ النبيُّ لأمرِ اللهِ، وأظهرَ دعوتَهُ وطلبَ من الناسِ جميعًا أنْ يُسلِموا لربِّهم، فكانَ ممَّنْ أسلمَ أبو بكرٍ بنُ أبي قُحافةٍ وكانَ منَ الشخصياتِ المهمَّةِ في مَكّةَ. (١٢٣)

وكانَ النبيُّ في إحدى دعواتِه للناسِ يقفُ على حجرٍ، ويقولُ: يا معشرَ قريشٍ، يا معشَرَ العربِ، أدعوكُم إلى شهادةِ أنّ لا إلهَ إلّا اللهَ، وأنّي رسولُ الله، وآمرُكم بخلْعِ الأصنامِ والأندادِ الذين تدعونَهم من دونِ اللهِ، فأجيبونِي تملِكوا بها العربَ، وتدينُ لكم العجمُ وتكونونَ ملوكاً

---

١ فاصدع بما تؤمر: أي افعل ما تؤمر.

في الجنَّةِ، فاستهزَأوا بهِ وقالوا جُنَّ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ ولم يجسُروا على قتْلِهِ خشيةً من عَمِّه أبي طالبٍ. (١٢٤)

"ثم خطَّطوا أن يسألوهُ عمّا يدَّعي ويتحاجونَ معه، فاجتمعَ بعد غروبِ الشمسِ عند ظَهْرِ الكعبةِ عتبةُ بنُ ربيعةَ، وشيبةُ بنُ ربيعةَ ، وأبو سفيانَ بنُ حربٍ، والنضْرُ بنُ الحارثِ، والوليدُ بنُ المغيرةِ وأبو جهلٍ بنُ هشامٍ، والعاصُ بنُ وائلٍ، وأميّةُ بنُ خلفٍ وغيرُهم من زعاماتِ قريشٍ، ثم قالَ بعضُهم لبعضٍ: ابعثوا إلى محمدٍ فكلِّموهُ وخاصِموهُ حتّى تُقدّموا العُذرَ فيهِ، فلا تُلامونَ على ما يكونُ بينَكم وبينَهُ، فبعثوا إليهِ: إنّ أشرافَ قومِكَ قد اجتمعوا لكَ ليُكلّموكَ، فأْتِهِمْ، فجاءهُم رسولُ اللهِ سريعاً، وهو يظنُّ أنْ قد بدا لهُم فيما كلَّمهُم فيهِ رأيٌ جديدٌ، وكانَ عليهِم حريصًا يحبُّ رُشْدَهم ويَعُزُّ عليهِ عَنَتُهُمْ، حتّى جلسَ إليهم، فقالوا له: يا محمدُ، إنّا قد بعثْنا إليكَ لنُكلّمَكَ، وإنّا واللهِ ما نعلمُ رجلًا من العربِ أدخَلَ على قومِه مِثْلَ ما أدخلتَ على قومِك، لقد شتَمتَ الآباءَ، وعِبْتَ الدِّينَ، وشتمتَ الآلهةَ، وسفَّهَتْ الأحلامَ، وفرَّقْتَ الجماعةَ، فما بقيَ أمرٌ قبيحٌ إلّا قد جِئْتَهُ فيما بينَنا وبينَكَ، فإنْ كنتَ إنّما جئتَ بهذا الحديثِ تطلبُ بهِ مالًا جمعْنا لك من أموالِنا حتّى تكونَ أكثرَنا مالًا، وإنْ كنتَ إنمَّا تطلبُ به الشرفَ فينا فنحنُ نُسَوِّدُكَ علينا، وإنْ كنتَ تريدُ بهِ مُلْكاً ملّكناكَ علينا، وإنْ كانَ هذا الذي يأتيْكَ رأْياً تراهُ قد غَلبَ عليكَ - وكانوا يُسمّونَ التابَعَ من الجِنّ رأْياً - فربّما كانَ ذلك. بذلْنا لكَ أموالنَا في طلبِ الطِبِّ لكَ حتّى نُبرئكَ منهُ، فقالَ لهم رسولُ الله: ما بي ما تقولونَ، ما جئتُ بما جئتُكم بهِ أطلبُ أموالَكم، ولا الشرَفَ فيكم، ولا المُلْكَ عليكم، ولكنَّ اللهَ بعثَني إليكمْ رسولًا، وأنزلَ عليَّ كتاباً، وأمرني أنْ أكونَ لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغْتُكم رسالاتِ ربِّي ونصحتُ لكم، فإنْ تَقبَلوا منِّي ما جئتُكم بهِ فهو حظُّكم في الدنيا والآخرةِ، وإنْ تردُّوهُ عليَّ أصبِرْ لأمرِ اللهِ، حتّى يحكمَ اللهُ بيني وبينَكم، قالوا: يا محمدُ، فإنْ كنتَ غيرَ قابلٍ منّا شيئًا ممّا عرضناهُ عليك فإنّك قد علمتَ أنّه ليس من الناسِ أحدٌ أضيقَ بلداً، ولا أقلَّ ماءً، ولا أشدَّ عيشاً منّا، فاسألْ لنا ربَّكَ الذي بعثَك بما بعثكَ به فليُسيِّرْ عنّا هذه الجبالَ التي قد ضيَّقَتْ علينا، وليبسطْ لنا بلادَنا، وليفجِّرْ لنا فيها أنهارًا كأنهارِ الشّامِ والعراقِ، وليبعثْ لنا مَنْ مضى من آبائِنا، وليكنْ فيمَنْ يبعثُ لنا منهم قصيٌّ بنُ كلابٍ، فإنّه كانَ شيخَ

صِدقٍ، فنَسألَهُم عمّا تقولُ: أحقٌّ هو أمْ باطلٌ فإنْ صدَّقوكَ وصنعْتَ ما سألناكَ صدّقناكَ، وعرفْنا بهِ منزلتَك منَ اللهِ، وأنّه بعثَكَ رسولًا كما تقولُ، فقالَ لهم: ما بهذا بُعِثْتُ إليكم، قالوا: إذاً اسألْ ربّكَ أنْ يبعثَ معكَ ملَكاً يُصدّقُكَ بما تقولُ، ويُراجعُنا عنكَ، وسَلْهُ فليجعلْ لك جِناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهبٍ وفضةٍ يغنيكَ بها عمّا نراكَ تبتغي، فإنّكَ تقومُ بالأسواقِ كما نقومُ وتلتمسُ المعاشَ كما نلتمِسُه، حتّى نعرفَ فضلَكَ ومنزلتَك من ربّكَ إنْ كنتَ رسولًا كما تزعمُ، فقالَ لهم رسولُ اللهِ: ما أنا بفاعلٍ، وما أنا بالذي يسألُ ربَّه هذا، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا، ولكنَّ اللهَ بعثني بشيراً ونذيراً، قالوا: فأسقِطْ السماءَ علينا كِسَفا[١] كما زعمتَ أنّ ربّكَ إنْ شاءَ فعلَ، فإنّا لا نُؤمنُ لك إلّا أنْ تفعلَ ذلك، فقالَ رسولُ اللهِ: ذلكَ إلى اللهِ، إنْ شاءَ أنْ يفعلَهُ بكم فعلَ، قالوا: يا محمدُ، أفما علِمَ ربُّك أنّا سنجلسُ معكَ ونسألُكَ عمّا سألناكَ عنهُ، ونطلبُ منك ما نطلبُ، فيتقدّمُ إليكَ فيُعلِّمُكَ ما تراجعْنا به، ويخبرُكَ ما هو صانعٌ في ذلك بنا، إذا لم نقبلْ منكَ ما جئتَنا به؟! وقال أحدُهم: لن نُؤمنَ لكَ حتّى تأتيَنا باللهِ والملائكَةِ قبيلًا، فلمّا قالوا ذلك لرسولِ اللهِ قامَ عنهم، وقامَ معهُ عبدُ الله بنُ أبي أميّةَ بنُ المغيرةِ المخزوميّ- وهو ابنُ عمَّتهِ فقالَ له: يا محمدُ، عَرَضَ عليكَ قومُك ما عرضوا فلم تقبلْه منهم، ثمّ سألوكَ لأنفسِهم أموراً ليعرفوا بها منزلتَك منَ اللهِ- كما تقولُ- ويُصدِّقونكَ ويتّبعونكَ فلم تفعلْ، ثم سألوكَ أنْ تأخذَ لنفسِكَ ما يعرفونَ به فضلَك عليهم ومنزلتَكَ من اللهِ فلم تفعلْ، ثم سألوكَ أنْ تعجّلَ لهم بعضَ ما تُخوّفَهم به منَ العذابِ فلم تفعلْ فوالله لا أُؤمنُ بكَ أبداً حتّى تتّخذَ إلى السماءِ سُلَّماً، ثمّ ترقى فيهِ وأنا أنظرُ إليك حتّى تأتيَها، ثمّ تأتي معك بصكٍّ معه أربعةٌ من الملائكةِ يشهدونَ لك أنّك كما تقولُ، ثمّ انصرفَ عن رسولِ اللهِ، وانصرفَ رسولُ الله إلى أهلِهِ حزيناً أسِفاً، لما رآهُ من قومِهِ حينَ دعوهُ." (١٢٥)

---

١ كِسفا: أي قطعاً.

لم يؤمنوا بما جاءَ به النبيُّ محمدٌ لأنّهم أرادوا المعجزاتِ التي طلبوها منهُ، ليؤمنوا بهِ ويُصدِّقونَهُ وأنكروا عليهِ كذلك، بأنّ اللهَ قد بعثَ إليهم بشرًا مثلَهم يدعوهم دونَ قُوى خارقةٍ أو ملائكةٍ ترافقُهُ، فما كان من النبيِّ إلّا أنْ يقولَ لهم ليس في يدي ما تطلبونَهُ، وما أنا إلا برسولٍ ناقلٍ لرسالةِ السماءِ. (١٢٦)

كانَ عقبةُ بن أبي معيطٍ أحدَ وجهاءِ مكّةَ لا يدَّخرُ وسعًا في إيذاءِ النبيِّ فلمّا كان في نَفَرٍ من



شكل(١١): صورة تخيلية للمشركين وهم يراقبون
محمد في الصلاة.

قريشٍ يشاهدونَ رسولَ اللهِ وهو يُصلّي، فأطالَ السجودَ، فقالَ أبو جهلٍ وكانَ سيّدًا من ساداتِ قريشٍ: أيُّكم يأتي جَزوراً[1] لبني فلانٍ قد نُحِرَتْ بأسفلِ مَكّةَ، فيجيءُ بِفَرْثِها[2] فيلقيهِ على محمدٍ، فانطلقَ عُقبةُ بنُ أبي مُعيطٍ، فأتى بفرثِها، فألقاهُ بين كتِفي رسولِ اللهِ وهو ساجدٌ، فنهضَ رسولُ اللهِ من صلاتِه كسيرَ الحالِ، وأخبرَ عَمَّهُ أبا طالبٍ بما جرى لهُ، فغضِبَ أبو طالبٍ وتوشَّحَ بسيفهِ وجمعَ معهُ جماعَةً من بني هاشِمٍ، وأقبلَ على زعماءِ قريشٍ وكانوا جالسينَ حولَ الكعبةِ، فحينما اقتربَ منهم أدركوا في نظراتهِ الشرَّ فأرادوا

---

١ الجزور: ما يُذبح من الحيوانات من الغنم والإبل.

٢ الفرث: بقية الطعام الموجود في كرش الحيوان المذبوح.

الرحيلَ فصاحَ بهم مهدِّداً: واللهِ لئنْ قامَ رجلٌ لجلَّلتُهُ بسيفي! فقعدوا حتّى دنا إليهم، ثمّ أمرَ غلامَه فألقى الفرثَ على وجوهِهم ردًّا على ما فعلوهُ بمحمدٍ. (١٢٧)

لم يسلمْ النبيُّ من شرِّ ابنِ أبي معيطٍ وصحبهِ حتّى لو كانَ في بيتهِ، فقد كانوا يُلقونَ برَوثِ وفرثِ الحيواناتِ المذبوحةِ على دارِهِ، فكانَ النبيُّ يصِفُهم بأنّهم شرُّ الجيرانِ ويصبِرُ على أذاهُم، (١٢٨) كما كانَ من عادةِ عُقبةِ بنِ أبي معيطٍ حينما يعودُ من سفرٍ، أنْ يصنعَ طعامًا فيدعو إليهِ أشرافَ قومهِ، فحينما عادَ يومًا من سفرهِ ذهبَ ليدعوهمْ وأتى إلى حَلْقَةٍ فيها النبيُّ، فدعاهُم ودعاهُ إلى طعامهِ، فقالَ رسولُ اللهِ: لا أقومُ حتّى تشهدَ أنّ لا إلهَ إلّا اللهَ وأنّي رسولُ اللهِ، ففعلَ عقبةُ، فقامَ النبيُّ معهُ، فبلغَ ذلك أُبَيَّ بنَ خلفٍ وكانَ أحدَ رؤوسِ قريشٍ وصديقًا مخلصًا لعقْبةٍ، فقالَ له: صَبَوتَ[١] يا عقبةُ؟ أقُلتَ كذا وكذا؟ قالَ: لا واللهِ، ولكنّي استحييْتُ ألّا أدعوهُ، وإذا دعوتُه ألّا يأكلَ من طعامي، فقلتُ له قولًا لم أعتَقِدْهُ، فقالَ لهُ: لا أكُلِّمُكَ أبداً حتّى تكفرَ به وتتفلَ في وجههِ، فذهبَ عُقبةُ إلى محمدٍ وفعلَ ذلك -بكل وقاحةٍ- وأعلنَ ارتدادَهُ عن الإسلامِ، فلم يزدِ النبيُّ على أنْ مسحَ وجههَ منَ البُصاقِ، ثمّ التفتَ إلى عقبةَ وقالَ: إنْ وجدْتكَ خارجًا من جبالِ مكّةَ أضربُ عنقكَ صبراً [٢]، (١٢٩) يقولُ اللهُ في القرآنِ عنه: إنّه سيأتي يومٌ، يندمُ فيه هذا الكافرُ أشدَّ الندمِ ويتحسّرُ على موقفهِ المنحَرفِ، حين أتتْهُ الفرصةُ ليكونَ مع الحقِّ، يومَها يقولُ: يا ليتَني سِرتُ مع النبيِّ في طريقِ الهدايةِ. (١٣٠)

وكانَ للنضرِ بنِ الحارثِ ابنُ عمِّ النبيِّ منهجيةٌ مختلفةٌ في محاربةِ النبيِّ ومعاداتِه للإسلامِ، والنضْرُ هذا من تجّارِ مَكّةَ المعروفينَ، وقد جَنَى أموالًا كثيرةً من رحلاتِه التجاريةِ، والتقى بعلماءِ اليهودِ والنصارى، وسمعَ قَصصَ الرومِ والفرسِ، فصارتْ لهُ معرفةٌ بالأديانِ والقصصِ التاريخيّةِ فعندما بدأتْ رسالةُ النبيِّ محمدٍ، كذَّبَهُ وأخذَ يستهزئُ بهِ، وكانَ كلمّا وعظَ النبيُّ الناسَ، وتلا كلامَ اللهِ عليهم، جلسَ النضرُ بعدَه وروى قِصّةَ رُستُمْ وأسفنديار،

---

١ صبوت: أي تركت دينك.

٢ قُتِلَ فلانٌ صبراً: إذا قُتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ.

وقصصَ وحكاياتِ ملوكِ إيرانَ، وعندما سمعَ النبيَّ يقرأ القرآنَ على الناسِ، قالَ: قد سمعْنا، لو نشاءُ لقلْنا مثلَ هذا، وما حديثُهُ إلَّا أساطيرُ الأولينَ اكتتبَها كما اكتتبْتُها(١٣١)، ثمّ قالَ للنبيِّ: أنتَ الذي تزعمُ أنّك ستوقِعُ بقريشٍ عن قليلٍ[١]؟، وأنّ اللهَ قد أوحى إليكَ بذلك؟ فقالَ النبيُّ: نعمْ، وأنتَ منهم، (١٣٢) وبهذهِ المناسبةِ نزلَتْ الآيةُ القرآنيّةُ لتوبِّخَ النضْرَ وأمثالَه متسائلةً، أولمْ ينظروا في عالَمِ الملكوتِ، عالمِ السمواتِ والأرضِ، بما فيهما من نظامٍ دقيقٍ بديعٍ، إنّهما لم يُوجدا عَبَثًا، وإنّما وُجِدا لأهدافٍ وغاياتٍ ساميةٍ، ثمّ إنّ الآيةَ الكريمةَ تنبّهُ الناسَ إلى أنّ الأمرَ ليس كما يتصوّرونَ، فأعمارُهم لا تُخَلَّدُ والفرصُ تمرُّ مرَّ السحابِ، ولا يدري أحدٌ أهو باقٍ إلى يومِ غدٍ أمْ لا، وإذا لم يؤمنوا بهذا القرآنِ بما يحملُه من الدلائلِ الواضحةِ، فأيُّ كتابٍ ينتظرونَهُ خيرٌ من القرآنِ ليؤمنوا بهِ؟ (١٣٣)

وقد قامَ النبيُّ يومًا على الصَّفا، ونادى قريشاً فاجتمعوا له، فقالَ لهم: أرأيتُمْ لو أخبرتُكم أنّ خيلاً في سفحِ هذا الجبلِ قد طلعَتْ عليكم أكنتم مصدِّقيَّ؟ فقالوا: نعمْ، أنتَ عندنا غيرُ مُتَّهمٍ، وما جرّبْنا عليكَ كَذِباً قطُّ، فقالَ: إنّي نذيرٌ لكم من عذابٍ شديدٍ، يا بني عبدِ المطَّلبِ يا بني عبدِ منافٍ... ومضى يعدِّدُ جميعَ قبائلِ مَكّةَ وفروعِها، ثمّ قالَ: إنّ اللهَ أمرَني أنْ أُنذرَكم من عِقابِهِ، وإنّي لا أملكُ لكم منَ الدنيا منفعةً ولا في الآخرةِ نصيباً إلّا أنْ تقولوا لا إلهَ إلّا اللهُ، فنهضَ أبو لهبٍ وصاحَ بهِ: تَبّاً لكَ سائرَ اليومِ ألهذا جمعْتَ الناسَ؟! هذه المرَّةُ لم يسكتِ اللهُ على التطاولِ على نبِيّهِ منْ قِبَلِ عمّ النبيِّ أبي لهبٍ وزوجتهِ أُمّ جميلٍ، التي كانتْ تتعقَّبُ النبيَّ في الطرقاتِ وتتعرّضُ لهُ بالأذى، فوعدهُما اللهُ بالخسرانِ في الدنيا والنارِ في الآخرةِ (١٣٤)، بعدَها تفرَّقَ الناسُ عن النبيِّ وهم يتشاورونَ في أمرهِ، فكذَّبَهُ قومُه لا لنفسِه بلْ طغياناً وجهلًا لِما يدعوهُم إليهِ من حقٍّ، فصارَ شأنُهُ كشأنِ بقيَّةِ المرسَلينَ الذينَ كذَّبهُم قومُهم. (١٣٥)

---

١ عن قليل: أي قريباً.

السنةُ العاشرةُ قبلَ الهجرةِ (٦١١ - ٦١٢ م)

رِحلَةُ الإسراءِ و المِعراجِ

في شهرِ رمضانَ من السنةِ العاشرةِ قبلَ الهجرَةِ بعد أنْ صلّى النبيُّ في المسجدِ الحرامِ ليلًا(١٣٦) أنزلَ اللهُ إليه من الملائكَةِ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ومعهم دابةٌ تشبهُ الحصانَ تسمّى البُراقَ، وهي تسمعُ الكلامَ وتفهمُه، خلقَها الله لرسولهِ، فأخبروا رسولَ الله أنّ اللهَ سيأخذُه في رحلةٍ ليريَهُ ملكوتَ السماواتِ والأرضِ، ثمَّ أركبوهُ على البُراقِ وأخذَ أحدُهم بلجامِها، وأخذَ الآخرُ بركابِها، ثمَّ سَوّى الآخرُ عليه ثيابَه(١٣٧)، فتضعضعَتْ البراقُ، فقالَ



كلاهما جزء من المسجد الأقصى الذي يشكل كل المساحة المسورة (بالأزرق) ويشمل ذلك السور نفسه والساحات والحدائق وسماء وباطن أرض المسجد

شكل(١٢): حدود المسجد الأقصى.

---

١ الإسراء: لغةً هو السير ليلاً، والمعراج: لغةً هو المِصْعَد والسُّلَّم.

لها جبريلُ: اسكني يا براقُ، فما ركبَكِ أحدٌ أكرمُ على اللهِ منهُ، فسكنَت(١٣٨)، ثمّ سارتْ، فرفعتْه ارتفاعًا ليس بالكثيرِ ومعه جبريلُ يُريهِ الآياتِ في السماءِ والأرضِ.

ثمَّ أُسريَ بهِ، فمرَّتْ به البراقُ في ظلمةِ الليلِ على عِيرٍ، فنفرَتْ العيرُ من دَفيفِ[١] البراق(١٣٩)، ثمَّ وصلَ إلى طورِ سَيناءَ وبيتَ لحمَ حتى انتهوا إلى بيتِ المقدسِ فدخلَ المسجدَ وعرضَ عليه مَحاريبَ الأنبياءِ فصلّى بها، ثم عرجَ بروحِه وجسمِه إلى السماواتِ مع جبريلَ، فشاهدَ الملائكةَ والأنبياءَ، فحيّوهُ وسلّموا عليهِ، وكانتْ تُلقَى عليهِ البِشاراتُ في كلِّ سماءٍ، فصعدَ حتّى وصلَ إلى السماءِ السابعةِ، فمضَى ودخلَ البيتَ المعمورَ فصلَّى فيهِ ركعتَينِ، ثمّ دخلَ الجنَّةَ وأكلَ من ثمارِها، وشربَ من أنهارِها، وشاهدَ بيوتَهُ وبيوتَ أهلِ بيتِهِ، وشجرةَ طُوبى حتّى انتهى إلى شجرةِ سِدرَةِ المُنتَهى، وهو مكانٌ لا يتجاوزُهُ أحدٌ من الخلْقِ، وغُلْظُ هذه الشجرةِ كمسيرةِ مئةِ عامٍ، وكلُّ ورقةٍ فيها تُغطِّي أهلَ الدنيا(١٤٠)، فرأى هناك جبريلَ للمرةِ الثانيةِ على صورتِه الحقيقيّةِ فكانتْ تلك الرؤيةُ من آياتِ اللهِ الكُبرى، ذلك لأنّ خَلْقَ جبريلَ عظيمٌ، فهو من الروحانيّينَ الذين لا يدركُ خلقَهم وصفتَهم إلّا اللهُ ربُّ العالمين، (١٤١)

---

١ الدفيف: صوت ضرب الأجنحة عند الطيران والعير هي القافلة.

فاستمرَّ رسولُ اللهِ بالتقدُّمِ في ذلك الموضعِ العظيمِ، فتخلَّفَ عنهُ جبريلُ ولم يستطعْ



شكل(١٣): صورة خيالية لمحمد في المعراج.

الاستمرارَ، فقالَ رسولُ اللهِ: يا جبريلُ في مثلِ هذا الموضعِ تخذلُني؟ فقالَ جبريلُ: يا محمدُ إنّ هذا موقفي الذي وضعَني اللهُ -عزَّ وجلَّ - فيهِ ولنْ أقدرَ على أنْ أتقدَّمَه(١٤٢)، تَقَدَّمْ يا رسولَ اللهِ، ليس لي أنْ أجوزَ هذا المكانَ، ولو دنوتُ أُنْمُلَةً لاحترَقْتُ (١٤٣)، تَقَدَّمْ أمامَكَ فواللهِ لقد بلغْتَ مبلغاً لم يبلغْهُ خَلْقٌ من خلْقِ اللهِ قبلَكَ. (١٤٤)

لولا أنّ روحَ النبيِّ محمدٍ ونفسَهُ كانَتا من ذلك المكانِ لمَا قدرَ أنْ يبلغَه، إذْ كانَ منَ اللهِ كما قالَ اللهُ نفسُه: قابَ قوسَينِ أو أدنى، أيْ بلْ أدنى من طولِ قوسَينِ، ولكنّ جبريلَ، لم يكنْ لهُ من ذلك كلِّهِ، ما كانَ لرسولِ اللهِ، لأنّهُ لم يكنْ لهُ علمُهُ، ولا مقامُه ومنزلتُه، بلْ هو كانَ يتشرَّفُ بخدمتِه، ويستفيدُ من علمِه، ويكتسبُ المقاماتِ من خلالِه.

ثمّ دنا رسولُ اللهِ من حُجُبِ النورِ، فرأى ملكوتَ السماواتِ، ورأى من نورِ اللهِ ما رأى، وحالَ بينَه وبينَ اللهِ السُّبحة[1]، (١٤٥) فرأى ربَّهُ بفؤادِهِ فكانَ ما رأى من آياتِ اللهِ الكُبرى.

هناكَ ناداهُ ربُّهُ: ﴿آمنَ الرسولُ بما أُنزِلَ إليهِ من ربِّهِ﴾، فقالَ محمدٌ: أنا مجيبٌ عنِّي وعن أمَّتي: ﴿والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبِه ورسلهِ لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ من رسلِهِ وقالوا

---

١ السُّبحة: هي جلال الله.

سمِعْنا وأطعْنا غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المصيرُ ﴿﴾، فقالَ اللهُ: ﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلّا وسعَها لها ما كسَبتْ وعليها ما اكتسبَتْ﴾، فقالَ محمدٌ: ﴿ربَّنا لا تؤاخذْنا إنْ نسِيْنا أو أخطأنا﴾، فقالَ اللهُ: لا أؤاخذُكَ، فقالَ محمدٌ: ﴿ربَّنا ولا تحملْ علينا إصْرًا[١] كما حملْتَهُ على الذينَ من قبْلِنا﴾، فقالَ اللهُ: لا أحمِّلُكَ، فقالَ محمدٌ: ﴿ربَّنا ولا تحمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا بِهِ واعفُ عنّا واغفرْ لنا وارحمْنا أنتَ مولانا فانصُرْنا على القومِ الكافرينَ ﴿﴾﴾ (١٤٦)، فقالَ اللهُ: قد أعطيتُكَ ذلكَ لكَ ولأُمَّتِك.

فأمرَ اللهُ النبيَّ محمدًا أنْ يدنو من عينِ ال (ص)، وهي عينٌ تنفجرُ من رُكنٍ من أركانِ العرشِ ليتوضَّأَ منها، فصلَّى رسولُ اللهِ لربِّه رَكعَتَين(١٤٧)، وكانَ اللهُ يلقِّنُ رسولَه الآياتِ في الصلاةِ ورسولُ اللهِ يسمَعُ ويتلو، فكانَ إذا سجدَ، سجدَ سجدةً واحدةً، فلمّا رفعَ رأسَهُ ذكَرَ جلالَ ربِّهِ، فخرَّ رسولُ اللهِ ساجداً من تلقاءِ نفسهِ لا لأمرٍ من ربِّهِ، فصارَتْ سجدَتَيْنِ، فجعلَها اللهُ فرضًا سجدتَين(١٢٤)، فلمّا فرغَ من مناجاةِ ربِّه، رُدَّ إلى البيتِ المعمورِ في السماءِ السابعةِ، فحضرَتْ الصلاةُ، فجُمِعَ لهُ النبيّينَ والمرسَلين والملائكةَ، ثمّ أمرَ اللهُ جبريلَ فأقامَ الأذانَ، فكانَ ذلكَ تشريعُ الأذانِ، فتلقّى رسولُ اللهِ كلَّ فصولِ الأذانِ من جبريلَ، وجبريلُ بدورهِ كانَ قد تلقّاها منَ اللهِ، ثمّ أقامَ جبريلُ الصلاةَ، فتقدّمَ رسولَ اللهِ، وصُفَّ الملائكةَ والنبيّينَ خلفَ رسولِ الله(١٤٨)، فكانَ ذلكَ من الآياتِ، التي أراها اللهُ لرسولِه؛ أنْ عُرِجَ بهِ إلى البيتِ المعمورِ وحُشِرَ لهُ الأوّلونَ والآخرونَ من النبِيّينَ والمُرسَلْين(١٤٩).

يقولُ السيّدُ جعفرٌ العامليُّ: إنّ النبيَّ حينَ عُرِجَ بهِ في السماواتِ، وبلغَ تلكَ الدرجاتِ، فإنّما بلغَها بما مَنَّ اللهُ بِه عليهِ وأهَّلَهُ لهُ، من رُقيٍّ روحيٍّ، ومن سُموٍّ في حقيقَةِ ذاتِه، ومنْ عُمقِ معرفةٍ باللهِ سبحانَهُ. ولا يُقصَدُ بذلكَ الدنوِّ والقربِ منَ اللهِ بالدنوِّ المكانيْ، بلْ هو قربٌ معنويٌّ حيثُ وصلَ النبيُّ إلى تلك المنزلةِ التي ما وصلَ لها أحدٌ من خلقِ اللهِ، ولنْ يصلَ إليها قطٌّ بعدَهُ أحدٌ. إنّ اللهَ أرادَ أنْ يُشرِّفَ بمحمدٍ ملائكتَه وسكّانَ سماواتهِ ويكَرِّمَهم بمشاهدتِه، ويُري رسولَهُ من عجائبِ عظمتِه ما يخبرُ بهِ بعدَ هُبوطِه. (١٥٠)

---

١ إصراً: ثقلاً ويطلق على الذنوب.

حينَما رجعَ رسولُ اللهِ قالَ لجبريلَ: يا جبريلُ هل لكَ من حاجةٍ؟ قالَ: حاجتي أنْ تُقرئَ على خديجةَ منَ اللهِ ومنّي السلامَ، فأخبرَها رسولُ اللهِ، فقالتْ: إنّ اللهَ هو السلامُ، ومنهُ السلامُ، وإليهِ السلامُ، وعلى جبريلَ السلامُ. (١٥١)

رَدَّةُ فِعْلِ قُرَيْشٍ عَلَى الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ

ولمّا أصبحَ رسولُ اللهِ، قالَ لقريشٍ: إنّ اللهَ -جلَّ جلالهُ- قد أسرى بيْ إلى بيتِ المقدسِ، وأراني آثارَ الأنبياءِ ومنازلَهُم، فقالَ لهُ أحدُهم: أتدَّعي إنّكَ أُسرِيَ بكَ مسيرةَ خمسينَ يوماً في ليلةٍ؟! إنّكَ حقًّا لكاذبٌ، وكانَ نفرٌ منَ المسلمينَ ضِعافَ الإيمانِ قد ارتدّوا عنِ الإسلامِ بعدما سمِعوا برحلةِ الإسراءِ والمعراجِ للنبيِّ، لأنّهُم لم يعقلوها ، بلْ لم تتحمَّلْها عقولُهم، (١٥٢) فقالَ أبو جهل[١]: قد أمكَنَتْكمُ الفرصةُ من محمدٍ، سلوهُ كمِ الأساطينُ والقناديلُ في بيتِ المقدسِ، فقالوا: يا محمدُ إنّ ها هنا مَنْ قد دخلَ بيتَ المقدسِ، فصِفْ لنا كمْ أساطينُهُ وقناديلُه ومحاريبُه، فجاءَ جبريلُ وعلَّقَ صورةَ بيتِ المقدسِ تجاهَ وجهِ النبيِّ، فجعلَ ينظرُ إليها ويخبرُهم بما يسألونَه، وأخبرَهم كذلكَ عن العيرِ التي تجيئ بشكلِها ووصفِها، وأنّ أحدَ الجِمالِ تاهَ، وأنّه شربَ الماءَ، وأهرقَ الباقي، فقالوا: حتّى تجيئَ العيرُ ونسألُهم عمّا قلتَ، فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ: وتصديقُ ذلكَ أنّ العيرَ تطلعُ عليكم مع طلوعِ الشمسِ، يقدِمُها جَمَلٌ أحمرُ، فلمّا أصبحوا أقبلُوا ينظرونَ إلى العقبَةِ ويقولونَ: هذه الشمسُ تطلعُ الساعةَ، فبينَما همْ كذلكَ إذا بالعيرِ طلَعَتْ مع طلوعِ الشمسِ، يقدِمُها جملٌ أحمرُ، فسَألُوهمْ عَمّا قالَ رسولُ اللهِ، فقالوا: لقد ضَلَّ لنا هذا الجمَلُ في موضعِ كذا وكذا، ووضعْنا ماءً وأصبَحنا وقد أُهرِقَ الماءُ، فلم يصدِّقوهُ، ولم يزدْهم ذلكَ إلّا عُتوًّا. (١٥٣)

هنا أقسمَ اللهُ في سورةِ النجْمِ بأنّ محمدًا لم يخطئْ وليس في أقوالِهِ ولا في أعمالِه أيُّ انحرافٍ، وأنّ كلَّ التهَمِ التي تتَّهِمهُ بالكذبِ والجنونِ باطلةٌ، وأكَّدَ اللهُ بأنّ ما يقولُه محمدٌ هو منَ اللهِ نفسهِ وليس من عندهِ، لأنّ ما يقولُه ما هو إلّا وحيٌ يُوحى إليهِ، فهو لا يقولُ شيئاً

---

١ هو عمروبن هشام المخزومي من قبيلة كنانة، وكان من وجهاء قريش.

من نفسهِ، وليس القرآنُ من نسْجِ فكرِهِ، بلْ كلُّ ما يقولُه منَ اللهِ، والدليلُ على هذا الادِّعاءِ كامنٌ في نفسِ آياتِ القرآنِ، وإنّ ما رأهُ هو من آياتِ اللهِ الكُبرى(١٠٤).

إنّ حادثَةَ الإسراءِ والمعراجِ معجزةٌ كُبرى خالدةٌ ولَسوفَ يبقى البشرُ إلى الأبدِ عاجزينَ عن مجاراتِها وإدراكِ أسرارِها، والهدفُ من هذه المشاهدةِ الكونيَّةِ هو أنْ يشاهدَ الرسولُ بعضَ مظاهرِ قدرةِ اللهِ ويطَّلعَ على بعضِ أسرارِ عظمتِه في أرجاءِ الكونِ كي تمتلِئَ روحُه أكثرَ بدلائلِ العظمةِ الإلهيةِ وآياتِ اللهِ في السمواتِ والكونِ، ولتجِدَ روحُه في هذه الآياتِ الكونيّةِ زخَمًا إضافياً يوظِّفُه في هدايةِ الناسِ إلى اللهِ، ولكي يلمسَ الإنسانُ عظمةَ اللهِ، ويدركَ بديعَ صنعِه، وعظيمَ قدرتِه، من أجلِ أنْ يثقَ بنفسهِ ودينِه، ويطمئنَّ بإيمانِه باللهِ، وإنّه قد التجأَ إلى ركْنٍ وثيقٍ، لا يختارُ لهُ إلّا الأصلحَ، ولا يريدُ لهُ إلّا الخيرَ، وهو القادرُ على كلِّ شيءٍ، ومحيطٌ بكلِّ الموجوداتِ. (١٠٥)

إنّ منَ المرجَّحِ أنْ يكونَ الرسولُ قد تدَرّجَ في إخبارِ المسلمينَ بقضيّةِ الإسراءِ والمعراجِ بحسَبِ ما تقتضيهِ المصلحةُ ومتطلّباتُ الدعوةِ إلى اللهِ، إذْ أنّهم ليس لهم قدرةٌ على تحمُّلِ معانيها وتصوّرِ أحداثِها، فقد يؤدّي ذِكرُ كلِّ تفاصيلِها ومعانيها إلى ارتدادِهم عنِ الإسلامِ ولا سيّما إنّ التصديقَ بهذه القضيّةِ إنّما يحتاجُ إلى مستوىً عقليٍّ وإيمانيٍّ عالٍ، إذْ كانَ الرسولُ يستندُ في مقامِ الإقناعِ إلى الأدلّةِ الحسيّةِ ليجعَلَ القبولَ بهذه القضيّةِ أيسرَ وأسهلَ، ولا يعتمِدُ فيها على مستوى الإيمانِ بالغيبِ فقطْ، فأخبرَهُم النبيُّ عن الإسراءِ في المرّةِ الأُولى، ثمّ بعد أنْ أصبحوا مؤهلينَ لتلقّي هذه القضيّةِ نزلَتْ سورةُ النجْمِ وأخبرَهم بالمعراجِ إلى السماوات. (١٠٦)

وَتَسْتَمِرُّ الدَّعْوَةُ فِي مَكَّةَ

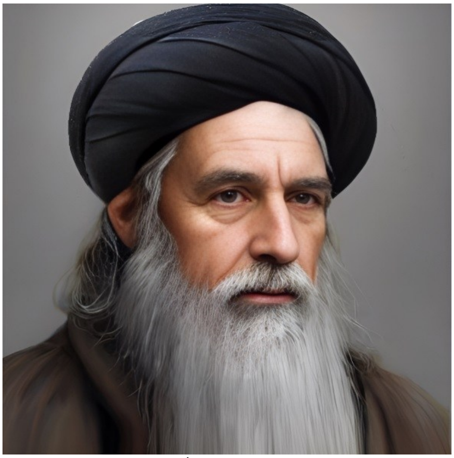
بعد حادثَةِ الإسراءِ والمعراجِ واصلَ النبيُّ تبليغَ رسالتِه في مكّةَ دونَ أنْ يَلقَى آذاناً صاغيةً، واتخذَ قومُه موقِفًا معادياً منهُ ومن دعوتِه، و- ذاتَ يومٍ- رأى رسولُ اللهِ بمكّةَ عثمانَ بنَ طلحةَ، وكانَ صاحبَ مفتاحِ الكعبةِ، فأقبلَ عليهِ ودعاهُ إلى الإسلامِ، فأجابَه عثمانُ: يا محمدُ، العجَبُ لكَ حيثُ تطمعُ أنْ أتبعَكَ وقد خالفتَ دينَ قومِك، وجئْتَ بدينٍ مُحْدَثٍ، وكانَ رسولُ

اللهِ يريدُ أنْ يدخُلَ الكعبةَ مع الناسِ، وكانتْ الكعبةُ تُفتَحُ يومينِ في الأسبوعِ للناسِ، فإذا بعثمانَ يمنعُ رسولَ اللهِ، ويُغلِظُ عليهِ في القولِ، وينالُ منهُ، لكنّ رسولَ اللهِ حَلِمَ عليهِ ولم يغضبْ عليهِ، ثمّ قالَ لهُ: يا عثمانُ، لعلّكَ سترى هذا المفتاحَ يوماً بيديْ أضعُه حيثُ شئْتُ، فقالَ عثمانُ: لقد هلكَتْ قريشٌ وذلّتْ، فقالَ رسولُ اللهِ: بلْ عَمِرتْ يومئذٍ وعَزّتْ (١٥٧)

لمّا رأتْ قريشٌ إصرارَ النبيّ على نشْرِ دينِه واستنقاصِ آلهتِهِمْ، ورأوا أنّ عمَّهُ أبا طالبٍ يساندُه وينصرُه ويفتديهِ، ولم يُسلِمْهُ لهم، حاولوا مفاوضَةَ أبي طالبٍ، فمشى رجالٌ من أشرافِ قريشٍ إلى أبي طالبٍ وقالوا لهُ: إنّ ابنَ أخيكَ قد سَبَّ آلهتَنا، وعابَ دينَنا وسَفَّهَ

أحلامَنا، وضلَّلَ أبناءنا، فإمّا أنْ تكفَّهُ عنّا وإمّا أنْ تُخلّيَ بينَنا وبينَه، فإنّكَ على مثلِ ما نحنُ عليهِ منْ خِلافِهِ، فنَكْفيكَهُ، فقالَ لهم أبو طالبٍ قولًا رقيقًا، وردَّهُم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنهُ، ثمّ جاءوا مجَدَّداً يشتكونَ عندَه، فبعثَ أبو طالبٍ إلى رسولِ اللهِ هذه

المرّةَ، فلمّا جاءَ أخبرَه أبو طالبٍ بما جاؤوا بهِ وقالَ لهُ: ما بالُ قومِك يشكونَكَ؟ فقالَ: إنّي أُريدُهم على كلمةٍ واحدةٍ يقولونَها تَدينُ لهم بها العربُ وتؤدّيْ إليهم بها العجَمُ الجزْيَةَ، فوعدَهمْ رسولُ اللهِ بقولِه ذلكَ، ما تشتهي إليهِ أنفسُهم وما يتطلّعونَ إليهِ، فقالوا: كلمةً واحدةً؟**!**
قالَ: نعَمْ وأبيكَ.



شكل(١٤): صورة تشبيهيّة لأبي طالب عم محمد

قال أبو طالبٍ: وأيُّ كلمةٍ هي يا بنَ أخي؟ قال: لا إلهَ إلّا اللهَ، فقاموا ينفضونَ ثيابَهم ويقولونَ: أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً، إنّ هذا لشيءٌ عُجابٌ! ثمّ انصرفوا، لكنَّهم عادوا مجدداً بعد مدةٍ حينَما رأوا أنّ رسولَ اللهِ قد بقيَ على ما هو عليهِ يُظهِرُ دينَه ويدعو الناسَ إليه، حتى استفحلَ الأمرُ بينَه وبينَهم، وحتّى تباعدَ الرجالُ وتضاغنوا وأكثرتْ قريشٌ ذِكرَ رسولِ الله بينَها، فذهبوا إلى أبي طالبٍ وقالوا: إنّ لك سِنًّا وشرفاً ومنزلةً وإنّا قد أردناكَ أنْ تَنهى ابنَ أخيكَ فلم ينتهِ، وإنّا واللهِ لا نصبرُ على هذا من شتمِ آبائنِا وتسفيهِ أحلامِنا وعَيْبِ آلهتِنا حتّى تكُفُّهُ عنّا أو ننازِلُه في ذلكَ حتّى يهلِكَ أحدُ الفريقينِ، ثمّ انصرفوا، فبعثَ أبو طالبٍ إلى رسولِ اللهِ وقالَ لهُ: يا بنَ أخي، إنّ قومَك قد جاؤوني، فقالوا ليْ إمّا أنْ تكُفَّهُ عنّا أو ننازلَه في ذلك حتّى يهلِكَ أحدُ الفريقينِ، فاستعْبَرَ رسولُ اللهِ باكياً وقالَ: يا عمُّ واللهِ لو وضعوا الشمسَ في يمينيْ والقمَرَ في شِماليْ على أنْ أتركَ هذا الأمرَ، ما تركْتُهُ حتّى يُظهرُهُ اللهُ أو أهلكَ دونَهُ، ، فوعَدهُ أبو طالبٍ النصرةَ في أمرِهِ، وطيَّبَ قلبَه[١٥٨]، ثمّ أنشأ يقولُ: (١٥٩)

وَاللهِ لَن يَصِلوا إِلَيكَ بِجَمعِهِم ... حَتّى أُوَسَّدَ في التُرابِ دَفينا

فَاصدَعْ بِأَمرِكَ ما عَلَيكَ غَضاضَةٌ [١] ... وَابشِرْ بِذاكَ وَقِرَّ مِنك عُيونا

وَدَعَوتَني وَزَعَمْتَ أَنَّكَ ناصِحيْ ... فلَقَد صَدَقتَ وَكُنتَ قبلُ أَمينا

وَعَرَضتَ ديناً قَد عَرَفْتُ بِأَنَّهُ ... مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دِينا

لَولا المَخافةُ أنْ يكونَ مَعَرَّةً [٢] ... لَوَجَدتَني سَمْحاً بِذاكَ مُبِينا

---

١ الغَضَاضَة: الذِلَّة والمنقصة.

٢ المَعَرَّة: الأذى والإساءة المكروه.

ثمّ عرضَتْ قريشٌ على أبي طالبٍ أنْ يتَّخذَ عمارةَ بنَ الوليدِ ولدًا له ويُسلِّمُهم النبيَّ ليقتلوهُ فإنّما هو رجلٌ برجلٍ، فقالَ أبو طالبٍ: واللهِ لَبِئْسَ ما تسومونَني! أتعطوني ابنَكُم أغذّيهِ لكم وأعطيكمُ ابني تقتلونَه؟ هذا واللهِ ما لا يكونُ أبداً، وأنشدَ أبو طالبٍ: (١٦٠)

يقولونَ لي دعْ نَصرَ مَن جاءَ بِالهُدى وَغالِبْ لَنا غِلابَ كُلِّ مُغالِبِ

وَسَلِّمْ إِلَيْنا أَحمَداً وَاكفَلَنْ لَنا بُنَيّاً وَلا تَحفلْ بِقَولِ المُعاتِبِ

فَقُلتُ لَهُمْ اللهُ رَبّي وَناصِريْ عَلى كُلِّ باغٍ مِن لُؤَيِّ بنِ غالِبِ[١]

فاتضحَ لأبي طالبٍ ولغيرهِ حقيقةُ ما يكنُّونهُ في صدورِهم وما تشتملُ عليه نفوسُهم، وهدفُهم من ذلك هو القضاءُ على دِينِ الله بأي وسيلةٍ كانتْ، الأمرُ الذي زادَ في ثباتِ أبي طالب في الدفاعِ عن هذا الدينِ ونبيّه، ولعلَّ سِرَّ استكبارِ مُشركيْ مكةَ ومحاولتِهم القضاءَ على هذا الدينِ، هو أنّهم كانوا يستغِلّونَ أولئك الفقراءَ والعبيدَ والضعفاءَ في مكّةَ وغيرِها في مصالحِهم وأهوائِهم، إضافةً إلى الامتيازاتِ الظالمةِ التي جعلوها لأنفسِهم التي كانَ يرفضُها النبيُّ، فأدركوا أنّهم لم يتمكّنوا في ظلِّ هذا الدين من الاستمرارِ في ممارساتِهم غيرِ الأخلاقيةِ، إضافةً إلى خوفِهم أنْ يرفضَهم العربُ ولا يرضونَ عنهم بتركِهم الأوثانَ فبذلكَ تخسرُ تجارتُهم وتتأثرُ مصالحُهم، فبعدَ فشلِ المفاوضاتِ ظهرَ لأبي طالبٍ أنّ السيلَ قد بلغَ الزُّبى وأنّه على وشكِ الدخولِ في صراعٍ شديدٍ مع قريشٍ فلا بدَّ من الحذَرِ والاحتياطِ للأمرِ، فجمعَ بني هاشمٍ وبني المطلبِ ودعاهُم إلى مساندةِ الرسولِ والدفاعِ عنه بكلِّ قوةٍ وصلابةٍ، فأجابوهُ لذلكَ إلّا أبا لهبٍ، لذلك لم يستطعْ مشركو قريشٍ أنْ يصِلوا إلى الرسولِ بسوءٍ، إلّا إنّهم رموهُ تارةً بالجنونِ، ومرةً بالسحرِ، وأخرى بالكهانَةِ أو قالوا إنّه شاعرٌ يكتبُ القرآنَ من نفسِه وليس منَ اللهِ، (١٦١) وكانوا يقولونَ أيضاً: إنّ غلاماً روميّاً سمعَ قَصَصَ الأنبياءِ وأخبارَهم، وهو يُعلِّمُ محمدًا إياها، وهذه الآياتُ من اختراعِه، أملاها على محمدٍ، فيجيبُهمُ القرآنُ بأنّ هذا الفتى الروميَّ لا يجيدُ العربيةَ وأنّ ما جاءَ بهِ محمدٌ، هو

---

١ لؤي بن غالب: هو الجد الثامن للنبي محمد.

باللغةِ العربيةِ الفُصحى، فلا يمكنُ أنْ يكونَ محمدٌ قد تعلمَها منه ويقولونَ تارةً أخرى: إنّه مصابٌ بالاختلالِ الفكريِّ والعقليِّ، وهذه الكلماتُ والآياتُ إنّما هي وليدةُ فقدانهِ التوازنَ الفكري، بلْ كانوا يراقبونَ النبيَّ دائماً ويستمعونَ إلى الآياتِ التي يأتي بها، فإنْ رأوا أنّ آيةً قد نُسِخَتْ[1] أو بُدِّلتْ بآيةٍ أخرى، يقولونَ إنّ محمدًا مُفْتَرٍ وكذّابٌ، لأنّه يغيِّرُ الآياتِ كيفَما شاءَ، فيجيبُهم القرآنُ مرةً أخرى بأنّ اللهَ أعلمُ بما ينزِّلُ منَ الآياتِ وأنّهم لا يفقهونَ الحِكمةَ من تبديلِ الآياتِ. (١٦٢)

مُلاحَقَةُ المُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ

أدركَتْ قريشٌ أنّ الاعتداءَ على شخصِ النبيِّ سوف يتسببُ في صراعٍ مسلّحٍ لم يعدُّوا لهُ عُدَّتَهُ، -خصوصاً - مع حلفاءِ بني هاشمٍ من القبائلِ العربيةِ، بل ربّما تُمَكِّنُ الحربُ من نشرِ دعوةِ النبيِّ أكثرَ، لذلك آثرَ المشركونَ أنْ يبتعدوا عن الحربِ، واتبعوا طرقاً أُخَرَ في حربِهم له، فراحوا يمنعونَ الناسَ من الالتقاءِ بالنبيِّ من جهةٍ، واتباعِ أسلوبِ السخريَةِ والاستهزاءِ وإلصاقِ التُهَمِ الباطلةِ بهِ من جهةٍ أخرى بهدفِ التأثيرِ على شخصِ النبيِّ محمدٍ، لعلَّهُ ينهزمُ نفسيًّا، فلربّما يتخلَّى عن الأمرِ كلِّهِ، أو يَنفُرُ منه ضعافُ الإيمانِ ويتخلّونَ عنه، (١٦٣) كما تحرّكَتْ كلُّ قبيلةٍ على من أسلمَ منْها وأتبعَ دينَ الرسولِ، ليبعِدوهم عن الإسلامِ ويجبرونَهم على الرجوعِ إلى دينِ قبيلتِهم، فسلَّطوا عليهم سلاحَ القتلِ والتعذيبِ، والحبسِ والتجويعِ، وبأساليبَ وحشيّةٍ لا إنسانيّةٌ، فكانَ من المعذَّبينَ: جاريةُ بنُ مؤمَّلٍ، وخبابُ بن الأرتْ، وأمُّ شريكٍ، ومُصْعَبٌ بنُ عُميرٍ، وبلالٌ الحبشيُّ، وعامرٌ بنُ فهيرةٍ، وغيرِهم، (١٦٤) لكنَّهم لم يتجرَّؤوا على أنْ يُصيبوا النبيَّ بأيِّ أذى لأنّه كانَ في حِمى عمِّهِ أبي طالب.

كانَ المسلمونَ آنذاك أقليَّةً مُضَّطهَدةً في مكّةَ، ولم يكنْ بمقدورِهِم مساعدَةُ إخوانِهم، ودفعُ العذابِ عَنْهم، فلمّا رأى النبيُّ محمدٌ ما يصيبُ أصحابَهُ من أذى زعماءِ قريشٍ لهم، قرَّرَ مغادرَةَ مكّةَ والبحثَ عن مكانٍ آمنٍ لهم، فقالَ لأصحابِهِ: تفرَّقوا عنِّي فمَنْ كانَتْ بهِ قوةٌ

---

١ النسخُ في الإسلام: هو رفع حكم شرعي واستبداله بحكم شرعي آخر بأمر من الله.

فليتأخَّرْ إلى آخرِ الليلِ ومَنْ لم تكنْ بهِ قوةٌ فليذهَبْ في أولِ الليلِ فإذا سمعْتُم قد استقرَّتْ بيَ الأرضُ فالحقوا بِيْ، وفي اليومِ التاليْ أمسكَ المشركونَ ببلالٍ وخُبابٍ وعمّارٍ وجاريةٍ من قريشٍ تُسمَّى سُميَّةَ كانَتْ قد أسلمَتْ، فأمسكَ بهِم المشركونَ بقيادةِ أبي جهلٍ وعذَّبوهُم أشدَّ العذابِ، فعرضوا على بلالٍ أنْ يكفرَ، فأبى، فجعلوا يضعونَ دِرعاً من حديدٍ في الشمسِ ثمّ يُلبسونَهُ إيّاها فإذا ألبسوهُ إيّاها قالَ: أحدٌ أحدْ[1]، وأمّا خُبابٌ فجعلوا يجرُّونَهُ في الشوكِ، وأمّا الجاريةُ فَوتَّدَ لها أبو جهلٍ أربعةَ أوتادٍ ثمّ مدَّدَها فأدخلَ الحَرْبَةَ في قلبِها حتّى قتلَها.

وكانَ رسولُ اللهِ يمُرُّ عليهم وهُمْ يُعَذَّبونَ فيقولُ: صبراً يا آلَ ياسرٍ، فإنّ موعدَكمُ الجنَّةَ (١٦٥)، وتحتَ التعذيبِ استُشهِدَتْ سُميَّةُ أمُّ عمّارٍ بنِ ياسرٍ على يدِ أبي جهلٍ فكانتْ أولَ شهيدةٍ في الإسلامِ ثمّ استُشهِدَ زوجُها ياسرٌ، الذي مسكوهُ أيضاً، وقد عذَّبَ بنو مخزومٍ ابنَهم عمّارًا حتّى أكرهوهُ على قولِ ما يريدونَ منَ النَيْلِ مِنَ الرسولِ، فعندَها تركوهُ ولم يقتلُوهُ، ثمّ خَلَّى المشركونَ عن بلالٍ وخُبابٍ ، فلحِقوا برسولِ اللهِ فأخبروهُ بالذي كانَ من أمرِهمْ، لقد اشتدَّ على عمّارٍ ما قالَهُ وحزنَ كثيراً، فأتى إلى النبيِّ باكياً، ولمّا رآهُ النبيُّ جعَلَ يمسحُ عن عينَيْهِ الدموعَ ويقولُ لعمّارٍ: أخذَكَ الكفارُ فغطّوك[2] في الماءِ... (١٦٦) فقالَ لهُ: لم أُترَكْ يا رسولَ اللهِ، وقد أكرهوني حتّى نِلْتُ منكَ وذكرْتُ آلهتَهمْ بخيرٍ، فسألَهُ النبيُّ: كيفَ تجِدُ قلبَكَ يا عمّارُ؟ قالَ: إنّه مطمَئِنٌ بالإيمانِ يا رسولَ اللهِ، قالَ: لا عليكَ فإنْ عادوا إليكَ، فَعُدْ لِما يريدونَ فقد أنزلَ اللهُ فيكَ.. إلّا مَنْ أُكرِهَ وقلبُهُ مُطمَئِنٌ بالإيمان(١٦٧)، أيْ أنّ اللهَ قد غفرَ لهُ براءتَهُ منَ الإسلامِ وولاءَهُ للكفّارِ تحتَ تعذيبِ الأعداءِ، لأنّها لا تَعْدو حركَةَ لسانٍ وأمّا قلبُهُ فيبقى ممتلِئًا بالإيمانِ.

---

١ ويقصد بأحد، الله الواحد الأحد.

٢ غط الشيء في الماء: غمسه فيه، غطسه، كبسه وعصره بشدة.

السنَةُ الثامِنَةُ قَبْلَ الهِجرَةْ (٦١٣ ـ ٦١٤ م)

ولادةُ فاطمةَ بنتِ مُحَمَّدٍ

وفي العشرينَ من جُمادى الآخرةِ منَ السنةِ الثامنةِ قبلَ الهجرةِ رُزِقَ النبيُّ محمدٌ من زوجتِه خديجةَ بابنتِهما فاطمةُ في مدينةِ مكّةَ وكانتْ فاطمةُ تُلقَّبُ بالزهراءِ. سابقًا كانَ بعضُ زعماءِ مكّةَ يُعيّرونَ النبيَّ محمدًا بأنّهُ لا نَسْلَ لهُ، إذْ كانَ العاصُ بنُ وائلٍ وهو أحدُ سادةِ قريشٍ، يسخرُ من محمدٍ ويقولُ لقومِه: دعوهُ، فإنّه رجلٌ أبترُ، لا عَقِبَ لهُ، فإذا هلَكَ انقطعَ ذِكرُه. (١٦٨) أقولُ هنا متعجِّباً: إنّ مهما وصلَ الإنسانُ إلى مستوياتِ الشرِّ والدناءةِ والعدوانيةِ، فلا يتصوّرُ أن ينزلقَ إلى هذا المستوى حتّى يُعيِّرَ الآخرينَ بشيءٍ ليس في يدِهِم ولا ذَنْبَ لهم فيهِ، مِثلَ الذريَّةِ والأبناءِ**!**

لقد عمَّتْ الفرحةُ في بيتِ النبيِّ بهذه الولادةِ الميمونةِ، وكانَ رسولُ اللهِ يحبُّ ابنتَهُ فاطمةَ كثيراً، فكانَ إذا دخلَتْ عليه، قامَ لها من مجلسِه وقبَّلَ رأسَها وأجلسَها مجلسَهُ، وإذا جاءَ إليها لاقتْهُ وقبّلَ كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ وجلسا معاً وكانَ يقولُ: فاطمةُ بَضْعَةٌ منّي، فمَنْ أغضَبَها أغضبَني. (١٦٩)

الهجرةُ إلى الحَبَشَةْ

واصلتْ قريشٌ في تعذيبِ مَنْ يدخلُ في دينِ الإسلامِ ممّنْ لم يكنْ لهُم عشيرةٌ تمنَعُهمْ وتحميهمْ، وكانَ الاستمرارُ في هذا الوضعِ لا يُطاقُ، وبقاؤهُ سوفَ يقلّلُ من إقبالِ الناسِ على الدخولِ في الإسلامِ ما دام أنّ هذا الدخولَ لا حصادَ لهُ سوى الرعبِ والتعذيبِ والمصائبِ، فكانَ لا بدَّ لهؤلاءِ المعَذَّبينَ منَ العثورِ على موضعِ أمَلٍ لهم يساعدُهم على الخلاصِ من المشاقِّ والصعابِ، فرأى رسولُ اللهِ أنْ يهاجرَ المسلمونَ إلى الحبَشَةِ، وقالَ

لهم: إنّ فيها مَلِكاً لا يُظلَمُ عندَه أحدٌ، وهي أرضُ صدقٍ، ووصفَ مَلِكَ الحبشةِ بأنّه يُحسنُ الجِوارَ.

لقد كانَ فِي الحبشةِ شَعبٌ يعيشُ على الفِطْرَة[١]، ويتعاملُ بصدْقٍ وصفاءٍ، وكانَ الناسُ في تلك المنطقَةِ أقربَ من غيرِهم إلى الالتزامِ بما تبقّى لديهم من تعاليمِ السيّدِ المسيحِ، بعيداً عن الانحرافاتِ والأفكارِ الخاطئةِ، والشُّبهاتِ التي كانتْ موجودةً في بلادِ الفرسِ والرومِ ممّا يُمكِنُ للمسلمينَ المهاجرينَ العيشَ هناكَ بسلامٍ دونَ ملاحقَةٍ، إضافةً إلى أنّ الحبشَةَ جغرافيًّا مفصولةٌ عن الحجازِ بالبحرِ ممّا يجعلُ منَ المتعَذّرِ الوصولَ إليها إلّا عِبرَ البحرِ وبذلكَ يصعُبُ على قريشٍ ملاحقةُ المسلمينَ والوصولُ إليهم، إذْ أنّهم لم يكونوا يعرفونَ حَربَ السفُنِ آنذاكَ، فهاجرَ المسلمونَ إلى الحبشةِ بإمرَةِ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ، يُدَبّرُ أمورَهم، ويُشرفُ على شؤونِهم ومصالحِهم، فذهبوا إليها بشكْلِ جماعاتٍ مُتسَلّلينَ، مِنْهُمُ الراكِبُ ومِنْهُمُ الماشيْ، حتّى انتهوا إلى البحرِ فوجدوا سفينَةً أقلَّتْهُم(١٧٠)، وقد بَعثَ معهم رسولُ اللهِ رسالةً إلى مَلِكِ الحبشةِ جاءَ فيها: "بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، مِنْ محمدٍ رسولِ اللهِ إلى النجاشيِّ الأصحَمِ مَلِكِ الحبشةِ: سلامٌ عليكَ، فإنّي أحمُدُ إليكَ اللهَ الملِكَ القدُّوسَ المؤمِنَ المُهَيمِنَ، وأشهدُ أنّ عيسى بنَ مريمَ رُوحُ اللهِ، وكلِمتُهُ ألقاها إلى مريمَ البتولِ الطيّبَةِ الحصينَةِ، فحملَتْ بعيسى، فخلقَهُ من روحِه ونَفْخِهِ، كما خلقَ آدمَ بيدِهِ ونَفْخِهِ، وإنّي أدعوكَ إلى اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، والموالاةِ على طاعتِهِ، وأنْ تتبَعَني فتؤمِنَ بيْ، وبالذي جاءَنيْ، فإنّي رسولُ اللهِ، وقد بعثْتُ إليكم ابنَ عمّي جعفرًا، ومعهُ نفرٌ من المسلمينَ، فإذا جاؤوكَ، فأقِرَّهُمْ ودَعِ التجبُّرَ، وإنّي أدعوكَ وجنودَكَ إلى اللهِ، وقد بَلَّغْتُ ونصحْتُ فاقبَلوا، والسلامُ على مَنِ اتبعَ الهُدى". (١٧١)

كانَ لا بدَّ لقريشٍ مِنْ أنْ تبذلَ محاولاتِها لاسترجاعِ المسلمينَ، لتبقى هي المهيْمِنَةَ، وهي المؤثّرةَ على مصيرِ هذا الدينِ الجديدِ الذي تراهُ يهدّدُ مصالحَها ووجودَها، فتآمَرتْ فيْما

---

١ الفطرة: هي الأفكار والمعلومات الأولية التي يعرفها كُلّ إنسان بدون حاجة إلى معلم ومربٍ، وهي العلوم البديهية الضرورية، ويشترك فيها كُلّ إنسان لأنّها جزء من إنسانيته، والفطرة تدفع الإنسان نحو الكمال والرقيّ ، بينما الغرائز لا جهة لها سوى تأمين الحاجة الإنسانية المعينة التي يحتاج إليها جسمه.

بينَها، وقرَّرتْ إرسالَ رجُلينِ منْها إلى الحبشةِ لاستردادِ المهاجرينَ، فوقعَ اختيارُهم على عمرو بنِ العاصِ وعُمارةَ بنِ الوليدِ، فأخذا معَهما هدايا إلى المَلِكِ، ثمّ خرجا في إثْرِهِم حتّى جاءا البحرَ فلم يجِدا أحداً منْهم، فلمّا وصَلا إلى الحبشةِ ادّعَيا أمامَ النجاشيْ أنّه: قد دخلَ بلدَكَ مِنّا غِلْمانٌ سُفهاءُ فارقوا دينَهم ولم يدخلوا في دينِك، وجاءوا بدينٍ ابتدعوهُ لا نعرفُهُ نحنُ ولا أنتَ، وقد بعَثْنا إليكَ أشرافَ قومِهم منّا آباؤهُم وأعمامُهم وعشائرهُم لتردَّهمْ إليهمْ، فرفضَ الملِكُ تسْليمَهمْ إليهمْ حتّى يسألُهم عن صحَّةِ ما جاءَ بهِ عمرو وعمارةُ، فجاءَ المسلمونَ وسألَهم مَلِكُ الحبشةِ عمّا قالاهُ مبعوثَيْ قريشٍ، فأجابَ جعفرٌ:



شكل(١٥): صورة تخيلية لجعفر بن أبي طالب في الحبشة.

"أيُّها المَلِكُ كُنّا قومًا أهلَ جاهليةٍ، نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميتَةَ، ونأتِي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونسيءُ الجوارَ، ويأكلُ القويُّ منّا الضعيفَ، فكنّا على ذلك حتى بعثَ اللهُ إلينا رسولًا مِنّا، نعرفُ نسَبَه وصِدقَه وأمانتَه وعفافَهُ، فدعانا إلى اللهِ؛ لنوحِّدَه ونعبدَهُ، ونخلعَ ما كُنّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دونِه من الحجارةِ والأوثانِ، وأمرَنا بصِدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانةِ، وصلَةِ الرحِمِ، وحُسْنِ الجِوارِ، والكفِّ عن المحارمِ والدماءِ، ونهانا عنْ الفواحشِ، وقولِ الزورِ، وأكلِ مالِ اليتيمِ، وقذْفِ المُحصَنَاتِ، وأمرَنا أنْ نعبدَ اللهَ وحدَه، ولا نشرِكَ بهِ شيئاً، وأمرَنا بالصَّلاةِ والزكاةِ والصيامِ، فقالَ النجاشيُّ: هلْ معك ممّا جاءَ بهِ عنِ اللهِ شيءٌ؟ قالَ: نَعَمْ، ثمّ قرأَ جعفرٌ على النجاشيِّ من سُورةِ مريمَ منَ القرآنِ حتّى وصلَ إلى: ﴿واذكرْ في

الكتابِ مريمَ إذِ انتبذَتْ منْ أهلِها مكاناً شرقيّاً ۝ فاتخذَتْ مِن دونِهم حِجاباً فأرسلْنا إليها رُوحَنا فتمثَّلَ لها بَشَرًا سويّاً ۝ قالتْ إنّي أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كنتَ تقيّا ۝ قالَ إنّما أنا رسولُ ربِّكِ لأهبَ لكِ غُلاماً زكيّا ۝ قالتْ أنّى يكونُ ليْ غلامٌ ولم يمسسْني بشرٌ ولم أكُ بغيّا ۝ قالَ كذلكِ قالَ ربُّكِ هو علي هيِّنٌ ولنجعلَهُ آيةً للناسِ ورحمةً منّا وكانَ أمرًا مقضِيّا ۝﴾"(١٧٢) فبكى النجاشيُّ ثمّ قالَ: إنّ هذا والذي جاءَ بهِ عيسى لَيخرُجُ من مِشكاةٍ واحدةٍ، انطَلِقا فوالله لا أُسلِمُهمْ إليكما أبداً.

لم ييأسْ مبعوثا قريشٍ، فجاءَ عمرو بنُ العاصِ في اليومِ التالي يخبرُ النجاشيَّ بأنّ المسلمينَ يقولونَ: إنّ عيسى بنَ مريمَ عبدٌ، فأرسلَ إليهِم فقالَ لهُ جعفرٌ: نقولُ فيهِ الذي جاءَ به نبيُّنا:



شكل(١٦): صورة تخيلية للنجاشي ملك الحبشة.

هو عبدُ اللهِ، ورسولُه، وروحُه، وكلِمتُهُ التي ألقاها إلى مريمَ العذراءَ البتولَ، فتناولَ النجاشيُّ عوداً صغيرًا منَ الأرضِ وقالَ: واللهِ ما عدا عيسى بنُ مريمَ ما قلتَ هذا العود، اذهبوا فأنتُم آمنونَ، ما أُحِبُّ لي جبلٌ منَ ذهبٍ وأنّي آذيتُ رجلاً منكُم، ثمّ رَدَّ الهدايا إلى قريشٍ، ففشلَتْ بذلكَ محاولاتُ قريشٍ باستردادِهِم المسلمينَ وإرجاعِهم إلى مكّةَ. (١٣٧)

حقّاً لقد كانَتْ هجرةُ المسلمينَ إلى الحبشةِ ضربةً قاسيةً لقريشٍ أفقدتْها صوابَها وزعزعَتْ وجودَها وكيانَها، فحاولتْ أنْ تتداركَ الأمرَ لإرجاعِهم وإبقائِهم تحتَ سلطتِها ولكنْ فاتَ الأوانُ.

وبعد مدةٍ تسبَّبَ وجودُ المسلمينَ للنجاشيِّ في الحبَشةِ بعضَ المتاعبِ حيثُ اتهمَهُ أهلُ بلادِهِ بأنّه خرجَ عن دينِهم فثاروا عليهِ، ولكنَّهُ استطاعَ أنْ يُخْمِدَ الثورةَ بحُسْنِ إدراكِهِ

ووعيهِ، ورأى المسلمونَ ما جرى للنجاشيْ بسببِهم فارتأى فريقٌ منْهمُ العودةَ إلى مكّةَ في ظلِّ الهدوءِ النسْبيِّ العَفَوي الذي سادَ مكّةَ بعد شهرَينِ أو ثلاثةِ أشهرٍ، فعادَ منْهم أكثرُ منْ ثلاثينَ رجلاً، وبقيَ الآخرونَ عند النجاشيِّ في خيرِ منزلٍ وخيرِ جارٍ. (١٧٤)

انْتِصَارُ الفُرْسِ عَلَى الرُّومِ

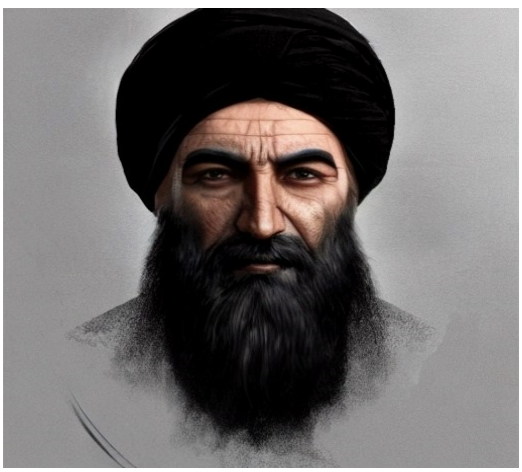
وفي سنةِ ٦١٤ للميلادِ، وصلَ الخبرُ إلى المسلمينَ بانتصارِ الفُرسِ في معركَةِ أنطاكيّةَ على الرومِ، وهذه المرَّةُ في الشامِ والقدسِ، فأحزنَهم ذلكَ لأنّ الرومَ أهلُ كتابٍ، فَنزَّلَ اللهُ في القرآنِ البُشرى بأنّ الرومَ سوف ينتصرونَ في بضعِ سنينَ، وسيفرحُ بذلك المؤمنونَ، وأنّ الأمرَ كُلَّهُ بيدِ اللهِ. (١٧٥)

السنةُ السابعةُ قبْلَ الهجرةِ (٦١٤ ـ ٦١٥ م)

إسلامُ حمزةَ بنُ عبدِ المطّلِب

وفي السنةِ السابعةِ قبلَ الهجرةِ أسلَمَ حمزةُ بنُ عبد المطَّلبِ عمُّ النبيِّ محمدٍ. كانَ إسلامُ حمزةَ تطوّرًا جديدًا لم يكنْ قد دخلَ في حساباتِ قريشٍ، إذْ قلبَ الموازينَ عليها رأسًا على عَقِبٍ، وزادَ من مخاوفِها وكَبحَ من جَماحِها.

وصادفَ أنْ مرَّ يومًا أبو جهلٍ بالرسولِ عندَ الصَّفا فآذاهُ وسبَّهُ ونالَ منهُ في بعضِ ما يكرهُ من العيبِ لدينِهِ والتضعيفِ لأمرِه، فلم يكلِّمْهُ الرسولُ، وكانَ حمزةُ صاحبَ صَيدٍ وقنْصٍ، وكانَ إذا رجعَ بدأَ بالبيتِ وطافَ به وسلَّمَ على مَنْ فيهِ، ثمَّ رجعَ إلى بيتهِ، وفي هذه المرَّةِ عند رجوعِه من صَيدهِ أخبرتْهُ إحدى النساءِ بما كان منْ أمرِ أبي جهلٍ مع الرسولِ، فاحتملَ حمزةُ الغضَبَ ودخلَ المسجدَ فرأى أبا جهلٍ جالساً مع القومِ، فأقبلَ نحوَهُ حتّى إذا قامَ على رأسِهِ رفعَ القوسَ فضربَهُ بهِ ضربةً شجَّتْ جبينَه شجّةً مُنكرَة.



شكل(١٧): صورة تخيلية لحمزة بن عبد المطلب عم محمد

ثمَّ قالَ لأبي جهلٍ: أتشتُمهُ وأنا على دينهِ، أقولُ ما يقولُ؟ فرُدَّ عليَّ ذلك إنِ استطعتَ، وكان ذلك بعد أنْ تضرَّعَ إليه أبو جهلٍ وأخذَ بثوبهِ فلم يقبلْ منه، فقامَ رجالٌ من بني مخزومٍ لينصروا أبا جهلٍ، فقالوا لحمزةَ: ما نراكَ إلّا قد صَبَأتَ، فقالَ حمزةُ: وما يمنعُني؟ وقد استبانَ لي منهُ أنّه رسولُ اللهِ، والذي يقولُه حقٌّ، فواللهِ لا أنزعُ، فامنعوني إنْ كنتُم صادقينَ، فقالَ أبو جهلٍ: دعوا أبا عُمارةَ، فإنّي واللهِ لقد سبَبْتُ ابنَ أخيهِ سبًّا قبيحًا، فقالَ حمزةُ حينَها للنبيّ: فأظهِرْ يا بنَ أخي دِينَك، فوالله ما أحبُّ أنّ لي ما أظَلّتْهُ السماءُ وأنّي على ديني الأوّلِ.

لقد كانَ في إسلامِ حمزةَ عزّةٌ للإسلامِ وسرورٌ للرسولِ، فلمّا علمَتْ قريشٌ أنّ الرسولَ قد عزَّ وامتنعَ، كفُّوا عمّا كانوا ينالونَهُ منهُ.

كما أسلمَ في هذه المُدّةِ عمرُ بنُ الخطابِ، وقد لاقى المسلمونَ منهُ أشدَّ أنواعِ التعذِيبِ والتنكيلِ قبلَ إسلامِه، بلْ قد أرادَ أيضاً اغتيالَ النبيِّ. (١٧٦)

السنةُ السادِسةُ قبلَ الهجرةِ (٦١٥ -٦١٦ م)

الحصارُ في شِعْبِ أبي طالب

لمّا رأتْ قريشٌ عِزّةَ النبيِّ بمنْ معهُ، وعزّةَ أصحابهِ في الحبشةِ، وانتشارَ الإسلامِ بينَ القبائلِ، وأنّ جميعَ جهودِها في محاربةِ الإسلامِ قد باءتْ بالفشلِ، حاولَتْ أنْ تقومَ بتجربَةٍ جديدةٍ وهي الحصارُ الاقتصاديُّ والاجتماعيُّ ضدَّ الهاشميّينَ وأبي طالبٍ، فإمّا أنْ يرضخوا لأمرِها ويُسلِّموا لها محمدًا ليقتلُوهُ، وإمّا أنْ يتراجعَ الرسولُ عن دعوتهِ.



شكل(١٨): صورة خيالية لاجتماع مشركي قريش في دار الندوة.

فاجتمعَ بعضُ زعماءِ قريشٍ في دارِ الندوةِ[٢] عند الكعبةِ، واتَّفقوا على أمرٍ، كتبوهُ في صحيفةٍ، جاءَ فيها:... وألّا يُكلِّموا بني هاشمٍ ولا يبايعونَهم ولا يزوّجونَهم ولا يتزوّجونَ

---

١ شِعب أبي طالب: هي منطقة أو وادي في مكة تقع بين جبل أبو قبيس وجبل الخندمة.

٢ دار الندوة: هي أول مقرّ أنشأه زعيم مكة في عصره قصي بن كلاب، وهو الجد الرابع للنبي، وكان الغرض منه أن يكون مقرّا لتشاور زعماء قبائل مكة في الأمور المهمة.

منهم ولا يدخلونَ بيوتَهم ولا يخالطونَهم، حتّى يدفعوا إليهِم محمدًا ليقتُلوهُ، وأنّهم يدٌ واحدةٌ على محمدٍ، يقتلونَه غِيلةً أو صَراحةً (١٧٧)، وخَتمَ الصحيفَةَ كلُّ مَنْ حضرَ الإجتماعَ بخاتَمِهِ من زعماءِ قريشٍ، وكانوا أربعينَ رجلاً، ثمّ علّقوها على أستارِ الكعبةِ، وساندَهم على ما اتفقوا عليهِ عمُّ النبيِّ أبو لهبٍ، وكانَ ذلك في السنةِ السادسةِ قبلَ الهجرةِ.

فجمعَ أبو طالبٍ بني هاشمٍ ودخلوا شِعْباً من شِعابِ مكّةَ، وتخلّفَ عنهم أبو لهبٍ، وحلفَ أبو طالبٍ لقريشٍ بالبيتِ والركنِ والمقامِ: لئنْ شاكتْ محمدًا شوكةٌ لأثِبَنَّ عليكم، وقد حصَّنَ الشِعْبَ، وكانَ يحرسُه بالليلِ والنهارِ قائمًا على رأسِ النبيِّ يحميْهِ.

وضعَتْ قريشٌ على المسلمينَ في شِعبِ أبي طالبٍ الرُقباءَ حتّى لا يأتيهم أحدٌ بالطعامِ وكانَ المسلمونَ ينفقونَ من أموالِ خديجةَ وأبي طالبٍ حتّى نفَذَتْ، ولم يعدْ لهم مالٌ، ونفذَ طعامُهم حتّى اضطرّوا إلى أنْ يقتاتوا بورقِ الشجرِ، وكانَ صبيانُهُم يتضّورونَ جوعًا، أمّا المشركونَ، فكانوا يسمعونَ بكاءَ الأطفالِ من وراءِ الشعْبِ، فيتحدثونَ في ذلك فيما بينَهم فبعضُهم يفرحُ بذلكَ، وبعضُهم يتأثّرُ ويحزنُ.


شكل(١٩): صورة تخيلية لشِعْب أبي طالب في الحصار.

لم يكنِ المسلمونَ يجرؤونَ على الخروجِ من شِعبِ أبي طالبٍ إلّا في موسمِ العُمرةِ في رَجَب، وموسمِ الحجِّ في ذي الحجّةِ، فكانوا يشترونَ آنذاكَ ويبيعونَ ضمْنَ ظروفٍ صعبةٍ جداً، إذْ إنّ قريشاً كانوا يلتقونَ بكلِّ مَنْ يَقْدِمُ مكّةَ أولاً، ويغرونَهم بمبالِغَ باهظةٍ ثمناً لسلعتهِ، شرطَ أنْ لا يبيعُها للمسلمينَ. وكانَ أبو لهبٍ هو رائدُهم في ذلك، فكانَ يوصي التجّارَ

بالمغالاةِ عليهم حتّى لا يحصلُ المسلمونَ من بضائعِهم شيئاً، ويضمنُ لهم، ويعوّضُهم من مالهِ إذا تأثّرتْ تجارَتُهُم، بلْ كانتْ قريشٌ تهَددُ كلَّ مَنْ يبيعُ المسلمينَ شيئاً بنهبِ أموالهِ، ويحَذِّرونَ كلَّ قادمٍ إلى مكّةَ من التعاملِ معهم. وقد استمَرتْ هذه المِحنةُ إلى ما يقاربُ الثلاثَ سنواتٍ، وكانَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ أثناءها يأتيهم بالطعامِ سرّاً من مكّة، من حيثُ يتمكّنُ، ولو أنّهُم ظفروا بهِ لم يُبقوا عليه.

كانَ أبو طالبٍ كثيراً ما يخافُ على النبيِّ خصوصاً في مبيتِه، فكانَ يحرسُه بالليلِ والنهارِ، فإذا جاءَ الليلُ قامَ بالسيفِ عليه ورسولُ اللهِ مضطَجِعٌ، فإذا أخذَ الناسُ مضاجِعَهم، اضطجعَ النبيُّ على فراشِه، حتّى يرى ذلك جميعُ مَنْ في شعبِ أبي طالبٍ، فإذا نامَ الناسُ جاءَ أبو طالبٍ وأقامَه، وأضجَعَ ابنَهُ عليًّا مكانَه(١٧٨)، ثم أضجعَ النبيَّ في مكانٍ آخرَ، حتّى لا يعرفُ أحدٌ مكانَ النبيِّ فيغتالُه غفْلةً وهو نائمٌ. قالَ عليٌّ لأبيهِ ليلةً: يا أبتاهُ، إنّي مقتولٌ، فقالَ لهُ أبو طالبٍ: (١٧٩)

إصبِرَنَ يا بُنَيَّ فَالصَبرُ أَحجى ... كُلُّ حَيٍّ مَصيرُهُ لِشَعوبِ[1]

قَدَرُ اللهِ وَالبَلاءُ شَديدٌ ... لِفِداءِ الحَبيبِ وَابنِ الحَبيبِ

النَبِيِّ الأَغَرِّ ذي الحَسَبِ الثا ... قِبِ وَالباعِ وَالكَريمِ النَجيبِ

إنْ تُصِبْكَ المَنونُ فَالنَبْلُ تَتْرى ... فَمُصيبٌ مِنها وَغَيرُ مُصيبِ

كُلُّ حَيٍّ وَإِن تَمَلّى بِعُمرٍ ... آخِذٌ مِن مَذاقِها بِنَصيبِ

فأجابَ عليٌّ قائلاً:

أتأمُرُني بالصبْرِ في نصرِ أحمدٍ ... وواللهِ ما قلْتُ الذي قلتُ جازِعا

ولكِنّني أحببْتُ أن ترى نُصرَتي ... وتَعلمُ أنِّى لم أزلْ لكَ طائعا

---

١ شعوب: المنية.

سأسعى لوجهِ اللهِ في نصرِ أحمدٍ   نبيِّ الهُدى المحمودِ طِفْلاً ويافِعا


شكل(٢٠): صورة تخيلية لشِعب أبي طالب في الحصار.

معجزةُ انشقاقِ القمرِ

وفي السنةِ الخامسةِ قبلَ الهجرةِ حينما كان المسلمونَ محاصَرينَ في شِعبِ أبي طالب، حدثَتْ معجزةُ انشقاقِ القمرِ، وذلك حين سألَ نفرٌ من قريشٍ رسولَ اللهِ أنْ يُريَهم آيةً فقالوا: إنْ كنتَ صادقاً فشقَّ لنا القمرَ فُلْقتَينِ، فقالَ: إنْ فعلتُ تؤمنونَ؟ قالوا: نعمْ، فدعا اللهَ فانشقَّ القمرُ نصفَينِ ورسولُ اللهِ ينادي: يا فلانُ يا فلانُ اشهدوا، حتّى نظروا إليه، ثمّ التأمَ القمرُ، فقالوا: هذا سحرٌ مُسْتَمِر(١٨٠)، فأخبرَهم اللهُ في هذا الوقتِ، في بدايةِ الدعوةِ الإسلاميّةِ إلى اقترابِ موعدِ يومِ القيامةِ، إذْ إنّ ظهورَ النبيِّ محمدٍ وهو آخرُ الأنبياءِ، علامةٌ على قُربِ وقوعِ يومِ القيامةِ، كما يخبرُهم اللهُ أنّ انشقاقَ القمرِ دليلٌ وعلامةٌ على قُربِ قدومِ يومِ القيامة. (١٨١)

إنّ المشركينَ لم ينكروا ما يرونَه من انشقاقِ القمرِ، ولكنَّهم اعتبروهُ ببساطةٍ استمرارًا لسلسلةِ الأعمالِ السحريَّةِ – حسبَ فهمِهم- التي كانَ النبيُّ يعرضُها عليهم كدليلٍ على نبوّتِهِ، ولا يرونَها كمعجزاتٍ منَ اللهِ، فأعرضوا عنْهُ عنادًا وتعصُّبًا ولم يؤمنوا بهِ.

السنَةُ الثالثَةُ قبْلَ الهِجْرةْ (٦١٨ ـ ٦١٩ م)

نهايةُ الحِصارْ

بعد ثلاثِ سنواتٍ تقريباً من حصارِ المسلمينَ في شِعْبِ أبي طالبٍ، أخبرَ النبيُّ عمَّهُ أبا طالبٍ بأنّ دودةَ الأرَضَةِ قد أكلَتْ كلَّ ما في الصحيفَةِ منْ ظلمٍ وقطيعةِ رحِمٍ، ولم يبقَ فيها إلّا ما كانَ منْ اسمِ للهِ، فخرجَ أبو طالبٍ من شِعبِه ومعه بنو هاشمٍ إلى قريشٍ، فقالتْ قريشٌ مستهزئةً: الجوعُ أخرجَهم، وقالوا لهُ: يا أبا طالبٍ قد آنَ لكَ أنْ تصالحَ قومَك، فقالَ: قد جئتُكم بخبَرٍ، ابعثوا لي صحيفتَكم لعلَّهُ يكونُ بينَنا وبينَكم صلحٌ فيها، فأتُوا بِها، وهي مختومةٌ بأختامِهم، قالَ لهم أبو طالبٍ: هل تنكرونَ منها شيئاً؟ فقالوا: لا، فقالَ: إنّ ابنَ أخي حدَّثني ولم يكْذِبْني قطُّ، أنّ اللهَ قد بعثَ على هذه الصحيفةِ دودةَ الأرَضَةِ، فأكلتْ كلَّ قطيعةٍ وإثمٍ وتركَتْ كلَّ اسمٍ هو للهِ، فإنْ كانَ صادقاً أقلعْتُم عن ظلمِنا، وإنْ يكنْ كاذبًا، ندفعُه إليكم فتقتلونَه، فصاحَ الناسُ: أنصفْتَنا يا أبا طالبٍ، ففتحوها وأخرَجوها، فإذا هي كما قالَ النبيُّ، فكبَّرَ المسلمونَ، وصُدِمتْ قريشٌ، وتغيّرَتْ ألوانُ وجوهِهم، فقالَ أبو طالبٍ: قد تبيَّنَ لكم أيُّنا أولَى بالسِّحْرِ والكهانَةِ؟ فأسلمَ يومئذٍ جَمعٌ منَ الناسِ.

زعماءُ قريشٍ لم يُظهروا أيَّ رحمةٍ أو إنسانيةٍ تجاهَ محمدٍ وأتباعِه، بلْ أعلنوا الحربَ عليهم وقطعوا كلَّ سُبلِ التواصلِ والتسويةِ معَهم، كانتْ نيَّتُهم القضاءَ على محمدٍ وأتباعِه بأقسى الطُرقِ، وبعد ثلاثِ سنواتٍ منَ العذابِ، لجأ النبيُّ إلى ما يشْبِهُ المعجزةَ للتواصلِ مع هؤلاء الناسِ مرةً أُخرى، على أملِ أنْ يغيّروا رأيَهم ويقبلونَ بالحقيقةِ الواضحةِ لصدْقِ النبيِّ محمدٍ، وكانتْ قضيّةُ "دودةِ الأرَضَة" تمثِّلُ الأملَ في تقديمِ الحُجّةِ عليهم أو تحريكِ ضمائرِ بعضِ أتباعِهم من سكّانِ مكّةَ للضغْطِ عليهم لإلغاءِ هذا الإتفاقِ الظالمِ، ولكنّ قريشاً لم تقتنِعْ واستمرَّتْ في العملِ وفقاً لمضمونِ الصحيفةِ، فقامتْ جماعةٌ منهم على نقضِها وعَدَمِ الإلتزامِ بِها، ومنهم هشَامٌ بنُ عَمْرو بنِ ربيعةَ، وزهيرٌ بنُ أميةَ بنِ المغيرةِ،

والمطعِمُ بنُ عديٍّ، وأبو البختريِّ بنُ هشامٍ، وزُمْعَةُ بنُ الأسودِ، وكلُّهم لهم رحِمٌ ببنيْ هاشمٍ وبني المطّلبِ، وقد عارضَهم أبو جهلٍ، فلم يلتفِتوا إلى معارضتِه، فمزّقوا الصحيفةَ، وبَطُلَ ما فيها من اتفاقٍ، فخرجَ حينئذٍ الهاشميّونَ ومَنْ معهم من المسلمينَ من شِعْبِ أبي طالب. (١٨٢)

وَتَسْتَمِرُّ الدَّعْوَةُ فِي مَكَّةَ مَجَدَّدًا

بعد خروجِهِ من الشعبِ، واصَلَ رسولُ اللهِ جهودَه في نشْرِ دينِه وتنفيذِ رسالتِه. في المقابلِ، استمرّتْ قريشٌ في وضعِ العقباتِ أمامَه، محاولينَ منعَ الناسِ من التجمُّعِ حولَه والإستماعِ إليه بكُلِّ الوسائلِ المُمْكنةِ. ومع ذلك، بقيَ النبيُّ صبورًا ومتحمِّلًا، ولم يشعرْ بالتعبِ أو الملَلِ. وعلى الرغْمِ من كلِّ محاولاتِ قريشٍ، لم تتمكّنْ من تحقيقِ أهدافِها.

قَدِمَ على النبيِّ في هذه الفترَةِ أولُ وفْدٍ من خارجِ مَكّةَ، فكانوا من نَصارى الحبَشَةِ، وهم عشرونَ رجلاً، يرأسُهم جعفرٌ بنُ أبي طالبٍ، جاءوا معَهُ عند رجوعِه من الحبشةِ، فوجدوا النبيَّ في المسجِدِ الحرامِ، فكَلّموهُ وسألوهُ، ورجالٌ من قريشٍ يستمعونَ، وبعد دعوةِ الرسولِ لهم إلى الإسلامِ آمنوا بهِ وصدَّقوا بهِ، فلمّا قاموا أعترضَهم أبو جهلٍ وعنَّفَهم على إسلامِهم وتركِهم دينَهم، فقالوا: سلامٌ عليكم، لا نجادِلُكم، لنا ما نحنُ عليه، ولكم ما أنتُم عليه، فأعْرَضوا عنْهم، كانتْ هذه الحادثةُ ضربةً قاسيةً لقريشٍ وأهدافِها وخُطَطِها، والأكثرُ إيلاماً لهم أنّ هذا الوفدَ كانَ بقيادةِ جعفرٍ بنِ أبي طالبٍ، ممّا يعني أنّ الدعوةَ قد بدأتْ تأخذُ طريقَها إلى القلوبِ في المناطقِ التي لا تخضعُ لنفوذِ قريشٍ. (١٨٣)

عامُ الحُزْنِ

وفي السنةِ الثالثةِ قبلَ الهجرةِ كانتْ وفاةُ عمِّ محمدٍ أبي طالبٍ، ففقدَ النبيُّ بموتِه نصيرًا قويًّا وعزيزاً وفيًّا كانَ هو الحاميَ لهُ والدافعَ عنهُ وعن دينهِ ورسالتهِ، فدخلَ النبيُّ عليهِ وأبو طالبٍ مُسَجًّى، فراحَ النبيُّ يمسحُ جبينَه ويقولُ: يا عَمُّ كَفِلْتَ يتيمًا، وربيَّتَ صغيراً، ونصرتَ

كبيراً فجزاكَ اللهُ عنّي خيراً، فجزِعَ عليهِ وحزنَ حزنًا شديدًا وبكى وأمرَ عليًّا ابنَهُ بتغسيلِهِ ثمّ مشَى في جنازتِه.

ثمّ توفِيَتْ بمدّةٍ وجيزةٍ، بعدَهُ بثلاثةِ أيامٍ خديجةُ، عن عمرٍ يناهزُ السادسةَ والخمسينَ عاماً، أفضَلُ زوجاتِ النبيّ وأحسنُهُنَّ سيرةً وأخلاقًا مَعَهُ، ونستطيعُ أنْ نعرفَ كمْ كانَ لأبي طالبٍ وخديجةَ من خدماتٍ جُلَّى في سبيلِ هذا الدينِ من تسميةِ النبيّ عامَ وفاتِهما بعامِ الحُزنِ وجعلَ موتُ أبي طالبٍ وخديجةَ مصيبةً للأمّةِ بأسرِها حيثُ قالَ: اجتمعَتْ على هذه الأُمّةِ مصيبتانَ لا أدري بأيّهما أنا أشَدُّ جَزعًا. (١٨٤)

لقد كانَ يمثِّلُ شيخُ الأباطحِ أبو طالبٍ أهمَّ الركائزِ الأساسيةِ التي بُنِيَ عليها الإسلامُ، إذْ كانَ يعلمُ من آبائِه أنّ النبُوَّةَ التي جاءَ بِها محمدٌ بنُ عبدِ اللهِ هي النبوّةُ من إبراهيمَ وإسماعيلَ، تناقلَها نبلاءُ بنيْ هاشمٍ عِبرَ الأجيالِ حتّى وصلَتْ إليه، فصارَ منَ الساعاتِ الأولى لولادَةِ الإسلامِ الملجأَ والمعينَ لهذه الدعوَةِ، ولقائدِها النبيّ محمدٍ في تلك الأجواءِ العصبيّةِ والعنْجهيّةِ القريشيَّةِ المسْتفْحِلةِ، فقد كانَ بسياستهِ الحكيمةِ وفطنتِه الفَذَّةِ يمثِّلُ حلقةَ الوصلِ بينَ مشركيْ مكّةَ والرسولِ، فهو كانَ يُداريْهِم ويتودَّدُ إليهم، ويُظهِرُ لهم أنّه ليس على دينِ رسولِ اللهِ، وإنْ كانَ في الحقيقةِ مُسلِمًا ومناصرًا لهذا الدينِ، فكانَ يستثمرُ لنصرةِ رسولِ اللهِ كلَّ إمكاناتِه، من أبنائِه وأموالِه حتّى آخرَ أيامِ حياتِه، وكثيرًا ما كانَ يُجهِرُ بولائهِ للنبيِّ، كما قالَ في لاميَّتهِ الشهيرةِ(١٨٥)

كذَبتُمْ وَبَيتِ اللَهِ نبزى محمدًا ولَمّا نُطاعِنْ دونَهُ وَنُناضِلِ

وَنُسلِمهُ حَتّى نُصَرَّعَ حَولَهُ وَنذهلَ عَن أَبنائِنا وَالحَلائِلِ

١ نبزى: الأصل لا نبزى: لا النافية المحذوفة و المعنى لا نُغلب ولا نُقهر عليه.

٢ ونسلمه: معطوف على «نبزى»، أي: لا نُسلمه و لا نُخذله.

لَعَمري لَقَد كُلِّفتُ وَجْداً بِأَحمَدٍ   وَإِخوَتِهِ دَأْبَ المُحِبِّ المُواصِلِ

وَأَبيَضَ يُستَسقى الغَمامُ بِوَجهِهِ   ثِمالُ اليَتامى عِصمَةٌ لِلأَرامِلِ[1]

يَلوذُ بِهِ الهُلّاكُ مِن آلِ هاشِمٍ   فَهُمْ عِندَهُ فِي رَحمَةٍ وَفَواضِلِ

السفَرُ الى الطائفِ

في نفسِ العامِ رأى النبيُّ محمدٌ أنّ الدعوةَ الإسلاميةَ تتعرضُ لضغوطٍ قويةٍ تمنعُ من انتشارِها، ومن هنا كانَ لا بدَّ من تحرُكٍ جديدٍ يُعطي الدعوةَ دَفعةً جديدةً ويجعلُها أكثرَ حيويّةً، فأذِنَ اللهُ له بالخروجِ من مكّةَ ومحاولةِ نشرِ الدعوةِ في المدنِ المجاورةِ، فخرجَ النبيُّ محمدٌ إلى الطائفِ[2] بصُحبةِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ وزيدٍ بنِ حارثةٍ، كانَ أهلُ الطائفِ مرتبطينَ اقتصادياً واجتماعياً بأهلِ مكّةَ ومَنْ حولَهم، لأنّهُم كانوا يصَدِّرونَ الفاكهةَ التي هي عُمدَةُ محاصيلِهم إلى مكّةَ وغيرِها من الأطرافِ المحيطةِ بهم، إضافةً إلى أنّ صَنَمَهم المُسمَّى اللّاتُ كانَ مَحَطَّ زيارَةِ القوافِلِ العربيةِ بما له من مكانةٍ دينيةٍ بينَهم.

---

١ ثمال: الملْجأ والغِيَاث.

٢ الطائف: مدينة تقع في الحجاز وتبعد عن مدينة مكة ٧٥ كم تقريباً وتحيط بها الجبال من جميع الجهات.

حينَما وصلَ رسولُ اللهِ إلى الطائفِ، أقامَ فيها أيامًا عِدَّةً، لا يدعُ من أشرافِهم أحداً إلّا جاءَهُ وكلَّمهُ، فلم يجيبوهُ وخافوا على أطفالِهم ومصالحِهم، فطلبوا منهُ أنْ يخرجَ عنهم، وحرَّضوا عليهِ بعضَ الأشخاصِ، فجلسوا له في الطريقِ صَفَّينِ يرمونَهُ بالحجارةِ وعليٌّ يدافعُ عنه حتّى شُجَّ في رأسهِ، فخرجَ عنهم، ولكنّه كان مصَمِّماً على الإستمرارِ بالدعوةِ ومواجهةِ الصعوباتِ، فقال لعليّ: إنّ اللهَ جاعلٌ لما ترى فَرَجاً ومخرَجاً، وإنّ اللهَ ناصرُ نبيِّهِ ومظهرُ دينهِ. (١٨٦)



شكل(٢١): صورة تخيلية لأثنين من أهل الطائف
يتحدثون في أمر النبي.

وحينما رجعَ النبيُّ محمدٌ إلى مكّةَ، عَمدَ في الطريقِ إلى ظلِّ شجرةٍ وقد أنهكَهُ التعبُ، وسالَتْ الدماءُ من رأسِه، وهو يعلمُ أنّ أعداءَهُ يستعدّونَ للقائهِ بأنواعٍ من الأذى لم يعرفْها من قبلُ، فاشتدَّ عليه ذلك(١٨٧)، فدعا الله: "اللهمَّ إنّي أشكو إليكَ ضَعْفَ قوّتي، وقلَّةَ حيلتي، وهواني على الناسِ، أنتَ أرحمُ الراحمينَ، أنتَ ربُّ المستضعَفينَ، وأنتَ ربِّي، إلى مَنْ تكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهّمُني، أو إلى عدوٍّ مَلَّكْتَهُ أمري؟ إنْ لم يكنْ بكَ عليَّ غضبٌ فلا أُبالي، ولكنْ عافيتُكَ هي أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهِك الذي أشرقَتْ له الظلماتُ وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرةِ من أنْ ينزلَ بي غضبُك، أو يحلَّ عليَّ سخطُكَ، لكنْ لكَ العُتْبَى حتّى ترضى، ولا حولَ ولا قوةَ إلّا بكَ." (١٨٨)

لم تكنْ رحلةُ الرسولِ إلى الطائفِ دونَ نتائجَ إيجابيةٍ، فإنّ من الطبيعي أن يتركَ هذا الحادثُ آثاراً إيجابيةً من نوعٍ ما في أذهانِ مَنِ التقى بهِم وكلَّمَهم، وأن تُثمرَ فيما بعدُ ثمارَها المطلوبةَ والمرجوّةَ منها.

السنةُ الثانيةُ قبلَ الهجرةْ (٦١٩ ـ ٦٢٠ م)

المجاعَةُ في مَكّةَ

أصابَتْ قريشًا وأهلَ مكّةَ مجاعةٌ شديدةٌ، وكان ذلك بدعاءِ النبيِّ الذي دعا عليهم، حتّى أكلوا العِلهزَ[1]، وحتّى أحرقوا العظامَ فأكلوها، وأكلوا الكلابَ الميْتةَ والجيَفَ، ونبشوا القبورَ وأكلَتْ المرأةُ طفلَها، فأنشغلَ الناسُ بأنفسِهم وبمشاكلِهم، فأُتيحَتْ الفرصةُ للنبيِّ ولو لمدةٍ قصيرةٍ ليتحرَّكَ في سبيلِ دينهِ ورسالتِه داعيًا إلى اللهِ ومجاهداً في سبيلهِ فلمّا دخلتْ السنةُ الثانيةُ قبل الهجرةِ، جاءَ أبو سفيانَ إلى النبيِّ فقالَ له: يا محمدُ، جئتَ بصِلةِ الرحِمِ، وقومُك قد هلَكوا جوعًا، فادعُ اللهَ لهم. دعا رسولُ اللهِ لهم، فكشفَ اللهُ سبحانَهُ عنهم المجاعةَ. إنّما يستجيبُ النبيُّ لأبي سفيانَ ليعطيَهُ دليلاً جديدًا على أنّ ما جاءَ به هو الحقُّ، وليُقيمَ الحجّةَ عليه، وعلى كلِّ مَنْ يرى مثلَ رأيِه.

النبيُّ يعرضُ الإسلامَ على القبائلِ في مَكَّةْ

لم يتوقّفْ رسولُ اللهِ عن دعوةِ الناسِ إلى اللهِ وإلى دينِ الإسلامِ، فكان يغتنمُ الفُرصةَ في مواسمِ الحجِّ فيعرضَ دينَه على القبائلِ، لعلَّها تعتنقُ الإسلامَ، وتعملُ على نشرهِ وتأييدِه وحمايتهِ ونُصرتهِ، حتّى أنّه ما كان يسمعُ بقادمٍ إلى مَكّةَ، له منزلةٌ وشرَفٌ إلّا ودعاهُ إلى الإسلام. وكانَ عمُّه أبو لهبٍ يراقِبهُ أنَّى توجَّهَ، ويُعقِّبُ على كلامهِ، ويطلبُ منهم أنْ لا يقبلونَ منه، ولا يطيعونَهُ في شيءٍ ويتَّهمهُ بالجنونِ والسِّحرِ.

---

١ العِلْهِزُ: وهو طعام من دم يابس يُدقُّ به أوبار الإبل، تأكله العرب في الجاهلية في المجاعات.

كانَ الناسُ في الغالبِ يسمعونَ من قريشٍ ويتبعونَهم، إمّا خشيةً من سلطانِها ونفوذِها، وإمّا حِفاظًا على مصالِحِهم الإقتصاديةِ في مكّةَ، لذا؛ كان رسولُ اللهِ حينما يعرِضُ دعوتَه على القبائلِ، كانوا يردّونَ عليهِ أقبحَ الردِّ ويقولونَ: أسرتُكَ وعشيرتُكَ أعلمُ بك حيثُ لم يتَّبعوكَ. ومَرّةً عندما كانَ النبيُّ يعرضُ دعوتَه على القبائلِ أتى بنو عامرٍ بنِ صَعْصَعَةْ فدعاهم إلى دينِ الله، وعرضَ عليهم دعوتَه، فقال لهم رجلٌ منهم اسمُه بحيرةُ بنُ فراسٍ: واللهِ لو أنّي أخذتُ هذا الفتى من قريشٍ لأكلتُ به العربَ. ثمّ قال بحيرةُ للنبيِّ محمدٍ: أرأيتَ إنْ نحنُ بايعناكَ على أمرِك، ثم أظهرَك اللهُ على مَنْ خالفَك، أيكونُ لنا الأمرُ من بعدِكَ؟ قالَ النبيُّ: الأمرُ للهِ، يضعُه حيثُ يشاءُ، فقال له: أفنهدِفُ نحورَنا للعربِ دونَكَ، فإذا أظهركَ اللهُ كان الأمرُ لغيرِنا! لا حاجةَ لنا بأمرِك. فأبوا عليه، فلمّا صَدَرَ الناسُ رجعَ بنو عامرٍ إلى شيخٍ لهم، فسألَهم عمّا كان في موسِمِهم، فقالوا: جاءنا فتىً من قريشٍ من بني عبد المطّلبِ يزعمُ أنّه نبيٌّ، يدعونا إلى أنْ نمنَعَهُ ونقومَ معهُ، ونخرجُ به إلى بلادِنا. فوضعَ الشيخُ يديهِ على رأسِهِ، ثمّ قالَ: يا بني عامرٍ، هلْ لها من تَلافٍ[١]؟ هلْ لِذَنَاباها منْ مطْلَبٍ[٢]؟ والذي نفسُ فلانَ بيدِهِ ما تقوَّلَها إسماعيليٌّ قطُّ، وإنّها لَحقٌّ، فأينَ كان رأيُكُم عنَكم!؟(١٨٩)

ومثلُ ذلك جرى له مع قبيلةِ كِنْدةْ. ولكنّ نبيَّ الإسلامِ على الرغْمِ من أنّهُ كان بأمسِّ الحاجةِ إلى مَنْ يمدُّ له يدَ العونِ لا سيَّما من قبيلَةٍ كبيرةٍ كبني عامرٍ تملكُ من العُدّةِ والعددِ ما يمكِّنُها من حمايتِهِ والردِّ عنْه إلّا أنّه يرفضُ أنْ يَعِدَ بما لا يملكُ الوفاءَ به، حتّى ولو كانَ هذا الوعدُ يجرُّ عليه الربحَ الكثيرَ فِعلًا، إذ إنّ الأمرَ للهِ، يضعُه حيثُ يشاءُ.

وفي السنةِ نفسِها وبينَما يعرضُ النبيُّ على القبائلِ دعوتَه ويطلبُ منهم نصرتَه، التقى في العقَبةِ برَهْطٍ من الخزرجِ وهم قبيلةٌ من يثربَ، فدعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهمُ القرآنَ فآمنوا به، وكانوا ستةَ أنفارٍ، وهم: أسعدُ بنُ زُرارةَ، وجابرُ بنُ عبد اللهِ بنُ رِئابٍ، وعوفٌ بن الحارثِ، ورافعٌ بن مالكٍ، وعقبةُ وقطبةُ ابنا عامرٍ، طلبَتْ هذه الجماعةُ من النبيِّ أنْ

---

١ تلافى الخطأ: تداركه، وتلافى الأمر: ابتعد عنه واجتنبه.

٢ وهو مثل عربي يقال فيمن أضاع فرصة ثمينة وأصله من يطلب ذنابي الطير إذا أفلت.

يبيّنَ لهم ما يدعوهم إليه، فقالَ: إنّي أدعوكم إلى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنّي رسولُ اللهِ، وأدعوكم إلى ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ [1] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ (١٩٠)

ورجعَ أولئك النفرُ إلى قومِهم في يثربَ، فذكروا لهم رسولَ اللهِ ودعوهم إلى الإسلام.

لقد كانَ أهلُ يثربَ يسمعونَ من اليهودِ خبرَ ظهورِ النبيِّ عن قريبٍ، فجعلَهم ذلك مُهَيَّئينَ نفسيًّا لقبولِ الدينِ الذي جاءَ به النبيُّ، (١٩١) وتقعُ مدينةُ يثربَ شمالَ شرقِ مكّة، وتقطنُها قبيلَتا الأوسِ والخزرجِ منذُ عشَراتِ السنينَ، لكنّ الحروبَ المستمرةَ بينَهما جعلَتْ الحياةَ في المدينةِ صعبةً والحالةَ مأساويّةً، وكانت آخرُ هذه الحروبِ وقعةَ بُعاثٍ، التي انتصَرتْ فيها قبيلةُ الأوسِ عندما كان المسلمونَ والهاشميّونَ مع النبيِّ محصورينَ في شِعْبِ أبي طالبٍ.

إنّ أهلَ يثربَ لم يكن عندهم ما كانَ عند أهلِ مكّةَ من مُعاداةٍ لدعوةِ النبيِّ، لأنّ قريشًا رأوا في هذا الدينِ الجديدِ خطرًا على مصالحِهم الشخصيةِ وامتيازاتِهم الظالمَةِ، بلْ كانَ أهلُ يثربَ يتطلّعونَ إلى الخروجِ من مأساةِ الحربِ الأهليَّةِ التي كانتْ تدورُ بينَهم، ووجدوا في رسولِ اللهِ ودينِه المُنقذَ الحقيقيَّ لهم، بما فيه من تعاليمِ الشريعةِ السهلةِ السمحاءِ، فإنّ الوثنيّةَ التي كان أهلُ المدينَةِ يدينونَ بها لم تستطعْ أنْ تحُلَّ مشاكلَهم الداخليةَ على اختلافِها، ولم تخفِّفْ من حِدّتِها، وهذا تمامًا على عكسِ الحالِ في مُشركيْ مكّةَ، فإنّهم كانوا يستفيدونَ منْ وثنيَّتِهم اجتماعياً واقتصادياً، وكرَّسوا لأنفسِهم الكثيرَ من الامتيازاتِ الظالمةِ، ولم يكونوا على استعدادٍ للتخليّ عن هذه الامتيازاتِ من أجلِ خدمةِ هذا الدينِ، وإنْ كانَ يدعو إلى

---

١ إمْلَاقٍ: فقر.

الحقِّ والإنسانيةِ، بلْ كانوا يضحّونَ بالإنسانِ والحقِّ في سبيلِ امتيازاتِهم وانحرافاتِهم ومصالحِهم تلك. (١٩٢)

بَيْعَةُ العقبَةِ الأُولى

عندما عادَ أولئكَ النفَرُ الذينَ أسلموا إلى يثربَ، ذكروا لأهلِها ما دارَ بينَهم وبينَ رسولِ اللهِ، ودعوهمْ إلى الإسلامِ حتّى انتشرَ بينَهم، فلم تبقَ دارٌ من دُورِ الأنصارِ إلّا وفيها ذِكرٌ لرسولِ اللهِ، وعندما دخلَ العامُ التاليْ من السنةِ الأولى قبلَ الهجرةِ جاءَ في هذا الموسمِ اثنا عشرَ رجلاً، اثنانِ منهم أوسِيّانِ، والباقونَ منَ الخزرجِ، فالتقوا بالرسولِ في العقَبةِ، وبايعوهُ على بيعةِ النساءِ، أيْ البَيْعةُ التي لا تشتَمِلُ على حربٍ، وكانَ مضمونُ هذه البيعَةِ: ألّا يُشركوا باللهِ شيئاً، ولا يسرقونَ، ولا يزنونَ، ولا يقتلونَ أولادَهم، ولا يأتونَ بِبُهتانٍ يفترونَهُ من بينِ أيديهِمْ وأرجلِهِم[١]، ولا يعصونَهُ في معروفٍ، فإنْ أوفوا، فلهُمْ الجنَّةُ، وإنْ غَشُّوا في ذلك شيئاً، فأمْرُهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، إنْ شاءَ عذَّبَ، وإنْ شاءَ غفرَ، ولمّا رجِعوا إلى المدينةِ أرسلَ النبيُّ معهم مُصعبًا بنَ عُميْرٍ لِيُقرِئهُمُ القرآنَ ويعلِّمَهمْ الإسلامَ، ويُفقِّههُمْ في الدينِ فكانَ يُسمَّى المقرِئُ، ثمّ ألحقَهُ بابنِ أمِّ مَكْتومٍ، وهناكَ أقامَ مصعبٌ أولَ صلاةِ جُمُعَةٍ في يثربَ، وقد نجحَ مصعبٌ ومَنْ معهُ من الذين أسلموا للهِ في الدعوةِ إليهِ، ثمّ أسلمَ سعدٌ بنُ معاذٍ الذي كانَ السببَ في إسلامِ قومِه بني عميرٍ بنِ عبدِ الأشهلِ، وبعد مدّةٍ قضاها مُصعَبٌ في التبليغِ للدعوةِ إلى الإسلامِ في يثربَ، عادَ إلى مكّةَ، فعرضَ على النبيِّ نتائجَ عملِه، فَسُرَّ بذلكَ نبيُّ الإسلامِ سرورًا عظيماً. (١٩٣)

---

١ يأتون ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم: تعني بأن تزني المرأة ثم تحمل وعندما تلد تنسب الطفل إلى زوجها دون علمه.

عامُ الهِجْرَةِ (٦٢١ ــ ٦٢٢ م)

بَيْعَةُ العقَبةِ الثانِيَةْ

وفي العامِ التالي أتى من أهلِ يثربَ جماعةٌ كبيرةٌ بقصدِ الحجِّ، يُقدَّرُ عددُهم بخمسمئةِ نَفَرٍ، فيهم غيرُ المسلمينَ وفيهم المسلمونَ المتخوِّفونَ من حُجّاجِ قريشٍ، والتقى بعض مسلميهم بالرسولِ ووعدَهم اللقاءَ في العقبةِ في أواسطِ أيامِ التشريقِ[1] ليلًا إذا هدأتْ الحركةُ، وأمرَهم ألاّ ينَبِّهوا نائماً، ولا ينتظروا غائبًا، كي لا ينكشفَ أمرُهم، وفي تلك الليلةِ بالأخصِّ ناموا مع قومِهم في رحالِهم حتّى إذا مضى ثلثُ الليلِ بدأوا يتسلّلونَ إلى مكانِ الموعدِ واحداً تلو الآخرِ، ولم يشعرْ بهم أحدٌ حتّى اجتمعوا في الشِعبِ عند العقبةِ، وهم سبعونَ أو ثلاثةٌ وسبعونَ رجلًا وامرأتانِ، فالتقوا بالرسولِ هناك في الدارِ التي كان نازلًا فيها وهي دارُ عبدِ المطّلبِ، وبايعوهُ على أنْ يمْنَعوهُ[2] وأهلَه ممّا يمنعونَ منه أنفسَهم وأهليهم وأولادَهم، وأن يُؤوهُ وينصروهُ، على السمعِ والطاعةِ في النشاطِ والكسلِ، والنفَقةِ في العُسرِ واليسرِ، وعلى الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المُنْكرِ، وأنْ يقولوا في اللهِ الحقَّ ولا يخافونَ فيه لومةَ لائمٍ، فقالَ عُبادَةُ بنُ الصامتِ: بايعْنا رسولَ اللهِ على السمعِ والطاعةِ في العسرِ واليسرِ والمَنْشَطِ والمَكرَهِ، وألّا ننازعَ الأمرَ أهلَه، وأن نقولَ بالحقّ حيثُما كنّا، ولا نخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ، أدركَ العباسُ بنُ عبادةَ[3] خطورةَ الموقفِ فقالَ لهم: يا معشرَ الأوسِ والخزرجِ، تعلمونَ على ما تقدِمونَ عليه؟ إنّما تقدِمونَ على حربِ الأحمرِ والأسودِ[4]، وعلى حربِ ملوكِ الدنيا فإنْ علمتُم أنّه إذا أصابتْكم المصيبةُ في أنفسِكم خذلتموهُ وتركتموهُ، فلا تغرّوهُ

---

١ هي الأيام الثلاثة المعروفة في الحج: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر بعد النحر، والحجاج يكملون فيها حجهم.

٢ مَنَعَ الرجلُ جارَه: نصره، وأجاره وحماه، والمَنَعَة: هي النُّصرة والحماية.

٣ العباس بن عبادة: وهو من الخزرج و جاء من يثرب إلى البيعة.

٤ الأحمر والأسود: أي مختلف الناس من العرب والعجم.

فإنّ رسولَ اللهِ، وإنْ كان خالفَهُ قومُهُ فهو في عِزٍّ ومِنعةٍ، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ حِزامٍ وأسعدُ بنُ زُرارةَ وأبو الهيثمِ بنُ التيهانِ للعباس: ما لكَ وللكلامِ؟!، ثمّ وجَّهوا كلامَهم الى النبيّ: يا رسولَ اللهِ، بلْ دَمُنا بدمِكَ، وأنفسُنا بنفسِك، فاشترطْ لنفسكَ ولربِّك ما شئتَ، ثمّ قالَ أسعدُ بن زرارةَ : يا رسولَ اللهِ إنّ لكلِّ دعوةٍ سبيلًا؛ إنْ لَيِّنًا، وإنْ شِدّةً، وقد دعوتَ اليومَ إلى دعوةٍ متجهّمةٍ للناس، متوعِّرةٍ عليهم، دعوتَنا إلى تركِ دينِنا واتباعِك على دينِك، وتلك رتبةٌ صعبةٌ، فأجبناكَ إلى ذلك، ودعوتَنا إلى قطعِ ما بيننا وبينَ الناس من الجِوارِ والأرحامِ، القريبةِ والبعيدةِ، وتلك رتبةٌ صعبةٌ، فأجبْناكَ إلى ذلك، ودعوتَنا ونحنُ جماعةٌ في دارِ عزٍّ ومِنْعةٍ، لا يطمعُ فيها أحدٌ أن يرأسَ علينا رجلٌ من غيرِنا، أفردَهُ قومُهُ وأسلمَهُ أعمامُه[١]، وتلك رتبةٌ صعبةٌ، فأجبْناك إلى ذلك، وبعد أنْ استَمعَ إلى أجوبتِهم، طلبَ النبيُّ منهم أنْ يُخرِجوا لهُ اثنيْ عشرَ نقيباً، أيْ كفيلًا يكفلونَ قومَهم، فأخرجوا لهُ تسعاً من الخزرجِ وثلاثًا منَ الأوسِ فكانوا نُقباءَ وكُفلاءَ قومِهم.

حينَ عرفَتْ قريشٌ بهذا اللقاءِ، هاجَتْ وأقبلوا بالسلاحِ، وسمعَ الرسولُ النداءَ فأمرَ الأنصارَ بالتفرُّقِ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ إنْ أمرتَنا أنْ نميلَ عليهم بأسيافِنا فعلْنَا، فقالَ: لم أؤمَرْ بذلكَ، ولم يأذنِ اللهُ في محاربَتِهم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ أفتخرجُ معنا؟ قالَ: انتظرُ أمرَ اللهِ، فجاءتْ قريشٌ -عنْ بِكْرَةِ أبيْها-، وقد حملوا السلاحَ، وخرجَ حمزةُ وعليٌّ بنُ أبي طالبٍ يحملانِ السلاحَ، فلمّا نظروا إلى حمزةَ، قالوا: ما هذا الذي اجتمعْتُم لهُ؟ فقالَ: ما اجتمعْنا، وما هاهُنا أحدٌ، واللهِ لا يجوزُ أحدٌ هذه العقَبةَ إلّا ضربتُه بسيفي، كانَ إنكارُ حمزةَ لاجتماعِهم هو للحفاظِ على حياةِ النبيِّ والثُّلّةِ القليلةِ منَ المسلمينَ من فُرسانِ قريشٍ المسلَّحينَ.

ثمّ تفرّقَ الأنصارُ، ورجعَ رسولُ اللهِ إلى مَكّةَ، فرجِعَتْ قريشٌ والوساوسُ تخالجُها من أنْ يكونَ محمدٌ فعلاً كانَ يعقدُ اتفاقاً مع قبائلِ يثربَ ليدخلوا في دينهِ وبذلكَ قد تخسرُ قريشٌ حليفًا استراتيجيّاً لها وطريقًا تجاريّةً أساسيّةً عبرَ يثربَ، لذى أرسلتْ قريشٌ نَفرًا منهم بعد شروقِ الشمسِ إلى ذلك المكانِ مجدَّدًا ليتأكّدوا منَ الأمرِ، ثمّ ذهبوا إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ

---

١ أفرده قومه وأسلمه أعمامه: أي عزله قومه وسلمهُ أعمامه ويقصد به رسول الله.

وكانَ من زعماءِ الخزرجِ فقالوا لهُ: قد بلغَنا أنّ قومَك بايعوا محمدًا على حربِنا، واللهِ ما مِنْ حيٍّ أبغضُ مِنْ أنْ ينشبَ الحربُ بينَنا وبينَه منْكم، فحلفَ لهم عبدُ اللهِ أنّهم لم يفعلوا ولا علمَ لهُ بذلكَ، وأنّهم لم يُطلِعوهُ على أمرِهم، ولكنْ قريشٌ تأكّدَتْ بعد ذلكَ من صحّةِ الخبرِ فخرجَتْ في طلبِ الأنصارِ، فأدركوا سعدًا بنَ عُبادةَ والمنذرَ بنَ عميرٍ، فأمّا المنذرُ فاستطاعَ الإفلاتَ منْهم، وأمّا سعدٌ فأخذوهُ وعذّبُوهُ، فبلغَ خبرُهُ جبرَ بنَ مطعمٍ والحارثَ بنَ حربٍ بنِ أميّةَ، فأتياهُ وخلّصاهُ.

الهجرةُ إلى يَثْرَبَ

أخذَتْ قريشٌ بالتشديدِ على المسلمينَ في مَكَّةَ، فازدادَ البلاءُ عليهِم، إذ ضيَّقَتْ قريشٌ عليهم غايةَ التضييقِ واضطهدَتهُم بأشدِّ أساليبِ التعذيبِ والأذى والقطيعةِ، وأصبحَ عيشُهم في مَكّةَ لا يُطاقُ، فشكوا ذلك إلى رسولِ اللهِ واستأذنوهُ بالخروجِ منها، فسمحَ لهم بالهجرةِ إلى يثربَ بعد ثلاثةِ أشهرٍ من بَيْعةِ العقَبةِ الثانيةِ، وقالَ لهمْ: إنّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- قد جعَلَ لكم إخواناً وداراً تأمنونَ بها، إذْ أنَّ مَكَّةَ لم تعُدْ أرضًا آمِنةً للمسلمينَ ولا صالحةً لمواصلةِ الدعوةِ فيها فقد حصلَ النبيُّ منها على أقصى ما يمكنُ الحصولُ عليه، ولم يبقَ لهُ فيها أيُّ أملٍ في دخولِ أفرادٍ جُددٍ في الدينِ، لذلك كانَ لا بُدَّ من الانتقالِ إلى مكانٍ آخرَ تضمَنُ الدعوةُ فيه لنفسِها حريةَ الحركةِ في القولِ والعملِ بعيداً عن ضغوطِ قريشٍ، لذا كانتْ الهجرةُ إلى يثربَ هي الخيارُ الأفضلُ، وذلك لأنّ الهجرةَ إلى الطائفِ لم تكنْ تُجدي نفعًا، كما أنّ اليمنَ وبلادَ فارسٍ وبلادَ الرومِ وبلادَ الشامِ وغيرِها من البلدانِ كانتْ في ذلك الزمانِ خاضعةً لسلطةِ دولَتَينِ عظيمتَينِ، ولم يكنْ نصيبُ الرسولِ والرسالةِ منها سوى المتاعبِ والأخطارِ الجسيمةِ، وأمّا الحبشةُ فهي بحُكمِ موقعِها الجغرافيّ مفصولةٌ عن مَكّةَ، لهذا كان لا بدَّ من اختيارِ مكانٍ قريبٍ من مكّةَ، يمكنُ أنْ يمارسَ النبيُّ منهُ عليها رقابةً ونوعاً من الضغطِ السياسي والاقتصادي، وحتّى العسكري للسيطرةِ عليها، والقضاءِ على نفوذِها الوثنيِّ، وتطهيرِها منه، واستبدالِهِ بالنفوذِ الإسلامي، -خصوصاً - أنّ أهلَ يثربَ أنفسَهم قد طلبوا ذلكَ من النبيّ وبايعوهُ بَيعَةَ العقَبةِ، ووعدوهُ بالنصرِ، لذا هاجرَ المسلمونَ سرًّا إلى

يثربَ وعلى شكلِ أفرادٍ، مُضَحّينَ بوطنِهم، وبمكانَتِهم الإجتماعيةِ، وبكلِّ ما يملكونَ في سبيلِ دينِهِم وعقيدتِهم، ثمّ أذِنَ اللهُ لنبيّهِ بالهجرَةِ إليها أيضاً. (١٩٤)

مؤامرةُ اغتيالِ النبيِّ

عندما علمَتْ قريشٌ بنِيّةِ النبيِّ وأصحابهِ في الهجرةِ من مكّةَ، أرادَتْ أنْ تتدارَكَ الأمرَ قبلَ خروجِهم للقضاءِ عليهِ. لذلكَ اجتمعَ أشرافُ قريشٍ في دارِ الندوةِ، ولم يتخلّفْ منهم أحدٌ،



شكل(٢٢): صورة تخيلية لأجتماع زعماء قريش في دار الندوة لاغتيال النبي.

وفيهم ممَثّلونَ عن: بني عبدِ شمسٍ، ونوفلَ، وعبد الدّارِ، وجُمَحٍ، وسَهمٍ، وأسدٍ، ومخزومٍ، وغيرِهم، وقد اشترطوا: ألّا يدخلَ معهم تُهاميٌّ، لأنّ هواهم كان مع محمدٍ، كما أنّهم حرصوا ألاّ يكونَ عليهم رقيبٌ من الهاشميينَ أو مِمَّنْ هو قريبٌ إليهم، وقد رُويَ إنّ إبليسَ كان حاضراً معهَم بهيئةِ شيخٍ نَجْدِي(١٩٥)، تشاورَ المجتمعونَ فيما بينَهُم ما يجبُ أنْ يفعلوا بمحمدٍ، فاقترَحوا أنْ يُحبسَ ويقيَّدَ بالحديدِ، ولكنّهُم احتملوا أنْ يأتي أنصارُهُ ويطلقونَ سراحَه، وأنْ ينفوهُ إلى بلادٍ بعيدةٍ، ولكنّهم رأوا أنّ ذلكَ يمكِّنُ الرسولَ من نشرِ دينهِ في

البلدانِ الأخرى، فاستقرَّ رأيُهم أخيراً على اقتراحٍ، وقد نُسِبَ إمّا لأبي جهلٍ أو لإبليسَ، وهو أنْ يأخذوا من كلِّ قبيلةٍ شابًا جَلْدًا قويًّا، حسيباً في قومِه، نسيباً، وسَطًا، ويُعطى كلُّ واحدٍ منهم سيفاً صارماً، ويدخلونَ على النبيِّ بأسيافِهم فيضربونَه ضربةَ رجلٍ واحدٍ، وعندما يقتلونَه بهذهِ الطريقةِ فإنّ دمَهُ سوفَ يتفَرّقُ بينَ القبائلِ، وستضطَّرُ عشيرتُه بنوعبدِ منافٍ إلى قبولِ الديَّةِ لأنّ بني عبدِ منافٍ ساعتَها لا يقدرونَ على حربِ قومِهم جميعاً، فسيرضونَ بِها، وينتهيْ الأمرُ. أخبرَ اللهُ نبيَّهُ بهذه المؤامرةِ عن طريقِ الوحيِ، وأنّ اللهَ سيبطلُ خطّةَ الكافرينَ الماكرةَ (١٩٦)



شكل(٢٣): رجال ملثمون يريدون أغتيال النبي.

لقد اختارتْ قريشٌ من قبائلِها ما يقاربُ خمسةَ عشرَ رجلاً، ليقتُلوا النبيَّ بضربَةٍ واحدةٍ بسيوفِهم، فاجتمعوا على بابِ النبيِّ وهم يراقبونَهُ منتظرينَ بياتَه. (١٩٧) وكانَ فيهم: الحَكَمُ بنُ أبي العاصِ، وعقبةُ بنُ أبي معيطٍ، والنضرُ بنُ الحارثِ، وأميّةُ بنُ خلَفٍ، وزُمعَةُ بنُ الأسودِ، وعبدُ العُزَّى بنُ عبدِ المطّلبِ (أبو لهبٍ)، وعمرو بنُ هشامٍ (أبو جهل)، وأبو الغيطَلَةْ، وطعيمة بنُ عديٍّ، وأبيٌّ بنُ خلفٍ، وخالدٌ بنُ الوليدِ، وعتبةُ بنُ ربيعةَ، وشيبةُ بنُ ربيعَةَ، وحكيمٌ بنُ حزامٍ، ونبيهُ بنُ الحجّاجِ، ومنبّهُ بنُ الحجّاجِ.

عليٌّ في فراشِ النبيِّ

عرفَ النبيُّ بخطّةِ قريشٍ وأنّهم يريدونَ قتْلهُ غِيْلةً وهو في فراشهِ أو عندما يخرجُ، لذلك، قرَّرَ خداعَهُم وجعَلَهم يعتقدونَ أنّه لا يزالُ في فراشِه، بينَما كانَ يخطّطُ للهروبِ منَهمْ، لذلكَ أمرَ عليًّا بالمبيتِ على فراشِه، بعد أنْ أخبرَهُ بمكرِ قريشٍ، فقالَ عليٌّ: أوتسلمُ بِمَبيتيْ هناكَ يا نبيَّ اللهِ؟ قالَ: نعمْ، فتبسَّمَ عليٌّ ضاحكاً وأهوى إلى الأرضِ ساجدًا، شُكراً للهِ، فنامَ عليٌّ بِفراشِ النبيِّ، واشتمَلَ بِبُردَةِ [1] النبيِّ الحضرَميّةِ، وهنا تبدأ قصةٌ من أروعِ ما عرفَهُ تأريخُ الفداءِ والتضحيةِ، فالشجعانُ والأبطالُ يَثْبُتونَ في المعاركِ في وجهِ أعدائهم، يدافعونَ بما لديهِم من سلاحٍ وعَتادٍ معَ أنصارِهم وأعوانِهم، وقد تضطرُّهُمُ المعاركُ إلى إنْ يثبتوا أمامَ العدوِّ ولكنْ مع أنصارِهم، أمّا إن يخرجَ الإنسانُ إلى الموتِ طائعاً مطمئنًّا دونَ سلاحٍ ولا عَتادٍ، كأنّهُ يخرجُ ليُعانقَ غادةً حسناءَ، فينامُ عليٌّ في فِراشٍ تحفُّ بهِ المخاطِرُ والأهوالُ، أعزلَ من كلِّ شيءٍ إلّا من إيمانِه وثقتِه بربِّه وحرصِهِ على سلامةِ القائدِ، كما حدثَ لعليٍّ حينَما عَرضَ عليهِ ابنُ عمّهِ محمدٌ أمرَ المبيتِ على فراشِه، ليتمكَّنَ هو من التخلُّصِ من مؤامرةِ قريشٍ والهجرةِ من مكّةَ، فهذا ما لم يصدرْ من أحدٍ في تاريخِ البطولاتِ، ولا في تاريخِ المغامراتِ، وما كلُّ ذلك إلّا في سبيلِ المبدَئِ والعقيدةِ.

ثمّ خرجَ النبيُّ في فَحمَةِ العشاءِ، والرُّصَّدُ من قريشٍ قد طافوا بدارِهِ ينتظرونَ خروجَه، وهو يقرأ: ﴿وجعلْنا مِنْ بينِ أيديِهم سدًا ومنْ خلْفِهم سداً فأغشيناهمْ فهمْ لا يُبصرِون۝﴾ (١٩٨)وكانَ بيدِهِ قبضةٌ من ترابٍ، فَرَمى بِها على رؤوسِهم، ومَرَّ مِنْ بينِهم، فما شَعروا بهِ، وأخذَ طريقَه منطلِقاً إلى جبلِ ثَورٍ.

أوحى اللهُ إلى جبرائيلَ وميكائيلَ: إنّي آخيْتُ بينَكما، وجعلتُ عُمْرَ أحدِكما أطولَ مِنْ الآخرِ، فأيُّكما يُؤثِرُ صاحبَه بالحياةِ؟ فاختارَ كِلاهُما الحياةَ، فأوحى اللهُ إليهِما: ألا كنتُما مَثْلَ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، آخيْتُ بينَهُ وبينَ محمدٍ، فباتَ على فراشِهِ يفديْهِ بنفسهِ، ويؤثِرَهُ بالحياةِ، اهبِطا

---

[1] البُرْدَة: كساء مُخطّط يُلتحَفُ به.

إلى الأرضِ، فاحفظاهُ مِنْ عدوِّهِ، فَنَزَلا فكانَ جبرائيلُ عند رأسِه، وميكائيلُ عند رِجليْهِ، وجبرائيلُ ينادي: بَخٍ بخٍ؛ مَنْ مثلُكَ يا بنَ أبي طالبٍ يُباهي اللهُ بهِ الملائكةَ؟ (١٩٩) فقالَ اللهُ إنّ هناكَ رجلًا يبيعُ نفسَه من أجلِ رِضا اللهِ، لا يريدُ إلّا ما يريدُهُ اللهُ، ولا يعتزُّ إلّا بربِّهِ، ولا يتَّبِعُ هواهُ، إنّ وجودَ شخصٍ بهذه الصفاتِ في المجتمَعِ هو دليلٌ على رحمَةِ اللهِ بالناسِ، فإذا لم يكُنْ هناكَ رجالٌ بهذه الصفاتِ بينَ الناسِ وبالمقابلِ هناكَ رجالٌ مُفسِدونَ، لانْهارَتْ أركانُ الدينِ وانتشرَ الفسادُ والباطلُ. (٢٠٠)


شكل(٢٤): صورة خيالية لعلي وهو ينام مكان النبي ليفتديه بنفسه.

أخَذَ المهاجمونَ يرمونَ عليًّا بالحجارةِ ظنًّا منهمْ أنّه محمدٌ، وهو يتقلَّبُ في الفراشِ، وقد لفَّ رأسَه في الثوبِ لا يُخرجُهُ حتّى أصبحَ، فهجموا عليهِ، فلمّا بَصُرَ بهم عليٌّ قد انتضوا السيوفَ، وأقبلوا عليهِ يقدِمُهمْ خالدُ بنُ الوليدِ، وثَبَ لهُ عليٌّ، فأخَذَهُ على غفْلَةٍ، وهمزَ يدَهُ، فتفاجأَ خالدٌ وارتعَبَ، فأخذَ عليٌّ من يدِهِ السيفَ، وشدَّ عليْهم بسيفِ خالدٍ، فجَفلُوا أمامَهُ إجفالَ النَّعَمِ إلى خارجِ الدارِ، وتَبَصَّروهُ فإذا هو عليٌّ.

فقالوا وإنّكَ لَعَلِيٌّ! قالَ: أنا عليٌّ، قالوا: إنّا لم نُرِدْكَ، فما فعلَ صاحبُكَ؟ قالَ: لا علمَ ليْ بهِ، فتراجعوا عنهُ، وأسرعوا إلى قومِهم لإخبارِهم بما جرى ليتدبّروا الأمْرَ قبلَ فواتِ الأوانِ، (٢٠١)

قالَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ وهو يذكُرُ مبيتَهُ على فراشِ رسولِ اللهِ:.

وقيتُ بنفسِيَ خيرَ مَنْ وطِئَ الحَصى ... وَمَنْ طَاْفَ بالبَيْتِ العَتِيْقِ وبالحِجْرِ
محمدٌ لمّا خافَ أنْ يمكروا بهِ ... فَوَقَّاهُ رَبِّي ذُو الجَلالِ مِنَ المَكْرِ
وَبِتُّ أُراعِيْهِم مَتَى ينشرُونَني ... وَقَدْ قَرَّرَتْ نَفْسي عَلَى القَتْلِ والأَسْرِ
وَبَاْتَ رَسُولُ اللهِ في الغارِ آمِنًا ... هناكَ وفي حِفْظِ الإلهِ وفي سَتْرِ
أقامَ ثلاثاً، ثمّ زُمَّتْ قَلائِصٌ[١] ... قلائصُ يَفْرِينَ الحصا أيمّا يَفْرِيْ

النبيُّ في الغارِ

لقد أخرجوا النبيَّ من عندِهم! لقد أخرجوهُ من مكّةَ وحيداً، لقد كذّبوهُ وخذَلوهُ وهم يعرفونَهُ حقَّ المعرفةِ، يعرفونَ صِدقَه وعقلَه وأمانتَه وإخلاصَه وأخلاقَه الحسنةَ، لقد أخرجتْ قريشٌ محمدًا ولم ينصروهُ ولم يسمعوهُ ولم يقبلوا منهُ ما يقولُ، رَغمَ البراهينَ التي قدَّمَها لهم، خرجَ الرسولُ وحيداً هَرَباً من غدرِهم، فالتقى بأبي بكرٍ في الطريقِ، الذي كانَ خارِجًا يريدُ أنْ يسمعَ الأخبارَ، فرافقَهُ، وسارا معاً مسافةَ ٥ كم تقريباً جنوباً حتّى وصلا إلى جبلِ ثَورٍ واختبئا في كهفٍ هناكَ.

١ القلوص: الناقة الشابة، وجمعه قلص، النشر: التقطيع بالمنشار، الفري: القطع، زَمَّ الجَمَلَ: جَعَلَ لَهُ زِماماً.

نشرَتْ قريشٌ العيونَ[١]، وركبوا في طلبِ النبيِّ الصَّعْبَ والذَّلُولِ، واقتفوا أثْرَهُ، وبعثوا إلى خبيرٍ يُحسِنُ معرفةَ الأثَرِ وتَتَبّعَهُ، فأخبرَهم أنّ شخصاً رافقَ النبيَّ في تلكَ المنطقةِ. استمرُّوا يقتفونَ الأثرَ حتّى وصلوا إلى بابِ الغارِ، الذي كانَ مُغَطّى بأغصانِ شجرةٍ، فصرفَهم اللهُ عنه، إذْ سخَّرَ اللهُ العنكبوتَ فنسجَتْ على بابِ الغارِ، وسخَّرَ حمامةً وحشيَّةً فباضتْ في مدخْلِهِ، قالَ أحدُهم لِمَنْ كانَ في المقدمةِ: ما لكَ لا تنظرُ في الغارِ؟ فقالَ لهمْ: ما جاوزا هذا المكانَ، إمّا أن يكونا قد صَعدا إلى السماءِ أو دخلا تحتَ الأرضِ، رأيْتُ حَمامًا بفمِ الغارِ



شكل(٢٥): غار ثور يقع في الجهة الشمالية من جبل ثور جنوب مكة، وعلى بعد نحو أربعة كيلومترات في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام.(الصورة معدلة كومبيوترياً).

فعلِمتُ أنْ ليس فيهِ أحدٌ (٢٠٢)، فاستدلُّوا من ذلك على أنّ الغارَ مهجورٌ، لم يدخلْهُ أحدٌ، وإلّا لتخَرَّقَ النسْجُ، وتكَسَّرَ البيضُ، ولم تستقرَّ الحمامةُ الوحشيَّةُ على بابِهِ، فانصرفَتْ قريشٌ للبحثِ عنهُ على طريقِ يثربَ، لكِنْ عبثاً فعلوا، فهو بقيَ في الغارِ ثلاثةَ أيام.

---

١ أي نشرت بينهم الجواسيسَ والطلائعَ.

علي يَجلبُ المؤونـةَ ويُؤدّي الأمانـة

انتظرَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ إلى الليلةِ القادمةِ ثمّ انطلقَ تحتَ جنحِ الظلامِ هو وهندٌ بنُ أبي هالةَ، حتّى دخلا الغارَ على رسولِ اللهِ، فأمرَ الرسولُ هندًا أنْ يبتاعَ لهُ ولصاحبِه بعيرينِ، فقالَ أبو بكرٍ: قد كنتُ أعددتُ ليْ ولكَ يا نبيَّ اللهِ راحلَتَينِ ترتحِلُهما إلى يثربَ، فقالَ: إنّي لا آخذُهما، ولا أحدَهُما إلّا بالثمنِ، فقالَ: فهيَ لكَ بذلكِ، فأمرَ عليًّا فأقبضَهُ الثمنَ، ثمّ أوصى النبيُّ عليًّا بحفظِ ذِمّتهِ، وأداءِ أماناتِه، وكانتْ قريشٌ ومَنْ يقْدُمُ مكّةَ منَ العربِ في الموسِمِ يستودِعونَ النبيَّ ودائعَهم، ويستحفِظونَه أموالَهم وأمتعتَهم لِثِقتِهم بهِ، فأمرَهُ أنْ ينادي صارخًا بالأبطحِ غُدّواً وعَشيّاَ: منْ كانَ لهُ قِبَلَ محمدٍ أمانَةٌ، فليأتِ، لنؤدّيَ إليهِ أمانتَه. وقالَ لعليٍّ بعد أنْ ذهبَ الطلبُ عنِ النبيِّ: إنّهم لن يصِلوا منَ الآن إليكَ يا عليُّ بأمرٍ تكرهُه، تقدّمْ يا عليُّ، فأدِّ أمانتِي على أعيُنِ الناسِ ظاهرًا، ثمّ إنّي مستخلفُكَ على فاطمةَ ابنتي، ومستخلِفٌ ربِّي عليكما، ومستحفِظُهُ فيكما، كما أمرَ النبيُّ عليًّا أنْ يبتاعَ رواحِلَ لهُ وللفواطمِ ومَنْ أزمعَ الهجرةَ معهُ من بني هاشمٍ. وبعد أنْ أقامَ رسولُ اللهِ في الغارِ ثلاثَةَ أيامٍ، انطلقَ متوجّهًا إلى مدينةِ يثربَ، وكانَ عليٌّ يبعثُ إلى رسولِ اللهِ الطعامَ وهو في الغارِ ويخبِرُهُ الأخبارَ. (٢٠٣)

الحكمةُ الإلـهيّةُ وراءَ الهِجرة

لقد كانَ من الممكِنِ أنْ ينصرَ اللهُ رسولَهُ من دونِ أنْ يضطرَّ إلى اللّجوءِ إلى الغارِ، وإلى مبيتِ عليٍّ على فراشِه، وذلكَ عن طريقِ آياتٍ باهرَاتٍ، وعِناياتٍ ظاهراتٍ، ومعجزاتٍ قاهراتٍ، وهو اللهُ قادرٌ على ذلكَ كلِّه، فهو الذي سخَّرَ لرسولِه نَسْجَ العنكبوتِ وإنباتَ الشجرِ على بابِ الغارِ، ثمّ بيضَ الحمامةِ وتردُّدَها حولَ عُشّها كما هي عادَةُ الطيورِ في حفظِ بيضِها، إلاّ أنّ العنايةَ الإلهيّةَ شاءتْ أنْ تجريَ الأمورُ على سجيَّتِها وفْقَ أسبابِها الطبيعيّةِ مع ألطافٍ وعناياتٍ من عندِه، ليكونَ ذلكَ مثلًا للناسِ جميعاً، ودرْسًا مؤثّرًا في الجِدِّ والعملِ في سبيلِ الدينِ والعقيدةِ، فليس لنا أنْ ننتظَرَ المعجزةَ من السماءِ، فاللهُ لم يُجرِ الأمورَ لنبيّهِ على أساسِ المعجزَةِ والكرامَةِ فحَسْبَ، وإنّما تكرّمَ عليه بِها بعد أنْ رأى منهُ الإستعدادَ

والتضحيةَ والمبادرةَ إليها، لذا؛ استحقَّ اللُّطفَ الإلهيَّ، لقد نصرَ اللهُ نبيَّهُ حيثُ لم يكنْ معهُ أحدٌ ينصرُهُ، وكانَ منْ نصرِهِ لهُ أنْ أنزلَ السكينةَ عليهِ، وأيَّدَهُ بجنودٍ منْ عندِه. (٢٠٤)



شكل(٢٦): الحمامة على مدخل الغار.

خوفُ أبي بكرٍ في الغار

ففي هذه اللحظاتِ العصيبةِ وعلى الرغْمِ منْ المعجزاتِ الظاهرةِ والآياتِ الباهرةِ، إلّا أنّ أبا بكْرٍ فقَدَ ثقتَهُ بنصرِ اللهِ لنبيّهِ، فأصابَهُ الحُزنُ والأسى على نفسِه، إذْ أنّه رأى أنّ جنودَ قريشٍ قد وصلوا إلى المغارةِ التي يختبأُ فيها النبيُّ وأنّه قد انتهى أمرُهُ، لذلكَ كانَ أبو بكرٍ حزيْنًا على قرارِهِ بترْكِ قريشٍ ومرافقةِ النبيِّ في هذه المغامرَةِ الخطِرةِ، ففقَدَ قريشًا وسُمعَتَه في مكّةَ، بلْ وربّما يفقدُ حياتَه أيضاً بسببِ خروجِه هذا، فنهاهُ رسولُ اللهِ قائلاً لهُ: لا تحزنْ إنَّ اللهَ معَنا، وأخبرَهُ: أنّ اللهَ ناصرٌ نبيَّه، وإنّه سوفَ ينجو معهُ، لكنّ أبا بكرٍ بقيَ خائفًا ظانًّا بعَدَمِ الحصولِ على النصرَةِ والنجاةِ منَ اللهِ، لذا؛ حُرِمَ منَ السكينةِ منَ اللهِ، فنزلَتْ فقطْ على رسولِ اللهِ. (٢٠٥) لقد واجهَ النبيُّ في الغارِ موقفًا صَعْبًا، ولم يكنْ هناكَ أحدٌ للدفاعِ عنهُ، أمّا بالنسبةِ لرفيقِهِ، فلم يكنْ غيرَ قادرٍ على الدفاعِ عنهُ فقطْ ، بلْ كانَ أيضاً يشكِّلُ عِبْءً ثقيلاً عليهِ بسببِ حُزنِهِ وخوفِه، فبدلًا منْ أنْ يكونَ مصدرًا للتخفيفِ عنِ النبيِّ والدعمِ لهُ، كانَ بحاجةٍ إلى أنْ يكونَ النبيُّ هو من يخفِّفُ عنهُ ويُسلِّيهِ، لذلكَ، لم يكنْ لهُ أيُّ تأثيرٍ في الدفاعِ عن الرسولِ أو التخفيفِ منَ الصعوباتِ التي واجهَها. (٢٠٦)

فيْ الطريقِ إلى مدينةِ يَثْرِبْ

لمّا خرجَ النبيُّ من الغارِ متوجِّهاً إلي المدينةِ، وضعَتْ قريشٌ مكافأةً مقدارُها مئةٌ منَ الإبلِ لمَنْ يأتي بهِ، فكانَ فيمَنْ خرجَ للبحثِ عن النبيِّ، سُراقةُ بنُ جشْعمٍ ، وحينَ وجدَ سُراقةُ النبيَّ، قامَ بلحاقِهِ، فرآهُ رسولُ اللهِ وقالَ: اللهمَّ اكفِني سُراقةَ بِما شئْتَ، فساخَتْ قوائمُ فَرسِ سُراقةَ، فقالَ: يا محمدُ إنّي علمتُ أنّ الذي أصابَ قوائمَ فرَسي إنّما هو منْ قِبَلَكَ، فادعُ اللهَ أنْ يُطلَقَ إليَّ فرَسيْ، فلَعَمري إنْ لم يُصبْكم خيرٌ منِّي لم يُصبْكم منّي شَرٌ، فدعا رسولُ اللهِ: فأطلَقَ اللهُ فرسَه، فعادَ سُراقةُ لملاحقَةِ النبيِّ، فساخَتْ قوائمُ فرسِه مرّةً أخرى، فطلبَ منَ النبيِّ مجدَّدًا، والنبيُّ يدعو لهُ حتّى فعلَ ذلكَ ثلاثَ مرّاتٍ، فلمّا أُطلِقَتْ قوائمُ فَرسِه في الثالثةِ، قالَ: يا محمدُ، هذه إبِليْ بينَ يديكَ فيها غُلامي، فإنْ احتجْتَ إلى ظَهْرٍ أو لبَنٍ فخذْ منهُ، وأنا أرجِعُ فأردُّ عنكَ الطلبَ، فقالَ رسولُ اللهِ: لا حاجةَ ليْ فيما عندَكَ، فلمّا كانَ منَ الغَدِ وافَتْ قريشٌ سُراقةَ فقالوا: يا سُراقةُ هل لكَ عِلْمٌ بمحمدٍ؟ قالَ: قد بلغَني أنّه قد خرجَ عنْكم، وقد نفضْتُ هذه الناحيةَ لكم، ولم أرَ أحداً ولا أثَرًا، فارجِعوا فقد كفيتُكم ما ها هُنا.

وسارَ نبيُّ اللهِ حتّى بلغَ خيْمةً لامرأةٍ بدويّةٍ تُدعى بأمِّ مَعْبَدٍ، فنزلَ عنْدَها، وطلبوا منها الضيافَةَ، فقالتْ: ما أملِكُ شيئاً، فنظرَ رسولُ اللهِ إلى شاةٍ في ناحيةٍ قد تخلّفَتْ عنِ الغنَمِ لضَعفِها، فقالَ: أتأذَنينَ فِي حلْبِها؟ قالتْ: نعمْ، ولا خيرَ فيها، فمسحَ يدَهُ على ظهرِها، فصارَتْ من أسمنِ ما يكونُ منَ الغنمِ، ثمّ مسحَ يدَهُ على ضَرعِها، فامتلأَ ودرَّتْ لبَناً كثيراً، فطلبَ عَسّاً، وحلبَ لهم فشرِبوا جميعاً حتّى ارتووا، حينَ رأتْ أمُّ معبَدٍ ما حصلَ للشّاةِ، عرفَتْ أنّ هذا الرجلَ مباركٌ ويمكنُ أنْ يساعِدَها في شفاءِ ابنِها المريضِ، فعرضَتْ عليهِ ولدَها الذي كانَ لا يتكلّمُ ولا يقومُ، فأخذَ النبيُّ تمرَةً فمضَغَها، ثمّ جعلَها في فَمِ الطفلِ، فنهضَ في الحالِ، ومشَى وتكلّمَ، وجعلَ نواتَها في الأرضِ فصارَتْ نخلةً في الحالِ، وقد تهدَّلَ الرُطَبُ منْها، وأشارَ إلى جوانبِها فصارَ مراعيَ، ثمّ رحلَ، فلمّا عادَ زوجُها أبو معبدٍ، ورأى ذلكَ،

---

١ العُسُّ: القدح الكبير.

سألَ زوجتَه عن عجيبِ ما يرى منْ حالِهمْ، فقالتْ: مرَّ بيْ رجلٌ من قريشٍ ظاهِرُ الوَضَاءَةِ أَبلَجُ الوَجهِ، حَسَنُ الخَلقِ لَم تَعِبْهُ تَجِلَّةٌ، ولَم تُزرِهِ صعْلَةٌ، وَسِيمٌ، قَسِيمٌ، في عَينِهِ دَعَجٌ، وفي أَشفَارِهِ عطفٌ، وفي صوتِه صَحلٌ، وفي عُنقِه سَطعٌ، وفي لِحيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجٌّ أَقرَنُ، إنْ صمَتَ فَعَلَيهِ الوَقَارُ، وإنْ تَكَلَّمَ سَماهُ وعَلَاهُ البَهَاءُ، أَكمَلُ النَّاسِ وأَبهَاهُ مِن بَعيدٍ، وأَحسَنُه وأعلاهُ مِن قَريبٍ، حُلوُ المَنطِقِ، فَصْلاً لا نَزرَ ولا هَذرَ، كأنَّ منطقَه خَرَزَاتُ نَظْمٍ، يَتَحَدَّرنَ، رِبْعَةٌ، لا تَشنَأهُ مِن طولٍ، ولا تَقتَحِمُهُ عَينٌ مِن قِصَرٍ، غُصنٌ بينَ غُصنَينِ، فهو أَنضَرُ الثلاثةِ مَنظَرًا، وأحسنُهم قَدرًا، له رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إن قالَ سَمِعُوا لِقَولِه، وإنْ أمَرَ تَبَادَرُوا إلى أمرِه، مَحفُودٌ، مَحشُودٌ، لا عَابِسٌ ولا مُفندٌ،[1]

ظاهر الوضاءة: حسن منظره يظهر لكل من رآه.
أبلج الوجه: أي مشرق الوجه، أبيض مضيء
الثُّجْل: عِظَمُ البطن واستراخاؤه.
تعِبْه ثُجْلَة: أي لم يعبه ضخامة البدن، وعظم البطن واستراخاؤه.
تُزريه صعلة: صغر الرأس وإذا كانت صلعة قيل ذهاب الشعر من مقدم الرأس.
وسيم: أي حسن جميل.
قسيم: فمعناه أيضا حُسن الوجه، ورجل مقسم الوجه أي جميل كله كأن كل موضع منه أخذ قسماً من الجمال.
عينيه دَعَجٌ: أي أنه كان شديد سواد العين مع اتساعها، شديد بياض بياضها.
أشفاره وطفٌ: أي أنه كان طويل شعر الأجفان.
صوته صَحَلٌ: أي أن صوته كان فيه بَحَّة ولم يكن حاداً بل كان فيه بحة وخشونة.
عنقه سَطَع: أي أنه كان في عنقه طول.
لِحيَتِهِ كَثَاثَةٌ: غير رقيقة و لا طويلة ولكن فيها كثافة.
أزج: طويل الحاجب مع رقة فيه.
أقرن: أي مقرون الحاجبين أو متصل الحاجبين.
الفصل في الكلام: هو التمييز والتوضيح فيه.
لا نزر ولا هذر: وسطاً لا قليل ولا كثير، والمراد لا الكلام القليل التافه ولا الكثير الرديء.
كأنَّ منطقَه خَرَزَاتُ نَظمٍ، يَتَحَدَّرنَ: كأنها حبات لؤلؤ معقودة تتساقط.
ربعة: اي ليس بطويل و لا قصير.
لا تَشنَؤهُ مِن طولٍ: لا تبغضه لطوله.
لا تَقتَحِمُهُ عَينٌ مِن قِصَرٍ: لا تزدريه لقصره.
محفود: كان محفوداً من أصحابه أي معظماً مكرماً مخدوماً.
محشود: المحشود له أي تجمعوا له و تأهبوا.

فعرفَ أبو معبدٍ أنّه النبيُّ محمدٌ ، ثمّ قصدَ يثربَ، فآمنَ هو وأهلُه.(٢٠٧)

النبيُّ في قِباءَ

تابعَ رسولُ اللهِ هجرتَه حتّى اقتربَ من يثربَ، فوصلَ أولاً إلى مدينةِ قِباءَ جنوبَ غربِ يثربَ، حيثُ استُقبِلَ بحفاوةٍ ونزلَ في بيتِ عمرو بنِ عوفٍ. حَثَّ أبو بكرٍ النبيَّ على دخولِ يثربَ، لكِنّه رفضَ وفضَّلَ الإنتظارَ في قباءَ قائلاً: "ما أنا بداخِلِها حتّى يقدُمَ ابنُ أُمي وأخي وابنتي"، مُشيراً إلى عليٍّ وفاطمةَ. بقيَ النبيُّ في قباءَ، ممّا أغضبَ أبا بكرٍ ففارقَ النبيَّ. كتبَ رسولُ اللهِ إلى عليٍّ يأمرُهُ بالمسيرِ إليه دونَ تأخيرٍ، وأرسلَ الكتابَ مع أبي واقدٍ الليْثيّ. عندما وصلَ خبرُ قدومِ النبيِّ إلى أهلِ يثربَ، فرِحوا بذلكَ وكانوا يأتونَ يوميّاً أفواجاً إلى قباءَ للسلامِ على الرسولِ. تَبعدُ قِباءُ عن يثربَ حوالَيْ نصفِ ساعةٍ.

عندما وصلَ كتابُ النبيِّ إلى عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، تهيّأ للخروجِ والهجرةِ وأعلَمَ مَنْ كانَ معهُ من ضُعفاءِ المؤمنينَ، وأمرَهم أن يتسلَّلُوا ويتخفُّوا تحتَ جُنحِ الليلِ إلى ذي طُوى. وخرجَ بفاطمةَ بنتِ الرسولِ، وأمِّهِ فاطمةَ بنتِ أسدٍ بنِ هاشمٍ، وفاطمةَ بنتِ الزبيرِ بنِ عبدِ المطّلبِ. وتبعَهمْ أيمنُ ابنُ أمِّ أيمنَ مولى رسولِ اللهِ، وأبو واقدٍ الذي جعلَ يسوقُ بالرواحلِ فأعنفَ بها، فأمرَهُ عليٌّ بالرفْقِ، فاعتذرَ بخوفهِ من قريشٍ الذينَ يتبعونَهم. فقالَ عليٌّ بن أبي طالبٍ: أربِعْ [1]عليكَ فإنّ رسولَ اللهِ قالَ ليْ: يا عليُّ أما إنّهم لن يصِلوا منَ الآنَ إليكَ بأمرٍ تكرهُه. لكنّ رجالاً من قريشٍ أدركوهُ قُربَ ضجنانَ[2]، وكانوا ثمانيةَ فرسانٍ ملثَّمينَ، فأنزلَ عليٌّ النُّسوةَ، وأقبلَ على القومِ شاهراً سيفَه. فطلبوا منهُ الرجوعَ، فقالَ: فإنْ لم أفعلْ؟ قالوا: لترجعَنَّ راغماً، أو لنرجعَنَّ بأكثرِكَ شَعْراً[3]، وأهوِنْ بكَ مِنْ هالكٍ. ودنا الفرسانُ من المطايا ليُثوِّروها، فحالَ عليٌّ بينَهم وبينَها، فأهوى أحدُهم بسيفهِ، فراغَ عليٌّ عن ضربَتِهِ ورَاوَغَهُ

مفَنّد: أي لا فائدة في كلامه لكِبَر العمر أو الخرف.

١ أرْبَعَ في المكان: أقام فيه، وهنا بمعنى: توقف، وتمهّل.

٢ وادي ضجنان يقع شمالي مكة ويبعد عنها ١٩ كم ويقع في طريق القوافل بين مكة والمدينة.

٣ كناية عن قطع رأسه، لأنه هو العضو الأكثر شعراً في جسم الإنسان.

وضربَه على عاتقِه، فأسرعَ السيفُ مُضيّاً فيهِ، حتّى مسَّ كاثبَةَ فرسِهِ، وشَدَّ عليهم بسيفِهِ، وهو يقولُ:

خَلّوا سَبيلَ المُؤمِنِ المُجاهِدِ   آلَيتُ لا أَعبُدُ غَيرَ الواحِدِ

فتصدَّعَ القومُ عنهُ وقالوا أغْنِ عنّا نفسَكَ يا بنَ أبي طالبٍ، قالَ: إنّي منطلِقٌ إلى ابنِ عمّي رسولِ اللهِ بيثربَ، فمَنْ سرَّهُ أنْ أفريَ لَحْمَهُ[١]، وأُريقَ دَمَهُ، فليتْبَعْني، أو فليدنُ منّي، ثمّ أقبلَ على صاحِبيْهِ، فقالَ لهما: أطلِقا مطاياكُما .ثمّ سارَ معلِناً دونَ خوفٍ عن مسيرهِ حتّى وصلَ ضجنانَ، فتوقَّفَ وبقيَ بها قَدْرَ يومٍ وليلةٍ، ولحِقَ بهِ نفَرٌ من المستضعَفينَ من المؤمنينَ، وفيهم أمُّ أيمنَ مولاةُ الرسولِ، فقضوا تلكَ الليةَ في العبادةِ قياماً وقعوداً وعلى جُنوبِهمْ حتّى طلعَ الفجرُ، فصلَّى بهم عليٌّ صلاةَ الفجرِ ثمّ سارَ بهم، فجعلوا يصنعونَ ذلكَ في كلِّ منزلٍ، حتّى وصلَ إلى قريةِ قِباءَ، وقد ذكرَ اللهُ ما كانوا يقومونَ بهِ وكيفَ كانوا يدعونَ اللهَ ويتوسَّلونَ إليهِ في سفرِهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۝﴾ (٢٠٨).

ولمّا بلغَ النبيَّ قدومُ عليٍّ ومَنْ معه، قالَ: ادعوا لي عليًّا، قيلَ: يا رسولَ الله، لا يقدرُ أنْ يمشي، فأتاهُ النبيُّ بنفسهِ، فلمّا رآهُ اعتنقَهُ وبكى رحمةً لِما بقدميْهِ منَ الورَمِ، وكانتا تقطرانِ دمًا، فقالَ النبيُّ لهُ: يا عليُّ، أنتَ أوّلُ هذه الأمةِ إيماناً باللهِ ورسولِهِ، وأوّلُهم هجرةً إلى اللهِ

---

١ فرى اللحم: شقَّه وقطعه.

ورسولهِ، وآخرُهُم عهداً برسولهِ، لا يحبُّكَ والذي نفسي بيدِه إلّا مؤمنٌ قد امتحَنَ اللهُ قلبَه بالإيمانِ، ولا يبغضُكَ إلّا منافقٌ أو كافرٌ.

مَسْجِدُ قُبَاءَ

وفي قِباءَ اقترحَ عمارُ بنُ ياسرٍ بناءَ مكانٍ للصلاةِ فاستحسنَ رسولُ اللهِ الفكْرةَ، فأوعزَ بِبناءِ أولِ مسجدٍ في الإسلام، فأمرَ النبيُّ محمدٌ أبا بكرٍ بأنْ يركبَ الناقَةَ، ويسيرَ بها ليخطَّ المسجدَ على ما تدورُ عليه، فلم تنبعِثْ به، فأمرَ عمرَ فما رضيَتْ بالمسيرِ، فأمرَ عليًّا، فانبعثَتْ به، ودارتْ به، فأسَّسَ المسجِدَ على حسْبِ ما دارتْ عليه، فقالَ النبيُّ: أرخِ زِمامَها وابنُوا على مدارِها فإنها مأمورةٌ. (٢٠٩)

النِّفاقُ في مَكّةْ

لم يكنْ كلُّ مَن جاءَ مع النبيِّ من مكّةَ إلى يثربَ صادقًا في إيمانِه، فبعضُهُم قَبِلَ الإسلامَ لِما شاهدوا فيه شعاراتٍ طيبَّةً تنسجِمُ مع أحلامِهم وآمالِهم، ووجدوا أنّه يحقّقُ أطماعَهُم ومآربَهم، وما تصبو إليه نفوسُهم، فنصروهُ متحمِّلينَ المَشاقَّ والمصاعبَ، ولم يكنْ ذلكَ

من أجلهِ وفي سبيلِه، بلْ رغبَةٌ في تحصيلِ السلطانِ، ونيلِ الثرواتِ. إنّهم يقدُمونَ على كلِّ هذه الصعابِ، مع أنّهم كانوا لا يؤمنونَ بهذه الدعوةِ إلّا بمقدارِ إيمانِهم بضرورةِ الحصولِ على تلكَ المآربِ والأهدافِ الآنفَةِ الذكرِ، فهم يواكِبونَ الدعوةَ ويقدّمونَ المساعدةَ والعونَ ما دامَ لم تصلْ النوبةُ إلى التضحيَةِ بالنفسِ والموتِ، فهؤلاءِ هم المنافقونَ. كما جاءتْ الآياتُ الدّالةُ في القرآنِ على وجودِ المنافقينَ في مكّةَ قبلَ المدينةِ، منها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِـي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَـصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِـي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١٠)

هناكَ نوعٌ منَ الناسِ مَنْ يقولُ: "آمنّا" بصيغةِ الجمْعِ، يريدُ أنْ يُقحِمَ نفسَه في صفتِّ المؤمنينَ بأيّ طريقةٍ، أيْ آمنَ كسائرِ الناسِ الذينَ آمنوا، فإذا يتعرّضُ له العدوُّ- أحياناً - وهو في سبيلِ اللهِ والإيمانِ فيؤذونَه، فلا يصبرُ على الأذى والشدائدِ، ويجعلُ تعذيبَ المشركينَ لهُ وأذى الناسِ كعذابِ اللهِ، الذي يجبُ الحذرُ منهُ، فيرتدُّ ويتركُ إيمانَهُ ويعودُ كافِرًا خوفًا من عذابِ الناسِ، الطريفُ هنا أنّ القرآنَ يعبّرُ عن مجازاةِ اللهِ ب "العذابِ" وعن إيذاءِ الناسِ ب "الفِتْنَةِ" وهذا التعبيرُ إشارةٌ إلى أنّ إيذاءَ الناسِ ليس عذابًا- في حقيقةِ الأمرِ- بلْ هو امتحانٌ وطريقٌ إلى التكاملِ، ثمّ تُكمِلُ الآيةُ، ولئنْ جاءَ نصرٌ منَ ربِّكَ في المستقبلِ ليقولُنَّ: "نحنُ معكُمْ"، فإنّ هؤلاءِ المنافقينَ - ضِعافَ الإيمانِ - يرونَ أنْفُسَهم شركاءَ في هذا النصرِ مع المسلمينَ، يا ترى هلْ يظنّونَ أنّ اللهَ خفيَ عليهِ ما في أعماقِ قلوبِهم فلا يعرفُ نيّاتِهم الحقيقيّةَ. (٢١١) سوفَ نرى حقيقَةَ هذه الفئةِ المنافِقةِ في الفصولِ القادِمَةِ، وكيفَ كانتْ تُداري من أجلِ الوصولِ إلى أهدافِها الماديّةِ. (٢١٢)



شكل(٢٧): المنافقون في مكة يُخطّطون.

وصولُ النبيِّ إلى يَثْرِبْ

بعد خمسَةَ عشرَ يومًا من إقامَةِ رسولِ اللهِ في قِباءَ، خرجَ منها يومَ الجمعةِ الثانيةِ عشرةَ منْ ربيعِ الأولِ قاصداً يثربَ، فأدركتْهُ صلاةُ الجمعةِ في بنيْ سالمٍ بنِ عوفٍ في وادٍ لَهُم[١]، وكانتْ هذه أوّلُ جمعةٍ أقامَها رسولُ اللهِ في الإسلامِ، فخطبَ أوّلَ خُطبةٍ هناكَ فأوصى المسلمينَ ونصحَهم وكانَ فيما قالَ:... فأكْثِروا ذكرَ اللهِ واعملوا لِما بعدَ الموتِ، فإنّهُ من يُصلِحُ ما بينَهُ وبينَ اللهِ يكفيهِ اللهُ ما بينَهُ وبينَ الناسِ... (٢١٣)

وبعد أنْ انتهى النبيُّ، ركبَ راحلتَه[٢] وتوجّهَ إلى يثربَ ومعهُ عليٌّ لا يفارقُه في حِلِّهِ وترحالهِ، وقد كانَ الناسُ بالمئاتِ من أهلِ يثربَ ينتظرونَ قدومَه بفارغِ الصبرِ، وحينَ وصلَ أسرعوا إليه والتقّوا حولَه مرحِّبينَ به، وكانَ لا يمرُّ ببطنٍ من بطونِ الأنصارِ إلّا قاموا إليه يسألونَه أنْ ينزلَ عندَهم، وكانَ رؤوسُ الأوسِ والخزرجِ في مقَدّمَةِ المستقبِلينَ،



شكل(٢٨): وصول النبي وعلي إلى يثرب.

---

١ يقع هذا الوادي في الجنوب الغربي من المدينة المنورة، وقد بُنيَ فيه مسجداً، وهو يبتعد عن مسجد قباء مسافة ٩٠٠ متر تقريبًا.

٢ الراحلة: والجمع رواحل وهو الصالح للسفر والحمل من الإبل ونحوه.

كانَ أبرزَهم عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ بنِ أبي سَلُولٍ الذي كان مُرَشّحًا أنْ يُنصَّبَ مَلِكاً على يثربَ، لذا؛ كانَ من المتوقَّعِ أنْ ينزلَ النبيُّ في دارِهِ لمنزلتهِ في قومِه، كما كانتْ العادةُ الساريةُ في ذلك الزمانِ من أنْ تنزلَ الشخصِيّاتُ المهمَّةُ في بيتٍ من بيوتِ رؤساءِ القومِ وأشرافِهم، لكنَّ اللهَ أرادَ أنْ يُظهِرَ دينَ الإسلامِ على حقيقتِه منَ اليومِ الأولِ، فجاءَ موقفُ رسولِ اللهِ تقريرًا لمشيئةِ اللهِ وحاسمًا للأمرِ، حينَ ألحَّ اليثربيّونَ على النبيِّ في النزولِ في بيتِ أحدِهم، لم يُرِدِ النبيُّ أنْ يفضِّلَ أحدًا على أحدٍ آخرَ بنزولِهِ عندَه، فجاءَ بِحَلٍّ أرضى الجميعَ حيثُ قالَ: خلُّو سبيلَ الناقةِ، فإنّها مأمورةٌ، فانطلقَتْ به، ورسولُ اللهِ واضِعٌ لها زِمامَها وجعلَها تسيرُ بحرّيَتِها، حتّى انتهَتْ بالقربِ من بابِ أبي أيّوبَ الأنصاري، أفقرَ رجلٍ في المدينةِ، فوقفَتْ هناكَ وبركَتْ، ووضعَتْ جِرَانَها [1] على الأرضِ، فنزلَ رسولُ اللّهِ عن الناقةِ فاجتمعَ إليه الناسُ، وسألوهُ أنْ ينزلَ عندَهم، فاغتنَمَتْ أمُّ أيوبَ الفرصةَ وبادرَتْ إلى رَحْلِ رسولِ اللهِ فحَلَّتْه وأدخلتْه منزلَها، فلمّا تكاثروا عليهِ قالَ رسولُ اللهِ: أينَ الرحْلُ؟ فقالوا: إنّ أمَّ أيوبَ قد أدخلتْه بيتَها، فقالَ رسولُ اللهِ: المرءُ معَ رحلِهِ، وبهذا اختارَ النبيُّ أنْ ينزلَ في دارِ أبي أيوبَ حيثُ بركَتْ الناقةُ، فكانَ ذلك إعلاناً واضحاً من اللهِ بأنّ هذا الدينَ هو دينُ الفقراءِ والمستضعَفينَ وأنّ لا قيمةَ عندَه للثروةِ والرئاسَةِ والسلطةِ. نزلَ النبيُّ عندَ أبي أيوبَ شهرًا، وعليٌّ معَه، وكانَ هذا الموضعُ هو موضعُ بناءِ المسجدِ ومنزلُ النبيِّ.

رُجُوعُ المُسْلِمِينَ مِنَ الحَبَشَةِ

بلغَ المسلمينَ في الحبشةِ نبأُ هجرةِ الرسولِ إلى يثربَ، فرجعَ منهم ثلاثةٌ وثلاثونَ رجلاً، وثمانِ نساءٍ، وفي طريقِهمْ إلى يثربَ مرّوا بمكّةَ لأنّ الطريقَ يمرُّ منْها، فأمسكَتْ بهمْ قريشٌ وواجهَتْهُمْ بالعُنْفِ والقسوةِ، ولم ترعَ لهمْ حُرمَةً ولا غُربَةً ولا قرابَةً، فقتلَتْ منهمْ رجلَينِ، وحبسَتْ سبْعَةً منْهمْ، أمّا الباقونَ، فاستطاعوا النجاةَ بأنفُسِهمْ والوصولَ إلى رسولِ اللهِ في يثربَ.

---

١ الجِرَان: باطن العُنق من البعير وغيره.

بناءُ المسْجِدِ النَّبويْ

غَيَّرَ النبيُّ محمدٌ اسمَ يثربَ وأسماها المدينةَ، وأمرَ بتدوينِ التاريخِ الإسلاميِّ من يومِ هجرتِه، فكانَ الصحابةُ -في بادئ الأمرِ- يؤرّخونَ بالأشهرِ حتّى أوساطِ السنَةِ الخامسةِ، وبعدَها صاروا يؤرّخونَ بالسنينْ (٢١٤) . كما اشترى النبيُّ قطعةَ أرضٍ كانَتْ ليتيمَينِ منَ الخزرجِ، وقرَّرَ أنْ يبنيَ عليها مسجدًا، وهو الموضعُ الذي أناخَتْ فيهِ الناقةُ، فأعلَنَ بناءَ المسجدِ وبدأ الناسُ بنقْلِ الحجارَةِ منْ منطقةِ الحَرَّةِ[١]، وقد شارَكَ النساءُ في بناءِ المسجدِ، فكُنَّ يحمِلْنَ الحجارةَ ليلاً، والرجالُ نهارًا، وشاركَ النبيُّ بنفسِهِ في نقلِها كذلكَ، الأمرُ الذي دفعَ الصحابَةَ إلى الدأْبِ في العملِ والجدِّ فيهِ، وكانوا ينشدونَ أثناءَ العملِ.

لئنْ قَعَدْنا والنبيُّ يَعْمَلُ　　　لذاكَ مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّلُ

وارتجزَ آخرونَ وهم يبنونَ المسجدَ:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَهْ　　　فَارْحَمْ الأَنْصَارَ وَالمُهَاجِرَهْ

وبنى الرسولُ في ذلك الموضعِ مسكنَه أيضاً، وبنى أصحابُهُ مساكنَهم حولَ المسجدِ، وكلٌّ قد شَرَعَ لهُ إلى المسجِدِ باباً. كانَ بناءُ المسجدِ أوّلَ عملٍ بدأ بهِ النبيُّ في المدينةِ، وهو عملٌ لهُ دلالتُه وأهميّتُهُ البالغةُ، وذلك لأنّ المسلمينَ صاروا الآن فئتَينِ: مهاجرونَ وأنصارٌ، وتختلِفُ ظروفُ كلٍّ من الفئتينِ في أوضاعِها المعيشيَّةِ والنفسيّةِ، كما يختلفونَ في طموحاتِهم وتطلُّعاتِهم، فالمهاجرونَ قد تركوا أوطانَهم وأصبحوا بِلا أموالٍ وبِلا مسكِانَ، أمّا الأنصارُ فأنّهم ينعمونَ بموطنِهم ومساكِنِهم لكنّهم كانوا أيضاً فِئَتَيْنِ متنافستَينِ، قد أثقلتْهم الحروبُ وأتعبتْهُم، وقد أرادَ الإسلامُ والنبيُّ منهم أنْ يتعاملوا في هذه الحياةِ من منطلَقٍ دينيٍّ وأنْ ينصهرَ الجميعُ في بَوتقَةِ الإسلامِ ليصبِحوا كالجسدِ الواحدِ، في توادِّهِم وتراحمِهِم

---

١ الحَرَّة: قرية تقع جنوب شرق المدينة المنورة، وهي هضبة ممتدة من شرق المدينة إلى غربها، سمِّيت الحرّة لأن جزءاً كبيرًا من سطحها مغطّى بالصخور والحجارة البركانيّة السوداء التي تجعلها شديدة الحرارة في الصيف.

وتعاونِهم، وفي هذا المسجدِ يمكنُ تحقيقُ كلِّ ذلك، إذْ لم يكنْ مَجَرَّدَ محلٍّ للعبادةِ والذكرِ فقطْ، بلْ كانَ الوسيلةَ الفُضْلى للتثْقيفِ الفكريِّ الدينيِّ السليمِ، وتربيةِ المسلمينَ التربيةَ المُثْلى، وتقويةِ الأواصرِ بينَهم، وبثِّ روحِ المحَبّةِ والمودَّةِ بينَهم، كما يساعدُ على تبسيطِ العلاقاتِ بين أفرادِ المجتمعِ الواحدِ، ويقلِّلُ من مشكلاتِ التعاملِ الرسميِّ، والتكلّفاتِ البغيضةِ، التي توحِي بوجودِ فوارقَ بينَ أفرادِ المجتمعِ، إضافةً إلى كونِهِ مركزاً للقيادَةِ والتشاورِ، والتخطيطِ لإدارةِ شؤونِ الدولةِ الفتَيَّةِ، ومكانَ استقبالِ الوفودِ، ومكانًا لإقامةِ المحاكماتِ وفَضِّ النزاعاتِ، ومكاناً لعلاجِ المرضَى والجرحَى في الحروبِ. (٢١٥)

السنةُ الأولى بعد الهجرةِ (٦٢٢ ـ ٦٢٣ م)

عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ في بيتِ النبيِّ

وفي السنةِ الأولى من الهجرةِ وذلكَ في شهرِ شَوّالَ انتقَلتْ عائشةُ إلى بيتِ النبيِّ وهي في العشرينَ من العمرِ وكانَ النبيُّ قد تزوجَها قبلَ ثلاثَ سنواتٍ في مكّةَ، وكانت عائشةُ من أجرئِ زوجاتِ النبيِّ وأكثرِهنَّ حسَداً وغيرةً وقد كانتْ سبباً للمتاعبِ في حياةِ النبيِّ وبعدها، ولكنّ النبيَّ محمدًا لم يفارقْها وتحمَلَّها، لحكمةٍ أرادَها اللهُ، ولأنّ السياسةَ كانتْ تقضيْ عليهِ أنْ يتحمَّلَ كلَّ هذه المشاقِ. (٢١٦)

إسلامُ رَوزَبَهْ خَشْفوذانْ

رَوْزَبَه (٢١٧) كانَ راهبًا من بلادِ فارسٍ تركَ المجوسيَّةَ وهاجرَ إلى الشّامِ لإعجابِهِ بالمسيحِيّةِ ثمّ ذهبَ إلى العراقِ وتركيّا والتقى بعلمائِها. وفي السنةِ الأولى من الهجرةِ سافرَ إلى أرضِ العربِ يبحثُ عن النبيِّ الموعودِ (٢١٨) ، فلقيَهُ رَكْبٌ من بنيْ كلبٍ، وطلبَ منهم أنْ يحملوهُ إلى أرضِ الحجازِ، لكنّهم نكثوا عهدَهم، فباعوهُ كعبدٍ لشخصٍ يهوديٍّ ومِنْ ثمّ اشتراهُ ابنُ عمِّ اليهوديِّ من بني قُريظةَ حتّى وصلَ إلى المدينةِ، فالتقى هناكَ بالنبيِّ محمدٍ، كانَ رَوزَبَهْ يبحثُ عن علاماتِ النبيِّ الموعودِ، التي أخبرَهُ بها أحدُ الرهبانِ وهي: إنّ النبيَّ الموعودَ لا يأكلُ الصدقَةَ، ويقبلُ الهدِيَّةَ، وبينَ كتِفيهِ خاتَمُ النبوّةِ، فوجدَ أنّ الصفاتِ التي يبحثُ عنها موجودةٌ في النبيِّ محمدٍ، فآمنَ بهِ وصدَّقَهُ. وبعد إسلامِهِ سمُاهُ رسولُ اللهِ سَلْمانَ، وكانَ يُلَقّبُ بسلمانَ الفارسيّ وسلمانَ المُحَمَدِيِّ. (٢١٩)

المُؤاخاةُ

إنّ هؤلاءِ الذينَ أسلموا من المهاجرينَ والأنصارِ قد انفصلوا عن قومِهم، وعن إخوانِهم، وعن عشائرِهم بصورةٍ حقيقيّةٍ وعميقةٍ، وقد واجهَهُم حتّى أحبُّ الناسِ إليهم بأنواعِ التحديّ والأذى، وصاروا كأنّهم لا أهلَ لهم، وقد يشعرُ بعضُهم أنّه قد أصبحَ وحيداً فريداً، وبلا نصيرٍ ولا عشيرةٍ، فجاءَتْ الأخوَّةُ الإسلاميّةُ لتسُدَّ هذا الفراغَ وتُخرجَهم من الشعورِ بالوِحدةِ. فبعد بضعةِ أشهرٍ من وصولِ النبيِّ إلى المدينةِ، آخى بينَ أصحابهِ من المهاجرينَ والأنصارِ، وكانَ المسلمونَ حينَ المؤاخاةِ تسعينَ رجلاً، واستمرَّ النبيُّ بتجديدِ المؤاخاةِ كلَّما دخلَ الإسلامَ عددٌ من الناسِ أو وصلَ إلى المدينةِ بعضُ المسلمينَ، فقد آخى بين أبي ذرٍّ وسلمانَ الفارسيّ، وآخى بين أبي بكرٍ وخارجةَ بنِ زهيرٍ، وبين عُمَرَ وعتبانَ بنِ مالكٍ، وآخى أيضاً بين حمزةَ وزيدٍ بن حارثةَ، وهكذا حتّى بلغوا مئةً وخمسينَ رجلًا، لقد آخى رسولُ الله بين المسلمينَ جميعاً، وتركَ عليًّا بلا مؤاخاةٍ، فقالَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ: يا رسولَ الله، آخيَتَ بين أصحابِكَ وتركْتَني؟ فقال: إنّما تركتُكَ لنفسي، أنتَ أخي، وأنا أخوكَ، فإنْ ذكرَكَ أحدٌ، فقُلْ: أنا عبدُ الله وأخو رسولِهِ، لا يدَّعيْها بعدكَ إلّا كذّابٌ، والذي بعثَني بالحقِّ ما أخَّرتُكَ إلّا لنفسي، وأنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ من موسى، إلّا أنّهُ لا نبيَّ بعدي، وأنتَ أخي ووارِثي.

كانَ للمؤاخاةِ الفضلُ الكبيرُ في تقويةِ المجتمعِ الإسلاميّ وتعزيزِ أواصرِه، إذْ كان يُمثِّلُ مظهرًا من مظاهرِ العدالةِ الاجتماعيةِ، وتعزيزاً للقيَمِ الإنسانيةِ، والأخلاقِ الساميةِ في المساواةِ والوحدةِ، وقد تمثَّلتْ هذه المؤاخاةُ النبيلةُ بالمشاركَةِ بين المهاجرينَ والأنصارِ في الأموالِ والمساكنِ، وتذليلِ الفوارقِ الاجتماعيةِ بين المسلمينَ، فلا فرقٌ بين سيّدٍ وعبدٍ، وغنيّ وفقيرٍ، وأسودَ وأبيضَ، ولم تكنْ الأخوَّةُ مجردَ توهُّجٍ عاطفيٍّ أو مصلحةً شخصيةً قبليَّةً، ولكنَّها استندَتْ على الحقّ والإيمانِ باللهِ ورسولِه. (٢٢٠)

دَستورُ المدينةِ

بعد خمسةِ أشهرٍ كتبَ النبيُّ وثيقةً تُعنى بالعلاقاتِ العامةِ بين المسلمينَ، وتنظيمِ التعايشِ بين المسلمينَ واليهودِ في المدينةِ، إذْ أقَرَّ لهم في الوثيقةِ بحقوقِهم في دينِهم وأمولِهم، ولكنَّهُ اشترطَ عليهم ألّا يَعيْنوا عليه أحدًا، وإنْ دَهَمَ أمرٌ على المسلمينَ فعليْهم النصرُ، كما على المسلمينَ نصرُ اليهودِ إنْ دهمَهُم أمرٌ، لم تقتصرْ الوثيقةُ على تنظيمِ علاقاتِ المسلمينَ مع غيرِهِم، وإنّما تعرَّضَ جانبٌ كبيرٌ منها إلى تقريرِ قواعدَ كُلّيةٍ، وأسّسَ عمليةً للعلاقاتِ بين المسلمينَ أنفسِهم، فهذه الوثيقةُ هي بمثابةِ دستورٍ، يتضمَّنُ الحقوقَ والواجباتِ وأُسُسَ العلاقاتِ في الدولةِ الناشئةِ، سواءً في الداخلِ أو في الخارِجِ.

فجاءَ في نصِّ دستورٍ هذه الوثيقةِ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، هذا كتابٌ من محمدٍ النبيِّ بين المؤمنينَ والمسلمينَ من قريشٍ ويثربَ، ومَنْ تبِعَهم فَلَحِقَ بهم، وجاهدَ معهم، إنّهم أمةٌ واحدةٌ من دونِ الناسِ، المهاجرونَ من قريشٍ على رَبْعَتِهم[1] يتعاقلونَ[2] بينهم، وهم يفدونَ عانيَهُم[3] بالمعروفِ والقِسطِ بين المؤمنينَ، وبني عوفٍ على ربعتِهم، يتعاقلونَ معاقَلَهم الأُولى، كلُّ طائفةٍ تفدي عانيَها بالمعروفِ والقسطِ بين المؤمنينَ... الخ.

لقد أكّدتْ الوثيقةُ على جُملةِ أمورٍ ومفاهيمَ كانتْ أساسَ الدولةِ الإسلاميّة:

١- تنوُّعُ المجتمعِ وتعدُّدُ فئاتِه.
٢- الظهورُ كدولةٍ سياسيّةٍ بقيادةِ الرسولِ.
٣- الاعترافُ بحريّةِ المعتقَدِ والممارسَةِ الدينِيّةِ في المجتمعاتِ المختلفَةِ.

---

١ الرَّبْعَة والرِّبَاعُ: الحال، والأمر، والشأن، يُقال: هم على رَباعهم: على حالتهم الحَسَنة التي كانوا عليه، وفلان يقوم برباعة أهله: يقوم بأمرهم، ومنها حمل أمر الدماء والدّيّات.

٢ التعاقل هنا: هو أداء ديّة القتيل، وتعاقل القوم بينهم: تحملوا دفع ديّة القتيل.

٣ العاني: الأسير، والذليل، والمقصود هنا الأسير.

٤- انصهارُ المجتمَعِ القبَلِيّ في المدينةِ في بَوتَقَةِ الإسلامِ، وكونُ الإسلامِ هو المرجِعُ الأوّلُ والأساسُ لكلِّ الأمورِ السياسيَّةِ والاجتماعيّةِ والاقتصاديَّة.

٥- اعتبارُ اليهودِ جزءاً منَ المجتمعِ السياسيّ في المدينةِ، ومشاركتُهم في الحربِ والسِّلْمِ.(٢٢١)

لقد سكنَ اليهودُ في المدينةِ والقُرى المجاورةَ منذ مئاتِ السنينَ، وكانوا قبائلَ عِدّةً، أهمُّها: بنو قُريظةَ، وبنو النضيرِ وبنو القينُقاعَ، يعتقِدُ اليهودُ بسمُوِّ عُنْصرِهم، وأنّهم شَعبُ اللهِ المُخْتارُ(٢٢٢)، وكانوا لا يرونَ الحقَّ لأحدٍ غيرِهم وأنْ يكونَ لهُ هذا الشرفُ، خاصةً وهمْ ينظرونَ للعربِ نظرةَ احتقارٍ بالغٍ، لذلكَ كانَ سلوكُ اليهودِ وعلاقتُهم معَ الآخرينَ قائمةً على الشكِّ والريْبةِ والمَيلِ إلى العُزلةِ (٢٢٣)، وهذا ما أسهمَ في الحدِّ منَ انتشارِ اليهوديّةِ بينَ العربِ، إلّا في حدودٍ قليلةٍ لِمَنْ تأثّرَ بهم واعتنقَ دينَهم.

بعد قدومِ النبيِّ إلى المدينةِ، جاءَ يهودُ بنيْ قُريظةَ، وبني النضيرِ، وبنيْ القينُقاعَ وطلبوا الهُدنَةَ منْ رسولِ اللهِ، فكتبَ لهم بذلكَ، على ألّا يُعينوا عليهِ أحداً، ولا يتعرَّضوا لأحدٍ منَ أصحابِه، لا بلسانٍ ولا بيدٍ ولا بسلاحٍ، لا في السرِّ ولا في العلانيةِ، لا بليلٍ ولا بنهارٍ، فإنْ فعلوا فرسولُ اللهِ في حِلٍّ من سَفْكِ دمائِهم، وسبيِ ذراريْهِم ونسائِهم، وأخذِ أموالِهم، وكتبَ لكلِّ قبيلةٍ كتاباً على حِدَة. (٢٢٤)

أسُسُ الدَّولةِ الجديدة

بدأ رسولُ اللهِ ببناءِ أوّلِ دولةٍ إسلامية في ظروفٍ صعبَةٍ، في الداخلِ والخارجِ، التي تستوجبُ علاجاتٍ فعّالةً من جوانبَ عدّةٍ، سواءً اقتصاديةً أو اجتماعيةً أو دينيّةً أو أمنيّةً، ففي الجانبِ الدينيّ كانَ تشريعُ كثيرٍ من الأحكامِ، مثل: الأذانِ، الصلاةِ، والزكاةِ، والصيامِ، وغيرِها، وهذه التشريعاتُ بدأتْ في مكّةَ واستمرَّتْ تدريجياً في المدينةِ، وفي الجانبِ الاجتماعيّ كانَتْ المؤاخاةُ بين المسلمينَ، ثمّ جاءتْ كتابةُ الدستورِ لفرضِ قانونٍ ينظِّمُ حياةَ الناسِ في هذه الدولةِ الفتيَّةِ، ولأنّ الأخطارَ الخارجيةَ ما زالتْ تهدّدُ كيانَ هذه الدولةِ، كانَ

من الضروريِّ التجهُّزُ والاستعدادُ عسكريًّا، والتدريبُ وبناءُ جيشٍ قويٍّ يدافعُ عن الأرضِ والناسِ، فجاءَ مفهومُ الجهادِ[1] وهو القتالُ في سبيلِ اللهِ للدفاعِ عن الإسلامِ والمسلمينَ. لم يقتصرْ الجهادُ على الدفاعِ فحسْبُ، بلْ كانَ لهُ دَورٌ مُهُمٌّ في المبادرةِ والهجومِ إذا لزمَ الأمرُ، فمن أجلِ إنهاءِ الظُّلمِ في العالَمِ وبسطِ العدلِ استعملَ الإسلامُ كلَّ الوسائلِ السلميّةِ الممكِنَةِ، وإذا لم تنفعْ اتجَـهَ إلى استعمالِ القوةِ لتحقيقِ هذه الأهدافِ الحقَّةِ، فجاءَ الجهادُ كحلٍّ عسكريٍّ، وهو ما يطابقُ الأحكامَ العقليّةَ والفطريَّةَ، فَضْلًا عن الشرعِ والدينِ، فالإسلامُ لو لم يستعملْ السيفَ، لم يكنْ ليصيرَ دينَ الحقِّ والعدلِ، ولا دينَ الفطرَةِ والعقلِ، ولكانَ خائنًا للمجتمعِ، بلْ وللإنسانيّةِ جمعاءَ على مَدى التاريخِ. (٢٢٥)

السَّرايا الأُولى

بدأ رسولُ اللهِ بعد سبعَةِ أشهرٍ من مَقْدمِهِ بإرسالِ السَرَايا[2]، وكانتْ تهدفُ إلى الضغطِ على قريشٍ اقتصاديًّا ونفسيًّا، وتعريْفِها أنّ المسلمينَ لن يتركوها حُرَّةً في المنطقةِ ما دامَتْ قد شرَّدتْهُم، وآذتْهُم وسلبَتْهم أموالَهم، وقتلتْهُمْ، وكانَ النبيُّ إذا أرادَ أنْ يبعثَ سَرِيّةً دعاهُم، فأجلسَهم بينَ يديْهِ، ثمّ يقولُ لَهُم: "سيروا باسم الله، وبالله، وفي سبيلِ اللهِ، وعلى مِلّةِ رسولِ اللهِ، ولا تغلوا، ولا تُمثِّلوا، ولا تغدُروا، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا صبيًّا ولا امرأةً، ولا تقطعوا شجرةً إلاّ أنْ تضطّروا إليها، وأيّما رجلٍ من أدنَى المسلمينَ أو أفضلِهِمْ نظرَ إلى

---

١ الجهاد لغةً: المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول وفعل، والجهاد في الإسلام: هو مصطلح إسلامي، يُقصد به بذل النفس والنّفيس في نشر الإسلام، أو الدفاع عنه.

٢ السريّة: قطعة أو فرقة من الجيش، وقدّرها بعضهم ما بين خمسة إلى ثلاث مئة مقاتل، وكان رسول الله لا يخرج معها، وإنّما يخرج مع الغزوات.

رجلٍ من قُريشٍ، فهوَ جارٌ حتّى يسمعَ كلامَ اللهِ، فإنْ تبِعَكُمْ، فأخوكم في الدينِ، وإنْ أبى فأبْلِغوهُ مأمنَهُ، واستعينوا باللهِ عليهِ "



شكل(٢٩): سرايا رسول الله الى القرى والقبائل.

بعضُ تلكَ السَّرايا كانتْ تهدفُ إلى الإستطلاعِ ومراقبةِ تحرّكاتِ قريشٍ في المنطقةِ وتعقبَ المغيْرينُ على أطرافِ المدينةِ. كما أنّ هذه السرايا قد شجّعَتْ المسلمينَ وأعادَتْ لهم الثقةَ بأنفُسِهم. وقد أسفرَتْ هذه السرايا والغزواتُ عن مُهادناتٍ وتحالفاتٍ بينَ المسلمينَ والعديدِ منَ القبائلِ في المنطقةِ.

غَزْوةُ العشيرَةْ

بعد أكثرَ من سنةٍ على قدومِ الرسولِ وقعَتْ أُولى غزواتِ النبيِّ وهي غزوةُ العشيرةِ، وكانتْ تستهدفُ قافلةَ قريشٍ بقيادةِ أبي سفيانَ، فخرجَ النبيُّ محمدٌ بنفسهِ بمئةٍ وخمسينَ مقاتلًا، وحينَ وصلوا إلى مكانٍ يُسمَّى العشيرةُ لم يجدوا القافلَةَ، فنزلَ الرسولُ ومَنْ معهُ في موضعٍ يُقالُ لهُ يَنْبُعُ بضعةَ أيامٍ ليتَتبَّعَ قافلةَ أبي سفيانَ، فصالحَ هناكَ بني مُدلِجٍ وحلفاءَهم من بني ضَمْرَةَ، وكانتْ هذه المصالحاتُ والاتفاقيّاتُ مهمّةً بينَ القبائلِ لضمانِ عدَمِ التعرُّضِ لبعضِها البعضِ في المستقبلِ، وهناكَ ذهَبَ عمارٌ بنُ ياسرٍ وعليٌّ بنُ أبي طالبٍ لينظرا إلى عمَلِ بعضِ بني مدلجٍ، فَرأيَاهُم يعملونَ على عَيْنِ ماءٍ ونخلٍ، فانطَلَقا حتّى اضطجَعا على الترابِ لِيستَريحا، فغَشِيَهما النومُ، ثمّ جاءَ رسولُ اللهِ فرأهُما قد علاهُما الترابُ منْ تلكَ الأرضِ التي نامَا عليها، فأيقظَهُما، وقالَ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ مُلاطِفاً: قُمْ يا أبا تُرابٍ[1]! قمْ يا أبا ترابٍ!، ثمّ قالَ: ألا أُحدِّثُكما بأشقَى الناسِ رجلَين؟ فقالا: بَلىٰ يا رسولَ اللهِ، قالَ: أُحَيْمِرُ ثمودَ الذي عقَرَ الناقَةَ، والذي يضربُكَ يا عليُّ على هذه- ووضعَ يدَهُ على أعلى رأسِهِ- حتّى يَبُلَّ منْها هذه، وأخَذَ بلحيتِه(٢٢٦)، فصارَتْ" أبو تراب منْ حينِها كُنْيَةً لهُ، وكانتْ أحبَّ الكُنى إلى عليِّ بنِ أبي طالبٍ (٢٢٧)، ثمّ رجعَ المسلمونَ إلى المدينةِ دونَ قتالٍ.(٢٢٨)

١ أبو تراب: كانت هذه الكنية من أحب الكنى لعلي بن أبي طالب، و كان يفرح إذا دعي بها، ثم جاء بعده حكام من بني أمية اتبعوا نهجاً معادياً له فجعلوها نقيصة له وراحوا يسبوه بها على المنابر.

سَرِيَّةُ بَطْنِ نَخْلَة

وفي إحدى سرايا الإستطلاعِ في السنةِ الثانيةِ كَتبَ النبيُّ كتابًا لقائدِ السريّةِ، وأمرَهُ ألّا ينظرَ فيهِ حتّى يسيرَ يومينِ، فلمّا سارَ يومينِ فتحَ الكتابَ، فإذا فيهِ بعد البسْملَةِ: "أمّا بعدُ، فَسِرْ على بركةِ اللهِ بمَنْ تبعَكَ من أصحابِكَ، حتّى تنزلَ بَطْنَ نَخْلَةٍ، فتَرصَّدْ بها عِيرَ قريشٍ وتأتيَنا منها بخبَرٍ، وأخبرَ أصحابَهُ أنّ رسولَ اللهِ قد أمرَهُ ألّا يستَكرِهَ أحداً ممَّنْ كانَ معهُ، ويُخيّرَهم بينَ البقاءِ معهُ وبينَ الرجوعِ، فمضوا معهُ جميعاً، فأقامَ هناكَ فمَرَّتْ بهِمْ عِيرٌ لقريشٍ، فهجَمَ المسلمونَ عليهم، فقَتلوا منهمْ رجلاً، وأسروا اثنينِ، وأخذوا ما معَهُمْ، وكانَ ذلكَ في أوّلِ يومٍ منْ شهرِ رجبٍ، فلمّا قدِموا على النبيِّ، أوقفَ العِيرَ والأسيريْنِ، وأبى أنْ يأخذَ منْها شيئاً، وقالتْ قريشٌ: قد استحلَّ محمدٌ الشهرَ الحرامَ، وسفكَ فيه الدماءَ، وأخذَ فيهِ الأموالَ، وأسرَ فيه الرجالَ، فعيَّروا المسلمينَ بذلك، وتحرّكَ اليهودُ أيضاً، ليزيدوا الطينَ بِلَّةً، فلمّا أكثروا اللغَطَ (٢٢٩) ، أنزلَ اللهُ قرآنًا يحسِمُ الجِدالَ، ويقولُ على الرغْمِ من أنّ القتالَ في الأشهرِ الحُرمِ جُرمٌ كبيرٌ، إلّا أنّ هذه القاعدةَ لا تخلو منَ استثناءاتٍ، فلا ينبغي السماحُ لبعضِ المجموعاتِ الفاسدةِ في إشاعةِ الظلمِ والفسادِ والصدِّ عن سبيلِ اللهِ والكفرِ باللهِ ثمّ إنّ السعيَ في إضلالِ الناسِ وحَرفِهم عن سبيلِ اللهِ ودينهِ وإخراجِ الساكنينَ من بيوتِهم، أعظمُ من القَتْل (٢٣٠).

دفعَتْ قريشٌ ثمنَ فداءِ الأسيرينِ وأُطلِقَ سراحُهما، وأدركتْ أنّها لم تعدْ تملكُ حريةَ الحركَةِ في المنطقةِ، ولم تعدْ هي سيدةَ الموقفِ، ولا تستطيعُ بعد الآنَ أنْ تأمنَ على قوافلِها التجاريةِ منَ الشامِ وإليه، إلّا بالعودةِ إلى منطقِ التعقُّلِ والحكمةِ، والتخلِّي عن منطقِ الظلمِ والغطرسةِ والتجَبُّر.

بعد مدةٍ ليستْ بالطويلَةِ كتبَ كُفارُ قريشٍ إلى بعضِ المنافقينَ في المدينةِ من الأوسِ والخزرجِ، وفي مقدِّمتِهِم عبدُ اللهِ بنُ أُبيِّ بنِ سَلُول[1]:" إنّكم آويْتُم صاحبَنا، وإنّكم أكثرُ أهلِ المدينةِ عدداً، وإنّا نُقسمُ باللهِ، لتقتُلُنَّهُ ، أو لتُخرجوهُ، أو لنستعينَنَّ عليكُم بالعربِ، أو لنسيرنَ إليكم بأجمعِنا، حتّى نقتلَ مُقاتِلَتَكُمْ، ونستبيحَ نساءَكم."

فلمّا بلغَ ذلك ابنَ أبيٍّ ومَنْ معهُ من منافقي المدينةِ، تراسلوا، فاجتمعوا، وأجمعوا على قتالِ النبيِّ، فلمّا بلغَ ذلك النبيَّ وأصحابَه لقيَهم في جماعةٍ، فقالَ: "لقد بلغَ وعيدُ قريشٍ منكم المبالغَ، ما كانتْ لِتكيدَكم بأكثرَ ممّا تريدونَ أنْ تكيدوا بهِ أنفسَكم، فأنتمْ هؤلاءِ تريدونَ أنْ تقتلوا أبناءَكم وإخوانَكم"، فلمّا سمِعوا ذلكَ من النبيِّ تفرَّقوا، وبلغَ كفارَ قريشٍ أنّ تخويفَهم لم يُجدِ نفعًا. (٢٣١)

---

١ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول كان زعيمًا في يثرب وسيد قبيلة الخزرج، كان على وشك أن يصبح سيد المدينة قبل وصول النبي محمد، فلذلك كان يعتقد أن الإسلام حرمه من السلطة، مما أدى به إلى محاربة النبي محمد سراً وعلانيةً.

السنةُ الثانيةُ بعد الهِجرةْ (٦٢٣ ـ ٦٢٤ م)

مفاداةُ سلمانَ المحمَّديّ

في السنةِ الأولى من الهجرةِ أملى رسولُ اللهِ كتابَ مفاداةِ سلمانَ الفارسِيّ على عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، كما يلي: "هذا ما فادى محمدٌ بنُ عبدِ اللهِ - رسولُ اللهِ -، سلمانَ الفارسيّ من عثمانَ بنِ الأشهلِ اليهوديّ ثم القرظيِّ بغرسِ ثلاثمئةِ نخلةٍ وأربعينَ أوقيّةَ ذهبٍ، فقد برِئَ محمدٌ بنُ عبد اللهِ - رسولُ اللهِ - لِثَمَنِ سلمانَ الفارسيِّ، وولاؤهُ لمحمدٍ بنِ عبدِ اللهِ - رسولِ اللهِ - وأهلِ بيتِهِ، فليس لأحدٍ على سلمانَ سبيلٌ، وكتبَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ يومَ الإثنينِ في جُمادى الأُولى مهاجرُ محمدٍ بنِ عبد اللهِ - رسولِ اللهِ -"



شكل(٣٤): صورة تخيلية لسلمان الفارسي.

رَغْمَ جَشَعِ هذا اليهوديِّ وطلبِه هذا المقدارِ الباهظِ منَ المالِ ثمناً لِعَتْقِ سلمانَ الفارسيِّ إلّا أنّ رسولَ اللهِ أصرَّ على فِدائِهِ لتخليصهِ من العبودِيّةِ التي أنهكتْهُ، ولَطالَما كانَ رسولُ اللهِ يحبُّ هذا الإنسانَ المؤمنَ، ولا يرضى بأيِّ تمييزٍ عنصريٍّ ضدَّهُ بسببِ أصلهِ، ويقولُ: "سلمانُ مِنّا أهلَ البيتِ". (٢٣٢)

تحويلُ القِبْلَةِ

حين قدِمَ النبيُّ إلى المدينةِ، كان يتوجَّهُ إلى بيتِ المقدسِ في الصلاةِ، لكنّه كانَ مرتبِطاً بالكعبةِ ارتباطاً ومنتظِرًا لأمرِ تغييرِ القِبلةِ، ولعلَّ سببَ ذلك يعودُ إلى ارتباطِ النبيِّ بإبراهيمَ، إضافةً إلى كونِ الكعبةِ أقدمَ قاعدةٍ توحيديّةٍ للأحنافِ سابقاً، لكنَّ رسولَ اللهِ لم يتردَّدْ على لسانهِ طلبٌ بهذا الشأنِ وإنّما كانَ مسلِّماً بالكاملِ لأمرِ اللهِ، يقلِّبُ طرفَهُ إلى السماءِ بلهفَةٍ، منتظراً نزولَ الوحيِ بالأمرِ الإلهي.

بدأ اليهودُ في المدينةِ يعيِّرونَ الرسولَ لأنّه كانَ يصلّي باتجاهِ بيتِ المقدسِ، ويقولونَ لهُ: "أنتَ تابعٌ لنا، تصلّي إلى قبلَتِنا وغداً ستتحَوّلُ إلى دينِنا"، فشعرَ رسولُ اللهِ بالغَمِّ والحزْنِ الشديدِ من هذا، لأنّه كانَ يخافُ أنْ يَضِلَّ المؤمنونَ عن دينِهم، ويرفضَ الآخرونَ الإنضمامَ إلى الإسلامِ، إذا استمرَّتْ الإساءةُ من اليهودِ والإهانةُ للمسلمينَ بسببِ القِبْلةِ.

فجاءَ الوحيُ بالبُشرى يخبرُ النبيَّ محمدًا بكلامِ اللهِ: نحنُ نرى تَقلُّبَ وجهِك في السماءِ، تطلبُ من اللهِ العونَ، فلسوفَ نوجِّهُكَ إلى قِبْلةٍ تحبُّها وترضاها، ثمّ يأمرُهُ والمسلمينَ إلى التوجُّهِ إلى المسجِدِ الحرامِ. (٢٣٣)

ولمّا أصبحَ وحضَرتْ الصلاةُ وكانَ يصلِّي الظهرَ بالمسلمينَ في مسجدِ بني سالمٍ، كانَ قد أنهى ركعتينِ من الصلاةِ، فنزَلَ جبريلُ وأخذَ بِعضُديْهِ وحَوَّلَهُ إلى الكعبةِ، فاستدارَتْ الصفوفُ خلفَهُ، فصلَّى الركعتينِ الأخيرتَينِ إلى الكعبةِ، فقالَتْ اليهودُ الذينَ شقَّ عليهم ذلكَ: "ما ولّاهُمْ عن قِبلَتِهِمْ التي كانوا عليها!" وسُمِّيَ المسجدُ الذي جرى فيه ذلكَ التحويلُ بمسجدِ القِبلَتينِ، وبهذا أصبحَتْ القِبلةُ في الصلاةِ إلى الكعبةِ، وكانَ ذلكَ في رَجَبٍ في السنةِ الثانيةِ للهِجرةِ. (٢٣٤)

الإنتدابُ إلى بَدْر

لم تتوقَّفْ قريشٌ عنِ استعمالِ القوةِ والعنفِ ضدَّ المسلمينَ ومصادرَةِ أموالِهم، وتهجيرِهِم من أجْلِ ثَنْيِهِم عن دينِهم، وإجبارِهم على الرضوخِ إلى مطالبِهم، فكانَ لا بدَّ للمسلمينَ من الدفاعِ عن أنفسِهم وأموالِهم ولا يقفونَ مكتوفيِ الأيديْ أمامَ كلِّ هذا الاضطهادِ والاعتداءِ والظلْمِ الذي يُمارَسُ ضدَّهُم.

كانَ المسلمونَ في السابقِ في مكّةَ يأتونَ إلى رسولِ اللهِ ما بينَ مشجوجٍ ومضروبٍ، يشكونَ إليهِ ما يُعانونَ من أذى قريشٍ وبطشِها، فكانَ رسولُ اللهِ يقولُ لهم: اصبِروا، فإنّي لم أُؤمَرْ بالقتالِ (٢٣٥)، وبعدما هاجرَ إلى المدينةِ وفي السنةِ الثانيةِ من الهجرةِ في السابعِ عشرَ مِنْ شهرِ رمضانَ، نزلَ الإذنُ الإلهيُّ بالقتالِ للدفاعِ عن النفسِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ...﴾ (٢٣٦)

من خلالِ السرايا الاستطلاعيَّةِ، أصبحَ رسولُ اللهِ على علمٍ بعودَةِ قافلةِ أبي سفيانَ من الشامِ إلى مكّةَ وهي تضمُّ سبعينَ راكبًا، كما كانتْ القافلةُ تحمِلُ أغلبَ أموالِ قريشٍ، والتي تُقَدَّرُ بخمسينَ ألفِ دينارٍ، وبناءً على ذلكَ، خطَّطَ الجيشُ الإسلاميُّ للخروجِ ومواجهةِ القافلةِ بهدفِ إثارةِ الخوفِ في قلوبِ قريشٍ وممارسةِ الضغطِ عليها، كانَ الهدفُ من ذلكَ هو دفعُ قريشٍ لتغييرِ سياستِها تجاهَ المسلمينَ، وتوفيرِ الفرصةِ للنبيِّ والمسلمينَ لممارسةِ شعائرِهم الدينيّةِ بسلامٍ دونَ ملاحقةٍ أو أذى، وحتّى لو وصلَ الأمرُ إلى أنْ يستولِيَ المسلمونَ على القافلةِ التجاريةِ، فإنّ ذلك سيكونُ كتعويضٍ عمّا أخذتْهُ قريشٌ منهم من أموالٍ بطريقةٍ غيرِ عادلةٍ.

إنّ تهديدَ قافلةٍ بهذا الحجْمِ على الطريقِ التجاريِّ الرئيسِ لمَكّةَ، الذي يُعتَبرُ العصَبُ الاقتصاديُّ لقريشٍ، سيكونُ له تأثيرٌ خطيرٌ على مصالحِ قريشٍ، ولن تتجاهلَ قريشٌ هذا الأمرَ بأيِّ حالٍ منَ الأحوال. (٢٣٧)

أمرَ رسولُ اللهِ المسلمينَ بالتهيُّئِ والاستعدادِ للخروجِ إلى القافلةِ، فأبطأَ عن النبيِّ كثيرٌ من أصحابِه، وكرِهوا الخروجَ إليها، لأنّهم تخوّفوا من كَرَةِ قريشٍ عليهم، وانتقامِها منهم، لِما لهذا الأمرِ من خطرٍ بالغٍ على اقتصادِها (٢٣٨).

عرفَ أبو سفيانَ من عيونِه التي نشرَها في طريقِهِ بتحرُّكِ المسلمينَ إليه، فغيَّرَ مسارَ القافلَةِ مباشَرَةً واتجهَ غرباً نحو مكّةَ متَّخِذاً طريقَ ساحلِ البحرِ (انظر شكل ٣٠)، كما أرسلَ مبعوثاً إلى مكّةَ يخبرُهم بالأمرِ، ويطلبُ منهم النجدَةَ، فلمّا وصلَ المبعوثُ إلى مكّةَ مزَّقَ ثيابَه وأخذَ ينادي بأعلى صوتِه: "يا معشرَ قريشٍ، اللّطيمَةَ[1]، اللّطيمَةَ، أموالُكم معَ أبي سفيانَ قد تعرَّضَ لها محمدٌ في أصحابِه، الغَوثَ، الغَوثَ"، فأعلنتْ قريشٌ النفيرَ العامَّ وما بقيَ أحدٌ من عظماءِ قريشٍ إلّا وأخرجَ مالًا لتجهيزِ الجيشِ، وقالوا: مَنْ لم يخرجْ نهدمُ دارَه، فلم يتخلَّفْ رجلٌ إلّا وأخرجَ مكانَه رجلًا آخرَ.

كانَ أميّةُ بنُ خَلَفٍ مُعْرِضاً عن الخروجِ إلى حربِ المسلمينَ، لأنّ سعدًا بنَ معاذٍ[2] كانَ قد قدِمَ مكّةَ معتمِراً، فنزلَ على أميّةَ، لصداقَةٍ بينَهما، وخرجَ سعدٌ ليطوفَ، ومعَه أميّةُ، فلقيَهما أبو جهلٍ، فقالَ أبو جهلٍ لسعدٍ: أراكَ تطوفُ بمكّةَ آمِناً، وقد آويْتُم الصَّبأةَ ، وزعمْتُم أنّكم تنصرونَهم، وتُعينونَهم؟! أما واللهِ لولا أنّك مع أبي صفوانَ ما رجعْتَ إلى أهلِكَ سالِماً، فقالَ له سعدٌ وقد رفعَ صوتَه: أما واللهِ، لئنْ منعتَني هذا لأمنعنَّكَ ما هو أشدُّ عليكَ منْه، طريقَكَ إلى المدينةِ، فاعترضَ أميّةُ عليه لرفعِهِ صوتَه على سيّدِ أهلِ الوادي، فقالَ سعدٌ مجيبًا أميّةَ: دعْنا منكَ، فواللهِ لقد سمعْتُ رسولَ اللهِ يقولُ: إنّهم قاتلوكَ، فقالَ أميّةُ: بمكّةَ؟ قالَ سعدٌ: لا أدري، فقالَ أميّةُ فزِعًا: واللهِ ما كذبَ محمدٌ، وعَزَمَ على ألّا يخرجَ، فلمّا كانَ يومَ بدرٍ أصرَّ عليه أبو جهلٍ بالخروجِ معَهم، وأرسلَ إليهِ عُقبةَ بنَ أبي مُعيطٍ بمجْمَرَةٍ[3]

---

١ اللطيمة: القافلة.

٢ سعد بن معاذ: رئيس قبيلة الأوس في المدينة.

٣ المِجْمَرَة (المبخرة): وعاءٌ من حديد أو فَخَّار يوقد فيه الخشب أو الفحم، أويوضع فيه الجمر، ثم يُلقى عليه البَخُور أو نوع من الطِّيب ليتعطّروا به.

بُخورٍ فوضَعَها بينَ يديِه، وقالَ له: استجْمِرْ[١]، فإنّك من النساءِ، فتحمَّسَ حينَئذٍ، وتهيّأ للخروجِ، فنهتْهُ زوجتُهُ، وقالتْ له: واللهِ، إنّ محمدًا لا يكذبُ، فأبَى إلّا المسيرَ، كانتْ تصرُّفاتُ ومواقفُ أميّةَ بنِ خلفٍ غيرَ مدعومةٍ بالعقلِ والوجدانِ، فبرغْمِ أنّهُ كانَ يؤمنُ بصدقِ محمدٍ، لكنَّه لم يكنْ يرغبُ في مواجهتِهِ إلّا خوفًا على نفسِه، وعندما غَيَّرَ رأيَه، شارَكَ في الحربِ بدافعِ الحماسِ والشجاعَةِ الجاهليّةِ فقطْ، هذا الأسلوبُ والتفكيرُ أدّى بهِ إلى الخسارةِ كما سنرى. (٢٣٩)

حينَما وصلَتْ قريشٌ إلى الجُحفَةِ عادتْ بنو زهرةٍ أدراجَها ولم تشاركْ في الحربِ، وذلك لأنّ حليفَهم أُبيَّ بنَ شريقٍ الثقفيَّ أقنعَهُم بالعودةِ ونصحَهم بعَدمِ تضييعِ أموالِهم وعَدَمِ الإصغاءِ إلى كلامِ أبي جهلٍ. (٢٤٠) أمّا أبو سفيانَ، فقد نجا بالقافلةِ بتغييرِ طريقِهِ غربًا إلى أن اقتربَ من مكّةَ، فأرسلَ رسالةً إلى قريشٍ وطلبَ منهم العودةَ إلى مكةَ، فأبى أبو جهلٍ إلا أنْ يرِدَ موضعَ آبارِ بدرٍ ويطاردَ المسلمينَ، ويقيمَ هناكَ ثلاثَةَ أيامٍ، يأكلُ ويشربُ الخمورَ، لكي تسمعَ العربُ بمسيرِهم وجمْعِهِمْ، فيهابونَهم (٢٤١).

عندما اقتربَ النبيُّ من بدرٍ، سادَتْ حالةٌ من الاضطرابِ، حيثُ لم تكنِ الأطرافُ الثلاثَةُ: جيشُ المسلمينَ، وجيشُ المشركينَ، وقافلةُ قريشٍ، على درايَةٍ بوجودِ بعضِها البعضِ بسببِ تسارُعِ الأحداثِ، وبُعدِ المسافاتِ، وبُطءِ حركةِ الرسُلِ الاستطلاعيَّةِ نسبيًّا؛ فرسولُ اللهِ لم يكنْ يعرفُ إنّ أبي سفيانَ غَيَّرَ مسارَ القافلةِ إلى الطريقِ الساحليّ غربًا قُربَ تُهامَةَ، كما لم يكنْ يعرفُ بمَجيءِ قريشٍ، وأبو سفيانَ لم يكنْ يعلمُ أينَ جيشُ قريشٍ، ولم يكنْ يعلمُ أينَ مكانُ رسولِ اللهِ، وكذلكَ قريشٌ لم تكنْ تعلمُ أين وصلتْ القافلةُ، وأين وصلَ رسولُ اللهِ، لذا؛ أرسلَ رسولُ اللهِ سريَّةَ استطلاعٍ إلى بدرٍ، فوجدوا ثلاثةً من عبيدِ قريشٍ يسقونَ الماءَ لقريشٍ من آبارِ بدرٍ، فاعتقَلوهمْ وأتوا بهمْ إلى النبيِّ وهو قائمٌ يصلّي، فسألَهمُ المسلمونُ، فقالوا: نحنُ سُقاةُ قريشٍ، بعثونا نسقي لهم من ماءِ بدرٍ، لم يكنِ المسلمونَ حتّى هذا الوقتِ

---

١ استجمر: تبخّر بالمجمرة التي فيها البخور، وكانت النساء كثيراً ما تتطيب بالمجمرة.

يعلمونَ بخروجِ جيشِ قريشٍ، ولم يكونوا يرغبونَ بسماعِ هكذا خبرٍ، فكرِهَ القومُ جوابَهم، ورجوا أنْ يكونوا منْ عبيدِ أبي سفيانَ وأصحابِ القافلةِ، فضربوهُمْ حتّى

أوجعوهمْ، فقالوا: نحنُ لأبي سفيانَ، ونحنُ في العيرِ، وهذه العيرُ بهذا القوزِ[1]، فتوقَّفوا عنْ ضربِهِمْ، فلمّا انتهى رسولُ اللهِ منْ صلاتِهِ، قالَ: إنْ صدقوكُمْ ضربتُموهُمْ، وإنْ كذَّبوكم تركتُموهمْ، فقالَ أصحابُه: إنّهم يا رسولَ اللهِ يقولونَ إنّ قريشاً قد جاءتْ، فقالَ: لقد صدقُوكمْ، خرجَتْ قريشٌ تمنعُ عِيرَها، وخافوكم عليها، ثمّ أقبلَ على السُقاةِ، فقالَ: أينَ قريشٌ فقالوا



شكل(٣٠): طريق قافلة أبي سفيان، وجيش المشركين، وجيش المسلمين.

---

١ القوز: منطقة تقع على ساحل البحر الأحمر.

خَلْفَ هذا الكثيبِ الذي ترى، قالَ: كمْ هم؟ قالوا: كثيرٌ، قالَ: كم عددُهم؟ قالوا: لا ندري، قالَ: كمْ ينحرونَ؟ قالوا يومًا عشرْةً، ويومًا تسعْةً، فقالَ: إنّ القومَ ما بينَ الألفِ والتسعِ مئةٍ، ثمّ قالَ للسُقاةِ: كمْ خرجَ من أهلِ مكّة؟ قالوا: لم يبقَ أحدٌ بالغٌ إلّا خَرَجَ (٢٤٢).

بعد أنْ عرفَ رسولُ اللهِ أنّ قريشًا خلفَ الجبلِ قادمَةٌ لتُخَلِّصَ القافلةَ، نزلَ جبريلُ ليخبرَ رسولَ اللهِ أنّ الحربَ واقعةٌ لا محالةَ، وأنَّ القافلةَ نجَتْ، وهي في طريقِها إلى مكّةَ، فأقبلَ رسولُ اللهِ على الناسِ، فقالَ: هذه مكّةُ قد ألقَتْ إليكم أفلاذَ أكبادِها (٢٤٣)، فخافَ المسلمونَ وجزِعوا من ذلك. كانَ رسولُ اللهِ على علمٍ بحالِ أصحابِه، وأنَّ بعضَهم كانَ يكرهُ قتالَ قريشٍ، فأرادَ أنْ ينتزعَ موقفًا حازماً من المهاجرينَ بالحربِ حتّى يُطمْئِنَ الأنصارَ، فتوجّهَ نحو المهاجرينَ قائلًا: "أشيروا عليَّ"، وأرادَ من ذلك أنْ يسمعَ منهم الموقفَ الصارمَ بالحربِ، فقامَ أبو بكرٍ، فقالَ: "يا رسولَ اللهِ، إنّها قريشٌ وخُيلاؤها، ما آمنَتْ منذ كفرَتْ، وما ذلَّتْ منذُ عزَّتْ، ولم تخرجْ على هيأةِ الحربِ"، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ: إجلسْ، فجلسَ، فقالَ: أشيروا عليَّ، فقامَ عُمَرُ، فقالَ مثلَ مقالةِ أبي بكرٍ، فأمرهُ النبيُّ بالجلوسِ، فجلسَ، ثمّ قامَ المِقدادُ، فقالَ: "يا رسولَ اللهِ، إنّها قريشٌ وخُيَلاؤها، وقد آمنّا بكَ وصدَّقناكَ، وشهدْنا: إنّ ما جئتَ بهِ حقٌّ من عندِ اللهِ، واللهِ لو أمرتَنا أنْ نخوضَ جمرَ الغَضَا[1]، وشوكَ الهراسِ[2]، لخضناهُ معكَ، ولا نقولُ لك ما قالتْ بنو إسرائيلَ لموسى: ﴿قالوا يا موسى إنّا لنْ ندخُلَها أبداً ما داموا فيها فاذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلا إنّا هاهُنا قاعدون۝﴾ (٢٤٤)، ولكنّا نقولُ: اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلا، إنّا معك مقاتلونَ، واللهِ، لنقاتلَنَّ عن يمينِكَ وشمالكَ ومن بين يديكَ، ولو خضتَ بحراً لخضناهُ معكَ، ولو ذهبتَ بنا بَرْكَ الغِماد[3] لتبِعناكَ"، فأشرقَ وجهُ النبيِّ من قولِ المقدادِ، وسُرَّ لذلك، ودعا لهُ.

---

١ الغضا: هو شجر الأَثْل، وخشبُهُ صَلْبٌ جدّاً، وجمرةُ يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ.

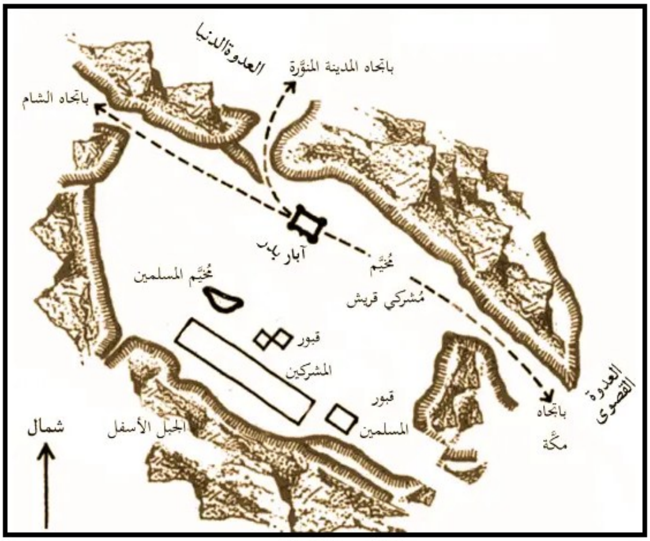
٢ الهَرَاس: نوع من النباتات الصحراوية الشوكية.

٣ بَرْكُ الغِمَاد: مدينة جنوب مكة على ساحل البحر الأحمر، تقع جنوب مكة على بعد ٥٦٠ كم، سُمِّيت بهذا الاسم نسبة إلى أول قبيلة استوطنت فيها، وهي قبيلة البَرْك بن وبرة بن تغلب، ثم سُمِّيت باسم برك الغماد نسبةً إلى شهرة المدينة بصناعة السيوف وأغمدة السيوف.

ثمّ توجهَ النبيُّ إلى الأنصارِ وقالَ: أشيروا عليَّ، كانَ الأنصارُ يرونَ أنّ عليِهمْ نصرَ النبيّ في دارِهم، إذا دهَمَهُ أمرٌ، فيحمونَهُ ممّا يحمونَ منهُ أنفسَهم، أمّا إذا كانَ هو نفسُهُ المهاجِمَ لغيرِهِ، أو كانتْ الحربُ في غيرِ بلدِهم، فلا نُصْرةَ لهُ عليهم، وذلك هو ظاهرُ ما تمَّ الاتفاقُ عليه في بيعةِ العقبةِ، لذلك كان يخشى النبيُّ ألّا ترى الأنصارُ بأنّ عليهم نُصرتَهُ في هذه الحربِ، فقامَ سعدٌ بنُ معاذٍ وقالَ: "بأبيْ أنتَ وأميْ يا رسولَ اللهِ، كأنّكَ أردتَنا؟" فقالَ: "نعمْ"، فقالَ: "فلعلَّكَ قد خرجتَ على أمرٍ قد أمرتَ بغيرِهِ؟" قالَ: "نعمْ"، قالَ: "بأبِيْ أنتَ وأميْ يا رسولَ اللهِ، إنّا قد آمنّا بكَ وصدَّقناكَ، وشهِدْنا أنّ ما جئتَ بهِ حَقٌّ من عندِ اللهِ، فَمُرْنَا بما شئتَ، واللهِ، لو أمرتَنا أنْ نخوضَ هذا البحرَ لخضناهُ معكَ، ولعلَّ اللهَ يُريكَ ما تقِرُّ بهِ عينُكَ، فَسِرْ بنا على بركةِ اللهِ "، فَسُرَّ النبيُّ، وأمرَهم بالمسيرِ، وأخبرَهم أنّ اللهَ قد وعدَهُ إحدى الطائفَتَينِ، إمّا النصرُ أو الغنيمةُ، ولن يُخلفَ اللهُ وعدَهُ، ثمّ قالَ: "واللهِ، لكأنِّي أنظرُ إلى مصرعِ أبي جهلِ بنِ هشامٍ، وعُتبةَ بنِ ربيعةَ، وشيبةَ بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ عُقبةَ، وأميّةَ بنِ خَلَفٍ، وعقبةَ بنِ أبي معيطٍ"، فسارَ حتّى نزلَ بدراً، وكانَ أكثرُ الصحابةِ يميلونَ إلى طلبِ الغنيمةِ أيْ قافلةِ أبي سفيانَ، وتَرْكِ القتالِ مع المشركينَ القادمينَ من مكّةَ، ولكنّ اللهَ كانَ يريدُ أنْ يُثبِّتَ وينصرَ الحقَّ ويستأصلَ الكفرَ والكافرينى (٢٤٥).

لم يكنْ رسولُ اللهِ بحاجةٍ إلى رأيِهم أو مشاورتِهم، لأنّ أمرَ الحربِ كان مقضِيًّا ومأمورًا بهِ من اللهِ، وكانَ هو الخيارُ الصحيحُ، لو أرادَ المسلمونَ العيشَ في عزَّةٍ وكرامةٍ، وإنّما كانَ يستشيرُهم لأنّهم هم الذينَ سوف يتحمَّلونَ أعباءَ الحربِ، ويعانونَ من نتائجِها، على مختلَفِ الأصعدةِ، ولكي يستخرجَ بذلك دخائلَ نفوسِهم، ويتميَّزَ المنافِقُ من المؤمنِ، والجبانُ من الشجاعِ، والذي يفكرُ في مصلحةِ نفسِه من الذي يفكرُ من منطَلَقِ التَكْليفِ الشرعِي (٢٤٦).

خرجَ رسولُ اللهِ في ثلاثِمِئةٍ وثلاثةِ عشرَ رجلاً، وكانَ معهم من الإبلِ سبعونَ بعيرًا يتعاقبونَ عليها، أمّا قريشٌ، فخرجوا وهم يشربونَ الخمورَ، ومعهم النساءُ يضرِبْنَ بالدفوفِ، وينشدْنَ الأشعارَ، وكانَ معهم سبعُمئةِ بعيرٍ، ومنَ الخيلِ مئتانِ، وكلُّهمْ دارِعٌ ، وكانوا ينحرونَ لهم من الإبلِ كلَّ يومٍ للإطعامِ.



شكل(٣١): خريطة معركة بدر.

علِمَ مشركو قُريشٍ بأنّ المسلمينَ مَسَكوا السُقاةَ ففزعوا، وندِموا على مسيرِهم وإصرارِهم على المجيئ إلى بدرٍ رَغمَ عِلمِهم بنجاةِ العيرِ، وقد اعترفَ عُتْبةُ بنُ ربيعةَ، وكان ولَدُهُ أبو حُذيفَةَ في جيشِ المسلمينَ، بأنّ مسيرَهم بعد نجاةِ عِيرِهم كانَ بغيًا منهم وعدواناً، وقد بذلَ جهدَهُ لإقناعِ جيشِ قريشٍ لكي يرجعَ عن قتالِ المسلمينَ، لكنَّ أبا جهلٍ أبى ذلكَ، وقالَ: "لا، واللّاتِ والعُزّى، حتى نقحَمَ عليهم بيثربَ، ونأخذَهم أُسارى ، فنُدخِلَهمْ مكّةَ، وتتسامعَ العربُ بذلك، ولا يقومُ بيننا وبينَ مَتْجَرِنا أحدٌ نكرهُه (٢٤٧)".

سبقَتْ قريشٌ بالوصولِ إلى بدرٍ، فنزَلوا في العُدوةِ القُصوى، في جانبِ الوادي ممّا يلِي مكّةَ حيثُ الماءُ، وكانَتْ العِيرُ خلفَ قريشٍ ومحلُّ نزولِهم كانَ صُلْبًا، ونزلَ المسلمونَ في

العُدوةِ الدنيا، أيْ جانبَ الوادي مما يلي المدينةِ حيثُ لا ماءَ، والأرضُ عبارةٌ عن رمالٍ متحرِّكةٍ لا تستقرُّ عليها قَدَمٌ، وهذا يعني أنّ منزلَ المسلمينَ كانَ من وجهةِ نظرٍ عسكريّةٍ غيرَ مناسبٍ، لكنَّ اللهَ أيَّدَ عبادَهُ المؤمنينَ، إذْ جاءَ بالمطرِ ليلاً على قريشٍ، فأوحَلَتْ أرضُهم، أمّا الرمالُ المتحرِّكةُ في معسكرِ المسلمينَ، فقد ثبَّتَها المطرُ، وجعلَها صلبةً، فوضعوا الماءَ في الحياضِ، وشربوا وسقوا الركائبَ، واغتسلوا وملأوا الأسقيَةَ (انظر شكل ٣١)، (٢٤٨)

ولمّا عرفَ المسلمونُ كثرةَ قريشٍ، خافوا وتضرَّعوا إلى اللهِ، أمّا النبيُّ فاستقبلَ القِبلةَ وقالَ: اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدّتَني، اللهمَّ إنْ تهلكَ هذه العصابَةَ لا تُعبَدُ في الأرضِ، فاستجابَ اللهُ دعاءَهم وأمدَّهم بألفٍ منَ الملائكةِ ليس للقتالِ إلى جَنْبِهم ولكنْ لِطَمأنَةِ قلوبِهم ولكي يزدادَ عزمُهم ويتشجَّعوا للقتالِ، (٢٤٩): ثمّ أنزلَ اللهُ عليهم النعاسَ والنومَ ليحصلَ لهم الأمنُ والسكونُ تحضيراً لمعركةٍ داميةٍ في اليومِ التالي، وحتّى لا يضعُفوا عندَ مواجهةِ الخطَرِ.

لمّا أصبحَ رسولُ اللهِ، عَبَّأَ أصحابَهُ وأعطى رايتَهُ لعليٍّ بنِ أبي طالبٍ، وبدأ يصُفُّ صُفوفَ المقاتلينَ، وفي يدهِ قطعَةٌ من خشبٍ يعدِّلُ بها القومَ، فمرَّ بسوادِ بنِ غَزِيّةَ وهو متقدِّمٌ من الصفِّ، فنغَزَهُ في بطنِهِ بالعصا، وقالَ: استَوِ يا سوادُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ! أوجعتَني، وقد بعثَكَ اللهُ بالحقّ والعدلِ فاسمحْ لي من القصاصِ لنفسِي، فكشفَ رسولُ اللهِ عن بطنِهِ فقالَ: اقتصَّ! فاعتنقَهُ سوادٌ وقَبَّلَ بطنَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ: ما حملَكَ على هذا يا سوادُ؟ قالَ: يا رسولَ اللهِ، قد حضرَ ما ترى، فأردتُ أنْ يكونَ آخرُ العهدِ بكَ أنْ يمسَّ جِلْدي جِلدَكَ، فدعا لهُ رسولُ اللهِ بخيرٍ، وقالَ لهُ: استوِ يا سوادُ! (٢٥٠).

بعد ذلك بدَأ النبيُّ ينصحُ المقاتلينَ، فقالَ لهم: غُضُّوا أبصارَكم، ولا تبدؤوهمْ بالقتالِ، ولا يتكلمنَّ أحدٌ، وسكتَ المسلمونَ، وغَضُّوا أبصارَهم، امتثالًا لأمرِ قائدِهم، فأثَّرَ هذا الموقفُ في قريشٍ بشكْلٍ واضحٍ، حتّى إنّ أحدَهم حينَ جالَ بفَرسِهِ يدورُ حولَ المسلمينَ ليعرفَ إنْ كانَ لهم مَدَدٌ، أو لهم كمينٌ، رجعَ للمشركينَ، وقالَ: ما لهُم كمينٌ ولا مددٌ، ولكنّ مقاتلِيهم

يحملونَ الموتَ الناقعَ[١] ، أما ترونَهم خُرْسًا لا يتكلّمونَ؟ يتلمّظونَ تلمُّظَ الأفاعيْ، ما لهم ملجأٌ إلّا سيوفَهَم؟! وما أراهُمْ يُولُّونَ حتّى يُقتَلوا، ولا يُقْتَلونَ حتّى يُقتَلَ بعددِهِم، فسَبَّهُ أبو جهلٍ، لأنّه رآه يُجَبِّنُ أصحابَهُ، ثمّ قالَ أبو جهلٍ يُشجِّعُ أصحابَهُ مُشيراً إلى قِلَّةِ عددِ المسلمينَ: ما هي إلّا أكْلَةُ رأسٍ[٢]، لو بعثَنا إليهمْ عبيدَنا لأخذُوهُمْ أخذًا باليدِ.

أمّا عقبةُ بنُ أبي معيطٍ فقد أبى أنْ يخرجَ، فقالَ لهُ أصحابُهُ: اخرجْ معَنا، قالَ: وعَدَني هذا الرجلُ إنْ وجدَني خارجًا منْ جبالِ مكّةَ أنْ يضربَ عُنُقي صبراً، فقالوا: لكَ جَمَلٌ أحمرَ لا يُدرَكُ فلو كانَتْ الهزيمةُ طِرتَ عليهِ، فأقنعوهُ فخرجَ معَهمْ.

وحينَ التقَى الجيشانِ، حاولَ رسولُ اللهِ للمرَّةِ الأخيرةِ أنْ يحاورَ قريشًا لإقناعِها باتخاذِ الموقِفِ السلْمِيِّ لِتجنُّبَ الحربِ وسَفْكِ الدماءِ، ويسألُهمُ أنْ يَدَعوهُ يبلِّغُ رسالتَهُ بِسلامٍ، فأرسلَ إلى قريشٍ يقولُ لهم: معاشِرَ قريشٍ، إنّي أكرهُ أنْ أبدأَكُمْ بقتالٍ، فخَلُّونيْ والعرَبَ وارجِعوا، فإنْ أكُ صادقاً فأنتُمْ أعلى بيْ عيْناً[٣]، وإنْ أكُ كاذباً، كَفتْكُمْ ذؤبانُ العربِ[٤] أمريْ، فَرَجَّحَ عتبةُ بنُ ربيعةَ للمشركينَ قبولَ ذلكَ، فرماهُ أبو جهلٍ بالجُبْنِ، وقالَ: إن عتبةَ انتفَخَ سِحرُه[٥] لمّا رأى محمدًا وأصحابَهُ، وإنّه خافَ على ابنهِ أبي حُذَيْفةَ الذي هو معَ محمدٍ، فلمّا بلغَ عُتبَةَ قولُ أبي جهلٍ، قالَ: سيعلمُ مُصنْفِّرٌ أُسْتُهُ[٦]، مَنْ انتفَخَ سحرُهُ: أنا، أمْ هو؟ وتحَمّسَ لذلكَ، ولَبِسَ دِرعَهُ، هو وأخوهُ شيْبَةٌ وولدُهُ الوليدُ، وتقدَّموا يطلبونَ البِرازَ. (٢٥١)

---

١ الموت الناقع: هو الموت الكثير، ويُقال: أَنْقَعَ الجَّزار الشاة: أي نَحَرَها، ويُقال: سمٌّ ناقع: أي بالغٌ قاتل، ودواء ناقع: ناجع.

٢ أكلة رأس: هو مثل سائر، يُقال: إنّما هم أَكَلَةُ رأس، ومعناه: عددهم قليل، كأنهم إذا اجتمعوا على رأس ليأكلوه، كان كافياً لهم.

٣ يُقال: هو أعلى به عيناً: أي أعلم بحاله من غيره، وأبصر به.

٤ الذُّئبان: جمع ذئب، وذؤبان العرب: لصوصهم وصعاليكهم.

٥ السَّحر: الرّئة وما حولها ممّا يعلق بالحلقوم من فوق السرّة وانتفخ سحره: أي ملأ جوفه ورئته خوفاً فارتفع قلبه إلى بلعومه.

٦ قولهم في الشّتم: فلان مصفرّ استه: هو من الصّفير، لا من الصّفرة، أي ضَراط، وهو كناية عن الجبن والخور.



شكل(٣٢): اصطفاف المسلمين لقتال المشركين في بدر.

وكانَ أوّلَ منْ برزَ للقتالِ عتبةُ وشيبةُ والوليدُ، فبرزَ إليهم ثلاثةٌ من الأنصارِ، فقالَ عتبةُ ومنْ معهُ لهم: ارجِعوا، فإنّا لسْنا إيّاكمُ نريدُ، إنّما نريدُ الأكفاءَ من قريشٍ، فأرجَعَهم النبيُّ، وبدأ بأهلِ بيتِهِ، لأنّهُ كَرِهَ أنْ تكونَ البدايةُ بالأنصارِ، وندَبَ عُبيدَةَ بنَ الحارثِ بنِ عبدِ المطّلب[١] وحمزةَ بنَ عبد المطلبِ وعليًّا قائلاً: "قُمْ يا عبيدةُ، قُمْ يا عمُّ، قُمْ يا عليُّ، فاطلبوا بحقّكُمْ الذي جعلَهُ اللهُ لكم، فقد جاءتْ قريشٌ بخُيلائِها وفخرِها، تريدُ أنْ تُطفِئ نورَ اللهِ، ويأبَى اللهُ إلّا أنْ يُتمَّ نورَهُ"، قَصدَ النبيُّ أنّ قريشًا تريدُ من وراءِ هذه الحربِ القضاءَ عليهِ وإنهاءَ دينِهِ، ولكنّ اللهَ أخذَ على نفسِهِ أنْ يرفعَ أعلامَ الإسلامِ ويُعليَ شأنَهَ وينصرَهُ ولو كَرِهَ المشركونُ ذلكَ.

ثمّ قالَ: يا عبيدةُ عليكَ بعتبةَ بنِ ربيعَةَ، وقالَ لحمزةَ: عليكَ بشيبةَ، وقالَ لعليٍّ: عليكَ بالوليدِ، فسألَ عتبةُ عنْهم، فأخبروهُ عنْ أنفُسِهم، وسألَ شيبةُ عن حمزةَ، فقالَ لهُ: أنا حمزةُ بنُ عبدِ المطّلبِ، أسدُ اللهِ وأسَدُ رسولِهِ، فقالَ شيبةُ: قد لقيْتَ أُسْدَ الحلْفاءِ، فانظرْ كيفَ تكونُ صولُتُكَ يا أسدَ اللهِ.

---

١ عبَيدة بن الحارث بن المُطلِّب بن عبد مَناف بن قُصَي، ابن عمّ النبي محمد ومن السابقين في الإسلام، و كان أكبر من النبي بعشر سنوات.

فقتلَ عليٌّ الوليدَ، وجاءَ فوجدَ حمزةَ مُعتَنِقًا شيبةَ، بعد أنْ تثلَّمَتْ في أيديهِما السيوفُ، فقالَ: يا عمٌّ طأْطِئْ رأسَكَ، وكانَ حمزةُ طويلاً، فأدخَلَ رأسَهُ في صَدْرِ شَيْبةَ، فاعترضَهُ عليٌّ بالسيفِ فطيَّرَ نِصْفَ رأسِهِ، وكانَ عتبَةُ قد قطَعَ رِجْلَ عبيدةَ، وفَلَقَ عبيدةُ هامَتَهُ، فجاءَ عليٌّ فأجهزَ على عتبةَ أيضاً، فيكونُ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ قد شارَكَ في قتْلِ الثلاثةِ.

ثمَّ حملَ حمزةُ وعليٌّ عبيدةَ بنَ الحارثِ، وأتيا به إلى رسولِ الله، فاستعبرَ ، فقالَ عبيدةُ: يا رسولَ اللهِ، ألستُ شهيدًا؟ قالَ: بلى، أنتَ أولُّ شهيدٍ من أهلِ بيتي، فقال عبيدةُ: أما لو كانَ عمُّكَ حيًّا لَعَلِمَ أنّي أولَى بما قالَ بهِ، قال: وأيُّ أعمامي تعني؟ قال: أبو طالبٍ، حيثُ يقولُ:

كذبْتُمْ وبيتُ الله نبزى محمَّداً ولمّا نُطاعِنْ دونَهُ ونناضِلِ

ونُسلِمَهُ حتّى نُصرَّعَ حولَهُ ونذهلَ عن أبنائِنا والحلائلِ

فقالَ: أما ترى ابنَهُ كالليثِ العادي بينَ يدَيْ اللهِ ورسولهِ، وابنَهُ الآخرَ في جهادِ اللهِ بأرضِ الحبشةِ؟ قالَ: يا رسولَ اللهِ، أسخطتَ عليَّ في هذه الحالةِ؟ قالَ: ما سخطتُ عليكَ، ولكنْ ذكرتَ عمّي، فانقبضتُ لذلك (٢٥٢).

ماتَ عبيدةُ بعد المعركةِ متأثِّرًا بجراحِهِ حينما وصلَ الجيشُ الإسلاميُّ إلى الصفْراءِ (٢٥٣)، جاءَ المديحُ من اللهِ والثناءُ لعليٍّ وحمزةَ وعبيدةَ، حيثُ قال إنّهم صدقوا العهْدَ الذي عاهدوا ربَّهم ولم يغيّروهُ، كما غيّرَ المنافقونَ، وأنّهُم ثَبَتوا وصبروا في طريقِ الحقِّ، فمنْهُم من استُشْهِدَ في المعركةِ كَعُبيْدَةَ ومِنْهمْ مَنْ ينتظِرُ مصيرَهُ كَعَلِيٍّ وحمزَةَ. (٢٥٤)

لمّا رأى أبو جهلٍ مقتلَ عتبةَ وشيبةَ والوليدَ، حاولَ إنقاذَ الموقفِ، فقالَ: لا تعجَلوا، ولا تبطُروا كما بَطِرَ ابنا ربيعةَ، عليْكُمْ بأهلِ يثربَ فاجْزُروهمْ جَزْرًا، وعليكُمْ بقريشٍ فخذُوهم أخذًا حتّى نُدْخلَهمْ مَكّةَ، فَنُعرّفَهُمْ ضلالتَهمْ التي هم عليها، (٢٥٥) اشتبَكَ الجيشانِ، وقاتلَ المسلمونَ بما يملكونَ من جيشٍ متواضعٍ وتجهيزاتٍ قليلةٍ، وكانَ النبيُّ يقولُ لعليٍّ: ناولْني كَفّاً من حَصْباءَ، فناولَهُ كفًّا منْها، فرمَى بهِ في وجوهِ القومِ، فكانَ لهذا الفعلِ أثرٌ مُعجِزٌ، إذْ

ما بقيَ أحدٌ منَ المشركينَ إلّا وامتلأتْ عينُهُ وفمُهُ ومِنخَرُهُ منَ الحَصى، ثمّ ردفَهمُ المؤمنونَ يقتلونَهم أو يأسِرونَهم، لا شكَّ أنّ الظاهِرَ يشيرُ إلى أنّ النبيَّ وأصحابَهُ همُ الذينَ أدّوا هذا الدورَ في معركةِ بدرٍ، لكنّ القرآنَ يقولُ: إنّكم لم تفعلوا ذلكَ أوّلاً، لأنّ القُدراتِ الروحِيّةِ والجِسْميّةِ والإيمانِيّةِ التي هي أصلُ تلكَ النتائجِ كُلَّها من عطاءِ اللهِ، وقد تحرّكتُمْ بقوّةِ اللهِ وفي سبيلِ اللهِ، لذلكَ إنّ الفاعلَ الحقيقيَّ هو اللهُ، وإنْ كانَتْ بإرادتِكمْ الحُرَّةِ (٢٥٦).

هَزَمَ اللهُ قريشًا شَرَّ هزيمةٍ، ولمّا رأى أحدُ المشركينَ وهو طليحةُ بنُ خويلدٍ كثْرَةَ انهزامِ أصحابِهِ قالَ: ويَحَكَمْ ما يهْزمُكُمْ؟! فأجابَهُ أحدُهُمْ: إنّهُ ليس مِنّا رجلٌ إلّا وهو يحبُّ أنْ يموتَ صاحبُهُ قَبلَهُ، وإنّا لنأتيَ قومًا كلُّهُمْ يحبُّ أنْ يموتَ قبلَ صاحبهِ، وقُتِلَ أبو جهلٍ على يَدِ أضعفِ مُقاتِلٍ من المسلمينَ، كما أخبرَ رسولُ اللهِ، بلْ إنّه كان قد أخبرَ بكلِّ ما سيجري في واقعةِ بدرٍ قبلَ وقوعِها[١] (٢٥٧)



شكل(٣٣): سقوط أحد المشركين في بدر.

---

١ لم يشهد أبو لهب غزوة بدر بنفسه، إما لأنه كان مريضاً وأرسل بدلاً منه العاص بن هشام المخزومي أخا أبي جهل، الذي قُتِل أيضاً في معركة بدر، ولما بلغت أخبار غزوة بدر وانتصار المسلمين مسامع أبي لهب ثار غضباً وتوفي بعد ذلك بسبعة أيام بسبب مرضه. (٤٩٢)

كانَ اندفاعُ الجيشينِ في المعركةِ بحماسٍ وقوةٍ أمرًا جليًّا ومثيرًا للاهتمامِ، وكان هذا الأمرُ بتخطيطٍ منَ اللهِ، حيثُ ذكرَ اللهُ أنّه هو الذي أظهرَ جيشَ الكافرينَ في الحُلُمِ للنبيِّ بعددٍ قليلٍ، لكي ينجحوا ولا يختصموا نتيجةَ تردُّدِهم وخوفِهم من مواجهةِ العدوِّ، وعندما بدأتْ المعركةُ، ووقفَ الجيشانِ الواحدُ مقابلَ الثانيْ، أظهرَ اللهُ للمسلمينَ باطنَ وحقيقةَ جيشِ قريشٍ، حتّى صاروا يرونَ الجيشَ المعاديَ كأنّهُ صغيرٌ وضعيفٌ لا قوّةَ لهُ للمواجَهةِ، أمّا العدوُّ فقد كانَ يجهلُ معنويّاتِ المسلمينَ، فكانَ ينظرُ إلى ظاهرِهمْ، فيراهُمْ قليلينَ، بلْ رأى أبو جهلٍ المسلمينَ كأكْلَةِ رأسٍ وأنّهمْ سيحسِمونَ القتالَ معهُ في يومٍ واحدٍ، فكانَ لهٰذينِ الأمرينِ الأثَرُ الكبيرُ في وقوعِ الحربِ ونصْرةِ المسلمينَ. (٢٥٨)

وحيثُ أنّ الملائكةَ كانَتْ تدافِعُ عنِ المسلمينَ، كانَ الشياطينُ يدافِعونَ عنْ الكافرينَ، إذْ حَسَّنَ الشيطانُ أعمالَهمْ ووعدَهمْ بأنْ يبذُلَ كلَّ جهدِهِ في الدفاعِ عنهُمْ في المعركةِ، كما يدافعُ الجارُ عن جارهِ عند العربِ، لكنْ عندما التقى الجيشانِ، تراجَعَ الشيطانُ بسبِبِ الخوفِ مِمّا رأى منْ دَعْمٍ إلهيٍّ للمسلمينَ وقالَ: إنّي أخافُ اللهَ، إنّي أرى ما لا ترونَ، كانَ الشيطانُ يكلِّمُهمْ بصورَةِ أحدِ شيوخِ قبيلةِ بنيْ كِنانَةَ و يُدعى سُراقةُ بنُ مالكٍ، لكنّ سُراقَةَ لم يأتِ معَهمْ إلى الحربِ أصلاً، وبذلكَ خدعَهُمْ الشيطانُ وتركَهمْ ليُلاقُوا الهزيمَةَ النكراءَ وحدَهُمْ.(٢٥٩)

لقد قُتِلَ في بدرٍ سبعونَ رجلاً منْ قريشٍ، نصفُهُمْ على يدِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، لذا سَمَّتْهُ قريشٌ بالموتِ الأحمرَ، لشدَّةِ بأسِهِ وشجاعتِهِ في المعركةِ، وقد أُسِرَ سبعونَ آخرونَ، أمّا المسلمونَ فلمْ يُسْتَشْهَدْ منْهمْ إلّا عشرةُ رجالٍ، ولم يُؤسَرْ منهُمْ أحدٌ، وغَنِموا منْ قريشٍ مئةً وخمسينَ بعيراً، وعشرَةَ أفراسٍ، وأمتِعَةً وسلاحاً كثيراً.(٢٦٠)

أمرَ رسولُ اللهِ بجَمْعِ قتلَى المشركينَ، وإلقائِهِمْ في بئرٍ، ثمّ نادَهمْ رجلاً رجلاً: "هلْ وجدتُمْ ما وعدَكُمْ ربُّكمْ حقّاً، فإنّي قد وجدتُ ما وعَدَ ربّي حقّاً، بئسَ القومُ كنتُمْ لنبيِّكُمْ، كذَّبْتُموني، وصدَّقَني الناسُ، وأخرجْتمونيْ، وآواني الناسُ، وقاتلتُموني ونصرَني الناسُ،" فقالَ عُمَرُ بنُ الخطابِ: يا رسولَ اللهِ، أتُنادي قوماً قد ماتوا؟! فقالَ النبيُّ: ما أنْتُمْ بأسمعَ لِما أقولُ مِنهُمْ،

ولكنَّهُمْ لا يستطيعونَ أنْ يُجيبونِي، ثمّ أخذَ النبيُّ بتوزيعِ الغنائمِ بينَ المسلمينَ وهو في طريقِهِ إلى المدينةِ، ولم يُخْرِجْ منها الخُمُسَ[1] لكيْ يُعطيَ المحاربينَ سِهاماً أوفرَ تأليفاً لهُمْ وترغيباً.(٢٦١)

أسْرَى بَدرْ

تحرَّكَ النبيُّ نحو المدينةِ، فلمّا بلغَ الصفراءَ أمرَ عليّاً بأنْ يضربَ عُنُقَيْ أسيرَينِ، وهُما: عُقْبَةُ بنُ أبي معيطٍ ذو السوابقِ السيِّئةِ المعروفَةِ معَ المسلمينَ ومعَ النبيِّ في مكّةَ، والنَضْرُ بنُ الحارثِ الذيْ كانَ يعذِّبُ المسلمينَ في مكّةَ ويُشنِّعُ على النبيِّ، فقالَ النضْرُ: يا محمدُ ، أسأَلُكَ بالرحِمِ الذي بينيْ وبينَكَ إلّا أجريْتَني كرجلٍ من قريشٍ، إنْ قتلتَهُمْ قتلتَني، وإنْ فاديتَهم فاديتَني، وإنْ أطلقتَهم أطلقْتَني، فقالَ رسولُ اللهِ : لا رِحمَ بيني وبينَكَ، قطعَ اللهُ الرحمَ بالإسلامِ، ثمّ التفتَ إلى عليٍّ فقالَ: قَدِّمْهُ يا عليُّ، فاضربْ عُنقَهُ، ففعلَ، فقالَ عقبةُ: يا محمدُ ، ناشدتُك باللهِ والرحمِ، فقالَ لهُ : وأنتَ من قريشٍ؟! وهلْ أنتَ إلّا عِلْجٌ من أهلِ صَفُورِيَّة[2] ؟ قدِّمْهُ يا عليُّ، فاضرِبْ عُنقَهُ، فقالَ: يا محمدُ ، مَنْ للصِبْيَةِ؟ قالَ: النارُ.

وكانَ عقبةُ بنُ أبي مُعيطٍ من تلكَ الثُّلَّةِ التي سَعتْ إلى محاربةِ النبيِّ بكلِّ ما أوتيَتْ منْ قوةٍ، فمعَ كلِّ هذهِ المواقفِ السيِّئةِ التي قامَ بها ابنُ أبي مُعيطٍ، وهي تُوجِبُ بنفسِها إنزالَ أشدِّ العقوباتِ بهِ، فإنّ قرارَ إعدامِهِ جاءَ أيضاً بسببِ ارتدادِه عن الإسلامِ، وبسببِ ما قامَ بهِ من تحريضِ الناسِ وتجييشِ الجيوشِ لمحاربةِ الدعوةِ الإسلاميةِ والقضاءِ عليها، فأوعدَهُ رسولُ اللهِ قبلَ الهجرةِ إنْ هو وجدَهُ خارجَ جبالِ مكّةَ، فإنّهُ سوفَ يضربُ عنقَهُ صبراً، فكانَ كما قالَ، ويُعتَبرُ قولُ النبيِّ هذا عن أبناءِ عقبةَ بمثابةِ إخبارٍ عن الغَيْبِ الذي أطْلَعَهُ اللهُ عليهِ، إذْ

---

١ الخُمس فرض مالي محدد بنسبة الخُمس يتعلق بأنواع من المال، منها: غنائم الحرب، و المعادن، والمكاسب وغيرها و تدفع الى رسول الله، وإلى الإمام من بعده.

٢ صفوريّة: بلدة من نواحي الأردن، تقع قرب طبرية، وعلج: هو الرجل الغليظ من كفار العجم.

إنّ اللهَ أعلَمَهُ أنْ ليس في أولئكَ الصبيةِ أحدٌ يستحقُّ الكرامَةَ والنعمَةَ، وأنّ مصيرَهمْ سوفَ يكونُ إلى نارِ جَهنّمَ بما ستقترِفُهُ أيديْهِمْ منْ ظُلمٍ للناسِ وسلْبِ حقوقِهِمْ في مُستقبَلِ الأيامِ.(٢٦٢)

لمّا رأى الأنصارُ ما جرى للْنَضْرِ ولِعَقَبَةَ، خافوا أنْ يُقتلَ جميعُ الأُسارى، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، قتلْنا سبعينَ، وهم قومُكَ وأُسرتُكَ أتقطعُ أصلَهُمْ؟ هَبْهُمْ لنا يا رسولَ اللهِ، وخُذْ منهمُ الفِداءَ وأطلقْهُمْ، ثمّ قالوا فيما بينَهُمْ: لو بعثْنا لأبيْ بكرٍ، فإنّه أوصلُ قريشٍ لأرحامِنا، ولا نعلمُ أحداً آثرَ عندَ محمدٍ منهُ، فبعثوا إلى أبي بكرٍ، فأتاهُمْ، فكلَّموهُ، فقالَ: نعمْ، إنْ شاءَ اللهُ، لا آلوكمْ خيراً، وانصرفَ إلى رسولِ اللهِ، وجعلَ يُليّنُهُ ويُسكِّنُهُ، ويقولُ: "يا رسولَ اللهِ، بأبيْ أنتَ وأميْ، قومُكَ فيهِمْ الآباءُ والأبناءُ والعُمومَةُ والإخوانُ وبنو العمِّ، وأبعدُهُمْ عنكَ قريبٌ، فامْنُنْ عليهِمْ، مَنَّ اللهُ عليكَ، أو فادِهِمْ يستنقِذْهُمُ اللهُ بكَ منَ النارِ، فتأخَذَ مِنْهُمْ ما أخذْتَ قوّةً للمسلمينَ، فلعلَّ اللهَ يُقبِلُ بقلوبِهِمْ إليكَ"، لكنّ رسولَ اللهِ لمْ يكنْ مقتَنِعًا بِما قالَ أبو بكرٍ، ثمّ قامَ عنهُ أبو بكرٍ وعادَ إليهِ بعدَها، ليطلبَ منهُ مجدَّداً، وقالَ: "لا تكنْ أوّلَ مَنْ يستأصِلُهمْ، يهديَهمُ اللهُ خيرٌ منْ أنْ تُهلِكَهُمْ"، فسكَتَ رسولُ اللهِ .

كانَ النبيُّ يكرهُ أخْذَ الفِداءِ، وأرادَ تنفيذَ الحَدِّ بجميعِ الأَسرى المحارِبينَ، حتّى رأى ذلكَ سعدُ بنُ مُعاذٍ في وجهِهِ، فقالَ:"يا رسولَ اللهِ، هذه أوّلُ حربٍ لقيْنا فيها قريشًا، والإثْخانُ في القتْلِ أحبُّ إليْنا منَ استبقاءِ الرجالِ"، وقالَ عمرُ: "يا رسولَ اللهِ، كَذَّبوكَ وأخرَجوكَ، فقدِّمْهُمْ واضرِبْ أعناقَهمْ، ومَكِّنْ عَليّاً منْ عقيلٍ فيضربَ عُنَقَهُ، ومكنّي منْ فلانَ أضربُ عنقَهُ، ومكّنْ حمزةَ منْ العبّاسِ فيضربَ عنقَهُ، فإنّ هؤلاءِ أئمَّةُ الكُفرِ"، لكنّ أكثرَ المسلمينَ أرادوا أخْذَ الفدْيَةِ وإطلاقَ سراحِ الأسرى، فنزلَ جبرائيلُ على النبيّ، وقالَ: إنّ اللهَ قد كَرِهَ ما صنعَ قومُكَ منْ أخْذِ الفداءِ منَ الأُسارى، وقد أمرَكَ أنْ تخيّرَهُمْ بينَ أنْ يقدِّموهُمْ ويضرِبوا أعناقَهمْ، وبينَ أنْ يأخذوا الفداءَ على أنْ يُقتَلَ مِنهُمْ عددُهمْ، فلمّا رأى النبيُّ إصرارَهمْ على أخْذِ الفداءِ أخبرَهمْ إنّ أخذَ الفداءِ سوفَ تكونُ عاقبتُهُ أنْ سوفَ يُقْتَلُ منَ المسلمينَ بعدَدِ الأسرى، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، عشائرُنا وإخوانُنا، بلْ نأخذُ فِداءَهمْ، فنتقوّى بهِ على عدوِّنا، ويستَشْهِدُ منّا عددَهُمْ، فقبِلوا بذلكَ .

جاءَتْ الآياتُ القرآنيّةُ مطابِقةً لرَأيِ النبيِّ ومُنَبِّهةً للمسلمينَ، وهي تؤكِّدُ على إنّ أيَّ نبيٍّ ليس لهُ الحقُّ في أسرِ أفرادٍ من العدوّ، إلّا بعد أنْ يُثبِّتَ أقدامَهُ في الأرضِ ويُحْكِمَ سيطرَتَهُ ويُكيلَ الضرباتِ للأعداءِ، وقد ألقَتْ باللَّومِ على أولئكَ الذينَ خالفوا أمرَ النبيِّ لأنّهُمْ أرادوا مبْلغَ الفِديَةِ (٢٦٣)، ولكنّ اللهَ تكرَّمَ وتفَضَّلَ عليهِمْ بالرغْمِ من مخالَفَتِهِمْ نَبيَّهِمْ، وغَفَرَ لهمْ هذه المخالَفَةَ، وأباحَ لهمْ أخْذَ الفِداءِ تأليفاً لهمْ، على ما فيهِ منْ عواقِبَ وخِيمَةٍ (٢٦٤) .

أرسلَ النبيُّ أحدَ أصحابهِ ليبشِّرَ أهلَ المدينةِ بالنصرِ المبينِ، فلم يصدِّقْ بعضُهم ذلك في باديْ الأمرِ، ثمّ تأكدَ لديهم أنّهُ حقٌّ، ففرحَ المؤمنونَ، واستقبلوا الرسولَ فرحينَ مسرورينَ، وقدِمَ بقيّةُ الأُسارى المدينةَ بعد قدومِه بيومٍ، ففرّقَهُم بين المسلمين، وقالَ: استوصوا بهم خيراً إلى أنْ يُفاديهِمْ أهلُ مكّةَ، وجعلَ فداءَ كلِّ أسيرٍ من ألفٍ إلى أربعةِ آلافِ درهمٍ إنْ كانَ ذا مالٍ، ومَنْ لم يكنْ عنده مالٌ، فعليهِ أن يُعلّمَ عشرةً من المسلمينَ القراءةَ والكتابةَ، فصارتْ قريشٌ تبعثُ بالفداءِ أوّلاً بأوّلٍ، وأعطى النبيُّ كلَّ رجلٍ من أصحابِه الأسيرَ الذي أسرَهُ، فكانَ هو يفاديهِ بنفسهِ، (٢٦٥) كانَ قد أُسِرَ لعميرِ بنِ وهَبٍ ولدٌ، فكانَ يريدُ أنْ يأتيَ إلى المدينةِ لفداءِ ابنهِ، فاتفَقَ عميرٌ مع صفوانَ بنِ أميَّةَ سِرّاً على أنْ يَقْدُمَ عميرٌ المدينةَ، ويغتالَ النبيَّ في مقابلِ أنْ يقضي صفوانُ دَينَ عميرٍ، وتكاتَما على هذا الأمرِ، وشحذَ عميرٌ سيفَهُ وسَمّمَهُ وقِدِمَ المدينةَ، فأذِنَ لهُ الرسولُ بالدخولِ، فخافَ منْهُ عمرُ بنُ الخطابِ، فأخذَ بحمّالةِ سيفِهِ الذي في عُنقهِ، ثمّ دخلَ بهِ على الرسولِ، فلمّا رآهُ قالَ لعُمَرَ بنِ الخطابِ: أرسلْهُ يا عمرُ، فأرسلَهُ، فاستدناهُ، ثمّ سألَهُ عمّا جاءَ بهِ، فقالَ: جئتُ لهذا الأسيرِ الذي في أيديكمْ ـ يعني وهباً ـ فأحسِنوا فيه، فقالَ : فما بالُ السيفِ؟ قالَ: قبَّحها اللهُ من سيوفٍ، وهل أغنتْ شيئاً؟! فأخبرَهُ بما جرى بينَهُ وبينَ صفوانَ في السرِّ، فتعجَّبَ عميرٌ لمعرفةِ الرسولِ بهذا الأمرِ السرّي بينَه و بينَ صفوانَ، فأسلمَ، فقالَ النبيُّ: فقِّهوا أخاكَم في دينهِ، وأقرئوهُ القرآنَ، وأطلِقوا أسيرَهُ، ففعلوا ذلك، ثمّ لحِقَ عميرٌ بمكّةَ يدعو إلى اللهِ، وحلفَ صفوانُ ألّا يكلمَهُ، ولا ينفعَهُ بنافِعَةٍ.(٢٦٦)

وكانَ من بينِ الأسرى أبو عَزَّةَ الجُمَحِي، وهو رجلٌ من قريشٍ لهُ خمسُ بناتٍ، فتوسَّلَ بالنبيِّ أنْ يَمُنَّ عليهِ ويُطلقَ سراحَه من أجلِ بناتِه الخمسِ، ففعلَ رسولُ اللهِ، وأخذَ عليهِ

العهدَ ألّا يعودَ إلى حربِ المسلمينَ، وألّا يُظاهِرَ عليهِ أحداً، فأعطى عهدَهُ للنبيِّ،(٢٦٧) وكانَ من جُملةِ الأسرى أيضاً العبّاسُ بنُ عبدِ المطَّلبِ عمّ النبيِّ، وعقيلٌ بنُ أبي طالبٍ ابنُ عمِّهِ، اللذانِ أُوْثِقَا مع الأسرى، وحينَ حلَّ الليلُ لم يستطعْ النبيُّ النومَ وسَهِرَ ليلتَه، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِه: ما يُسهرُكَ يا نبيَّ اللهِ؟ قالَ: أنينُ العبّاسِ، فقامَ رجلٌ منَ القومِ، فأرخى من وَثاقِهِ، فقالَ رسولُ اللهِ: ما باليْ ما أسمعُ أنينَ العبّاسِ؟ فقالَ رجلٌ منَ القومِ: إنّي أرخيْتُ من وثاقِهِ شيئاً، فقالَ: فافعَلْ ذلكَ بالأُسارى كلِّهِمِ .

ثمّ جاءَ رجالٌ منَ الأنصارِ إلى رسولِ اللهِ واستأذنوهُ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ، إئذَنَ لنا فلنتركْ لابنِ أختِنا العباسِ فِداءَهُ. وهذا منَ الأدبِ وحسنِ اختيارِ الكلماتِ مع النبيِّ، إذْ أنّ جَدَّةَ العبّاسِ بنِ عبدِ المطّلبِ من جانبِ أبيهِ، من بني النجّارِ من الخزرجِ منَ الأنصارِ، والعباسُ نفْسُهُ هو عمُّ النبيِّ، لذلكَ فإنّ رسولَ اللهِ أقربُ للعباسِ منَ الأنصارِ، فهُمْ لم يقولوا للنبيِّ إئذَنْ لنا لِنتْرُكَ فداءَ عمِّكَ، حتّى لا تكونُ لهُمْ المِنّةُ على رسولِ اللهِ، بلْ أرادوا أنْ تكونَ المِنَّةُ لرسولِ اللهِ عليهِمْ، وهنا كانَ بإمكانِ النبيِّ أنْ يأذنَ لهمْ لأنَّ هذا الفداءَ سيأتيْ إلى بيتِ مالِ المسلمينَ وهم قد طلبوا ذلكَ، لكنّ رسولَ اللهِ لم يُوافِقْ وقالَ: واللهِ لا تذرونَ منهُ دِرهَمًا، أيْ إذا كانَ الفداءُ قانوناً إسلاميّاً عامّاً، فلا فرقٌ بينَ قريبٍ أو غريبٍ، ولا ينبَغيْ أنْ يُفرِّقَ بينَ عمِّ النبيِّ وبينَ أيِّ أسيرٍ آخرَ،(٢٦٨) ثمّ أمرَ النبيُّ العباسَ بمفاداةِ نفسِهِ وعقيلٍ ونوفلَ ابني أخيهِ، فأنكَرَ أنْ يكونَ له مالٌ، فقالَ النبيُّ للعباسِ : إعطِ ما خلَّفتَهُ عند زوجتِكَ أمِّ الفضلِ، إذْ قلتَ لها: إنْ أصابني شيءٌ، فأنفقيهِ على نفسكِ وولدِكِ، فسألَه مَنْ أخبرَهُ بهذا، فلمّا عرفَ أنّه جبريلُ قال: أُقسِمُ، ما عِلمَ بهذا أحدٌ إلّا أنا وهي، أشهدُ أنّكَ رسولُ اللهِ، وغَنِمَ المسلمونَ منَ العباسِ عشرينَ أو أربعينَ أوقيَّةً ذَهَباً - والأوقيَّةُ أربعونَ مثقالاً - كانَ قد ادّخرَها لإطعامِ المشركينَ فطلَبَ أنْ تُحسَبَ من فدائهِ، فقالَ النبيُّ لهُ: فأمّا بشيءٍ خرجتَ تستعينُ بهِ علينا ؛ فلا نتركُهُ لكَ، ثمّ قالَ للعباس: يا عَبّاسُ، إنّكم خاصمْتُمُ اللهَ، فَخَصَمَكُم [١]

(٢٦٩)

---

١ أي غلبكم في الخصام.

خاطبَ اللهُ نبيَّهُ وأخبَرهُ بأنْ يدعو الأسرى إلى الإيمانِ باللهِ وإصلاحِ أنفسِهم ويُرَغِّبَهم في ذلكَ، فإنْ كانَ في قلوبِهم قبولٌ للإسلامِ، سوف يُؤتِيَهُم اللهُ شيئاً أفضلَ ممّا أُخِذَ منهم، وهو الأجرُ الماديُّ والمعنويُّ والمغْفرَةُ منَ اللهِ، أمّا لو حاولَ أحدُ الأسرى إظهارَ الإسلامِ ليُسيئَ إلى الدينِ ويخونَ النبيَّ وينتقَمَ منَ المسلمينَ، فقد خانوا اللهَ من قبلُ فنالوا الخِزْيَ والخُسرانَ، فليتعلموا الدرسَ من ذلك.(٢٧٠) بعد ذلك رجعَ الأسرى كلُّهم وهم باقونَ على دينِهم، إلّا العبّاسَ وعقيلًا ونوفلَ فقد أسلَموا.

إنّ المسلمينَ الذينَ ذاقوا الآلامَ والشدائدَ على أيدي قريشٍ، يظفرونَ الآن بهم، وصارَ أولئكَ الذين عذَّبوهم بالأمسِ وأخرجوهُم من ديارِهم وسلبوهُم أموالَهم وقطعوا أرحامَهم، صاروا أذلّاءَ في أيديهِمْ وتحتَ رحمتِهِم، فماذا تراهمْ صانعينَ بهم؟ إنّ ما جرى كانَ مخالفاً لكلِّ التوقُّعاتِ، فهم لم يحاولوا أنْ يأخذوا بثاراتِهم، ولا اغتنموا الفُرصةَ التي أُتيحَتْ لهم، بلْ صدرَ الأمرُ لهم منَ القائِدِ بكلمةٍ واحدةٍ: استوْصوا بالأسرى خيراً، فأطاعوا الأمرَ، وشاركوهُم في أموالِهم حتّى كانَ أحدُهم يُؤثِرُ أسيرَهُ بطعامِه. (٢٧١)

رجِعَ المحاربونَ من قريشٍ إلى مكّةَ بأسوأَ حالٍ من الحَنَقِ والغيظِ، فنهاهُمْ أبو سفيانَ عن النواحِ على قتلاهُمْ، ومنعَ الشعراءَ من نَدْبِ القتْلى لألّا يخفِّفَ ذلك من غيظِهِمْ، ويقلِّلَ من عداوتِهِم للمسلمينَ، وحتّى لا يبلغُ المسلمينَ حزنُهُم، فيشمَتوا بهمْ، وحرّمَ أبو سفيانَ الطِّيْبَ والنساءَ على نفسِهِ، حتّى يغزو محمدًا ، وكذلك كانَ موقفُ زوجتِهِ هِنْدٍ التي اعتزلَتْ فراشَهُ وامتنَعَتْ عنِ الطيْبِ.(٢٧٢)

ولمّا بلغَ النجاشيَّ مَلِكَ الحبَشةِ نَصْرُ رسولِ اللهِ في بدرٍ فَرِحَ فرحاً شديداً، ولكنْ مشركيْ قريشٍ حينَ أصابَتْهم تلك الهزيمةُ القاتلةُ في بدرٍ، قالوا: إنّ ثأرَنا عند مَلِكِ الحبشَةِ، فلْنرسلْ إلى مَلِكِها، ليدفعَ إليْنا مَنْ عندَهُ مِنْ أتباعِ محمدٍ ، فنقتلُهُم بمَنْ قُتِلَ منَّا؛ فأرسلوا عَمْرًا بنَ العاصِ وعبدَ اللهِ بنَ أبي ربيعةَ، ومعَهما الهدايا والتحَفُ، فعرفَ الرسولُ بالأمرِ، فأرسلَ إلى النجاشيِّ كتاباً يوصيهِ فيهِ بالمسلمينَ، فرفضَ النجاشيُّ طلبَ عَمْرِو بنِ العاصِ، فرجعَ عَمْرٌو من مهَمَّتهِ خائباً خاسراً.(٢٧٣)

بعد معركةِ بدرٍ قويَتْ نفوسُ المسلمينَ، وعادتْ لهم الثقةُ بأنفسِهم بصورةٍ واضحةٍ، وقد أعانَتْهُم تلكَ الغنائمُ على مواجهةِ مشكلاتِهم الاقتصاديّةِ المُلِحَّةِ، ورأى العربُ أنّ النبيَّ الذي خرجَ بالأمسِ إلى المدينةِ لاجئاً لا قوّةَ لهُ، قد أصبحَ اليومَ قوّةً يجبُ أنْ يُحسَبَ لها حسابُها، ولا بدَّ منَ التفكيرِ مليّاً قبلَ الإقدامِ على أيِّ عملٍ تجاهَها في المنطقةِ، وأصبحَتْ قريشٌ ترى أنّ حياتَها مع هؤلاءِ المسلمينَ قد أصبحَتْ في خطرٍ حقيقيٍّ فحاولَتْ في حمَلاتِها اللاحقةِ أنْ تكونَ أكثرَ دِقّةً وتركيزاً من أجلِ القضاءِ على هذه الحركةِ التي تراها تهَدِّدُ مصالحَها وامتيازاتِها في المنطقةِ، فبدأتْ بعضُ تلك القبائلِ بتدبيرِ المؤامراتِ والخُطَطِ ضدّهُ، إلى حدِّ التفكيرِ في الدخولِ في حربٍ مع النبيِّ، كما إنّ أبا سفيانَ أصرَّ على الانتقامِ لهزيمةِ قريشٍ في بدرٍ، فاتصَلَ بيهودِ بني النضيرِ في المدينةِ للاعتداءِ على المسلمينَ، فكانَ النبيُّ يقومُ بالغزواتِ والسرايا الوقائيَّةِ لإفشالِ هذه المؤامراتِ، وردِّ كيدِهم إلى نحورِهم، وكانتْ هذه الهزائمُ تمثِّلُ حرباً نفسِيّةً للمشركينَ في المنطقةِ ولقريشٍ بالذاتِ.(٢٧٤)

أمُّ سَلَمَةَ في بيتِ النبيِّ

في شوّالَ في السنةِ الثانيةِ من الهجرةِ تزوّجَ رسولُ اللهِ هندًا بنتَ أبي أميّةَ المخزوميْ المكَنّاةَ أمُّ سَلَمَةَ، وهي إحدى المؤمناتِ الموصوفةُ بالجمالِ البارعِ، والعقلِ الراجحِ، والرأيِ الصائبِ، لم يكنْ لأمِّ سلَمةَ في المدينةِ بعد وفاةِ زوجِها أبي سَلَمَةَ أحدٌ من ذويْها غيرُ صِبْيةٍ صغارٍ،ولم تكنْ قد بلغَتْ الخامسةَ والعشرينَ منَ العمرِ، فحزِنَ المسلمونَ لمصابِها أشدَّ الحُزنِ، وبعدَما انقضَتْ عُدَّتُها منْ وفاةِ أبيْ سَلَمَةَ خطبَها أبو بكرٍ فردَّتْهُ، ثمّ خطبَها عمرُ بنُ الخطّابِ فردّتْه، ثمَّ خطبَها رسولُ اللهِ، فقالتْ: مرحباً برسولِ الله، وذكرَتْ له أنّها غَيْرَى، وأنّ لديها صبيةٌ صغارٌ، فقال لها رسولُ الله : إنَّ اللهَ سيكفيكِ صِبيانَكِ، وأمّا قولُكِ: إنّي غَيرَى، فسأدعو اللهَ أنْ يُذهِبَ غَيرَتَكِ،(٢٧٥) لقد كانتْ أمُّ سَلَمَةَ خيرَ زوجةٍ لرسولِ اللهِ، وبقيَتْ بعدَه على العهدِ، لم تغيِّرْ ولم تُبدِّلْ، ولزِمَتْ بيتَها كما أمرَها اللهُ (٢٧٦) .

فيما يخصُّ النبيَّ؛ فبعدَ وفاةِ خديجَةَ زوجتِهِ الأُولى، التي قضى معَها النبيُّ محمدٌ خمسةً وعشرينَ عامًا، تزوّجَ أولاً في المدينةِ من امرأةٍ كبيرةٍ في السنِّ، بعد وفاةِ زوجِها، كانَ هذا

بعد أنْ جاوزَ الخمسينَ من عمرِهِ، وفي العشرِ سنواتٍ اللاحقةِ، تزوجَ النبيُّ من عددٍ من النساءِ، بعضُهُنَّ كُنَّ أراملَ وبعضُهنَّ كنَّ أبكارًا، وهؤلاءِ النساءُ كنَّ من قبائلَ مختلفةٍ، كانَتْ هذه الزيجاتُ تكريمًا وتشريفًا لهؤلاءِ النساءِ، وكانتْ لأسبابٍ تشريعيَّةٍ واجتماعيةٍ وسياسيةٍ، سواءً كانَ ذلكَ لإرشادِ مجموعةٍ منَ الناسِ، أو لحمايةِ الإسلامِ والمسلمينَ من الأذى، أو لتوضيحِ حُكْمٍ شرعِيٍّ.

انتصارُ الرُّومِ على الفُرسِ

وفي السنةِ الثانيةِ منَ الهجرةِ المصادفِ سنةِ ٦٢٤ للميلادِ كانَتْ غلبَةُ الرُّومِ بقيادةِ هِرَقِلْ على بلادِ فارسٍ بقيادةِ خسرو الثاني، وذلك بعد نكباتٍ متكرّرةٍ أصابَتْ الرومَ في حربٍ استمرّتْ أكثرَ منْ عشرينَ عاماً، وقد ذكرَ اللهُ ذلكَ في القرآنِ عندما كانَ المسلمونَ في مكّةَ قبلَ ما يُقاربُ ثمانِيَ سنواتٍ، فتحقّقَتْ بذلكَ نُبوءةُ النبيِّ محمدٍ، وفرِحَ المسلمونَ بانتصارِ الرومِ هذا، لأنّ الرومَ كانوا أهلَ كتابٍ، والفرسُ مجوسًا لا كتابَ لهمْ، لقد كانَ هذا الانتصارُ المهمُّ للرومِ بدايةً لسلْسِلةِ انتصاراتٍ تَكَلَّلَتْ بهجومِ الرومِ على الفُرسِ في عُقْرِ دارِهمْ سنةَ ٦٢٧ بعد الميلاد (٢٧٧).

الحربُ على بَنِيْ القينُقاعَ

ما أنفكَّ اليهودُ عن محاولاتِهم في نقضِ العهودِ والمواثيقِ التي قطعوها مع رسولِ اللهِ وإثارَةِ الفتَنِ بينَ المسلمينَ من أوائلِ الهجرةِ وقبلَ حَربِ بدرٍ، ثمّ كانتْ حربُ بدرٍ ونتائجُها المذهِلةُ، فزادَ ذلكَ من مخاوفِ اليهودِ وقريشٍ والمنافقينَ، لذا استمرّوا بأعمالِهم التخريبيَّةِ متجاهلينَ دستورَ المدينةِ والعهدَ الذي عقدوهُ مع رسولِ اللهِ ، فاتبعَ النبيُّ معهم أولاً أسلوبَ الإنذارِ الحازمِ والعادلِ، ومِنْ ثَمّ معاقبةَ ناقضي العهودِ ومثيرِيْ الفتنِ، فأمرَ بإنزالِ حدِّ القتلِ على أبي عفَكٍ اليهوديِّ وكعبٍ بنِ الأشرفِ وابنِ سِنيْنَة وأبي رافعٍ؛ الذين كانوا يحرّضونَ على رسولِ اللهِ في المدينةِ ومكّةَ، ويظاهرونَ أعداءَهُ، ويؤجّجونَ الفِتنةَ في المجتمعِ الإسلاميِّ، ويتعرَّضونَ لنساءِ المسلمينَ ونساءِ النبيِّ، فصارَ هؤلاءِ من أظهر مصاديقِ

المحاربينَ وناقِضِي العهودِ، فذهبَ بعضُ اليهودِ للنبيِّ واشتكوا عندَهُ بأنّ اغتيالَ ابنِ الأشرفِ كانَ غيلةً، فأخبرَهم بما كانَ يقومُ بهِ من نقْضِ العهدِ ومحاربَةِ المسلمينَ والتحريضِ ضدَّهُم، وأخبَرَهم أنّ عليهِمْ تجديدَ العهدِ الذي نقضوهُ، وكتابةَ عهدٍ آخرَ، فأرسلَهُم إلى عليِّ بنِ أبي طالبٍ لأنّه كانَ يحتفظُ بالعهودِ.(٢٧٨)

كانَ بنو قَيْنُقاعَ أشجعَ اليهودِ، وأشهرَهُم وأكثرَهم أموالاً، وكانوا يعملونَ في الصياغَةِ، وكانوا حلفاءَ لعبدِ اللهِ بنِ أُبيّ وعُبادةَ بنِ الصامتِ، وفي يومٍ جاءتْ امرأةٌ مسلمةٌ إلى سوقِهم، فجلسَتْ عند صائغٍ منهم لأجلِ حُلِيٍّ لها، فأرادوا منها كشْفَ وجهِها، فأبَتْ، فَعَمَدَ الصائغُ أو رجلٌ آخرٌ إلى طَرَفِ ثوبِها فعقدَهُ إلى ظهرِها وهي لا تشعرُ، فلمّا قامَتْ انكشفَتْ مؤخّرتُها، فضحِكوا منْها، فصاحَتْ، فوثَبَ مسلمٌ على من فعلِ ذلكَ، فقتلَهُ، وشدَّتْ اليهودُ على المسلمِ فقتلوهُ، فاستنصرَ أهلُ المسلمِ بالمسلمينَ، فغضبَ المسلمونَ، ثمّ وصلَ الخبرُ للنبيِّ فتألَّمَ وقالَ: ما على هذا قرَرْناهُمْ، فتبرَّأَ عُبادةُ بنُ الصامتِ من حِلْفِهِم، وقالَ: يا رسولَ اللهِ، أتولَّى اللهَ ورسولَهُ، وأبرأُ من حِلفِ هؤلاءِ الكفّارِ، أمّا عبدُ اللهِ بنُ أُبيّ فَرَفَضَ التنصُّلَ من عهدِهِ مع اليهودِ، واعتذرَ بأنّه يخشى المشاكِلَ، وادَّعى أنّه قد يحتاجُ إلى اليهودِ يوماً، ويردُّ هُنا القرآنُ على هؤلاءِ المنافقينَ ذوي النفوسِ المريضَةِ، لرفضِهِمُ التخلِّيَ عنْ حِلْفِهِمْ معَ الغرباءِ، وتَعَلُّلِهِمْ بأنّ اليهودَ والنصارَى قد يمسكِونَ يوماً بزِمامِ القُدرةِ والسلطَةِ، فيخبِرُهُمْ أنّ عليهِمْ أيضاً أنْ يحتَملوا أنْ ينصرَ اللهُ المسلمينَ فتقَعُ القُدرةُ بأيدِيهِمْ، حينَها سيندَمُ هؤلاءِ على ما أضمرُوهُ في أنفُسِهِم (٢٧٩) .

لقد ازدادَ التوتُّرُ والمشاحنةُ بينَ المسلمينَ واليهودِ ممّا أدى إلى تهديدِ الأمنِ والسِلْمِ في المدينةِ، ولمّا كانتْ وقعةُ بدرٍ أظهرَ بنو قَينُقاعَ البغيَ والحسدَ، ونبذوا العهدَ الذي كانَ بينَهم وبينَ النبيِّ، وهو ألّا يحاربوهُ، ولا يُظاهِروا عليهِ عدوَّهُ، لذا كانَ لا بدَّ من حلٍّ لهذه الفتْنةِ قبلَ نشوبِ حربٍ أهليّةٍ، قد تهدِّدُ وجودَ الدولةِ الإسلاميةِ، فجمعَ النبيُّ اليهودَ في سوقِهم، وقالَ لهم: "يا معشرَ اليهودِ، احذَروا من اللهِ مثْلَ ما نزلَ بقريشٍ منَ النقِمَةِ وأسْلِموا، فإنّكم قد عرفْتُمْ أنّي نبيٌّ مرسَلٌ، تجدونَ ذلك في كتابِكم، وفي عهدِ اللهِ إليكم"، فقالوا: "يا محمدُ ،

إنّكَ ترى أَنَّا قومُكَ! لا يغرنَّكَ أنّكَ لقيْتَ قوماً لا عِلمَ لهم بالحربِ، فأصَبْتَ منهم فرصةً، إنّا واللهِ، لو حاربناكَ لتعلمَنَّ أنّا نحنُ الناسُ "

لم يمرَّ هذا الردُّ العدائيُّ منَ اليهودِ للنبيِّ مرورَ الكرامِ، فقد أنزلَ اللهُ على نبِيِّهِ أنْ يخبرَهم بأنّهم سوف يُغلَبونَ ولن تكونَ عاقبتُهم في الدنيا والأخرةِ سوى الهزيمةِ والذُّلِّ والعذابِ الأليمِ، ثمّ ذكرَ اللهُ بأنّ هناكَ عِبرةً للناسِ في فئتَينِ التقتا، وهما جيشُ المسلمينَ وجيشُ الكافرينَ في معركةِ بدْرٍ، فأيَّدَ اللهُ المسلمينَ ونصرَهم على أعدائِهِمْ، فمِنْ هذه العِبرَةِ فليتَّعِظْ أصحابُ العقولِ،(٢٨٠) وجاءَ الخِطابُ للنبيِّ مِن اللهِ لِيبيِّنَ الأسلوبَ الشديدَ الذيْ ينبَغيْ أنْ يتّخِذَهُ النبيُّ بحقِّهِمْ حتّى يكونَ عِبْرةً للآخرينَ، فأعطى اللهُ لرسولِهِ الصلاحِيّةَ بنقْضِ العهدِ معَ اليهودِ إذا أحسَّ بخيانَتِهِمْ أو نَقْضِهِمْ عهودَهمْ وذلكَ بعد توفُّرِ الأسبابِ و الأدِلّةِ المؤكَدَةِ بعزمِهِمْ أو بتفكيرِهمْ بنقضِ عهدِهمْ، واتفاقُهُمْ معَ العدوِّ ضدَّ المسلمينَ.(٢٨١)

إنّ صبرَ النبيِّ على اليهودِ، وأمرَهُ للمسلمينَ بالتحمُّلِ مهما أمكنَ، جعلَ اليهودَ يظنّونَ أنّ هذا ناتجٌ عن ضَعْفٍ وخَوَرٍ، فاستمرُّوا في تحرُّشاتِهم، فأرادَ النبيُّ ألّا يفسحَ المجالَ لهم أكثرَ حتّى لا يطمعوا بهِ، ويحشدوا حولَهم مَنْ يشارِكُهمْ الرأيَ من المنافقينَ والأعراب .

بعد فسخِ العهدِ مع يهودِ بني القينُقاعَ وانكشافِ عدائِهِمْ للنبيِّ، صارَ لزاماً على النبيِّ تخليصُ المدينةِ من شَرِّهِم، فسارَ النبيُّ في شوّالَ في السنة الثانيةِ إلى بني القينقاعَ، واستخلَفَ على المدينةِ أبا لُبابَةَ؛ ولواءُهُ يحملهُ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ برايةٍ سوداءَ، فلمّا عَلِموا تحصَّنوا في حصونِهِم، فحاصرَهُم النبيُّ خمسَ عشرةَ ليلةً، فقذفَ اللهُ في قلوبِهِمُ الرعْبَ، وكانوا أربعَ مئةَ حاسرٍ[١] وثلاثَ مئةَ دارعٍ، فسألوا رسولَ اللهِ: أن يخلّيَ سبيلَهم ويُجْليهِم عن المدينةِ، وأنّ لهم نساءَهم والذريّةَ، ولهُ الأموالُ والسلاحُ، فقبِلَ منهم، وأخَذَ أموالَهُم وأسلحتَهم، وأجلاهُمْ عن المدينةِ إلى أذرَعات[٢] .

---

١ الحاسر: هو الذي لا درع له ولا مِغْفَر.

٢ أذرعات: بلدة في الشام.

إنّ الغنيمةَ بغيرِ قتالٍ في هذه الحالةِ تُسمَّى فَيْءٌ [١]، وهي تكونُ خالصةً لرسولِ اللهِ، ولكِنّه آثرَ أنْ يفرِّقَها بينَ المسلمينَ بعد إخراجِ الخُمُسِ منها، إعانةً لهمْ، ولطفاً بهِمْ، وعَطفاً عليهِمْ.(٢٨٢)

استطاعَ النبيُّ محمدٌ منَ التخلُّصِ منْ عدوٍّ داخليٍّ، لا يقِلُّ خطورةً عن العدوِّ الخارجيّ، هذا العدوُّ الخارجيُّ متمثِّلاً بقريشٍ، إذْ إنّ قريشاً لنْ تهدأَ بعد الآنَ حتّى تثأرَ لكرامَتِها، ولِمَنْ قُتِلَ منْ أشرافِها، لقد منعوا البُكاءَ على قتْلاهُم في مَكّةَ، خشْيةَ أنْ يذهَبَ الحزنُ ويُطْفأَ لهيبُ الأسى، وحتّى لا يُدخِلَ بكاؤهُمُ السرورَ على قلوبِ المسلمينَ، ولكنّهمْ تراجعوا عنْ هذا القرارِ بعدها، وسمَحوا للنساءِ بالبكاءِ لأنّ ذلكَ يُثِيرُ المشاعرَ، ويُذكِّرُ الرجالَ بالعارِ الذيْ لحِقَ بِهمْ.(٢٨٣)

زواجُ عليٍّ من فاطمةْ

في ذي الحجّةِ في السنةِ الثانيةِ بعد الهجرةِ تزوجَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ من فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ وقدَّمَ قيمَةَ درعِهِ كَمَهْرٍ لها (٢٨٤)، وكانَ أشرافُ قريشٍ وأعيانُها قد تقدّموا لخطبتِها منهم أبو بكرٍ، وعمرُ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، فردَّهمْ رسولُ الله (٢٨٥)، فعاتَبَ الخاطبونَ النبيَّ على ردِّهم، والموافقةِ على تزويجِ عليٍّ منها دونَهم، فقالَ: واللهِ، ما أنا منعتُكمْ وزوّجتُهُ، بلْ اللهُ مَنَعَكمْ وزوّجَه (٢٨٦) .

لقد كانتْ البساطةُ تميّزُ زفافَها، وجهازَها، إذ كانَ ممّا جُهّزتْ به؛ فراشٌ من جلْدِ كَبْشٍ، ورَحَىً، وجَرَّةٌ وبعضُ الحاجاتِ الأخرى البسيطةِ (٢٨٧)، قالَ النبيُّ لابنتِهِ في رابعِ يومٍ منْ زفافِها: كيفَ أنتِ يا بنيَّةُ، وكيفَ رأيتِ زوجَكِ؟ قالتْ له: يا أبتِ خيرُ زوجٍ، إلّا أنهُ دَخَلْنَ علـيَّ نساءٌ من قريشٍ، وقُلْنَ لي: زَوَّجَكِ رسولُ اللهِ من فقيرٍ لا مالَ له، فقالَ: يا بنيّةُ، ما

---

[١] الفيئ: الغنيمة التي تنال بلا قتال، وتكون خالصةً للنبي.

أبوكِ بفقيرٍ، ولا بعلُكِ بفقيرٍ، أما ترضينَ أنّي قد زوَّجْتُك أوّلَ أُمّتي إسلاماً، وأكثرَهم عِلْماً، وأفضلَهُم حِلْماً؟ قالتْ: بلى، رضيتُ يا رسولَ الله (٢٨٨).

السنةُ الثالثةُ بعدَ الهِجرةْ (٦٢٤ ـ ٦٢٥ م)

غزوةُ بني النَّضيرْ

كانَ ليهودِ المدينةِ موقفٌ مُعادٍ للدعوةِ الإسلاميةِ وللنبيِّ محمدٍ ، فحينَما طلبَ النبيُّ منهم أنْ يدخلوا في الإسلامِ امتعضوا، وأخذوا يخاصمونَ رسولَ اللهِ، فقد رأوا أنّ التشريعاتِ الإسلاميةَ لا تنسجِمُ مع أهدافِهم ومصالحِهم، ومع ما ألِفوهُ وأحبُّوهُ، فكانوا يأمَلونَ أنْ يتمَّ القضاءُ على هذا الدينِ من قِبَلِ قومهِ القُرشيّينَ، فراحوا يختلقونَ الأعذارَ ويطلبونَ منَ النبيِّ - تعنُّتاً منهمْ لا من أجلِ الإيمانِ، بلْ بهدفِ تعجيزِهِ - أنْ يُنّزِلَ عليهم كتاباً مِنَ السماءِ مكتوباً، كما جاءَ موسى إلى بني إسرائيلَ بالتوراةِ مكتوبةً من عندِ اللهِ في الألواحِ، بالرغمِ من أنّ فيما أنزلَهُ اللهُ من القرآنِ دلالةٌ واضحةٌ على نُبوّتِهِ، فقالَ اللهُ تقريعاً لهمْ: يا محمدُ ، لا يعظمَنَّ عليكَ مسألتُهم إياكَ ذلك، فقد سألوا موسى أعظمَ من ذلك، إذْ طلبوا أنْ يروا اللهَ عَياناً، كما أنّهمْ من جهْلِهم باللهِ وجُرأتِهم عليه واغترارِهم بأنفسِهم، لو أنزلتَ عليهمُ الكتابَ الذي سألوهُ لخالفوا أمرَ اللهِ، كما خالفوا أمرَهُ بعد إحيائهِم من صَعْقَتِهِمْ، فعبدوا العِجلَ كآلهةٍ من دونِ اللهِ.(٢٨٩)

بعدما رأى اليهودُ قدرَةَ الإسلامِ على توحيدِ أهلِ المدينةِ من الأوسِ والخزرجِ الذين كانوا إلى وقتٍ قريبٍ أعداءً، وما رأوهُ من انتصارِ المسلمينَ على قريشٍ، وفرضِ سيطرتِهم على الطرقِ التجاريّةِ أحسّوا بتهديدٍ لوجُودِهم، وأنّ هذا الدينَ الجديدَ قد يقضي على اليهوديّةِ وعلى أحلامِ بني إسرائيلَ، فاختاروا مواجهَةَ المدِّ الإسلاميِّ الكاسحِ بكلِّ ما لديَهم من قوةٍ وحَوْلٍ، وحاولوا تشكيكَ العوامِ وضِعافِ النفوسِ بالإسلامِ، وتآمروا معَ مُشركيْ مكّةَ والقبائلِ العربيةِ ضدَّ الإسلامِ، فاتجهوا نحو أسلوبِ الضغطِ الاقتصاديِّ على المسلمينَ وإثارةِ الفِتَنِ بينَهم، لا سيّما بينَ الأوسِ والخزرجِ، وبينَ المسلمينَ وقريشٍ، وتشويشِ

الأوضاعِ بإشاعَةِ الأكاذيبِ، والتآمرِ مع المنافقينَ على الإسلامِ، بلْ حتّى تآمرِهم على حياةِ النبيّ، وتحريضِهِمْ الناسَ عليه .

لقد صبرَ الرسولُ على مخالفاتِهِمْ الكبيرةِ تلكَ، تفادياً لحربٍ أهليَّةٍ قاسيةٍ في مقرِّهِ الجديدِ، وعَرفَ المسلمونَ أنّ اليهودَ كانوا يستغلّونَ ظروفَ المسلمينَ ومشاكلَهم، لا سيّما أنّ هذا العدوَّ الماكِرَ يعيشُ في قلبِ المجتمعِ الإسلامي (٢٩٠)، وبعد ستةِ أشهرٍ من غزوةِ بدرٍ، قامَ بنو النضيرِ بإرسالِ أحدِ شعرائِهِمْ وهو كعبٌ بنُ الأشرفِ مع أربعينَ فارساً من اليهودِ إلى مكّةَ ليتَّفقوا مع قريشٍ على خطَّةٍ ضدّ المسلمينَ، فتحالفوا مع أبي سفيانَ على أنْ تكونَ كلمتُهُمْ واحدةً على محمدٍ ، و راحَ كعبٌ يحرِّضُ قريشًا على المسلمينَ، ويهجوهُمْ ثمّ رجعَ وأصحابُهُ إلى المدينةِ .

كانَ رسولُ الإسلامِ على علمٍ بما قاموا بهِ، فكانَ يتحمَّلُ منهم نقْضَ العهدِ أكثرَ من مرَّةٍ من أجلِ أنْ يقطعَ عليهم كلَّ عذْرٍ أو تعليلٍ في ذلك، وليتّضِحَ لكلّ واحدٍ ما يُبيِّتُونَهُ من مَكْرٍ وخِداعٍ، فلم يُعاجلْهُم بالعقوبَةِ من أوّلِ مرّةٍ، وذاتَ مرّةٍ حين طلبَ منهم الوفاءَ بتعهُّداتِهِمْ الماليّةِ حَسْبَ العهدِ الذي يَنصُّ على التعاونِ في الدِيّاتِ، خَطَّطَ كعبٌ بنُ الأشرفِ للغدرِ بالنبيِّ وقتْلِهِ، فتآمرَ معَ جماعةٍ منْ أصحابِهِ على ذلكَ، وحينما جاءَهمْ النبيُّ منْ أجلِ المُطالَبةِ بدفْعِ الديّاتِ، جلسَ معَ أصحابهِ في بنيْ النضيرِ، فتنادى اليهودُ فيْما بينَهُمْ: إنّكم لا تحصلونَ على هذا الرجلِ بمِثْلِ هذه الحالةِ وها هو قد جلسَ بالقُربِ منْ حائطِكمْ، فليذْهَبْ أحدُكم إلى السطحِ ويرمِيهِ بحجرٍ عظيمٍ ويُريحُنا منهُ، فقامَ أحدُهم وأبدى استعدادَهُ لتنفيذِ الأمرِ، وذهبَ الى السطحِ لتنْفيذِ عملِهِ الإجراميّ، إلّا أنّ رسولَ اللهِ عَلِمَ عن طريقِ الوحيِ بما كانوا يُخطّطونَ لهُ، فتركَهُم وقَفَلَ عائداً إلى المدينةِ دونَ أنْ يتحدّثَ بحديثٍ معَ أصحابِهِ، وتصوّرَ أصحابُهُ أنّ الرسولَ سيعودُ مرَّةً أخرى، ولمّا عرفوا فيما بعدُ أنّ النبيَّ في المدينةِ، عادوا إليها أيضاً .

صارَ من الواضحِ للمسلمينَ ألّا بُدَّ لهمْ من التعاملِ مع هذا العدوِّ على أساسِ الحزْمِ والعدلِ، بدلاً من العفوِ والتسامُحِ، واعتبرَ النبيُّ تآمرَهمْ على القيادةِ الإسلاميةِ، ومحاولتَهم اغتيالَه

- وإنْ لم ينجحوا في تنفيذِها - اعتبَرَهُ نقْضاً نهائيّاً للعهدِ، وقرَّرَ مواجهتَهُم بالموقفِ الصارمِ والحازمِ، وإذْ أنّ مصيرَ كلِّ خائنٍ وغادرٍ هو الحربُ والقتلُ، وذلك هو الجزاءُ العادلُ لا سيّما، إذا كانَ يخطِّطُ ويتآمرُ، ثمّ يعملُ على تنفيذِ خُططِهِ بضربِ الإسلامِ في الصميمِ والمتمثِّلِ بمقامِ النبوَّةِ، أمرَ النبيُّ بأخذِ القَصاصِ منْ كعبٍ بنِ الأشرفِ وإجلاءِ بنيْ النضيرِ عنِ المدينةِ لاحقاً، ليكونَ القرارَ الحكيمَ والصائبَ، فقالَ : ادعوا ليْ محمدًا بنَ مَسْلَمَةَ، فلمّا جاءَ أرسلَهُ إليهم يُنذِرُهمْ بوجُوبِ مغادرتِهِمْ مساكنَهمْ، وعندما جاءهُمْ محمدٌ بنُ مسلمةَ الأوسيُّ بالخبرِ تعجّبوا منْ ذلكَ، لأنّ بينَهمْ وبينَ الأوسِ عهدًا، وقالوا: يا محمدُ ، ما كُنَّا نظنُّ أنْ يجيئَنا رجلٌ منَ الأوسِ، فقالَ محمدٌ بنُ مسلمَةَ: تغيّرَتِ القلوبُ، ومحا الإسلامُ العهودَ، فلمّا حذّرَهمْ ابنُ مسلَمَةَ، وأمرَهمْ بالخروجِ وكانوا مفجوعِينَ بمقتَلِ كَعْبٍ، قالوا: يا محمدُ ، واعيَةٌ إثْرَ واعيَةٍ؟ ذَرْنا نَبْكِ سُويْعَةً، ثمّ أئتَمِرْ أمرَكَ.(٢٩١)

كانَ اللهُ قد أطلعَ نبيَّهُ على المؤامرةِ اليهوديةِ سابقاً، وذكرَ أنّه سيخرجُهمْ منْ ديارِهمْ في أوّلِ مواجهةٍ للمسلمينَ معَ اليهودِ، بعدما كانوا مغرورينَ بحصونِهمْ المنيعَةِ وقُدراتِهمْ المادّيّةِ، وظنّوا أنّهم لا يُهزَمونَ، وأنّ هذه الحصونَ ستَحْميهمْ منَ اللهِ، لكنّ اللهَ سيأتِيهمْ منْ حيثُ لم يتوقَّعوا، وسيرسِلُ عليهمْ جيشًا من داخلِهمْ فيُخيِّمَ عليهمُ الرعبُ، الذي سيجعلُهُمْ يُخرِبونَ بيوتَهُمْ بأيدِيهِمْ وأيديْ أعدائِهِمْ منَ المسلمينَ، فكانَ هذا مصيرُ بني النضيرِ، الذي يأمرُ اللهُ المفكّرِينَ والفاهِمينَ بأخْذِ العِبْرةَ منهُ.(٢٩٢)

في هذه الأثناءِ أرسلَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ إلى بني النضيرِ: ألّا تخرُجوا، فإنّ معِي ألفيَّ رجلٍ منَ العربِ يدخلونَ معكُمْ، وبنو قُريظةَ تدخلُ معَكمْ أيضاً، فطَمِعَ بنو النضيرِ واغتَرّوا بهذهِ الوعودِ، فأرسلَ سيّدُ بني النضيرِ حُيَيُّ بنَ أخْطَبَ إلى رسولِ اللهِ: إنّا لا نفارقُ ديارَنا فاصنَعْ ما بدا لكَ، فبلغَ الخبرُ زعيمَ بني قريظةَ كعبًا بنَ أسدٍ فقالَ: لا ينقضُ العهدَ رجلٌ منْ بني قريظةَ وأنا حيٌّ، فنصحَ أحدُ أحبارِ اليهودِ وهو سلامٌ بنُ مُشْكِمٍ، حُيَيًّا بنَ أخطَبَ حيثُ قالَ لهُ: مَنَّتْكَ نفسُكَ واللهِ يا حُييُّ الباطلَ، فإنّ قولَ ابنِ أُبيٍّ ليس بشيءٍ، وإنّما يريدُ أنْ يورِّطَكَ في الهَلَكَةِ حتّى تُحاربَ محمدًا فيجلسَ في بيتِهِ ويتركُكَ وقد أرادَ منْ كعبٍ بنِ أسدٍ

النصْرَ فأبَى كعْبٌ، قالَ حُييٌّ: تأبَى نفْسِيَ إلّا عداوةَ محمدٍ وإلّا قتالَهُ، قالَ سلامٌ: فهو واللهِ جَلاؤنا منْ أرضِنا، وذَهابُ أموالِنا. (٢٩٣)

حينَ أبلغوا رسولَ اللهِ بنقْضِ بنيْ النضيرِ للعهدِ، قالَ: اللهُ أكبرُ، حاربَتْ اليهودَ. والمسلمونَ كَبَّروا، ثمّ قالَ لعليٍّ: تقدَّمْ إلى بنيْ النضيرِ، فأخذَ عليٌّ الرايةَ وتقدّمَ، وجاءَ رسولُ اللهِ، وأحاطَ المسلمونَ بحِصنِهِمْ سِتَ ليالٍ، وتقعُ حصونُهُمْ شرقيَّ المدينةِ منْ جهةِ الشّامِ، وكانتْ محاطةً بالنخيلِ، فرمَى أحدُ اليهودِ خيمةَ النبيِّ بسهمٍ، فغيّرَ المسلمونَ مكانَها، فلمّا جُنَّ الليلُ فقدوا عليًّا، فقالَ الناسُ: يا رسولَ اللهِ، لا نرى عليّاً، فقالَ: أراهُ في بعضِ ما يُصلحُ شأنَكم، فلم يلبثْ أنْ جاءَ برأسِ اليهوديِّ الذي رمى النبيَّ، فطرحَهُ بينَ يدي النبيِّ، فقالَ لهُ النبيُّ: كيفَ صنعتَ؟ فقالَ: "إنّي رأيتُ هذا الخبيثَ جريئاً شجاعاً، فكمنْتُ لهُ، وقلتُ: ما أجرَأهُ أنْ يخرجَ إذا اختلطَ الليلُ، يطلبُ منّا غِرّةً، فأقبلَ مصلِتاً سيفَهُ، في تسعةِ نفرٍ من اليهودِ، فشددْتُ عليهِ وقتلتُهُ، فأفلتَ أصحابُهُ، ولم يبرَحوا قريباً، فابعثْ معي نفراً فإنّي أرجو أنْ أظفرَ بهمْ،" لم يكنْ عليٌّ بطبعِهِ أنْ يستعينَ بأحدٍ عند قتالِهِ، ولكنّه أرادَ إشراكَ المسلمينَ في القتالِ، فبعثَ رسولُ اللهِ معهُ عشرَةً، فيهمْ أبو دُجانَةَ وسهلٌ بنُ حنيفٍ، فأدرَكوهُم قبلَ أنْ يلِجوا الحصنَ وقتلوهُم، كانَ لهذه الضربةِ تأثيرٌ كبيرٌ على معنويّاتِ بنيْ النضيرِ، في أنْ يضجَّ الرعبُ في قلوبِهِمْ خاصةً بعد أنْ تخلَّى عنهمْ حلفاؤهُم، فإنّ تصدِّي رجلٍ واحدٍ منَ المسلمينَ لعشرةٍ منهمْ، ثمّ قَتْلِ العشرةِ جميعاً، يؤذِنُ بأنّ المسلمينَ قادرونَ على إبادَتِهم، واستئْصالِ شَأفَتِهِمْ بسهولةٍ ويُسرٍ .

كانَ بنو النضيرِ يرونَ في أنفسِهِمْ شيئاً منَ القُوّةِ والمنْعَةِ في قِبالِ المسلمينَ، ويجدونَ أنّ بإمكانِهِم مواجهةَ التحدّيْ، فيما لو أُتِيحتْ لهمُ الفرصةُ لإطالةِ أمَدِ المواجهةِ، لا سيّما إذا تحرّكَ أهلُ خيبرَ لنجدَتِهِمْ، وربمّا تتمكنُ قريشٌ وحلفاؤها منَ القبائلِ أنْ يتحرَّكوا أيضاً، لذلكَ رأى النبيُّ أنّ مواصلَةَ الحصارِ لنْ تُجْديَ نفعاً ما داموا قادرينَ على الاحتماءِ بحصونِهم والدفاعِ عنها مدةً طويلَةً، فأمرَ الرسولُ بقطعِ أشجارِ نخيلِ بني النضيرِ وحَرقِها، لتهيئَةِ ظروفٍ أفضلَ للقتالِ والتأثيرِ على بنيْ النضيرِ، فيضّطروا للنزولِ منْ قلاعِهِم ومُنازلَةِ المسلمينَ خارجَ الحصنِ، وبذلكَ ذهبَ آخِرُ آمالِهِم، وليفهَموا ـ بصورةٍ عمليّةٍ ـ أنّهم

إذا كانوا يطمعونَ بالبقاءِ في أرضِهِم فإنّ عليهم أنْ يقْبَلوا بِها أرضاً محروقةً، وحتّى يروا حينئذٍ ألّا فائدَةً منَ الاستمرارِ في اللِّجاجِ والتحدِّي إلّا تكَبُّدَ المزيدِ منَ الخسائرِ، ومواجهةَ الكثيرِ منَ النكَساتِ،(٢٩٤) فنادى اليهودُ منَ الحصنِ: يا محمدُ قد كنتَ تَنْهى عَنِ الفسادِ، وتعيبُ مَنْ صَنَعَه، فما بالُ قَطْعِ النخلِ وتحريقِها، كما اعترضَ فريقٌ منَ المهاجرينَ على قرارِ النبيِّ بقطْعِ الأشجارِ، وقالوا: إنّما هي مغانمُ للمسلمينَ! وكانَ هذا الفريقُ من المهاجرينَ المعترضُ يشكِّلُ تكتُّلاً مستقِلاً، لهُ طموحاتُه وأفكارُهُ المتميزةُ، ولا سيَّما في ما يرتبطُ بالسياسَةِ والحُكْمِ والتخطيطِ لهُ، ويحملونَ تعاطفاً معَ قومِهِمُ المَكيّينَ ومعَ يهودِ المدينةِ، فكانوا يعترضونَ على القراراتِ النبويّةِ التي لا تصبُّ في مصلحتِهِمْ وتطلعاتِهم (٢٩٥)، فأنزلَ اللهُ بأنّ هذا العملَ لم يكنْ عنْ هوى نفسٍ، بلْ عنْ أمرٍ إلٰهيٍّ صدرَ في هذا المجالِ كحالةٍ استثنائيّةٍ وفي دائرةٍ محدودةٍ لأسبابٍ عسكرية (٢٩٦)

وحينَ رأى بنو النضيرِ أنّ الأمورَ تسيرُ في غيرِ صالحِهم، وأنّهم قد أخطأوا في حساباتِهم خطأً فاحشاً، وألّا أحدٌ يستطيعُ أنْ يمنعَ المسلمينَ من إنزالِ العقابِ العادلِ بهِم، رضوا بأنْ يقدّموا أموالَهُم وأرضَهم لرسولِ اللهِ في مقابلِ الإبقاءِ عليهم، وعدمِ قتلِهم جزاءَ غدرِهم وخيانَتِهم، فوافقَ رسولُ اللهِ بذلك وقامَ بإجلائهِم، فخرجوا منَ الحصنِ ومرّوا وهمْ يضربونَ الدفوفَ والمزاميرَ، والمغنيّاتُ يعزفنَ خلفَهم بزهاءٍ وفخرٍ، فهم لا يريدونَ أنْ يعترفوا بالهزيمَةِ وذهابِ عزِّهمْ، فتأثرَ نفرٌ من المهاجرينَ وحزنوا، قالَ حسانُ بنُ ثابتٍ وهو يراهُم على الرِحَالِ: أما واللهِ، لقد كانَ عندَكم لنائلٌ [1] للمجتَديْ، وقِرَىً حاضرٌ للضيفِ، وسقيٌ للمُدام[2] ، وحِلمٌ على منْ سَفِهَ عليكم، ونجدةٌ إذا استنجِدتُم، فقالَ الضحّاكُ بنُ خليفةٍ: وا صباحاهْ، نفسي فداؤكم، ماذا تحمَّلْتُم بهِ منَ السؤددِ والبهاءِ والنجدةِ والسخاءِ؟! وقالَ نعيمٌ بنُ مسعودٍ الأشجعيّ: فِدَىً لهذه الوجوهِ التي كأنّها المصابيحُ، مرتحلينَ من يثربَ! مَنْ للمُجتَدي الملهوفِ؟ ومَنْ للطارقِ السغبانِ؟ ومَنْ يسقي العُقارَ؟ ومَنْ يطعمُ الشحْمَ

---

١ النائل: الجود، والعطية، والمعروف.

٢ المُدام: الخمر.

فوقَ اللّحمِ؟ ما لنا بيثربَ بعدَكم مقامٌ، فقالَ أبو عبسٍ بنُ جبرٍ وهو يسمعُ كلامَه: نعمْ، فالحقْهمْ حتّى تدخلَ معهمُ النارَ، قالَ نعيمٌ مخاطباً الأوسيّينَ: ما هذا جزاؤهُمْ منكمْ، لقد استنْصرتُموهُم فنصَروكُمْ على الخزرجِ، ولقد استنصَرتُمْ سائرَ العربِ فأبَوا ذلكَ عليكمْ، فقالَ أبو عبسٍ:" قطعَ الإسلامُ العهودَ،" إنّ إسلامَ هؤلاءِ لم يكنْ عميقاً، ولا راسخاً في نفوسِهم، رغْمَ أنّهُم قد رأوا بأمِّ أعينِهم ظُلمَ اليهودِ وبغيَهم وغدْرَهم ومجانبَتَهم للحقِّ، لكنّهم ما زالوا يتعاطفونَ معهُمْ .

وإذْ إنّ الحصنَ فُتِحَ صُلحاً أيْ دونَ قتالٍ فكانَ ما غنِمَهُ المسلمونَ فَيْئاً، أيْ خالصاً لرسولِ اللهِ، لكنّ النبيَّ بالرغمِ من ذلكَ خيّرَ الأنصارَ بين أنْ يُقسِّمَ الغنيمَةَ، عليهم وعلى المهاجرينَ، ويكونُ المهاجرونَ مع الأنصارِ كما كانوا يُشاطرونَهم أموالَهم وبيوتَهم، وبين أنْ يخصَّ المهاجرينَ بها، فيستَقِلُّونَ عنِ الأنصارِ ويُرجعونَ إليهم بيوتَهم، فقالَ سعدٌ بنُ معاذٍ وسعدٌ بنُ عبادةَ: بلْ نقسّمُهُ بينَ المهاجرينَ، ويكونونَ في دُورِنا كما كانوا، ونادَتْ الأنصارُ: رضِيْنا وسلّمْنا يا رسولَ اللهِ، فقالَ رسولُ اللهِ : اللهمَّ ارحَمْ الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ، وأنزلَ اللهُ ثناءً ومدحًا لهذه الروحِ العاليَةِ للأنصارِ (٢٩٧)، فقسّمَها النبيُّ بينَ المهاجرينَ، وأمرَهم بردِّ ما كانَ للأنصارِ.(٢٩٨)

حَفْصَةُ بنتُ عمرَ بنِ الخطّابِ في بيتِ النبيِّ

في شهرِ شعبانَ منَ السنةِ الثالثةِ منَ الهجرةِ تزوجَ النبيُّ من حفصةَ بنتُ عمرَ بنِ الخطّابِ بعد انقضاءِ عدّتِها، بعد وفاةِ زوجِها، المقتولِ في بدرٍ، كانتْ حفصةُ إحدى زوجاتِ النبيِّ محمدٍ ، التي تآمرَتْ عليهِ معَ عائشةَ، وقد تسبَّبتْ بالكثيرِ منَ المشكلاتِ في حياةِ النبيِّ، والذي أدّى إلى تعكيرِ صَفوِ حياتِه، لكنّ نبيَّ اللهِ صَبرَ وتحَمّلَ أذاها، من أجلِ الحِفاظِ على رسالَتِه التي بعَثَهُ اللهُ من أجلِها.

زينبُ بنتُ خُزيمَةَ في بيتِ النبيّ

في شهرِ رمضانَ من السنةِ الثالثةِ، تزوجَ النبيُّ محمدٌ بزينبَ بنتِ خزيمةَ، وماتتْ بعد شهرينِ أو ثلاثةٍ، فهي أوّلُ من توفّى من زوجاتِه بعد خديجةِ.

كانَ رسولُ الله يبني لزوجاتِه بيوتًا، وهي غُرفٌ حولَ المسجدِ النبويّ، ثم بنى الصحابةُ بيوتاً لهم حولَ المسجدِ بحيثُ يكون لها بابانِ، بابٌ يُفتحُ على المسجدِ، وذلك لتسهّلَ عليهمْ الدخولَ إلى المسجدِ في أوقاتِ الصلاةِ ومنْ ثمّ الرجوعُ إلى دورِهم، وبابٌ ثانيةٌ منْ الجِهةِ الأُخرى.(٢٩٩)

قِصَّةُ جُويْبِرْ

كانَ بعضُ الفقراءِ من أصحابِ النّبيّ يسكنونَ في المسجدِ النبويّ، خاصّةً المهاجرينَ الذين هاجروا إلى المدينةِ، ولم يكنْ عندَهم زوجاتٌ ولا بيوتٌ، كانَ النّبيُّ يتعهّدُهم بالطعامِ والثيابِ ويرعى شؤونَهم، "كانَ من هؤلاءِ الفقراءِ شابٌ اسمُه جويبِرٌ من أهلِ اليمامَةِ، وكانَ رجلاً قصيراً دميماً، محتاجاً عارياً، جاءَ إلى رسولِ اللهِ وأسلمَ على يديهِ، وحَسُنَ إسلامُه، وبسببِ غربتِه واحتياجِه أمرَهُ رسولُ اللهِ أنْ يلزَمَ المسجدَ ويسكنَ فيهِ في الليلِ، وكانَ يعطيهِ طعاماً صاعاً من تمرٍ، وكَساهُ بشَملَتَينِ، فمكثَ هناكَ ما شاءَ اللهُ، نظرَ رسولُ اللهِ إلى جويبرٍ ذاتَ يومٍ، وقالَ لهُ: يا جويبرُ، لو تزوّجتَ امرأةً فعفَفْتَ بِها فَرْجَكَ، وأعانتْكَ على دُنياكَ وآخرتِك، فقالَ جويبرٌ: يا رسولَ اللهِ، بأبيْ أنتَ وأُمّي، مَنْ ترغَبُ فِيَّ؟، فواللهِ، ما من حسبٍ ولا نسبٍ ولا مالٍ ولا جمالٍ، فأيّةُ امرأةٍ ترغبُ بيْ؟ فقالَ رسولُ اللهِ : يا جويبرُ، إنّ اللهَ قد وضعَ بالإسلامِ مَنْ كانَ في الجاهليةِ شريفاً، وشرّفَ بالإسلامِ مَنْ كانَ في الجاهليةِ وضيعاً، وأعزَّ بالإسلامِ مَنْ كانَ في الجاهليةِ ذليلاً، وأذهبَ بالإسلامِ ما كانَ من نخْوةِ الجاهليةِ وتفاخرِها بعشائرِها وباسقِ أنسابِها، فالناسُ اليومَ كلُّهم، أبيضُهم وأسودُهم وقرشِيُّهم وعربيُّهم وأعجميُّهم من آدمَ، وإنّ آدمَ خلقَه اللهُ من طينٍ، وإنّ أحبَّ الناسِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ أطوعُهم لهُ وأتقاهُم، وما أعلمُ يا جويبرُ لأحدٍ منَ المسلمينَ عليكَ اليومَ فضلاً،

إلّا لمَنْ كانَ أتقى للهِ منكَ وأطوعَ، ثمّ قالَ لهُ: انطلقْ يا جويبرُ إلى زيادِ بنِ لبيدٍ فإنّه من أشرفِ بني بياضَةَ حَسَباً ـ وهي قبيلةٌ من الأنصارِ ـ وقلْ لهُ: إنّي رسولُ رسولِ اللهِ إليكَ، وهو يقولُ لكَ: زوّجْ جويبراً ابنتَكَ الذلفاءَ .

انطلقَ جويبرٌ برسالةِ رسولِ اللهِ إلى زيادِ بنِ لبيدٍ وهو في منزلِه، وجماعةٌ من قومِه عندَهُ، فاستأذنَهُ بالدخولِ، فأذِنَ لهُ، فدخلَ فسلّمَ عليهِ، ثمّ قالَ: يا زيادُ بنُ لبيدٍ، إنّي رسولُ رسولِ اللهِ إليكَ في حاجةٍ ليْ، أفأبوحُ بها أمْ أُسِرُّها إليكَ؟ فقالَ لهُ زيادٌ: بلْ بُحْ بِها، فإنّ ذلكَ شرفًا ليْ وفخرًا، فقالَ لهُ جويبرُ: إنّ رسولَ اللهِ يقولُ لكم زوّجْ جويبراً ابنتَكَ الذلفاءَ، فقالَ لهُ زيادٌ: أرسولُ اللهِ أرسلَكَ إلـيَّ بهذا؟ قالَ: نعمْ، فما كنتُ لأكذِبَ على رسولِ اللهِ، فقالَ لهُ زيادٌ: إنّا لا نزوّجُ فتياتِنا إلّا أكفّاءَنا من الأنصارِ، ثمّ قالَ لهُ: انـصرفْ يا جويبرُ حتّى ألقى رسولَ اللهِ فأخبرَهُ بعُذْري، انصرفَ جويبرٌ وهو يقولُ: واللهِ ما بهذا نزلَ القرآنُ ولا بهذا ظهرَتْ نبوّةُ محمّدٍ، فسمِعَتْ مقالتَه الذلفاءُ بنتُ زيادٍ وهي في خِدْرِها، فأرسلَتْ إلى أبيْها تستدعيهِ، فدخلَ إليها، فقالتْ لهُ: ما هذا الكلامُ الذي سمعتُكَ تحاورُ بهِ جويبراً؟ فقالَ لها: ذكرَ ليْ أنّ رسولَ اللهِ أرسلَهُ، وقالَ: يقولُ رسولُ اللهِ: زوّجْ جويبراً ابنتَكَ الذلفاءَ، فقالتْ لهُ: واللهِ ما كانَ جُويبرٌ ليكذِبَ على رسولِ اللهِ بحضرَتِهِ، فابعَثْ الآنَ رسولاً يردُّ عليكَ جويبراً .

فبعثَ زيادٌ رسولاً فلحِقَ جويبراً وجاءَ بهِ، فقالَ لهُ زيادٌ: يا جويبرُ مرحباً بكَ، اطمئِنَّ حتّى أعودَ إليكَ، ثمّ انطلقَ زيادٌ إلى رسولِ اللهِ فقالَ لهُ: بأبيْ أنتَ وأُمّي إنّ جويبراً أتاني برسالتِكَ وقالَ: إنّ رسولَ اللهِ يقولُ لكَ: زوّجْ جويبراً لابنتِكَ الذلفاءِ، فلمْ ألِنْ لهُ بالقولِ، ورأيتُ لقاءَكَ، ونحنُ لا نزوّجُ فتياتِنا إلّا أكفّاءَنا منَ الأنصارِ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ : يا زيادُ، جويبرٌ مؤمنٌ، والمؤمنُ كُفُؤٌ للمؤمنةِ، والمسلمُ كفؤٌ للمسلمةِ، زوّجْهُ يا زيادُ ولا ترغبْ عنْهُ، رجعَ زيادٌ إلى منزلِه ودخلَ على ابنتِه، فقالَ لها ما سمعَهُ من رسولِ اللهِ ، فقالتْ لهُ: إنّك إنْ عصيْتَ رسولَ اللهِ كفرْتَ، فزوّجْ جويبراً، فخرجَ زيادٌ فأخذَ بيدِ جويبرٍ، وجاءَ بهِ إلى أهلِه، وزوّجَه على سنّةِ اللهِ وسنّةِ رسولِه، وضمِنَ صَداقَهُ، جهّزَ زيادٌ ابنتَه الذلفاءَ وهيّأها، ثمّ أرسلوا على جويبرٍ فقالوا لهُ: ألكَ منزلٌ فنسوقَها إليكَ؟ فقالَ: واللهِ ما منْ منزلٍ، فهيّأوا لجويبرٍ منزلاً وأثّثوهُ بالفراشِ والمَتاعِ، وكسوا جويبراً ثوبَينِ، وأُدخِلتْ الذلفاءُ بيتَها، وأُدخِلَ جويبرٌ عليها،

فلمّا رآها ورأى ما منَحَهُ اللهُ من نعمةٍ قامَ إلى زاويةِ البيتِ، فلم يزلْ تالياً للقرآنِ راكعاً ساجداً حتّى طلعَ الفجرُ، فلمّا سمعَ النداءَ خرجَ، وخرجَتْ زوجتُه إلى الصلاةِ، فسُئِلتْ: هلْ مسّكِ؟ فقالتْ: ما زالَ تالياً للقرآنِ وراكعاً حتّى سمعَ النداءَ فخرجَ، وهكذا كانتْ الحالُ في الليلةِ الثانيةِ والثالثةِ، فلمّا كانَ اليومُ الثالثُ أُخبِرَ أبوها بالخبرِ، فانطلقَ إلى رسولِ اللهِ وحكى لهُ ما كانَ من أمرِ جويبر .

فأرسلَ النبيُّ إلى جويبرٍ يطلبهُ، فلمّا حضرَ سألَهُ النبيُّ: أما تقربُ النساءَ؟ فأجابَ جويبرٌ: أوما أنا بفحلٍ! إنّي لنَهِمٌ إلى النساءِ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: قد أُخبِرتُ بخلافِ ما وصفْتَ بهِ نفْسَكَ، وقد هيّأوا لك بيتاً وفراشاً ومتاعاً، فأجابَ جويبرٌ: يا رسولَ اللهِ، دخلتُ بيتاً واسعاً ورأيتُ فراشاً ومتاعاً، ودخلَتْ عليَّ فتاةٌ حسناءُ، فذكرْتُ حالي التي كنتُ عليها وغُربَتي وحاجَتي وضيعَتي وكسوتِي مع الغرباءِ والمساكينَ، فأحببْتُ إذْ أولانيَ اللهُ ذلكَ، أنْ أشكُرَهُ على ما أعطاني وأتقرّبَ إليه بحقيقةِ الشكرِ، فرأيْتُ أن أقضيَ الليلَ مصلّياً والنهارَ صائماً، ففعلتُ ذلكَ ثلاثةَ أيّامٍ ولياليها، ولكنّي سأُرضيَها وأُرضيهُمْ الليلةَ، فأرسلَ رسولُ اللهِ إلى زيادٍ فأتاهُ، فأعلمَهُ ما قالَ جويبرٌ، ووفّى جويبرٌ بوعدهِ، وعاشَ معَ زوجتِه بسعادةٍ وأُنسٍ وصفاءٍ، إلى أنْ خرَجَ النبيُّ إلى غزوةٍ، فخرجَ معهُ واستُشهِدَ. " (٣٠٠)

كَثُرَ الغرباءُ ممّن يدخلونَ في الإسلامِ منْ أهلِ الحاجَةِ في المدينةِ، إلى أنْ ضاقَ بهِمْ المسجدُ، فأوحى اللهُ إلى نبيّهِ أنْ طهِّرْ مسجدَكَ، وأخرجْ منَ المسجدِ مَنْ يرقدُ فيهِ بالليلِ، وأغلقْ الأبوابَ المطِلّةَ على المسجدِ لبيوتِ الصحابةِ، إلاّ بابَ دارِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، أمرَ رسولُ اللهِ بأغلاقِ أبوابِ الصحابةِ، وأنْ يتّخذَ المسلمونَ للفقراءِ سقيفةً في مؤخّرةِ المسجدِ النبويّ في مكانٍ عُرِفَ بالصُفَّةِ، فعُرِفوا بأصحابِ الصُفَّةِ أو أهلِ الصُفَّةِ، ثمّ أمرَ الغرباءَ والمساكينَ أنْ ينتقلوا إليْها، فنزَلوا واجتمَعوا فيها، فكانَ رسولُ اللهِ يتعهّدُهمْ بالبُرّ والتمرِ والشعيرِ والزبيبِ ما استطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً، وكانَ المسلمونَ يتعهّدونَهم ويرِقّونَ عليهمْ لِرقّةِ الرسولِ، وكانَ أهلُ الصفّةِ يقضونَ أوقاتَهم بتعلُّمِ القرآنِ، وكانوا يخرجونَ في كلِّ سَريّةٍ يبعثُها رسولُ اللّهِ .

لقد أحدثَ أمرُ إغلاقِ الأبوابِ بينَ كبارِ الصحابةِ صدمَةً عنيفةً، لا سيّما وأنّه قد أجازَ لعليٍّ أنْ يدخُلَ المسجدَ وهو جُنُبٌ[١] أيضاً، فقالَ الناسُ للنبيِّ: سَددْتَ أبوابَنَا، وتركْتَ بابَ عليٍّ؟! فقالَ: ما أنا أخرَجْتُكم من قِبَلِ نفسيْ وتركتُهُ، ولكنّ اللهَ أخرجَكمْ وتركَهُ، وإنّما أنا عبْدٌ مأمورٌ، فعلْتُ ما أُمِرتُ، إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إليَّ، لكنّ بعضَ الصحابةِ أصرّوا على مخالفَةِ أمرِ رسولِ اللهِ حتّى صَعدَ المِنبرَ وهو غاضبٌ، فأعادَ عليهِمْ أمرَهُ بغلْقِ الأبوابِ إلّا بابَ عليٍّ بعد أنْ عَصَوا أمرَهُ مَرّتَينِ، ولمْ يُطيعوا إلّا في الثالثةِ. (٣٠١)

ولادَةُ الحَسَنِ

وُلِدَ الابنُ الأولُ لعليٍّ وفاطمةَ بنتِ النبيِّ في منتَصفِ شهرِ رمضانَ من السنةِ الثالثةِ للهجرةِ، وقد أسماهُ جدُّهُ رسولُ اللهِ حَسَناً، إذْ لم يشأْ عليٌّ أنْ يسبقَ النبيَّ في تسمِيتِهِ، وكانَ أولَ مَنْ سُمِّيَ بهذا الاسمِ عند العربِ، ثم حلقَتْ أمُّهُ فاطمةُ شَعرَهُ في اليومِ السابعِ، ووزنَتْ شَعرَهُ، ثم تصدَّقت بوزنِه فضّةً.(٣٠٢)

معرَكَةُ أُحُدْ

قريشٌ صارتْ تَحذَرُ سلوكَ طريقِ الشّامِ للتجارةِ، خوفاً على قوافلِها، ممّا يهدِّدُ مستقبلَها ووجودَها، لذلك فهي تعتبِرُ حربَها معَ النبيِّ والمسلمينَ حرباً مصيريَّةً، ومعركتَها معهُ معركةَ حياةٍ أو موتٍ، ولم يكنْ ذلك ليخْفَى على النبيِّ، فكانَ دائماً على استعدادٍ لكلِّ طارئٍ، متتبعاً كلَّ تحَرُّكاتِ العدوِّ بدِقّةٍ متناهيَة .

بعد أنْ أصبحَ وجودُ الدولةِ الإسلاميةِ يشكِّلُ تهديداً حقيقيّاً على مصالحِ قريشٍ قَرَّروا قتالَهُ مجَدَّداً، فقالَ صفوانُ بنُ أميَّةَ، أحدُ ساداتِ قريشٍ، لقريشٍ: إنّ محمدًا وأصحابَه قد أفسدوا

---

١ الجُنُب: هو مصطلح في الفقه الإسلامي، يوصف به الشخص الذي وجب عليه الغُسْلُ بسبب الجماع أو خروج المني منه.

عليْنا تجارَتَنا، فما ندري كيفَ نصنعُ بأصحابهِ؟ إنّهم لا يبرحونَ الساحلَ، وأهلُ الساحلِ قد أمضوا معهم العقُودَ، ودخلَ أكثرُهمْ معهُ، فما ندري أيَّ طريقٍ نسلُكُ؟ وإنْ أقمْنا في أرضِنا نأكلُ رؤوسَ أموالِنا، فلا بقاءَ لنا، إنّما تجارتُنا إلى الشامِ صيفاً وإلى الحبَشةِ شتاءً. (٣٠٣)

وفي شهرِ شَوّالَ منْ السنةِ الثالثةِ للهجرةِ بدأتْ قريشٌ تستعِدُّ لقتالِ النبيِّ محمدٍ ، وأخذَتْ تعبّئُ النفوسَ، وتجهّزُ القوى الحربيّةَ لأخذِ الثأرِ ومحوِ العارِ، ومضى اليهودُ الذين أصبحوا يخافونَ على مركزِهمْ السياسيْ والاقتصادي والثقافي في المنطقَةِ يُحرّضونَ قريشًا على الثأرِ ممّنْ وَتَرَهُمْ، وأعلنوا بالحِقدِ ونقْضِ العهدِ، أخذتْ قريشٌ تبْعثُ الرُّسلَ إلى القبائلِ تستنْصرُهم، وبدأوا يحرّكونَ مَنْ أطاعَهمْ منْ قبائلِ كِنانةَ وأهلِ تُهامَةَ، قامَ الشاعرُ أبو عَزّةَ الجُمَحيُّ بتحريضِ القبائلِ على المسلمينَ، وكانَ قد أُسِرَ في بدرٍ ومَنَّ عليهِ النبيُّ بشرطٍ ألّا يُظاهرَ عليهِ إلّا أنّهُ لمْ يَفِ بوعدِهِ للنبيِّ.

خرجَتْ قريشٌ بمَنْ جمعَتْهمْ منَ المقاتلينَ، وكانَ فيهِمْ خمسَ عشرةَ امرأةً، وكانتْ أبرزَهنَّ هندٌ بنتُ عُتبَةَ زوجةُ أبي سفيانَ، ليُحرّضْنَ الجيشَ على القتالِ، ويُذكِّرْنَهُم بقتْلى بدرٍ، وهن يغُنّيْنَ ويضربْنَ بالدفوفِ، ليشجعوهُنّ على القتالِ فيثْبُتوا ولا يفِرّوا، وخرجَ معهمْ الفِتيانُ بالمعازفِ، والغلمانُ بالخمورِ، وكانَ جيشُ قريشٍ يتكوّنُ منْ ثلاثةِ آلافِ مقاتلٍ، و صرفوا عشراتِ الآلافِ منَ الدنانيرِ منَ القافلةِ التي نجَتْ منْ معركةِ بدرٍ للتحضيرِ للمعركةِ، لقد كانَ في جيشِ قريشٍ سبعُ مئةِ دارعٍ ومِئتا فارسٍ، كلُّهم بقيادَةِ أبي سفيانَ الذي صارَ زعيمَ قريشٍ بعد مقتلِ أشرافِها في بدرٍ، فساروا إلى جبلِ أُحدٍ، وهو جبلٌ يبعدُ عنِ المدينةِ حَوالَيْ خمسةِ كيلومتراتٍ ونصفٍ تقريباً، وكانَ معَ قريشٍ أيضاً وحشِيٌّ، وهو عبدٌ لجُبيرِ بنِ مُطعمٍ، وقد وعدهُ سيّدُهُ بالحريّةِ إنْ قتلَ محمدًا أو عليّاً أو حمزةَ، ثأراً لعمّهِ طُعَيمَةَ بنِ عديٍّ، لأنّ جُبيرًا لا يرى لعمّهِ كفُؤاً في المسلمينَ غيرَ هؤلاءِ الثلاثةِ.

لمّا وصلَ للنبيِّ خبرُ مسيرِ قريشٍ، أمرَ بكتْمانهِ كيْ لا يفسحَ المجالَ أمامَ الحربِ النفسيّةِ التي منَ المُمكنِ أنْ يمارسَها اليهودُ والمنافقونَ ضدَّ المسلمينَ، وليفوّتَ الفرصةَ عليهمْ، ويُحبطَ مؤامراتِهم المحتَملَةِ.(٣٠٤)

سارَ جيشُ مكّةَ على الطريقِ الغربيّةِ الرئيْسةِ المعتادَةِ، ولمّا وصلَ إلى منطقةِ الأبواءِ، طلبَتْ هندٌ بنتُ عُتبةَ زوجةُ أبي سفيانَ، بأنْ يُنبَشَ قَبْرُ أمِّ النبيِّ محمدٍ آمنةَ بنتِ وهَبٍ، بيدَ أنّ قادةَ الجيشِ رفضوا هذا الطلبَ وحذّرَ أبو سفيانَ منْ أنّ لو فعلوا ذلكَ، فسوفَ تَنبشُ بنو بكْرٍ وبنو خُزاعةَ موتاهمْ،(٣٠٥) تابعَتْ قريشٌ مسيرَها حتّى نزلَتْ بذي الحليْفةِ، وأرسلَ النبيُّ بعضَ العيونِ لمراقبَتِهم، ومنهمْ الحُبابُ بنُ المنذِرِ لمعرفَةِ عددِهم وعُدّتِهمْ، وقالَ لهُ: إذا رجعْتَ فلا تخبِرْني أمامَ أحدٍ منْ المسلمينَ، إلّا أنْ تراني بمعزِلٍ منهمْ، فرجِعَ الحُبابُ إليهِ فأخبرَهُ خالياً، وأمرَهُ الرسولُ بالكتْمانِ.

لما نزلَتْ قريشٌ قُربَ المدينةِ، شدَّدَ المسلمونَ الحرسَ عليها وخصوصاً حولَ المسجدِ، وجمعَ رسولُ اللهِ أصحابَه للتشاورِ في أمرِ جيشٍ لم يواجِهْ المسلمونَ مثلَه منْ قبلُ عُدّةً وعدداً، وكانَ كارهاً للخروجِ منَ المدينةِ، ولكنْ كان هناك نفرٌ مِمَّن لم يشهدْ معركةَ بدرٍ، وطائفةٌ منَ الشبابِ المتحمِّسينَ الذينَ ذاقوا حلاوةَ النصرِ في بدرٍ، قد رغِبوا بالخروجِ وأصرّوا عليهِ واحتجّوا لذلكَ بأنّ إقامتَهمْ في المدينةِ ستجعَلُ عدوَّهمْ يظنُّ فيهِمُ الجُبْنَ، فيتجرّأُ عليهمْ، فأخبرَهمُ الرسولُ برُؤيا رآها، إذْ رأى بَقَراً يُذبَحُ، وأنّ في سيفِهِ ثَلْمَةً، وأنّه في درعٍ حصينةٍ، فأوّلَ البقَرَ بأفرادٍ منْ أصحابِهِ يُقتَلونَ، والثَّلْمَةَ برجلٍ منْ أهلِ بيتِهِ يُقتَلُ، والدرعَ بالمدينةِ، فقالَ ابنُ أُبيٍّ: نبقى في المدينةِ، فإذا أقبلَ العدوُّ رماهُ الأطفالُ والنسْوةُ بالحجارةِ، وقاتلَهُ الرجالُ في الطرُقاتِ، وقالوا لرسولِ اللهِ: قد كنتَ يومَ بدرٍ في ثلاثِ مئةَ رجلٍ فأظفرَكَ اللهُ بِهِمْ، ونحنُ اليومَ بشرٌ كثيرةٌ، وقالَ نعيمٌ بنُ مالكٍ: يا نبيَّ اللهِ، لا تحرمْنا الجنَّةَ، فوالذي نفْسيَ بيدِهِ لأدخُلَنَّها، فقالَ لهُ: بِمَ؟ قالَ: بأنّي أحبُّ اللهَ ورسولَه، ولا أفِرُّ من الزحْفِ، فقالَ لهُ: صدَقْتَ، وقالَ لهُ أنصاريٌّ: أينَ نقاتِلُهم يا رسولَ اللهِ، إنْ لمْ نقاتِلْهُمْ عندَ شَعْبِنا؟ وقالَ آخرُ: إنّي لا أحبُّ أنْ ترجِعَ قريشٌ إلى قومِها لتقولَ: حاصرْنا محمدًا في حصونِ يثْربَ وبُروجِها، فتكونُ هذه جرأةً لقريشٍ، وها همْ قد وطأوا سَعَفَنا، فإذا لم نَذُبَّ عنْ عِرضِنا فلمَ نَدَّرِعُ[1] ؟ وقالَ آخرُ: إنّ قريشاً مكثَتْ حَولاً تجمعُ الجُموعَ، وتستجلِبُ

---

١ ندرع: أي يحتمي.

العربَ في بواديها، ومَنِ اتبعَها منْ أحابيشِها، ثمّ جاؤونا قد قادوا الخيلَ واعْتلُوا الإبِلَ حتّى نزَلوا ساحتَنا، أفيحصرونَنا في بيوتِنا وصَياصِينا؟ ثمّ يرجعونَ وافرِينَ لم يُكْلَمُوا؟! فيُجرّئهُمْ ذلكَ علينا حتّى يشنّوا الغاراتِ علينا، ويَصيْبوا أطلالَنا، ويضعوا العيونَ والأرصادَ علينا، ويجْترئَ علينا العربُ حولَنا، وأبَى كثيرٌ منَ الناسِ إلّا الخروجَ، فنزلَ النبيُّ على رأي غالبيّةِ الناسِ، ثمّ دخلَ بيتَهُ ليلبِسَ لامَةَ الحربِ، وفي هذه الأثناءِ أدركَهمُ الندمُ على إصرارِهمْ على النبيّ واستكْراهِهمْ لهُ، وهو أعلمُ باللهِ وما يريدُ، ويأتيهِ الوحيُ منَ السماءِ، فلمّا خرجَ النبيُّ عليهمْ وقد لبِسَ لامَتَهُ ليتوجَّهَ معَ أصحابهِ إلى حربِ قريشٍ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، امكُثْ كما أمرْتَنا، فقالَ : ما ينبغي لنبيٍّ إذا أخذَ لامَةَ الحربِ أنْ يرجعَ حتّى يقاتلَ، ثمّ وعَظَهُم واستخلفَ على المدينةِ ابنَ أمِّ مكتومٍ وعقَدَ الألويَةَ، فأعطى اللّواءَ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ، وخرجَ بجيشِهِ لحربِ قريشٍ وجَمْعِها .

كان النبيُّ يستشيرُ المسلمينَ فقط تطييباً لخواطرِهم وتأليفاً لهم، ولجلْبِ محبَّتِهم وثقتِهم، وإظهاراً للعطفِ والليونَةِ معهم، وألّا يفرضَ الرأيَ عليهم فرضاً رحمَةً بهم، وحِفاظاً على وحدَتِهم واجتماعِهم، إلّا أنّه يبقى وحدَه صاحبَ القرارِ النهائيّ، ولَربَّما وافقَ رأيَهم ولَربَّما خالفَهم، فكانَ الأجدرُ بهم ألّا يعترضِوا ويقترحوا على رسولِ الله ، ويُسلّموا تسليماً لِما يقولُ لهم، فإنّنا لا نجدُ لعَليٍّ أيَّ حضورٍ في مواقعِ الاعتراض أو الاقتراحِ على رسولِ اللهِ ، لأنّه كان دائماً في موقعِ التسليمِ لرسولِ الله، والرضا بما يرضاهُ النبيُّ.

كان الموقفُ الصحيحُ البقاءَ في المدينةِ، فإنّ الخسائرَ الماديّةَ يمكنُ الصبْرُ عليها وتحمُّلُها، أمّا الخسائرُ في الأرواحِ فإنّها تكونُ أصعبَ وأنْكى، ورسولُ الله لم يكنْ ليعدِلَ عن الموقِفِ الصحيحِ هذا، ثمّ توجَّهَ رسولُ اللهِ إلى أُحُدٍ من ثَنِيَّةِ الوداعِ [١] ومعه ألفُ رجلٍ، منهم مئةُ دارعٍ ومعهم فارسانِ، وبعد أن جاوزَ النبيُّ ثنيَّةَ الوداعِ، إذا هو بكتيبةٍ خشْناءَ، فقال : مَنْ

---

١ الثّنِيَّة: هي الطريق في الجبل، وثّنِيَّة الوداع: موضع في طرف المدينة، سُمّي بذلك لأن المسافر إلى مكة كان يُشيّع إليها، ويُودّعُ منها.

هؤلاءِ؟ قالوا: عبدُ الله بنُ أُبيّ بنِ سلولٍ في مجموعةٍ من مواليهِ اليهودِ، فقالَ: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، قالَ: مُروهُمْ فليرجِعوا، فإنّنا لا ننتصرُ بأهلِ الكفرِ على أهلِ الشِرْك.

ورجعَ ابنُ أُبيٍّ ممّا بينَ المدينةِ وأُحُدٍ بمَنْ معهُ منَ المنافقينَ وأهلِ الريْبِ، وكانوا ثلاثَ مئةَ رجلٍ، وقالَ: "محمدٌ عصاني وأطاعَ الوِلْدانَ؟ سيعلمُ! ما ندري علامَ نقتلُ أنفسَنا وأولادَنا هاهُنا أيُّها الناسُ؟" فرجعوا، وتبِعَهم جابرٌ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاري يناشدُهم اللهَ في أنفسِهم وفي نبيِّهم، فقالَ ابنُ أُبيٍّ: لو نعلمُ قِتالاً لاتبَعْناكمْ، ولو أطعتَنا لرجِعْتَ معَنا (٣٠٦) .

هُنا يذكرُ اللهُ أنّ كلَّ ما جرى من التقاءِ الجيشينِ كانَ بإذنِ اللهِ، حتّى يتميّزَ المؤمنونَ عن المنافقينَ، فحينَ طُلِبَ منَ المنافقينَ المشاركةُ في القتالِ في سبيلِ اللهِ أو على الأقلِّ قيلَ لهمْ: دافِعوا عن حريمِكم، أجابوا جَدَلاً واستهزاءً: نحنُ لا نرى قتالًا ولو رأيْنا قتالًا لشارَكْنا فيهِ، وهذا ليس إلّا إلقاءً بالنفسِ في التهْلُكَةِ، بهذهِ الحربِ غيرِ المتوازنَةِ والخطَّةِ غيرِ المُحكَمةِ، وهم بمقولتِهم هذه أقربُ للكفرِ منَ الإيمانِ، إذْ بتقليلِهم أعدادِ جنودِ الجيشِ الإسلاميّ ينصرونَ بذلك الكفّارَ، وهم يدّعونَ الإيمانَ ظاهراً، لكنّهم يُخفونَ الكفرَ في قلوبِهم، واللهُ أعلمُ بما يُخفونَ.(٣٠٧)

لقد جاءتْ هذه الخيانةُ في لحظاتٍ حرِجةٍ وحسّاسةٍ، فكانَ لها أثرٌ سيئٌ على نفوسِ المسلمينَ ومعنويّاتِهم، وقد مهَّدتْ الطريقَ ومنحتْ العذرَ لِمنْ تبقَّى من المنافقينَ للفرارِ في أحرجِ اللحظاتِ وأخطرِها على الإسلامِ والمسلمينَ بصورةٍ عامة. (٣٠٨)

مع انسحابِ ابنِ أُبيٍّ وجماعتِهِ، أصبحَ الجيشُ الإسلاميُّ في حالةِ ضعفٍ، حيثُ تقلَّصَ عددُهم إلى ٧٠٠ رجلٍ فقطْ، هذا الوضعُ أثارَ القلَقَ بين المسلمينَ، فناقوسُ الحربِ على وشْكِ أنْ يُدَقَّ، والجميعُ يراقبُ بتوتُّرٍ التطوراتِ السريعةَ للأحداثِ، فبدأتْ جماعةٌ منْ بنيْ الحارثةِ من الأوسِ وبني سلَمَةَ من الخزرجِ، الموجودةِ في جناحيْ الجيشِ، بالتفكيرِ في الانسحابِ أيضاً، ودارتْ بينَهم نقاشاتٌ حادةٌ حتّى كادوا يتّخذِونَ قرارَ الانسحابِ، لكنّهم في اللحظاتِ الأخيرةِ غيّروا رأيَهم وقرّروا البقاءَ، متوكِّلينَ على اللهِ.(٣٠٩)

عندما وصلَ النبيُّ إلى موقعِ المعركةِ، قرّرَ أنْ يُعسكرَ جيشُهُ بجانبِ جبَلِ أُحدٍ، مع توجيهِ ظهورِهم نحو الجبلِ، ثمّ بدأ في تجهيزِ أصحابِه، وتنظيمِ صفوفِهم، مع توجيهِهمْ بعدَمِ القتالِ حتّى يأذنَ لهم بذلكَ، وكانَ على يسارِ المسلمينَ جبَلٌ اسمُهُ جبلُ عَينَينِ، وكانتْ فيهِ ثغرةٌ، فأقامَ النبيُّ عليها خمسينَ رجلاً من الرماةِ، قائدُهم عبدُ اللهِ بنُ جبيرٍ (انظر شكل ٣٦)، وأوصاهُم: أنْ يردّوا الخيلَ عنْهم حتّى لا يأتوهُم مِنْ خلفِهم، وقالَ لهم: احموا ظهورَنا ولا تبرحوا مكانَكم، فإنْ رأيتمونا نُقْتَلُ فلا تنصرونا، وإنْ رأيتمونا نغنَمُ فلا تشاركونا .

حينَ بدأتْ المعركةُ، أرسلَ أبو سفيانَ رسالةً إلى الأنصارِ لحثِّهِمْ على الانسحابِ منَ المعركةِ وترْكِ النبيّ وحدَه، فقالَ: خلّوا بينَنا وبينَ ابنِ عمِّنا، فننصرفُ عنكمْ، فلا حاجةَ بنا إلى قتالِكُم، لكنّهم رفضوا هذا الطلبَ وردّوا عليهِ ردّاً شديداً، فنادى أبو سفيانَ بنيْ عبدِ الدّارِ حامليْ لواءِ قريشٍ وأمرَهم بالتقدُّمِ للمبارزةِ، فطلبَ طَلْحَةُ بنُ أبي طلحةَ حاملُ لواءِ قريشٍ البرازَ، وجعلَتْ نساءُ قريشٍ يضربْنَ بالدفوفِ ويُحرّضْنَ بالأشعارِ، فبرزَ إليهِ عليٌّ : فسألَ طلحةُ: مَنْ أنتَ؟ فقالَ: عليٌّ بنُ أبي طالبٍ، فقالَ: قد علمتَ يا قَضِمُ [١] أنّه لا يجسرُ عليَّ أحدٌ غيرُكَ، فضربَهُ عليٌّ على رأسِهِ إلى موضعِ لِحيتِهِ وانصرفَ عنهُ، فقيلَ لهُ: هَلَّا أجهزتَ عليهِ؟ فقالَ: أعطَفتْني عليهِ الرحِمُ، وقد علمْتُ أنّ اللهَ سيقتلُهُ، فُسُرَّ رسولُ اللهِ بذلكَ، وكبَّرَ تكبيراً عالياً .

فاشتبَكَ الجيشانِ، واقتَتَلَ الناسُ قتالاً شديداً، وحاربَ المسلمونَ دفاعاً عن دينِهِمْ وعنْ وطَنِهم الذي فيهِ كلُّ ما لديْهِمْ، ويتوقَّفُ على حفظِهِ مستقبلُهم ووجودُهُم، لقد حاربوا فئةً شرسَةً، تريدُ الثأرَ لقتلاها في بدرٍ، وهي أكثرُ منهم عدداً، وأفضلُ عُدَّةً.

---

١ كان لا يجرؤ أحدٌ على رسول الله في مكة هيبةً لعمه أبي طالب، فأخذ مشركي قريش يُغْرون صبيانهم به، فكانوا إذا رأوا رسول الله في الطريق يرمونه بالحجارة، وحكى ذلك لعلي وكان صبياً، فقال بأبي أنت وأمي يارسول الله، إذا خرجت فأخرجني معك، فخرج رسول الله ومعه علي، فتعرض الصبيان له كعادتهم، فحمل عليهم علي، وكان يقضم في وجوههم آنافهم وآذانهم، فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم، وهم يقولون: قضمنا علي، فسُمِّيَ بالقضم.

ثمّ شدَّ أصحابُ رسولِ اللهِ على كتائبِ قريشٍ، فجعلوا يضربونَ وجوهَهمْ، حتّى انتقضَتْ صفوفُهم، ثمّ حملَ اللواءَ عثمانُ بنُ أبي طلحَةَ، أخو طلحَةَ الذي مرَّ ذكرُهُ، فقُتِلَ، ثمّ حملَهُ أبو سعيدٍ أخوهُما، ثمّ مسافِعٌ، ثمّ كِلابٌ بنُ طلحةَ بنُ أبي طلحةَ، ثمّ أخوهُ الجلّاسُ، ثمّ أرطأةُ بنُ شَرَحْبيلَ، ثمّ شُريحٌ بنُ قانطٍ، ثمّ صَوابٌ، إذْ قتلَهم عليٌّ واحدًا بعد الأخرَ، وبقيَ لواؤهُم مطروحاً على الأرضِ، وهُزِموا فتراجعَتْ قريشٌ، كما أنّ رُماةَ المسلمينَ الذينَ كانوا في الشِّعْبِ قد ردّوا حَمْلاتٍ عديدةٍ لخيلِ قريشٍ، إذْ رشقوا خيلَهُم بالنبْلِ حتى ردّوها على أعقابِها، ثمّ توجّهَ عليٌّ إلى قائدِ جيشِهِمْ خالدٍ بنِ الوليدِ المخْزوميْ، وكانَ على الميمَنةِ فناشَدَ عليّاً باللهِ وبالرحِمِ، واستقبلَهُ خالدٌ بعَورتِهِ خوفاً منهُ، فصرفَ عليٌّ نظرَهُ عنهُ وترَكَهُ عليٌّ بدافعٍ منْ كرَمِ النفسِ.

حينَ قُتِلَ أصحابُ الألويةِ، وانتكسَتْ رايةُ قريشٍ، صاروا كتائبَ متفرّقةً، وصارَ أصحابُ الثّغْرةِ يرمونَ قريشًا، واقتتَلَ الناسُ قتالاً شديداً، وأمعنَ في المشركينَ قتلاً حمزةُ، وعليٌّ، وأبو دُجانةَ منْ رجالِ المسلمينَ، وأنزلَ اللهُ نصرَهُ على المسلمينَ، وبانَتْ هزيمةُ المشركينَ، وأخذَ المسلمونَ يطارِدونَهمْ ويضعونَ سيوفَهمْ فيهمْ حيثُ ما شاءوا، ثمّ انصرفَ بعضُ المسلمينَ بجمْعِ غنائمِ عسْكَرِ قريشٍ.



شكل(٣٥): من وسط المعركة في أحد.

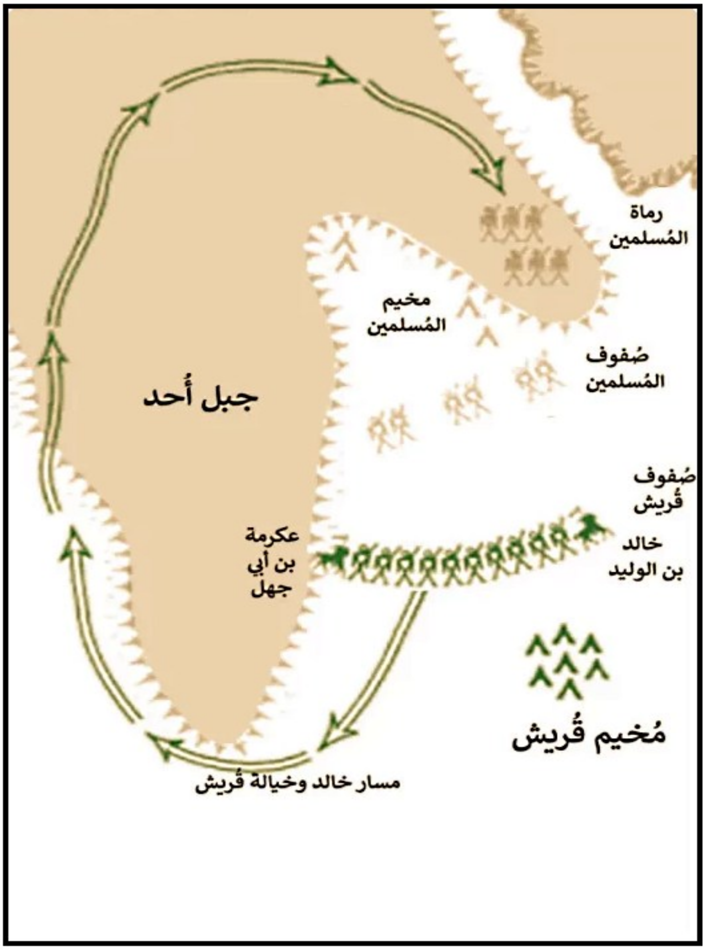
الْتِفَافُ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ خَلْفَ المُسْلِمِينَ

ورأى أصحابُ الثغْرةِ أنّ قريشاً قد انهزمَتْ، وأنّ المسلمينَ غنِمَتْ عسكرَهمْ، فمالَتْ قلوبُهمْ إلى الغنائمِ أيضاً، فاختلفوا فيما بينَهم، فبعضُهمْ تركَ الثغرَةَ ليُشاركَ في أخذِ الغنائمِ خِلافاً لوصيّةِ رسولِ اللهِ، وبقيَ قليلٌ منهمْ في الثغرةِ التزاماً بوصيّةِ الرسولِ، وكانوا عشرَةً، وقالوا: لا نخالفُ أمرَ رسولِ اللهِ، ونبقى في مواضِعِنا، لقد كانَ أمْرُ النبيِّ صريحاً للرُماةِ على جبَلِ عينينَ، ألّا يتركوا مراكزَهُم حتّى يُرسلَ إليهم أحدًا يخبِرهُم بالأمرِ بالنزولِ، حتّى لو رأوهُمْ مهزومينَ أو منتصرينَ يغَنمونَ، لكنّهم اغترّوا بأنفسِهم وبكثرتِهمْ، وتركوا أماكنَهمْ، وعَصَوا أمرَ النبيِّ، فرُفِعَتْ عِنايةُ اللهِ عَنهُم وتسديدُهُ لهمْ.

ولمّا رأى خالدٌ قِلَّةَ مَنْ على الثغْرةِ، وخلاءَ الجَبلِ، واشتغالَ المسلمينَ بالغنيْمَةِ، ورأى ظُهورَهمْ خاليةً، صاحَ بالخيّالةِ، فانطلقوا، وتبِعَهُ عِكْرمَةُ في جماعةٍ، فحَملوا على مَنْ بقيَ في الثغرةِ، فقتلوهُمْ جميعاً، ثمّ انقضّوا على المسلمينَ من خلْفِهمْ، ورأتْ قريشٌ المنهَزمَةُ عودةَ رجالِها للحربِ، وأسرعَتْ امرأةٌ منهمْ – و هي عَمرَةُ الحارثيّةُ – فرفَعَتْ لواءَ المشركينَ المطروحَ على الترابِ، فالتفَّ حولَهُ المشركونَ وتنادى بعضُهمْ بعضاً، حتّى اجتمعوا على المسلمينَ، وثَبَتوا للقتالِ وأُحيطَ بالمسلمينَ منَ الأمامِ والخلفِ، فتفرَّقَ المسلمونَ المنشغلونُ بالغنائمِ، وتمزَّقَتْ صفوفُهمْ، ولم يعودوا صفّاً واحداً كالبنْيانِ المرصوصِ، يشدُّ بعضُه بعضاً، وفقدوا الارتباطَ بقيادتِهم الحكيمةِ، فلم يتمكَّنوا منْ مقاومةِ هذه الحمْلةِ الضاريةِ، فكانَ هَمُّ كلِّ واحدٍ منهمُ النجاةَ بنفسِه، لا سيّما وأنّ أحدَ رجالِ قريشٍ قَصدَ مُصعَبَ بنَ عُميرٍ، وهو يذبُّ عنْ رسولِ اللهِ، فظنَّ أنّه الرسولُ فقتَلَهُ، وكانَ معهُ اللواءَ، وعندما سقطَ اللواءُ، أخذَهُ أخوهُ أبو الرومِ بنُ عُميْر.ٍ(٣١٠)

لقد صدقَ اللهُ المسلمينَ الوعْدَ بالنصرِ، فكانتْ لهم الغلبَةُ في بدايَةِ المعركةِ وكانوا هم المتقدّمِينَ على عدوِّهم وكانَ المشركونَ يفرّونَ من ساحةِ المعركةِ، إلى أنْ امتحنَهمُ اللهُ بالغنائمِ ليرى التزامَهم بتعليماتِ قائدِهم، بعَدَمِ ترْكِ الجبلِ مهما يَكُونُ الأمرُ وأنّ مسؤوليتَهم حمايةُ ظهورِ المسلمينَ من أيّ حركةٍ مراوغةٍ للعدوِ، لكنّهم تنازعوا فيما بينَهم بسببِ الغنائمِ

بعدَما رأوا النصرَ الساحقَ، فنزلَ القِسمُ الأكبرُ، همُّهُ نَيْلُ بعضِ الأرباحِ الدنيويّةِ، بينَما تمسَّكَ القليلُ بكلامِ النبيِّ ولم يتركْ موقعَه، لإيمانِه بأنّ ما عندَ اللهِ من الثوابِ أفضلُ.(٣١١)



شكل(٣٦): خريطة معركة أحد.

مَقْتَلُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ

نظرَ وحشيٌّ إلى حمزةَ الذي كانَ يرتدي قميصًا مُزيّنًا بريشِ النعامِ على صدرِهِ وهو يهدُّ الناسَ هَدًّاً بسيفِهِ، ما يُبقي شيئاً أمامَهُ، فاختبأَ لهُ وحشيٌّ خَلْفَ حَجَرٍ، ورصدَ حمزةَ حتّى مَرَّ عليهِ، وبعد أنْ قتلَ حمزةُ سِباعًا بنَ عرفطةَ بنِ عبدِ العُزَّى، وقبلَهُ أبا نيارَ، أتاهُ وحشيٌّ من ورائِهِ فرماهُ بحربتِهِ، فأصابَتْ أُرْبِيَّتَه [١]، فأقبلَ حمزةُ نحوَهُ، ثمّ وقعَ، فلمّا استُشْهِدَ، جاءهُ وحشيٌّ وانتزعَ منهُ حربتَهُ، وشُغِلَ المسلمونَ عن وحشيٍّ بهزيمَتِهِمْ، ثمّ رجعَ وحشيٌّ إلى معسكرِ المشركينَ ومكثَ فيهِ، وقد أنهى مهمَّتَهُ. ولم يكنْ لهُ بغيرِهِ حاجةٌ، ثمّ أخبرَ هِنْداً بذلكَ، ففرحَتْ وأعطتْهُ ثوبَها وحُليَّها كما وعدَتْهُ، وعشرةَ دنانيرَ فقطْ، عندما وصلَ قريشًا.

نادى قاتلُ مصعَبٍ: إنّ محمدًا قد قُتِلَ، فازدادَتْ قريشٌ جُرأةً، فانقضّوا على المسلمينَ، وهُزِمَ المسلمونَ الذين لم يستطيعوا جَمْعَ شمْلِهِمْ ولَمَّ شَعْثِهِمْ، وثبَتَ معَ الرسولِ عليٌّ وحدَهُ يدافعُ عن النبيِّ، وحينَ هُزِمَ المسلمونَ، جعلَ الرسولُ يدعوهُمْ في أُخْرَاهُم: إليَّ عبادَ اللهِ، إليَّ عبادَ اللهِ، إلـيَّ يا فلانُ، إليّ يا فلانُ، وهم يصعَدونَ جبلاً هَرباً ولا يَلْوُونَ، ولا يرجعُ إليهِ منهم أحدٌ، والنَبْلُ يأتـيْ إليهِ من كلِّ ناحيةٍ.(٣١٢)

ويذكرُهُمُ اللهُ: أنّكم كنتُمْ حزينينَ ومغمومِينَ لأنّكم اعتقدتُمْ، أنّكم إنْ امتثلْتُمُ لأمرِ الرسولِ فسوفَ تَفوتُ عليكمُ الغَنيمَةُ، فاعلَموا أنّكم لمّا خالفْتُمُ أمرَ الرسولِ ونزلْتُمْ منَ الجبلِ طَلباً للغنيمَةِ، وقعْتُمْ في هذه الغمومِ العظيمةِ نتيجَةَ الهزيمَةِ والقتْلِ، التي كلُّ واحدٍ منْها أعظمُ من ذلكَ الغمِّ أضعافاً مضاعَفَةً، فأثابَكُمُ اللهُ هذا الغمَّ العظيمَ بعد غَمِّكُمْ لكيْ لا تحزَنوا على فواتِ الغنيْمَةِ، ولكي يكونَ زاجراً لكم عن ذلكَ، واللهُ عالمٌ بجميعِ أعمالِكُمْ ومقاصِدِكمْ ودوافِعِكُمْ ، قادرٌ على مجازاتِها ، إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شراً فَشَرٌ، وذلكَ من أعظمِ الزواجرِ للعَبدِ عنِ الإقدامِ على المعْصِيَةِ.(٣١٣)

---

١ الأُرْبِيَّة: أصل الفَخِذ مما يلي البطن (المنطقة المغبنية).

وخَلُصَ العدوُّ إلى رسولِ الله، فكُلِمَتْ شَفتُهُ، وشُجَّ في وجههِ، ونَشِبَتْ حلقتانِ من الدرعِ في وجههِ، ورُمي بالحجارةِ حتّى وقَعَ في حفرةٍ، لكنّه لم يتزحزحْ منْ موقفِه ولم يتراجعْ قَيْدَ أُنمُلةٍ، فقالَ: اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمونَ.

استمرّتْ الهزيمةُ في المسلمينَ حتّى صعدوا الجبلَ هَرَباً، وكان فيهمْ: أبو بكرٍ، وعمرُ، وطلحةُ، وسعدٌ بنُ أبي وقّاص، وغيرُهم، فصعدوا على صخرةٍ في أعلى الجبلِ، أمّا عثمانُ فقد استمرَّ في هزيمتِه إلى ثلاثَةِ أيامٍ.

نظرَ النبيُّ إلى رجلٍ من المهاجرينَ يَفِرُّ، وقد ألقى ترسَهُ خلفَ ظهرِهِ، فناداهُ: يا صاحبَ الترسِ، القِ ترسَكَ، وفِرَّ إلى النارِ، فرمى بترسهِ، وحينَ انهزمَ الناسُ غَضِبَ رسولُ اللهِ، ونظرَ إلى من بجنْبهِ فإذا به عليٌّ: فقالَ: ما لكَ لم تلحَقْ ببني أبيكَ؟! فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أكُفْرٌ بعد إيمانٍ؟! إنّ لي بكَ أسوةً، فتبعَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ الفارّينَ، فحملَ كَفّاً من حصى ورمى بهِ في وجوهِهم، وهو يقولُ لهم: شاهَتْ الوجوهُ، وقُطَّتْ، وبُطَّتْ، ولُطَّتْ[1]، إلى أينَ تفرّونَ؟ إلى النارِ؟ ثمّ قالَ: بايعتُم ثمّ نكثتُم؟ فوالله لأنتُمْ أولى بالقتْلِ ممّنْ أقتُلُ، فقالَ لهُ عمرُ بنُ الخطابِ مرعوباً منه: يا أبا الحسنِ اللهَ اللهَ، فإنّ العربَ تَكِرُّ وتَفِرُّ، وإنّ الكَرَّةَ تنفي الفَرَّةَ.

ثمّ أخذتْ كتائبُ قريشٍ تحمِلُ على رسولِ اللهِ، وهو يقولُ: يا عليُّ، اكفِني هذه، فيحمِلُ عليهِم ويفرّقُهم، ثم تأتي الأُخرى فينادي الرسولُ: يا عليُّ، اكفني هذه، فيحملُ عليهمْ عليٌّ ويفرِّقُهم، ثمّ جاءتْ كتيبةٌ من بني كِنانةَ، وفيها بنو سُفيانَ بنِ عويفٍ الأربعةُ، فقالَ لهُ: اكفِني هذه الكتيبةَ، فيحملُ عليها، وكانَ عددُها يقربُ من خمسينَ فارساً، وهو راجلٌ، فما زالَ يضربُهم بالسيفِ حتّى تتفرَّقَ عنهُ، ثم تجتمعُ عليهِ، وهكذا مِراراً حتّى قتلَ بني سفيانَ بنِ عويفٍ الأربعةَ، ثمّ أتمَّ العشرةَ منهم ممّنْ لا تُعرَفُ أسماؤهُم، ولم يبقَ معَ رسولِ اللهِ إلّا عليٌّ بنُ أبي طالبٍ وسبعةٌ منَ الأنصارِ، وكلمّا حمَلَتْ كتيبةٌ على رسولِ اللهِ استقبلَهُم عليٌّ

---

١ قَطَّ: قَطَعَ، وبَطَّ: هنا بمعنى شَقَّ، ولَطَّ: هنا بمعنى ضَرَبَ.

بنُ أبي طالبٍ فيدفعُهم عنه ويقتلُهُم حتّى تكسّرَ سيفُهُ، فقالَ جبريلُ متعجِّباً: يا محمدُ ، إنّ هذه لهيَ المواساةُ! لقد عجِبَتْ الملائكةُ من مواساةِ هذا الفتى! فقالَ النبيُّ: وما يمنعُهُ، وهو منّي وأنا منهُ؟! فقالَ جبريلُ: وأنا منكُما، ثمّ سُمِعَ منادٍ من السماءِ يقولُ: لا فتى إلّا عليٌّ، ولا سيفَ إلّا ذو الفقارِ، فسُئِلَ عن الصوتِ، فقالَ: هذا جبريلُ.

حينَما أُشيعَ بينَ الناسِ أنّ النبيَّ قد قُتِلَ، قالَ بعضُ المسلمينَ من أصحابِ الصخرةِ في الجبلِ: ليتَ لنا رسولاً إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ، فيأخذَ لنا أماناً من أبي سفيانَ قبلَ أنْ يقتلونا، وقالَ أُناسٌ من المنافقينَ: لو كانَ نبياً ما قُتِلَ، ارجِعوا إلى دينِكم الأولِ، وقالتْ فرقةٌ من المهاجرينَ: نلقي إليهِم بأيدينا، فإنّهم قومُنا وبنو عمِّنا، فجاءَهمْ أنَسُ بنُ النضْرِ، فقالَ لهُمْ: إنْ كانَ محمدٌ قد قُتِلَ فما تصنعونَ بالحياةِ بعدَه؟! فقاتِلوا على ما قاتلَ عليه وموتوا على ما ماتَ عليه، ثمّ قالَ: اللّهُمَّ إنّي أعتذرُ إليكَ ممّا يقولُ هؤلاءِ ـ يعني المنافقينَ ـ وأبرأُ إليكَ ممّا جاءَ بهِ هؤلاءِ ـ يعني المشركينَ ـ، ثمّ قاتلَ حتى قُتِلَ، وفي هذه الأثناءِ شاهدَ كعبٌ بنُ مالكٍ النبيَّ في المعركةِ ما زالَ حَيّاً، حينَما رأى عيْنَيْهِ تُزهرانِ من تحتِ المِغْفَرِ[1] ، فصاحَ: يا معشرَ المسلمينَ، أبشِروا، فهذا رسولُ اللهِ، فأمرَهُ النبيُّ بالسكوتِ، لشدَّةِ الموقفِ وخطورتِهِ.

كانَ أبو دُجَانةَ أوّلَ عائدٍ مع عاصمٍ بنِ ثابتٍ، وقد تَترَّسَ لرسولِ اللهِ، وصارَ يقيهِ بنفسهِ منْ وقْعِ السهامِ، وهو منحَنٍ عليه لا يتحَرّكُ حتّى كَثُرَ في ظهرِهِ النبْلُ، ولهذا استحقَّ أنْ يعطيَهُ رسولُ اللهِ سيفاً تكريماً لهُ، ويمنَعَهُ عن غيرِهِ ممّنْ فَرَّ إهانةً لهم، كما حامى سلمانُ الفارسيُّ أيضاً بجسدِهِ عن رسولِ اللهِ من سهامِ الكُفّارِ، وكانَ يقولُ: نفسي فداءٌ لرسولِ اللهِ، ولمّا رأتْ أمُّ عمارةَ نسيبَةُ بنتُ كعبٍ قِلَّةَ مَنْ كانَ معَ الرسولِ قامتْ تَذبُّ عنه بنفسِها معَ هؤلاءِ القلّةِ، وكانتْ تقي النبيَّ بيديْها، فقاتلَتْ وجُرِحتْ حينَما اعترضَها أحدُ رجالِ قريشٍ، وأرادَ ولدُها عمارةُ الفِرارَ فردَّتْه، وأخذَتْ سيفَه فقتلتْ بهِ رجلاً، فقالَ النبيُّ: باركَ اللهُ عليكِ

---

١ مِغْفَرُ: زَرَدٌ من المعدن يُنسجُ من الدُّرُع على قدر الرأس، يُلبَسُ تحت البيضة أو القَلَنسُوة، ويُقال له: خُوذَة، والزَّرَدُ: حِلَقُ المغفر والدرع.

يا نسيبَةُ، لَمَقامُ نسيبةَ أفضلُ من مقامِ أبي بكرٍ وعُمَرَ، وأخذَ رسولُ اللهِ يُنادي: هلْ مِنْ رجلٍ يشرِي نفسَهُ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ؟ فقامَ زيادٌ بنُ السكَنِ في خمسةٍ من الأنصارِ، ثم جاءتْ فِئةٌ ففرَّقُوا القومَ عن رسولِ اللهِ، فقاتلوا حتّى قُتِلوا جميعُهُم، ثمّ صارَ المسلمونَ يفيئونَ إلى رسولِ اللهِ زُرافاتٍ [1] ووِحداناً [2]، وجعلَ يحضُّهُمْ على القتالِ، فقاتلوا على قلَّتِهم خيرَ قتالٍ، ولكنّ أكثرَ الذين كانوا على الجبَلِ فوقَ الصخرةِ لم يعودوا إلى القتالِ، ولم يتركوا مكانَهمْ.

بعد عودةِ جماعةٍ من المسلمينَ إلى ساحةِ المعركةِ، قامَ النبيُّ محمدٌ بإرجاعِهم إلى مراكزِهم الأُولى، حتّى يكونَ الجبلُ من خلفِهم، فتكونُ الحربُ إلى جِهةٍ واحدةٍ تماماً كما كانَتْ عليهِ الخُطَّةُ الأُولى، وكانتْ الجِراحُ قد أرهقَتْ عليّاً حتّى بلغَتْ نَيِّفاً وستينَ جراحةً بينَ طعنَةٍ ورميةٍ وضربةٍ، أرعبَتْ قريشًا عودةُ المسلمينَ إلى مراكزِهم الأولى، وتجميعُ صفوفِهم وارتفاعُ معنويّاتِهم من جديدٍ، وخافَ المشركونَ أنْ يرجعَ المسلمونَ ويفعلوا بهم كما فعلوا بهم في أوّلِ الحربِ، ففضّلوا الانسحابَ بِسلام.

لمّا افترقَتْ الفئتانِ، انتهى النبيُّ إلى الشِعْبِ [3] ولم يصعدِ الجبلَ، وتوقَّفَ القتالُ وسيطرَ القلَقُ والتوترُ على الطرفينِ، وكانوا يُراقِبُ بعضُهم بعضاً بحذَرٍ، خرجَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ في هذه الأثناءِ ليملأَ درقَتَهُ من ماءٍ بين الصخورِ في جبلِ أُحُدٍ وجاءَ بهِ رسولَ اللهِ فغسلَ الدمَ عن وجهِهِ، ثمّ أعلنَ أبو سفيانَ انتهاءَ الحربِ، وأشرفَ على الجبلِ ونادى بأعلى صوتِهِ: أُعْلُ هُبَلَ! فعَّلَمَ النبيُّ عليّاً ما عليهِ أنْ يقولَ، فأجابَهُ: اللهُ أعلى وأجلُّ، فقالَ أبو سفيانَ: إنّ الحربَ سِجالٌ [4]، فقالَ عليٌّ : لا سَواءَ، قتلانا في الجَنَّةِ، وقتلاكُم في النارِ، ثمّ سألَ أبو سفيانَ: إنْ كانَ النبيُّ قد قُتِلَ، فأمرَهم النبيُّ ألّا يُجيبوهُ، فقالَ عمرُ: اللهمَّ لا، وإنّهُ

---

١ الزَّرافة: الجماعة من الناس، والجُمع: زَرَفات.

٢ وُحْدَان: جمع وَاحِد، يُقال: جاؤا وُحداناً: أي فَرْدَا فرداً.

٣ الشِّعب: الفُرْجة بين الجبلين.

٤ السِّجال: جمع سَجْل، وهي الدّلو إذا كان فيها ماء، يُقال: الحربُ سِجَال، إذا كان فيها تعادل بين الطرفين، لا غالب فيها ولا مغلوب، فهي يومٌ لهذا، ويومٌ لذاك.

ليسمعُ كلامَكَ الآنَ، فقالَ أبو سفيانَ: أنتَ أصدقُ عندي منْ ابنِ قميئةٍ [1] وأَبَرُّ، ولمّا أرادَ أبو سفيانَ أنْ ينصرفَ فنادى: يا محمدُ ، الموعِدُ بينَنا وبينَكُم موسِمُ بدرٍ الصُّغْرى المقبِلُ، أيْ وقتَ إقامةِ السوقِ التّجاريةِ في شهرِ ذي القعدةِ الحرامِ في منطقةِ بدرٍ، ولكنْ لماذا أخبرَ عمرُ أبا سفيانَ وقريشًا بوجودِ النبيِّ في ظَرْفٍ حَرِجٍ وحسّاسٍ كهذا، مع أنّهُ قد نهى عن ذلك؟!

لقد كانَتْ نساءُ قريشٍ تقومُ بالتمثيلِ بأجسادِ شهداءِ المسلمينَ أثناءَ المعركةِ، فكُنَّ يقَطِّعْنَ أعضاءَ الشهداءِ كالأنوفِ والآذانِ والأعضاءِ، ثم يصنعْنَ منها أساورَ وقلائدَ، وكانَتْ هِنْدُ زوجةُ أبي سفيانَ في مقدّمتِهُنَّ، فَمَثَّلَتْ بجسدِ حمزةَ ، إذْ بقَرَتْ بطنَهُ، ثمّ حاولَتْ أكْلَ كَبدِهِ لكنّها لم تستطعْ أنْ تستَسيغَهُ.

بَعْدَ انْتِهَاءِ المَعْرَكَةِ

أرسلَ رسولُ اللهِ عليّاً على إثْرِ جيشِ قريشٍ لينظرَ، إنْ كانوا قد ركِبوا الإبلَ وتجنَّبوا الخيلَ فهم يريدونَ مكّةَ، وإنْ كانَ العكسُ فهم يريدونَ المدينةَ، فذهبَ عليٌّ وعادَ، فأخبَرَهُ بأنّهم امتطوا الإبلَ، وبعد انتهاءِ المعركةِ كانَتْ فاطمةُ تقومُ بتغسيلِ جراحاتِ النبيِّ وتضميدِها، فحينَ رأتْ أنّ الماءَ لا يزيدُ الدمَ إلّا كثرةً، أخذَتْ قِطعةً من حصيرٍ، فأحرقَتْها و ألصقَتْها بالجرحِ فتوقَّفَ النزفُ، والنبيُّ يقولُ: اشتَدَّ غضبُ اللهِ على مَنْ أدمى وجْهَ نَبِيِّه .

ثمّ أرسلَ رسولُ اللهِ عليّاً إلى المدينةِ ليبَشِّرَ أهلَها بأنّ النبيَّ حيٌّ سالمٌ، ثمّ ذهبَ رسولُ اللهِ إلى ساحةِ المعركةِ فوقفَ على جسدِ حمزةَ وبكى بكاءً شديداً وشَهَقَ، وقالَ: رحمةُ اللهِ عليكَ، لقد كنتَ فَعُولاً للخيرِ، وَصُولاً للرحِمِ، ثمّ كفّنَهُ وحنّطَهُ، ثمّ صاروا يأتونَ بالقتْلى، ويضعونَهم إلى جانبِه فيصلّي عليهِ وعليهم حتّى صلَّى عليهمُ اثنتَينِ وسبعينَ صلاةً، وخَصَّ حمزةَ بسبعينَ تكبيرةً، ثمّ دُفِنُوا حيثُ استُشْهِدوا، وكانَ عددُ الشهداءِ أربعةً وستينَ منَ الأنصارِ

---

١ ابن قميئة: هو من أشاع أن النبي قد قُتِل.

وسِتّةً منَ المهاجرينَ، وجُرِحَ سبعونَ، وهذا ما وعدَهم بهِ النبيُّ في بدرٍ سابقاً، أمّا قريشٌ فقد قُتِلَ منهم ما يقربُ منْ ثلاثينَ رجلاً.(٣١٤)

واستُشهِدَ كذلكَ يومَ أُحُدٍ الحَبْرُ اليهودي مُخَيْرِيقٌ الذي نادى قبلَ المعركةِ: يا معشرَ اليهودِ، واللهِ لقد علمْتُم أنّ نصرَ محمّدٍ عليكم لَحَقٌّ، فقالوا لهُ: إنّ اليومَ يومُ السّبتِ، قالَ: لا سَبْتَ، فأخذَ سيفَهُ وعُدَّتَه وقالَ: إن أُصِبْتُ فمَالي لمحمّدٍ، يصنَعُ فيهِ ما شاءَ؛ ثمّ توجَهَ إلى رسولِ اللهِ، فقاتلَ معهُ حتّى قُتِلَ، فقالَ النبيُّ: مُخَيْرِيقٌ خيرُ اليهودِ، وكانَ يملكُ سبعةَ بساتينَ صارتْ مُلْكًا للنبيِّ.(٣١٥)

لمّا انتهى رسولُ اللهِ من دفنِ الشهداءِ قالَ لأصحابِه: „ استووا حتّى أُثنيْ على ربِّي عزَّ وجلَّ "، فصاروا خلْفَهُ صُفوفاً فقالَ: اللهمَّ لك الحمدُ كلُّهُ، اللهمَّ لا قابضَ لما بسطتَ، ولا باسطَ لما قبضتَ، ولا هاديَ لمَنْ أضللْتَ، ولا مُضِلًّا لمَنْ هديْتَ، ولا معطيَ لما منعْتَ ولا مانعَ لما أعطيتَ... "(٣١٦) بعدَها عادَ النبيُّ والمسلمونَ إلى المدينةِ، واستقبلَتْه أمُّ سعدٍ بنِ مُعاذٍ تعدو، فجاءتْ حتّى نظرَتْ في وجهِ رسولِ الله، فابتهجَتْ وقالتْ: بأبي أنتَ وأُمّي يا رسولَ الله، هانَتْ علـيَّ كلُّ مصيبَةٍ إن سَلِمْتَ، فعزّاها رسولُ الله بولَدِها عمرو بنِ معاذٍ، وكانتْ امرأةٌ أخرى من الأنصارِ قد قُتِلَ زوجُها وأخوها وأبوها مع الرسولِ في أُحِدٍ، فلمّا نعوهمْ إليها قالتْ: ما فعلَ رسولُ اللهِ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلانَ، هو بحمدِ اللهِ كما تحُبِّينَ، قالتْ: أرونِيهِ حتّى أنظرَ إليهِ، فأُشيرَ لها إليهِ، فلمّا رأتْهُ، قالتْ: بأبيْ أنتَ وأميْ يا رسولَ اللهِ، لا أُبالي إذا سلِمْتَ من عَطَبٍ، ومرَّ رسولُ اللهِ بدُوْرٍ من الأنصارِ فسمعَ النوائحَ تبكي قتْلاهُنَّ، فذَرَفَتْ عيناهُ، ثمّ قالَ: لكنَّ حمزةَ لا بواكيَ لهُ، فأمرَ سعدًا بنَ معاذٍ أن يُبْلِغَ النساءَ أنْ يبكينَ حمزةَ أوّلاً، ثم يبكينَ قتلاهُنَّ، ثمّ قالَ: إنْ فعلْتُنَّ فلا تلطِمْنَ، ولا تخمِشْنَ، ولا تحلِقْنَ شَعراً، ولا تشقُقْنَ جَيْباً .

إنّ هؤلاءِ النسوةِ قد بلغنَ منَ المعرفةِ والوعي حدّاً، حتّى صِرنَ معهُ يعتَبِرنَ وجودَ النبيِّ كلَّ شيءٍ بالنسبةِ إليهنَّ، وكلُّ مصيبةٍ بعد النبيِّ هيِّنَةٌ، فالرسولُ هو مصدرُ الطمأنينةِ،

وعنوانُ الحياةِ لهُنَّ، وبدونهِ لا طعمَ للحياةِ، فهنَّ يواسونَهُ بأموالِهنَّ وأنفسِهنَّ وحتّى في عواطِفِهنَّ الصادقةِ ومشاعرِهِنَّ النبيلةِ. (٣١٧)

عند عودةِ الجيشِ الإسلامي من معركةِ أُحُدٍ، كانتْ المشاعرُ المختلفةُ متأجِّجةً، فجماعةٌ ينعونَ قتْلاهمْ، وجماعةٌ من المنافقينَ يشمتونَ بالمسلمينَ فيما بينَهم، وجماعةٌ من الذينَ انهزموا يشعرونَ بالخِزيِ وجماعَةٌ منهَكةٌ منَ المعركةِ وجروحُها ما تزالُ لم تلتئِمْ، كانَ رسولُ اللهِ يراقِبُ التوتّرَ الحاصلَ في صفوفِ المسلمينَ بعد المعركةِ وكانَ يريدُ أنْ يوّحِدَ القلوبَ، حتّى لا يشعرَ المسلمونَ المنهزمونَ بعد خذْلانهِم لنبِيِّهم في المعركةِ، بأنّهم أصبحوا منبوذينَ ومُبعدينَ وأنّهم سوف يُعيَّرونَ بالجُبنِ والخيانةِ والهزيمةِ وسوف يفقدونَ مكانتَهم السابقَةَ بين المسلمينَ وعند رسولِ اللهِ، ممّا قد يولّدُ لديْهِم شعورًا بالفشلِ والحزنِ والرغبةِ بالابتعادِ عن المجتمعِ الإسلامي، وهذا ما كانَ لا يريدُهُ رسولُ اللهِ، فلم يخاطِبْهُم بالتغليظِ والتشديدِ وإنّما بكلامٍ لَيِّنٍ وعاملَهم برفقٍ ويُسرٍ، فحينَ دخلَتْ امرأةُ عثمانَ بنِ عفانَ على رسولِ اللهِ وهو وعليٌّ بنُ أبي طالبٍ كانا يغسلانِ السلاحَ، قالَتْ: ما فعلَ ابنُ عفانَ؟ أما واللهِ لا تجدونَهُ أمامَ القومِ، فقالَ عليٌّ: ألا إنّ عثمانَ فَضَحَ الزمانُ، وكانَ عثمانُ منَ المنهزمينَ في معركةِ أُحُدٍ، حيثُ فرَّ بعيداً عن أرضِ المعركةِ وعادَ بعد انتهاءِ المعركةِ بثلاثةِ أيامٍ، فقالَ رسولُ اللهِ: مَهْ[١] ، ثمّ لمّا دخلَ عليهِ عثمانُ مع صاحبَيْهِ [٢] ما زادَ على أنْ قالَ النبيُّ لهُ: لقد ذهبتُم فيها عريضةً [٣]! بالرغْمِ من أنّ كلامَ عليٍّ لم يُجانِبِ الحقَّ، فإنّ فضيحةَ هروبِ عثمانَ ستظلُّ مدى الزمانِ تُذكَرُ، إلّا أنّ رسولَ اللهِ كانَ قد عفى عنهمْ، خاصةً أنّهم جاؤوا إليهِ مُظهِرينَ الندامةَ وطالبينَ منهُ العفْوَ .

إنّ الكاتبَ وإنْ حاولَ أنْ يلتزمَ الموضوعيَّةَ في كتابتِهِ من أجلِ أنْ يكونَ نِتاجُهُ بحْثاً تاريخيّاً حياديّاً، إلاّ أنّ بعضَ المواقفِ تجبرُ الكاتبَ الحصيفَ والمُنصفَ على إبداءِ رأيهِ وإظهارِ

---

١ مه: فعل أمر بمعنى أكفُف.

٢ صاحباه أي سعد وعقبة بن عثمان بن خلدة، وهما من الأنصار.

٣ ذهبتم فيها عريضة: أي هربتم في الأرض الواسعة لمدة طويلة.

تعجُّبهِ منْها، ومن تلكَ المواقفِ الرائعةِ هو موقفُ محمدٍ بعد معركةِ أُحدٍ، إذْ إنّ أقلَّ ما يمكنُ أنْ أقولَ عنهُ أنّه رَغْمَ الجِراحاتِ التي أصابتْه بسببِ خذلانِهمْ لهُ، التي كادَتْ تُودي إلى مقتَلِه، تراهُ كالأبِ للمسلمينَ يعفو عنْهم ويتلطَّفُ بهِم ويغمرُهُم بعطفِه، حِرصاً عليهم وتطييبًا لخواطرِهمْ، وأفضلُ ثناءٍ لهُ جاءَ من اللهِ حيثُ قالَ: فبأيِّ رحمةٍ عظيمةٍ مَنَّ اللهُ عليك، ليكونَ لك هذا الخُلُقُ الحسَنُ! إذْ كنْتَ ليِّنًا معهُمْ وعاملتَهمْ برِقَّةٍ ولو كنْتَ فَظّاً، قاسياً، غليظَ القلبِ، لتفرّقوا عنكَ، فاعفُ عنْهم كما عفا اللهُ عنْهم واستغفرْ لهم إتماماً للشفقةِ عليهم وإكمالاً للبرِّ بهِم، واستطلِعْ آراءَهُمْ في الأمورِ المهمَّةِ عندكَ ثمّ إذا عزَمْتَ واتخذتَ الرأيَ، فتوكَّلْ على اللهِ وفوِّضْ الأمورَ لهُ، إنّ اللهَ يحبُّ المتوكِّلينَ عليهِ، ونتيجةُ هذا التوكُّلِ هو التوفيقُ والنصرُ منَ اللهِ، فقدرةُ اللهِ فوقَ كلِّ القدراتِ، فإذا أرادَ بعَبْدٍ خيراً وأرادَ نصرَهُ وتأييدَهُ والدفاعَ عنهُ، لم يكنْ في مقدورِ أيّةِ قوةٍ في الأرضِ، مهما عظُمَتْ، أنْ تتغلّبَ عليهِ، وإذا خذلَكمُ اللهُ، فمَنْ يستطيعُ نصرَكم غيرُهُ؟ لذلكَ على المؤمنينَ التوكُّلُ على اللهِ. (٣١٨)

لكنْ ليس الجميعُ في المدينةِ حزِنَ وبكى على شهداءِ أُحدٍ، لأنّ اليهودَ والمنافقينَ عندما شاهدوا ما حصلَ للنبيِّ والمسلمينَ في المعركةِ سَرَّهمْ ذلكَ، وأظهروا الشماتَةَ، فقالوا: ما محمدٌ إلّا طالبُ مُلْكٍ، وما أُصيبَ بمثلِ هذا نبيٌّ قطٌّ، أُصيبَ في بدنِه، وأُصيبَ في أصحابِه، وقالَ آخرونَ: لو كانَ مَنْ قُتِلَ عندنا، ما قُتِلَ، فيجيبُهمُ اللهُ: قُلْ لهم يا محمدُ ، إنّكم بعد تقاعُسِكم عن نصرِ إخوانِكم المؤمنينَ تريدونَ الادّعاءَ بأنّكم مطَّلِعونَ على عالَمِ الغَيبِ وإنّكم عارفونَ بالمستقبلِ وحوادثِه، فإذا كنتُم صادقينَ فادفعوا عن أنفُسِكم الموتَ أو اختاروا لأنفسِكمْ ميتَةً بشرَفٍ، إنْ استطعْتُمْ.(٣١٩) وجعلوا يخذِّلونَ أصحابَه عنْهُ، ويأمرونَهم بالتفرُّقِ عنه، فاستأذنَه عمرُ بنُ الخطابِ في قتلِ هؤلاءِ القائلينَ من المنافقينَ واليهودِ، فقالَ لهُ النبيُّ: أليسَ يُظهرونَ شهادةَ: أنْ لا إلهَ إلّا الله، وأنُي رسولُ اللهِ؟ قالَ عمرُ: بلى، ولكنْ تعوّذوا منَ السيفِ، وقد بانَ أمرُهم، وأبدى اللهُ أضغانَهم، فقالَ: نُهِيتُ عن قتلِ مَنْ أظهرَ ذلكَ، وأمّا اليهودُ فلهُمْ ذِمَّةٌ فلا أقتُلُهُم (٣٢٠) .

إضافةً إلى فاجعةِ الخسارةِ في المعركةِ، كانتْ شماتةُ المنافقينَ تعمِّقُ جُروحَ المسلمينَ وتزيدُ آلامَهم، فقالَ لهم اللهُ تخفيفاً عنهم بعدما حصلَ لهم في المعركةِ: إنّ عزيمتَكم لا ينبغيْ أنْ

تكونَ أقلَّ من عزيمةِ الأعداءِ، فهم رغمَ ما لحِقَهم من خسائرَ فادحةٍ في الأرواحِ والأموالِ- في بدرٍ- حيثُ قُتِلَ منهم سبعونَ، وجُرِحَ وأُسرَ كثيرٌ، فإنّهم لم يقعدوا عن مقاتلتِكمْ، ولم يصرِفْهُم ذلكَ عن الخروجِ إلى محاربَتِكُمْ، بلْ تلافوا في هذه المعركةِ ما فاتَهمْ، وتداركوا هزيمَتَهمْ، فإذا أُصِبْتُمْ في هذه المعركةِ بهزيمةٍ شديدةٍ فإنّ عليكُمْ أنْ لا تقعُدوا حتّى تتلافوا ما فاتَكُم، فلماذا الوهْنُ ولماذا الحُزنُ إذًا؟

ويقولُ لهم أيضاً: إنّ في حياةِ البشرِ حوادثَ حلوةً ومُرّةً ولكنّها غيرُ باقيَةٍ مطلَقاً، فالانتصاراتُ والهزائمُ، والقوّةُ والضعفُ كلُّ ذلكَ يتغيّرُ، وكلُّ ذلكَ يزولُ، فلا ثَباتَ لشيءٍ مِنْها، فيجبُ ألّا يتصَوّرَ أحدٌ أنّ الهزيمةَ في معركةٍ واحدةٍ وما يتبعُها من الآثارِ أُمورًا دائمةً، بلْ لا بدّ من تقييمِ أسبابِ الهزيمةِ وعوامِلِها وتلافِيَها، وتحويلِ الهزيمةِ إلى انتصارٍ، فالحياةُ صعودٌ ونزولٌ، وأحداثُها في تحَوّلٍ مستَمِرٍّ، وتبدُّلٍ دائمٍ ولا ثباتَ لشيءٍ من أوضاعِها وأحوالِها، وإنّ هذه التحولاتِ هي لأجلِ أنْ يتميّزَ المؤمنونَ حقّاً عنْ أدعياءِ الإيمانِ، فإذا لم تحدُثْ الحوادثُ المؤلمةُ في حياةِ الأُمَمِ لم تتمَيّزْ الصفوفُ ولم يتّبيّنْ الخبيثُ منَ الطيّبِ، كما يجبُ أنْ تعلَموا أنّ هذا الدينَ لم يصلْ إليكُمْ بالهيِّنِ فعليْكُمْ تقديمُ بعضِ الشهداءِ في المعركةِ، ثمّ يؤكدُ اللهُ أنّه لا يحبُّ الظالمينَ ولنْ ينصرَهمْ على المؤمنينَ أبدًا. (٣٢١)

لقد أحدثَتْ واقعةُ أُحُدٍ في نفوسِ المسلمينَ صدمَةً كبيرةً، وعَزَّ عليهمْ أنْ يُصابوا بهذه النكْسَةِ، فلم يتركْهمُ اللهُ نُهْبَ الوساوسِ بلْ خفَّفَ عنْهم بالعَفوِ عمّا كانَ، ثمّ أخبرَهم أنّ ما حدَثَ كانَ بعلْمِ اللهِ، وهو الذي قّدرَ ذلكَ ليتّخِذَ منْهُمْ شهداءَ، ويعطيَهمْ دروساً نافعةً لمستقبلهمْ، وليميزَ المؤمنينَ منَ المنافقينَ. (٣٢٢)

كانَ معاويَةُ بنُ المُغيرةِ بنِ أبي العاصِ ابنَ عمِّ عثمانَ بنَ عفّانَ، وهو ممّنْ انهزمَ في معركةِ أُحُدٍ من قريشٍ، جاءَ ودخَلَ المدينةَ، فأتَى منزلَ عثمانَ بنِ عفانَ، فقالَ لهُ عثمانُ متعجِّباً لقدومِهِ: أهلكْتَني وأهلكْتَ نفْسَكَ! ثمّ خبَّأهُ في بيتِهِ، وذهبَ إلى النبيِّ ليأخذَ لهُ أماناً، وكانَ النبيُّ قد علمَ بأمرِهِ عن طريقِ الوحيِ، فأرسلَ عليّاً ليأتيَ بهِ منْ دارِ عثمانَ، وحينَ وصلَ عليٌّ إلى دارِ عثمانَ، أشارَتْ أمُّ كلثومٍ زوجةُ عثمانَ إلى الموضعِ الذي خبّأَهُ عثمانُ فيهِ،

فاستخرجَهُ من صخْرةٍ عريضةٍ كانَ مختبئًا خلفَها، وانطلقَ بهِ إلى رسولِ اللهِ، فشفعَ فيهِ عثمانُ، فقبِلَ النبيُّ منهُ، وأجلَّهُ ثلاثاً، وأقسمَ إنْ وجدَهُ بعدها في أرضِ المدينةِ وما حولَها ليقتلنّهُ، فجهَّزَهُ عثمانُ، واشترى لهُ بعيراً، ولكنّ معاويةَ هذا لم يأتِ إلى المدينةِ بنيّةٍ سليمةٍ، بلْ كانَ موكَّلًا بالتجسُّسِ على النبيِّ وعلى المسلمينَ في المدينةِ، وإيصالِ الأخبارِ إلى قريشٍ، فأقامَ ثلاثةَ أيامٍ يجمعُ الأخبارَ، لكنّ النبيَّ عَرفَ بخُطَّتِهِ.(٣٢٣)

غزوةُ حمراءِ الأسد

في اليومِ الثاني من غزوةِ أُحدٍ وصلتْ قريشٌ إلى الروحاءِ، وهي منطقةٌ تبعدُ عنِ المدينةِ ستةً وخمسينَ كيلومتراً، وهناك تلاوموا فيما بينَهم، وفكَّروا أنْ يرجِعوا ويستأصلوا محمدًا وأصحابَهُ، وقالوا: لا محمدَ قتلْتَمْ، ولا الكواعِبَ [١] أردفْتُمْ [٢] ، قتلْتُموهمْ حتّى إذا لم يبقَ منهمْ إلاّ الشريدُ، تركتمُوهمْ، ارجعوا فاستأصِلوهمْ قبلَ أنْ يجِدوا شوكةً، فقالَ صفوانُ بنُ أميّةَ: لا تفعلوا، إنّ محمدًا وأصحابَهُ الآنَ في حَنَقٍ شديدٍ ممّا أصابَهم، فواللهِ ما أمِنْتُ إنْ رجِعْتُمْ أنْ يجتمعَ جميعُ مَنْ كانَ قد تخلّفَ عنْ أُحدٍ منَ الأوسِ والخزرجِ، ويطأوكُمْ ويغلبوا عليكمْ، أمّا الآنَ فلكمْ الغلبَةُ، فبلغَ ذلكَ النبيَّ، فأرادَ أنْ يُريَهمْ منْ نفسهِ وأصحابِهِ قوّةً، وأنْ يُرعبَهم، ولكنْ منْ أينَ بلغَهُ ذلكَ، ومتّى وصلَ إليهِ الخبرُ في ليلةٍ واحدةٍ على بُعدِ أكثرَ منْ خمسينَ كيلومتراً، إلّا أنْ يكونَ ذلكَ عنْ طريقِ الوحيْ!

خرجَ رسولُ اللهِ بأمرٍ منَ الوحيِ إلى حمراءِ الأسدِ، وهو موضعٌ يقعُ على بُعدِ ما يقاربُ الثلاثَةَ عشَرَ كيلومتراً منَ المدينةِ، إذْ إنّ جبريلَ نزلَ على النبيِّ، وقالَ لهُ: يا محمدُ ، إنّ اللهَ يأمُرُكَ أنْ تخرجَ في إثْرِ القومِ، ولا يخرجُ معكَ إلّا منْ بهِ جِراحَةٌ، فأمرَ رسولُ اللهِ منادِيهُ أنْ ينادي بذلكَ، ونَدبَ أصحابَهُ قائلاً: أَلَا عُصابَةٌ تُشَدُّ لأمرِ اللهِ، تطلبُ عدوَّها؟ فإنّها أنْكأُ للعدوِّ، وأبعدُ للسمعِ، فاشتدَّ ذلكَ على المسلمينَ، فأنزلَ اللهُ: لا ينبغيْ لكمْ أنْ تهِنوا في

---

١ الكواعب: جمع كاعِب، وهي الفتاة التي نَهِدَ ثدياها، أي اليافعة.

٢ أَرْدَفَه: أركبه خلفه، وهنا كناية عن أسر النساء وسَبْيِهُن.

عزمِكمْ ولا أنْ تحزنوا لِما فاتَكمْ منَ الظفَرِ على أعدائكمْ والانتصارِ عليهمْ، إنْ كانَ فيكمُ الإيمانُ فإنّ الإيمانَ أمرٌ يستصحِبُ عُلاكُمُ البتَّةْ، إذْ هو يُلازمُ التقوى والصبرَ وفيهما مَلاكُ الفتحِ والظفَرِ،(٣٢٤)، فخرجَ النبيُّ بالمجروحينَ منْ أصحابِه، وكانوا سبعينَ راكباً، وكانَ حاملُ لوائهِ عليًّا، واستخلفَ على المدينةِ ابنَ أمِّ مكتومٍ، وفي الطريقِ أخبرَهمْ: أنّ معاويةَ بنَ المُغيرَةَ بنَ أبي العاصِ باتَ قريباً، فأرسلَ عليًّا وعماراً يطلبانَهُ، فوجداهُ وقتلاهُ، ولمّا عرفَ عثمانُ بنُ عفّانَ بموتِ ابنِ عمِّهِ معاويةَ، انتقمَ منْ زوجتِهِ أمِّ كُلْثومٍ لإشارتِها إلى ابنِ


شكل(٣٧): المسلمون يوقدون شعل النار بأمر النبي.

عمِّهِ سابقاً وكَشْفِ أمرِهِ، فضربَها حتّى ماتَتْ منْ أثَرِ الضربِ.

ولمّا وصلَ المسلمونَ إلى حمراءِ الأسدِ دفنوا اثنينِ من بني أسلمَ، كانتْ قريشٌ قد قتلَتْهما في طريقِها، كما قبضَ النبيُّ في طريقهِ على أبي عزّةَ الجُمَحيّ الذي كانَ قد أُسِرَ في بدرٍ، ثمّ مَنّ عليهِ النبيُّ بإطلاقِ سراحهِ من أجلِ بناتِهِ الخمسِ، وأخذَ عليه العهدَ ألّا يعودَ إلى حربِ المسلمينَ، وألّا يظاهِرَ عليه أحداً، ولكنّهُ نقضَ العهدَ، وألّبَ القبائلَ، وشاركَ في معركةِ أُحُدٍ، وقد قبضَ عليه الرسولُ عندما غادرَتْ قريشٌ حمراءَ الأسدِ، وتركوهُ نائماً، فأدركَهُ المسلمونَ هناك، وأخذوهُ إلى النبيِّ، فطلبَ منَ النبيِّ أنْ يُقيلَهُ، فرفضَ النبيُّ ذلك، لكي لا يسمحَ لهُ أنْ يذهبَ لمكّةَ ويقولَ: لقد سخِرتُ من محمدٍ مرَّتينِ، لذا أمرَ عليّاً أنْ يضربَ عنقَهُ، ففعلَ، أرادَ النبيُّ أنْ يُري قريشاً وجيشَها من نفسهِ وأصحابِه قوةً، وأنْ يُرعبَهم، فأمرَ المسلمينَ أنْ يُوقدوا النارَ، فعسكروا هناكَ وأوقدوا نيرانَهم، فكانتْ خمسَ مئةِ شُعلةٍ، فمرَّ بهم رجلٌ فرأى تجهُّزَهُم وعسكرَهمْ، فأبلغَ أبا سفيانَ وأصحابَه بما رأى،

وأخبرَهم أنّ محمدًا يطلبُهم في جَمْعٍ لم يُرَ مثلُهُ، وأنّ عليًّا بنَ أبي طالبٍ قد أقبلَ على مقدّمتِهِ في الناسِ، وقد اجتمعَ معهُ مَنْ كانَ تخلَّفَ عنهُ، وقد ندِموا على ما صنعوا، وأنّهم يتحرَّقونَ عليهم، وأنّ نواصيَ الخيلِ قد تدركُهم قبلَ أنْ يرتحِلوا، فدبَّ الرعبُ في قلوبِ قريشٍ، فكلّفَ أبو سفيانَ شخْصاً يُدعى نعيمٌ بنُ مسعودٍ، وكانَ قاصِداً المدينةَ أنْ يأتيَ معسكَرَ المسلمينَ ويخوّفَهُمْ، ويقولَ لهمْ إنّ قريشاً قادمةٌ إليهمْ بجيشٍ كبيرٍ للقضاءِ عليهِمْ واجتِثاثِ أُصولِهِمْ، ووعدَهُ أنْ يعطيَهُ ما يُرضيهِ منَ التمرِ والزبيبِ، فما كانَ منَ النبيّ وبعضِ المسلمينَ عندما سمِعوا ذلكَ إلّا أنْ ازدادوا إيماناً وصبراً وتوكُّلاً على اللهِ. (٣٢٥)

اختصَّ اللهُ جماعةً معَيّنَةً بالأجرِ العظيمِ منَ الذين جاءوا معَ النبيّ لِما أبدوهُ منَ الاخلاصِ الكاملِ، إذْ حينَ أرادَ الناسُ تخويفَهمْ بجيشِ قريشٍ، ثبتُوا ولم يخشوا بلْ زادَهمْ هذا إيماناً وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ، فيقولُ لهمُ اللهُ: إنّما ذلكَ هو الشيطانُ والمتمثِّلُ بنعيمٍ بنِ مسعودٍ يخَوّفُ أتباعَهُ خاصةً، وأمّا المؤمنونَ الثّابِتونَ فلا تَزِلُّ أقدامُهمْ لهذهِ الوساوسِ مُطْلقًا. (٣٢٦)

أدركَ أبو سفيانَ الخطرَ المُحدِقَ بهِ، فأسرعَ هو وجيشُهُ بالعودةِ إلى مكّةَ، وأرسل الرسول شخصاً يستطلع حقيقة الأمر، ، فلمّا عرفوا أنّ الخطرَ قد زالَ عنْهمْ ، رجعوا إلى المدينة بنعمة وفضل من الله وزيادة في الإيمان دون أن يصيبهم مكروه. (٣٢٧)

كانت غزوة حمراء الأسد جزء من الخطة الإلهية لإلحاق الهزيمة النفسية والإعلامية بقريش، ولإبطالِ كيدِ المنافقينَ واليهودِ في المدينةِ، خاصةً بعد معركةِ أُحدٍ ونتائجِها، وكانتْ تأييداً لسلطانِ المسلمينَ في المدينةِ، وربْطاً على قلوبِ المسلمينَ، ورفْعاً لمعنويّاتِهِمْ.(٣٢٨)

السنةُ الرابعةُ بعد الهجرةْ (٦٢٥ ـ ٦٢٦ م)

ولادةُ الحسينْ

في السنةِ الرابعةِ منَ الهجرةِ، وفي الخامسِ من شعبانَ وَلَدَتْ فاطمةُ مولودَها الثاني، فأُخبِرَ النبيُّ بهِ، فجاءَهُ وأخذَهُ وأذَّنَ في أُذُنِهِ اليُمنى وأقامَ في أُذُنِهِ اليُسرى، واستبشرَ بهِ، وأسماهُ «حُسيْناً»، وتفلَ في فَمِهِ، ودعا لهُ وعَقَّ عنهُ كَبْشاً، وقالَ لأمِّهِ: احلِقي رأسَهُ، وتصدَّقيْ بوزْنِهِ فِضَّةً، وافعلِي بهِ كما فعلتِ بأخيهِ الحَسَنِ، وضعَ رسولُ اللهِ هذا المولودَ في حِجْرِهِ وبكى، فقالتْ أسماءُ بنتُ يزيدَ الأنصاريّةُ: فدِاكَ أبيْ وأميْ، مِمَّا بكاؤكَ؟ فقالَ: على ابني هذا، قالتْ: إنّه وُلِدَ الساعةَ، فقالَ: تقتُلُهُ الفئةُ الباغيةُ من بعدي، لا أنالَهمُ اللهُ شفاعتي، ثمّ قالَ: يا أسماءُ، لا تُخبري فاطمةَ بهذا فإنّها قريبةُ عهدٍ بولادتِه.(٣٢٩)

خُطبةُ الرسولِ عن شهرِ رمضانْ

في آخرِ جُمُعَةٍ من شهرِ شعبانَ خطبَ رسولُ اللهِ بالمسلمينَ بمناسبةِ قدومِ شهرِ رمضانَ، فقالَ:" أيُّها الناسُ، إنّه قد أقبلَ إليكم شهرُ اللهِ بالبركةِ والرحمةِ والمغفرةِ، شهرٌ هو عندَ اللهِ أفضلُ الشهورِ، وأيامُهُ أفضلُ الأيامِ، ولياليهِ أفضلُ الليالي، وساعاتُهُ أفضلُ الساعاتِ، هو شهرٌ دُعيتُمْ فيهِ إلى ضيافَةِ اللهِ، وجُعِلْتُم فيهِ من أهلِ كرامةِ اللهِ، أنفاسُكم فيهِ تسبيحٌ، ونومُكم فيهِ عبادةٌ، وعملُكم فيهِ مقبولٌ، ودعاؤكُمْ فيهِ مُستَجابٌ..." وحينَ انتهى قامَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ وسألهُ: يا رسولَ اللهِ، ما أفضلُ الأعمالِ في هذا الشهرِ؟ فقالَ: يا أبا الحسنِ أفضلُ الأعمالِ في هذا الشهرِ الورَعُ عن محارمِ اللهِ.(٣٣٠)

وفاةُ فاطمةَ بنتِ أسدْ

في السنةِ الرابعةِ من الهجرةِ، توفّيَتْ فاطمةُ بنتُ أسدٍ، التي رعَتْ النبيَّ وربّتْهُ مع زوجها أبا طالبٍ منذ أنْ فَقَدَ والدتَهُ، وذلك لمدة خمسةَ عشرَ عامًا. كانتْ فاطمةُ بنتُ أسدٍ أوّلَ امرأةٍ بايعَتْ النبيَّ بمكّةَ بعد خديجةَ، وأوّلَ امرأةٍ هاجرَتْ إلى النبيِّ من مكّةَ إلى المدينةِ. عند وفاتها، صلّى عليها رسولُ اللهِ، وتولّى دَفْنَها، ونَزَعَ قميصَهُ وألبسَها إيّاهُ، واضطجعَ معَها في قبرِها وبكى، قائلاً: "جزاكِ اللهُ منْ أمٍّ خيراً". قرأ في قبرِها القرآنَ وأثنى عليها كثيرًا. وعند سَوَّى عليها الترابَ، سُئِلَ عنْ سببِ فعلِهِ ذلكَ، فأجابَ: "ألبستُها لتلبسَ منْ ثيابِ الجَنّةِ، واضطجَعْتُ معَها في قبرِها لأُخفِّفَ عنْها ضَغْطةَ القبْرِ، إنّها كانتْ أحسنَ خلقِ اللهِ صُنْعاً بيْ بعد أبي طالبٍ".(٣٣١)

بَدْرُ الموعِدْ

لمّا مضى على أُحدٍ ما يقربُ منْ عامٍ، ودَنَا الموعدُ الذي قطعَهُ أبو سفيانَ للقاءِ المسلمينَ في معركةٍ أُخرى، كرِهَ أبو سفيانَ الخروجَ إليهِ وخافَ من عواقبِ هذه المواجَهَةِ، فقَرّرَ بعد المشاورةِ الخروجَ مسافةً ليسَتْ بالبعيدةِ، ثمّ يعودُ حفاظاً على ماءِ وجهِهِ، فخرجَ في أهلِ مَكّةَ حتّى نزلَ مِجنّةً من ناحِيةِ الظهْرانِ، وكانَ في ألفَيْ رجلٍ وخمسينَ فارساً، فلقيَ نَعيْماً بنَ مسعودٍ الأشجَعيْ وقد قَدِمَ مُعتَمِراً، فطلبَ منْه أنْ يلحَقَ بالمدينةِ، ويُثْبِتَ المسلمينَ، ويخبرَهم أنّ أبا سفيانَ جاءَ بجمْعٍ كثيرٍ، وأنّ المسلمينَ لا طاقةَ لهمْ بهِ، ووعدَهُ أنْ يعطيَهُ عشرةً منَ الإبلِ، يضعُها عند سهيلٍ بنِ عمروٍ، ويضمنُها سهيلٌ لهُ، وحملَهُ على بعيرٍ، وقالَ لهُ أبو سفيانَ: إنّ هذا عامُ جدبٍ قد بدا ليْ ألّا أخرجَ إليهِمْ وأكرهُ أنْ يخرجَ محمدٌ ولا أخرجَ، فيزيدهم ذلك جراءةً، فلإنْ يكونُ التخلفُ من قِبلِهم أحبُّ إليّ من أنْ يكونَ من قِبلي، وبعد ضمانِ سهيلٍ بنِ عمرو الإبلَ لنعيمٍ، خرجَ نعيمٌ مسرعاً حتّى أتَى المدينةَ، فوجدَ الناسَ يتجهّزونَ لميعادِ أبي سفيانَ، فسألَهم فأخبروهُ بما يريدونَ، فقالَ لهمْ: بئسَ الرأيُ رأيتُمْ، أتوكُمْ في ديارِكمْ وقرارِكمْ، ولن يفلتَ منكمْ إلّا الشريدُ، أتريدونَ أنْ تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسمِ؟! واللهِ، لا يفلتُ منكُم أحدٌ، وجعلَ يطوفُ بهذا القولِ في أصحابِ رسولِ

اللهِ ، فكرِهَ أصحابُ رسولِ اللهِ الخروجَ، وصدَّقوا قولَ نعيمٍ، واستبشرَ بذلكَ المنافقونَ واليهودُ، وقالوا: محمدٌ لا يفلتُ من هذا الجمعِ، فبلغَ رسولَ اللهِ ذلكَ، وتظاهرَتْ الأخبارُ عندهُ حتّى خافَ رسولُ اللهِ ألّا يخرجَ معهُ أحدٌ، فقالَ: والذي نفسيْ بيدِهِ لأخرجَنَّ ولو وحديْ، وقالَ عثمانُ بنُ عفانَ: لقد رأيتَنا وقد قُذِفَ الرعبُ في قلوبِنا، فما أرى أحداً لهُ نيّةٌ في الخروجِ، فأمّا الجبناءُ فقعدوا ولم يتأهّبوا للخروجِ معَ رسولِ اللهِ، ولم يخرجْ معهُ إلّا الشجعانُ للقتالِ، فقالَ لَهُمُ المنافقونَ: قد قتلوكُمْ عند بيوتِكمْ، فكيفَ إذا أتيتموهُمْ في بلادِهِمْ وقد جَمَعوا لكمْ، واللهِ لا ترجِعونَ أبداً، فأجابوهُمْ: حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ، واستخلَفَ رسولُ اللهِ على المدينةِ عبدَ اللهِ بنَ رواحَةَ، وحمَلَ لواءَهُ الأعظمَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ، وخرجوا ببضائعَ لهم وتجاراتٍ، وقالوا: إنْ لقيْنا أبا سفيانَ فهو الذي خرجْنا لهُ، وإنْ لم نلْقَهُ ابتَعْنا بضائعَنا، ولمّا قَرُبوا منْ بَدْرٍ قالوا لهمْ: إنّها امتلأتْ منَ الذينَ جَمَعَهُمْ أبو سفيانَ ليُرعِبوا المؤمنينَ ويُرهبوهمْ أكثرَ، فقالَ المؤمنونَ: حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ، فلمّا بلغوا بدراً، لم يجدوا جيشَ أبي سفيانَ المزعومَ بلْ وجَدوا أسواقاً لا ينازعِهُمْ فيها أحدٌ، فأقامَ النبيُّ بِها ثمانيةَ أيامٍ ينتظرُ أبا سفيانَ وجنودَهُ.

باعَ المسلمونَ تجاراتَهمْ وبضائعَهمْ في سوقِ بَدرٍ، وأصابوا بالدرْهَمِ درهَمَينِ، وقد سمعَ الناسُ بمسيرِهِمْ، ووصلَ خبرُ جيشِهِمْ إلى كلِّ جانبٍ، فكَبَتَ اللهُ بذلكَ عدوَّهُمْ، وانصرفَ المسلمونَ بعدها إلى المدينةِ سالمينَ غانمينَ .

بَلَغَ المشركينَ خروجُ المسلمينَ إلى بدرٍ وكثرتُهم، وأنّهم كانوا أصحابَ التجارةِ الأكثرَ في هذا الموسمِ، فأُرعِبَ أبو سفيانَ ورجعَ إلى مكّةَ، فقالَ صفوانُ بنُ أميّةَ لأبي سفيانَ: نصحتُكَ ألّا تقدِّمَ وعدًا للقومِ، لكنّكَ لم تسمعْ كلامي، ها هم قد اجترأُوا علينا، ورأوا أنّا قد أخلفْناهُمْ.

إنّ ما أقدمَ عليه أبو سفيانَ في نهايةِ معركةِ أُحُدٍ كانَ خطأً كبيراً ورأْياً فاسداً، تُنقصُهُ البصيرةُ والخبرةُ، إذْ قطعَ على نفسهِ وعداً بلقاءِ المسلمينَ بعد عامٍ في بَدْرٍ الصُغْرى أو بدرِ الموعِدَ، وقد أدركَ أبو سفيانَ خطأَهُ الكبيرَ ذاكَ، ولكنْ بعد فواتِ الأوانِ، وكانَ صفوانُ بنُ أميّةَ قد نبَّهَهُ إلى ذلكَ فلم يلتفِتْ إليهِ، كانَ لا بُدَّ لأبي سفيانَ من الاحتفاظِ بماءِ الوجهِ ولو

شكلِيّاً، لكنّهُ فَشِلَ في ذلك، لذا اضّطُرَ إلى أنْ يتراجعَ، ويخلفَ وعدَهُ متذرِّعاً بالجَدْبِ، حتّى إنّ أهالي مكّةَ أنفسَهُمْ كانوا يستهزئونَ بما حدَثَ، ويُسمُّونَ جيشَهمُ المهزومَ روحيّاً ونفسيّاً، بأنّهم جيشُ السُويقِ [١]، أيْ أنّهم خرجوا لأكلِ السُويقِ في الطريقِ لا للحربِ والقتالِ.

بعد أنْ خاضَ المسلمونَ عِدّةَ حروبٍ، ومرُّوا بأزماتٍ كثيرةٍ في أكثرَ منْ اتجاهٍ، أصابَهُمْ بعضُ الإنهاكِ والإجهادِ فكانوا بحاجةٍ إلى وقتٍ ليُلَمْلِموا بهِ أوضاعَهم منْ جديدٍ، فكانَ لعدَمِ وقوعِ الحربِ في بدرٍ الموعدِ الأثرُ الإيجابيُّ للمسلمينَ، ثمّ إنّ استفادَةَ المسلمينَ تجاريّاً من سوقِ بدرٍ بهذه المناسبَةِ، كانَ أمراً يبعثُ على الارتياحِ، ويثيرُ البهجةَ والأملَ، والشعورَ لديْهِمْ بإمكانِيّةِ تحسُّنِ الأوضاعِ المعيشيّةِ، إذْ توفَّرَ لهمُ الوقتُ الكافي لإعادةِ تنظيمِ مواسمِهمْ الزراعيّةِ، والانتعاشِ اقتصاديّاً في مجالاتٍ حِرفيّةٍ وتجاريّةٍ في أجواءَ يُهيمنُ عليها الأمنُ والسلامُ والطمأنِينَةُ نوعاً ما، ولكنْ بعد فترةٍ ليستْ بالطويلةِ حصلَ ما لم يكنْ في الحُسبانِ، إذْ شنَّتْ قريشٌ وحلفاؤها هجوماً شاملاً واسعاً على المدينةِ منْ مختَلَفِ المواضعِ والمواقعِ [٢] (٣٣٢).

حَرْبُ الأحزابِ

لمّا أجلى النبيُّ يهودَ بني النضيرِ في السنةِ الثالثةِ للهجرةِ، التجأوا إلى خيبَرَ، وانطلقَ نفرٌ منهم إلى مكّةَ يدعونَ قريشاً وأتباعَها إلى حربِ المسلمينَ انتقاماً لِما فعلوا بِهم، فذهبوا إلى أبي سفيانَ وذكروا لهُ ما نالَهم منهُ، وسألوهُ المعونَةَ على قتالِهِ، فقالَ أبو سفيانَ: هذا الذي أقدَمَكُم ونَزَعَكُم؟ قالوا: نعمْ، جِئنا لنحالِفَكمْ على عداوةِ محمدٍ وقتالِه، قالَ أبو سفيانَ: مرحَباً وأهلاً، أحبُّ الناسِ إليْنا مَنْ أعانَنا على عداوةِ محمدٍ ، حينَ سمِعوا منهُ ذلكَ أرادوا منهُ ضمانَةً على كلامِهِ فقالوا لهُ: فأخْرِجَ خمسينَ رجلاً من بُطونِ قريشٍ كلِّها، وأنتَ فيهم، ثمّ

---

١ السّوَيْق: طعامٌ يُتّخذ من مدقوق الحنطة والشّعير، سُمّي بذلك لانسياقه في الحلق، وكان يستعمل في السفر كمؤنة وذلك لإمكانية اختزانه لفترات طويلة.

٢ وهذا ما سنتعرف عليه الآن.

ندخلُ نحنُ وأنتَ بين أستارِ الكعبةِ حتّى نُلْصِقَ أكبادَنا بها ثمّ نحلفُ باللهِ جميعاً ألّا يخْذلَ بعضُنا بعضاً، ولتكونَنَّ كلمتُنا واحدةً على هذا الرجلِ، ما بقيَ منّا رجلٌ، فأجابَهم أبو سفيانَ: إنَّا لكم حيثُ تحبُّونَ، فاخرجوا إلى قريشٍ فادعوهُمْ إلى حربِهِ، واضمنوا النصْرَةَ لهمْ، والثباتَ معهمْ حتّى تستأصِلوهُ، فطافوا على وجوهِ قريشٍ ودَعوهُمْ إلى حربِ النبيِّ، فقالوا لقريشٍ: نحنُ معكم حتّى نستأصلَ محمدًا ، ثمّ قالَ رجالٌ منْ قريشٍ بعضُهُمْ لبعضٍ: قد جاءكُمْ رؤساءُ أهلِ يثربَ وأهلُ العِلمِ والكتابِ الأوّلِ، فاسألوهُمْ عمّا نحنُ عليهِ ومحمدٌ ، أيُّنا أهدى؟ فقالَ أبو سفيانَ: يا معشرَ اليهودِ، أنتمْ أهلُ الكتابِ الأوّلِ والعلْمِ، أخبِرونا عمّا أصبحْنا فيهِ نحنُ ومحمدٌ ، أدينُنا خيرٌ أمْ دينُ محمدٍ ؟! فنحنُ عُمَّارُ البيْتِ ونَنْحَرُ الكُومَ [١]، ونسقي الحجيجَ ونعبدُ الأصنامَ، قالوا: اللهُمَّ أنتُمْ أولى بالحقِّ، إنّكُم لتُعظِّمونَ هذا البيْتَ وتقومونَ على السقايَةِ وتنحرونَ الإبلَ وتعبدونَ ما كانَ عليهِ آباؤكُمْ، فأنتُمْ أوْلَى بالحقِّ منهُ، فقالوا لقريشٍ ما أحبَّتْ أنْ تسمعَ واطمأنَّتْ لهم قريشٌ ثمّ اتفقوا على موعدٍ وقَّتُوهُ، فخرجَتْ اليهودُ وذهبَتْ إلى غَطَفَانَ، فوعَدوهُمْ أنّ لهمْ تَمْرَ خَيْبرَ سنةً إذا نصروهُمْ ضدَّ محمدٍ معَ قريشٍ، ونادَتْ فـي العربِ تدعوهُمْ إلى نصرِها، وألَّبُوا أحابيشَهُمْ [٢] ومَنْ تبِعَهمْ، ثمّ جاؤوا إلى بني سليمٍ وطلبوا منهُمُ العونَ، فوعدوهُمْ أنْ يخرجوا معَهُمْ إذا سارَتْ قريشٌ.

خرجَتْ قريشٌ ومَنْ تبِعها من أحابيشِها في أربعةِ آلافٍ، وقادوا معهم ثلاثَ مئةَ فَرَسٍ، وكانَ معهم ألفٌ وخمسةُ مئةَ بعيرٍ، وأقبلَتْ سليمٌ فلاقوهُم بمرِّ الظهْرانِ [٣] يومئذٍ بسبعِ مئةٍ، وخرجَتْ بنو فَزارَةَ بألفٍ، وخرجَتْ أشجَعُ وهمْ أربعُ مئةٍ، وخرجَ بنو مُرَّةٍ وهم أربعُ مئةٍ، ووافى الأحزابُ المدينةَ، وكانَ الذينَ وافوا من قريشٍ وسليمٍ وغَطَفَانَ وأسدٍ عشْرةَ آلافٍ بقيادةِ أبي سفيانَ، فنزلَتْ قريشٌ بِرومَةٍ ووادي العقيقِ، ونزلَتْ غطفانُ بالزُغابَةِ إلى جانبِ أُحُدٍ.

---

١ الكوم: أي الناقة عالية السنام.

٢ أحابيش قُريش: جَماعة من قريش وكنانة وخزاعة اجتَمعوا وتحالَفوا عند جبل حُبْشيّ أَسفل مكَّة فسموا بالأحابيش.

٣ مر الظهران: وادٍ كبير من أودية تهامة يقع في منطقة مكة المكرمة، و يسمى ايضا بوادي فاطمة.

لمّا تحركَتْ جيوشُ قريشٍ من مكّةَ إلى المدينةِ، خرجَ رَكْبٌ مسرعٌ من خزاعةَ إلى النبيِّ فساروا من مكّةَ أربعةَ أيامٍ، ووصلوا المدينةَ فأخبروا النبيَّ بالأمرِ، فجمعَ رسولُ اللهِ الناسَ، وأخبَرَهم الخبرَ وشاورَهم في أمرِهم، وأمَرَهُم بالجدِّ والجهادِ، ووعدَهم النصرَ، إنْ همْ صبروا واتقوا، وأمرَهم بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ، فقالَ: أنبرُزُ لهم منَ المدينةِ؟ أمْ نكونُ فيها ونُخَنْدِقُها علينا؟ أم نكونُ قريباً ونجعلُ ظهورَنا إلى الجبلِ؟! فاختلفوا، فقالَ سلمانُ: يا رسولَ اللهِ، إنّ القليلَ لا يقاومُ الكثيرَ في المطاولةِ، قالَ: فما نصنعُ؟ قالَ: نحفرُ خندقاً يكونُ بينَنا وبينَهم حِجاباً، فيمكنُكَ منعَهم في المطاولةِ، ولا يمكنُهُمْ أنْ يأتونا من كلِّ وجهٍ، فإنّا كُنّا معاشرَ العجمِ في بلادِ فارسٍ إذا داهمَنا العدوُّ نحفرُ الخنادقَ، فتكونُ الحربُ من مواضعَ معروفَةٍ، فنزلَ جبريلُ على رسولِ اللهِ وقالَ: أشارَ سلمانُ بصوابٍ، أعجَبَ رأيُ سلمانَ المسلمينَ وأحبّوا الثباتَ في المدينةِ، فركبَ رسولُ اللهِ فرساً لهُ ومعَه نفرٌ منْ أصحابِه منَ المهاجرينَ والأنصارِ، فارتادَ موضِعاً ينزلُهُ، وجعلَ جبلَ سَلْعٍ خلفَ ظهرِهِ (انظر شكل ٣٨) ثمّ حدَّدَ لهمْ مكانَ الخندقِ، وبدأ رسولُ اللّهِ بحفرِ الخندقِ ودعا الناسَ للعملِ، وأخبرَهمْ بدنُوِّ عدوِّهم وعسكرِهم، كانَ الهدفُ من حفْرِ الخندقِ هو لمنعِ دخولِ جنودِ الأحزابِ وفرسانِهم إلى المدينةِ وتجنُّبِ المواجهةِ المباشرةِ معَهمْ .

استعارَ رسولُ اللهِ من بني قُريظةَ بعضَ المساحِ والفؤوسِ والمكاتلِ ليحفروا بها الخندقَ حَسْبَ معاهدتِهِ معَ يهودِ المدينةِ، وكانَ الرسولُ يشاركُ بالحفرِ بنفسهِ معهمْ، فيضربُ مَرّةً بالمعولِ، ومرّةً يغرفُ بالمسحاةِ الترابَ، ومرّةً يحملُ الترابَ بالمكْتَلِ، وهو يقولُ:

اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ   فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

لقد كانَ الرسولُ يحفرُ معهم حتّى يَعْيَا، ثمّ يجلسُ ليستريحَ، وأصحابُهُ يقولونَ: يا رسولَ اللهِ، نحنُ نكفيكَ، فيقولُ: أريدُ مشاركتَكُمْ في الأجرِ، وكانَ يحفرُ، وعليٌّ ينقلُ الترابَ من الحُفْرَة .

والأنصارُ ترتجزُ وتقولُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ ما حَيِيْنَا أبَدَا

وما كانَ في المسلمينَ يومَئذٍ أحدٌ إلّا يحفرُ في الخندقِ، أو ينقلُ الترابَ، وهم يرتجِزون :

لئنْ قَعَدْنا والنبيُّ يَعْمَلُ لَذاكَ مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّلُ

وكانَ سلمانُ معَ مجموعةٍ من الصحابةِ يعملونَ، فخرجَتْ عليهم صخرةٌ كَسرَتْ المعولَ، فأعلَموا النبيَّ بالأمرِ، فجاءَ رسولُ اللهِ وضربَها بالمعولِ ضربَةً فصدَّعَها، وبَرَقَ منْها شَررٌ فكبَّرَ تكبيرةً وكبَّرَ المسلمونَ، ثمّ ضربَها ثانيةً فَبَرَقَتْ كذلكَ وكبَّرَ وكبّروا، وهكذا فعلَ ثالثاً، فصدَّعَها، فسألَهُ سلمانُ عن الأمرِ الذي رآهُ ورآهُ المسلمونَ وعن تكبيرهِ، فأخبرَهمْ أنّ في البَرقَةِ الأُولى أضاءتْ لهُ قصورَ الحيرةِ ومدائنَ كِسرى، وفي الثانيةِ أضاءتْ لهُ القصورَ الحمْرَ من أرضِ الرومِ، وفي الثالثةِ أضاءتْ لهُ قصورَ صنعاءَ، وأخبرَهُ جبريلُ أنّ أمّتَهُ ظاهرةٌ عليهم، فاستبشرَ المسلمونَ وقالوا: الحمدُ للهِ موعدَ صدقٍ، وعدَنا النصرَ بعد الحصْرِ، فقالَ المنافقونَ: ألا تعجبونَ من محمدٍ ؟! يمنِّيكمْ ويعدُكم الباطلَ، ويخبرُكم أنّه يبصرُ منْ يثربَ قصورَ الحيرةِ ومدائنَ كِسرى، وأنّها تُفتَحُ لكم، وأنتمْ إنّما تحفرونَ الخندقَ من الخوفِ، لا تستطيعونَ أنْ تبرزوا! كانَ أبو بكرٍ وعمرُ هناكَ وقال أحدُهما للآخرِ: يعدُنا كنوزَ كسرى وقيصرَ، وما يقدرُ أحدُنا يخرجُ يتَخلّى! (٣٣٣) نظرَ المنافقونَ إلى بعضِهم بتعجُّبٍ، ورأوا هم ونفرٌ منَ المسلمينَ ضعافَ الإيمانِ، أنّ ما يقولُه النبيُّ منَ الفتْحِ والنصرِ مجرَّدَ خُدعةٍ وغرورٍ،(٣٣٤) وكانَ هناك أيضاً ممّنْ لم يَرُقْ لهُ العملُ في الحرِّ تحتَ أشعّةِ الشمسِ، فعندما قالَ النبيُّ لعثمانَ بنِ عفّانَ: احفرْ، انزعجَ وغضِبَ، وقالَ: لا يرضى محمدٌ أنْ أسلَمْنا على يدهِ حتّى يأمرُنا بالكدِّ! ثمّ مرَّ عثمانُ على عمّارٍ بنِ ياسرٍ وهو يحفرُ الخندقَ، وقد ارتفعَ الغبارُ منَ الحفْرِ، فوضعَ عثمانُ كُمَّهُ على أنفهِ ومرَّ، فقالَ عمارٌ:

لا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ المَسَاجِدَ يَظَلُّ فِيهَا رَاكِعاً وَ سَاجِدا

كَمَنْ يَمُـرُّ بِالْغُبَـارِ حَائِدا يُعْرِضُ عَنْهُ جَاهِداً مُعَانِدا

فالتفتَ إليهِ عثمانُ فقالَ: يا بنَ السوداءِ، إيّايَ تعني؟! ثمّ ذهبَ عثمانُ إلى النبيِّ فقالَ لهُ وهو غاضبٌ: لم ندخلْ معكَ لتُسَبَّ أعراضُنا! فقالَ لهُ رسولُ اللهِ: قد أقلتُكَ [1] إسلامَكَ، فاذهَبْ، يخبرُ اللهُ في القرآنِ عمّا يحمِلُهُ هؤلاءِ ضعفاءُ الإيمانِ، في قلوبِهم، إذْ أرادوا أنْ يجعلوا إسلامَهم مِنّةً منهمْ على رسولِ اللهِ، وكأنّ لهم الفضلَ أنْ أسلموا ويردُّ اللهُ عليهِمْ بقولهِ: لا تجعلوا إسلامَكمْ فضْلاً تتفضّلونَ بهِ على رسولِ اللهِ وكأنّ لكُم المِنّةَ عليهِ، بلْ إنّ الفضْلَ والمنّةَ للهِ عليكم، الذي بعثَ رسولَه وأنزلَ كتابَه وأوضحَ لكم السبيلَ المستقيمَ، إنْ صدَقْتُمْ في إيمانِكم. (٣٣٥)

رأى جابرٌ وهو يعملُ كيفَ أنّ النبيَّ يعاني معهمْ، إذْ يغطّي جسمَهُ النحيلَ الغبارُ من نقلِ الأتربةِ والأحجارِ، فاستأذنَ جابرٌ النبيَّ أنْ يذهبَ إلى البيتِ، فأذِنَ لهُ، فعادَ إلى امرأتِهِ واتفَقَ معَها على أنْ يعملا طعاماً ويدعوانِ النبيَّ إليهِ، فحضَّرا بعضَ الشعيرِ وعُنُقَ شاةٍ مشْويَّةً، ثمّ دَعَوَا النبيَّ للطعامِ مع رجلٍ أو رجلَينِ، فسألَهُ النبيُّ عمَّا عندهُ من طعامٍ فأخبرَهُ، فقالَ النبيُّ: كثيرٌ طيّبٌ، ثمّ دعا النبيُّ أهلَ الخنْدقِ جميعاً، وقالَ لهمْ: إنّ جابراً قد صنَعَ لكمْ سُوراً [2]، فأقْبِلُوا معهُ، فقالَ جابرٌ: واللهِ إنّها الفضيحةُ! فأتى زوجَتَهُ وأخبَرَها، فقالتْ: أنتَ دعوتَهُمْ أمْ هو دعاهُمْ؟ فقالَ: بلْ هو دعاهُمْ، قالتْ: دَعْهُمْ، هو أعلمُ، فأقبَلَ النبيُّ وأمرَ أصحابَهُ، فكانوا يأتونَ عَشَرَةً عَشَرَةً، ويغرفونَ منَ الطعامِ ويأكلونَ حتّى يشبعوا دونَ أنْ ينقُصَ منَ الطعامِ أو الخُبزِ شيءٌ، فذهبوا وجاءَ غيرُهمْ، فأكلوا وشبِعوا وذهبوا، والطعامُ لا ينقصُ، ورسولُ اللهِ يقولُ: كُلُوا واهدُوا، فإنّ الناسَ أصابتْهُمْ مجاعةٌ شديدةٌ، فلم يزالوا كذلكَ حتّى أكلَ جميعُ أهلِ الخندقِ وشبِعوا .

استمرَّ العملُ حتّى تمَّ حَفْرُ الخندقِ في اثنيْ عَشَرَ يوماً تقريباً، وبلغَ طولُهُ نحوَ خمسةَ آلافِ ذِراعٍ [3] وعرضُهُ تسعةَ أذْرُعٍ، وعُمقُهُ سبعةَ أذرُعٍ، وتَقَعُ منطقةُ حفْرِ الخندقِ في المنطَقةِ

---

١ الإقالة في اللغة: الرفع والإزالة.

٢ السُّور: أي وليمة كبيرة للضيافة.

٣ الذّراع: وحدة قياس تُقدّر بنصف متر تقريباً.

الواقعةِ بالقُربِ منْ ثَنِيّاتِ الوداعِ، شَمالَ غَرْبِ المدينةِ، حتّى تنتهيَ بجبَلِ أُحُدٍ، أمّا غربَ وشرقَ المدينةِ، فهي مناطقُ وعِرةٌ فيها صخورٌ بركانيَّةٌ وتمثِّلُ حواجِزَ طبيعيّةً، وكانَ في جِهةِ الجنوبِ أشجارُ النخيلِ بالإضافَةِ إلى الأبنيَةِ المتشابِكَةِ، ولمّا كانَتْ بعضُ المواضعِ في جهتَيْ الشرقِ والجنوبِ تمثِّلُ النِقاطَ الأضعَفَ منْ غيرِها، بادرَ المسلمونَ إلى تَشْبيكِ المدينةِ بالبُنيانِ كالحِصنِ لسدِّها، وبذلكَ يكونُ النبيُّ قد سدَّ الثَّغراتِ التي يمكِنُ للعدوِّ أنْ يتسلَّلَ منْها، ثمّ جعلَ للخندقِ أبواباً، وجعلَ على الأبوابِ حَرَساً .

لم تكنْ مشاركةُ النبيِّ المسلمينَ في حفرِ الخندقِ مشاركةً شكليّةً أو رمْزيّةً، بلْ كانتْ مشاركتُهُ مشاركةً حقيقيّةً بصيغَةِ المُعاناةِ الصادقَةِ التي تمَثِّلُ تجسيداً عمَلياً للمُساواةِ بينَ جميعِ فِئاتِ المجتَمعِ، ثمّ جهَّزَ النبيُّ الجيشَ، وكانَ تسعَ مئةِ مقاتلٍ فقطْ، فأجازَ مَنْ أجازَ، ورَدَّ مَنْ ردَّ، وجعلَ النساءَ والصبيانَ في المنطقَةِ المحصَّنَةِ حتّى لا يكونونَ هدَفاً سهلاً لكلِّ عابِثٍ وعُرضَةً لأطماعِ الأعداءِ .

في الطريقِ إلى المدينةِ كانَ حُيَيُّ بنُ أخطبَ سيّدُ بني النضيرِ يقولُ لقريشٍ في مسيرِهِ معهمْ: إنّ قومي بني قُريظةَ معكم، وهم أهلُ حلقةٍ [١] وافرةٍ، وهم سبعُ مئةٍ وخمسونَ مقاتلاً، فلما دنوا منَ المدينةِ، قالَ له أبو سفيانَ: ائتِ قومَكَ حتّى ينقُضوا العهدَ الذي بينهم وبينَ محمدٍ ، فلمّا تقدَّمتْ قريشٌ ورأتْ الخندقَ تفاجأتْ وقالتْ: إنّ هذه المكيدةَ ما كانتْ العربُ تكيدُها، فأقامَتْ على الخندقِ تحاصرُ المسلمينَ .

بِدَايَةُ الحِصَارِ

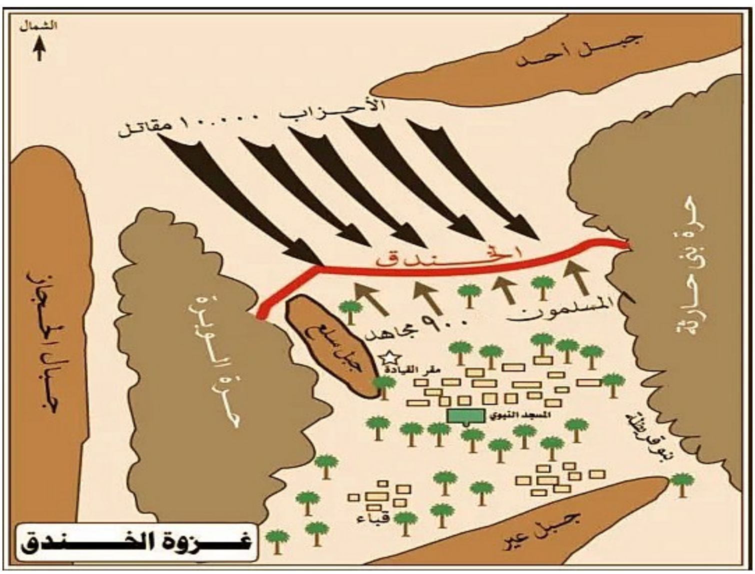
عندما رأى المسلمونَ جيشَ العدّوِ الهائلَ يحاصرُ المدينةَ، انتابَهمُ الرعبُ الشديدُ، وأصمَتَهمْ أصواتُ خيولِ الأعداءِ، وما عادوا يرونَ شيئاً غيرَ الرماحِ والسيوفِ المشرعَةِ في الأُفقِ،

---

١ حلقة: أي سلاح.

فبقوا جامدينَ كأنّ على رؤوسِهمُ الطيرُ [١]، أمّا المؤمنونَ فقالوا لمّا رأوا الأحزابَ: هذا ما وعدَنا اللهُ ورسولُه، إنّه لا بدَّ من المواجهةِ مع العدوِّ ولا بدَّ منَ النصْرِ وقد صدقَ اللهُ ورسولُه، وما زادَهم ما شاهدوهُ إلّا إيماناً باللهِ وتسليماً مطلَقاً لإرادتِه،(٣٣٦) كانَ للتفاوتِ الكبيرِ في العدَّةِ والعددِ بين المسلمينَ وأعدائهمْ منَ الأحزابِ الذين جاؤوا من كلِّ حَدْبٍ وصَوبٍ أثرٌ عميقٌ على الحالةِ النفسيَّةِ للجيشينِ، فجيشُ الشِركِ يرى في نفسهِ القوّةَ والتفوّقَ ويرى في المسلمينَ الضعفَ، أمّا المسلمونَ فكانوا يرونَ أنّ وجودَهمْ معرَّضٌ للاستئْصالِ والفناءِ ولا بُدَّ لهم منَ الدفاعِ عن أنفسِهم من أجلِ البقاء .

كانَ رسولُ اللهِ يدعو الأحزابَ إلى اللهِ، ويناشِدُهمْ بالقَرابةِ والرحِمِ، لكنّ قريشًا أبَتْ ورفضَتْ نداءَ النبيِّ، فكتبَ أبو سفيانَ قائدُ جيشِ المشركينَ كتاباً لرسولِ اللهِ: أمّا بعدُ، فإنّكَ قد قتَلتَ أبطالَنا، وأيتمْتَ الأطفالَ، وأرملْتَ النساءَ، والآنَ قد اجتمعَتْ القبائلُ والعشائرُ



شكل(٣٨): خريطة معركة الخندق.

---

١ هو كناية جاءت على صورة تشبيه، وهو مثل تستخدمه العرب، وهو وصوف لحالة تتسم بالسكون والترقب، وكأن صاحبها على رأسه طير يريد صيدها فلا يتحرك لذلك.

يطلبونَ قتالَكَ، وقَلْعَ آثارِكَ، وقد جئْنا إليكَ نريدُ نِصْفَ نخلِ المدينةِ، فإنْ أجبْتَنا إلى ذلكَ وإلّا أبشرْ بخرابِ الديارِ وقَلْعِ الآثارِ. فردّ عليهِ النبيُّ ردّاً قويّاً وحازماً: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، وصلَ كتابُ أهلِ الشِّرْكِ والنفاقِ، والكفرِ والشقاقِ، وفهمْتُ مقالتَكُمْ، فواللهِ ما لكمْ عندي إلّا أطرافُ الرماحِ، وشِفارُ الصِّفاحِ [1]، فارجِعوا ويْلَكُمْ عنْ عبادةِ الأصنامِ، وأبشِروا بضربِ الحُسامِ، وفَلْقِ الهامِ، وخرابِ الديارِ، وقَلْعِ الآثارِ، والسَّلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى.

خِيَانَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ

إنَّ بنيْ قُريظةَ كانوا أصحابَ حُصونٍ بالمدينةِ، وموضِعُهمْ منَ المدينةِ على بُعْدِ ثلاثةِ كيلومتراتٍ، وهو الموضعُ الذي يُسمَّى بِئرُ بنيْ المطّلبِ، وسيّدُهمْ كَعْبٌ بنُ أسدٍ القُرظِيُّ، وكانَ قد وادَعَ رسولَ اللهِ على قومِهِ وعاهَدَهُ، فلمّا جاءَ حُيَيٌّ بنُ أخْطَبَ إلى بنيْ قريظةَ كَرِهوا دخولَهُ إلى دارِهِمْ، فكانَ أوّلَ مَنْ لقيَهُ غزالٌ بنُ سَمَوْألَ، فقالَ لهُ حُيَيٌّ: قد جئتُكَ بما تستريحُ بهِ منْ محمدٍ ؛ هذه قريشٌ قد حلَّتْ واديَ العقيقِ، وغَطَفانُ بالزُغابَةِ قُربَ جَبَلِ أُحُدٍ، فقالَ غزالٌ: جئتَنا واللهِ بِذُلِّ الدهرِ، فقالَ حييٌّ: لا تقلْ هذا، ثمّ توجَّهَ إلى بابِ كعبٍ بنِ أسدٍ ودَقَّ عليهِ، فأغلَقَ كعبٌ دونَهُ بابَ الحِصنِ، وقالَ لهُ: بينيْ وبينَ محمدٍ عقدٌ ولن أنقضَ ما بيني وبينَهُ، فإنّي لم أرَ منهُ إلا وفاءً وصِدقاً، فقالَ حيَيٌّ: افتحِ البابَ أُكلِّمْكَ، فقالَ كعبٌ: ما أنا بفاعلٍ، فقالَ: واللهِ، إنّكَ أغلقْتَ البابَ خوفاً على طعامِكَ أنْ آكلَ معكَ منهُ، فألحَّ عليهِ حتّى فتحَ لهُ، فقالَ: ويْحَكَ يا كعبُ جئْتُكَ بعزِّ الدهرِ، جئتكَ بقريشٍ على قادتِها وسادتِها حتّى أنختُهُمْ بالمدينةِ، وجئتُكَ بغطَفانَ على قادتِها وسادتِها، وقد عاهدوني ألّا يبرحوا حتّى يستأصِلوا محمدًا ومَنْ معهُ، فأبَى كعبٌ وقالَ: جئتَنِي بذُلِّ الدهرِ، وبرعدٍ وببَرقٍ ليس فيهِ شيءٌ، فدعْني ومحمَّدًا ، وما أنا عليهِ، فلمْ أرَ منهُ إلّا وفاءً وصدقاً، فلم يزلْ يصِرُّ عليهِ حتّى أعطاهُ عهداً منَ اللهِ وميثاقاً أنْ يكونَ معهُ، وأنْ يرجعَ معهُ إلى حِصنِهِ إنْ رجعَتْ تلكَ الجموعُ خائبةً ولم يقتلوا محمدًا ، وأنْ يصيبَهُ ما أصابَه، فأقتنَعَ كعبٌ بوعودِهِ ونقَضَ ما

---

[1] أشفار الصفاح: الشفرة السكين العظيم والصفح من السيف عرضه.

بينَه وبينَ رسولِ اللهِ، وبَرِئَ ممّا كانَ عليهِ لهُ، ومزَّقوا الصحيفةَ التي كانَ فيها العَقْدُ، وجمَعَ رؤساءَ قومِه وأعلمَهمْ بما صنعَ منْ نقضِ العهدِ، فقالَ لهُم أحدُ علمائهِم وكانَ شيخاً كبيراً قد ذهبَ بصرُهُ: إنّه قد قرأ التوراةَ ووجدَ فيها أنّه يُبعَثُ نبيٌّ في آخرِ الزمانِ في مكّةَ، ويهاجرُ إلى المدينةِ، وذكرَ لهم صِفتَهُ، فادّعى حُيَيٌّ بنُ أخطَبَ أنّ هذا النبيَّ هو من بنيْ إسرائيلَ وهذا مِنَ العربِ، ولا يكونُ بنو إسرائيلَ أتباعاً لولَدِ إسماعيلَ أبداً، لأنّ اللهَ قد فضَّلَهم على الناسِ جميعاً، ثمّ ادّعى أنّ محمدًا ليس إلّا ساحرٌ وما هو بنبيٍّ، ثمّ قامَ آخرٌ بتخويفِهمْ منْ سوءِ فعلِهمْ هذا، وذكّرَهمْ ميثاقَ رسولِ اللهِ وعهدَهُ، وقالَ لهمْ: إنْ لم تنصروهُ فاتركوهُ وعدوَّهُ، فأبَوا، وخرجَتْ جماعةٌ منهمْ ممّنْ رفضوا نقضَ العهدِ إلى رسولِ اللهِ فكانوا معهُ، وأسلَموا، وطلبَ كعبٌ بنُ أسدٍ من حُييٍّ بنِ أخطبَ أنْ يأخذَ لهم من قريشٍ وغطفانَ رهائنَ، وهم تسعونَ رجلاً من أشرافِهم، تكونُ عندهم لِألّا ينالَهُم ضيْمٌ إنْ هم رجِعوا ولم يناجِزوا محمدًا ، فتمَّ بذلكَ نقضُ العهدِ.

حينَ بلغَ رسولَ اللهِ ذلكَ غمَّه غمّاً شديداً، وفزِعَ أصحابُه، فاشتدَّ الأمرُ على رسولِ اللهِ وشقَّ عليه ذلكَ، فقالَ: حسْبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ، ثمّ بعثَ سعدًا بنَ معاذٍ سيّدَ الأوسِ وسعدًا بنَ عبادةَ سيدَ الخزرجِ في جماعةٍ للتَثَبتِ من الخبرِ، وكانَ رسولُ اللهِ قد أمرَهم إنْ وجدوا الغدرَ حقّاً أنْ يخبروهُ تعريضاً دونَ الإفصاحِ صراحةً أمامَ الناسِ، لئلّا يربَكَ الناسَ ويزيدَ بلاءَهمْ في ظروفِ الحربِ الجاريةِ، فدخلا في حِصنِهم، فدعوهما إلى الموادَعةِ وتجديدِ الحِلفِ، فقالَ بنو قُريظةَ: الآنَ وقد كسرَ جناحَنا بإخراجِ بني النضيرِ؟ ونالوا من رسولِ اللهِ، فأغضبوهُ، فجعلَ سعدٌ بنُ عبادةَ يُشاتِمُهمْ، فقالَ لهُ سعدٌ بنُ معاذٍ: إنَّا واللهِ ما جئْنا لهذا، ولمَا بينَنا أكبرُ منَ المشاتمةِ، فناداهُمْ سعدٌ بنُ عبادةَ قائلاً: إنّكم قد علمتُمُ الذي بينَنا وبينَكم يا بنيْ قُريظةَ، وأنا خائفٌ عليكم مثلَ يومِ بني النضيرِ، أو أمرَّ منهُ، فشتموهُ، فأجابَهم: إنّ غيرَ هذا من القولِ كانَ أجملَ بكم وأحسنَ، ولمّا رجعَ سعدٌ بنُ معاذٍ وسعدٌ بنُ عبادةَ إلى النبيِّ أخبراهُ تمويهاً بأنّ قريظةَ نقضَتْ عهدَها، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، عَضَلُ والقارَّةُ يُريدونَ الغدْرَ

بأصحابِ الرجيعِ [١]، فقالَ النبيُّ محمدٌ : اللهُ أكبرُ، أبشِروا يا معشرَ المسلمينَ، أبشِروا بنصرِ اللهِ وعونِهِ، ثمّ أمرَ رسولُ اللهِ المسلمينَ بالثباتِ في مكانِهم، ولزومِ خندقِهمْ .

نظرَ المشركونَ إلى الخندقِ فتهيَّبوا القدومَ عليه، فجعلوا يدورونَ حولَه بعساكرِهم وخيلِهِمْ ورَجِلِهِمْ، ويدْعونَ المسلمينَ: ألا هلُمّوا للقتالِ والمبارزةِ، فلم يجبْهُمْ أحدٌ إلى ذلكَ، ولزِموا مواضِعَهم كما أمرَهمْ رسولُ اللهِ، وقد عسكروا في الخندقِ، وأظهروا العُدّةَ ولَبِسوا السلاحَ، ووقفوا في مواقعِهمْ، وتهيّبَ المشركونَ أنْ يَلِجوا الخندقَ عليهِمْ، وصارَ المشركونَ يتناوبونَ، فيغدو أبو سفيانَ في أصحابهِ يوماً، ويغدو خالدٌ بنُ الوليدِ يوماً، ويغدو عَمْرو بنُ العاصِ يوماً، ويغدو هبيرةُ بنُ أبي وهبٍ يوماً، ويغدو عِكرِمَةُ بنُ أبي جهلٍ يوماً، ويغدو ضِرارٌ بنُ الخطابِ يوماً، فلا زالوا يجولونَ بخيلِهم، يتفرَّقونَ مَرّةً، ويجتمعونَ أخرى، ويناوشونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ، أيْ يقرّبونَ منهمْ ويقدِّمونَ رجالَهُم فيرمونَ المسلمينَ بالحجارةِ والسهامِ عِبرَ الخندقِ، ومكثوا على ذلكَ أيامًا عدّةً وهم يحاصرونَ المدينةَ، ولم يكنْ بينَهمْ حربٌ إلاّ الرميَ بالنبْلِ والحصا، فأُصِيبَ سعدٌ بنُ مُعاذٍ بسهْمٍ في ذراعِه، فقالَ: "اللهمَّ إنْ أبقيتَ منْ حربِ قريشٍ شيئاً فأبْقِني لها، فإنّه لا قومَ أحبُّ إليّ أنْ أُجاهِدَهمْ أكثرَ منْ قومٍ آذوا رسولَكَ وأخرجوهُ وكذَّبوهُ، اللهمَّ إنْ كنتَ وضعتَ الحربَ بينَنا وبينَهمْ فاجعلْها ليْ شهادةً، ولا تُمِتْني حتّى تقرَّ عينيْ منْ بنيْ قُريظةَ " حينَما أُصيبَ سعدٌ، أمرَ رسولُ اللهِ بنقْلِهِ إلى خيمةِ رفيدةَ التي كانَتْ أقامتْها في مسجِدِ النبيِّ لمداواةِ الجرحى .لقد اشتدَّ البلاءُ على المسلمينَ وخافوا من الحشودِ الكبيرةِ التي كانتْ تحاصرُ المدينةَ، وتريدُ الانقضاضَ عليهمْ في أيِّ فرصةٍ لإبادتِهمْ، إضافةً إلى أنّ خيانةَ بنيْ القُريظةَ زعزعَتْ الخطَّةَ التي أعدَّها المسلمونَ لتحصينِ المدينةِ، وجَعْلِها عُرضةً للاختراقِ منْ الخارجِ، وازدادَ خوفُهم على الذراريْ بالمدينةِ منْ بنيْ قريظةَ منَ الداخلِ، كانَ النبيُّ جاثِيًا على ركْبتَيْهِ، باسطَ

---

١ عضل والقارة: قبيلتان من القبائل العربيّة، كانوا قد قدِموا على رسول الله بعد معركة أحد، يطلبون منه أن يبعث معهم من يعلمهم شرائع الإسلام ويقرأ عليهم القرآن، فبعث النبي عشرة من أصحابه، فلمّا خرجوا معهم، ووصلوا عند ماء الرجيع في منطقة الحجاز، غدروا بأصحاب النبي، وقتلوهم وأسروا اثنين منهم وباعوهما كعبيد في مكة، لكن قريش قتلتهما أيضاً، فكان هذا الحادث فاجعة للنبي.

اليدينِ، باكيَ العيْنَينِ، ينادي بأشجى صوتٍ: يا صريخَ المكروبينَ، يا مُجيبَ دعوةِ المضّطرِّينَ، اكشفْ همِّي وكَرْبِي، فقد ترى حاليْ.(٣٣٧)

يذكرُ اللهَ كيفَ حاصرَ المشركونَ واليهودُ المدينةَ، حيثُ جاءَ بنو قُريظةَ منَ اليهودِ وغطفانُ منْ الجهةِ الشرقيّةِ، وجاءتْ قريشٌ وبنو كِنانةَ ومَنْ انضمَّ إليهمْ منَ الأحابيشِ منَ الجهةِ الغربيّةِ للمدينةِ، فأصابَ المسلمينَ الرعبُ ووقعوا في دهشةٍ وحَيرةٍ ولم يعودوا يملكونَ حِلْماً واعياً وكادَتْ قلوبُهُم تخرجُ منْ محلِّها منْ شِدَّةِ الفزَعِ، حتّى ظنّوا أنّ اللهَ ورسولَهُ لنْ يفِيا بعهودِهما بالنصرِ وأنّها نهايةُ هذا الدينِ، وظنَّ المنافقونَ أنّ وعودَ النبيِّ ما هي إلاَّ أكاذيبُ وأنّ الحربَ ستنتهي بهزيمَةِ المسلمينَ، في تلكَ الأوقاتِ الصعبَةِ إمتُحِنَ إيمانُ المؤمنينَ أشدَّ الإمتحانِ، حيثُ يرونَ الموتَ قادمًا أمامَ أعيُنِهمْ، فكانَ هذا الإمتحانُ كالزلزالِ الشديدِ، الذي غربلَهمْ غربلةً فلا يثبُتُ منهمْ إلاَّ المؤمنونَ حقّاً.(٣٣٨)

بعد حصارٍ دامَ قرابةَ عشرينَ ليلةً، في ظلِّ المناوشاتِ التي استمرَّتْ إلى الليلِ، اشتدَّ البلاءُ على النبيِّ وأصحابِهِ وانقلبَ أناسٌ كثيرونَ، وتكلَّموا بكلامٍ قبيحٍ، وجاءَ قومٌ لرسولِ اللهِ وكانتْ بيوتُهم في أطرافِ المدينةِ فقالوا لهُ: يا رسولَ اللهِ أتأذنُ لنا أنْ نرجعَ إلى دورِنا، فإنّها في أطرافِ المدينةِ، وهي مفتوحةٌ للعدوِّ ونخافُ اليهودَ أنْ يَغِيروا عليها، وقالَ قومٌ آخرونَ: هلمُّوا فلنهرُبْ ونصيرُ في الباديةِ ونستجيرُ بالأعرابِ، فإنّ الذي كانَ يَعِدُنا بهِ محمدٌ باطلٌ كلُّهُ، لمّا رأى رسولُ اللهِ ما فيهِ الناسُ منَ البلاءِ والكَربِ جعلَ يبشّرُهمْ ويقولُ: والذي نفسيْ بيدهِ ليُفرّجَنَّ عنكمْ ما ترونَ منَ الشِّدةِ، وأنّي لَأَرْجو أنْ أطوفَ بالبيْتِ العتيقِ آمِناً، وأنْ يدفعَ اللهُ عزَّ وجلَّ إليَّ مفاتيحَ الكعبةِ، وليهلكَنَّ اللهُ كِسرى وقيصرَ، ولَتُنْفَقَنَّ كنوزُهما في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فقالَ رجلٌ ممّنْ معهُ لأصحابِهِ: ألا تعجبونَ منْ محمدٍ ! يعدُنا أنْ نطوفَ بالبيتِ العتيقِ، وأنْ نقسِّمَ كنوزَ فارسٍ والرومِ، ونحنُ هاهنا لا يأمَنُ أحدُنا أنْ يذهبَ إلى الغائطِ، واللهِ ما يعِدُنا إلاّ غروراً، وقالَ آخرونَ: يا أهلَ يثربَ، لا مُقامَ لكمْ، فارجِعوا، فجعلَ المنافقونَ يستأذنونَ رسولَ اللهِ، ويقولونَ: بيوتُنا عورةٌ، أيْ قريبةٌ منَ العدوِّ لأنّها خارجُ المدينةِ، وحيطانُها قصيرةٌ، يُخشى عليها منَ السرِقةِ، فَأْذَنْ لنا نرجعْ إلى نسائِنا وأبنائِنا وذَرارينا، فيأذنُ النبيُّ لهمْ، ولم يبَقَ معهُ تلكَ الليلةُ إلاّ ثلاثَ مئةٍ، ومعَ مرورِ

الوقتِ تفَرّقَ أكثرُ الناسِ عنْ رسولِ اللهِ ليلاً، فتسلَّلوا ودخلوا بيوتَهم كالمُلقينَ بأيديهِم ولم يبقَ معهُ إلاّ اثنا عشرَ رجلاً .

يكشفُ اللهُ عن خفايا نفوسِ هؤلاءِ المنافقينَ إذْ لو أنّ الأعداءَ دخلوا منْ جوانِبِ المدينةِ ونواحيها وهبطوا إليها منْ منافِذِها ثمّ سألوا هؤلاءِ القومَ أنْ يرتدّوا ويرجِعوا عنْ دينِهم لاستجابوا لهم مباشرةً ولم يتأخَّروا ولو وقتاً قليلاً، إنّ هؤلاءِ في حالةِ خوفٍ وذعْرٍ إلى درجةٍ لو طُلبَ منهم أنْ يفتُكوا بالمسلمينَ ويرجعوا إلى الكفرِ لفعلوا بدونِ تأخيرٍ، بالرغْمِ منْ أنّهم أعطوا ربَّهم عهداً وأيماناً مغلَّظَةً أنّهم لا ينهزمونَ ولا يفرّونَ منْ ساحَةِ المعركةِ بلْ سيقاتلونَ معَ النبيِّ ويضحّونَ في الدفاعِ عنِ الإسلامِ، فكانَ يجبُ عليهمُ الوفاءُ بالعهدِ والالتزامُ بمضمونِه لأنّ اللهَ سيسألُ أهلَهُ عنهُ ويجزيْهم بما يستحقونَ. ثم يقولُ اللهُ: فقلْ لهم يا محمدُ : أنّ الفِرارَ من المعركةِ خشيةَ الموتِ أو القتلِ لنْ ينفَعَكم، لأنّ الموتَ لا بُدَّ منهُ وما تبقّى من أيامِ الدنيا إلّا قليلٌ تتمتّعونَ بها قليلاً ثمّ مصيرُكم في النهايةِ إلى الموتِ، قلْ لهمْ يا محمدُ : أنْ يفهموا حقيقةً واحدةً وهي أنّ اللهَ بيدِه الأمورُ ولا أحدٌ يستطيعُ أنْ يردَّ قضاءَ اللهِ إنْ أرادَ بكم سوءً، ولا يمنعُ خيرَهُ أحدٌ إنْ أرادَ أنْ يرحمَكم فينصرُكم ويعطيكُمْ خيراً، ولا يجدونَ منَ ينفَعُهم أو يدفعُ عنهم السوءَ إلّا اللهُ فإنّ الأولياءَ يسقطونَ أمامَ اللهِ والمساعدونَ يفقدونَ قُدراتِهم أمامَ اللهِ .

فلا يخفى على اللهِ أساليبُ المنافقينِ في تثبيطِ المسلمينَ الضعفاءِ من الجهادِ بنشْرِهم الأكاذيبَ ودعوةِ المسلمينَ لترْكِ القتالِ والانضمامِ إليهم، واللهُ يعلمُ بأنّهم لا يدخلونَ في معركةٍ يخوضُها المسلمونَ إلّا في بعضِ الأحيانِ حيثُ تعودُ عليهم بالنفعِ وتخدمُ مصالحَهم وتحفظُ شخصِيّاتِهم منَ السقوطِ لئلّا ينكشفوا أمامَ المجتمعِ وتتوضّحَ هُويَّتُهمْ في النفاقِ، فهمْ بخلاءُ عليكمْ بأنفسِهم وبالانتصارِ لكم وبخلاءُ بكلِّ خيرٍ يعودُ إليكُم ثمّ إذا كانوا مضطرّينَ ليكونوا معَ المؤمنينَ في حربٍ أو معركةٍ تراهم إذا اشتدَّ البأسُ يفقدونَ التركيزَ حيثُ منْ شدّةِ الخوفِ ينظرونَ إليكَ يا محمدُ كنظَرِ مَنْ طاشَ لبُّهُ وظهرَ ذلكَ على عينَيهِ اللّتينِ تدورانِ قلَقاً وفزَعاً، أو كالذي يأتيهِ الموتُ فتراهُ يمرُّ في سكَراتِهِ يُغشَى عليهِ ولا يقدرُ على الكلامِ، والحديثِ هذا في حالِ الشدّةِ أما في حالِ الرخاءِ والهدوءِ وعودةِ الأمورِ إلى طبيعَتِها فإنّهم

لا يسكتونَ بلْ يوجِّهونَ سهامَ النقْدِ والتجريحِ ويحاولونَ إيذاءَكمْ بألوانِ الكلامِ النابيْ الشديدِ، وحينَما تكونُ هناكَ غنيمةٌ فإنّهمْ يُجادلونَ لتحصيلِ سَهْمِهِمْ، هؤلاءِ لم يؤمنوا ولم يستَقرَّ الإيمانُ في قلوبِهم، فأبطلَ اللهُ أعمالَهمْ إنّ ذلكَ كانَ على اللهِ يسيرٌ.(٣٣٩)

بعد أنْ جُرِحَ سعدٌ بنُ معاذٍ أجمَعَ رؤساءُ المشركينَ أنْ يغدو جميعاً، وجاءوا يُريدونَ مَضيقاً يُقتِحمونَ منهُ خيلَهُم إلى النبيِّ، فوجدوا مكاناً ضَيّقاً أغفلَهُ المسلمونَ، فاستطاعَ بعضُهُمْ عبورَهُ، فكانَ ممّنْ عبرَهُ عِكرِمَةُ بنُ أبي جهلٍ، ونوفلُ بنُ عبد اللهِ المخْزوميْ، وضرارٌ بنُ الخطابِ الفِهريْ، وهبيرةُ بنُ أبي وهَبٍ، وعمرو بنُ عبدِ وِدٍّ، ووقفَ سائرُ المشركينَ وراءَ الخندقِ وهم يأمَلونَ أنْ يكونَ دخولُ عمرو بنِ عبدِ ودٍّ ومَنْ معهُ سوفَ يحسِمُ الحربَ.(٣٤٠)

مَقْتَلُ عَمْرو بنِ عبدِ وِدْ

أمرَ النبيُّ عليًّا بأنْ يمضي بِمَنْ خَفَّ معهُ ليأخُذَ الثغْرةَ منهمْ، وقالَ: مَنْ قاتَلَكمْ عليْها فاقْتلوهُ، فتقدَّمَ عليٌّ في نَفَرٍ منَ المسلمينَ، وحينَ وصلوا إلى الثغْرةِ، تقدَّمَ عمرٌو بنُ عبدِ وِدٍّ وهو مُقَنَّعٌ بالحديدِ، فلمّا رأى المسلمينَ وقفَ هو والخيلُ التي معهُ، فصاحَ كأنّما يهدُرُ كالبَعيرِ: هلْ منْ مُبارزٍ؟ وكانَ عمرو بنُ عبدِ ودٍّ فارسَ قريشٍ وبطَلَها، وكانَ يُعَدُّ بألفِ فارسٍ، لم يُهزَمْ في مُبارزةٍ قطُّ، فقالَ النبيُّ: أيُّكُمْ يبرزُ إلى عَمْرٍو وأضمنُ لهُ على اللهِ الجنَّةَ؟ فلم يقُمْ إليهِ أحدٌ، فلمّا أكثرَ منَ النداءِ، قالَ عليٌّ: أنا أُبارزُهُ يا رسولَ اللهِ، فأمرَهُ النبيُّ محمدٌ بالرجوعِ انتِظاراً منهُ ليتحرّكَ غيرُهُ، وأعادَ عمرٌو النداءَ والناسُ سُكوتٌ كأنّ على رؤوسِهِمُ الطيرَ، خَوفاً منْ عمرٍو، ومِمَّن معهُ ومَنْ وراءَهُ، فقالَ عمرٌو: أيُّها الناسُ، إنّكمْ تزعمونَ أنّ قتْلاكمْ في الجَنَّةِ وقتْلانا في النارِ؟ أفما يحبُّ أحدُكمْ أنْ يقدِمَ على الجنَّةِ، أو يُقَدِّمَ عدوّاً لهُ إلى النارِ؟ فلم يجرأْ أحدٌ على مواجهتِه فبرزَ عليٌّ مرّةً ثانيةً وقالَ: أنا لهُ يا رسولَ اللهِ، فأمرَهُ بالجلوسِ، فجالَ عمرٌو بفرسِهِ مُقبِلاً مُدبِراً، وجاءَ قادةُ جيشِ الأحزابِ ووقفوا منْ وراءِ الخندقِ ومَدّوا أعناقَهُمْ ينظرونَ، فلمّا رأى عمرٌو أنّهُ لا أحدٌ يُجيبُهُ، قالَ:

ولَقَدْ بُحِحْتُ منَ النداءِ بِجمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبارِزْ

وَوَقفْتُ إذ جَبُنَ المُشَجَّعُ ... مَوقفَ البَطَلِ المناجِزْ

إنّي كذلكَ لمْ أزلْ ... مُتسرِّعاً نحو الهزاهِزْ

إنّ الشجاعَةَ في الفتَى ... والجُودَ منْ خَيْرِ الغرائزْ

فتقدَّمَ عليٌّ مرَّةً أُخرى وقالَ: يا رسولَ اللهِ ائذَنْ ليْ بِمُبارزَتِهِ، فلمّا طالَ نداءُ عمرٍو بالبِرازِ وتتابَعَتْ مُطالبَةُ عليٍّ بمبارزتِهِ قالَ لهُ رسولُ اللهِ: ادنُ منّي يا عليُّ، فدنا منهُ، فقلَّدَهُ سيفَهُ ذا الفَقارِ، ونزَعَ عَمامَتَهُ منْ رأسِهِ وعمَّمَهُ بِها، وقالَ: امضِ لشأنِكَ، فلمّا انصرفَ قالَ: اللَّهمَّ أعِنْهُ عليهِ، وخرجَ معهُ خطَواتٍ كالمودِّعِ لهُ، وكانَ قلِقاً لحالِهِ، ينتظِرُ ما يكونُ منهُ، ثُمَّ لم يزلْ رافِعاً يديْهِ إلى السماءِ مستقبِلاً لها بوجهِهِ، والمسلمونَ حولَهُ صامِتونَ كأنّ على رؤوسِهِمُ الطيرَ، فخرجَ لهُ عليٌّ وهو راجِلٌ، وعَمْرو كانَ فارساً، فسخِرَ منهُ عمرٌو، ودنا منهُ عليٌّ ومعَهُ جابرٌ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاريْ، ينظرُ ما يكونُ منهُ ومِنْ عمرٍو، فأجابَهُ عليٌّ مُرتَجِزاً:

لا تعجلَنَّ فقد أتاكَ ... مُجيبُ صوتِكَ غيرُ عاجِزْ

ذُو نِيَّةٍ وَبَصيرَةٍ ... والصِّدْقُ مُنْجِيْ كُلَّ فائِزْ

إنّي لَأرجو أنْ أُقيمَ ... عليكَ نائحَةَ الجنائِزْ

مِنْ ضَرْبَةٍ نَجْلاءَ يَبقَى ... ذِكرُها عِندَ الهَزاهِزْ

فقالَ رسولُ اللهِ حينَ تواجَها: بَرَزَ الإسلامُ كلُّهُ إلى الشركِ كلِّهِ، فقالَ لهُ عَمْرٌو: مَنْ أنتَ؟ قالَ: أنا عليٌّ بنُ أبي طالبٍ، فقالَ: يا بنَ أخيْ، أليسَ منْ أعمامِكَ مَنْ هو أسنُّ منكَ، فإنّي أكرهُ أنْ أُهرِقَ دمَكَ؟ فقالَ لهُ عليٌّ: لكنّي واللهِ لا أكرهُ أنْ أُهرقَ دمَكَ، فغضِبَ وسَلَّ سيفَهُ

كأنّهُ شُعلةُ نارٍ ،ثُمَّ أقبلَ نحو عليٍّ مُغْضَباً، واستقبلَهُ عليٌّ بِدَرَقَتِهِ [1]، فضربَهُ عمرٌو في درقتِهِ فَقَدَّها [2] وأثبَتَ فيها السيفَ، فضربَهُ عليٌّ على ساقِهِ، فقطَعَها فوقعَ على قَفاهُ وثارَ العجاجُ بينَهما، وحينَما انجَلَى العجاجُ، ظَهَرَ عليٌّ جاثِياً على عَمْرِو بنِ عبدِ وِدٍّ، ولكنْ لم يضرِبْهُ كأنّه ينتظرُ شيئاً، فَعَلا صوتُ المسلمينَ احتِجاجاً منهمْ لأنّه لم يُنْهِ عليهِ، ثمّ بعد ذلكَ ضربَهُ عليٌّ وأجهَزَ عليهِ فكبَّرَ الناسُ، فسمِعَ رسولُ اللهِ التَّكْبيرَ، فقالَ رسولُ اللهِ: قتَلَهُ والذي نفسيْ بيدِهِ، وتبادرَ أصحابُ النبيِّ حينَ سمِعوا التكبيرَ ينظرونَ ما صنعَ القومُ، وكانَ أوّلَ



شكل(٣٩): علي يقطع ساق عمرو بن عبد وُدّ.

مَنْ ابتدَرَ إلى الذهابِ عمرُ بنُ الخطابِ، فإذا عليٌّ يمسَحُ سيفَهُ بدرْعِ عمرٍو، فكَبَّرَ عمرُ بنُ الخطابِ وقالَ: يا رسولَ اللهِ، لقد قتَلَهُ .

وناوشَ عمرُ بنُ الخطابِ عندئِذٍ ضِرارًا بنَ عَمْرٍو، فحَملَ عليهِ ضرارٌ وطرحَهُ أرضًا حتّى إذا أحسَّ عمرُ مَسَّ الرمحِ فرفعَهُ عنهُ ضِرارٌ، وقالَ: إنّها لَنِعْمَةٌ مشكورةٌ، فاحفَظْها يا بنَ الخطابِ، إنّي كنْتُ آليتُ ألّا تُمَكِّنَني يدايَ منْ قَتْلِ قُرشيٍّ، فأقتلَهُ، وانصرفَ ضِرارٌ راجعاً إلى أصحابِهِ .

---

١ الدرقة: أداة من جلد يحملها المحارب ليتَّقي بها ضَرَبات السيف ونحوه.

٢ قَدَّ الثوْبَ: شقّهُ طولاً.

فانكشفَ أصحابُ عمرٍو بنِ عبدِ ودٍّ وعبرَتْ خيولُهم الخندقَ، ثمّ أقبلَ عليٌّ نحوَ رسولَ الله، ووجهُهُ يتهلّلُ، فقالَ لهُ عمرُ بن الخطّاب: هلّا سلبتَ يا عليُّ دِرعَهُ؟! فإنّه ليس في العربِ درعٌ مثلَها، فقالَ عليٌّ: ضربتُهُ فاتقاني بسوأتِهِ [1]، فاستحيَيْتُ منْ ابن عمِّي أنْ أسلبَهُ، فسألهُ النبيُّ عن وقفتِهِ عند الإجهازِ على عمْرو، فقال عليٌّ: قد كانَ شتمَ أمّي، وتفلَ في وجهي، فخشيتُ أنْ أضربَهُ من أجلِ نفسي، فتركتُه حتّى سكنَ ما بي، ثمّ قتلتُهُ في اللهِ. فقالَ رسولُ الله: ضربةُ عليٍّ يومَ الخندقِ أفضلُ من عبادةِ الثقلَينِ.

انهارَتْ معنويّاتُ قريشٍ وانهزموا بعدما عقدوا الأملَ على اختراقِ عَمْرو بن عبد ودٍّ للخندقِ فبعثوا إلى رسولِ الله أحداً ليشتروا جُثَّةَ عمرو بنِ عبدِ ودٍّ بعشرةِ آلافٍ، فقالَ رسولُ الله: هو لكمْ لا نأكلُ ثمَنَ الموتى، فقالَ رسولُ الله بعد ذلكَ: الآنَ نغزوهُمْ ولا يغزونَنا، هذه الكلمةُ أثارَتْ استغرابَ الجميعِ، أيكونُ ذلكَ؟! أيْ أنّ قريشًا لن تغزو المسلمينَ بعد الآن، وإنّ المسلمينَ هم سوفَ يغزونَهم! وليس في هذه الحربِ وحسْبُ بلْ على الإطلاقِ!

الحَرْبُ خُدْعَةٌ

كانَ نعيمُ بنُ مسعودٍ يُذيعُ ما يسمعُهُ منَ الحديثِ، فمرَّ مرةً بالقربِ من رسولِ الله ذاتَ يومٍ عشاءً فأشارَ إليهِ النبيُّ أنْ تعالَ فجاءَ فقال له: ما وراءَكَ؟! فقالَ: إنّ قريشًا وغطفانَ بعثَتَا إلى بنيْ قُريظةَ يطلبونَ منهم أن يخرجوا إليهِم ليناجزوكَ، فوافقَتْ قريظَةُ وطالبتْ بإرسالِ الرهائن. فقالَ لهُ رسولُ اللهِ: إنّي مُسِرٌّ إليك شيئاً فلا تذكرْهُ؛ إنّهم قد أرسلوا إليَّ يدعونَني إلى الصُلحِ، وإرجاعِ بنيْ النضيرِ إلى دُورِهمْ وأموالِهم، فخرجَ نعيمٌ بنُ مسعودٍ عامداً إلى غطفانَ، وقالَ رسولُ اللهِ: الحربُ خُدعَةٌ، وعسى أنْ يصنعَ اللهُ لنا، فأتى نعيمٌ غطفانَ وقريشاً فأعلَمَهم ما سمعَهُ منَ النبيِّ محمدٍ ، فبادَرَ القومُ وأرسلوا إلى بنيْ قُريظةَ عِكرِمَةَ وجماعةً معهُ يطلبونَ منهمْ أنْ يخرجوا للقتالِ معهمْ، فتعلَّلتِ اليهودُ بالسبْتِ، ثمّ طلبوا

---

[1] السَّوْأة: العورة.

الرهائِنَ للإطمئنانِ، فأوقعَ اللهُ بينَهمْ واختلفوا، ثمّ بلغَ رسولَ اللهِ أنّ بنيْ قريظةَ بعثوا إلى أبي سفيانَ أنّكم إذا التقيْتُم أنتُمْ ومحمَّدٌ ؛ أمدَدْناكمْ وأعنّاكُم، فقامَ النبيُّ خطيباً فقالَ: إنّ بنيْ قريظةَ بعثوا إليْنا؛ إنّا إذا التقيْنا نحنُ وأبو سفيانَ أمَدّونا وأعانونا، فبلغَ ذلكَ أبا سفيانَ فقالَ: غدرَتِ اليهودُ، فارتحلَ عنْهمْ، كانَ النبيُّ يعملُ على إيقاعِ الشكِّ والريْبِ فيما بينَ الأحزابِ بالطريقةِ الإعلاميّةِ الذكيّةِ الواعيَةِ حتّى تحقَّقَ لهُ ما أرادَ، واستطاعَ منْ خلالِ ذلكَ أنْ يُفشِلَ كلَّ مخطّطاتِهم، ويُبطلَ كلَّ ما بذلوهُ منْ جهدٍ للتعاونِ فيْما بينَهم .

المَدَدُ الإلَهِيُّ

استمرَّتْ قريشٌ بمحاصرةِ المدينةِ فتضرَّرَ المسلمونَ واشتدَّ عليهمُ الحصارُ، فدعا النبيُّ ربَّهُ قائلاً: اللَّهمَّ مُنزِلَ الكتابِ، سريعَ الحسابِ، اهزُمِ الأحزابَ، اللهمَّ اهزمْهُمْ، اللهمَّ إنّي أنشدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ اللهمَّ إنكَ إنْ تشأْ لا تُعبَدُ، وكان يدعو في صلاتِهِ: اللهمَّ إنْ تهلِكَ هذه العصابَةُ لم تُعبَدْ في الأرضِ بعدَها، لم يكنِ النبيُّ هو نفسهُ يُعاني من حالةِ الرعْبِ والخَوفِ، وهو الذي كانَ مَصدرَ السكينَةِ والأمنِ والطمأْنينَةِ للناسِ، لكنْ كانَ يُأرِّقُهُ مصيرُ هذا الدينِ وبقائهِ وما يهدِّدُ وجودَهُ، فقامَ رسولُ اللهِ يصلّي إلى أنْ ذهبَ ثلثُ الليلِ فنزلَ عليه جبريلُ فقالَ: يا محمدُ إنّ اللهَ قد سمِعَ مقالتَك وأجابَ دعوتَك وأمرَ الدَبُورَ[١] مع الملائكةِ أنْ تهزمَ قريشاً والأحزابَ، فلمّا كانَتْ ليلةَ السبتِ بعثَ اللهُ ريحاً شديدةً على الأحزابِ، فأكْفأَتْ قُدورَهُم ومنعتَهم من الرؤيةِ وأرسلَ عليهمْ جنوداً من الملائكةِ لم يرَوها قلعوا خيامَهمْ، فأُصيبوا بالذعرِ،(٣٤١) في تلك الليلةِ، كانتْ أصواتُ تكبيرِ الملائكةِ تغمرُ الأجواءَ حولَ جيشِهم، وكانَ عددُهم يصلُ إلى ألفٍ، هذه الملائكةُ لم تشاركْ في القتالِ، لكنّها قامتْ بإزالةِ الأوتادِ، وقطْعِ أطنابِ الخيامِ، وإطفاءِ النيرانِ، وقَلْبِ القُدورِ، وكلُّ مَنْ كانَ هناكَ سمِعَ أصواتَ قعقعَةِ السلاحِ لكنْ لم يكنْ هناك قتالٌ، فعمَّتْ الفوضى وجالتْ الخيلُ

---

١ الدَّبور: رِيحٌ عاصِفةٌ تَهُبُّ من المغرب.

بعضُها في بعضٍ، وقذَفَ اللهُ في قلوبِهم الرعبَ، فارتحلوا على عَجَلٍ وتركوا ما استثقلُوهُ من مَتاعِهِمْ .

بَعْدَ انْتِهَاءِ المَعْرَكَةِ

وكتبَ أبو سفيانَ إلى النبيِّ رسالةً قبلَ الرحيلِ يقولُ فيها: لقد سِرتُ إليكَ في جمْعِنا، وإنّا نريدُ ألّا نعودَ إليكَ أبداً حتّى نستأصِلُكَ، فرأيْتُكَ قد كرهْتَ لقاءَنا وجعَلْتَ مضايقَ وخنادقَ، فليتَ شِعري مَنْ علَّمَكَ هذا؟ فإنْ نرجعُ عنكم فلكُمُ منّا يومٌ كيومِ أُحُدٍ، تُبْقَرُ فيهِ النساءُ . فكتبَ إليه النبيُّ: أمّا بعدُ، فقديماً غرَّكَ باللهِ الغَرورُ، أمّا ما ذكرَتَ أنّكَ سِرتَ إليْنا في جمْعِكُم، وأنّكَ لا تريدُ أنْ تعودَ حتّى تستأصلُنا، فذلكَ أمرُ اللهِ يحولُ بينَكَ وبينَهُ، ويجعلُ لنا العاقبةَ حتّى لا تذكرُ اللّاتَ والعُزَّى، وأمّا قولُكَ: مَنْ علَّمَكَ الذي صنَعْنا منَ الخندقِ، فإنّ اللهَ ألهمَني ذلكَ لمّا أرادَ من غيظِكَ بهِ وغيظِ أصحابِكَ، ولَيأتيَّنَ عليكَ يومٌ تدافعُني بالراحِ [١]، وليأتيَّنَ عليكَ يومٌ أكسِرُ فيهِ اللّاتَ والعُزَّى وأَسافَ ونائلَةَ وهُبَلَ حتّى أذكُرُكَ ذلك .

فجلسَ أبو سفيانَ كالمُنهزِمِ على بعيرِهِ، ثمّ ضربَهُ فمشى فناداهُ عِكرمَةُ: إنّكَ رئيسُ القومِ وقائدُهُم، تذهبُ، وتتركُ الناسَ؟ فاستحْيا، فأناخَ جَملَه ونزلَ عنهُ، وأخذَ بزمامِه وهو يقودُهُ، وقالَ: ارحلوا، فأخذَ الناسُ يرتحلونَ وهو قائمٌ حتّى خفَّ العسكرُ، ثمّ قالَ لعمرٍو بنِ العاصِ: يا أبا عبدِ اللهِ، لا بدَّ ليْ ولكَ أنْ نُقيمَ في مجموعةٍ من الخيّالةِ بإزاءِ محمدٍ وأصحابِه، فإنّا لا نأمَنُ أنْ نذهبَ حتّى ينفَذَ العسكرُ، فقالَ عَمْرٌو: أنا أُقيمُ، وقالَ لخالدٍ بنِ الوليدِ: ما ترى يا أبا سلمانَ؟ قالَ: أنا أيضاً أُقيمُ، فأقامَ عمرٌو وخالدٌ في مئتيْ فارسٍ، وسارَ العسكرُ إلاّ هذه المجْموعَةَ منَ الخيّالةِ ثمّ لِحقوا بالعسكرِ معَ ارتفاعِ النهارِ .

كانَتْ تلكَ الليلةُ بالنسبَةِ لكثيرٍ منَ المسلمينَ بِمثابَةِ كابوسٍ مخيفٍ لِما سمعوهُ منْ أصواتٍ و ما كانوا يتوقّعونَه منْ مفاجئاتٍ لم يحسِبوا لها حساباً، ونحنُ وإنْ كنّا نصدّقُ أنّ لليلِ رهبتَهُ،

---

١ الراّح جمع راحَة: اي بالكف، والمعنى: تدفعني وتحتمي مني البراح، كناية عن عجزه وضعفه.

ولكنْ وجودُ الرسولِ فيْما بينَهم، وهو الذي لم يزلْ يطمْئنُهُم إلى نصرِ اللهِ وعَونِهِ، كانَ ينبغيْ أنْ يُطمْئنَهُم، ويُذهِبَ حالةَ الخوفِ والرعبِ منْ نفوسِهِم لو كانوا راسخيْ القدَمِ في الإيمانِ، والتسليمِ للهِ ولرسولِه، أمّا المنافقونَ فقد كانوا مرعوبينَ، ومِنْ شدّةِ خَوفِهِمْ لم يعْقِلوا أنّ جيوشَ الأعداءِ قد رحلَتْ، فخيَّمَ عليهمْ كابوسٌ مخيفٌ، فكأنّ جنودَ الكُفرِ يمرّونَ دائماً أمامَ أعيُنِهم وقد سَلّوا السيوفَ ومالُوا عليهمْ بالرماحِ، فهُمْ في خوفٍ شديدٍ على أنفسِهم لدى سماعِ صهيلِ الخيلِ ورُغاءِ البعيرِ ظنّاً منهمْ أنّ جيوشَ الأحزابِ قد عادَتْ،(٣٤٢) فقد أخبرَ اللهُ بأنّه يودّونَ لو أنّهم ينتشِرونَ ويختَفونَ في الصحراءِ بينَ أعرابِ الباديةِ بعيداً عنِ المسلمينَ والمدينةِ هرباً منَ الأحزابِ، ثمّ يتتبّعونَ أخبارَ المسلمينَ لحظَةً بلحظَةٍ لئلّا تكونَ الأحزابُ قد اقتربَتْ منهمْ، ولو أنّهم لم ينهَزموا ويفِرّوا منَ الميدانِ وبقوا معَ المسلمينَ، فما كانوا لِيُشاركوا في القتالِ إلاّ قليلًا.(٣٤٣)

عادَتْ الأحزابُ بالفشلِ والهزيمةِ رغمَ تحشيدِهم الجيوشَ والعَتادَ، عادوا مكسورينَ فاشلينَ متنازِعِينَ فيما بينَهم، إذْ إنّ طولَ الحصارِ أمامَ خندقِ المدينةِ، أنهَكَهم حتّى أصبحوا يواجهونَ مشكلاتٍ في التموينِ، وهذا ما لم يحسِبوا حِسابَه، ثمّ ظهرَتْ خلافاتٌ زعزعَتْ الثّقةَ فيما بينَ الفُرقاءِ المُتآلفينَ، وهذه الخلافاتُ كانتْ بتخطيطٍ منَ الرسولِ، ثمّ أدّى قتلُ عليٍّ لعمرٍو، فارسِ الأحزابِ، إلى فرارِ الباقينَ الذينَ كانوا معهُ، فكانتْ ضربَةً قاصمةً لهمْ، ومرعبةً لقلوبِهم، وجاءتْ أخيراً الريحُ لتُثيرَ في نفوسِهِمُ المزيدَ منَ الخوفِ والرهبَةِ، والإحساسِ بالوحْشَةِ والوحدَةِ، فانشغلَ كلُّ واحدٍ بحِفظِ نفسهِ في مواجهةِ طغيانِ هذه الريحِ، ولا أحدَ يستطيعُ مساعدتَهُ والدفْعَ عنهُ، كلُّ هذه العواملِ كانَ لها الأثرُ الأكبرُ في هزيمةِ الأحزابِ وخَيْبَتِهمْ.(٣٤٤)

غزوةُ بنيْ قريظةْ

كانَ من بنودِ معاهدةِ المدينةِ : (وإنَّ على اليهودِ نَفَقَتَهُم وعلى المسلمينَ نفقتَهُم، وإنَّ بينَهم النصرَ على مَنْ حاربَ أهلَ هذه الصحيفةِ، وإنَّ بينَهمُ النُّصْحَ والنصيحةَ والبِرَّ دونَ الإثمِ) ،(٣٤٥) أيْ إنّ على اليهودِ أنْ يقفوا إلى جانبِ المسلمينَ ضدَّ كفّارِ قريشٍ، وأنَّ عليهم أنْ

ينصروا المسلمينَ أو على الأقلِّ أنْ يدعموهُمْ بالمالِ والسلاحِ إنْ لم يُريدوا أنْ يحاربوا معَهم بأنفسِهم، وعلى المسلمينَ نصرُ اليهودِ بالمِثْلِ، كما لم يكنْ في المعاهدةِ التي كانَتْ بينَهم وبينَ النبيِّ بندٌ يسمحُ لهم بالتخلُّفِ عن المعاركِ التي تقعُ خارجَ المدينةِ وحولَها، ويهودُ بني قريظةَ كانوا من بين يهودِ المدينةِ الذين عاهدوا رسولَ اللهِ على ألّا يُعينوا عليهِ عدوًّا، لكنَّهم نقضوا العهدَ ولم يساعدوا المسلمينَ في معركتِهم ضدَّ قريشٍ في بدرٍ، بلْ أعانوا أهلَ مكّةَ يومَ بدرٍ بالسّلاحِ ووقفوا ضدَّ المسلمينَ، وحينَ واجهَهُمُ النبيُّ بذلكَ، قالوا: نسِينا و أخطأنا، فعَفَا عنهم رسولُ اللهِ وعاهدَهم مرَّةً أُخرى،(٣٤٦) لكنَّهم نقضوا عهدَهم مرةً أُخرى وخانوا رسولَ اللهِ وتآمروا عليه في حربِ الأحزابِ، فأرسلَ رسولُ اللهِ سعدًا بنَ مُعاذٍ وآخرينَ إليهم، لاستطلاعِ الأمرِ، فحاولَ سعدٌ إقناعَهم بالتخَلِّي عن فكرةِ نقضِ العهدِ، فسمِعَ منهم ما يكرهُ، ولم يزدْهُم ذلكَ إلّا استكباراً وإصراراً (٣٤٧) .

يُبَيِّنُ اللهُ في القرآنِ أنّ قيمَةَ الإنسانِ بعهدِهِ وكلمتِهِ، والذين لا عهدَ لهم هم شرُّ الكائناتِ التي تدبُّ على الأرضِ، وهو يُعرِّضُ بذلك بيهودِ بني قُريظَةَ، الذين تعاهدوا مع النبيِّ بأنْ ينصروهُ ولا يحاربونَهُ ولا يتعاونوا مع أعدائهِ ضدَّهُ، لكنّهم نقضوا العهدَ أكثرَ من مرَّةٍ، وقد وصفَهم اللهُ بالكافرينَ وذلك لأنَّ كثيراً من يهودِ المدينةِ كانوا يُعلنونَ حُبَّهم للنبيِّ وإيمانَهُم بهِ قبلَ أنْ يظهرَ، وفقاً لِما وجدوهُ مكتوباً عنهُ في كُتبِهم، حتّى أنّهم كانوا يدعونَ الناسَ ويمهِّدونَ الأُمورَ لظهورِهِ، ولكنّهم وبعدَ أنْ ظهرَ وجدوا أنّ مصالحَهم الماديّةَ مهدَّدةٌ بالخطرِ، فكفروا بهِ وأظهروا عِناداً شديداً في هذا الأمرِ حتّى لم تبقَ بارقةُ أملٍ بإيمانِهم.

ثمّ يُعلمُ اللهُ نبيَّهُ أُسلوبَ مواجهةِ هؤلاءِ ويقولُ: يا محمدُ ، إذا أدركْتَهُم في حربٍ انتصرْتَ فيها عليهم فأدِّبْ غيرَهم بالقصَاصِ منهم لعلَّ أولئك الذين وراءهم يعيدونُ حساباتِهم ويعتبِرونَ بذلك ويتفرّقونَ عنهمْ، وهذا الأمرُ إنّما صدرَ ليعتبرَ بهِ الأعداءُ الآخرونَ، بل حتّى الأعداءُ في المستقبلِ أيضاً ويتجنَّبوا الحربَ ضدّ المسلمينَ، وليتجنّبَ نقضَ العهدِ الذينَ لهم عهودٌ مع المسلمينَ، يا محمدُ ، إنْ ظهرَتْ بوادرُ نقضِ العهدِ ممّن بينَك وبينَهم عهدٌ، رُدَّ إليهم عهدَهم وأخْبرَهم أنّك قد أبطلْتَهُ فتكونَ أنتَ وإيّاهم في مستوىً واحدٍ من العلمِ أنّه

لا عهدَ بينَكم، وعندَها إزحَفْ نحوَهم وأوقِعْ بهِم وإيّاكَ أنْ تزحفَ إليهم قبلَ إخبارِهمْ بفسْخِ العهدِ فيكونَ ذلك خيانةٌ واللهُ لا يحبُّ الخائنين (٣٤٨) .

في يومِ الأربعاءِ في السنةِ الرابعةِ للهجرةِ لمّا انصرَفَ النبيُّ من الخندقِ ودخلَ المدينةَ ووضَعَ السلاحَ، جاءَهُ جبريلُ وعلى ثناياهُ نَقْعُ الغبارِ، فأخبرَهُ أنّ الملائكةَ التي حاربَتْ الأحزابَ لم يضعوا السلاحَ بعدُ، وقالَ لهُ: لقد طردْناهم إلى حمراءِ الأسدِ، وإنَّ اللهَ يأمرُكَ بالمسيرِ إلى بنيْ قُريظةَ، فإنّي عامدٌ إليهم فَمُزَلزِلٌ بهم، وحينَ غادرَ جبريلُ من عند النبيِّ ، جاءَ أحدُ المسلمينَ للنبيِّ وقالَ لهُ: بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ اللهِ، هذا دحيَّةُ الكَلبِيِّ ينادي في الناسِ: ألا لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلّا في بني قريظةَ، فقالَ النبيُّ: ذاكَ جبريلُ، ادعُ لي عليًّا، فجاءَ عليٌّ، فقالَ لهُ: نادِ في الناسِ ألا لا يُصلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلّا في بني قريظةَ، فجاءَ عليٌّ، فنادى فيهم، فخرجَ الناسُ، فبادروا إلى بني قريظةَ، وخرجَ رسولُ اللهِ وعليٌّ بنُ أبي طالبٍ بين يديهِ مع الرايةِ في أثَرِ جبريلَ، لكنْ لم يفهمِ المسلمونَ أوامرَ النبيِّ رغمَ وضوحِ كلامهِ، فمنهمْ مَنْ لم يصِلْ حتّى جاءَ بنو قُريظةَ، ومنهمْ مَنْ قد صلّى، فاجتمعوا عندَ النبيِّ عند الغروبِ، لكنّ النبيَّ لم يَلُمْ أحداً منهمْ على ذلكَ وقد عذَرَهمْ بفهْمِهمُ الخاطئِ لمَرمَى كلامِهِ، فسارَ المسلمونَ إليهمْ، ووجدوا النخْلَ محيطاً بقصرِهمْ، ولم يكنْ للمسلمينِ معسكرٌ ينزلونَ فيهِ، ووافاهمْ رسولُ اللهِ فقالَ لهمْ: ما لكُمْ لا تنزلونَ؟! فقالوا: ما لنا مكانٌ ننزلُ بهِ، منَ اشتباكِ النخْلِ، فوقفَ في طريقٍ بينَ النخلِ فأشارَ بيدهِ يُمنَةً، فانضمَّ النخلُ بعضُهُ إلى بعضٍ، وأشارَ بيدهِ يُسرَةً فانضمَّ النخلُ كذلكَ، واتسَعَ لهمْ الموضعُ، فَنزَلوا .

وقدّمَ رسولُ اللهِ عليًّا بنَ أبي طالبٍ برايتهِ إلى بني قريظةَ في ثلاثينَ من الخزرجِ، وقالَ: انظرْ بني قريظةَ، هل نزلوا من حصونِهم؟ فلمّا شارفَها سمعَ منهم الهُجْرَ، فرجعَ إلى النبيِّ فأخبَرهُ بما قالوا، فقالَ رسولُ اللهِ: دعْهم، فإنّ اللهَ سيُمَكِّنُ منهم، إنّ الذي أمكَنكَ من عمرو بنِ عبدِ وِدٍّ لا يخذُلُك، فسارَ عليٌّ حتّى دنا من سورِهم، فأشرفوا عليه،فلمّا رأوهُ صاحَ صائحٌ منهم: قد جاءَكمْ قاتلُ عمرو، وجعلَ بعضُهم يصيحُ ببعضٍ ويقولونَ ذلكَ، وألقى اللهُ في قلوبِهم الرعبَ، فقال عليٌّ: الحمدُ لله الذي أظهرَ الإسلامَ وقمعَ الشِرْكَ، ثمّ غرزَ عليٌّ الرايةَ عند أصلِ الحصِنِ، فاستقبلوهُ في حِصنِهم يشتمونَ رسولَ اللهِ وأزواجَهُ.

حاصرَ رسولُ الله حِصنَهم، وناداهم لعلَّهمْ يُذعنونَ وينزلونَ على حُكمهِ، لكنَّهم تباطؤوا في إجابةِ طلبِ النبيِّ، فلم يسلمْ من اليهودِ إلّا القليلُ، أمنوا على أنفسهِم وأموالِهم، ومنهم من بقيَ على اليهوديةِ لكنّه لم يرضَ أن يدخلَ مع بني قُريظةَ في غدرِهمْ للرسولِ فبقيَ على الحيادِ وغادرَ المدينةَ.

حينَ فَقَدَ بنو قريظةَ الأملَ بالانتصارِ وأيقَنوا بالهلاكِ، أنزَلوا نبّاشًا بنَ قيسٍ فكلَّمَ رسولَ اللهِ ساعةً، وقالَ: يا محمدُ ننزِلُ على ما نزلَتْ عليهِ بنو النضيرِ، لكَ الأموالُ والسلاحُ، وتَحقِنُ دِماءَنا، ونخرجُ منْ بلادِكمْ بالنساءِ والذراري، ولنا ما حملَتْ الإبلُ إلّا السلاحَ، فأبَى رسولُ اللهِ، فقالوا: فتَحقِنَ دماءَنا، وتُسلِّمَ لنا النساءَ والذريّةَ، ولا حاجةَ لنا فيما حملَتْ الإبلُ، فقالَ رسولُ اللهِ: لا، إلّا أنْ تنزِلوا على حُكْمي، فرجعَ نبّاشٌ إلى أصحابِهِ بمقالةِ رسولِ اللهِ، فقالَ كعبٌ بنُ أسدٍ: يا معشرَ بنيْ قُريظةَ: واللهِ، إنّكُم لتعلَمونَ أنّ محمدًا نَبيُّ اللهِ، وما منعَنا منَ الدخولِ معهُ إلّا حسداً للعربِ، إذْ لم يكنْ نبيّاً منْ بنيْ إسرائيلَ، فهو حيثُ جعلَهُ اللهُ، ولقد كنتُ كارهاً لنقضِ العهدِ والعقْدِ، ولكِنّهُ بلاءٌ وشؤمُ هذا الجالسِ - يعنيْ حُيَيَّ بنَ أخْطَبَ - علينا وعلى قومِهِ، وقومُهُ كانوا أسوأَ منّا، ثمّ قالَ: لا يستَبقيْ محمدٌ رجلاً واحداً إلّا مَنْ تَبِعَهُ، أتذكرونَ ما قالَ لكمُ ابنُ حوّاسٍ حينَ قَدِمَ عليكمْ، إذْ قالَ: تركتُ الخمْرَ والخميرَ والتأميرَ، وجِئْتُ إلى السِقاءِ والتمرِ والشعيرِ؟! قالوا: وما ذلكَ؟ قالَ: يخرجُ منْ هذه القريةِ نبيٌّ، فإنْ خرجَ وأنا حيٌّ اتّبَعْتُهُ ونصرتُهُ، وإنْ خرجَ بعدي فإيّاكمْ أنْ تُخدَعوا عنهُ، فاتّبِعوهُ وكونوا أنصارَهُ وأولياءَهُ، وقد آمنْتُمْ بالكتابَينِ كليْهما الأوّلِ والآخرِ، قالَ كعبٌ: فتعالوا فلنتَّبِعْهُ ولنصدِقْهُ ولنؤمِنْ بهِ، فنأمَنَ على دمائنا ونسائنا وأموالِنا، فنكونُ بمنزلةِ مَنْ معهُ، فقالوا: لا نكونُ تبَعاً لغيرِنا، نحنُ أهلُ الكتابِ والنبوّةِ، أنكونُ تبَعاً لغيرِنا؟! فجعلَ كعبٌ يردُّ عليهمُ الكلامَ بالنصيحةِ لهمْ، فقالوا: لا نفارقُ التوراةَ، ولا ندعُ ما كُنّا عليه من أمرِ موسى، قالَ: فَهَلُمَّ فلنقتُلْ أبناءَنا ونساءَنا، ثمّ نخرجُ في أيدينا السيوفُ إلى محمدٍ وأصحابِه، فإنْ قُتِلنا، قُتِلنا وما وراءَنا أمرٌ نهتمُّ به، وإنْ ظفِرْنا فلَعَمْرِي لنتّخذَنَّ النساءَ والأبناءَ، فتضاحَكَ حُيَيُّ بنُ أخطبَ، ثمّ قالَ: ما ذنبُ هؤلاءِ المساكينِ؟ وقالَ رؤساءُ اليهودِ: ما في العيشِ خيرٌ بعد هؤلاءِ، قالَ كعبٌ: فواحدةٌ قد بقيَتْ منَ الرأيِ لم يبقَ غيرُها، فإنْ لم تقبلوها فأنتمْ بنو أُسْتِها، قالوا: وما هي؟! قالَ: الليلةُ السبتُ، والحريُّ أنْ يكونَ محمدٌ وأصحابُه آمنينَ لنا فيها أنْ

نقاتلَه، فنخرُجُ فلعلّنا أنْ نصيبَ منهم غِرّةً، قالوا: نفسدُ سبتَنا، وقد عرفتَ ما أصابَنا فيهِ؟! قالَ حُيَيٌّ: قد كنتُ دعوتُ إلى هذا وقريشٌ وغطفانُ حضورٌ فأبَتْ اليهودُ أنْ تكسرَ السبتَ، فلو أرادَ اليهودُ ذلكَ لفعلوا وقتَها، فصاحَتْ اليهودُ: لا نكسرُ السبتَ، قالَ نبّاشُ بنُ قيسٍ: وكيفَ نصيبُ منهم غِرّةً؟! وأنتَ ترى أنّ أمرَهم كلَّ يومٍ يشتدُّ؛ كانوا أولَ ما يحاصرونَنا إنّما يقاتلونَ في النهارِ ويرجعونَ الليلَ، فكانَ هذا لكَ قولاً لو بيَّتْناهُمْ، فهم الآنَ يبيتونَ الليلَ ويظلّونَ النهارَ، فأيُّ غِرّةٍ نصيبُ منهمْ؟! هي ملحمةٌ وبلاءٌ كُتِبَ علينا، فاختلفوا وسَقَطَ في أيديهِمْ، ونَدِموا على ما صنعوا، ورقّوا على النساءِ والصبيانِ، فبكَتِ النساءُ والصبيانُ .

بعثَ النبيُّ جيشًا بقيادةِ أكابرِ أصحابهِ إلى بنيْ قُريظةَ فهُزموا، ثمّ بعثَ عليًّا بنَ أبي طالبٍ فقالَ عليٌّ: واللهِ، لأذوقَنَّ ما ذاقَ حمزةُ أو أقتحِمُ حِصْنَهُمْ، فتقدَّمَ إليهمْ ثمّ صاحَ: يا كتيْبَةَ الإيمانِ، فقتلَ عليٌّ عشرةً من رجالِهمْ وأُلِيْ النجْدَةِ منهمْ، فخافَ اليهودُ منْ مهاجَمَةِ عليٍّ لهمْ، وسألوا النبيَّ أنْ يُرسلَ إليهمْ أبا لُبابَةَ ليُشاوِروهُ في أمرِهمْ فأرسلَهُ إليهمْ، وقالَ لهُ: فأتِهِمْ، وقلْ معروفاً، وكانَ أبو لُبابةَ مُناصحاً لهمْ، لأنّ مالَهُ وعيالَهُ ووِلْدَهُ كانوا فـي بنيْ قريظةَ، كانَ قد ابتاعَهُ منهمْ النبيُّ ثمّ أعتَقَهُ، فلمّا طلعَ عليهمْ انتحبوا في وجهِهِ يبكونَ، وقالوا: لا طاقةَ لنا اليومَ بقتالِ مَنْ وراءَكَ، فقامَ كعبٌ بنُ أسدٍ، فقالَ: أبا بشيرٍ، قد علمْتَ ما صنَعْنا في أمرِكَ، وأمرِ قومِكَ يومَ الحدائقِ وبُعاثَ، وكلِّ حربٍ كنتمْ فيها، وقد اشتدَّ علينا الحصارُ وأُهلِكْنا، ومحمدٌ يأبَى أنْ يُفارقَ حِصنَنا حتّى ننزِلَ على حُكْمِهِ، فلو زالَ عنّا لحِقْنا بأرضِ الشّامِ أو خيْبرَ، ولم نطأْ لهُ حرّاً أبداً، ولم نُكثِرْ عليهِ جمْعاً أبداً، ثمّ أنحى أبو لبابةَ وكعبٌ بنُ أسدٍ باللّائمةِ على حُيَيٍّ بنِ أخطَبَ، فقالَ حييٌّ: ملحمةٌ وبلاءٌ كُتِبَ عليْنا، ثمّ استشاروا أبا لُبابةَ في النزولِ على حُكْمِ النبيِّ، فقالَ لهمْ: نعمْ، فانزَلوا، وأشارَ إلى حلقِهِ، أيْ إنّه الذبْحُ، فَهِمَ اليهودُ الرسالةَ التي كانَ يريدُ أبو لبابةَ إيصالَها لهمْ فقَرَّروا الاستسلامَ بشَرْطِ أنْ يَحكُمَ فيهمْ شخصٌ لهمْ معهُ قرابةٌ، فاختاروا سعدًا بنَ معاذٍ سيّدَ ا (٣٤٩) رجعَ أبو لُبابةَ إلى رسولِ اللهِ وأخبرَهُ باستسلامِ يهودِ بنيْ قريظةَ، فقالَ لهُ: أحسِبْتَ أنّ اللهَ غَفِلَ عنْ يدِكَ حيثُ تشيرُ إليهمْ إلى حَلْقِكَ؟ فعَتِبَ عليهِ رسولُ اللهِ، فندِمَ أبو لُبابةَ منْ خيانتِهِ وفَزِعَ. سُرَّ رسولُ اللهِ بخبرِ استسلامِ اليهودِ وإحرازِ النصرِ على يدِ عليٍّ، فأرادَ أنْ يكلِّمَ أصحابَهُ وكانَ الذينَ يلتفُّونَ حولَهُ حينَها جماعةٌ منْ ذوي القدْرِ والشأنِ منَ المهاجرينَ والأنصارِ،

وفيهمْ خالدُ بنُ سعيدٍ وأبو بكرٍ، فقالَ النبيُّ مخاطِبَهمْ: "يا معاشرَ قريشٍ، إنّي أوصيَكُمْ بِوصيَّةٍ فاحفظوها عنّي، ومودِعُكمْ أمراً فلا تُضيّعوهُ، إنّ عليًّا بنَ أبي طالبٍ إمامُكُمْ منْ بعديْ، وخليفَتيْ فيكُمْ، وبذلكَ أوصانيَ ربِّي ..."

مُحَاكَمَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ

ثمّ رجعَ النبيُّ محمدٌ إلى المدينةِ بعد بضعةِ أيامٍ وتمَّ حبسُ بني قُريظةٍ في دارِ رَملَةَ بنتِ الحارثِ الأنصاريَّةِ، وجعلوا ليلتَهم يدرسونَ التوراةَ، وأمرَ بعضُهم بعضاً بالثباتِ على دينِهِ ولزومِ التوراةِ، كانَ النبيُّ يوصِي المسلمينَ ويقولُ: اسقوهُمْ العَذْبَ، وأطعِموهُمُ الطيِّبَ، وأحسِنوا إسارَهُم، وأمرَ رسولُ اللهِ بأحمالِ التمرِ، فنُثِرَتْ عليهم، فباتوا يأكلونَها .

لمّا كانَ النبيُّ في مجلسٍ، جاؤوا بالأسرى إلى رسولِ اللهِ، ودنَتْ الأوسُ إلى رسولِ اللهِ، وطلبوا منه أنْ يهبَ لهم حُلفاءَهم من بني قُريظةَ، كما وهبَ لابنِ أُبَيٍّ ثلاثَةَ مئةِ حاسرٍ وأربعةَ مئةِ دارعٍ من بني قَينُقاعَ [١]، ورسولُ اللهِ ساكتٌ لا يتكلمُ، حتّى أكثروا عليهِ وألحُّوا، ونطقَتْ الأوسُ كلُّها، فقالَ لهم: أما ترضونَ أن يكونَ الحُكْمُ فيهم إلى رجلٍ منكم؟! قالوا: بلى! قالَ: فذلِك إلى سعدِ بنِ معاذٍ، وكانَ سعدٌ مصابًا يتداوى في خيمةِ رفيدةٍ في المسجدِ النبويّ، فذهبَتْ جماعةٌ منَ الأوسِ إلى سعدٍ، فحملوهُ على حمارٍ وطلبوا منهُ أنْ يُحسنَ في مواليهِ كما صنعَ ابنُ أُبيٍّ في حلفائهِ، والضحّاكُ بنُ خليفةٍ يقولُ: يا أبا عَمْرو، مَواليكَ! مواليكَ! قد منعوكَ في المواطنِ كلِّها، واختاروكَ على مَنْ سواكَ، ورجوا عِياذَكَ، ولهم جِمالٌ وعَددٌ، وقال سلمةُ بنُ سلامٍ بنُ وقشٍ: يا أبا عمرو، أحسنْ في مواليكَ وحلفائكَ، إنّ رسولَ اللهِ يحبُّ البقيّةَ، نصروكَ يومَ البُعاثِ والحدائقِ والمواطنِ، ولا تكنْ شَرّاً من ابنِ

---

١ في ذلك الوقت، استجاب النبي محمد لطلب ابن أبي بعدم قتل بني قينقاع وإخلائهم من المدينة بدلاً من ذلك، وذلك لأنهم كانوا حلفاء لابن أبي وقد ساعدوه في الماضي، كما أنه كان يخشى أن تتغير الأوضاع وقد يحتاج إلى مساعدتهم في المستقبل، استجابة النبي لطلب ابن أبي كانت ضرورية في تلك الظروف، وكان الهدف منها الحفاظ على استقرار الجبهة الداخلية والحفاظ على علاقات جيدة مع المنافقين لكسب أكبر عدد منهم في المستقبل. (٤٩٣)

أُبيٍّ، وسعدٌ يسمَعُ ولا يتكلمُ، فلما أكثروا عليه قالَ: قد آنَ لسعدٍ ألّا تأخذَهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ، فقالَ الضحّاكُ بنُ خليفةَ: وا قوماهْ، وقالَ مُعْتِبٌ بنُ قشيرٍ: وا سوءَ صباحاهْ، وقالَ حاطبٌ بنُ أميّةَ الظُفري: ذهبَ قومي آخرَ الدهرِ، فلمّا أقبلَ سعدٌ إلى رسولِ اللهِ والناسُ جلوسٌ حولَه قالَ إلى الأوسِ: قوموا إلى سيِّدكم، فقاموا على أرجلِهم صفَّينِ، يحيِّيهِ كلُّ رجلٍ منهم حتّى انتهى إلى رسولِ اللهِ، وطلبتْ الأوسُ الذين بقوا عند رسولِ اللهِ من سعدٍ أنْ يحسنَ في بني قُريظة، ويذكرَ بلاءَهم عندَه، وقالوا له: إنّما ولّاكَ لتحسِنَ فيهم، ثمّ قالَ سعدٌ: عليكم عهْدُ اللهِ وميثاقُه أنّ الحُكْمَ فيكم ما حكمْتُ؟ قالوا: نعمْ، فقالَ سعدٌ للناحيةِ الأخرى التي فيها رسولُ اللهِ، وهو مُعرِضٌ عنها، إجلالاً لرسولِ اللهِ: وعلى مَنْ هاهُنا مِثْلُ ذلكَ؟! فقالَ رسولُ اللهِ، ومَنْ معهُ: نعمْ، فقالَ سعدٌ: فإنّي أحكُمُ فيهم أنْ يُقتَلَ مَنْ حَزَّبَ عليه [1]، وتُسبى النساءُ والذريّةُ، وتُقَسَّمَ الأموالُ، فقالَ رسولُ اللهِ: لقد حكمْتَ بحُكمِ اللهِ عزَّ وجلَّ من فوقِ سبعةِ أرقِعَةٍ [2]، ثمّ حكمَ سعدٌ بأنْ تكونَ الديارُ للمهاجرينَ دونَ الأنصارِ، فقالتْ الأنصارُ: إخوانُنا، كنّا معهم! فقالَ سعدٌ: إنّي أحببْتُ أنْ يستغْنوا عنكُم.(٣٥٠)

بعدَها تمَّ تنفيذُ الحُكمِ الشرعيِّ الإلهيِّ بقتلِ كلِّ مَنْ حزّبَ على النبيِّ وحاربَهُ، وكانَ عددُهم أربعينَ مقاتلًا، وأسرَ جماعةً آخرينَ، ثمّ قسّمَ النساءَ والأبناءَ والأموالَ بينَ المسلمينَ.(٣٥١)

حكى اللهُ بأنّهُ هو مَنْ أنزلَ اليهودَ الذينَ تآمروا على المسلمينَ من حصونِهم وقَذَفَ في قلوبِهِمُ الرعْبَ، ثمّ قد قمتُمْ يا أيُّها المسلمونَ بقتلِ بعضِ المقاتلينَ وأسرِ البعضِ الآخرِ، واللهُ هو الذي أعطاكُم أرضَهم وبيوتَهم وأموالَهم وأرضاً أُخرى لم تصِلوها من قَبْلُ، واللهُ قادرٌ على كلِّ شيء.(٣٥٢)

---

١ حَزَّبَ عليه: أي تآمر عليه وقاتله وحاربه.

٢ أي سبع سماوات.

بَحْثٌ حَولَ العبُوديَّةْ

هنا يجبُ التوقّفُ قليلاً عن سردِ قصَّةِ النبيِّ محمدٍ لتوضيحِ بعضِ الحقائقِ التاريخيةِ عن العبوديّةِ، ثمّ نواصلُ بعدَها.

العبوديَّةُ أو الرّقُّ هي حالةُ امتلاكِ إنسانٍ لإنسانٍ آخرَ، وقد ظهرَتْ العبوديةُ في العديدِ من الثقافاتِ منذ بدايَةِ الحضارةِ وكانتْ مشروعَةً قانونيّاً في المجتمعاتِ، ولكنْ، في الأوقاتِ الحديثةِ، أصبحَتْ غيرَ قانونيّةٍ وبالتالي تمَّ إلغاؤها تدريجيّاً من القَرنِ الثامنِ عشرَ إلى القَرنِ العشرينَ، وعلى الرغْمِ منْ إلغاءِ الشكلِ القديمِ للعبودِيّةِ إلى حدٍّ كبيرٍ، إلّا إنّه للأسفِ لا يزالُ موجودًا اليومَ في أشكالٍ مختلفةٍ، يُشارُ إليها غالبًا باسمِ العبودِيّةِ الحديثةِ، وتشملُ: الإتجارَ بالبشَرِ، والعملَ القسريَّ، وعبوديَّةَ الدينِ/السُخرَةَ، والزواجَ القسْريَّ، والإستعبادَ المنزلِيْ. (٣٥٣)

عندما ظهرَ الإسلامُ، كان الرّقُّ نظامًا معترفًا بهِ في جميعِ أنحاءِ العالمِ، بلْ كانَ عملةً اقتصاديّةً واجتماعيّةً متداولَةً، لا يستنكرُها أحدٌ، ولا يفكّرُ في إمكانِ تغييرِها أحدٌ، لذلكَ كانَ تغييرُ هذا النظامِ أو مَحْوهُ أمراً يحتاجُ إلى تدّرجٍ شديدٍ وزمنٍ طويلٍ، فلم يكنْ بوسْعِ الإسلامِ يومئذٍ القضاءُ على الرقِ لأنّه لا يتعلّقُ بهِ وحدَهُ، وإنّما يتعلّقُ بأعدائهِ الذينَ ليس لهُ عليْهمْ سلطان. لقد كانَ العُرْفُ السائدُ في العصورِ القديمَةِ هو استرْقاقُ أسرى الحربِ أو قتْلِهمْ، هذا العُرفُ كانَ موجودًا منذُ زمنٍ بعيدٍ، حيثُ تضمّنَتْ مِسَلّةُ حَمورابيْ، التي تعودُ إلى القرنِ الثامنِ عشرَ قبلَ الميلادِ، قوانينَ تُنَظّمُ علاقةَ العبيدِ بأسيادِهمْ.

الرقُّ كانَ جزءً لا يتجزّأُ منْ تاريخِ البشريّةِ في مختَلَفِ مراحلِها، وعندما جاءَ الإسلامُ، كانَ الناسُ ما زالوا يعيشونَ تحتَ هذا النظامِ، وحينَ وقعَتْ بينَهُ وبينَ أعدائهِ الحروبُ، فكانَ الأسرى المسلمونَ يُسترَقّونَ من قِبلِ أعداءِ الإسلامِ، فتُسْلَبُ حرّياتُهمْ، ويُعامَلُ الرجالُ منهمْ بتعسُّفٍ وظلمٍ، وتُنتَهَكُ أعراضُ النساءِ، عندئذٍ لم يكنْ في وِسْعِ الإسلامِ أنْ يطلِقَ سراحَ مَنْ يقعُ في يدهِ منْ أسرى الأعداءِ، فليسَ منْ حُسْنِ السياسةِ أنْ تشجّعَ عدُوَّكَ عليكَ بإطلاقِ

أسْراهُ، بينَما أهلُكَ وعشيرتُكَ واتباعُ دينِكَ يعيشونَ الخوفَ والعذابَ عند هؤلاءِ الأعداءِ، والمعامَلُةُ بالمِثْلِ هنا هو أعدلُ قانونٍ تستطيعُ استخدامَهُ، أو هو القانونُ الوحيدُ الذي يمكنُ استخدامَهُ.

وعند الحديثِ عن الرقيقِ يتبادرُ إلى الذهنِ وخاصةً عند الأنسانِ الأوربيِّ، صورةُ أناسٍ يائسِينَ مُّقرَّنَينَ في الأصفادِ، مقُودينَ بالسياطِ، رديئيْ الغذاءِ، مقيمينَ بغرفٍ مظلِمةٍ، وقد يكونُ هذا صحيحاً في أوربّا أو أمريكا، لكنّ الرِقَّ في المجتمعِ الإسلامي كانَ غيرَ ذلكَ تماماً، فيقولُ غوستاف لوبون "إنّ الذي أراهُ صِدقًا هو أنّ الرقَّ عند المسلمينَ غيرُهُ عند النصارى فيما مضى، وأنّ حالَ الأرقّاءِ، في الشرقِ أفضلُ منْ حالِ الخَدَمِ في أوربّا، فالأرقّاءُ في الشرقِ يؤلِّفونَ جزءًا منَ الأُسرِ، ويستطيعونَ الزواجَ ببناتِ سادتِهِمْ أحيانًا كما رأيْنا ذلكَ سابقًا، ويقدرونَ أنْ يتسنَّموا أعلى الرُتَبِ، وفي الشرقِ لا يرونَ في الرقِّ عاراً، والرقيقُ فيهِ أكثرُ صِلةً بسيّدِهِ من صِلةِ الأجيرِ في بلادِنا. " (٣٥٤)

إنّ الاختلافَ الجوهرِيَّ بينَ الشرقِ والغربِ في التعاملِ معَ العبيدِ، يرتكزُ على عامِلٍ أساسيٍّ، وهو نظرةُ المجتَمعِ لهذه الطبقَةِ، فبينَما كانَ يُنَظرُ إلى العبيدِ في أوربّا وأمريكا كعمّالٍ وخَدَمٍ ليس لهمْ الحقُّ بإبداءِ الرأيِ ولا يملكونَ حُقوقَ المواطَنَةِ ويُعامَلونَ بقسْوةٍ كأُناسٍ منَ الدرجةِ الثانيةِ، نجدُ في المجتَمعِ الإسلامي السعْيَ إلى دَمْجِ هذه الطبقَةِ منْ العبيدِ في المجتَمعِ منْ خلالِ سَنِّ قوانينَ تضمَنُ حقوقَهَمْ وتحميهِمْ، وتشجّعُ الزواجَ منهُمْ ومنْ ثمّ تأهيلِهِمْ ليكونوا أحراراً يعتمدونَ على أنفُسِهِمْ، لذلكَ نجدُ كثيراً ممّنْ كانوا عبيداً أو وُلِدوا منْ إماءَ [1] وعبيدٍ قد شَغَلوا مناصَبَ في بُلدانِهِمْ.

أمّا طريقَةُ تعامُلِ الإسلامِ معَ الرقيقِ، فيُمكنُ تلخيصُها بِمُحورَينِ؛ المِحورُ الأوّلُ: تَنْظيمُ العلاقاتِ والتعامُلاتِ معَ الرقيقِ وتَثبيْتُ حُقوقِهِمْ، و المِحورُ الثانيْ: إيجادُ سُبُلًا للقضاءِ التدريجِيْ على هذهِ الظاهرَةِ، فكانتْ التشريعاتُ التي أصدرَها النبيُّ محمدٌ ودَمَجَها بالعقيدةِ

---

١ أمة: هي المرأة المملوكة؛ ويقال أمة الله للأنثى كما يقال للذكر يا عبدالله، والجمع إماء.

الإسلاميّةِ، المنظّمَ الأوّلَ لحياةِ الرقيقِ، فقد رُويَ عنهُ أنّه قالَ: "إخوانُكمْ خَوَلُكُمْ [1]، جعلَهمُ اللهُ تحتَ أيديْكمْ، فمَنْ كانَ أخوهُ تحتَ يدِهِ: فليطعْمْهُ ممّا يأكلُ، وليُلبِسْهُ ممّا يلبسُ، ولا تُكلّفوهمْ ما يَغلبُهمْ، فإنْ كلّفْتُموهمْ فأعينوهُمْ"(٣٥٥) وحينَ رأى رسولُ اللهِ أحدَ أصحابِهِ -أبا مسعودٍ الأنصاريْ- يضربُ عبدَهُ يوماً وكانَ يمشيْ خلفَهُما، غضِبَ أشدَّ الغضبِ وقالَ: "إعلَمْ أبا مسعودٍ،، للهُ أقدرُ عليكَ مِنكَ عليهِ! فالتفَتَ أبو مسعودٍ ورأى النبيَّ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، هو حُرٌّ لوجهِ اللهِ تعالى، قَالَ: أما إنّكَ لو لم تفعلْ لمسّتْكَ النارُ"(٣٥٦)، وكانَتْ آخِرَ وصِيّةٍ لرسولِ اللهِ حينَ حضرَهُ الموتُ: الصَّلاةُ الصلاةُ، اتقوا اللهَ فيما ملكَتْ أيمانُكُم [2] (٣٥٧).

الإسلامُ لم يعْلِنْ فقطْ شِعاراتٍ للتنظيمِ وللقضاءِ على العبوديّةِ بلْ عملَ على تطبيقِها، فكانَ رسولُ اللهِ لا يرى فَرْقاً بينَ الحُرِّ والعبدِ، كما لا يرى فرقاً بينَ العربيِّ والأعجميّ، فقد عيَّنَ قائداً لجيشِهِ وهو أُسامةُ بنُ زيدٍ، وكانَ أبوهُ عبداً ثمّ أُعتِقَ، وقد زَوَّجَ ابنةَ عمَّتهِ زينبَ بنتَ جَحْشٍ لعبدٍ عندَهُ بعد أنْ أعتقَهُ وهو زيدٌ بنُ حارِثَةَ، لا بلْ أنّ ماريّا القِبطيّةَ كانَتْ أمَةً عند رسولِ اللهِ ولم يعقد عليها وأنجبَتْ لهُ إبراهيمَ وقد نزلَ فيها قرآنٌ لمكانتِها العاليةِ وأصبحَتْ منْ أُمّهاتِ المؤمنينَ حالُها حالُ بقيّةِ أزواجِ النبيِّ، وسوفَ نتعرَّفُ أكثرَ على هذه الأحداثِ في السيرَةِ، لذلكَ كانَ العبيدُ يعشقونَ النبيَّ ويُقدّسونَهُ لرُؤيتِهمْ النبْضَ الإنسانِيَّ في كلِّ معاملاتِهِ ورأوهُ أنّهُ غيرُ متصنّعٍ في أفعالِهِ يحملُ أنّاتِ المستَضعَفِينَ وآلامَ المُعذَّبينَ ويدافعُ عنْ الطبقاتِ المسحوقَةِ، وسوفَ نرى منْ قِصَّةِ زيدٍ كيفَ رفضَ تَرْكَ رسولِ اللهِ والعودةَ إلى أبيهِ معَ أنّه كانَ عبداً عند رسولِ اللهِ، وسوفَ نقرأُ قِصَّةَ جُويْرِيَّةَ بنتِ الحارثِ كيفَ جاءتْ بنفسِها للنبيِّ لتُحرّرَ نفْسَها منَ العبوديّةِ، لمعرفَتِها بأنّها سوفَ تأتي إلى قائدٍ عادلٍ يُنصفُها، وبالفعلِ كانَ ذلكَ.

---

١ خولكم: أي خدمكم أو أعمالكم.

٢ ملك اليمين: هم الأرقاء المملوكون لِمن ملكهم عبيداً، ذكوراً أو إناثاً.

إنّ مسألةَ تحريرِ العبيدِ تمثِّلُ محورًا أساسيًّا في العقيدةِ الإسلاميّةِ، فجعلَ اللهُ تحريرَ العبيدِ كفارةً لبعضِ الذنوبِ مثلَ الحَنْثِ [١]، والظِّهارِ [٢]والقتلِ ، وحضَّ الإسلامُ علـى السعيِ في فكِّ رقابِ العبيدِ منْ خلالِ دفْعِ الأموالِ والصدقاتِ في المُكاتَبَة [٣] لتحريرِهِم (٣٥٩)، لا بلْ قد جعلَ التشْريعُ الإسلاميُّ في إطارِ الدُورِ التربَويِّ للإنسانِ تحريرَ العبيدِ، إحدى أهمِّ أعمالِ الخيرِ التي تتجِهُ لخِدمَةِ النّاسِ والأخذِ بيدِ الضعفاءِ والمُعْوِزينَ، منْ أجلِ أنْ يجتازَ هذا الإنسانُ عَقباتِ الدنيا وشهواتِ النفسِ للرُقيِّ الروحيِّ وتزْكيَةِ النفسِ.(٣٦٠)

الان بعدَ أنْ أوضحْنا مسألةَ العبوديةِ في ذلكَ الزمنِ، نستطيعُ أنْ نفهمَ الآنَ تعامُلَ الجيشِ الإسلاميّ مع السبايا والرقيقِ.

مَوْتُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ

حينَ سمعَ رسولُ اللهِ أنّ حالَ سعدٍ بن معاذٍ قد ساءتْ وقاربَ على الموتِ، أتاهُ في نَفرٍ من أصحابِه يعودُهُ، فوجدوهُ قد سُجّي في ملاءةٍ بيضاءَ، فجلس رسولُ الله عند رأسِهِ، و وضعَ رأسَه في حِجْرِهِ، ثمّ قالَ: اللَّهُمَّ، إنّ سعداً قد جاهدَ في سبيلِكَ، وصدَّقَ رسولَكَ، وقضى الذي عليهِ، فاقبِضْ روحَهُ بخيرٍ ما تقبضُ فيهِ أرواحَ الخلقِ، ففتحَ سعدٌ عينَيهِ حينَ سمعَ ذلكَ، وقالَ: السّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ، أشهدُ أنّكَ قد بَلَّغْتَ رسالتَهُ، وحينَ أرادَ النبيُّ أنْ يغادرَ رَفَعَ رأسَ سعدٍ من حِجرِهِ، ثمّ قامَ وانصرفَ، وبعد ساعةٍ ماتَ سعدٌ فلم يشعُرْ بموتِهِ أحدٌ، حتّى نزلَ جبريلُ فأخبرَ النبيَّ بموتِهِ، وأخبرَهُ أنّ عرشَ الرحمنِ قد اهتزَّ لموتِه، فأسرعَ النبيُّ المشيَ إلى سعدٍ ودخلَ عليهِ وما في البيتِ أحدٌ، فجعلَ يسيرُ على أطرافِ أصابعِهِ، فسُئِلَ عن ذلك، فقالَ: ما قدرتُ على مجلسٍ حتّى قَبَضَ لي ملكٌ من الملائكةِ أحدَ جناحَيهِ

---

١ الحنث: هو إخلاف اليمين أو القسم بفعل خلاف مضمونه.

٢ الظهار: وهو قول الرجل لزوجته: أنتِ عليّ كظهر أمي، ويعتبر أحد أصناف الطلاق قبل الإسلام.

٣ الكتابة والمكاتبة: عقد بين السيد ومملوكه على أن يؤدّي ذلك المملوك مالاً معلوماً بمقابلة عتق يحصل له عند أدائه.

فجلستُ، ورسولُ الله يقولُ: هنيئاً لكَ أبا عمرو، هنيئاً لك أبا عمرو، ثم غسَّلَ سعدًا وكفَّنهُ، ثمّ صلّى عليهِ، وكانَ عمرُهُ حين استُشهِدَ سبعًا وثلاثينَ سنةً .

كانَ يهودُ بنيْ النضيرِ في خَيْبرَ، ويهودُ خيبرَ ينتَظرونَ نتائجَ حصارِ بنيْ قُريظةَ، فبلَغَهمْ ما جرى عليهمْ، فأنْحوا باللّائمَةِ على حُيَيٍّ بنِ أخطَبَ، وبلَغَ النساءَ الخبرُ فشققْنَ الجيوبَ وجززْنَ الشُّعورَ وأقمْنَ المآتِمَ، وضوى إليْهِنَّ نساءُ العربِ، وفزعَتْ اليهودُ إلى سلامٍ بنِ مُشْكِمٍ وسألوهُ عنِ الرأي، فقالَ لهمْ: محمدٌ قد فَرغَ منْ يهودِ يثربَ، وهو سائرٌ إليْكمْ، فنازِلٌ بساحَتِكُم، وصانِعٌ بكمْ ما صنعَ ببنيْ قُريظةَ، قالوا: فما الرأيُ؟ قالَ: نسيرُ إليهِ بمَنْ معَنا منْ يهودِ خيبرَ، فلهُمْ عُدَدٌ، ونستجْلِبُ يهودَ تَيْماءَ وفَدَكَ وواديْ القُرى، ولا نستعينُ بأحدٍ منَ العربِ، فقد رأيتُمْ في غزوةِ الخندقِ ما صنعَتْ بكمُ العربُ بعد أنْ شَرطْتُمْ لهمْ تَمْرَ خيبَرَ، نقضوا ذلكَ وخذَلوكمْ، وطلبوا منْ محمدٍ بعضَ تمرِ الأوسِ والخزرجِ وينصرفونَ عنهُ، معَ أنّ نعيمًا بنَ مسعودٍ [1] هو الذي كادَهُمْ بمحمدٍ ، ومعروفُهمْ إليهِ معروفٌ، ثمّ نسيرُ إليهِ في عُقْرِ دارهِ، فنقاتَلُ على وَتْرٍ حديثٍ وقديمٍ، فقالَتْ اليهودُ :هذا الرأيُ، فقالَ كِنانَةُ بنُ الربيعِ بنِ أبي الحَقيقِ: إنّي قد خَبِرْتَ العربَ فرأيْتُهم أشِدّاءَ عليهِ، وحصونُنا هذه ليستْ مثلَ ما هناكَ، ومحمدٌ لا يسيرُ إليْنا أبداً لِما يعرفُ، فقالَ سلامٌ بنُ مُشْكِمٍ: هذا رجلٌ لا يقاتِلُ حتّى يُؤخَذَ بِرَقَبَتِهِ. (٣٦١)

---

١ نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني، صحابي أسلم قبل غزوة الخندق ثم عمل على التفريق بين قريش وبني قريظة وقومه غطفان.

شِدَّةٌ فِي مَكَّةَ

وفي السنةِ الخامسةِ أُصيْبَتْ قريشٌ بشدَّةٍ، فبعثَ إليهم رسولُ اللهِ بخمسةِ مئةِ دينارٍ يتألَّفُهُمْ بِها، بعثَها بيدِ رجلٍ لأبي سفيانَ بنِ حربٍ، يفرِّقُها على فقراءِ قريشٍ، فقالَ أبو سفيانَ: منْ رأى أبرَّ منْ هذا ولا أوصلَ، إنّا نجاهدُ ونطلبُ دَمَهُ، وهو يبعثُ إليْنا بالصِّلاتِ يبُرُّنا بِها.(٣٦٢)

كما أخذَ الناسُ والقبائلُ في هذه السنةِ يتوافدونَ على النبيِّ طوعاً دونَ خوفٍ أو وجَلٍ لِيُظهِروا إسلامَهمْ. (٣٦٣)

السنةُ السادسةُ بعدَ الهجرةِ (٦٢٧ ــ ٦٢٨ م)

غَزْوَةُ المُريْسيعْ

في السنةِ السادسةِ في منطقةٍ تقعُ بينَ مكّةَ والمدينةِ جنوباً على بئرٍ يُسمَّى المُريْسيعُ بلغَ رسولَ اللهِ أنّ الحارثَ بنَ أبيْ ضِرارٍ سيّدَ بنيْ المُصْطَلَقِ دعا قومَهُ ومَنْ قَدِرَ عليهِ منَ العربِ إلى حربِ رسولِ اللهِ، فأجابوهُ وتجمَّعوا، وابتاعوا خيْلاً وسلاحاً، وتهيّأوا للحربِ والمسيرِ معهُ، فأرسلَ رسولُ اللهِ جاسوساً ليتحَقّقَ منْ ذلكَ فرجعَ إلى رسولِ اللهِ فأخبرَهُ بأنّهم يريدونَ الحربَ، فكانَ واجبُ رسولِ اللهِ الدفاعَ عنِ المسلمينَ والمدينةَ مِنْ هذا الغزْوِ القادِمِ، فدعا الناسَ فأسرعوا للخروجِ، فخرجَ معهُ سبعُ مئةِ مقاتِلٍ، كانَ منهمْ عليٌّ فارِساً، وأبو بكرٍ وعمرُ بنُ الخطابِ وعثمانُ والزبيرُ وعبدُ الرحمنِ بنُ عَوفٍ وطَلْحَةُ بنُ عُبَيدِ اللهِ والمِقدادُ بنُ عَمْرو، وعند وصولِهِمْ عَسْكَرَ جيشُ المسلمينَ، فبدأَ بنو المُصْطَلَقِ برمي السهامِ على المسلمينَ، عند ذلكَ أمرَ رسولُ اللهِ بالهجومِ فانتصَروا عليهمْ، وقتَلوا عشرةً وأسروا الباقينَ، وسبوا الرجالَ والنساءَ والأطفالَ وأخذوا الأغنامَ والإبلَ، ثمّ عادوا إلى المدينةِ. (٣٦٤)

ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منْها الأذلَّ

وفي طريقِ العودةِ ازدحمَ الناسُ على الماءِ ـ وكانَ قليلاً ـ فأدّى التدافعُ على الماءِ إلى شِجارٍ بينَ أحدِ فقراءِ المهاجرينَ يُسمَّى جُعالٌ وأحدِ الأنصارِ يُسمّى جهجاهُ بنُ سعيدٍ الغِفاريْ - و كانَ حليفاً لابنِ أُبَيٍّ ـ فاقْتَتَلا؛ فاستغاثَ كلُّ واحدٍ منهمْ بجماعتِهِ، فتسارعَ إليْهما القومُ، وعَمَدوا إلى السلاحِ، فلمّا جاءَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ نظرَ إلى أصحابِهِ، وقالَ: ما صحِبْنا محمدًا إلّا لِنُلطَمَ؟ واللهِ، ما مِثْلُنا ومِثْلُهمْ إلاّ كما قالَ: سمِّنْ كَلبَكَ يأكلُكَ، فراحَ يُثيرُ الأنصارَ ضدَّ المهاجرينَ، ثمّ قالَ: أما واللهِ، لئنْ رجِعْنا إلى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منْها الأذلَّ، يقْصدُ

بالأعزِّ نفسَهُ، وبالأذلِّ رسولَ اللهِ، ثمّ أقبلَ على مَنْ حضَرَ منْ قومِهِ، وقالَ: هذا ما فعلتُمْ بأنفسِكمْ، أحللْتُموهُمْ بلادَكمْ، وقاسمْتُموهمْ أموالَكمْ! أما واللهِ، لو أمسَكتُمْ عنْ جُعالٍ وذويهِ فَضَلَ الطعامِ، لم يركبوا رِقابَكُم، ولتَحوّلوا إلى غيرِ بلادِكُم، فلا تُنفقوا عليهمْ حتّى ينفضُّوا منْ حولِ محمدٍ ، (٣٦٥) فكادَتْ أنْ تصيرَ فِتنةٌ واقتِتالٌ بينَ المسلمينَ لولا تلاحَقَ القومُ الأمرَ بينْهم وحَلَّهُمُ النزاعَ.

يقولُ اللهُ بأنّ هؤلاءِ المنافقينَ يقولونَ لأصحابِ الثروةِ والمالِ لا تَبذِلوا نفَقةً ولا تُقدّموا مساعدةً لهؤلاءِ الفقراءِ الذينَ يعيشونَ في كنَفِ رسولِ اللهِ ويشدوّنَ أزْرهُ وبهذه الطريقةِ ينصرفُ كلٌّ إلى مصالحِهِ ويبحثُ عنْ منافعِه وبذلكَ تضعفُ قوّةُ النبيّ وتنكسرُ شوكتُه، فيَرُدُّ اللهُ ويقولُ إنّ هؤلاءِ المنافقينَ جَهَلَةٌ ليس لهمْ حَظٌّ منْ فهمٍ أو درايَةٍ حيثُ ظنّوا أنّ مَنْعَ الإنفاقِ على مَنْ عند رسولِ اللهِ هو السبُبُ في تفريقِ المسلمينَ عنِ النبيِّ غافلينَ أنّ الأرزاقَ كُلَّها بيدِ اللهِ وعندَه خزائنُ السماواتِ والأرضِ يُعطي كما يشاءُ ولِمَنْ يشاءُ وبحسَبِ ما يشاءُ دونَ أنْ يُؤثِّرَ مَنْعُ الأغنياءِ في حالِ الناسِ سَعَةً أو ضِيْقاً، ويضيفُ اللهُ ويقولُ عنِ المنافقينَ: هم يقولونَ أيضاً لئنْ رجَعْنا إلى المدينةِ ليخرجَنَّ الأعزُّ منْها الأذلَّ، ألمْ يعلَموا أنّ العزّةَ الحقيقيّةَ هي للهِ لأنّه القاهرُ الغالبُ القادرُ الذي يفعلُ ما يريدُ والعزّةُ لرسولِهِ لأنّه يستمدُّ قوّتَه منَ اللهِ والعزّةُ للمؤمنينَ لأنّهم ينتَسِبونَ إلى اللهِ ويرجعونَ إليهِ ويعملونَ بأمرِهِ، إنّ هؤلاءِ المنافقينَ جهلةٌ لا يعرفونَ هذه الحقائقَ ولو عرفوها لآمنوا بِها وأدركوا مَعْناها. (٣٦٦)

فجاءَ أحدٌ إلى رسولِ اللهِ، فأخبرَه الخبرَ، وعنده عمرُ بن الخطاب، فقالَ عمرُ: دعْني أضربْ عنقَهُ يا رسولَ اللهِ! فقالَ: إذًا ترعدُ آنافًا كثيرةً بيثربَ، فقالَ: إنْ كرهتَ أنْ يقتلَهُ مهاجريٌّ، فأمرْ أنصاريًّا، فقالَ: كيفَ يا عمرُ إذا تحَدَّثَ الناسُ أنّ محمدًا يقتلُ أصحابَهُ! ولكنْ آذِنْ بالرحيلِ، وذلكَ في ساعةٍ لم يكنْ يرتحلُ فيها رسولُ اللهِ عادةً، فارتحلَ الناسُ، وبلغَ عبدَ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ ما كانَ من أبيهِ، فأتى رسولَ اللهِ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، بلغَني أنّكَ تريدُ قتْلَ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ، لِما بلغكَ عنهُ، فإنْ كنتَ فاعلاً فمُرْني بهِ، فأنا أحملُ إليك رأسَه، فواللهِ لقد علمَتِ الخزرجُ ما كانَ بها رجلٌ أبرَّ بوالديْهِ منّي، وأنّي أخشى أنْ تأمرَ بهِ غيري، فلا تدعُني نفسِيَ أنْ أنظرَ إلى قاتلِ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ يمشي في الناسِ؛ فأقتُلُهُ؛ فأقتلُ مؤمناً بكافرٍ،

وأدخلُ النارَ، فأجابَهُ النبيُّ : نرفِقُ بهِ، ونحسنُ صُحبَتَهُ ما بقيَ معَنا، فحينَ رحلَ رسولُ اللهِ مع المسلمينَ مبكِّراً، تساءلَ الناسُ عن السببِ، فذكرَ لهم ما جرى منَ الفِتنةِ وما قامَ بهِ ابنُ أبيٍّ ونزولَ القرآنِ فيهِ، و لمّا بانَ للناسِ ما قامَ بهِ ابنُ أُبيٍّ، قيلَ لهُ إنّه قد نزلَ فيكَ آيٌ شِدادٌ فاذهَبْ إلى رسولِ اللهِ ليستغفرَ لكَ، (٣٦٧) فقالَ: وماذا قلتُ! وهو يلوي رأسَه مستهزِئاً. (٣٦٨)

جُويْرِيَّةٌ فِيْ بيتِ النبيِّ

من بينِ السبايا كانَتْ جويريَّةُ بنتُ سيّدِ بني المُصْطَلَقِ الحارثِ أبي ضرارٍ، وكانتْ من بيتِ عزٍّ وشرفٍ وقد عاشَتْ حياتَها بطريقَةٍ لا تنسجمُ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ مع حياةِ الرقِّ والعبوديّةِ، وقد وقعَتْ سبيّةً عند ثابِتٍ بنِ قيسٍ بنِ شَمّاسٍ، فأرادتْ أنْ تشتريَ حُرّيَتَها منهُ، فاتفقَتْ مع ثابتٍ وكاتبتْهُ على أن يعتقَها مقابلَ المالِ فوافقَ، فقرَّرَتْ الذهابَ إلى رسولِ اللهِ لتطلبَ منهُ أنْ يساعدَها في توفيرِ المالِ لإعتاقِها، وعندما وصلَتْ إلى رسولِ اللهِ قالتْ: يا رسولَ اللهِ، أنا جُويْريّةُ بنتُ الحارثِ، سيّدِ قومِهِ، وكانَ منْ أمري ما لا يخفى عليكَ، ووقعْتُ في سَهْمِ ثابتٍ بنِ قيسٍ بنِ شَمّاسٍ، وإنّي كاتبْتُهُ على نفسي، فجئْتُ أسألُكَ في كتابَتِي، فقالَ رسولُ اللهِ: فهلْ لكِ فيما هو خيرٌ لكِ؟ فقالتْ: وما هو يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: أُؤدّي عنكِ كتابتَكِ وأتزوّجُكِ، قالتْ: قد فعلْتُ، فأدّى عنْها كتابَتَها وأعتقَها، ثمّ تزوّجَها، فسمِعَ الناسُ أنّ رسولَ اللهِ قد تزوّجَ جويْريّةً، فأرسلوا ما في أيديْهم من السَّبيْ، فأعتَقوهمْ وقالوا: أصهارُ رسولِ اللهِ لا ينبغي أنْ تُسترَقَّ، فكانَ بسببِها أُعتِقَ مئةٌ منْ بيتِ بنيْ المصْطَلَقْ .

إنّ شعورَ جويريّةَ بالعزَّةِ والأنَفةِ دعاها إلى ألّا تطلبَ المساعدَةَ منْ أيّ أحدٍ كانَ، بلْ ذهبَتْ إلى رسولِ اللهِ لِما لمستْ منهُ من صفاتٍ نبيلةٍ وما رأتْ في شخصهِ الكريمِ، فهو الرجلُ القادرُ على أنْ يدرِكَ مشكلتَها، وأنْ يتعاملَ معها بواقعيَّةٍ وإنسانيّةٍ، ومن خلالِ القيَمِ المُثْلى وبالطريقةِ الفُضْلى، مع أنّ هذا الرجلَ هو نفسُهُ الذي قادَ الجيشَ الذي أسرَها، وأنزلَ في قومِها الهزيمَة.؟(٣٦٩)

زينبُ بنتُ جَحشٍ في بيتِ النبيّ

نشأَ زيدٌ بنُ الحارثِ عند رسولِ اللهِ، إذ اشترتهُ خديجةُ بنتُ خويلدٍ من سوقِ عُكاظ عندما سقطَ زيدٌ أسيرًا، ثمّ وهبتْهُ لرسولِ اللهِ، فأسلمَ في بدايةِ الدعوةِ، وحين أرادَ أبوهُ أنْ يفاديهُ ليسترجعَه قالَ رسولُ اللهِ : هو حرٌّ، فليذهبْ حيثُ شاءَ، لكنَّ زيدًا أبى أن يفارقَ رسولَ الله، فقالَ أبوه حارثةٌ: يا معشرَ قريشٍ، اشهدوا أنّني تبرَّأتُ من زيدٍ، فليس هو ابنيْ ولا أنا أبوهُ، فقالَ رسولُ الله: اشهدوا أنّ زيداً ابني، فكانَ يُدعى زيدُ بنُ محمدٍ ، فأخبرَهم النبيُّ أنْ يدْعوهُ لأبيهِ، وحين كبِرَ زيدٌ وأرادَ الزواجَ خطبَ النبيُّ له ابنةَ عمَّتهِ زينبَ بنتَ جحشٍ، لكنّ زينبَ ظنَّتْ أنّ النبي سيخطبُها لنفسهِ فرضيَت، فلمّا علِمتْ أنّه يخطِبُها لزيدٍ أبَتْ وترفَّعتْ عليه بنسَبِها وجمالِها وقالت: أنا ابنةُ عمَّتِكَ يا رسولَ اللهِ، فلا أرضاهُ لنفسي، قالَ رسولُ الله: إنّي قد رضيتُه لكِ، فبينما هما يتحداثانِ أنزلَ اللهُ: أنّه لا يجوزُ لأيِّ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ رفضُ حُكمٍ قضى به النبيُّ وأمرَ بتنفيذهِ، فليس لأحدٍ الحقُّ في اختيارِ شيءٍ يخالفُ حُكمَ الله ورسولهِ، ثمّ يوضِّحُ اللهُ أنّ مَنْ يعصي أمرَ اللهِ ورسولِه ويخالفُهما، فقد غَرِقَ في الضلالِ وانحرفَ عن الحقِّ،(٣٧٠) فرضِيَتْ زينبُ وجعلَتْ أمرَها للنبيّ، فأنكَحَها النبيُّ زيداً، ودخلَ بها، وساقَ لها رسولُ الله مَهرَها .

كانَ سببُ رفضِ زينبَ الزواجَ مِنْ زيدٍ هو تكبرُّها عليه، واعتِدادُها بنفسِها ونسَبِها، إنّ مَن يكونُ على هذه الحالُ ويبلغُ به الأمرُ إلى حدِّ أنّه يسخَطُ ويغضَبُ من أمرٍ رضِيَه لهُ رسولُ الله، فإنّه يستحقُّ التأديبَ، ويحتاجُ إلى تربيةٍ، ليتعلّمَ الآخرونَ درسَ الطاعةِ والانقيادِ لرسولِ الله، فمكثَتْ عند زيدٍ ما يقاربُ السنةَ ثمّ وقَعَتْ الكراهيةُ بينهُما، فأتى زيدٌ إلى رسولِ الله وقالَ له: إنّي أريدُ أنْ أفارقَ صاحبتي، فقالَ: ما لكَ؟ أرابَكَ منها شيءٌ؟ قالَ: لا واللهِ يا رسولَ الله، ما رأيتُ منها إلّا خيراً، ولكنّها تتعاظمُ عَلَيَّ لشرفِها، وتؤذيني بلسانِها، فقالَ له: أمسِكْ عليكَ زوجَكَ، واتقِ اللهَ في أمرِها، لكنَّ رسولَ الله كانَ يعلمُ منَ اللهِ أنّ زيدًا سيطلِّقُ زوجتَه، وأنّ اللهَ سيزوّجُهُ زينبَ، ليرتفعَ بذلكَ الحرجُ عن المؤمنينَ في التزوّجِ من أزواجِ أبنائِهم المُتبَنَّينَ، فكانَ رسولُ الله يتحرَّجُ من أنْ ينكشفَ ذلكَ لأحدٍ، حتّى لا يظنَّ الناسُ أنّ النبيَّ يرغبُ بزوجَةِ ابنهِ بالتبنّي، إذْ كانَ الناسُ يعتبرونَ الابنَ بالتبنّي كالابنِ من الصُلْبِ،

لذلك لا يجوزُ الارتباطُ بطليقَتِهِ، فأخفى رسولُ اللهِ ما أطلعَهُ اللهُ من زواجِه بابنةِ عمّتِهِ زينبَ خشيَةً من الناسِ.

لم تكنْ خشيةُ النبيِّ على نفسهِ بل كانتْ خشيتُه في اللهِ فأخفى في نفسهِ ما أخفاهُ استشعاراً منهُ أنّه لو أظهرَهُ، فسيعيبُهُ الناسُ ويُعيّرُونَهُ ويطعنُ فيهِ بعضُ المنافقينَ، ممّا قد يؤثّرُ في إيمانِ العامةِ، وهذا الخوفُ ليس خوفاً مذموماً بلْ خوفٌ في اللهِ بل هو في الحقيقةِ خوفٌ من اللهِ. (٣٧١)

لم يتصالحْ زيدٌ مع زوجتهِ زينبَ، ولم يتحمَّلِ العيشَ معها، فطلَّقَها، ثمّ زَوّجَ اللهُ زينبَ منْ نبيِّهِ محمدٍ دونَ عَقْدٍ ولم يكنْ لرسولِ اللهِ في هذا الأمرِ أيُّ خَيارٍ،ولمّا انقضتْ عُدَّتُها قالَ لزيدٍ: ما أجدُ أحداً أوثقَ في نفسي منكَ، اذهبْ إلى زينبَ فأخبرْها أنّ اللهَ قد زوّجَنِيها، فلمّا قالَ النبيُّ ذلك لزيدٍ عظُمَتْ في نفسِه، فذهبَ إليها فطرقَ البابَ وجعلَ ظهرَهُ إلى البابِ، فقالتْ: مَنْ هذا؟ قالَ: زيدٌ، قالتْ: ما حاجَةُ زيدٍ إليّ وقد طَلَّقني؟! فقالَ: أرسلَني رسولُ الله، فقالتْ: مرحباً برسولِ الله، ففتحَتْ لهُ، فدخلَ عليها وهي تبكي، فقالَ زيدٌ: لا أبكى اللهُ عينيْكِ، قد كنْتِ نِعمَ المرأةُ، إذ كُنتي لتبُرّينَ قَسَمي، وتطيعينَ أمري، وتتَّبعينَ دعوتي، فقد أبدلَكِ اللهُ خيراً منّي، قالتْ: مَنْ هو؟ قالَ: رسولُ الله، ففرِحَتْ بهذا الخبرِ وخرَّتْ ساجدةً وجعلَتْ على نفسِها صومَ شهرينِ شكراً لله .

إنّ تزويجَ زينبَ من السماءِ ليس لأجلِ فضْلٍ استحقَّتْهُ، بلْ إنّ ذلك بسببِ أمرٍ قضاهُ اللهُ لأجلِ إبطالِ أمرِ التبنّي وقد ألزمَها بهِ، وفرضَهُ عليها لأجلِ تكبُّرِها، فإذا خالفتْه فإنّها تكونُ عاصيَةً، وتكونُ قد عرّضَتْ نفسَها للضلالِ وسوءِ العاقبةِ، وكانَ هذا الزواج في السنةِ السادسةِ بعدَ الهجرة .

المثيرُ للإنتباهِ هُنا أنّ النبيَّ عندما أرادَ الزواجَ من زينبَ، طلبَ من زيدٍ الذي كانَ زوجَها من وقتٍ قريبٍ، أنْ يخطِبَها له، وهذا أمرٌ غيرُ مألوفٍ عند الناسِ عادةً، ولكنّ النبيَّ في روحهِ الصافيةِ الطاهرَةِ والفانيةِ في اللهِ، تلك الروحُ التي لا ترى إلّا الحقَّ والخيرَ وطاعَةَ

اللهِ، ولا تتأثرُ بأيٍّ منَ الأجواءِ التي تثيرُها الغرائزُ والأهواءُ، ففضَّلَ أنْ يرسلَ زيداً بالذاتِ ليخطبَ لهُ زينبَ بنتَ جحشٍ، ليُعَلِّمَ الناسَ التمسُّكَ بالحقِّ، والخضوعَ للهِ وليشيرَ إلى معرفتهِ بطُهرِ ضميرِ زيدٍ، وسموِّ نفسهِ، وبصفاءِ إيمانِه .

لم تكنْ زينبُ في بيتِ رسولِ اللهِ في إخلاصِها وفي سلوكِها بمستوى بقيَّةِ زوجاتِ النبيِّ، ولم تكنْ تهتمُّ كثيراً بالتزامِ جانبِ الهدوءِ والسكينةِ، والبحثِ عمّا يُرضي اللهَ ورسولَه، فوجدَتْ عائشةُ هذه المرأةَ الجريئةَ والطموحةَ في زينبَ بنتِ جحشٍ بعضَ بُغْيَتِها، فكانتْ النصيرَ والمساعِدَ لها في تمريرِ بعضِ مشاريعِها في إثارةِ أجواءَ تخدمُ مصالحَها الآنيَّةَ والمستقبليَّةَ على حدٍّ سواءٍ. (٣٧٢)

حادثةُ الإستِسقاءْ

في شهرِ رمضانَ من السنةِ السادسَةِ من الهجرةِ أصابَ الناسَ قحطٌ شديدٌ وانقطعَ المطرُ، فطلبَ الناسُ من رسولِ اللهِ أنْ يستسقيَ لهم، فقال: أصبحَ الناسُ مؤمنينَ باللهِ كافرينَ بالكواكبِ! إذْ كانَ الناسُ يعتقدونَ أنّ الأنواءَ [١] هي مَنْ تجلبُ لهمُ المطرَ، فكانَ رسولُ الله يصحِّحُ لهمْ هذا الاعتقادَ ويخبرُهم أنّ هذه ليستْ إلا مُسبَّباتٍ، وأنّ المُسبِّبَ الحقيقيَّ للمطرِ والموجِدَ له هو اللهُ الذي خلقَ كلَّ شيء، وأخبرَهم قولَ اللهِ: أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بيْ وكافِرٌ، فأمّا مَنْ قال: مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتِه، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكبِ، وأمّا مَنْ قالَ: مُطِرنا بنَوءِ كذا وكذا، فذلكَ كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكبِ، وخرجَ النبيُّ ومعه الناسُ يمشونَ بالسكيْنَةِ والوقارِ إلى المُصلَّى، فصلَّى بهم ركعتينِ، يُجهِرُ بالقراءةِ فيهما، وقرأ في الركعَةِ الأولى سورةَ الفاتحةِ وسورةَ الأعلى، وفي الركعة الثانيةِ سورةَ الفاتحةِ وسورةَ الغاشيةِ، ثم استقبلَ الناسَ بوجهِهِ وقَلَبَ رداءَهُ لكي ينقلبَ القحطُ إلى الخِصبِ، ثم جثا على ركبتيهِ ورفعَ يديهِ وكبَّرَ تكبيرةً قبلَ أن يستسقيَ، ثمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اسقِنا، وأغِثْنا غيْثاً مُغيثاً،

---

١ الأنواء: منازل القمر ومفردها النَّوْءُ.

وحيّاً ربيعاً، فما برِحوا حتّى أقبلَتْ قِطعٌ من السحابِ فالتأمَتْ بعضُها إلى بعضٍ، ثم أمطَرتْ ففرحَ الناسُ، وراحوا يسقونَ محاصيلَهم وماشيَتَهم، فقالَ رسولُ الله : لله دَرُّ أبي طالبٍ، لو كان حيّاً لَقَّرَتْ عيناهُ، مَنْ الذي ينشدُنا قولَه؟ فقامَ عليٌّ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، كأنّكَ أردْتَ:

وأبيضَ يُستَسقى الغمامُ بوجهِهِ ثمالُ اليتامى عِصمَةٌ للأراملِ

يلوذُ به الهُلّاكُ من آلِ هاشمٍ فهمْ عندَهُ في نِعمةٍ وفواضلِ

كذبتُمْ وبيتُ الله نُبزى محمدٍ ولمّا نُقاتِلْ دونَهُ ونُناضلِ

ونُسْلِمُه حتّى نُصرَّعُ حولَهُ ونَذهَلُ عنْ أبنائِنا والحلائلِ

فقالَ رسولُ الله : أجلْ، فقامَ رجلٌ من كِنانةَ يترنَّمُ، ويُنشدُ هذه الأبياتَ:

لَك الْحَمدُ وَالْحَمْدُ مِمَّنْ شكَرْ سُقيْنا بِوَجْهِ النَّبِيِّ الْمَطَرْ

دعا اللهَ خالقَنا دعوةً إليهِ وأشخصَ منهُ البصرْ

ولم يكُ إلّا كقلْبِ الرداءِ وأسرعَ حتّى رأيْنا المطرْ

---

١ أبيض: العرب تمدح أشرافهم بالبياض، ولا يعنون بياض لون البشرة، وإنما يقصدون النقاء من العيوب، أما أبيض البشرة فيدعونه أحمر، وهنا يقصد بالأبيض؛ النبي محمد (وقد أُخذ عنوان الكتاب من هذا البيت).

٢ الثمال: الملجأ والغياث.

٣ نبزى: الأصل لا نبزى: لا النافية المحذوفة و المعنى لا نُغلب ولا نُقهر عليه.

٤ ونسلمه: معطوف على «نبزى»، أي: لا نُسلمه ولا نُخذله.

دَفاقُ العزالِيَ جَمُّ البُعَاقِ ... أغاثَ بهِ علينا مُضَرْ

وكانَ كما قالَهُ عمُّهُ ... أبو طالبَ أبيضَ ذا غُرَرْ

بهِ اللهُ يسقيَ صَوْبَ الغمامِ ... وهذا العيانُ لذاكَ الخبرْ

فَمَنْ يشكرِ اللهَ يلقَ المزيدَ ... ومَنْ يكفرِ اللهَ يلقَ العِبرْ

بعد أن استمَرَّ هطولُ الأمطارِ سبعةَ أيامٍ بلياليهِنَّ رجعَ الناسُ إلى رسولِ اللهِ وقالوا: يا رسولَ اللهِ، قد غرقَتْ الأرضُ، وتهدَّمَتْ البيوتُ، وانقطعَتْ السبُلُ، فادعُ اللهَ أنْ يصرِفَها عنّا، فضحِكَ رسولُ اللهِ وهو على المنْبرِ حتّى بدَتْ نواجذُهُ تعجُّباً لسرعةِ مَلالَةِ بني آدمَ، ثمّ رفعَ يديهِ وقالَ: حوالَيْنا، ولا علَيْنا، اللَّهُمَّ على رؤوسِ الظرابِ [٤]، ومنابِتِ الشجرِ، وبطونِ الأوديةِ، وظهورِ الآكامِ [٥]، فانكشَفَتْ الغيومُ عن المدينةِ وتوقَّفَ المطرُ. (٣٧٣)

صُلْحُ الحُدَيبِيَّةْ

رأى النبيُّ في منامِهِ أنّهُ دخلَ مَكّةَ هو وأصحابُهُ آمنينَ، بعضُهم مُحَلِّقٌ شَعرَهُ وبعضُهم مقصِّرُهُ، ورأى أنّه دخلَ الكعبةَ وأخذَ مفتاحَها، وأدَّى عُمرَتَهُ، فلمّا أخبرَ أصحابَهُ بما رأى فرِحوا، وظنُّوا أنّهم سيدخلونُ مَكّةَ في عامِهِم ذاكَ، ثمّ أخبرَهم أنّه يريدُ الخروجَ للعُمرَةِ، فتجَهَّزوا للسفَرِ، واستنفرَ العربَ إلى ذلكِ، وأهلَ البوادي منَ الأعرابِ حولَ المدينةِ من

---

١ دَفَّاق: مندفِع ومنْصبّ بقوة.

٢ العَزْلاءُ: مصَبُّ الماءِ من القِرْبةِ ونحوِها، وأَرسلت السَّماءُ عَزَالِيَهَا: انهمرتْ بالمَطَر.

٣ بُعَاق: مصدر بعَقَ، وبعَقَ المطرُ الشديدُ الأَرْضَ، الوابلُ: انفتح فجأة.

٤ الظِّرَاب: جمع ظَرِب، وهو ما نَتَأَ من الحجارة، وحُدِّدَ طرفُه وتعني الجبل المنبسط والتلة الصغير.

٥ الآكام: جمع أَكَمَة، وهي التلُّ أو المكان المرتفع.

غفارٍ وجُهينةَ ومُزينةَ وأسلمَ- اللاّتي كُنَّ لا يزلْنَ على شِركهِنَّ وكُفرهنَّ - إلى مرافقةِ المسلمينَ في هذه الرحلةِ السياسيّةِ ذاتِ الطابعِ الديني .

ثمّ خرجَ النبيُّ في شهرِ ذي القعدةِ معتمِراً، وكان خروجُه من منزلِهِ بعد أن اغتسلَ ببيتِهِ ولبسَ ثوبَينِ، وركِبَ راحلتَه القصواءَ من عند بابِه، وأحرمَ [١] هو وغالِبُ مَنْ معهُ من ذي الحليفةِ بعد أنْ صلَّى ركعتينِ في المسجدِ هناكَ، في حينِ أحرمَ بعضُ أصحابِهِ منَ الجُحفَةَ (لاحظ شكل ٤٠). كانَ الرسولُ قد بعثَ من ذي الحلَيْفَةِ عَيْناً [٢] لهُ منْ خزاعةَ ليخْبِرَهُ عنْ قريشٍ وتحرُّكاتِها، للتحرُّزِ منْ أنْ يأخذَهمْ العدوُّ على حينِ غَفْلةٍ، وخرجَ معهُ النساءُ والمهاجرونَ والأنصارُ ومَنْ لحِقَ بهمْ منَ العربِ، وأبطأَ عنهُ كثيرٌ منهمْ، لم يكنْ معَ المسلمينَ سلاحٌ إلاّ السيوفَ في القُرُبِ، وهو سلاحُ المسافرِ، وفي هذا الشأنِ قالَ عمرُ بنُ الخطابِ لرسولِ اللهِ : أتخشى يا رسولَ اللهِ مِنْ أبي سفيانَ وأصحابِه، ولم تأخذْ للحربِ عُدَّتَها؟! فقالَ : لست أحبُّ أنْ أحملَ السلاحَ مُعتَمراً، ثمّ سلَكَ النبيُّ طريقَ البيداءِ [٣] وساقَ معهُ الهَدْيَ [٤]، سبعينَ ناقةً أو بقرةً، وبعد أنْ صَلَّى الظُهْرَ في ذي الحليفَةِ أشعَرَ الهديَ، أيْ وضعَ علاماتٍ عليْها، وعلَّقَها بِرقابِهنَّ، وفعلَ المسلمونَ كذلكَ، وكانَ عددُ المسلمينَ سبعَةَ مِئةِ رجلٍ، ثمّ سارَ حتّى بلغَ عَسْفانَ. (٣٧٤)

إنّ خروجَ النبيِّ مُحْرِماً، مُعَظِّماً للبيتِ زائراً لهُ، كانَ منْ شأنِهِ أنْ يُطمْئِنَ أهلَ مكّةَ ومَنْ حولَها إلى أنّه لا يريدُ الحربَ في تحرُّكِهِ هذا، وكلُّ ذلكَ يجعلُ مشركيْ مكّةَ أيضاً أمامَ خيارٍ صَعبٍ ومحرِجٍ، فإنّ البيتَ للناسِ كلِّهِمْ، وهؤلاءِ القومُ قد جاؤوا لزيارةِ بيتِ ربِّهِم، فكيفَ يمكنُ دفعهُمْ عنهُ، فضلاً عنْ مواجَهتِهِمْ بالحربِ؟! إنّ ذلكَ سيفضحُ قريشاً بينَ العربِ، وسوفَ يقلِّلُ من مستوى الثقةِ بها، وسيُظْهِرُ المسلمينَ على أنّهم مظلومونَ وممنوعونَ من

---

١ الإحرام هو نية الدخول في الحج أو العمرة مقروناً بعمل من أعمال ويبدأ الإحرام من أماكن معينة تسمى المواقيت والمواقيت خمسة منها ذو الحليفة والجحفة.

٢ العين: الجاسوس الذي يتلمس أخبار الناس خفية.

٣ طريق البيداء: طريق صحراوي يقع بين مكة والمدينة.

٤ الهَدْي: ما يُساق إلى البيت الحرام من الأنعام للتَّصدُّق بلحمه بعد ذبحه.

أبسطِ حقوقِهِمْ، خصوصاً وأنّ هذا الإجراءَ قد جاءَ في الأشهرِ الحُرمِ التي يُمْنَعُ القتالُ فيها. (٣٧٥)

في غيابِ النبيِّ، تمَّ تكليفُ ابنِ أمِّ مكتومٍ بإدارةِ المدينةِ، على الرغْمِ منْ كونِهِ ضريرًا، الاختيارُ الذي قامَ بهِ النبيُّ لهذا الرجلِ بالذاتِ يدلُّ على أنّ العمَى لا يمنعُ الشخصَ منْ تولِّي مِثْلَ هذه المسؤوليّاتِ، حتّى الأكثرَ حساسِيّةً.

مرَّ النبيُّ بينَ مكّةَ والمدينةِ بالأعرابِ منْ بنيْ بكرٍ ومُزينَةَ وجُهيْنةَ، فاستنْفرَهُم، فلم تستجِبْ لهُ القبائلُ، وبدأوا يتحجَّجونَ لكيْ لا يذهبوا معهُ، وقالوا فيما بيْنَهُم: يريدُ محمدٌ أنْ يغزوَ بِنا إلى قومٍ مُعدّينَ في الكِراعِ والسلاحِ، وإنّما محمدٌ وأصحابُه أكلةُ جَزورٍ [١]، لنْ يرجِعَ محمدٌ وأصحابُهُ منْ سفَرِهمْ هذا أبداً، قومٌ لا سلاحَ معَهمْ ولا عُدَدَ، لكنّهُم لم يخبروا رسولَ اللهِ بما دارَ بينَهم منْ حديثٍ وما كانوا يفكِّرونَ، ففضحَهُمُ اللهُ وقالَ: هؤلاءِ المتَخلِّفونَ منَ الأعرابِ، سيقولونَ لكَ أنّنا مشغولونَ بأعمالِنا و أهلِنا وبيوتِنا، وليس لنا مَنْ يقومُ مقامَنا في الإهتمامِ بِهم، وليس عدمُ خروجِنا معكَ لشَكٍّ فيكَ أو زهدٍ في طاعَتِكَ، ثمّ بعد هذا طلبوا منهُ أنْ يستغفِرَ لهمْ ليَسْتروا عيوبَهمْ وتخلُّفَهم، واللهُ يردُّ عليهمْ ويكشفُ ما في قلوبِهم، فكُلُّ ما قالوهُ بألسنَتِهمْ هو كذبٌ، فقلْ لهمْ يا محمدُ إنّ الأمورَ بيدِ اللهِ ولا مانعَ لِما أرادَ، فلو كنتُمْ في بيوتِكم وأرادَ بكمُ الضرَّ لأنزلَهُ بكمْ ولا ينفعُكمْ أحدٌ، ولو أرادَ بكمْ خيراً لا يمنعُه أحدٌ ولو كنتُم في سُوحِ القتالِ، كلُّ أعمالِكم ظاهرُها وباطنُها كلُّها يعلمُها اللهُ بتفاصيلِها وسيُحاسبُكم ويعطيَكُمْ جزاءَكُم.(٣٧٦)

في الأيامِ السابقةِ، كانَ المسلمونَ يواجِهونَ ظروفاً صعْبةً، حيثُ تعرَّضوا لهجَماتٍ متكرِّرةٍ منْ قريشٍ والقبائلِ واليهودِ، ممّا جعلَ الوضْعَ خطيراً وحَرجاً بالنسْبةِ لهمْ، ولكنْ، استطاعَ النبيُّ أنْ يؤمِّنَ المِنطقةَ بإرسالِ سرايا قبلَ الحُديبِيَّةِ، التي حسمَتْ تهديدَ هؤلاءِ الأعداءِ، أمّا بالنسبةِ لليهودِ، فقد أثارَتْ أحداثُ بنيْ النضيرِ وبنيْ قَينُقاعَ وبنيْ قُريظةَ الرعْبَ في قلوبِ

---

١ أكلة جزور: وهو قول للعرب وتعني عدد الرجال المجتمعين لأكل ذبيحة واحدة مثل بعير واحد ويقدر بمئة رَجل.

يهودِ خيبَرَ، فصاروا يتجَنَّبونَ التعرُّضَ للمسلمينَ خوفاً منْ مصيرٍ مُشابِهٍ لمصيرِ أولئكَ، لذلكَ، لم يكنْ هناكَ خوفٌ على المدينةِ من أحَدٍ أثناءَ غيابِ رسولِ اللهِ، حتّى لو استمرَّ غيابُه لشهرٍ أو شهرَينِ.(٣٧٧)

وفي الطريقِ أقبلَ الناسُ نحو رسولِ اللهِ، وكانَ بينَ يديهِ إناءٌ صغيرٌ يتوضأُ منهُ، فقالَ: ما لكمْ؟! قالوا: يا رسولَ اللهِ، ليس عندنا ماءٌ نشربُه، ولا ماءٌ نتوضأُ منهُ إلاّ ما في إنائِكَ، فوضعَ رسولُ اللهِ يدَهُ في الإناءِ، فجعلَ الماءَ يفورُ منْ بينِ أصابعِهِ أمثالَ العيونِ، فشَرِبوا وتوضّأوا بأجمعِهِمْ، إنّ إظهارَ الكرامَةِ الإلهيَّةِ لرسولِ اللهِ ليس أمراً عشوائيّاً بحيثُ يكونُ بمناسَبةٍ أو بلا مناسَبةٍ، بلْ هو أمرٌ هادفٌ، يُرادُ منهُ أيضاً الربْطُ على القلوبِ وصيانَةُ الإيمانِ والتحضيرُ للامتحاناتِ القادِمَة .

ولمّا بلغَ المشركينَ خروجُ رسولِ اللهِ راعَهمْ ذلكَ، فاجتمَعوا وتشاوَرُوا فقالوا: أيُريدُ محمدٌ أنْ يدخلَها عليْنا في جنودِهِ معتَمِراً، فتسمَعَ العربُ أنّهُ قد دخلَ عليْنا عُنوةً، وبينَنا وبينَهُ مِنَ الحربِ ما بينَنا؟! واللهِ لا كانَ هذا أبداً وفيْنا عينٌ تطرُفُ، ثمّ أرسلوا خالدًا بنَ الوليدِ في مِئتيْ فارسٍ إلى كِراعِ الغَمِيمِ [1] واستنْفَروا مَنْ أطاعَهُم مِنَ الأحابيشِ، وجَلبُوا ثقيفًا معهمْ وخرجوا إلى بَلْدَحَ [2]، وضَرَبوا بِها القِبابَ والأبنِيةَ ومعَهمُ النساءُ والصبيانُ، فعسْكَروا هناكَ، وأجْمَعوا على منْعِ النبيِّ منْ دخولِ مكّةَ ومحاربتِهِ، ووضعوا العيونَ على الجبالِ، وهمْ عشرةُ أنفُسٍ يوحيْ بعضُهمْ إلى بعضٍ الصوتَ الخفيَّ: فعلَ محمدٌ كذا وكذا حتّى ينْتَهيَ إلى قريشٍ بِبلْدَحَ. (٣٧٨)

رجعَ العَينُ الذي بعثَهُ النبيُّ إلى مكّةَ للتجسُّسِ، وقد علمَ خبرَ مكّةَ والقومِ، فلقيَ رسولَ اللهِ بغديرِ الأشطاطِ وراءَ عَسْفانَ [3]، فقالَ لهُ: يا رسولَ اللهِ، هذه قريشٌ سمعَتْ بمسيرِكَ،

---

١ كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد أمام عسفان.

٢ بلدح: واد قبل مكة من جهة المغرب.

٣ عسفان: وهي منهل أي موضع لشرب الماء على الطريق بين الجحفة ومكة.

فخرجوا ومعهمُ العُوذُ المطافيلُ [١]، قد لبِسوا جلودَ النمورِ، وقد نزلوا بِذيْ طُوى [٢]، يعاهدونَ اللهَ لا تدخلُها عليهم أبداً، وهذا خالدٌ بنُ الوليدِ في خيلِهم قد قَدَّمَها إلى كراعِ الغميمِ، فقالَ رسولُ اللهِ: يا ويحَ قريشٍ لقد أكلتْهُمُ الحربُ، ماذا عليهم لو خلّوا بينِي وبينَ سائرِ العربِ، فإنْ هم أصابوني كانَ ذلكَ الذي أرادوا، وإنْ أظهرَني اللهُ عليهِم دخلوا في الإسلامِ وافرينَ، وإنْ لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ، فما تظنُّ قريشٌ؟ فواللهِ لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ بهِ حتّى يُظهرَه اللهُ أو تنفردَ هذه السالفةُ.

في الطريقِ مرّتْ قافلةُ النبيِّ على قُرىً لحُلفاءَ قريشٍ، فأرادَ النبيُّ أنْ يستشيرَ أصحابَه في أمرٍ، فقامَ في المسلمينَ، وقالَ بعد أنْ حمدَ اللهَ وأثنى عليهِ: أمّا بعدُ، يا معشرَ المسلمينَ، أشيروا عليّ، أترونَ أنْ نميلَ إلى ذراري هؤلاءِ الذينَ أعانوهم فنصيبَهم؟ وقالَ: فإنْ قعدوا، قعدوا موتورِينَ محروبينَ، وإنْ يأتونا تكنْ عُنُقاً قطعَها اللهُ، أمْ ترونَ أنّ نؤمَّ البيتَ، فمَنْ صدَّنا عنْهُ قاتلناهُ، أرادَ رسولُ اللهِ أنْ يسمعَ آراءَهم في أنْ يهجمَ على أهالي القبائلِ في الطريقِ التي انضَمَتْ إلى قريشٍ لتحاربَ معها، و تركوا ذرارِيْهم خلفَهم بلا حامٍ ولا كفيلٍ، فقالَ أبو بكرٍ: اللهُ ورسولُه أعلمُ، يا رسولَ اللهِ إنّما جئْنا معتَمرينَ، ولم نجئْ لقتالِ أحدٍ، ونرى أنْ نمضيَ لوجْهِنا، فمَنْ صدَّنا عن البيتِ قاتلْناهُ، ووافقهُ على ذلكَ أسيدٌ بنُ الحضيرِ، و قالَ المقدادُ بنُ الأسودِ بعد كلامِ أبي بكرٍ: إنّا واللهِ يا رسولَ اللهِ لا نقولُ لكَ كما قالتْ بنو إسرائيلَ لنبيّها: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾ (٣٧٩) ، ولكنْ إذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا إنّا معكم مقاتِلونَ، فقالَ رسولُ اللهِ: فسيروا على اسمِ اللهِ، لم يكنْ رسولُ اللهِ يستشيرُهم لأجلِ معرفةِ الصوابِ منَ الخطأِ فهو أعلمُ منْهم، لكِنّه استشارَهم لكي يَعرِفَ الناسُ نوايا كلِّ واحدٍ منْهم ويمكنُهُم تمييزَ المخلِصِ مِنْ غيرِهِ. (٣٨٠)

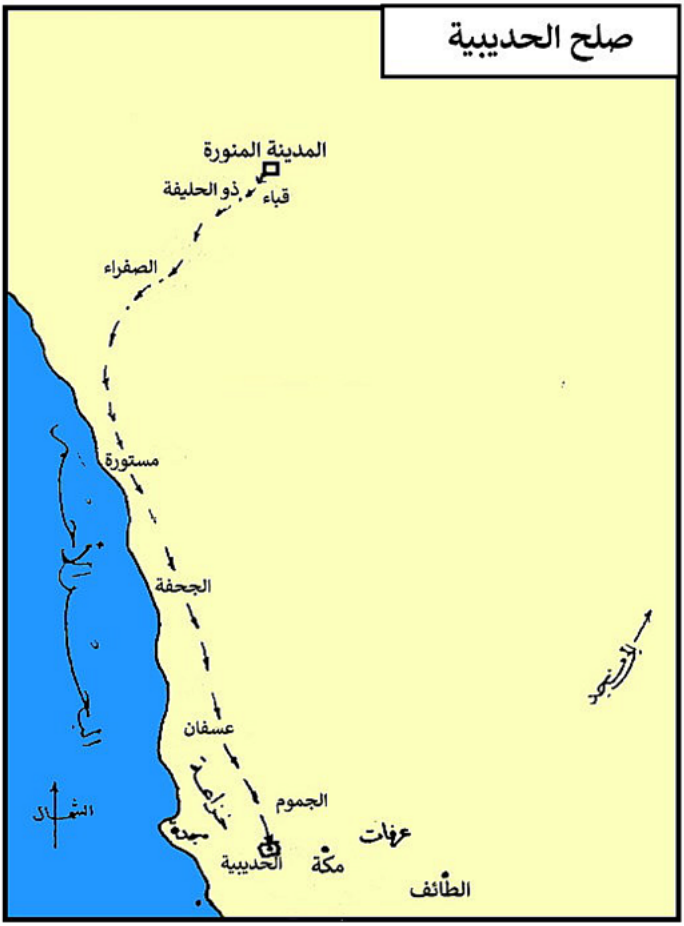
---

١ العوذ المطافيل: جمع عائذ، وهي الناقة التي معها ولدها، والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها، ذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها في السفر الطويل.

٢ ذي طوى: هو مكان يقع على بعد فرسخ من مكة أما الآن فإنه يقع على الطريق بين التنعيم ومكة.

٣ السالِفَة: هي جانب العنق، وخَصْلَة الشَّعر المُرسلة على الخد، وهما سالفان، وهنا كناية عن الموت.

بعد أنْ علمَ رسولُ اللهِ موقفَ قريشٍ، قرّرَ تغييرَ طريقِ القافلةِ بهدفِ تجنُّبِ الصدامِ معهم في الأشهرِ الحُرمِ، فقالَ: اسلُكوا ذاتَ اليمينِ، فسلكَ بهم طريقاً وَعِرةً بينَ شِعابٍ، فلمّا رأى خالدٌ آثارَ القافلةِ، وأنّهم قد غيَّروا مسيرَهُمُ، انطلقَ مسرعاً إلى قريشٍ لينذرَهم، طلبَ رسولُ اللهِ منَ المسلمينَ الصعودَ إلى ثَنيّةِ المرارِ [١] فتبادرَ الناسُ للصعودِ، فقالَ أحدُهم: يا رسولَ اللهِ، نخشى أن ترى قريشٌ نيراننا، فقال النبي: لن يرونكم .



شكل(40): الطريق إلى الحُديبيّة.

---

١ ثنية المرار: وهي ثنية عند الحديبية.

حينَما كانَ رسولُ اللهِ في ثَنيَّةِ المرّارِ بركَتْ راحلتُهُ، وظنَّ الناسُ أنّها أُجهِدتْ، فأبَتْ أنْ تنهضَ فقالَ المسلمونَ: خَلأتِ [1] القَصْواءُ، فقالَ رسولُ اللهِ : ما خلأتِ القصواءُ وما ذاكَ لها بعادةٍ، ولكنْ حبَسَها حابسُ الفيلِ عنْ مكّةَ، ثمّ قالَ: والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لا تسألُنِي قريشٌ اليومَ خُطّةً فيها تعظيمُ حُرماتِ اللهِ وصِلةُ رحِمٍ إلاّ أعطيْتُهُم إيّاها، ثمّ زَجَرَها، فقامَتْ حتّى نزلَتْ بهِ أقصى الحُديْبيّةِ على حَوضٍ قليلِ الماءِ، وقد سبقَ المشركونَ إلى بلدحَ فغَلَبوا على مياهِه، وكانَ هناكَ بئرٌ واحدٌ قد نَشِفَ ماؤها، والناسُ في حَرٍّ شديدٍ، فشَكوا إلى رسولِ اللهِ قِلّةَ الماءِ، فدعا بدلْوٍ منْ ماءِ البئرِ، فجاءوهُ بِها، فتوضأً ومضْمَضَ فاهُ، ثمّ لفَظَهُ في الدلوِ، ثمّ قالَ : انزِلوا بالدلْوِ فصَبُّوها في البئْرِ، ففارَتْ بالماءِ كما تفورُ القِدْرُ حتّى مَلأتْ البئرَ، فراحوا يغترِفونَ منْها حتّى نَهَلوا عنْ آخرِهمْ، وكانَ على الماءِ يومَئذٍ نفرٌ من المنافقينَ، منْهم عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ، فقالَ أوسٌ بنُ خَولى: ويحَكَ يا أبا الحُبابِ [2]! أما آنَ لكَ أنْ تُبصرَ ما أنتَ عليهِ؟ أبعدَ هذا شيءٌ؟! فقالَ: إنّي قد رأيتُ مثْلَ هذا، فقالَ أوسٌ: قَبَّحكَ اللهُ، وقبَّحَ رأيَكَ! فأقبلَ ابنُ أبيٍّ يريدُ رسولَ اللهِ، فقالَ لهُ النبيُّ: يا أبا الحُبابِ أنَّىٰ رأيْتَ مِثْلَ ما رأيتَ اليومَ؟ فقالَ: ما رأيتُ مثْلَهُ قَطُّ، قالَ: فَلِمَ قلْتَهُ؟ فقالَ ابنُ أبيٍّ: يا رسولَ اللهِ استغفِرْ ليْ، فقالَ ابنُه عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ: يا رسولَ اللهِ استغفِرْ لهُ، فاستغفَرَ لهُ، وسمِعَ عمرُ رسولَ اللهِ وهو يستغفِرُ لابنِ أُبيْ، فقالَ لهُ: ألمْ يُنهِكَ اللهُ أنْ تصلّيَ عليهمْ أو تستغفِرَ لهمْ؟! فأعرضَ عنهُ رسولُ اللهِ، فأعادَ عليهِ، فقالَ لهُ النبيُّ: ويْلَكَ إنّي خُـيِّرتُ فاخترتُ، إنّ اللهَ يقولُ:﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ (٣٨١)

لمّا اطمأنَّ رسولُ اللهِ بالحُديْبيَّةِ جاءهُ بديلٌ بنُ ورقاءَ في رجالٍ من خُزاعةَ، منهمْ عَمْرو بنُ سالمٍ وخَراشٌ بنُ أميّةَ وخارِجةُ بنُ كرزٍ ويزيدُ بنُ أميّةَ، وكانوا عَيْبَةَ نُصْحٍ [3] لرسولِ اللهِ بِتُهامَةَ، منهمُ المسلِمُ، ومنهمُ المُوادِعُ، لا يُخفونَ عنهُ بتُهامةَ شيئاً، فلمّا قدِموا على رسولِ

---

١ خلأ: حرنَ و لم يَبْرح مكانَه، والقصواء هي ناقة رسول الله.

٢ عبد الله بن أبي ابن سلول كان لديه ولد من زوجته خولة بنت المنذر ، اسمه عبد الله، كان اسم عبد الله بن عبد الله «الحُباب» وبه يكنى أبوه، وغيّره النبي محمد إلى «عبد الله».

٣ أي موضع النصح له والأمانة على سره.

اللهِ سلَّموا، ثمّ قالَ بديلٌ بنُ ورقاءَ: جئناكَ منْ عندِ قومِكَ، كعبٍ بنِ لؤيْ وعامرٍ بنِ لؤيْ (وهم أجدادُ النبيِّ) قد استَنفَروا لكَ الأحابيشَ[١] ومَنْ أطاعَهم، قد نزَلوا أعدادَ [٢] مياهِ الحديبيّةِ، معهمُ العوذُ المطافيلُ، والنساءُ والصِبيانُ، يقسمونَ باللهِ لا يُخَلّونَ بينكَ وبينَ البيتِ حتّى تبيدَ خضراؤهُمْ، فقالَ رسولُ اللهِ : إنّا لم نأتِ لقتالِ أحدٍ، إنّما جِئْنا لِنطوفَ بهذا البيتِ، فمَنْ صدَّنا عنهُ قاتلْناهُ، إنّ قريشاً قد أضرَّتْ بهمُ الحربُ ونَهكَتْهمُ، فإنْ شاءوا مادَدْتُهمْ مُدّةً يأمَنونَ فيها، ويُخلّونَ فيما بينَنا وبينَ الناسِ، والناسُ أكثرُ منهمْ، فإنْ أصابوني فذلكَ الذي أرادوا، وإنْ ظَهَرَ أمري على الناسِ كانوا بينَ أنْ يدخلوا فيما دخلَ فيهِ الناسُ أو يُقاتِلوا، وإنْ هم أبَوا، فواللهِ لأجهَدنَّ على أمري هذا حتّى تنفردَ سالفتيْ، ولينفِذَنَّ اللهُ أمرَهُ، فوعى بديلٌ مقالةَ رسولِ اللهِ، وقالَ: سأبَلِّغُهم ما تقولُ، وعادَ وركبُهُ إلى قريشٍ، فقالَ أناسٌ منهمْ: هذا بديلٌ وأصحابُه، وإنّما يريدونَ أنْ يستخبروكم، فلا تسألُوهمْ عنْ حَرفٍ واحدٍ، فلمّا رأى بديلٌ أنّهم لا يستخبرونَه قالَ: إنّا جئْنا منْ عندِ محمدٍ ، أتحبّونَ أنْ نخبِرَكمْ عنهُ؟ فقالَ عِكرمَةُ بنُ أبي جهلٍ والحَكَمُ بنُ أبي العاصِ: ما لنا حاجةٌ بأنْ تخبِرُونا عنهُ، ولكنْ أخبِروهُ عنّا أنّه لا يدخلُها علَيْنا عامَهُ هذا أبداً حتّى لا يبقى رجلٌ، فأشارَ عليهمْ عُروةُ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ بأنْ يسمعوا كلامَ بديلٍ، فإنْ أعجبَهمْ قَبِلُوهُ وإلّا تركوهُ، فقالَ صفوانُ بنُ أميّةَ والحارثُ بنُ هشامٍ: أخبِرونا بالذي رأيتُم وسمِعتُم، فقالَ بديلٌ لهمْ: إنّكم تعجِلونَ على محمدٍ ، إنّه لم يأتِ لقتالٍ، إنّما جاءَ مُعتَمِراً، وأخبرَهم بمقالَةِ النبيِّ، فقالَ عُروةُ: يا معشرَ قريشٍ، أتَتهِمونَني؟ قالوا: لا، قالَ، ألستُمْ بالوالِدِ؟ قالوا: بلى، قالَ: ألستُ بالولَدِ؟ قالوا: بلى، وكانَ لعروةَ نسَبٌ في قريشٍ، قالَ: ألسْتُمْ تعلمونَ أنّي استنفرتُ أهلَ عُكاظٍ لنصرِكمْ، فلمّا عجزتُ منهمْ نفرتُ إليْكمْ بنفسيْ وولَدِي ومَنْ أطاعَني؟ قالوا: قد فعلتَ، ما أنتَ عندنا بمُتَّهَمٍ، قالَ: إنّي لكُمْ ناصحٌ، وعليكُمْ شفيقٌ، لا أدّخِرُ عنكمْ نُصْحاً، فإنّ بديلاً قد جاءكمْ بخطَّةِ رُشدٍ لا يردُّها أحدٌ أبداً، إلاّ أخذَ شرّاً منْها، فاقْبَلوها منهُ، وابعثوني حتّى آتيكمْ بمِصداقِها منْ عندِهِ،

---

١ الأحابيش: هم بنو الهون بن خزيمة وبنوالحرث بن عبد مناف وبنو المصطلق، وقد سُموا بذلك لأنهم تحالفوا عند جبل بمكة اسمه حبشي.

٢ الأعداد: جمع عِّد وهو الماء الذي لا انقطاع له، وأعداد مياه الحديبية هو موضع بمكة وقد سبقت قريش إليه.

وأنظرُ إلى مَنْ معهُ، وأكونُ لكم عَيْناً آتيكُمْ بخبرِهِ، فبعثَتْهُ قريشٌ إلى رسولِ اللهِ ، فقالَ لمّا وصلَ: يا محمدُ، هذه قريشٌ استعدَّتْ لمواجَهتِكَ، وإنّما أنتَ بينَ أحدِ أمرَينِ أنْ تجتاحَ قومَكَ، ولم يُسمَعْ برجلٍ اجتاحَ قومَهُ وأهلَهُ قبْلَكَ، أو بينَ أنْ يخذُلَكَ مَنْ ترى معكَ، وإنّي واللهِ لا أرى معكَ وجوهاً ولا أنساباً، وإنّي لا أرى إلاّ أوباشاً [1] وخليقاً أنْ يفِرّوا ويَدَعوكَ، فَتُؤخَذَ أسيراً، فأيُّ شيءٍ أشدُّ عليكَ منْ هذا؟ فغضبَ أبو بكرٍ وكانَ قاعداً خلفَ رسولِ اللهِ فقالَ: أُمصُصْ بَظَرَ اللاّتِ [2] أنحنُ نخذلُهُ أو نفرُّ عنهُ؟! فقالَ عروةُ: مَنْ ذا؟ قالوا: أبو بكرٍ، وكانَ المُغيرَةُ بنُ شُعْبَةَ حاضراً فتحرّشَ بِعروةَ، وضايَقَهُ فلمّا أكثرَ عليهِ غضِبَ عُروةُ وقالَ: ويحكَ! ما أفظَّكَ وأغلظَكَ! وقالَ: ليتَ شِعري! مَنْ هذا الذي آذانيْ منْ بينِ أصحابِكَ؟ واللهِ لا أحسَبُ فيكُمْ ألأمَ منهُ، ولا أشرَّ منزلةً، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ وقالَ: هذا ابنُ أخيكَ المغيرةُ بنُ شعبةَ، فقالَ عروةُ: وأنتَ بذلكَ يا غادرُ، واللهِ ما غسلْتَ عنكَ غدرتَك بِعُكاظٍ إلاّ أمسًا، لقد أورثْتَنا العداوةَ من ثقيفٍ إلى آخرِ الدهرِ، وجعلَ عروةُ يرمقُ أصحابَ النبيِّ بعينِه، فواللهِ ما يتنَخَّمُ [3] رسولُ اللهِ نُخامَةً إلاّ وقعَتْ في كفِّ رجلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بِها وجهَهُ وجِلْدَهُ تبرُّكاً، وإذا أمرَهُم بأمرٍ ابتدَرُوا أمرَهُ، وإذا توضَّأ كادوا يقتتِلونَ على وضوئهِ، ولا يسقطُ شيءٌ منْ شَعرِهِ إلاّ أخذوهُ، وإذا تكلَّمَ خَفضوا أصواتَهُم عندَه، وما يحِدّونَ النَّظَرَ إليهِ تعظيماً لهُ.(٣٨٢)

لم يكنِ المسلمونَ سواءً بالإيمانِ والالتزامِ، إذْ كانَ منهمْ مَنْ يطيعُ النبيَّ دونَ مناقَشةٍ ويُسلِّمُ لحُكْمِ اللهِ ورسولِهِ، وكانَ منهمْ مَنْ يتقدّمُ على النبيِّ في أمرٍ أو حُكْمٍ أو يعترضُ على رأيِ النبيِّ، ومنهُمْ مَنْ لا يلتزمُ الأدبَ في خِطابِهِ في محضَرِ النبيِّ، فكانَ النبيُّ يردُّهمْ و يُوبِّخُهم أحياناً أو يتركُهُم حِفاظاً على ماءِ وجهِهمْ أمامَ الأعداءِ ومراعاةً للظَرْفِ أحياناً أُخرى.(٣٨٣)

ردَ النبيُّ على عُروةَ بمثْلِ ما قالَ لبديلٍ بنِ ورقاءَ، وعرضَ عليهم مدةَ الهدنةِ، فلمّا فرغَ عروةُ من الكلامِ مع رسولِ اللهِ، عادَ إلى قريشٍ، وقالَ لهم: يا قومُ، إنّي وفدتُ إلى الملوكِ

---

١ الأوباش: جمع وَبش، وألوباش: سفلة الناس وأخلاطهم.

٢ شتيمة كان بعض العرب يقولها، واللات: هو أحد الأصنام التي كانت تعبدها قريش.

٣ تَنَخَّمَ الرجل: لَفَظَ ما في فمه من بلغم.

كسرى وقيْصرَ والنجاشيْ، وإنّي واللهِ ما رأيتُ مَلِكاً قَطُّ أطوعَ فيما بينَ ظهرانيهِ منْ محمدٍ في أصحابِهِ، واللهِ إنْ ما رأيتُ مَلِكاً قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه مثْلَ ما يُعظِّمُ أصحابُ محمدٍ محمدًا ، واللهِ ما تَنخَّمَ نُخامةً إلاّ وقعَتْ في كفِّ رجلٍ منهمْ، فَدلَكَ بِها وجهَهُ وجِلْدَهُ، وإذا أمرَهم بأمرٍ ابتدرُوا أمْرَهُ، وإذا توضأَ كادوا يقتتلونَ على وضوئهِ أيُّهُم يظفرُ منهُ بشيءٍ، ولا يسقطُ شيءٌ من شَعرِهْ إلاّ أخذوهُ، وإذا تكلّمَ خفضوا أصواتَهم عنْدهُ، وما يحِدّونَ النظرَ إليهِ تعظيماً لهُ، ولا يتكلَّمُ رجلٌ منهمْ حتّى يستأذِنَ، فإنْ هو أذِنَ لهُ تكلَّمَ، وإنْ لم يأذَنْ لهُ سكَتَ، وقد عَرضَ عليكمْ خُطَّةَ رشدٍ فاقْبلوها، قد حرزتُ القومَ [1]، واعلَموا أنّكم إنْ أردتُمْ منهمْ السيفَ بذَلوهُ لكُمْ، وقد رأيتُ قوماً لا يُبالونَ ما يُصنَعُ بِهم إذا منعتُمْ صاحِبَهم، واللهِ لقد رأيتُ معهُ نساءً ما كُنَّ ليُسلِمنَّه أبداً على حالٍ، فَرُوا رأيَكُم، فأْتوهُ يا قومُ، واقْبلوا ما عَرضَ عليْكُم، فإنّي لكُم ناصِحٌ، مع أنّي أخافُ ألّا تنصروا رجُلاً أتى زائراً لهذا البيتِ، مُعَظّماً لهُ معهُ الهَدْيُ ينحرُهُ وينصرفُ، فقالتْ قريشٌ: لا تَتكلَّمْ بهذا يا أبا يَعْفُورٍ، فقد تكلَّمَ غيرُكَ بهذا؟ نحنُ نرى أنْ نردَّهُ عامَنا هذا، ويرجِعُ العامَ المُقبِلَ، فقالَ: ما أراكُم إلاّ تصيبُكمْ قارِعةٌ، فانصرفَ هو ومَنْ تبِعَهُ إلى الطائفِ، فقامَ مُكْرِزٌ بنُ حَفْصٍ، وقالَ: دعُوني آتِهِ، فلمّا طَلَعَ ورآهُ النبيُّ قالَ: هذا رجلٌ فاجِرٌ، فلمْ يُكلّمْهُ النبيُّ، وعادَ أدراجَه دونَ نتيجةٍ، فقامَ الحليسُ بنُ عَلْقَمَةَ الكِنانيْ وكانَ يومَئذٍ سيّدَ الأحابيشِ فقالَ: دعوني آتِيْهِ، فقالوا: ائتهِ، فلمّا أشرَفَ على رسولِ اللهِ قالَ: هذا الحليسُ منْ قومٍ يعظمونَ الهَديَ، ويتألَّهونَ، فابْعثوها لهُ، فبعَثَ الهَديَ لهُ ليراها، فلمّا رأى الهدْيَ يسيلُ عليهِ مِنْ عرضِ الوادي وعليْها قلائدُها، قد أكلَتْ أوبارَها، وهي من طولِ الحبْسِ تُرجِّعُ الحَنينَ [2]، واستقبلَهُ الناسُ يُلَبُّونَ قد أقاموا نصْفَ شهرٍ، وقد تفَلّوا وشَعَثوا [3]، فصاحَ قائلاً: سبحانَ اللهِ، ما ينبغي لهؤلاءِ أنْ يُصَدُّوا عنِ البيتِ**!** أبَى اللهُ أنْ تَحِجَّ لَخَمٌ وجُذامٌ وكِنْدةُ، وحِمْيَرُ، ويُمنَعُ ابنُ عبدِ المطّلبِ، ما ينبغي لهؤلاءِ أنْ يُصَدّوا عنِ البيتِ، هلَكَتْ قريشٌ وربِّ الكعبَةِ، إنّ القومَ إنّما أتَوا عُمّاراً .

---

١ أي أن هذه الخطة قد حفظت وصانت القوم.

٢ حنّت الناقة: أحدثت صوتاً، وهي تمدّ عنقها شوقاً إلى ولدها.

٣ تَفِلَ الرجل: تغيّرت رائحته، وشَعِثَ الشَّعْرُ: تلبَّد وتغيَّر من التراب وقلة النظافة.

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ مِنْ بُعْدٍ: أجَلْ يا أخا بنيْ كِنانةَ، فلم يصلْ إلى رسولِ اللهِ لمّا رأى ذلكَ إعظاماً لِما رأى، ورجعَ إلى قريشٍ، فقالَ: إنّي رأيتُ ما لا يَحِلُّ مَنْعُهُ، رأيتُ الهدْيَ في قلائدِهِ، قد أكلَ أوبارَهُ، معكوفاً عنْ محلِّهِ، والرجالُ قد تَقَلّوا وقَمِلوا أنْ يطوفوا بهذا البيْتِ، واللهِ ما على هذا حالفْناكُمْ، ولا عاقدْناكمْ على أنْ تصُدّوا عن البيتِ مَنْ جاءهُ مُعظِماً لحُرمَتِه مؤدّياً لحقِّهِ، وسائقُ الهَدْيِ معكوفاً أنْ يبلُغَ مَحِلَّهُ، والذي نفسي بيدِهِ لتُخَلُّنَّ بينَهُ وبينَ ما جاءَ لهُ أو لأنفِرَنّ بالأحابيشِ نَفْرةَ رجلٍ واحدٍ، فقالوا: كُفَّ عنّا يا حليسُ حتّى نأخذَ لأنفُسِنا ما نرضى بهِ، إنّما أنتَ أعرابيٌّ لا علْمَ لكَ،إنّ كُلَّ ما رأيْتَ منْ محمدٍ مكيدةٌ. (٣٨٤)

وهنا يذكرُ اللهُ بأنّ الذينَ كفروا قد أخذَتْهم أنَفَةُ الجاهليّةِ فتعصّبوا لأنفسِهِمْ وغضِبوا لها ولم يُفكّروا ويُذعِنوا للحقِّ ويستمِعوا إلى قولِ النبيِّ وأنّه جاءَ معَ المسلمينَ مُعتَمرينَ، فعزَّ عليهِمْ ذلكَ ولم يقبَلوا، فأنزلَ اللهُ السَّكينَةَ على رسولِهِ والمؤمنينَ وثبّتَهمْ وشدَّ على قلوبِهم بحيثُ استطاعوا رغْمَ الإثاراتِ والشروطِ الصعبةِ أنْ يتحمّلوا ذلكَ ويتخطّوهُ، وجعلَهُمْ ربُّهم منْ أهلِ التَّقوى الذينَ يخافونَ اللهَ فيحذَرونَ عذابَهُ ويرجونَ ثوابَه فيقومونَ بكلِّ ما هو مطلوبٌ منهمْ، فعِلْمُ اللهِ محيطٌ بالأشياءِ كلِّها يعرفُ خفايا الأمورِ ودقائقَها، يعرفُ مَنْ يكونُ أهلاً للتقوى وأهلاً أنْ يتحمَّلَها.(٣٨٥)

فأرادَ النبيُّ إرسالَ رسولٍ منْ عندِهِ إلى قريشٍ معَ علامَةٍ تؤكّدُ لهمْ حقيقةَ نواياهُ، وأنّ مجيئَهُ إلى مكّةَ ليس مبادرةً قتاليةً، فبعثَ إلى قريشٍ خَراشًا بنَ أمَيّةَ على جَمَلِهِ الخاصّ يُقالُ لهُ الثعلبُ، ليُبْلِغَ عنهُ أشرافَهمْ بما جاءَ لهُ، لكنْ حينَ ذهبَ خراشٌ على جَمَلِ النبيِّ مسكَهُ جماعةٌ منْ قريشٍ وضرَبوهُ وقامَ عِكرمَةُ بنُ أبي جهلٍ بعقْرِ جَمَلِ النبيّ، وأرادوا قتْلَ خَراشٍ، فمنَعَهُ الأحابيشُ، وخَلّوا سبيلَهُ حتّى أتى رسولَ اللهِ فأخبرَهُ بما لقيَ منْ التعذيبِ وكيفَ قتلوا الجَمَلَ .

لم ييأسِ النبيُّ منْ توضيحِ سِلميّةَ تحرُّكِهم لقريشٍ، فأحبَّ أنْ يبعثَ إليْهِمْ رجلاً منْ أصحابِه، فدعا عمرَ بنَ الخطابِ ليبْعثَهُ إلى قريشٍ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنّي أخافُ قريشاً على نفسِي، وقد عرفَتْ قريشٌ عداوتي لها، وليس بِها منْ بنيْ عِدِيٍّ مَنْ يمنَعُني، وإنْ أحببْتَ يا رسولَ

اللهِ دخلْتُ عليهِمْ، فلم يقلْ لهُ رسولُ اللهِ شيئاً، فقالَ عمرُ: يا رسولَ اللهِ، ولكنّي أدُلُّكَ على رجلٍ أعزَّ بمكّةَ منّي، وأكثرَ عشيرةً وأمنعَ، وإنّه يبلِّغُ لكَ ما أردتَ، إنّه عثمانُ بنُ عفّانَ، فدعا رسولُ اللهِ عثمانَ، فقالَ: إذهبْ إلى قريشٍ وأخبرْهم أنّا لم نأتِ لقتالٍ، وإنّما جِئْنا عُمّاراً، وادْعُهمْ إلى الإسلامِ، وأمرَهُ أنْ يذهبَ إلى رجالٍ بمكّةَ مؤمنينَ ونساءٍ مؤمناتٍ، فيدخلَ عليهِمْ ويبشِّرَهمْ بالفتْحِ، ويُخبرَهمْ أنّ اللهَ سيُظهِرُ دِينَهُ بمكّةَ قريباً، حتّى لا يُضطَهَدُ فيها المؤمنونَ، فانطلقَ عثمانُ إلى قريشٍ، فَمَرَّ عليهِمْ ببلْدَحَ، فقالوا: أينَ تريدُ؟ ولقيَهُ أبانُ بنُ سعيدٍ، فرحَّبَ بهِ أبانُ وأجارَهُ، وقالَ: لا تُقصِّرْ عنْ حاجتِكَ، ثمّ نزلَ عنْ فَرسٍ كانَ عليها، فحمَلَ عثمانَ على السرْجِ، وأردَفَهُ فدخلَ بهِ مكّةَ، فأتى عثمانُ أشرافَ قريشٍ رجلاً رجلاً، فجعلوا يردّونَ عليهِ قائلينَ: إنّ محمدًا لا يدخلُها عليْنا أبداً، فقالَ عثمانُ: بعَثَني رسولُ اللهِ إليْكمْ لأدعوَكُم إلى الإسلامِ وإلى اللهِ، وتدخلونَ في الدينِ كافةً، فإنّ اللهَ مُظهِرٌ دينَهُ ومُعِزٌّ نبيَّهُ، وإنْ تكُفّونَ، ويكونُ الذي يليْ هذا الأمرَ منهُ غيرُكُمْ، فإنْ ظفرَ برسولِ اللهِ فذلكَ ما أردتُم، وإنْ ظفرَ كنتُمْ بالخَيارِ بينَ أنْ تدخلوا فيما دخلَ فيهِ الناسُ أو تقاتلوا وأنتمْ وافرونَ جامّونَ [١]، إنّ الحربَ قد نهَكَتْكُم وأذهبَتْ الأماثِلَ منكُمْ، وإنّ رسولَ اللهِ يخبِرُكمْ أنّهُ لم يأتِ لقتالِ أحدٍ، إنّما جاءَ مُعتَمِراً، ومعهُ الهَدْيُ عليهِ القلائدُ، ينحرُهُ وينصرفُ، فقالوا: قد سمِعْنا ما تقولُ، ولا كانَ هذا أبداً، ولا دَخَلَها عليْنا عُنوةً، فارجعْ إلى صاحبِكَ، فأخبرْهُ أنّهُ لا يصلُ إليْنا .

ثمّ دخلَ على قومٍ مؤمنينَ منْ رجالٍ ونساءٍ مُستَضْعَفينَ بمكّةَ، فقالَ: إنّ رسولَ اللهِ يقولُ لكُم: قد أظلَّكمْ حتّى لا يستخفيَ بمكّةَ اليومَ أحدٌ بالإيمانِ، ففرحوا بذلكَ، وقالوا: أقرِئْ رسولَ اللهِ مِنّا السلامَ.

وكانَ رسولُ اللهِ يأمرُ أصحابَه بالحراسةِ في الليلِ، وألّا يوقدوا ناراً في الليلِ، كي لا يَدُلّوا الأعداءَ على خيامِهم، فكانوا ثلاثةً يتناوبونَ على الحراسةِ أوسٌ بنُ خَوليْ وعَبّادٌ بنُ بِشْرٍ ومحمدٌ بنُ مَسْلَمَةَ، وكانَ محمدٌ بنُ مسلمةَ على حرسِ رسولِ اللهِ ليلةً منَ اللياليْ، وعثمانُ

---

١ جامّون: مستريحون.

بنُ عفّانَ بمكّةَ، فبعثَتْ قريشٌ تلك الليلةَ خمسينَ رجلاً، وأمروهُمْ أنْ يطوفوا بالنبِيِّ رَجاءَ أنْ يُصيبوا منهمْ أحداً أو يُصيبوا منهمْ غِرَّةً، فَتنبَّهَ المسلمونَ لهمْ، ووصلَ الخبرُ إلى الرسولِ، فصفَّ القومَ للقتالِ، وجعلَ اللواءَ يومئذٍ بيدِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ، فانطلقوا وأسروهُم أجمعَهمْ وجاؤوا بِهمْ إلى رسولِ اللهِ، وكانَ عشرةُ رجالٍ منَ المسلمينَ قد دخلوا مَكّةَ بإذنِ رسولِ اللهِ سِرّاً، فعلمَتْ بهمْ قريشٌ وأخذَتْهم، ثمّ خرجَ ثلاثونَ رجلاً بالسلاحِ إلى معسكَرِ المسلمينَ وثاروا في وجوهِهمْ حتّى تراموا بالنبْلِ والحجارةِ، فدعا عليهمْ رسولُ اللهِ، ثمّ تحَرَّكَ عليهِم عليٌّ بنُ أبي طالبٍ معَ جماعةٍ وأمسكوهُمْ وجاؤوا بهمْ إلى النبيّ، فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ: هلْ جِئتُمْ في عهدِ أحدٍ؟ وهلْ جعلَ لكُم أحدٌ أماناً؟ فقالوا: لا، فعفَى عنهمُ النبيُّ وخَلَّى سبيلَهمْ .

ثمّ هبطَ على رسولِ اللهِ وأصحابِه ثمانونَ رجلاً منْ أهلِ مكةَ في السلاحِ منْ قِبَلِ جبلِ التنْعيمِ، يريدونَ غِرَّةَ رسولِ اللهِ فدعا عليهمْ، فأمسَكتْ بهِم كتيبةُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ، فعفا عنهمْ رسولُ اللهِ كذلكَ، أوحى اللهُ بأنّه يرى كلَّ ما تقومونَ بهِ منْ صلحٍ وغيرِه ويُثيبُكمْ عليهِ، وهو الذي منَعَ أنْ يقعَ قتالٌ بينَكُم وبينَ الكفّارِ في مكّةَ يومَ الحُديبيةِّ بعدما مكَّنَكم منهمْ، فأخذتُموهمْ أسرى ثمّ عفوتُمْ عنهمْ وأنتمْ في أرضِهم وبذلكَ غلبْتُموهمْ. (٣٨٦)

وأسرَ المسلمونَ مِنَ المشركينَ اثنيْ عشرَ فارساً آخرَ، وقُتِلَ منَ المسلمينَ واحِدٌ فقطْ، ثمّ بعثتْ قريشٌ سهيلًا بنَ عَمْرو وحويطبًا بنَ عبدِ العُزّى ومُكرزًا بنَ حفصٍ، ليُخلّصوا أولئكَ النفَرَ الخمسينَ الذينَ أُسِروا، فلمّا جاءَ سهيلٌ بنُ عمرو وكانَ منْ أشرافِ قريشٍ، ورآهُ النبيُّ قالَ لأصحابِهِ: سَهُلَ أمرُكمْ، تفاؤلاً باسمِهِ، فقالَ سهيلٌ: يا محمدُ ، إنّ الذي كانَ مِنْ حبْسِ أصحابِك، وما كانَ منْ قتالِ مَنْ قاتلَكَ، لم يكنْ منْ رأيِ ذويْ رأيْنا، بلْ كنَّا لهُ كارهينَ حينَ بلغَنا، ولم نعلمْ بهِ، وكانَ منْ سُفهائنا، فابعَثْ إليْنا بأصحابِنا الذينَ أسرتَ أوّلَ مرّةٍ، والذينَ أسرتَ آخرَ مَرَّة .

كانَ رسولُ اللهِ في موقعِ القوّةِ، وهو يُمليْ إرادتَه على عدوّه ويُرغمُهُم على الاعترافِ بأنّ قريشًا هي المُعتدِيَةُ والظالمَةُ، فقالَ رسولُ اللهِ: إنّي غيرُ مُرْسِلِهم حتّى تُرسلوا أصحابيَ،

فقالوا: أنصفْتَنا، فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ لرسولِ اللهِ: يا رسولَ اللهِ، انزعْ ثَنِيّتَيْهِ [١]، فلا يقومُ خطيباً عليكَ أبداً، لكنّ النبيَّ ردَّ هذا الطلبَ الوحشيَّ غيرَ المُبَرّرِ، وقالَ: دعْهُ يا عمرُ، فعسى أنْ يقومَ مقاماً نحمدُهُ عليهِ [٢]، فبعثَ سهيلًا ومَنْ معهُ إلى قريشٍ، وأرجَعوا مَنْ كانَ عندَهمْ، وهمْ عثمانُ والأسرى العشْرةَ، وأرسلَ رسولُ اللهِ أصحابَهم الذينَ أسرَهُم.

في هذه الأثناءِ لحِقَ بالمسلمينَ عددٌ منَ الأرِقّاءَ والعبيدِ الذين كانوا في مَكّةَ، وبعضٌ منَ المستضْعَفينَ من قريشٍ، فكتبَتْ قريشٌ إلى رسولِ اللهِ أنْ يعيدَهم إليها وجاءَ في الكتابِ: واللهِ ما خرجوا إليكَ رغبَةً في دينِكَ، وإنّما خرجوا هرَباً منَ الرقِّ، فرفضَ النبيُّ طلبَهم وقالَ: هُمْ عتقاءُ اللهِ، وطلبَ منه سهيلٌ بنُ عَمْرو ذلك أيضاً، وقالَ لهُ: قد خرجَ إليكَ ناسٌ من أبنائنا وأرِقّائنا، وليس بهم فِقْهٌ في الدينِ، وإنّما خرجوا فِراراً من أموالِنا وضِياعِنا، فاردُدْهُمْ إلينا، فقالَ بعضُ أصحابِ النبيّ مِمّنْ كانَ حاضراً معهمْ: صدقوا يا رسولَ اللهِ، رُدَّهمْ إليهم، فغضِبَ رسولُ اللهِ من ذلك حتّى بانَ الغضبُ في وجههِ، وقالَ: ما أراكُم تنتهونَ يا معشرَ قريشٍ حتّى يبعثَ اللهُ عليكم رجلاً امتحنَ اللهُ قلبَه للإيمانِ، يضربُ رقابَكم على هذا، وأبى أنْ يردَّهم، فقالَ بعضُ مَنْ حضرَ: يا رسولَ اللهِ، أبو بكرٍ ذلك الرجلُ؟ قالَ: لا، قيلَ: فَعُمَرُ؟ قالَ: لا، ولكنّهُ خاصِفُ النعْلِ [٣] في الحُجْرَةِ، فتبادرَ الناسُ إلى الحجرةِ ينظرونَ مَنِ الرجلُ، فإذا هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وكانَ جالساً في الحُجرةِ يصلحُ نعلَ رسولِ اللهِ، لمّا انقطعَ شِسْعُهُ [٤]، أظهرَ النبيُّ غضبَهُ الشديدَ، وذلك تأييداً لأشخاصٍ ضعفاءَ اضطُهِدوا من قِبَلِ أسيادِهم بحرمانِهم من حقِّهم في حريَّةِ العقيدةِ والدينِ، لذا لم يرغَبْ رسولُ اللهِ أنْ يُرجِعَهم إليهم أو أنْ يساعدَ على ذلك، لأنّ ذلك عدوانًا عليهم ومصادرةً لحريّاتِهم، بلْ أصبحَ من واجبِهِ الدفاعُ عنهم والمنعُ من ظلْمِهم ومنَ استعبادِهم، وكذلكَ فَعَلَ. (٣٨٧)

---

١ الثَّنِيَّة: إحدى الأسنان الأربع القواطع التي في مقدّم الفم.

٢ لقد تحققت هذه النبوءة بعد سنوات عدة عند وفاة النبي، فكان لسهيل دور في وأد الفتنة.

٣ خَصَفَ النَّعْلَ: خَرَزَها بالمِخْصف، بأن يضم بعض طِباقها إلى بعض ويخرزها بالمخرز، وخصف الشيءَ إلى الشيء: ضمّه إليه، وخصف الشيء على الشيء: ألصقه به وأطبقه عليه.

٤ الشِسْعُ: وهو سيرٌ يمسكُ بأصابعِ القدم.

بَيعَةُ الرضوانِ

أتى رسولُ الله منازلَ بني مازنٍ بنِ النجّار، وهي في ناحيةٍ من الحُديبيّةِ، فجلسَ في رحالِهم تحتَ شجرةٍ خضراءَ، ثمّ قالَ: إنّ الله أمرني بالبيعةِ، والبيعةُ: هي أخذُ عهدٍ أو تجديدُهُ، والتجديدُ إنّما يكونُ بهدفِ تأكيدِ الالتزامِ به، والحمْلِ على الوفاءِ به، وهذا إنّما يُطلبُ ممن يُظَنُ فيهِ الغدرُ، ويُتَّهمُ بالخيانةِ وعدمِ الوفاءِ، فنادى منادي رسولِ اللهِ: أيُّها الناسُ البيعَةَ البيعةَ، نزلَ روحُ القدسِ، فاخْرُجوا على اسمِ اللهِ، فأقبلَ الناسُ يبايعونَهُ حتى تزاحموا، فما بقيَ لبني مازنٍ متاعٌ إلا وُطِئَ، ثمّ لبسوا السلاحَ، قالَ أبو سِنانٍ الأسديّ لرسولِ الله : ابسطْ يدكَ أبايعْكَ، فقالَ رسولُ اللهِ: علامَ تبايعُني؟ قالَ: على ما في نفسِكَ، فقالَ النبيُّ: وما في نفسي؟ قالَ: أضربُ بسيفي بينَ يديكَ حتّى يُظهرَكَ اللهُ أو أُقتلَ، فمدَّ النبيُّ يدَه، فبايعَهُ أبو سنانٍ، وبايعَه الناسُ على بيعةِ أبي سنانٍ، فبايعَ سلَمَةُ بنُ الأكوعِ رسولَ اللهِ في أوّلِ الناسِ، ثمّ بايعَ الناسُ واحدًا بعد الآخرِ حتّى إذا كان في وسَطٍ منَ الناسِ، رأى رسولُ اللهِ سلَمَةَ، فقالَ: بايعْ يا سلمةُ، قالَ سلمةُ: قد بايعتُكَ يا رسولَ اللهِ في أولِ الناسِ، فبايعَ مرةً أُخرى، فرآهُ النبيُّ أعزلَ فأعطاهُ درقةً [1]، حتّى إذا كان في آخرِ الناسِ قالَ له النبيُّ مجدَّداً: ألا تبايعُني يا سلمةُ؟ قالَ: يا رسولَ اللهِ قد بايعتُك في أولِ الناسِ وفي وسْطِ الناسِ، قالَ: وأيضاً، فبايعَه الثالثةَ، ثمّ قالَ رسولُ اللهِ: يا سلمةُ أينَ درقتُكَ التي أعطيتُك؟ قالَ: يا رسولَ اللهِ، لقيني عمِّي عامرٌ وهو أعزلٌ فأعطيتُه إيّاها، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ وقالَ: إنّك كالذي قالَ الأولُ: اللَّهُمَّ ابغني حبيباً هو أحبُّ إليَّ من نفسي [2]، لم يحتفظْ سلمةُ بن الأكوعِ بهديَّةِ رسولِ اللهِ له سوى لوقتٍ قصيرٍ، فزهِدَ بها وأعطاها لعمِّهِ، في حين كانَ هناك أناسٌ يتبرَّكونَ بفَضْلِ ماءِ وضوءِ النبيِّ وبشعرِه وبعصاهُ، وبكلِّ شيءٍ يرتبطُ به، فما بالُ سلمةَ يزهدُ بهذه العطيّةِ السنيّةِ.

---

١ الدَّرْقَة: الترس من الجلد ليس فيه خشب.

٢ أي إنك تشبه أول من قال: اللهم اعطني حبيباً هو أحب إلي من نفسي، فقد أعطيت عمك ما أنت أحوج إليه منه، فكأنه أحب إليك من نفسك، وهو مثل يقال في الإيثار.

رغمَ النداءِ المتكررِ للبيعةِ والإقبالِ من المؤمنينَ كانَ من بينِ الناسِ منافقونَ تخلَّفوا عن البيعةِ في الحُديبيَّة . جاءتْ بيعةُ الرضوانِ كأمرٍ ضروريٍّ لِتبْيانِ الحقائقِ والنوايا أمامَ الأعداءِ وتقويةِ عزيمةِ المسلمينَ وتصفيةِ نفوسِهم وتجديدِ عهدِهم، وكانتْ نتيجةً للحوادثِ المتعددةِ التي حصلَتْ في الحُديبيةِ من إصرارٍ واضحٍ لقريشٍ على منعِ النبيِّ من العُمرةِ وزيارةِ بيتِ اللهِ، وتلميحِهم إلى قتلِهِ بالتعدِّي على رسولهِ خراشِ بنِ أميةَ، ثمّ المناوشاتِ بينهم وبينَ المسلمينَ، وأسْرِ وقتْلِ بعضِهم، ورفضِهم كلَّ أساليبِ الحوارِ والمفاوضاتِ والوسائطِ، إضافةً إلى أحساسِ النبيِّ بِمَنْ يدبِّرُ لخيانةٍ خطيرةٍ في الخفاءِ منَ المنافقين. (٣٨٨)

بشَّرَ اللهُ المؤمنينَ برضوانٍ منهُ بهذه البيعَةِ وأثنى عليهم وسدَّدَهم وأنزلَ السكينةَ عليهم ، ثمّ وعَدَهُم منهُ بفتحٍ قريبٍ يأتي لهم بمكاسِبَ سياسيّةٍ وماديةٍ كثيرةٍ.(٣٨٩)

اسْتِجَابَةُ قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

لمّا نظرَ سهيلٌ بنُ عمرو وحويطبُ بنُ عبدِ العُزَّى ومكرزٌ بنُ حَفْصٍ ومَنْ كانَ معهم من عيونِ قريشٍ من سرعَةِ الناسِ إلى البيعةِ وتشْميرِهِمْ إلى الحربِ، اشتدَّ رُعبُهم وخوفُهم، فأخبروا قريشًا بالأمرِ بسرعةٍ، فقالَ أهلُ الرأي منهم: ليس هناكَ خيرٌ من أنْ نصالِحَ محمدًا على أنْ ينصرِفَ عنّا عامُهُ هذا، ولا يَخْلُصُ إلى البيتِ حتَّى يسمعَ مَنْ سَمِعَ بمسيرهِ منَ العربِ، بأنّا قد صددْناهُ، ويرجِعُ قابِلاً [١]، فيقيمُ ثلاثاً، وينحرُ هَدْيَهُ، وينصرفُ، فأجمَعوا على ذلك، فلمّا أجمعَتْ قريشٌ على الصُلحِ والموادعةِ، بعثوا سهيلًا بنَ عمرو وحُويْطِبَ ومكرزاً، وقالوا لسُهيلٍ: ائتِ محمدًا فصالِحْهُ، وليكنْ في صلحِكَ: ألّا يدخلَ عامُهُ هذا، فواللهِ لا تتحدَّثُ العربُ أنّهُ دخلَ علينا عُنوةً، فأتى سهيلٌ رسولَ اللهِ، فلمّا رآهُ النبيُّ قالَ: قد أرادَ القومُ الصلْحَ حينَ بعثوا هذا، ونزلَ عليهِ الوحيُ بالإجابَةِ إلى ذلكَ، جلسَ رسولُ اللهِ متربِّعاً في مجموعةٍ

---

١ قابل: أي العام المقبل.

من أصحابِهِ، فبرَكَ سهيلٌ على رُكبتَيْهِ وكَلَّمَ النبيَّ، فأطالَ الكلامَ وتراجَعا، وارتفعَتْ الأصواتُ وانخفضَتْ، وقالَ عَبّادٌ بنُ بشرٍ لسهيلٍ: اخفِضْ من صوتِكَ عندَ رسولِ اللهِ، فجرى بينَ النبيِّ وبينَ سهيلٍ القولُ حتّى وقعَ الصلحُ على:

١ ـ أنْ توضعَ الحربُ بينَهما عشرةَ سنين .

٢ ـ أنْ يأمنَ الناسُ بعضُهم بعضاً.

٣ ـ أنْ يرجِعَ محمدٌ عامَهُ هذا، فإذا كانَ العامَ المُقبلَ، قَدِمَها، فيخلّونَ بينَهُ وبينَ مكّةَ، فَيُقيمُ فيها ثلاثاً وتخرجُ قريشٌ كلُّها منْ مكّةَ إلاّ رجلًا واحدًا منْها، يُخَلِّفونَهُ معَ محمدٍ وأصحابِهِ .

٤ ـ ألّا يدخلَها إلّا بسلاحِ الراكِبِ، والسيوفِ في القِرَبِ، ولا يدخلَها بغيرِهِ .



شكل(٤١):صورة تخيليّة لسُهيل بن عمرو وهو يقرأ بنود الصُلح.

٥ ـ مَنْ أتى محمدًا منْ قريشٍ بغيرِ إذنِ وليِّهِ ـ وإنْ كانَ على دينِ محمدٍ ـ يردُّهُ إلى ولِيّهِ.

٦ ـ مَنْ أتى قريشاً ممّنِ اتبعَ محمدًا ، لا يردُّوه عليه .

٧ ـ مَنْ قَدِمَ مكّةَ منْ أصحابِ محمدٍ حاجّاً أو مُعتَمراً أو يبتغي من فضلِ الله، فهو آمِنٌ على دَمِهِ ومالهِ، ومَنْ قدِمَ المدينةَ مِنْ قريشٍ مجتازاً إلى مِصْرَ والشّامِ يبتغي مِنْ فضلِ الله فهو آمِنٌ على دمِهِ ومالِهِ .

٨ ـ أنْ يكونَ الإسلامُ ظاهراً بمكّةَ، ولا يُكرهُ أحدٌ على دينهِ، ولا يُؤذى، ولا يُعيَّرُ.

٩ ـ أنْ يكونَ بينَهُم وبينَ محمدٍ عَيْبَةٌ مَكْفوفَةٌ [١] وأنّهُ لا إسلالَ ولا إغلالَ [٢] لمُدّةِ عشرِ سنواتٍ .

كانَ بالنسبَةِ لقريشٍ، منَ الأهميّةِ بمكانٍ تأمينُ طُرقِهم التجاريّةِ الحيويّةِ عبرَ المدينةِ، ومن خلالِ هذا الاتفاقِ، تمَّ التأكيدُ على أنّهُ لنْ يكونَ هناكَ أيُّ اعتداءاتٍ أو هَجَماتٍ على مصالِحِ الطرَفيْنِ لِمُدّةِ عشرِ سنواتٍ .

ثمّ أمرَ النبيُّ عليّاً أنْ يكتبَ في بدايةِ عهدِ الحُديبِيةِ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، فقالَ سهيلٌ بنُ عمرو: لا أعرفُ هذا، ولكنْ أكتبُ: باسمِكَ اللهُمَّ، فقالَ : اكتبْ: باسمِكَ اللهمَّ، فكتبَ عليٌّ ذلكَ وقالَ للنبيِّ: لولا طاعَتُك لما مَحوتُها، ثمّ قالَ رسولُ اللهِ: اكتبْ هذا ما صالَحَ عليهِ محمدٌ رسولُ اللهِ سهيلًا بنَ عمرو، فكتبَ ذلكَ، فاعترضَ عليهِ سهيلٌ مجدَّداً، وقالَ: لو نعلَمُ أنّكَ رسولُ اللهِ ما قاتلْناكَ، ولا صددْناكَ، ولكنْ اكتبْ اسمَكَ واسمَ أبيكَ، فأمرَ رسولُ اللهِ عليّاً بمحوِها، فقامَ نفرٌ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ وقالوا: لا نكتبُ إلاّ/ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ/، ورفضَ عليٌّ ما طلَبَه منهُ سهيلٌ أيضاً، فقالَ رسولُ اللهِ لعليٍّ : يا عليُّ، إنّي لَرسولُ اللهِ، وأنا محمدُ بنُ عبد اللهِ، ولنْ يمحوَ عنّي الرسالَةَ كتابَتي لهمْ (منْ مُحَمَّدٍ بنِ عبد اللهِ)، فاكتبْها وامحُ ما أرادوا محوَهُ، أما إنّ لكَ مثْلَها، ستُعطيها وأنتَ مُضْطَهَدٌ [٣]، فاشتدَّتْ المنازعَةُ بينَ الصحابةِ

---

١ عَيْبَةٌ مَكْفوفَةٌ: أي يلتزمون بمقتضى العقد.

٢ الإسلال: كناية عن الإغارة والحرب، وكذا السرقة الخفيّة، وإغلال: الخيانة.

٣ والمقصود بعبارة: (تُعْطِيهَا وَأَنْتَ مُضْطَهَدٌ)، ما حصل في قصة التحكيم سنة ٣٧ للهجرة بين علي وبين أهل الشام حيث طلبوا منه ألا يخاطبوه بأمير المؤمنين، فوافق إزالةً للخلاف وطلباً لجمع الكلمة.

وبينَ سهيلٍ، وأخذُوا بيدِ عليّ ومنعوهُ منَ الكتابَةِ فيهِ، فجعلَ رسولُ اللهِ يُخَفِّضُهُمْ ويُومئُ بيدِهِ إليهمْ أنِ اسْكتوا، وجعلَ حويطبًا يتعجّبُ مما يصنعونَ، ويُقْبِلُ على مُكرزٍ بنِ حفصٍ ويقولُ: ما رأيتُ قوماً أحوطَ لدينِهم منْ هؤلاءِ القومِ! حتّى تدخّلَ النبيُّ فطلبَ منْ عليٍّ أنْ يضَعَ يَدَهُ على الكلمةِ فوضعَها، فمحاها النبيُّ بيدِهِ، فأنهى بعدَها عليٌّ بنُ أبي طالبٍ كتابةَ العهدِ، وشهِدَ عليهِ طائفةٌ منَ المسلمينَ.

وبينَما الناسُ على ذلكَ إذا بأبيْ جندلَ بنِ سهيلٍ بنِ عمرو يأتيْ مكبَّلاً في قيودِه، قد خرجَ منْ أسفلَ مكّةَ حتّى رمى بنفسهِ بينَ أظْهُرِ المسلمينَ، وكانَ أبوهُ سهيلٌ قد أوثقَه في الحديدِ وسجَنَه، فخرجَ منَ السجنِ ومشى في الطريقِ، وركَبَ الجبالَ حتّى وصلَ الحُديبِيّةَ، فقامَ إليهِ المسلمونَ يُرحِّبونَ بهِ ويُهنِّئونَه، فلمّا رآهُ أبوهُ سهيلٌ قامَ إليهِ فضربَ وجهَهُ بغصْنِ شوكٍ، وأخذَ بِتلابِيبِهِ ثمّ قالَ: يا محمدُ ، هذا أوّلُ ما أُقاضيكَ عليهِ أنْ تردَّهُ، فقالَ رسولُ اللهِ: إنَّا لم نَنقُضِ الكتابَ بعدُ، قالَ: فواللهِ إذًا لا أُصالحُكَ على شيءٍ أبداً، فقالَ النبيُّ: فأجِزْهُ[١] ليْ، قالَ: ما أنا بمُجيزِهِ لكَ، قالَ: بلى فافعَلْ، قالَ: ما أنا بفاعلٍ، فقالَ مكرزٌ وحُويطِبٌ: بلى قد أجزناهُ لكَ، فأخذاهُ، فأدخَلاهُ فُسطاطًا[٢]، فلم يُقِرّوهُ عند المسلمينَ لكِنّهمْ كفّوا عنهُ أباهُ، فقالَ أبو جندلَ: أيْ معاشرَ المسلمينَ، أُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جئتُ مسلِماً؟ ألا ترونَ ما قد لقيْتُ؟ وكانَ قد عُذِّبَ عذاباً شديداً، فرفعَ رسولُ اللهِ صوتَه وقالَ: يا أبا جَنْدلَ، اصبرْ واحتسبْ فإنّ اللهَ جاعلٌ لكَ ولمَنْ معكَ منَ المستَضْعَفينَ فرَجاً ومخرجاً، إنّا قد عقدْنا معَ القومِ صُلحاً، وأعطيناهُم وأعطونا على ذلكَ عهداً، وإنّا لا نغدُرُ .

في هذه اللحظاتِ الحرجِةِ، ورسولُ اللهِ انتهى تَوّاً منْ عقدِ هذا الصُلحِ المصيريِّ بينَهُ و بينَ قريشٍ، مشى عمرُ بنُ الخطابِ إلى جَنْبِ أبي جندلَ، وقالَ لهُ: اصبرْ واحتسِبْ، فإنّما همْ المشركونَ، وإنّما دَمُ أحدِهمْ دَمُ كلْبٍ، وجعلَ عمرُ يُدني قائمَ السيفِ منهُ، وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ يرجو أنْ يأخذَ أبو جندلَ السيفَ ويضربَ بهِ أباهُ سهيلًا، لكنْ ما هي النتائجُ التي

---

١ أجزه لي: أي اكفيه واسمح به فلا أرده إليك.

٢ الفُسْطاط: بيت أو الخيمة التي تُتَّخَذُ من شَعَر الحيوانات.

كانَتْ سوفَ تترتّبُ على قتلِ أبي جندلَ لأبيهِ غِيلَةً وغدراً، كما كانَ يسعى إليهِ عمرُ بنُ الخطابِ، ألم يكنْ ذلكَ سيؤدّيْ إلى تضييْعِ كلِّ جهودِ وجهادِ رسولِ اللهِ، وبَوارِ أهدافِهِ، وهدمِ كلِّ تدبيرِهِ، وانقلابِ الأمورِ رأساً على عقِبٍ، وربّما عودتُها إلى نقطةِ الصفرِ، أو ما هو أدنى منْ ذلكَ؟!

بَعْدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ

لقد كرِهَ بعضُ المسلمينَ شروطَ الصلحِ، وامتعضوا منْها، فلمّا اصطلحوا ولم يبقَ إلاّ الكتابَ، وثبَ عمرُ بن الخطاب إلى رسولِ اللهِ وقالَ وهو يغلبُه التوتّرُ: يا رسولَ الله، ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحقِّ وهم على الباطلِ؟ قالَ: بلى، قالَ: أليس قتلانا في الجنَّةِ وقتلاهم في النارِ؟ قالَ: بلى، قالَ: علامَ نعطي الدَنيَّة في دينِنا؟! ونرجعُ ولم يحكُمِ اللهُ بينَنا وبينَهم؟ فقالَ رسولُ اللهِ : إنّي عبدُ الله ورسولُه، ولستُ أعصيهِ، ولن يضيعَني، وهو ناصريْ، قالَ: أوليسَ أنتَ تحدّثُنا أنّا سنأتي البيتَ فنطوفُ حقّاً؟ قالَ: بلى، أفأخبرْتُكَ أنّكَ تأتيهِ العامَ؟ قالَ: لا، قالَ: فإنّك آتيهِ ومطوِّفٌ به، يا عمرُ تراني رضيتُ وتأبى؟! فذهبَ عمرُ إلى أبي بكرٍ متغيّظاً ولم يصبرْ، فقالَ: يا أبا بكرٍ، أليس هذا نبيُّ اللهِ حقّاً؟! قالَ: بلى، قالَ: ألسْنا على الحقِّ، وهمْ على الباطلِ؟ أليس قتْلانا في الجنّةِ، وقَتْلاهُم في النارِ؟ قالَ: بلى، قالَ: فعَلامَ نُعطي الدَنيّةَ في دينِنا، ونرجعُ ولم يحكمِ اللهُ بينَنا وبينَهم؟! قالَ: أيّها الرجلُ، إنّه رسولُ اللهِ، وليس يعصي ربَّه، وهو ناصرهُ، فاستمسِكْ بغَرزهِ حتى تموتَ، فهو رسولُ اللهِ وإنّه لعلى الحقِّ، فقالَ عمرُ: وأنا أشهدُ أنّه رسولُ اللهِ، قالَ: أوليس كانَ يحدّثُنا أنّه سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قالَ: بلى، أفأخبرَكَ أنّك تأتيهِ العامَ؟ قالَ: لا، قالَ: فإنّك آتيهِ ومُطَوِّفٌ بهِ، فلقيَ عمرُ من هذه الشروطِ أمراً عظيماً وشكَّ في إيمانِه وجعلَ يردُّ على رسولِ اللهِ، فقالَ أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ: ألا تسمعُ يا بنَ الخطابِ رسولَ الله ما يقولُ، تعوّذْ باللهِ من الشيطانِ واتهِمْ رأيَكَ، فكانَ عمرُ بنُ الخطابِ يتعوّذُ باللهِ منَ الشيطانِ لِما أصابَه، وأرادَ أنْ يعملَ أعمالاً صالحةً لتُكفِّرَ عنهُ ما فعلَ (٣٩٠)

ثمّ تواثبَتْ خُزاعةُ، فقالوا: نحنُ في عقدِ محمدٍ وعهدِهِ، وتواثبَتْ بنو بكرٍ فقالوا: نحنُ في عقدِ قريشٍ وعهدِهِمْ، غضبَتْ قريشٌ منْ دخولِ خزاعَةَ في حِلْفِ رسولِ اللهِ، فالتفَتَ أحدُ المفاوضينَ، وهو حُويْطِبٌ بنُ عبدِ العُزّى إلى سُهيلٍ بنِ عمرو وقالَ: بادَأنا أخوالُكَ بالعداوةِ، وقد كانوا يستتِرونَ منّا، وقد دخلوا في عهدِ محمدٍ وعقدِهِ! فقالَ سهيلٌ: ما هُمْ إلاّ كغيرِهِمْ، هؤلاءِ أقاربُنا ولحمُنا قد دخلوا معَ محمدٍ ، قومٌ اختاروا لأنفسِهِمْ أمراً، فما نصنَعُ بهِمْ؟! قالَ حويطبٌ: نصنعُ بهمْ أنْ ننصرَ عليْهِمْ حُلفاءَنا بنيْ بكرٍ، قالَ سهيلٌ: إيّاكَ أنْ يسمعَ منكَ هذا بنو بكرٍ، فإنّهم أهلُ شُؤمٍ فيقعوا بخُزاعَةَ، فيغضَبَ محمدٌ لحُلفائهِ، فينقُضَ العهدَ بينَنا وبينَهُ، قالَ حويطبٌ: واللهِ حَظَوتَ[١] أخوالَكَ بكلِّ وجهٍ، فقالَ سهيلٌ: ترى أخوالي أعزَّ عليّ من بني بكْرٍ؟! واللهِ، إنَّ قريشًا إذا أرادتْ شيئاً، إلّا فعلتْه، فإذا أعانتْ بني بكرٍ على خُزاعةَ، فإنما أنا رجلٌ من قريشٍ، وبنو بكرٍ أقربُ إلـيّ في قدمِ النسَبِ، وإنْ كانَ لِخُزاعةَ الخُؤولةُ، وبنو بكرٍ مَنْ قد عرفْتَ، لنا منهمْ مواطِنُ كلُّها ليستْ بحسنَةٍ، منْها يومُ عُكاظ .

كانَ قَبولُ أصحابِ النبيِّ بهذهِ التنازلاتِ أمرًا صعبًا وامتحانًا لم يكنْ الجميعُ مُهيّأً لهُ، فاعترضَ بعضٌ، وغضِبَ آخرونَ، وإنّ كلَّ ما جرى من ضجيجٍ وعجيجٍ ومنْ وصولِ الأمْرِ إلى حَدِّ الخطورَةِ والفِتْنةِ يفيدُنا في معرفةِ الدافعِ الحقيقيِّ وراءَ بَيْعةِ الرضْوانِ، فإنّ تجديدَ البيعَةِ كما أسلفْنا إنّما يُلجَأُ إليْها عند الخوفِ منْ عدوٍّ داخليٍّ لا منْ عدوٍّ خارجيٍّ، وكانَ الرسولُ على درايَةٍ كامِلَةٍ بحيثيّاتِ الأحداثِ، وما يُمكنُ أنْ تؤولَ إليهِ، لذلكَ كانَ يُهيّئُ أصحابَهُ روحيّاً ونفسيّاً من قبْلُ وعلى طولِ الرحلةِ لهذا الامتحانِ لكي يَصمُدوا ويصبِروا ويثبُتوا على إيمانِهِم .

بينَما المسلمونَ مُخيّمونَ بالحُديْبيّةِ بالقربِ من مكّةَ بعدما مُنِعوا منْ قِبَلِ الكفّارِ منْ دخولِ مكّةَ لأداءِ العُمرَةِ، ذكرَ اللهُ بأنّ هناكَ رجالًا ونِساءً مؤمنونَ في مكّةَ ولكِنّهمْ أخفوا إيمانَهمْ عنْ أهلِ مكةَ، وأنتمْ كذلكَ لا تعرفونَهمْ، فلو كانَ هناكَ قتالٌ، لأوقَعتُمْ أرواحَ هؤلاءِ المُستَضعَفينَ في خطرٍ، فكانَ يمكنُ أنْ يُصيبَ هؤلاءِ بأيْديكُمْ أذى منْ قَتْلٍ أو جِراحٍ، لأنّهمْ

---

١ حظوت: أي أعليت شأنهم.

لم يُعلِنوا إيمانَهم فَيُعرَفونَ، فيكونَ المؤمنونَ قد قتَلوا مؤمنينَ - بغيرِ عِلْمٍ - فيدفعونَ إلى أهلِهِمُ الديّةَ معَ خسارةِ أرواحٍ مؤمنةٍ موحّدَةٍ، لهذا منَعَ اللهُ القتالَ في مكّةَ، فرحمَةُ اللهِ تجسّدَتْ في حفظِ هذهِ الثُّلّةِ المؤمنةِ، ولو تميّزَ الذينَ آمنوا عن الذينَ كفروا وافترقوا عَنهُمْ لوقَعَ القتالُ وكانَ حصيْلَتَهُ القتلُ الذريعُ بالمشركينَ والعذابُ الأليمْ.(٣٩١)

وقد أرادَ رسولُ اللهِ أنْ يُطعِمَ الناسَ في مكّةَ منْ بعضِ البُدْنِ [١] التي كانَ يريدُ أنْ ينحرَها، تأليْفاً لهمْ على الإسلامِ، وكَسْراً للحواجِزِ التي كانوا يسْعونَ لإقامَتِها بينَ الناسِ وبينَهُ، فبعثَ منْ هَدْيِهِ عشرينَ بُدنةً لتُنْحَرَ عنهُ عند المرْوةِ [٢] معَ رجلٍ منْ عشيرَةِ أسلَمَ، ولمّا فرغَ قالَ لأصحابِهِ: انحروا بُدْنَكُمْ، واحلِقوا رؤوسَكُم، فامتنعَ بعضُهم، وقالوا: كيفَ ننحرُ ونحلِقُ ولم نَطُفْ بالبيتِ، ولم نَسْعَ بينَ الصَّفا والمروةَ؟! فاغْتَمَّ رسولُ اللهِ لامتناعِهِم عنْ تنفيذِ ما أمرَهم بهِ، وشَكا ذلكَ إلى أمِّ سلَمَةَ، فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، انحَرْ أنتَ واحلِقْ، فنحَرَ رسولُ اللهِ وحلقَ رأسَهُ [٣]، ورمى شَعرَهُ على شجرةٍ كانَتْ إلى جَنْبِهِ، فجعلَ الناسُ يأخذونَ الشَّعرَ منْ فوقِ الشجرةِ ويوزِّعونَهُ بينَهمْ، وأخذَتْ أمُّ عُمارةَ طاقاتٍ منْ شَعرِهِ فكانَتْ تغسلُها للمريضِ وتسقيهِ، فيبرَأ، وجعلَ بعضُهم يحلِقُ لبعضٍ حتّى كادَ بعضُهم يقتلُ بعضاً غَمّاً، وحلقَ بعضُ المسلمينَ، وقصّرَ بعضٌ، فأخرجَ رسولُ اللهِ رأسَهُ منْ قُبَّتِهِ وهو يقولُ: رحِمَ اللهُ المُحلِّقينَ، فنحَرَ قومٌ معَ رسولِ اللهِ وحلقوا وهمْ مطمئنّونَ، وفريقاً منَ الناسِ كانَ يجبُ عليهِمْ الحلْقُ في عُمرتِهِمْ تلكَ، لكنّهم لم يُطيعوا أمرَ الرسولِ لِشَكِّهِمْ بقرارِ النبيِّ، فلم يقوموا بما لزِمَهمْ القيامُ بهِ، بلْ تلكَّأوا في بادئِ الأمرِ وتحجَّجوا، وحينَ وجَدوا ألّا مَناصَ منَ التحَلُّلِ، آثروا أنْ يتحلَّلوا بالتقصيرِ لا بالحَلْقِ عِناداً لأوامرِ النبيِّ، فقالَ رسولُ اللهِ : يرحَمُ اللهُ المحَلِّقينَ، قالوا: والمُقصِّرينَ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ : يرحمُ اللهُ المحَلّقينَ، فقالوا: والمقصِّرينَ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ : يرحمُ اللهُ المحَلّقينَ، فقالوا: والمقصّرينَ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ : والمقصِّرينَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، فَلِمَ أظهرْتَ الترَحُّمَ للمحلِّقِينَ دونَ المقصِّرينَ؟ فقالَ : لمْ يَشُكّوا .

---

١ البُدْنَ: الإبل والبقر.

٢ الصَّفَا والمَرْوَةُ جبلان يقعان شرقي المسجد الحرام، ويعدان رمزين شهيرين لشعيرة السعي.

٣ من مناسك العمرة: الإحرام والطواف والسعي والحلق أو التقصير للتحلل من الإحرام.

لمّا انصرفَ رسولُ اللهِ منَ الحُديبيّةِ نزلَ بمرِّ الظّهْرانِ [1]، ثمّ وصلَ إلى عَسفانَ [2] فشَكا الناسُ هناكَ إلى رسولِ اللهِ نَفاذَ الزّادِ، وأنّهم قد بلغوا منَ الجوعِ الجهْدَ، وفي الناسِ إبلٌ، فقالوا: ننحرُها يا رسولَ اللهِ، وندهَنُ من شحومِها، ونتَّخِذُ منْ جلودِها أحذيةً، فأذِنَ النبيُّ لهمْ، فأُخبِر بذلكَ عمرُ بنُ الخطابِ فجاءَ إلى رسولِ اللهِ وقالَ: يا رسولَ اللهِ، لا تفعَلْ، فإنْ يكنْ في الناسِ إبلٌ يكنْ أمثَلَ، كيفَ بنا إذا نحنُ لقيْنا العدوَّ غداً جياعاً رجالاً؟! ولكنْ إنْ رأيتَ أنْ تدعو الناسَ ببقايا أزوادِهِمْ فتجمعَها، ثمّ تدعو فيها بالبركةِ، فإنّ اللهَ سَيُبَلِّغُنا بدعوتِكَ، ودعا رسولُ اللهِ الناسَ ببقايا أزوادِهِمْ، ووضعوا بِساطاً، فجعلَ الناسُ يجيئونَ بالحَفْنَةِ منَ الطعامِ وفوقَ ذلكَ، فكانَ أعلاهُمْ مَنْ جاءَ بصاعِ تمرٍ، فاجتمعَ زادُ القومِ على البساطِ، وكانَ مقدارُهُ مقدار عنْزَةً واحدةً، وكانَ عددُ الناسِ ألفًا وأربعَ مئةِ نفْسٍ، فقامَ رسولُ اللهِ فدعا بما شاءَ اللهُ أنْ يدعو، فأكلوا حتّى شبِعوا، ثمّ حشوا أوعيتَهمْ، وبقيَ مثْلُهُ، فضحِكَ رسولُ اللهِ حتّى بَدَتْ نواجِذُهُ، وقالَ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنّي رسولُ اللهِ، واللهُ لا يلقَى اللهَ عبدٌ مؤمنٌ بهِما إلّا حُجِبَ منَ النارِ .

فلمّا انصرفوا إلى كِراعِ الغميمِ [3] إذا بالناسِ يسرعونَ في المشيْ، فقالَ الناسُ بعضُهم لبعضٍ: ما للناسِ؟ قالوا: أوُحِيَ إلى رسولِ اللهِ، وكانَ رسولُ اللهِ على راحلتِهِ عندَ كِراعِ الغميمِ، فاجتمعَ الناسُ إليهِ فقالَ لهمْ: أُنزِلَتْ عليَّ ضُحَىً آيةٌ، هي أحبُّ إليّ منَ الدنيا جميعاً، فقرأ عليهمْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِـرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنـصُرَكَ اللَّهُ نَـصْرًا عَزِيزًا ۝﴾ (٣٩٢)، فقالَ رجلٌ منْ أصحابِ النبيّ : أوَهو فَتْحٌ؟ فقالَ : اِيْ والذي نفسيْ بيدِهِ إنّهُ فتحٌ، فنزلَ جبريلُ ليهنّئَ رسولَ اللهِ، فقالَ الناسُ لرسولِ اللهِ : هنيئاً مريئاً لكَ يا رسولَ اللهِ، قد بيّنَ اللهُ لكَ ماذا يفعلُ بكَ، فماذا يفعلُ بنا؟ فنزلَتْ عليهِ :﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي

---

١ مر الظهران: وادٍ كبير من أودية تهامة يقع في منطقة مكة، و يسمى أيضاً بوادي فاطمة.

٢ عسفان: وهي منهل أي موضع لشرب الماء على الطريق بين الجحفة ومكة.

٣ كرَاع الغميم: هو موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، وهو وادٍ أمام عسفان بثلاثة عشر كيلومتر تقريباً.

مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ ﴾

(٣٩٣)

نصرَ اللهُ نبيَّهُ نصراً جليّاً بِصُلحِ الحُديبِيّةِ، فقد اعترفتْ قريشٌ ولأوّلِ مَرّةٍ بالإسلامِ كدِينٍ وبالمسلمينَ كقُوّةٍ فاعلَةٍ، كما غفرَ اللهُ لكَ يا محمدُ ذنبَكَ عند قومِكَ بتركِكَ آلهَتِهِمْ ودِينِهِمْ واتخاذِكَ ديناً أخرَ، فبعدَ الصُلحِ واتضاحِ الأمرِ لهمْ، فهِموا ما ظنّوهُ ذنْباً، فغفروهُ لكَ، وقد نُسِبَ الغفرانُ إلى اللهِ لأنّ اللهَ هو الذي سهّلَ لهُ هذا الفتْحَ فنُسِبَ إليهِ مجازاً، واللهُ رزقَكَ هذا الفتحَ منْ أجلِ إظهارِ الدّينِ ورفْعِ كلِمَتِهِ، ولإرشادِكَ إلى الطريقِ المستَقيمِ الذي يصلُ بكَ إلى اللهِ ورضوانِهِ وسوفَ نرى ثِمارَ هذا الصُلْحِ قريباً جداً. (٣٩٤)

لقد أظهرَ هذا الصلحُ أنّ النبيَّ محمداً بسياستهِ الحاذقةِ لم يكنْ يسعى إلى قطعِ الأرحامِ، ولم يرغَبْ بالعدوانِ والبغي، وأنّهُ إنما يطالبُ بالكفِّ عن الظلمِ وعنْ البغي، وكانَ يتعاملُ بالصفْحِ والعفو والرحمةِ حتى مع أشدِّ أعدائهِ، وكانَ شغلُهُ الشاغلُ وهمُّهُ الأكبرُ هدايةَ الناسِ ونشرَ دينِ الإسلامِ.

وفي الطريقِ لمّا رجعَ رسولُ اللهِ قالَ رجلٌ من أصحابِ رسولِ اللهِ: ما هذا بفَتْحٍ، لقد صُدِدنا عنِ البيتِ، وصُدَّ هَدْيُنا، وردَّ رسولُ اللهِ رجلينِ منْ المؤمنينَ كانا خرَجا إليهِ، فبلغَ هذا الكلامُ رسولَ اللهِ، فقالَ: بئسَ الكلامُ، بلْ هو أعظمُ الفتْحِ، قد رضيَ المشركونَ أنْ يدفعوكمْ بالراحِ عنْ بلادِهم، ويسألوكُمْ القضيّةَ، ويرغبونَ إليْكُم في الأمانِ، ولقد رأوا منْكمْ ما كَرِهوا، وأظفرَكمُ اللهُ عليهمْ، وردَّكمْ سالمينَ مأجورينَ، فهو أعظمُ الفتْحِ، أنسيتُمْ يومَ أُحُدٍ؟ إذ تُصعِدونَ ولا تلوونَ على أحدٍ، وأنا أدعوكمْ في أُخراكُمْ؟! أنسيتُمْ يومَ الأحزابِ؟ ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ (٣٩٥) فقالَ المسلمونَ: صدقَ اللهُ ورسولُه، فهو أعظمُ الفتوحِ، واللهِ يا نبيَّ اللهِ ما فكَّرْنا فيما فكرْتَ فيهِ، ولَأنتَ أعلمُ باللهِ وبالأمورِ منّا .

حينَ أطلقَ المنافقونَ ألسنتَهمْ وشكّكوا بالفتْحِ متذمّرِيَنَ بأنّهم لم يُحلّقوا ولم يقصّروا، أنزلَ اللهُ آيةً لتُثْبِتَ أنّ رُؤيا الرسولِ قد جعلَها اللهُ واقعةً صادقَةً، وأنّكم سوفَ تدخلونَ المسجدَ

الحرامَ آمنينَ ومُقصِّرينَ شَعرَكمْ، وفي ذلكَ تعليْمٌ للناسِ لكيْ يربطوا الأمورَ باللهِ، كما وعَدَهُمْ اللهُ بفتحٍ آخرَ منهُ قريبٌ. (٣٩٦)

بعد إبرامِ صُلْحِ الحُديبيّةِ هاجرَ نساءٌ عِدّةٌ منْ مكّةَ إلى المدينةِ، فطلبَتْ قريشٌ منَ النبيِّ إرجاعَهُنَّ إليْها، فرفضَ ذلكَ مُعلِناً: أنّ نصوصَ صُلْحِ الحُدَيبيّةِ لا تشملُ النساءَ، فاستحلَفَهُنَّ رسولُ اللهِ عن سببِ خروجِهِنَّ، فلم يَكُنَّ خرجْنَ بُغْضاً لأزواجِهنَّ ولا عِشْقاً لرجالٍ، وما خرجْنَ إلاّ رغبةً في الإسلامِ، فحلَفْنَ باللهِ الذي لا إلهَ إلاّ هو على ذلكَ، فأعطى رسولُ اللهِ أزواجَهُنَّ مُهورَهُنَّ وما أنفقوا عليهِنَّ،(٣٩٧) كما تركَ المدينةَ عددٌ منْ النُّسوةِ وعُدنَ إلى مكّةَ طَوعاً، فأعطى رسولُ اللهِ أزواجَهُنَّ منَ المسلمينَ مُهورَ نسائِهِمْ.

إنّ هذا الصُلحَ قد جعلَ المسلمينَ في مأمَنٍ من قريشٍ، فتفرَّغوا لنشْرِ الإسلامِ في سائرِ القبائلِ، وكانَ الإسلامُ ينتشرُ في مكّةَ بسرعةٍ أيضاً، فيدخلُ كلَّ بيتٍ، ويمارسُ المسلمونَ في مكّةَ شعائرَهمْ دونَ خوفٍ أو ملاحقَةٍ، فكانَ ما حقَّقَهُ النبيُّ محمدٌ في هذا الصلحِ أضعافَ أضعافَ ما تحقَّقَ في حروبهِ الدفاعيَّةِ مع قريشٍ وسِواها. (٣٩٨)

مُشْكِلَةُ خَولَةَ بنتِ ثَعْلَبَةَ معَ زَوجِها

عندما كانَ النبيُّ في المدينةِ جاءتْهُ خولةُ بنتُ ثعلبةَ، وهي زوجةُ أوسِ بنِ الصامِتِ، وكانتْ قد تشاجرَتْ مع زوجِها، فغضِبَ عليها وقالَ لها: أنتِ عليَّ كظهرِ أُمّيْ، وكانَ الظِّهارُ طَلاقاً في الجاهليةِ، واستمرَّتْ هذه الظاهرةُ إلى قدومِ الإسلامِ، كانَ أوسٌ قد ندِمَ على ما قالَ، فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، إنّ زوجي أوسًا بنَ الصامتِ تزوّجَني، وأنا ذاتُ مالٍ وأهلٍ، فلمّا أكلَ ماليْ، وذهبَ شبابي، ونفضَتْ بطنيْ، وتفرَّقَ أهليْ، ظاهَرَ منّي، فقالَ لها رسولُ اللهِ : ما أنزلَ اللهُ تباركَ وتعالى كتاباً أقضي فيهِ بينَكِ وبينَ زوجِكَ، وأنا أكرَهُ أنْ أكونَ منَ المتكلّفينَ، فبكَتْ، وصاحَتْ، وقالتْ: أشكو إلى اللهِ فقريْ وفاقَتيْ ووِحْدَتي وصِبْيةً صغاراً، إنْ ضممْتُهم إليهِ ضاعوا، وإنْ ضمَمْتُهم إليّ جاعوا، فجعلَتْ ترفعُ صوتَها باكيةً، وتقولُ: اللهمَّ إنّي أشكو إليكَ، فبيْنَما هي على تلكَ الحالةِ، تغيّرَ وجهُ رسولِ اللهِ لنزولِ الوحي، بقولِ اللهِ: ﴿قَدْ سَمِعَ

اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِـي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما ﴾ وأخبرَهُ ببطلانِ حُكْمِ الظِّهارِ في الإسلامِ وكَفّارَتُه. (٣٩٩)

فبعَثَ رسولُ اللهِ إلى المرأةِ فأتَتْهُ، فقالَ لها: جيئي بزوجِكِ، فأتَتْ بهِ، فقالَ لهُ: أقُلْتَ لامرأتِكَ هذا: أنتِ حرامٌ كظهْرِ أُمّي؟ فقالَ: قد قلتُ لها ذلكَ، فقالَ رسولُ اللهِ : قد أنزلَ اللهُ تباركَ وتعالى فيكَ وفي امرأتِكَ قرآناً، وقرأَ لهما الآياتِ، وقالَ لهُ: اعتِقْ رقبَةً، فقالَ: ما لي قدرةٌ، قالَ: فصُمْ شهرَينِ متتابِعَينِ، قالَ: إنّي إذا لم آكلْ في اليومِ مرَّتينِ كَلَّ بَصَرِيْ، قالَ: فأطعِمْ ستينَ مسكيناً، قالَ: لا أجِدُ إلاّ أنْ تُعينَني منكَ بعونٍ وصِلةٍ، قالَ رسولُ اللهِ : أنا أتصدَّقُ عنكَ، فأعطاهُ تمراً لإطعامِ ستينَ مسكيناً، فقالَ: اذهبْ، فتصدّقْ بِها، فقالَ: والذي بعثَكَ بالحقِّ، لا أعلمُ في المدينةِ أحداً أحوجَ إليهِ منّي ومنْ عيالي، قالَ: فاذهبْ، وكُلْ وأطعِمْ عيالَكَ وضُمَّ إليكَ امرأتَكَ، فإنّكَ قد قلْتَ مُنكَراً من القولِ وزُوراً، وقد عفا اللهُ عنكَ وغفَرَ لكَ، ولا تَعُدْ، فانصرفَ الرجلُ، وهو نادمٌ على ما قالَ لامرأتِه. (٤٠٠)

إلى خَيْبَر

لقد أخبرَ اللهُ نبيَّهُ في الحُديبيّةِ أنّه سيجعلُ لهم فتحًا قريبًا في خيبرَ، وستكونُ لهم مكاسبُ سياسيّةٌ وماديّةٌ كثيرةٌ، وفي السنةِ السادسةِ بعد ثلاثةِ أشهرٍ من صُلحِ الحديبيّةِ أمرَ رسولُ اللهِ أصحابَه بالخروجِ إلى خيبرَ، فَجَدُّوا في ذلكَ، واستنفروا من حولِهِ ممّنْ شَهِدَ الحديبيّةَ، يغزونَ معهُ، وجاءَ المُتخَلِّفونَ عنهُ في غزوةِ الحديبيّةِ ليخرجوا معهُ رجاءً للغنيمةِ، فقالَ: لا تخرجوا معي إلّا راغبينَ في الجهادِ، فأمّا الغنيمةُ فلا، ثمّ أمرَ منادياً ينادي بذلكَ، فنادى بها، واستخلفَ رسولُ اللهِ واحداً لإدارةِ أمورِ المدينةِ في غيابهِ، وتحضَّرَ المسلمونَ للرحيلِ، وأخذَ رسولُ اللهِ معهُ زوجتَهُ أمَّ سَلَمَةَ دونَ سِواها، أثناءَ تجهيزِ الجيشِ جاءَ أحدُ المسلمينَ، وهو أبو عبسٍ بنُ جبرٍ، للنبيِّ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، ما عندي نفَقَةٌ ولا زادٌ ولا ثوبٌ أخرجُ فيهِ، فأعطاهُ رسولُ اللهِ شقّةً سنبلانية[١]

١ قطعة من الثوب، شبيهة بالكرباس، وهو ثوب غليظ من القطن.

فسارَ المسلمونَ إلى خيبَرَ، وخيبرُ اسمُ منطقةٍ تقعُ على بعدِ ثلاثةِ أيامٍ سيراً من المدينةِ على يسارِ طريقِ الحجّاجِ من الشّامِ، وفي هذه المنطقةِ مزارعُ ونخلٌ كثيرٌ وقلاعٌ وحصونٌ، أكبرُها ناعمٌ والصعبُ وقلعةُ الزبيرِ في منطقةِ النطاةِ، وحصنُ أُبيٍّ والنزارُ في منطقةِ الشقِّ، وحصنُ القموصِ والوطيحِ والسلالِمِ في منطقةِ الكتيبةِ (انظر الشكل ٤٢).

وقالَ رسولُ اللهِ في الطريقِ: مَنْ كان مضعَفاً أو مصعِباً [١] فليرجعْ، وأمرَ بلالاً فنادى بذلكَ، فرجعَ أناسٌ، وفي القومِ رجلٌ أبى إلّا أن يخالفَ أوامرَ النبيِّ عناداً منه، وإثارةً للفِتْنةِ، وكانَ يركبُ على بعيرٍ صَعْبٍ، فنفرَ به البعيرُ ليلاً، فصرعَهُ، فلمّا جاؤوا بهِ إلى رسولِ اللهِ سألَهم النبيُّ: ما شأنُ صاحبِكُمْ؟ فأخبروهُ، فقالَ: يا بلالُ، ما كُنتَ أذّنْتَ في الناسِ مَنْ كانَ مُضْعَفاً أو مُصعِباً فلْيرجَعْ؟، قالَ: نعمْ، فأبى رسولُ اللهِ أنْ يُصلّيَ عليهِ، وأمرَ بلالاً فنادى في الناسِ ثلاثَ مرّاتٍ: الجَنّةُ لا تحُلُّ لعاصٍ، وحينَ أبصرَ رسولُ اللهِ رجلاً يسيرُ أمامَه عليهِ شيءٌ يبْرُقُ في ضوءِ القمرِ قالَ: مَنْ هذا؟ فقِيلَ: أبو عبسٍ بنُ جبرٍ، فقالَ رسولُ اللهِ : أدرِكوهُ، فأدرَكُوهُ، فخشيَ أبو عبسٍ أنْ يكونَ قد نزَلَ فيهِ أمرٌ منَ السماءِ، فجعلَ يتذكرُ ما فعلَ حتّى لحِقَهُ رسولُ اللهِ وسألَه: ما لكَ تقدُمُ الناسَ لا تسيرُ معَهمْ؟ قالَ: يا رسولَ اللهِ، إنّ ناقتيْ نَجِيبَةٌ [٢] ، فقالَ رسولُ اللهِ : فأينَ الشّقيقَةُ [٣] التي كسوتُكَ؟ قالَ: يا رسولَ اللهِ، بِعتُها بثمانِيةِ دراهمٍ، فتزوّدْتُ بدرهمَينِ، وتركتُ لأهليَ دِرهمَينِ، وابتعْتُ هذه البُردةَ بأربَعَةِ دراهِمٍ، فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ، ثمّ قالَ: أنتَ واللهِ يا أبا عبْسٍ وأصحابُكَ منَ الفقراءِ، والذي نفسِيْ بيدِهِ، لئِنْ سلِمتُمْ وعِشتُمْ قليلاً لَيكثُرَنَّ زادُكمْ، وليكثرَنَّ ما تترُكونَ لأهلِيكُمْ، ولَتكثرَنَّ دَراهِمُكُمْ وعبيدُكُمْ، وما هو لكُمْ بِخَيرٍ .

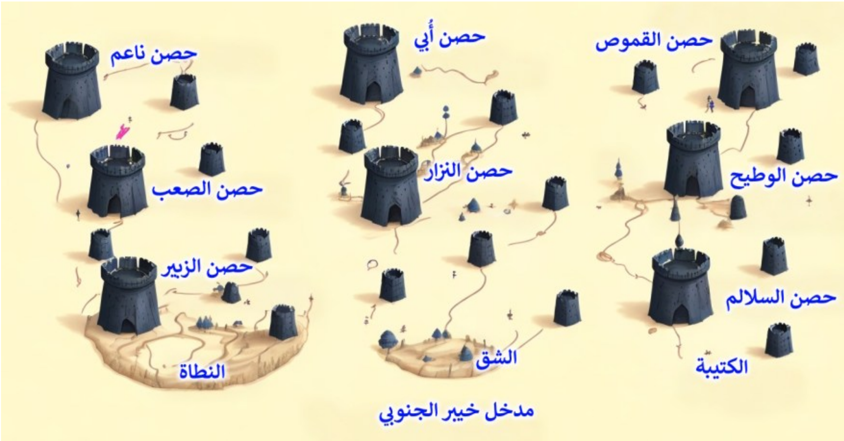
---

١ أي يركب بعير ضعيف أو صعب القيادة.

٢ نجيبة: أي قَوِيَّةٌ وَخَفِيفَةٌ.

٣ الشقيقة: وهي قطعة الثولب التي أعطاها إياه رسول الله من قبل.

ولمّا وصلَ رسولُ اللهِ إلى الصهباءِ، وهي أدنى خَيْبرَ، صلّى العَصرَ، وبعد أنْ استراحوا



شكل(٤٢): مُخطط لحصون خيبر.

وأكلُوا وصلّوا صلاتِيْ المغْربِ والعِشاءِ، واصلوا المسيرَ، قالَ رسولُ اللهِ لِحَسيلٍ: يا حَسيلُ، امضِ أمامَنا حتّى تأخُذَ بنا صدورَ الأودِيَةِ، حتّى تأتيَ خَيْبرَ مِنْ بينِها وبينِ الشّامِ، فأحولُ بينَهُم وبينَ الشّامِ وبينَ حُلفائهِم منْ غطفانَ، فقالَ حسيلٌ: أنا أسلُكُ بكَ، فانتَهَى بهِ إلى موضِعٍ لهُ طُرُقٌ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنّ لها طُرُقاً تُؤتَى مِنْها كُلَّها، فقالَ رسولُ اللهِ : سَمِّها ليْ، وكانَ النبيُّ محمدٌ يحبُّ الفألَ الحَسَنَ والاسمَ الحسنَ، ويكرَهُ التشاؤمَ والاسِمَ القبيحَ، فقالَ: لها طريقٌ يُقالُ لها: حَزَنٌ، وطريقٌ يُقالُ لها: شاشٌ، وطريقٌ يُقالُ لها: حاطِبٌ، فقالَ رسولُ اللهِ: لا تسْلُكْها، قالَ: لم يبقَ إلّا طريقٌ واحدٌ يقالُ لها: مَرحَبُ، فقالَ رسولُ اللهِ : اسلُكْها . وحينَ أشرفَ الناسُ على وادٍ رفعوا أصواتَهمْ بالتَكبيرِ: اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، لا إلهَ إلّا اللهُ، فقالَ رسولُ اللهِ :" أربِعوا [١] على أنفُسِكمْ، إنّكم لا تدعونَ أصمًّا ولا غائباً، إنّكُم تدعونَ سميعاً قريباً، وهو مَعكُمْ "، فقد كانَ ثَمَّةَ حاجةٌ إلى الهدوءِ والتعقُّلِ، لِيُمكِنَ النظرُ إلى الأمورِ والأحجامِ، والقدُراتِ بواقعيّةٍ واتزانٍ، بعيداً عن الانتفاخاتِ والتضْخيماتِ الصوتيّةِ وغيرِ الواقعيّةِ خاصةً في الطريقِ إلى الحربِ.

---

١ أربعوا: أي تَمَهَّلْوا، اِنْتَظِرْوا.

تابع المسلِمونَ رحلتَهم معَ رسولِ اللهِ، حيثُ كانَ يزوّدُهمْ بالمعرفةِ ويُعلِّمُهمْ ما يستفيدونَ منهُ في حياتِهم الدينيّةِ والدُنيويّةِ، فقالَ رسولُ اللهِ لرجلٍ يمشي خلفَهُ: ألا أدلُّكَ على كَلِمَةٍ منْ كِنزِ الجَنّةِ؟ قالَ: بلى يا رسولَ اللهِ، فِداكَ أبيْ وأُمّيْ، قالَ، قلْ: لا حولَ ولا قُوّةَ إلّا باللهِ، فلمّا أشرفوا على خَيْبرَ انبلجَ الصبحُ، وقالَ رسولُ اللهِ لأصحابِهِ: قِفُوا فوقَفوا، ثمّ قالَ: اللّهمَّ ربَّ السمٰواتِ السبْعِ وما أظلَلْنَ، وربَّ الأرَضِينَ السبعِ وما أقلَلْنَ، وربَّ الشياطينِ وما أضلَلْنَ، وربَّ الرياحِ وما أذرَيْنَ، فإنّا نسألُكَ منْ خيرِ هذه القريةِ وخيرِ أهلِها، ونعوذُ بكَ منْ شرِّها وشرِّ ما فيها، أقدِموا بِسمِ اللهِ.

كانَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ قد أرسلَ إلى اليهودِ يخبِرُهم: بأنّ محمدًا سائرٌ إليكم، فَخُذوا حِذْرَكُمْ، وأدْخِلوا أموالَكُمْ حُصونَكمْ، واخرجوا إلى قتالِهِ، ولا تخافوا منهُ، إنّ عددَكُمْ كثيرٌ، وقومَ محمدٍ شِرذِمَةٌ قليلونَ، عُزَّلٌ لا سلاحَ معهم إلّا قليلًا، فلمّا عَلِمَ بذلكَ يهودُ خيبرَ أرسلوا وفداً إلى غطفانَ يستَمِدُّونَهمْ.

كما إنّ عُيَيْنَةَ بنُ حصنٍ [1] قد جاءَ معَ جيشٍ إلى خيبَرَ، فدخلوا معَ اليهودِ في حصونِ النطاةِ، قبلَ قدومِ رسولِ اللهِ بثلاثةِ أيامٍ، فلمّا قدِمَ رسولُ اللهِ خَيْبرَ أرسلَ إليهمْ سعدًا بنَ عُبادةَ وهم في الحِصنِ، فلمّا انتهى سعدٌ إلى الحصنِ ناداهمْ: إنّي أريدُ أُكلّمُ عُيينَةَ بنَ حصنٍ، فأرادَ عُيينَةُ أنْ يُدخلَهُ الحِصنَ، فقالَ مَرحَبُ[2] : لا تُدخِلْهُ فيرى خَلَلَ حِصنِنا، ويعرفُ نواحيَهُ التي يُؤتَى مِنْها، ولكنْ تخرجُ إليهِ، فقالَ عيينَةُ: لقد أحببْتُ أنْ يدخلَ فيرى حَصانَتَهُ، ويرى عدداً كثيراً، فأبَى مرحَبُ أنْ يُدخلَهُ، فخرجَ عُيَيْنَةُ إلى بابِ الحِصنِ، فقالَ سعدٌ: إنّ رسولَ اللهِ أرسلَني إليكَ، يقولُ: إنّ اللهَ قد وعَدَني خيبرَ، فارجِعوا وكُفُّوا، فإنْ ظَهَرْنا عليها فلكُمْ تَمْرُ خيبرَ سَنَةً، فقالَ عُيينَةُ: إنّا واللهِ ما كنّا لِنُسلِّمَ حُلفاءَنا لشيءٍ، وإنّا لنعلمُ ما لكَ، وما معكَ ممّا ههنا طاقةٌ، هؤلاءِ قومٌ أهلُ حُصونٍ منيعةٍ،وسلاحٍ ورجالٍ عددُهمْ كثيرٌ، إنْ قمْتَ هلكْتَ ومَنْ معكَ، وإنْ أردتَ القتالَ عَجّلوا عليكَ بالرجالِ والسلاحِ، لا واللهِ، ما هؤلاءِ

---

١ من زعماء قبائل العرب، من قبائل عدنان وكان له عشرة الآف رجل يطيعه.

٢ مرحب بن الحارث أحدُ أشهر فرسان يهود خيبر، وقادة جيشها.

كقريشٍ، وقومٌ ساروا إليكَ، إنْ أصابوا غِرّةً منكَ فذاكَ الذي أرادوا وإلّا انصرفوا، وهؤلاءِ يماكِرونَكَ الحربَ ويُطاولُونَكَ حتّى تملُّهُمْ، فقالَ سعدٌ بنُ عبادةَ: أشهدُ لَيَحصُرَنَّكَ في حِصنِكَ هذا حتّى تطلبَ الذي كنّا عَرضْنا عليكَ فلا نُعطيكَ إلّا السيفَ، وقد رأيْتَ يا عيينةُ مَنْ قد حَلَلْنا بساحتِهِ من يهودِ يثربَ كيفَ مُزّقوا كلَّ مُمَزَّقٍ! فرَجعَ سعدٌ إلى رسولِ اللهِ فأخبرَهُ بما قالَ، وقالَ سعدٌ: يا رسولَ اللهِ، إنّ اللهَ مُنجِزٌ لكَ ما وعدَكَ، ومظهرٌ دينَهُ، فلا تُعطِهِ تمرَةً واحدةً يا رسولَ اللهِ، لإنْ أخذناهُ بالسيفِ ليُسلِّمَنَّهُمْ ولَيهرُبَنَّ إلى بلادهِ، كما فعلَ ذلكَ قبلَ اليومِ في الخندقِ، فأمرَ رسولُ اللهِ أصحابَه أنْ يتوجَّهوا إلى حصنِهم الذي فيهِ غطفانُ وهو حِصْنُ ناعمٍ، فنادى منادي رسولِ اللهِ بأنْ يتحرّكَ الجيشُ في الصباحِ إلى حصنِ ناعمٍ الذي فيهِ غَطَفانُ، فرُعِبَتْ غطفانُ من ذلكَ يومَهُمْ وليلتَهُمْ، فلمّا كانَ بعد هذه من تلكَ الليلةِ سمِعوا صائحاً يصيحُ، لا يدرونَ منَ السماءِ أو الأرضِ: يا معشرَ غطفانَ، أهلَكُمْ أهلَكمْ الغوثَ الغوثَ بحيفاءَ لا تربةٌ ولا مالٌ! ثلاثَ مرّاتٍ، فخرجَ قِسمٌ من غطفانَ من الحصنِ مرعوبينَ وانسحبوا مسرعينَ، ثمّ سارَ رسولُ اللهِ حتّى انتهى إلى المنزَلةِ، وهي سوقٌ لِخَيبَرَ، فبقيَ بها ساعةً منَ الليلِ.

كان اليهودُ لا يظنّونَ قبلَ ذلك أنّ رسولَ الله سيغزوهُمْ، وذلك لِمِنْعَتِهم وقوّةِ حصونِهم وسلاحِهم وعُددِهمْ، فلمّا سمعوا بخروجِ رسولِ الله إليهمْ، قاموا يخرجونَ كل يومٍ بآلافِ المقاتلينَ ليُظهروا صفوفَ قوّاتِهم، وهم يقولونَ: محمدٌ يغزونا؟! هيهاتَ! هيهاتَ! وكانَ يهودُ المدينةِ يقولونَ حينَ تجهَّزَ النبيُّ إلى خَيبرَ: ما أمنعَ واللهِ خيبرَ منكمْ، لو رأيتُمْ خيبرَ وحصونَها ورجالَها لرجعْتُمْ قبلَ أنْ تصِلوا إليهمْ، حصونٌ شامخاتٌ في ذُرى الجبالِ، والماءُ فيها لا ينقطعُ، أفأنتُمْ تُطيقونَ خيبرَ؟!

إنّ هؤلاءِ كانوا مغرورينَ بأنفسِهمْ بدرجةٍ كبيرةٍ واعتقدوا أنّ النبيَّ سوفَ لا يأتي لحربِهِم، لأنّهُم توهَّموا أنّهُ يفكّرُ كما يُفكّرونَ، ويخشى منَ الكثرةِ وتكديسِ الجنودِ، حتّى إذا استفاقوا منْ سُباتِهِم هذا وجدوا أنفسَهُم أمامَ الحقيقَةِ، فوضعوا عيالَهمْ وأموالَهمْ، ورجالَهمْ في الحِصنِ الأقوى بنَظرِهمْ، ووضعوا قِسْماً منْ رجالِهمْ في أوّلِ حصْنٍ يتوقّعونَ مهاجَمةَ الجيشِ القادمِ لهُ، على أملِ أنْ يتمكّنوا منْ حفظِ تلكَ الحصونِ منْ أخذِ المهاجمينَ لها والاستفادةِ منْها.



شكل(٤٣): في الأعلى صورة معدلة بالكومبيوتر لحصن القموص، وفي الأسفل صورة حقيقة لبقايا حصن القموص، أحد حصون خيبر.

لمّا سارَ النبيُّ إلى خيبرَ جعلَ عليّاً على مقدِّمةِ جيشهِ، ثمّ نادى: مَنْ دخلَ النخلَ فهو آمِنٌ، فلمّا تكلّمَ النبيُّ، كرّرَ عليٌّ ما قالَهُ النبيُّ: مَنْ دخلَ النخلَ فهو آمِنٌ، فنظرَ النبيُّ إلى جبريلَ يضحَكُ، فقالَ: ما يُضحكُكَ؟ قالَ: إنّي أُحبُّه، فقالَ النبيُّ لعليٍّ: إنّ جبريلَ يقولُ إنّه يُحبُّكَ! قالَ : بَلَغتُ أنّ جبريلَ يحبُّني؟ قالَ : نعمْ، ومَنْ هو خيرٌ منْ جبريلَ، اللهُ عزَّ وجَلَّ.

ثمّ أمرَ رسولُ اللهِ بقطْعِ بعضِ النخلاتِ استجابةً لضروراتِ الحربِ، لاحتياجِ العسكرِ إلى الفُسحَةِ المناسبةِ، حتّى لا تُعيقُهُ عنِ الحركةِ، وحينَ وصلَ المسلمونَ، تسارعَ الناسُ ونَزَلوا بمكانٍ قريبٍ منَ العدوِّ وكانَ الموضِعُ موبوءً بسببِ نَزِّ الماءِ فيهِ حتّى أنّ مَنْ يقيمُ في ذلكَ

الموضع يُبتلَى ببعضِ الأوبئةِ، فشكوا ذلكَ لرسولِ اللهِ وكانَ هو على علْمٍ بالأمرِ وعازماً على التحوّلِ منهُ، ولكنّه كانَ لا يريدُ أنْ يكسرَ عنفوانَ أولئكَ الناسِ أو يظهرَ لليهودِ أنّ ثمَّةَ تردُّدًا في قراراتِ المسلمينَ، فأخبَرَ أحدُهمْ رسولَ اللهِ بالأمرِ، فقالَ رسولُ اللهِ: أشرتَ بالرأيْ، ولكنْ نقاتلُهم هذا اليومَ، وإذا أمسيْنا إنْ شاءَ اللهُ تحوّلْنا.

لمّا نزلَ رسولُ اللهِ بساحَةِ اليهودِ ليلاً، اختلفَ اليهودُ في خُطّةِ حربِهم معهُ، ولم يتحرّكوا تلكَ الليلةَ، وكانَ رسولُ اللهِ إذا طَرَقَ قوماً بليلٍ لم يَغِرْ عليهمْ حتّى يُصبِحوا، فإذا سَمِعَ أذاناً، أمسكَ، وإنْ لم يسمعْ أذاناً، أغارَ عليهمْ حتّى يُصبحوا، فقامَتْ راحلتُهُ مساءً تجرُّ بزمامِها[1] ، فأُدرِكَتْ لِتُرَدَّ، فقالَ: دعوها، فإنّها مأمورةٌ، فلمّا انتهَتْ إلى موضعٍ منَ الصخرةِ بركَتْ عندَها، فتحوّلَ رسولُ اللهِ إلى الصخرةِ، وتحوّلَ الناسُ إليْها، واتخَذوا ذلكَ الموضعَ معسكراً ليَحولَ بينَ أهلِ خيبرَ وبينَ غطفانَ، لأنّهم كانوا مُظاهرينَ لليهودِ على رسولِ اللهِ ، وبنى هنالكَ مسجداً صلّى بهِ طولَ إقامتِه بخيبرَ.

أصبحَ اليهودُ وأفئدتُهم تخفقُ منْ شدَّةِ الخوفِ، وفتحوا حصونَهم ومعهمْ المَساحيْ والكرازينُ[2] والمكاتِلُ[3] ، فلمّا نظروا إلى رسولِ اللّهِ، ولّوا هاربينَ إلى حصونِهم وهم يقولونَ: محمدٌ والخميسُ[4] ! صلّى المسلمونَ الصبحَ عندَ خيبرَ ولم يسمعوا أذاناً، فقالَ رسولُ اللّهِ وهو رافعٌ يديهِ: اللهُ أكبرُ، خرِبَتْ خيبرُ، إنَّا إذا نزلْنا بساحةِ قومٍ فَساءَ صباحُ المُنذَرينَ، ثمّ صفَّ رسولُ اللهِ أصحابَهُ ووعظَهُم ونهاهُمْ عنِ القتالِ حتّى يأذنَ لهمْ، فعَمَدَ رجلٌ منْ أشجَعَ، فحَملَ على يهودي، فقُتِلَ، فقالَ الناسُ: استُشهِدَ فلانٌ، فقالَ رسولُ اللهِ: أبَعْدَ ما نهيْتُ عنِ القتالِ؟ قالوا: نعمْ، فأمرَ رسولُ اللهِ منادياً فنادى في الناسِ: لا تَحِلُّ الجَنّةُ لعاصٍ . ثمّ خطَبَ فيهمْ قبلَ المعركةِ وقالَ: لا تتمنّوا لقاءَ العدوِّ، واسْألوا اللّهَ العافيةَ،

---

١ الزّمام: ما يُشد بح الحيوان ومن حبلٍ ونحوه، لقيادته أو الإمساك به.

٢ الكَرازين: جمع الكِرْزِن: فأس لها رأس واحد، أو هو الفأس الكبير.

٣ المَكاتِل: جمع مِكْتَل: وهو زِنْبيل يُعمل من الخوص، أو القُفَّة من ورق النخل يُحمل فيها التمر.

٤ الخميس: الجيش الكبير، سُمّي بذلك لأنه خمسُ اقسام: المُقدِّمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة.

فإنّكم لا تدرونَ ما تُبْتَلونَ بهِ منهمْ، فإذا لقيتُموهُم فقولوا: اللهمَّ أنتَ ربُّنا وربُّهم، ونواصيْنا ونواصيْهُم بيدِكَ، وإنّما تقتلُهمْ أنتَ، ثمّ الْزَموا الأرضَ جلوساً، فإذا غشوكُم فانْهضوا وكبّروا، وبعدَما انتهى، أذِنَ لهمْ بالقتالِ وحثَّهمْ على الصبرِ. (٤٠١)

أعطى رسولُ اللهِ عثمانَ بنَ عفانَ مهمَّةَ حراسةِ منازلِ النساءِ وأثقالِ العسكرِ، وهو الموضعُ الذي يُحمَلُ إليهِ الجرحى للتداوي، وكانَ أكثرَ المواضعِ أمْناً، وأبعدَها عن الخطرِ، واختارَ عثمانَ لهذه المهمّةِ لأنّه لا يقدرُ على مواجهَةِ الأهوالِ والنّزالِ، كانتْ رايةُ رسولِ اللهِ بيضاءَ اللّونِ تُسمَّى العُقابُ، وقد دفَعَها إلى عليٍّ بنِ أبي طالبٍ .

بعد أنْ عسكَرَ المسلمونَ، فرضوا حِصاراً على أوّلِ الحصونِ، وهو حصنُ ناعمٍ، فراحَ اليهودُ يرمونَهُم بالنَبلِ والمسلمونَ يحملونَ النبلَ ويردُّونَهُ عليهمْ، ثمّ دارَ بينَ الطرفَينِ قتالٌ شديدٌ، حتّى فتحَ اللهُ الحصنَ للمسلمينَ، ثمّ توجَّهوا إلى حصنِ الصَّعْبِ بنِ مُعاذٍ وبدأتْ الاشتباكاتُ بينَ اليهودِ والمسلمينَ هناكَ، فبرزَ عُمارةُ بنُ عقبَةَ الغِفاريْ إلى أحدِ اليهودِ لكيْ يُبارزَهُ وهو يقولُ مفتخِراً: خُذْها وأنا الغُلامُ الغفاريْ، فصرعَ عمارةُ اليهوديَّ، فاستنكَرَ الناسُ تفاخُرَهُ وقالوا: بَطُلَ جهادُهُ، فبلغَ رسولَ اللهِ ذلكَ فقالَ: لا بأسَ بهِ، يُؤجَرُ ويُحمَدُ، فحَملَ اليهودُ حمْلةً فانكشفَ قِسْمٌ منَ المسلمينَ حتّى انتهوا إلى رسولِ اللهِ، وثبَتَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ وهو يقاتلُهمْ، فحثَّهُم رسولُ اللهِ على الجهادِ وذكَّرَهمْ بالغنائِمِ وأخبرَهُم أنّ اللهَ قد وعَدَهُ بأنْ يُغنِمَهُ خيبرَ، فعادَ الناسُ جميعاً إلى صاحِبِ رايتِهِم، فلم يزلْ يدنُو قليلاً قليلاً، واليهودُ تتراجعُ على أدبارِها، حتّى دخلوا الحِصنَ وأغلقوا عليهمْ، فجعلوا يرمونَهمْ بالحجارةِ منَ الحصنِ فرجعَ المسلمونَ ثمّ عادوا، فحصَلَ قتالٌ على بابِ الحصنِ وقُتِلَ ثلاثةٌ من أصحابِ رسولِ اللهِ وكانَ اليهودُ يحملونَ قَتلاهُم إلى داخلِ الحصنِ حتّى حمَلَ المسلمونَ بقيادةِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ وأدخلوا اليهودَ إلى الحصنِ وتبِعوهم ودخلوا عليهمْ فجرى قتالٌ وأسَرَ المسلمونَ بعضَ اليهودِ وانهزمَ القسمُ الآخرُ إلى حصنِ قلعَةِ الزُّبيرِ وصعدَ المسلمونَ على جدرانِ الحصنِ، وكبَّروا فَرحاً بالنصرِ .

لقد دامَ حِصارُ حصونِ النطاةِ عدَّةَ أيامٍ، فقلَّ الطعامُ عند المسلمينَ حتّى صارَتْ مجاعةً وما عادوا يجِدونَ شيئاً يأكلونَهُ، فكانَ فيهمْ منَ الأعرابِ منْ قبيلةِ أسْلَمَ ممّنْ جاءَ معَ رسولِ اللهِ للغنيمَةِ ليس إلاّ، وكانوا لا يرجونَ جهاداً، فأجمعوا أنْ يُرسلوا إلى رسولِ اللهِ أحدَهمْ ظنّاً منهمْ أنّ رسولَ اللهِ يحتفظُ بشيءٍ منَ الطعامِ لنفسِهِ ويُؤثِرُ نفْسَه بهِ عليهمْ! فقالوا لأحَدِهمْ: ائتِ رسولَ اللهِ وقلْ لهُ: إنّ أسلَمَ يُقرئونَكَ السلامَ ويقولونَ: إنّا قد جَهِدْنا منَ الجوعِ والضعفِ، فاعترضَ عليهمْ بُريدَةُ بنُ الحَصيبِ الأسلَمِيْ ولامَهَمْ على فعلِهمْ هذا وقالَ: واللهِ، ما رأيتُ أحدًا في العربِ قطُّ يصنعُ ذلكَ! فقالَ أحدُهمْ: واللهِ، إنّي لأرجو أنْ يكونَ هذا البعْثُ إلى رسولِ اللهِ مفتاحَ الخيرِ، فذهَبَ الرجلُ إلى النبيِّ وقالَ: يا رسولَ اللهِ إنّ أسلَمَ تقرأُ عليكَ السلامَ، وتقولُ: إنَّا قد أُجهِدنا منَ الجوعِ والضعفِ، فقالَ رسولُ اللهِ: واللهِ ما بيديْ ما أقوّيهِمْ بهِ، قد عَلمتُ حالَهُم، وأنّهم ليستْ لهمْ قوةٌ، ثمّ دعا لهمْ رسولُ اللهِ وقالَ: اللَّهمَّ فافتَحْ عليهمْ أعظمَ حصنٍ فيها، أكثرَها طعاماً، وأكثرَها ودَكًا .

كانَ النبيُّ يناوبُ بينَ أصحابِه في حراسةِ الليلِ، فلمّا كانتْ الليلةُ السادسةُ استعملَ عبّادًا بنَ بِشْرٍ لمراقبَةِ المُعسكَرِ فأمسكَ بجاسوسٍ في جَوفِ الليلِ وجاءَ بهِ إلى رسولِ اللهِ لينظُرَ في أمرهِ، فشاهدَهُ عمرُ بنُ الخطابِ وتدخَّلَ وقالَ: اضربْ عنقَهُ، قالَ عبّادٌ: جعلتُ لهُ الأمانَ، فقالَ الجاسوسُ: اذْهِبْ بي إلى نبيِّكمْ حتّى أكلِّمُهُ، فأخذوهُ إليهِ وقالَ لهُ النبيُّ: ما وراءَكَ؟ فقالَ: تؤمِنُني يا أبا القاسمِ؟! فقالَ: نعمْ، فقالَ: خرجتُ منْ حِصنِ النطاةِ، منْ عند قومٍ يتسَلّلُونَ منَ الحصنِ في هذه الليلةِ، قالَ: فأينَ يذهبونَ؟ قالَ: إلى الشقِّ، يجعلونَ فيهِ ذراريْهِم، ويتهيّؤونَ للقتالِ، لمّا فرغَ رسولُ اللهِ منَ النطاةِ تحوّلَ إلى الشقِّ، فراحَ المسلمونَ يبارزونَ اليهودَ حتّى قتلوا منهمْ، فأحجَمَ اليهودُ عنِ البِرازِ، فكبَّرَ المسلمونَ، ثمّ حَمَلوا على الحِصنِ فدخلوهُ وفُتِحَ الحِصنُ وجَمَعوا الغنائمَ وهربَ مَنْ كانَ منَ المُقاتِلَةِ منَ اليهودِ إلى حِصنِ النزارِ فأغلَقوهُ وتحصَّنوا فيهِ.

---

١ الودك: هو دسم اللحم.

زحفَ رسولُ اللهِ إليهِمْ في أصحابِه، فقاتلَهُم، فرموا المسلمينَ بالنبْلِ والحجارةِ، فأخذَ رسولُ اللهِ كَفّاً منْ حصى، فرمى به حِصنَهم، فرجَفَ الحِصنُ بِهِم، ثمّ ساخَ في الأرضِ، حتّى جاءَ المسلمونَ، فأخذوا أهلَهُ أخذاً، كانَ أكثرُ المسلمينَ مهتمّينَ بالغنائمِ والطعامِ من السمنِ والعسلِ والسكَّرِ والزيتِ والتمرِ والماشيةِ والمَتاعِ وغيرِها وما يجدِونَه في الحصونِ، كانَ ذلكَ أكبرَ همِّهِمْ وغايةَ قصْدِهِمْ ودُعائِهِمْ وشكواهُم، أمّا رسولُ اللهِ فكانتْ لهُ رسالةٌ أخرى كانَ مأمورًا بإتمامِها وكانَ يشارِكُهُ بهذا الهدَفِ قِلّةٌ مخلِصةٌ منَ المؤمنينَ.

أخبرَ النبيُّ محمدٌ أصحابَه في المعركةِ: أنّ اليهودَ جاءهمْ الشيطانُ، فقالَ لهم: إنّ محمداً يقاتِلُكمْ على أموالِكمْ، نادوهم وقولوا: قولوا لا إلهَ إلاّ اللهُ، أحرزتُمْ أموالَكمْ ودماءكم، وحسابُكمْ على اللهِ. كانَ ذلكَ تعهُّدٌ صريحٌ منَ النبيّ بالاكتفاءِ منهمْ بهذا الإعلانِ، فلا يكونُ هناكَ ملاحقةٌ وبحثٌ عن مكنوناتِ ضمائرهِمْ رغمَ كلِّ ما فعلوهُ معهُ، منْ نقضِ العهودِ، ومنْ تحريضٍ، ومن تآمُرٍ، فإنّ حسابَهمْ على اللهِ وحدَهُ. ولم يطلُبْ النبيُّ محمدٌ لنفْسهِ مالاً ولا سلطةً ولا غيرَ ذلكَ. فنادوهُمْ بذلكَ، فأجابَتْ اليهودُ: أنّا لا نفعلُ ولا نتركُ عهدَ موسى؛ والتوراةُ بيننا.

حينَما شاهدَ النبيُّ وأصحابُه إصرارَ يهودِ خيبرَ على القتالِ ورفْضِ الاستسلامِ حتّى بعد سقوطِ حصونِ النّطاةِ والشقِّ، تحرَّكَ المسلمونَ إلى حصونِ الكتيبَةِ. وكانَ منْ سَلِمَ منَ اليهودِ قد تراجعَ إلى مجموعةِ حصونِ الكتيبةِ. وأعظمُ حصونها هو القَموصُ، وكانَ حصناً منيعاً، بلْ هو حصنُ خيبرَ الأعظمُ. فتحَصَّنَ اليهودُ في القَموصِ أشدَّ التحصينِ مغلِقينَ عليهِمْ. حينَ بدأ حصارُ رسولِ اللهِ على حصنِ القموصِ، أرسلَ في اليومِ الأولِ عمرَ بنَ الخطابِ بالجيشِ فأنهزمَ ولم يُفتَحْ لهُ، ثمّ أرسلَ أبا بكرٍ في اليومِ الثاني فأنهزمَ و لم يُفتَحْ لهُ ثمّ أرسلَ عمرَ بنَ الخطابِ مرّةً أخرى في اليومِ الثالثِ فانكشَفَ هو وأصحابهُ وانهزموا ورجعوا إلى رسولِ اللهِ وهم يتلاومونَ، هم يقولونَ عنْ عمرَ: أنّه جبانٌ وهو يقولُ عنهمْ: بلْ هم الجبناءُ. فغضبَ رسولُ اللهِ واستاءَ مما حصلَ، وقالَ: ما بالُ أقوامٍ يرجعونَ مهزومينَ، يُجَبِّنونَ أصحابَهُم؟! ثمّ قالَ: هكذا يفعلُ المهاجرونَ والأنصارُ؟! .حتى قالها ثلاثاً ـ لم يكنْ لهزيمتِهِمْ ما يبررُها بلْ كانتْ نتيجةَ تخاذُلٍ، وجبْنٍ منَ الصحابَةِ وإنّ الفرارَ الذي حصلَ كانَ على درجةٍ كبيرةٍ

من القباحةِ والشناعةِ. فوعظَ رسولُ اللهِ الناسَ ثمّ قالَ: لأَعطيَنَّ الرايةَ غداً رجلاً لا يخزيهِ اللهُ أبداً يُحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويُحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، يفتحُ اللهُ عليهِ، كرّارٌ ليس بفرّارٍ. لما سمعَ الناسُ مقالةَ رسولِ اللهِ باتوا متلهّفينَ للفتحِ وقد اختلفوا أيُّهمْ سيأخذُ الرايةَ غداً. ولما أصبحوا أسرعوا إلى رسولِ اللهِ يحوطونَهُ كلٌّ منهمْ يرجو أنْ يحصلَ عليها. فما منْ رجلٍ لهُ منْ رسولِ اللهِ منزلةٌ إلاّ وهو يرجو أنْ يكونَ ذلكَ الرجلَ الذي يُعْطى الرايةَ. فقامَ بُريدةُ وتطاولَ لها، ورفعَ رأسَهُ ظنّاً منهُ أنّه بمنزلتِهِ سينالُ شرفَ حَمْلِ الرايةِ. أما عمرُ فقالَ: ما أحببتُ الإمارةَ قطُّ مثلَ هذا اليومِ، فمدَّ رأسَهُ وأبدى وجهَهُ حتى يختارَهُ رسولُ اللهِ، ظنّاً منهُ كما فكَّرَ غيرُهُ أنّ مَنْ يحملُ الرايةَ اليومَ ستكونُ لهُ السُلطَةُ والإمارةُ. ثمّ قالَ رسولُ اللهِ: أينَ عليٌّ؟ قالوا: هو في الرحْلِ، يطحَنُ. قالَ: وما كانَ أحدُكمْ ليطحَنَ؟ كانَ عليٌّ يجلسُ في الخَيمةِ يطحنُ للجنودِ وقد أُصِيبَ بالرمدِ بعينيهِ في أواخرِ أيامِ الحصارِ بسببِ دخانِ الحصنِ. فقالَ بعضُهمْ: أمّا عليٌّ فقد كُفِيْتُموهُ، فهو أرمدُ. قالَ آخرونَ: إنّهُ يشتكي عينيهِ. فقالَ رسولُ اللهِ : فأرسلوا إليهِ. لما سَمِعَ عليٌّ مقالةَ رسولِ اللهِ قالَ: اللّهمَّ لا معطي لما منعْتَ، ولا مانعَ لما أعطيْتَ. اعتبرَ عليٌّ نداءَ وتوكيلَ النبيِّ لهُ كرامةً إلهيّةً، يختصُّ اللهُ بها مَنْ يشاءُ. فجاءَ سلمَةُ بعليٍّ يقودُهُ، ولما وصلَ، امتعضَ البعضُ لقدومِهِ حيثُ كانوا لا يرجونَ حضورَهُ حتى لا يُنافسَهمْ في نيلِ هذا الشرفِ والمنزلةِ. ثمّ جلسَ قريباً منَ النبيِّ، وهو رَمِدٌ، قد عَصَبَ عينيْهِ بقطعةِ قماشٍ. فقالَ رسولُ اللهِ : ما لكَ؟ قالَ : رمدتُ حتى لا أبصرُ ما قُدّاميَ. فقالَ رسولُ اللهِ: أُدنُ مني. فوضعَ النبيُّ رأسَ عليٍّ في حِجرهِ، ثمّ تفلَ في يدهِ، فدلَكَ بها عينَ عليٍّ فبرئَتْ، كأنْ لم يكنْ بهِ وجعٌ قطُّ. ثمّ أركَبَهُ رسولُ اللهِ بغلَتهُ وعَمَّمَهُ بيدهِ، وألبسَهُ ثيابَهُ وأعطاهُ الرايةَ، ووجّههُ إلى الحصنِ. وقالَ لهُ: اذهبْ فقاتِلْهمْ حتى يفتحَ اللهُ عليكَ، ولا تلتفِتْ. فمشى عليٌّ قليلاً ثمّ وقفَ لكي يسألَ النبيَّ سؤالاً، فقالَ دونَ أنْ يلتفتَ: علامَ أقاتلُهمْ؟ أقاتلُهمْ حتى يكونوا مثلنا؟ لقد فاجَأ سؤالُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ الكثيرينَ منَ الصحابةِ الذينَ كانوا حولَ رسولِ اللهِ والذينَ كانَ أكثرُهمْ إنما يقاتلُ منْ أجلِ الغنائمِ أو المناصبِ أو الشهرةِ أو حبّاً بالإمارةِ أو لأجلِ أنْ يفرضوا الإسلامَ بالقوّةِ والقهرِ. فقالَ رسولُ اللهِ: قاتِلهمْ حتى يشهدوا أنّ لا إلهَ إلاّ اللهَ، وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، فإذا فعلوا ذلكَ فقد منعوا منكَ دماءَهمْ وأموالَهمْ إلاَّ بحقِّها، وحسابُهمْ على اللهِ. وقالَ: أنفذْ على

رِسلِكَ حتى تنزلَ بساحَتِهمْ. ثمّ ادعُهمْ إلى الإسلامِ، وأخبرهم بما يجبُ عليهم منْ حقّ اللهِ، وحقّ رسولهِ، فواللهِ، لأنْ يهدي اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ من أنْ يكونَ لك حُمْرُ النَّعمِ. ثمّ دعا لهُ وانطلقَ عليٌّ إلى حصنِهمْ. كانَ رسولُ اللهِ قد أوصاهُ أنْ يعرضَ لليهودِ ثلاثَ خياراتٍ إما أنْ يدخلوا في الإسلامِ، ولهمْ ما للمسلمينَ، وعليهمْ ما عليهمْ، وأموالُهمْ لهمْ وإمّا أنْ يعطوا الجزيةَ والصلحَ، ولهمْ الذِمّةُ، وأموالُهُمْ لهمْ وإمّا الحربُ.

مَقْتَلُ مَرْحَبٍ بْنِ الحارِثِ

كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ على علمٍ بشدَّةِ مقاومةِ اليهودِ وبسالَةِ محاربِيهمْ في هذا الحصنِ لما رأوهُ منهمْ في الحملاتِ السابقةِ التي باءتْ بالفشلِ. وكانوا قد شكوا إلى النبيِّ أحدَ مقاتلِيهمْ يُقالُ لهُ مَرحَبُ وكانَ رجلاً طويلَ القامةِ لا يناوشُهُ أحدٌ منهمْ ألا ردَّهُ، فسألوا رسولَ اللهِ أنْ يُخرجَ إليهِ عليّاً. فقالَ رسولُ اللهِ حينها لعليٍّ: يا عليُّ، اكفِنيْ مَرْحَبَ.

لمّا وافى المسلمونَ بابَ الحصنِ، استقبلَهمْ حُماةُ اليهودِ، فدعاهمْ عليٌّ إلى الإسلامِ، فأبوا، ثمّ دعاهُمْ إلى دفْعِ الجزيةِ، فأبوا، فحملَ عليهمْ عليٌّ. فكانَ أولَ مَنْ خرجَ إليهمْ الحارثُ أبو



شكل(٤٤): صورة تشبيهيّة لعلي بن أبي طالب وهو يحمل باب حصن في خيبر.

زينبَ، أخو مَرْحبَ وكانَ معروفاً بالشجاعَةِ، فانكشَفَ المسلمونَ، وثَبتَ عليٌّ، فتضاربا ضرباتٍ، حتى قتلَهُ عليٌّ. عندما ماتَ الحارثُ، تراكضَ اليهودُ وانهزموا بينَ يديهِ ودخلوا الحصنَ وردّوا بابَهُ، وكانَ البابُ حَجَراً وفي وسطِهِ ثقْبٌ لطيفٌ، فرمى عليٌّ بقوسِهِ منْ يدِهِ

اليسرى، وجعلَ يدَهُ اليسرى في ذلكَ الثقْبِ الذي في وسطِ الحجَرِ وحمَلَ السيفَ في يدِهِ اليمنى، ثمّ جذبَهُ إليهِ فانهارَ الصخرُ الذي يثبِّتُ البابَ، وصارَ البابُ في يدهِ اليسرى. فحملَتْ عليهِ اليهودُ، فجعلَ ذلكَ تُرْساً لهُ، فرمى عند ذلكَ البابَ إلى خَلفِهِ حتى وقعَ في آخرِ العسكرِ.

وخرجَ مَرْحَبُ يهدرُ كما يهدرُ البعيرُ وهو يقولُ:

قد علِمَتْ خيبرُ أنّي مَرحَبُ   شاكيْ السلاحِ بطلٌ مجرَّبُ

إذا الحروبُ أقبلَتْ تلتهِبُ

فحملَ عليهِ عليٌّ، فلما بَصُرَ بهِ مَرحَبُ لم يعبأْ بهِ، وأحجمَ عنهُ، حتى وصلَ إليهِ عليٌّ وهو يقولُ:

أنا الذي سمَّتْنيْ أمي حيدرةْ   ضِرغامُ آجامٍ وَلَيثٌ قَسوَرَةْ

عَبلُ الذِراعَينِ شَديدُ القصورَهْ   كليثِ غاباتٍ كَريهِ المنْظَرةْ

عَلى الأَعادي مِثلَ رِيحٍ صَرْصَرَةْ

فبارزهُ عليٌّ واختلفا بضربَتَينِ حتى ضرَبهُ عليٌّ ضربةً سمِعَ أهلُ العسكرِ صوتَها، ففلقَ رأسَهُ وسقطَ منها لوجهِهِ، وتراكضَ اليهودُ فزِعينَ إلى حصنِهم وهم يصرخونَ: قُتِلَ مَرحَبُ! قُتِلَ مرحبُ! (٤٠٢)

ونزلَ جبريلُ من السماءِ متعَجّباً، فقالَ لهُ النبيُّ: ممّ تعجّبتَ؟ فهنأَ جبريلُ النبيَّ بمقتلِ مَرْحَبَ على يدِ عليٍّ وقالَ: إنّ الملائكةَ تنادي في صوامعِ جوامعِ السماواتِ : لا فتى إلاّ عليٌّ ولا

---

١ شاكي السلاح: تام السلاح كامل الاستعداد.

سيفَ إلاّ ذو الفقارْ. فسمعَ الناسُ تكبيراً من السماءِ في ذلك اليومِ فقامَ الناسُ مع عليٍّ وبرزَ ياسرٌ لينتَقِمَ لمقتلِ مرحبَ وهو يقولُ :

قد عَلِمَتْ خيبرُ أنّي ياسرْ   شاكيْ السلاحِ بطلٌ مغاوِرْ

إذا اللّيوثُ أقبلتْ تبادِرْ   وأحجمَتْ عن صَولةِ المُساورْ

أنّ حساميْ فيهِ موتٌ حاضرْ

فبارزَهُ عليٌّ وقتلَهُ. حتى انهزمَ اليهودُ. وكانَ بهذا الفتحُ. ولمّا بلغَ النبيَّ خبرُ فتحِ خيبرَ ،سُرَّ بذلك غايةَ السرورِ، فاستقبلَ عليّاً، واعتنقَهُ، وقبّلَ بين عينيهِ، وقالَ: بلغني نبؤكَ المشكورُ، وصنعُكَ، رضي اللهُ عنكَ، ورضيْتُ أنا عنكَ فبكى عليٌّ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ: ما يبكيكَ يا عليُّ؟ فقالَ: فرحاً بأنّ اللهَ ورسولَهُ عليّ راضيانِ. قالَ رسولُ اللهِ: والذي نفسيَ بيدِهِ، لولا أنْ تقولَ طائفةٌ منْ أمتي مقالةَ النصارى في عيسى بنِ مريمَ لقلتُ فيكَ اليومَ مقالاً، لا تمرُّ بملَإٍ منَ المسلمينَ إلاّ أخذوا منْ ترابِ رجلَيكَ، وفَضْلِ طهورِكَ يستشفونَ بهِ، ولكنْ حسبُكَ أنْ تكونَ منّيْ وأنا منكَ، ترثُنيْ وأرثُكَ، وأنّكَ مني بمنزلَةِ هارونَ منْ موسى إلاّ أنّهُ لا نبيَّ بعدي.

فاستأْذَنَ حسّانُ بنُ ثابتٍ رسولَ اللهِ أنْ يُنشِدَ شعراً، فأذنَ لهُ، فقالَ :

جبريلُ نادى معلِناً   والنقعُ ليسَ بِمُنْجلِيْ

والمسلمونَ و أحدقوا   حولَ النبيِّ المرسلِ

لا سيفَ إلاّ ذو الفقارِ   ولا فتىً إلاّ عَلِيْ

بَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ

لما انتصرَ رسولُ اللهِ على أهلِ خيبرَ، صالَحَهمْ على أنْ يخرجوا بأنفُسِهمْ وأهليهمْ، وللنبيِّ الصفراءُ والبيضاءُ والحلقةُ[1]، وشرطوا للنبيِّ أنْ لا يكتموهُ شيئاً، فإنْ فعلوا فلا ذِمّةَ لهمْ.

كانَ ليهودِ آلِ أبي الحقيقِ حُليًّا كثيرةً يعتزّونَ بها، فأُتى المسلمونَ بكنانَةَ، والربيعِ بنِ أبي الحقيقِ إلى رسولِ اللهِ فقالَ لهما : أينَ آنيتُكما التي كنتمْ تعيرونها أهلَ مكّةَ؟ قالا: هربنا، فلمْ نزلْ تضعنا أرضٌ وترفعُنا أخرى، فذهبَ في نفقتنا كلُّ شيءٍ. فقالَ النبيُّ لهما: العهدُ قريبٌ، والمالُ أكثرُ منْ ذلكَ. ثمّ قالَ: إنكما إنْ تكتماني شيئاً فاطلعْتُ عليهِ، استحللْتُ بهِ دماءكما وذراريكما؟ فقالا: نعمْ. فأخبرَ اللهُ رسولَهُ بموضعِ الكنْزِ، فقالَ النبيُّ لكنانَةَ : إنّكَ لمغترٌ بأمرِ السماءِ. ثمّ دعا رسولُ اللهِ رجلاً منَ الأنصارِ فقال: اذهبْ إلى أرضِ كذا وكذا، ثمّ ائتِ النخلَ، فانظرْ نخلةً عنْ يمينِكَ، أو عنْ يسارِكَ مرفوعةً، فأتني بما فيها. فجاءهُ بالآنيةِ والأموالِ، فقُوّمَتْ بعشرةِ آلافِ دينارٍ، فضربَ أعناقَهما، وسبى أهليهما، بالنكْثِ الذي نكثاهُ. فوجدوا فيهِ أساورَ، ودمالِجَ، وخلاخيلَ، وأقرِطةً، وخواتِمَ الذهبِ، وعقودَ الجواهرِ، والزّمرّدِ، وعقودَ أظفارٍ مجزَّعَةٍ بالذهبِ. إنّ هؤلاءِ الناسِ، رغمَ أنّهمْ يجدونَ هذا النبيَّ مكتوباً عندَهمْ في التوراةِ ويرونَ المعجزاتِ والكراماتِ لهُ رأيَ العينِ، وقد اقتلعَ وصِيُّهُ عليٌّ بابَ حصنِهمْ، وجعلَهُ ترساً، ومَعبَراً للمقاتلينَ، ولكنّهمْ لا يعتبرونَ، ولا يؤمنونَ، وكأنّهمْ يكافِحونَ اللهَ في الأرضِ، إذْ لم يقدروا على مكافحَتهِ في السماءِ. والمفروضُ أنْ يمنعَهمْ عِلْمُهمْ بصدقِ هذا النبيِّ منَ الكذبِ عليهِ، لأنّهمْ يعلمونَ أنّ اللهَ سيخبرُ أنبياءَهُ بأمرِهمْ، وسيفضَحُ كيدَهمْ.

كانَ بنو فَزارَةَ[2] منْ غطفانَ ممّنْ قدِمَ على أهلِ خيبرَ ليُعينوهمْ، فراسلَهمْ رسولُ اللهِ أنْ لا يعينوهُمْ، وسألَهمْ أنْ يخرجوا عنهمْ، ولهمْ منْ خيبرَ كذا وكذا، فأبوا عليهِ. فلما فتحَ اللهُ خيبرَ

---

١ الصفراء والبيضاء والحلقة: اي الذهب والفضة والسلاح والدروع.

٢ بنو فزارة: قبيلة عربية كبيرة، وهي فرع من قبيلة ذبيان من غطفان.

وجمعَ رسولُ اللهِ الغنائمَ، أتاهُ مَنْ كانَ هناكَ منْ بني فِزارةَ، فقالوا :حظُّنا والذي وعدتنا. فقالَ رسولُ اللهِ: حَظُّكمْ، لكمْ ذو الرقيبَةِ، وذو الرقيبَةِ جبلٌ منْ جبالِ خيبرَ. فقالوا: إذاً نقاتِلُكَ. فقالَ: موعدُكمْ بحيْفاءَ. فكأنّ رسولَ اللهِ ذكّرَهمْ بالصيْحَةِ التي سمعوها منْ قبلُ وأرعبَتْهمْ، فأفهمَهمْ بكلمتِهِ هذه أنّ هذا الأمرَ مَرعيٌّ منْ قبَلِ اللهِ، وأنّهُ لا طاقةَ لهمْ بحربِ اللهِ ورسولِهِ. فلما وجدوا أنّ القضيّةَ انتهَتْ إلى هذا الحدِّ أرعبَهمْ ذلكَ، فخرجوا هاربينَ .

وأخذَ عليٌّ في مَنْ أخذَ منَ السبايا امرأةً تُسمَّى صَفِيّةُ بنتُ حُيَيْ، فدعا بلالاً، فدفعها إليهِ، وقال لهُ: لا تضعْها إلاّ في يديْ رسولِ اللهِ، حتى يرى فيها رأيَهُ. فخيّرها بينَ أنْ يعتِقَها، فترجعَ إلى مَنْ بقيَ من أهلها، أو تُسلمَ، فيتخذها لنفسهِ. فاختارتِ الإسلامَ، وأن تكونَ زوجةً للنبيِّ. فأعتقَها، وتزوجها، وجعلَ عِتقَها صَداقَها. فبذلكَ فُتِحتْ خيبرُ وقُتلَ منْ اليهودِ ما يقاربُ ثلاثةً وتسعينَ رجلاً وأقلُّ من نصفِهم من المسلمينَ. وقد فتِحَ نصفُ خيبرَ عنوةً، ونصفُها الآخرُ صلحاً، فما فتِحَ عنوةً، فخمسُهُ لأهلِ الخمسِ، وأربعةُ أخماسهِ لجميعِ المسلمينَ وما فتِحَ صلحاً فهو لهُ.

لمّا فرغَ رسولُ الله منْ خيبرَ، عقدَ لواءً فهزَّهُ ثم قالَ: مَنْ يقومُ إليهِ، فيأخذَهُ بحقّهِ، وهو يريدُ أن يبعثَ بهِ إلى حوائطِ فَدَكَ. فقامَ الزبيرُ إليهِ، فقالَ: أنا. فقالَ: أمِطْ عنهُ. ثم قامَ إليهِ سعدٌ، فقالَ: أمِطْ عنهُ. ثم قال النبيُّ: والذي كرّمَ وجهَ محمدٍ، لأعطينَّها رجلاً لا يفرُّ. ثم قالَ: يا عليُّ قمْ إليهِ فخذْهُ. فأخذَهُ فبعثَ بهِ إلى فَدَكَ فصالحَهمْ على أنْ يحقنَ دماءهم، فكانتْ بساتينُ فدكَ لرسولِ اللهِ خالصَةً. فنزلَ جبريلُ فقالَ : إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يأمرُكَ أنْ تُؤتيَ ذا القُربىٰ حقَّهُ.

---

١ حُيَيّ بن أخطب: هو سيد بني النضير، وكان من علماء اليهود، وأشدهم عداءً للإسلام.

٢ الحائط: الجدار الذي يحوط بالمنزل وشببه، وهو أيضا البستان.

٣ فدك: قرية بالحجاز ـ بينها وبين المدينة يومان.

٤ أمط عنه: أي تنحى عنه.

قالَ: يا جبريلُ، ومَنْ قُربايَ؟ وما حقُّهُ؟ قالَ : فاطمةُ، فأعطِها حوائطَ فَدَكَ، وما للهِ ولرسولهِ فيها. فدعا رسولُ اللهِ فاطمةَ، وكتبَ لها كتاباً بذلكَ. (٤٠٣)

لمّا رجعَ رسولُ اللهِ من غزوةِ خيبرَ، دخلَ على نسائهِ فقلنَ لهُ: أعطِنا ما أصبْتَ. فقالَ لهنَّ رسولُ الله: قسَّمْتهُ بين المسلمينَ على ما أمرَ اللهُ. فغضبْنَ من ذلكَ وقلْنَ لعَلّكَ ترى إنْ طلّقتَنا أنْ لا نجدَ الأكفَّاءَ من قومِنا يتزوجونَنا. فقالتْ زينبُ بنتُ جحشٍ: لا تعدلُ، وأنتَ رسولُ اللهِ؟! فقالَ لها: تَربَتْ يداكِ، إذا لمْ أعدلْ فمَنْ يعدلُ؟ قالتْ : دعوتَ اللهَ يا رسولَ اللهِ، ليقطعَ يدايَ ؟ فقالَ : لا، ولكنْ لتُترَبانِ. وقالتْ حفصةُ : إنْ طلَّقَنا وجدْنا أكفاءنا منْ قومنا. فَأَنِفَ اللهُ لرسولهِ فأمرَهُ أنْ يعتزلَهُنَّ، فاعتزلَهنَّ رسولُ اللهِ في بستانِ أمِّ إبراهيمَ تسعةً وعشرينَ يوماً، ثمّ أوحى اللهُ لنبيّهِ: يا محمدُ قلْ لأزواجِكَ إنْ كنتُنَّ تردنَ الحياةَ الدنيا وبهجتها ومُتعها، فتعالينَ أعطيكنَّ مالاً يناسبْكنَّ وأطلّقكنَّ طلاقاً لا يشوبُهُ أذىً، وإنْ لم تردنَ الحياةَ الدنيا ومتعتها واخترتُنَّ الإيمانَ باللهِ ورسولِ الله والدارَ الآخرةَ، فإنّ اللهَ أعدَّ للمُحسناتِ منكنَّ أجراً عظيماً، هذا هو جزاءُ منِ اختارَتْ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ وكانتْ منَ المحسناتِ وهذا يكشفُ أنّ نفسَ القُربِ منَ النبيِّ - لكونها زوجةً - لا يعطيها درجةً زائدةً منَ الفضلِ تخولُّها دخولَ الجنّةِ وإنما هو الإحسانُ الذي يوفّرُ لها ما أعدّهُ اللهُ. (٤٠٤) وحينما عادَ النبيُّ إليهمْ أخبرَهمْ بما أمرَهُ اللهُ، فقامَتْ أمُّ سلمةَ وقالتْ: قد اخترتُ اللهَ ورسولَهُ، ثمّ قُمْنَ كلُّهُنَّ فعانقْنهُ وقلنَ مثلَ ذلكَ.

قدومُ جعفرٍ منَ الحبَشَةْ

كانَ رسولُ اللهِ قبلَ مسيرهِ إلى خيبرَ، أرسلَ عَمْرًا بنَ أميّةَ الضُمَريَّ إلى النجاشيْ، عظيمِ الحبشَةِ، وطلبَ منهُ أنْ يحملَ إليهِ جعفراً وأصحابَهُ. فجهّزَ النجاشيُّ جعفراً وأصحابَهُ بجَهازٍ

---

١ تربَ الرجل: أصابه التراب. وتَرِبَتْ يداه: افتقر، انه لَصِقَ بالتراب من فقره، وتقولها العرب من باب التحبب.

حَسنٍ، وأوْلاهُمْ بكِسوةٍ، وحملَهُمْ في سفينَتَينِ، وكانوا ستةَ عشرَ نفراً، سوى مَنْ تُوفّيَ، أو رجعَ قبلَ ذلكَ. وأرسلَ النجاشيُّ معَهمُ ابنَ أخيهِ إلى رسولِ اللهِ ليخدِمَهُ. وصلَ جعفرٌ بنُ أبي طالبٍ منَ الحبشةِ بعد فتحِ خيبرَ مباشرةً، فبعثَ رسولُ اللهِ مولاهُ أبا رافعٍ، يتلقّاهُ.ولمّا رآهُ النبيُّ قامَ إليهِ واستقبلَهُ، فلمّا رآهُ جعفرٌ أسرعَ إليهِ مهرولاً، فضَمّهُ النبيُّ إلى صدرِهِ، وقبّلَ ما بينَ عينَيْهِ، وبكى فرحاً برؤيتِهِ وقالَ: لا أدري بأيّهما أنا أشدُّ فرحاً بفتحِ خيبرَ أو بقدومِ جعفرٍ؟ ثمّ حادثَهُ شيئاً، ثمّ ركبَ على ناقتِهِ العضباءَ، وأردَفَهُ، فلمّا انبعثَتْ بهما الراحِلَةُ كلَّمَهُ، فقالَ:

يا جعفرُ يا أخُ، ألا أحبوكَ؟ ألا أعطيكَ؟ ألا أصطَفيكَ؟ فظنَّ الناسُ أنّهُ سيعطي جعفراً منَ المالِ أو الأراضي التي غنِمَها في خيبرَ. فقالَ جعفرٌ: بلى فداكَ أبيْ وأمّيْ، فعلّمَهُ صلاةَ التسبيحِ وهي المعروفَةُ بصلاةِ جعفرٍ. وقدِمَ معَ جعفرٍ ذلكَ اليومَ سبعونَ رجلاً عليهمْ ثيابُ الصوفِ، منْ أهلِ الصوامعِ، منهُمُ اثنان وستونَ منْ الحبشةِ، وثمانيةٌ روميّونَ منْ أهلِ الشامِ. فقرأ عليهم رسولُ الله سورةَ (يس)، فبكوا، وأسلموا، وقالوا: ما أشبهَ هذا بما كانَ ينزلُ على عيسى! وقامَ النبيُّ يخدمُهمْ بنفسهِ، فقالَ لهُ أصحابهُ: نحنُ نكفيكَ يا رسولَ اللهِ. فقالَ: إنهم كانوا لأصحابنا مُكرِمينَ.

رأى رسولُ اللهِ أنّ قدومَ جعفرٍ يمثّلُ أهميةً وقيمةً لا مثيلَ لها، وهو السببُ الذي أدّى إلى فرحتهِ بمستوى فرحتهِ عند فتْحِ خيبرَ، إنْ لم يكنْ أكثرَ، فما هي خصوصيةُ جعفرٍ ليُمنحَ هذا الوسامُ. لقد كانَ جعفرٌ في الحقيقةِ يمثّلُ ذلكَ الإنسانَ الإلهيَّ، الذي جسّدَ حقائقَ الإسلامِ في عمقِ وجودهِ وذاتهِ، لتصبحَ تلكَ الحقائقُ عقلَهُ، ووعيَهُ، وخلُقَهُ، وحركتَهُ وموقفَهُ، ويصبحَ كلُّ وجودهِ فانياً في الإسلامِ، ويصبحَ كلُّ الإسلامِ متجسّداً فيهِ. لقد عاد ظافراً من بلادٍ كانتْ تدينُ بالنصرانيّةِ، حيثُ استطاعَ أنْ يتركَ فيها أعظمَ الأثرِ حينَ أقنعَ مَلِكَ تلكَ البلادِ بالدخولِ في الإسلامِ.

---

١ ردَف الرَّجُلَ: ركِب خلفَه.



شكل(٤٥): جعفر بن أبي طالب يصل من الحبشة.

جاءتْ أسماءُ بنتُ عميسٍ زوجةُ جعفرٍ بنِ أبي طالبٍ مع زوجها منَ الحبشةِ، فدخلَتْ على حفصةَ زوجِ رسولِ الله زائرةً، وبينما هي عند حفصةَ، جاءَ عمرُ أبو حفصةَ، فقالَ عمرُ حينَ رأى أسماءَ: مَنْ هذه؟ فقالتْ حفصةُ : أسماءُ بنتُ عميسٍ. فقالَ عمرُ لأسماءَ: سبقناكمُ بالهجرةِ، نحنُ أحقُّ برسولِ الله. فغضبَتْ أسماءُ وقالتْ: كلّا واللهِ يا عمرُ، كنتمْ مع رسولِ اللهِ يطعمُ جياعَكمْ، ويعلّمُ جاهلَكمْ، وكنّا في أرضِ البعداءِ البغضاءِ بالحبشةِ، وذلكَ في اللهِ وفي رسولهِ. وأيمُ اللهَ لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى أذكرُ ما قلتَ لرسولِ اللهِ وأسألهُ، واللهِ لا أكذبُ، ولا أزيغُ، ولا أزيدُ على ذلكَ. فلمّا جاءَ رسولُ اللهِ قالتْ : يا نبيَّ الله، إنّ رجالاً يفخرونَ علينا، ويزعمونَ: أنّا لسنا منَ المهاجرينَ الأوّلينَ. فقالَ: مَنْ يقولُ ذلكَ؟ قالتْ : إنّ عمرَ قال: كذا وكذا. فقالَ رسولُ الله : ما قلتِ لهُ؟ قلتِ لهُ: كذا وكذا. ثمّ قالَ: ليس بأحقَّ بيْ منكمْ، لهُ ولأصحابهِ هجرةٌ واحدةٌ، ولكمْ أنتمُ ـ أهلَ السفينةِ ـ هجرتانِ : هاجرتُـمْ إلى النجاشيِّ، وهاجرتُـمْ إليَّ.

وكانَ من جُملَةِ مَنْ قدِمَ معهمْ منْ بلادِ الحبشةِ أيضاً؛ أمُّ حبيبةَ بنتُ أبي سفيانَ. فإنها كانتْ ممَّنْ هاجرَ للحبشةِ مع زوجها عبدِ اللهِ بنِ جَحْشٍ، فارتدَّ عنِ الإسلامِ هناكَ وتنصَّرَ، وماتَ

على ذلكَ، وبقيَتْ هي على إسلامها. وحينَ وصلَ الخبرُ إلى رسولِ الله، أرسلَ عمرو بنَ أميّةَ الضمريَّ سنةَ سبعٍ إلى النجاشيّ ليطلبَ منهُ أنْ يزوّجَ أمَّ حبيبةَ للنبيِّ محمدٍ. (٤٠٥)

سَرَايَا بَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرْ

وبعد فتحِ خيبرَ، انصرفَ رسولُ الله لتحضيرِ السرايا لتأمينِ المنطقةِ المحيطةِ بِخيبرَ و كانتْ بعضُ السرايا مهمّتَها الدعوةُ إلى اللهِ، وبعضها كانتْ مهمتها الرصدُ والرقابةُ. حتى لا يُؤخَذَ المسلمونَ على حينِ غِرّةٍ. فكانَ في ما أرسلَهُ منْ السرايا إلى بعضِ قرى اليهودِ ليدعوهمْ إلى الإسلامِ سريةً فيها أسامةُ بنُ زيدٍ، فالتقى برجلٍ منَ اليهودِ يقالُ لهُ مِرداسُ بنُ سليمٍ، لمّا أحسَّ مرداسُ بهمْ، جمعَ إبلَهُ ومالَهُ في ناحيةِ الجبَلِ، وهو يقولُ: أشهدُ أنّ لا إلهَ إلاّ الله، وأنّ محمداً رسولُ اللهِ، فمرَّ بهِ أسامةُ بنُ زيدٍ، فقتلَهُ وساقَ الإبلَ. ثمّ رجعوا إلى رسولِ الله فأخبروهُ، وشاهدوا رسولَ اللهِ قد وجِدَ عليهِ وجداً شديداً، وكانَ قد وصلَهُ خبرُ السريّةِ سابقاً ، فسألَهمْ رسولُ اللهِ متعجِّباً: أقتلْتُموهُ إرادةَ ما معهُ؟! فقالَ أسامةُ: يا رسولَ الله، إنما قالها تعوّذاً منَ القتْلِ. فقالَ النبيُّ: ألا شققْتَ قلبَهُ، فتعلَمَ أصادقٌ هو أمْ كاذبٌ؟! ثمّ قرأ عليهِ آيةً منَ القرآنِ تخاطبُ المؤمنينَ وتقولُ: يا أيُّها الذينَ أمنوا إذا خرجْتُمْ في سرايا أو مَهمّاتِ استطلاعٍ والتقيتُمْ ببعضِ الناسِ واشتبَهتُمْ في أمرِهمْ هلْ همْ منْ أهلِ الكفرِ أمْ منْ أهلِ الإسلامِ، فلا تتسرّعوا في حَسمِ الأمورِ وتبنونَ على كفرِ كلِّ منِ التقيتُمُ بهِ وتضربونَ عنقَهُ بلْ عليكم أنْ تتثبّتوا منَ الحقائقِ قبلَ أن تقرروا، ولا تقولوا لكلِّ شخصٍ سلّمَ عليكمْ بتحيّةِ الإسلامِ - السلامُ عليكُمْ -، أو مَنْ ينقادُ لكمْ ويستسلِمُ، أنكَ لستَ مؤمنًا وأنتَ كاذبٌ، فإنّ هذا الكلامَ يكفي في الإسلامِ بلْ ويكفي للحكمِ بالإيمانِ ولا تقولوا إنّه ليس مؤمناً تريدونَ منْ وراءِ هذا النفيَ أنْ تستحلّوا دمَهُ وتستولوا على أموالهِ طمعاً في بعضِ المكاسبِ الدنيويّةِ منَ الغنائمِ، اعلموا أنّ اللهَ يعلمُ خفايا القلوبِ وما تعملونَ وسيُحاسبُكمْ عليها.(٤٠٦) فقالَ: يا رسولَ الله استغفرْ ليْ. فقالَ رسولُ الله: فكيفَ بلا إلهَ إلاّ الله؟!، قالها ثلاثَ مرّاتٍ. فندِمَ أسامةُ ندماً شديداً و ودَّ لو لم يكنْ أسلمَ إلاّ يومَئذٍ.

وقدِمَ على رسولِ اللهِ رجلٌ منْ أشجَعَ، يقالُ لهُ حسيلٌ بنُ نويرةَ. وكانَ دليلَ النبيِّ إلى خيبرَ، فقالَ لهُ : منْ أينَ يا حسيلُ؟ قالَ : قَدِمتُ منَ الجنابِ. فقالَ: ما وراءُكَ؟ قالَ : تركتُ جَمْعاً منْ غطفانَ بالجَنابِ، قد بعثَ إليهمْ عُيينَةُ يقولُ لهم: إمّا تسيرونَ إلينا، وإمّا نسيرُ إليكمْ. فأرسلوا إليهِ : أنْ سِرْ إلينا، حتى نزحفَ إلى محمدٍ جميعاً. وهم يُريدونَكَ، أو بعضَ أطرافِكَ. فكانَ لا بدَّ منْ تسديدِ ضربةٍ استباقيّةٍ لهم، لدفعِ شرِّهمْ عنِ المسلمينَ، فبعثَ رسولُ اللهِ إليهمُ ثلاثمائةَ رجلٍ، ففرَّ القومُ وانكشفَ جمعُهمْ ولم يلاقِ المسلمونَ كيداً.

وأمّا عُيينَةُ فانهزمَ على فرسٍ له، فاستَوقفَهُ حليفُهُ الحارثُ بنُ عوفٍ المُريِّ. فلم يقفْ لهُ، وقالَ: لا، ما أقدرُ، الطلبُ خلفيْ، أصحابُ محمدٍ. -وهو يركضُ-. فقالَ لهُ الحارثُ : أما لكَ أنْ تُبصِرَ ما أنتَ عليهِ؟ إنّ محمداً قد وطَئَ البلادَ، وأنتَ تُوضِعُ في غيرِ شيءٍ. ثمّ تنحّى الحارثُ عنِ الموضعِ الذي يتوقّعُ أنْ تمرَّ فيهِ الخيلُ لكي يراهُمْ، ولا يراهُ أحدٌ منهم. فأقامَ من حينِ زوالِ الشمسِ ظهراً إلى الليلِ، فلم يمرَّ به أحدٌ. ولا طلبَهُ أحدٌ منهم، ولكنّ الرعبَ الذي دخلَهُ صوّرَ لهُ ذلكَ. ثمّ إنّ الحارثَ ذكرَ ذلكَ لعُيينةَ، فأقرَّ لهُ بهِ، وأنّه خافَ أنْ يؤسرَ. فقالَ لهُ الحارثُ : أيها الرجلُ قد رأيتَ ورأينا معكَ أمراً بيّناً في بني النضيرِ، ويومَ الخندقِ، وقُريظةَ، وقبلَ ذلكَ قينُقاعَ، وفي خيبرَ، إنهم كانوا أعزَّ يهودِ الحجازِ كلّها، يقرّونَ لهمْ بالشجاعةِ والسخاءِ، وهمْ أهلُ حصونٍ منيعةٍ، وأهلُ نخلٍ. واللهِ، إنْ كانتْ العربُ لَتلجأُ إليهمْ فيمتنعونَ بهمْ، لقد سارتْ حارثةُ بنُ الأوسِ، حيثُ كانَ بينَهمْ وبينَ قومِهمْ ما كانَ، فامتنعوا بهمْ منَ الناسِ. ثمّ قد رأيتَ حيثُ نزلَ بهم كيفَ ذهبتْ تلكَ النجدةُ! وكيفَ أُديلَ عليهم! فقالَ عيينةُ : هو ـ واللهِ ـ ذاكَ! ولكنّ نفسي لا تقرّني. فقالَ الحارثُ : فادخلْ مع محمدٍ! قالَ : أصيرُ

١ يريد الحرب التي دارت بين بني الأوس (حارثة بن الأوس) والخزرج في يثرب وكيف سارت الأوس إلى اليهود وتحالفت مع بني النضير وبني قريظة لنصرتهم، فنصروهم على الخزرج.

٢ يعني كيف هزم محمد يهود بني النضير وقريظة.

٣ أَدال، يديل: فلانًا وغيره على فلان أَو منه: نصره، وغلّبه عليه.

تابعاً؟! قد سبقَ قومٌ إليهمْ، فهمْ يَزِرونَ بِمَنْ جاءَ بعدهم، يقولونَ: شهِدْنا بدراً وغيرَها. قالَ الحارثُ : وإنما هو على ما ترى، فلو تقدَّمْنا إليهِ لكنّا منْ عَليّةِ أصحابهِ، قد بقيَ قومُهُ بعدَهُ في مُوادَعةٍ منهُ، وهو مُوقِعٌ بهمْ وقعةً ما وطِئَ لهُ الأمرُ. قالَ عيينةُ : أرى واللهِ.

لم يفلح الحارثَ وعيينةَ في التشرُّفِ بالإسلامِ مبكراً، لذلكَ تأخرَ إسلامُهُما، على الرغمِ من اتصافِ الحارثِ بنِ عوفٍ بالعقلِ والدِرايةِ، وأمّا ما تذرَّعَ بهِ عيينةُ بنُ حصنٍ، واعتبرَهُ مبرِّراً لِصدودِهِ عنِ الإسلامِ، بأنّهُ لا يريدُ أنْ يصيرَ تابعاً، فذلكَ أمرٌ يدعو للدهشَةِ.

وَفَاةُ النَّجَاشِيّ

ثم جاءَ النبيَّ في هذه السنةِ جبريلُ ينعي وفاةَ النجاشيَّ، فبكى عليهِ رسولُ الله حزناً عليهِ وقالَ: إنّ أخاكمُ أصحمَةُ ماتَ. فخرجَ إلى الجبّانَةِ، وصلّى عليهِ، وكَبّرَ سبعاً. فخُفِضَ لهُ كلُّ مُرتَفِعٍ، حتى رأى جنازتَهُ، وهو بالحبشةِ. فقالَ المنافقونَ : انظروا إلى هذا يُصلّيْ على عِلْجٍ نصرانيِّ حبشيٍّ، ولم يرهُ قطُّ وليس على دينهِ! (٤٠٧)

رسائلُ النبِيّ إلى المُلوكْ

بعد أنْ أصبحَ المسلمونَ في راحةٍ منْ جهةِ قريشٍ، قرّرَ النبيُّ أن يكتبَ رسائلَ إلى سِتّةٍ منَ الملوكِ وأباطرةِ زمانِهِ، الذينَ يتحكَّمونَ في شعوبِ الأرضِ، ليدعوهمْ إلى الإسلامِ، وطلبَ منْ بعضِ أصحابهِ أنْ يحملوا هذهِ الرسائلَ، فأدهشَهمْ قرارُهُ هذا وتثاقلوا منْ هذه المَهمَّةِ خوفاً منْ أولئكَ الملوكِ. فخرجَ رسولُ الله على أصحابهِ وقالَ: يا أيها الناسُ، إنّ اللهَ بعثني رحمةً وكافةً، فأدّوا عنّيْ يرحَمَكُمُ اللهُ، ولا تختلفوا عليَّ كما أختلفَ الحواريونَ على عيسى

---

١ يزر: يأثم أو ينتقص أو يقلل من.

٢ علج: الرجل الغليظ من كفار العجم.

بنِ مريمَ، وانطَلِقوا ولا تصنعوا كما صنعَ رُسُلُ عيسى بنِ مريمَ. فكتبَ إلى الحبشةِ والرومِ و الفُرسِ ومصرَ والشّامِ واليمامَةِ وانطلقَ الرسُلُ يحمِلونَ الكُتُبَ.

فأرسلَ إلى كسرى مَلِكِ الفُرسِ: «بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ. منْ محمدٍ رسولِ اللهِ إلى كسرى عظيمِ فارس: سلامٌ على مَنِ اتبعَ الهُدىٰ، وآمنَ باللهِ ورسولِهِ، وشهدَ أنّ لا إلهَ إلاّ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنّ محمداً عبدهُ ورسولهُ. أدعوكَ بدعايةِ اللهِ، فإنّي أنا رسولُ اللهِ إلى الناسِ كافةً، ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أسلِمْ تَسْلَمْ. فإنْ أبيْتَ فعليكَ إثمُ المجوسِ» فدعا كسرى مَنْ يقرأهُ فلمّا قرأ: منْ محمدٍ رسولِ اللهِ إلى كسرى عظيمِ فارسْ، غَضِبَ كسرى حيثُ بدأ رسولُ اللهِ بنفسهِ، وصاحَ، وأخذَ الكتابَ، فمزَّقَهُ قبلَ أنْ يعلمَ ما فيهِ، وقالَ: يكتبُ إليَّ بهذا وهو عبديْ؟! فقالَ النبيُّ لمّا علِمَ: مزَّقَ كسرى مُلْكَهُ. ثمّ عادَ كسرى فتدارَكَ الأمرَ بإرسالِ هديّةٍ لرسولِ اللهِ ولكنّهُ شَفَعَها بالتهديدِ والوعيدِ حيثُ أرسلَ إليهِ مع تلكَ الهديّةِ تراباً أيضاً. فقالَ النبيُّ: مزّقَ اللهُ ملكَهُ كما مزّقَ كتابي. أما إنكمْ ستُمزِّقونَ مُلْكَهُ. وبعثَ إلـيَّ بترابٍ: أما إنكمْ ستملِكونَ أرضَهُ.

---

١ معنى الآية من سورة (يس ٣٦: ٧٠) هذا النبي أو هذا القرآن جاء ليحذّر أصحاب العقول المنفتحة التي تحلّل الأمور وتقف على الحقائق فتؤمن وتقوم بالصالحات، وأيضاً لتثّبت العذاب على الكافرين، الذين ظلوا الطريق ولم يؤمنوا بالله.

كانَ كسرى الثانيْ منْ أشدِّ الحُكّامِ وأكثرِهمْ استبداداً وتكبُّراً، فكتبَ إلى عامِلِهِ باذانَ على



شكل(٤٦): مخطط رُسل النبي إلى ملوك العالم.

اليمنِ بأن يسيرَ إلى النبيِّ محمدٍ ويأمرَهُ بالاعتذارِ والتوبةِ وإذا لم يفعلْ يقتلْهُ. فأرسلَ باذانُ رجلَينِ إلى رسولِ اللهِ بكتابِ كسرى، وكتبَ إليهِ يأمرُهُ بالمسيرِ معهما إلى كسرى. وأتى رسولَ اللهِ الخبرُ منَ السماءِ، بأنّ اللهَ قد سَلّطَ على كسرى ابنَهُ فقتلَهُ في شهرِ كذا، لكذا وكذا، في ليلةِ كذا وكانَ ذلكَ سنةَ ٦٢٨ بعد الميلادِ. فلمّا أتاهُ الرسولانِ قالَ لهما : إنّ ربّيْ قد قتلَ ربَّكُما ليلةَ كذا وكذا، من شهرِ كذا وكذا، بعدما مضى منَ الليلِ سبعُ ساعاتٍ، سَلّطَ عليهِ شيرَويهْ، فقتلَهُ. فخرجَ الرسولانِ، وقَدِما على باذانَ، وأخبراهُ بما جرى، فقالَ باذانُ: واللهِ، ما هذا كلامُ مَلِكٍ، وإنّي لأراهُ نبيّاً، ولننظُرَنَّ. فلم يلبثْ باذانُ أنْ قَدِمَ عليهِ كتابُ شيرويهْ، يخبرُهُ بقتْلِ كسرى، ويقولُ لهُ: وانظرْ الرجلَ الذي كانَ كسرى يكتبُ إليكَ فيهِ، فلا تزعجْهُ،

حتى يأتيَكَ أمريْ فيهِ. فأسلَمَ باذانُ، وأسلمَ مَنْ معهُ باليمنِ منْ أبناءِ فارسْ، وبعثَ إلى النبيِّ خبرَ إسلامِهِمْ.

وقد كتبَ النبيُّ محمدٌ أيضاً إلى قَيْصَرَ عظيمِ الرومِ كتاباً يدعوهُ فيهِ إلى الإسلامِ :«بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم: منْ محمدٍ بنِ عبدِ اللهِ إلى هِرْقِلَ عظيمِ الرومِ: سلامٌ على مَنِ اتبَعَ الهدى. أمّا بعدُ، فإنّيْ أدعوكَ بدِعايةِ الإسلامِ، أسلِمْ تسلمْ يؤتِكَ اللهُ أجركَ مرتين، فإن توليتَ فإنما عليك إثم الأريسيينْ[1] و﴿تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝﴾

أهلُ الكتابِ، اليهودُ والنصارى، يعتبرونَ أنّ دينَهمْ يعتمدُ على التوحيدِ وأنّ ممارساتِهِمْ لا تتعارضُ مع مبدأ التوحيدِ. لذا، يأمرُ اللهُ نبيَّهُ بدعوتِهِمْ إلى كلمةٍ عادلةٍ ومُنصِفةٍ تجمعُ بينَهُ وبينَهمْ، وتشكِّلُ نقطةَ تلاقٍ تعكسُ وحدةَ الجميعِ. هذه الكلمةُ تدعو إلى عبادةِ إلهٍ واحدٍ، هو اللهُ، والإيمانِ بوحدانيّةِ ذاتهِ وصفاتِهِ، دونَ أنْ يشركوا في عبادتِهِ أشخاصًا آخرينَ. فإذا استجابوا لدعوةِ النبيِّ، فذلك ما يُرجى، وإذا أعرضوا ولم يقبلوا بما عُرِضَ عليهمْ، فعلى الأقلِّ ليشهدوا يا محمدُ بأنَّهمْ مسلمونَ ملتَزِمونَ بهذه العقيدةِ التوحيديَّةِ. (٤٠٨)

إنّ قيصرَ قد ردَّ رسولَ النبيِّ مكرَّماً، وأهدى إلى رسولِ اللهِ هديّةً، وزعمَ أنّهُ أسلمَ وآمنَ و أنّه دعا الرومَ إلى أنْ يؤمنوا بالنبيِّ محمدٍ فأبوا. فلمّا جاءَ كتابُ قيصرَ إلى رسولِ اللهِ قالَ: كذبَ عدوُّ اللهِ، إنّه ليس بمسلِمٍ.

وبعثَ النبيُّ كتاباً إلى المُقَوقِسِ وكانَ نصرانيّاً: «بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ منْ محمدٍ بنِ عبدِ اللهِ إلى المقوقِسِ، عظيمِ القِبْطِ: سلامٌ على منِ اتبعَ الهدى. أمّا بعدُ. فإنّي أدعوكَ بدِعايَةِ الإسلامِ، أسلِمْ تسلَمْ، يُؤتِيكَ اللهُ أجرَكَ مرّتَينِ، فإنْ تولّيْتَ فإنّما عليكَ إثمُ القِبْطِ و ﴿قُلْ يا أَهْلَ

---

١ الأريسيين: هم أتباع أريوس أُسقف الإسكندرية الذين كانوا يقولون بالتوحيد الخالص، وأنكروا التثليث، واعتبروا المسيح عبدا من عباد الله المخلصين.

الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴿٦٤﴾ ﴾ (٤٠٩)

أجابَ مَلِكُ مصرَ المقوقِسُ على رسالةِ النبيِّ محمدٍ، بإرسالِ هدايا دونَ أنْ يعتنقَ الإسلامَ. وقد أرفقَ المقوقِسُ رسالةً مع الهدايا تحملُ كلماتٍ: "أكرمتُ رسولَكَ وأرسلْتُ إليكَ خادِمَتينِ لهما مكانةٌ في بلدِ القبطِ العظيمةِ ". وكانتْ تلكُما الخادمتانِ مارِيّةُ وأختُها سيرينُ، وقد أسلمتا بعد ذلكَ، واختارَ النبيُّ محمدٌ ماريّةَ في وقتٍ لاحقٍ وكانتْ أَمَةً عندَهُ.

كما أرسلَ كتابًا إلى النجاشيِّ الثالثِ مَلِكِ الحبشةِ و كتابًا إلى عاملِ الرومِ في إيلياءَ في القدسِ، لكنَّهما رفضا طَلَبَ النبيِّ كما فعلَ هرقلُ وكسرى سابقاً وذلكَ لأنّهمْ كانوا لا يرغبونَ بانتشارِ دينٍ جديدٍ بينَ أقوامِهمْ، حِرصاً منهمْ على مُلْكِهمْ وعدمِ الرغبةِ في إفساحِ المجالِ لمشاركةِ أحدٍ لهمْ فيهِ. (٤١٠)

السنةُ السابعةُ بعد الهِجرَةْ (٦٢٨ ــ ٦٢٩ م)

غَزْوةُ ذاتِ الرِقاعْ

وفي السنةِ السابعةِ قدمَ قادمٌ إلى المدينةِ فأخبرَ أنّ أنماراً، وثعلبةَ، وغطفانَ قد جمعوا جموعاً بقصْدِ غزوِ المسلمينَ. فلمّا بلغَ النبيَّ ذلكَ استخلفَ على المدينةِ أبا ذرٍّ الغِفاريْ، وخرجَ ليلةَ السبتِ في العاشرِ منَ المحَرّمِ في أربعمائةِ رجلٍ، حتى أتى وادي الشقرَةِ. فأقامَ بهِ يوماً، وبَثَّ السرايا، فرجعوا إليهِ مع الليلِ ؛ وأخبروهُ: أنّهمْ لم يروا أحداً. ثمّ سارَ بأصحابهِ حتى أتى مَحالَّهُمْ ؛ فلمّا عاينوا عسكرَهُ، هربوا منَ المسلمينَ، وكرهوا لقاءَهمْ، فاختبأوا في الجبلِ، وتعَلّقوا في قُلَّتِهِ، ولحِقَ بعضُهمْ ببطونِ الأوديَةِ. ولم يبقَ إلاّ نسوةٌ، فجاءَ المسلمونَ فأخذوهُنَّ ولم يكنْ هناكَ قتالٌ. ثمّ انطلقَ النبيُّ عائداً إلى المدينةِ، وبعثَ جُعالًا بنَ سُراقَةَ إلى المدينةِ قبلَهُ مبشِّراً بسلامَتِهِ، وسلامةِ المسلمينَ.

وفي الطريقِ أمسكَ رجلٌ بفَرخِ طائرٍ فأقبلَ أحدُ أبويِّ الطائرِ حتى طَرحَ نفسَهُ بينَ يديْ الشخصِ الذي أخذَ فرخَهُ، فعجِبَ الناسُ من ذلكَ. فقالَ رسولُ اللهِ: أتعجبونَ منْ هذا الطائرِ؟ أخذَتُمْ فرخَهُ، فطرحَ نفسَهُ رحمةً لفرخِهِ. واللهِ، لَربُّكمُ أرحمُ بكم من هذا الطائرِ بفرخِهِ. استخدمَ النبيُّ هذه الحادثةَ لشرحِ رحمةِ اللهِ، وتَرَكَ انطباعًا عميقًا في قلوبِ الناسِ منْ خلالِ هذا التجسيدِ العمليِّ.

كانَ جابرٌ راكبًا على جملٍ بطيءٍ، في آخرِ القومِ ؛ فمرَّ بهِ النبيُّ، فقالَ: مَنْ هذا؟! فقالَ : جابرٌ بنُ عبدِاللهِ. قالَ: فما لكَ؟! قالَ : إنّي على جَمَلٍ بطيءٍ . قالَ : أمعَكَ قضيبٌ؟ قالَ : نعمْ. قالَ

---

١ قلة: أعلى الرأس والجبل وكل شيء.

: اعطِنيهِ. فأعطاهُ للنبيِّ، فضربَ النبيُّ محمدٌ بهِ البعيرَ، وزجرَهُ وإذا بجابرٍ أولُ القومِ. قالَ له النبيُّ: بِعْنِيْهِ. قالَ: بلْ هو لكَ يا رسولَ الله. قالَ: بلْ بِعْنيهِ؛ فقد أخذتهُ بأربعةِ دنانيرٍ، ولكَ ظهرُهُ إلى المدينةِ. ثمّ قال لهُ: يا جابرُ، هل تزوّجْتَ بعدُ؟ قال: نعمْ يا رسولَ اللهِ. قالَ : أثيِّباً أمْ بِكْراً؟ قال : لا، بلْ ثَيّباً. قالَ : أفلا بِكْراً تلاعِبُها وتلاعبُكَ؟. قالَ: يا رسولَ الله، إنّ أبي أُصيبَ يومَ أُحدٍ، وتركَ بناتٍ لهُ سبعَةً؛ فنكحْتُ امرأةً جامعةً تجمعُ رؤوسَهُنَّ، وتقومُ عليهنَّ. فقالَ لهُ الرسولُ: أصبْتَ إنْ شاءَ اللهُ، أما إنّا لو قد جِئْنا صَراراً ، أمرْنا بِجزورٍ؛ فنُحِرَتْ وأقمْنا عليها يومَنا ذاكَ، وسمِعَتْ بنا، فنفَضَتْ نمارِقَها . قالَ: واللهِ يا رسولَ اللهِ ما لنا مِنْ نمارِقَ. قالَ : إنّها ستكونُ ؛ فإذا أنتَ قَدِمْتَ فاعملْ عملاً كَيِّساً. فمشيا ثمّ قالَ لهُ رسولُ اللهِ: يا جابرُ ما فعلَ دَيْنُ أبيكَ؟! فقالَ: انتظرتُ يا رسولَ الله أنْ يَجُذَّ نخْلَهُ. قالَ رسولُ الله: إذا جذذْتَ فأحضِرْنيْ. قالَ: نعمْ. ثم قالَ : مَنْ صاحبُ دَينِ أبيكَ؟ فقالَ : أبو الشحْمِ اليهوديْ لهُ على أبي سقة تمرٍ. فقالَ لهُ رسولُ الله: فمتى تجذُّها؟ قالَ : غداً. قال : يا جابرُ، فإذا جذذْتَها فاعزلِ العجوةَ على حِدَتِها ، وألوانَ التمرِ على حِدتِهِ فلمّا وصلوا صَراراً أمرَ رسولُ اللهِ بجزورٍ فنُحِرتْ، وأقاموا عليها ذلكَ اليومَ، فلمّا أمسى رسولُ الله دخلَ ودخلوا. فرجعَ جابرٌ إلى زوجتهِ بحديثِ رسولِ الله. فقالتْ لهُ: فدونَكَ، سَمْعٌ وطاعةٌ. ولما دخلَ النبيُّ المسجدَ، دخلَ

---

١ صرار: موضع على بعد خمسة كيلومترات من المدينة.

٢ يقصد النبي أن زوجة جابر إذا علمت بقدومه قامت فهيأت البيت لوصوله ووضعت الوسائدة.

٣ النمارق: جمع نُمْرُقَة: وسادة صغيرة يُتّكأ عليها.

٤ الكيّس: هو الفَطِن، الحَسَنُ الفهم.

٥ يجذ نخله: قطع ثمره وجناه.

٦ السقة: السقة جمع وسق، وهو الحمل وقد قُدِرَ بستين صاعاً و الصاع ٢ كغم تقريباً.

جابرٌ إليهِ، فعلَفَ الجملَ في ناحيةِ البلاطِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، هذا جملُكَ. فخرجَ النبيُّ فجعلَ يطوفُ بالجملِ، فقالَ لجابرٍ: الثمَنُ والجملُ لكَ، وأعطاهُ أربعةَ دنانيرَ وزادَهُ قيراطاً. وبعد أنْ جذَّ النخلَ في اليومِ التالي وعزلَ أصنافَها كما أخبرَهُ رسولُ الله وحينَ جاءَ رسولُ الله، أخبرَهُ جابرٌ بما صنعَ، فانطلقَ رسولُ الله ومعه عَلِيَّةُ أصحابهِ، فدخلوا الحائطَ وحضرَ أبو الشحمِ. فلمّا نظرَ رسولُ الله إلى التمرِ مُصنَّفاً، قالَ: اللَّهمَّ بارِكْ لهُ. ثمّ انتهى إلى العجوةِ ؛ فمسَّها وأصنافَ التمرِ بيدِهِ، ثمّ جلسَ وسطها، ثم قالَ: ادعُ غريمَكَ. فجاءَ أبو الشحمِ. فقالَ : اكتَلْ. فاكتالَ حقَّهُ كُلَّهُ منْ حَبْلٍ واحدٍ وهو العجوةُ، وبقيّةُ التمرِ كما هو. ثمّ قالَ : يا جابرُ، هل بقيَ على أبيكَ شيءٌ؟ قالَ: لا. قالَ جابرُ : وبقيَ سائرُ التمْرِ ؛ فأكلنا منهُ دهراً، وبِعْنا، حتى أدركَتِ الثمَرةُ إلى العامِ القادمِ، ولقد كنتُ أقولُ لو بعْتُ أصلَها ما بلغَتْ ما كانَ على أبي منَ الدَينِ.

لم يكنِ الرسولُ بالذي يغفلُ عن تفقّدِ حالِ أصحابهِ، والوقوفِ على أحوالِهِمْ عنْ كَثَبٍ



شكل(٤٧): جابر بن عبد الله مع النبي في طريق العودة.

لِيُشارِكَهُمْ حياتَهمْ حُلوَها ومُرَّها. ويعاملَهمْ بلطْفٍ ورِقّةٍ، ومحبَّةٍ وأريحيَّةٍ ظاهرةٍ، فكانَ يسيرُ مع الناسِ، وفي أواخرِهمْ أحياناً ليسألَ عنهمْ ويتفقّدَ حتى مُعاناتِهمْ الشخصيّةِ و يساعدَهُمْ وينصحَهُمْ. (٤١١)

عُمْرةُ القضاءِ

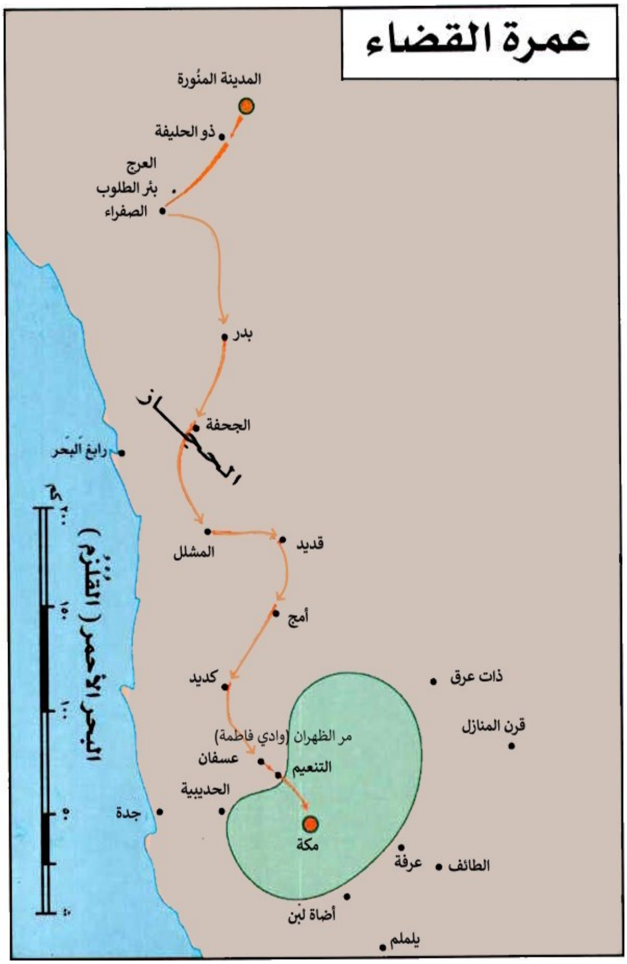
مضى عامٌ على صُلحِ الحُديبيَّةِ الآنَ، وكان النبيُّ قد عاقدَ قريشاً على دخولِ مَكّةَ بعد الحديبيةِ بعامٍ، وليس معهُ من السلاحِ إلا سلاحَ المسافرِ، وهي السيوفُ في القِرَبِ، بشرطِ أنْ لا يقِيمَ بها هو وأصحابُهُ أكثرَ من ثلاثةِ أيامٍ، ويخرجُ في اليومِ الرابعِ، بالإضافةِ إلى شروطٍ أخرى وضعها الرسولُ على قريشٍ في عهدِ الحُديبيَّةِ. فعزمَ النبيُّ بعد سنةٍ من عهْدِ الحديبيّةِ، أنْ يؤدّيَ مناسِكَ العُمرةِ، وِفقَ ما اتُّفِقَ عليهِ.

في أوّلِ ذي القعدةِ سنةَ سبعٍ، أمرَ أصحابَهُ بأنْ يتجهزوا للعمرةِ، وأنْ لا يتخلَّفَ عنهُ أحدٌ ممَّنْ شَهِدَ الحديبيّةَ، فلم يتخلّفْ عنهُ أحدٌ،إلّا مَنْ استُشْهِدَ في خيبرَ، أو ماتَ. وقد انضمَّ إليهمْ جمعٌ ممنْ لم يحضرْ الحديبيّةَ أيضاً، فكان المسلمونَ في العُمرةِ ألفيْنِ. وكانَ جعفرٌ بنُ أبي طالبٍ، ممَّنْ رافقَ النبيَّ، وهو ممّنْ لم يشهَدْ الحديبيّةَ، لأنه كانَ بالحبشةِ آنذاكَ. فقالَ رجلٌ مِنْ حاضرِيْ المدينةِ منَ العربِ: يا رسولَ اللهِ، واللهِ، ما لنا زادٌ، وما لنا أحدٌ يُطعِمُنا. فأمرَ رسولُ اللهِ المسلمينَ أنْ ينفقوا في سبيلِ اللهِ، وأنْ يتَصدَّقوا، وأنْ لا يكفّوا أيديَهُمْ فيهلكوا . فقالوا: يا رسولَ اللهِ، بمَ نتصدَّقُ، وأحدُنا لا يجدُ شيئاً؟! فقالَ: بما كانَ، ولو بشقِّ تمرةٍ. وساقَ رسولُ اللهِ في عمرتهِ تلكَ ستّينَ بُدنَةً[١]، وقلَّدها، ليُعلَمَ أنّها هَدْيٌ وجعلَ عليها مَنْ يرعاها. واستخلفَ على المدينةِ أبا ذرٍّ وحملَ معه السلاحَ، والدروعَ، والرماحَ و جعلَ عليها منْ يحرُسُها.

---

١ البَدَنَة: وهي الناقة أو البقرة تُنحر بمكة، سُمّيت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها. والجمع: بُدْن.

وقادَ النبيُّ معه مائةَ فرسٍ بقيادةِ محمدٍ بنِ مَسلَمةَ، فلما انتهى إلى ذي الحليفةِ قدَّمَ الخيلَ أمامَهُ، فقيلَ: يا رسولَ اللهِ، حملَتْ السلاح، وقد شرطوا أنْ لا ندخلَها عليهمْ بسلاحٍ إلاَّ بسلاحِ



شكل(٤٨): الطريق إلى العُمرة.

المُسافرِ. فقالَ رسولُ الله: لا ندخلُ عليهمْ الحرَمَ بالسلاحِ، ولكنْ يكونُ قريباً منّا، فإنْ هاجَنا هيجٌ منَ القومِ كانَ السلاحُ قريباً منّا.

أحرمَ رسولُ اللهِ من مسجدِ الشجرةِ (ذي الحليفةِ) (أنظر شكل ٤٨) وأحرمَ مَنْ جاءَ معه من المدينةِ. ومضى بالخيلِ محمدٌ بنُ مسلمةَ، فلمّا كان بمرِّالظهرانِ (وادي فاطمةَ) وجدَ نفراً من قريشٍ، فسألوهُ، فقالَ: هذا رسولُ اللهِ يصبّحُ هذا المنزلَ غداً إنْ شاءَ اللهُ، وقد رأوا سلاحاً كثيراً. فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً، فأخبروهُمْ بالذي رأوا منَ الخيلِ والسلاحِ، ففزِعَتْ قريشٌ، وقالوا: ما أحدثنا حَدَثاً، وإنَّا على كتابنا ومدَّتِنا، ففيمَ يغزونا محمدٌ في أصحابِهِ؟! فبعثَتْ قريشٌ مكرزَ بنَ حَفْصٍ في نَفَرٍ من قريشٍ إليه ، فلقوهُ في وادي يأجُجَ (قبلَ التنعيمِ)، فقالوا: واللهِ يا محمدُ، ما عُرِفْتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدرِ، تدخلُ بالسلاحِ في الحَرمِ على قومِكَ، وقد شَرَطتَ عليهم أنْ لا تدخلَ إلا بسلاحِ المسافرِ. فقالَ : إني لا أدخلُ عليهم بسلاحٍ. فقالَ مكرزٌ : هو الذي تُعْرَفُ بهِ البِرُّ والوفاءُ. ثمّ رجعَ مكرزٌ إلى مكّةَ سريعاً، وقالَ : إنّ محمداً لا يدخلُ بسلاحٍ، وهو على الشرطِ الذي شَرَطَ لكم. فلما وصلَ قريشًا خبرُ خروجهِ للعُمرةِ، خرجَ كُبراؤهمْ من مكةَ وفيهمْ خالدٌ بن الوليدِ حتى لا يرونَ النبيَّ يطوفُ بالبيتِ هو وأصحابُهُ، عداوةً وبغضاً وحسداً لرسولِ الله. دخلَ رسولُ الله وأصحابُهُ مكةَ صبيحةَ الرابعِ من ذي الحجّةِ، راكباً ناقتَهُ القصواءَ، وابنُ رواحةَ آخذٌ بزمامها، وأصحابهُ مُحدِقونَ بهِ، قد توشَّحوا السيوفَ وهم يُلبّونَ، ثمّ دخلَ من الثنِيَةِ التي تُطلِعُهُ على الحُجونِ، وهي ثنيَّةٌ كدّاءُ. فقالَ النبيُّ حينَ دخلَ مكةَ: اللَّهمَّ لا تجعلْ مَنِيَّتَنا بها. وجعلَ السلاحَ في بطنِ يأججَ، في موضعٍ قريبٍ من الحَرمِ. وتخلّفَ عند السلاحِ مائتانِ منَ المسلمينَ، ثمّ قضى الذينَ كانوا معهُ مناسكَهمْ، فجاءَ مائتانِ منهم فحلّوا محلَّ أولئكَ، فتمكَّنوا من السعي والطوافِ، وأداءِ مناسِكِهمْ أيضاً. وقعدَ جمعٌ من المشركينَ بجبلِ قينُقاعَ، ينظرونَ إليهِ، وإلى أصحابهِ، وهم يطوفونَ بالبيتِ، وقد قالَ كفّارُ قريشٍ: إنّ المهاجرينَ أوهنَتْهمُ حُمّى يثربَ. فأطلعَ اللهُ نبيَّهُ على ما قالوا، فقالَ رسولُ الله: رِحمَ اللهُ امرأً أراهمْ منْ نفسهِ قوةً، فأمرَ أصحابَهُ أنْ يهرولوا الأشواطَ الثلاثةَ، ليُروا المشركينَ أنّ لهمْ قوةً. ولم يأمرْهُمْ بالهرولةِ في الأشواطِ كلها رِفْقاً بهمْ. فعند ذلكَ قالَ المشركونَ: هؤلاءِ الذينَ زعمْتُمْ أنّ الحُمَّى قد أوهنتْهُمْ؟! هؤلاءِ أجْلَدُ منْ كذا، إنّهمْ ليثِبونَ وثبَ الظبيِ.

انتهى النبيُّ إلى البيتِ وهو على راحلَتهِ، واستلمَ الركْنَ بمِحجَنهِ، وعبدُ الله بنُ رواحةَ آخذٌ بزمامِها، وهو يقولُ :

خَلّوا بنيْ الكفّارِ عنْ سبيلهِ خَلّوا فكلُّ الخيرِ في سبيلِهِ

يا ربُّ إنّي مؤمنٌ بقِيلِهِ أعرفُ حقَّ اللهِ في قَبولِهِ

نحنُ ضربْناكُمْ على تأويلِهِ كمَا ضربْناكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

ضرباً يزيلُ الهامَ عنْ مقيلِهِ ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

لكنّ عمرَ بن الخطابِ لم يعجبْهُ ذلكَ فقالَ غاضباً: يا بنَ رواحةَ! بينَ يديْ رسولِ اللهِ، وفي حَرمِ اللهِ تقولُ الشِّعرَ؟! فأسكتَهُ رسولُ اللهِ وقالَ: يا عمرُ، إنّي أسمعُ. ونَحَرَ رسولُ اللهِ بينَ الصفا والمروةَ. وحلقَ خراشٌ بنُ أميةَ رأسَ رسولِ الله عند المروةِ. واضطبَعَ بردائهِ، وكشفَ عضدَهُ اليمنى، ففعلَتْ الصحابةُ كذلكَ. ولمّا قضى رسولُ اللهِ نُسكَهُ دخلَ البيتَ، فلم يزلْ فيه حتى أذّنَ بلالٌ بالظهرِ فوقَ ظَهرِ الكعبةِ، امتثالاً لأمرِ رسولِ الله. كانَ القريشيّونَ يشعرونَ بالألمِ الشديدِ وهم يرونَ بِلالاً الأسودَ، المولى، الفقيرَ، والحبشيَّ الغريبَ؛ يرونَهُ فوقَ الكعبةِ، وهي أعظمُ ما يعتزّونَ بهِ. فقالَ عِكرمَةُ بنُ أبي جهلٍ: لقد أكرمَ اللهُ أبي، حيثُ لم يسمعْ هذا العبدَ يقولُ ما يقولُ. وكذلكَ قالَ صفوانُ بنُ أميةَ. وقالَ خالدٌ بنُ أسيدٍ: الحمدُ للهِ الذي أماتَ أبي، ولم يشهدْ هذا اليومَ، حينَ يقومُ بلالٌ بنُ أمِّ بلالٍ ينهقُ فوقَ الكعبةِ. وأمّا سهيلٌ بنُ عمرو، ورجالٌ معهُ، فحينَ سمعوا ذلكَ غطّوا وجوهَهمْ. وقالَ خالدٌ بنُ سعيدٍ بنِ العاصِ: الحمدُ للهِ الذى أكرمَ أبي فلم يدركْ هذا اليومَ. وقالَ الحارثُ بنُ هشامٍ: وا ثُكْلاهُ! ليتنى مِتُّ

---

١ المِحْجَنَة: المِحْجَن، كلّ شيء مُعْوجَّ الرَّأس كالصَّولجان.

٢ اضْطَبَع بالثوب ونحوه: تَأَبَّط به.

قبلَ هذا اليومِ، قبلَ أنْ أسمعَ بِلالاً ينهقُ فوقَ الكعبةِ! وقالَ الحَكَمُ بنُ أبى العاصِ: هذا واللهِ الحَدَثُ العظيمُ، أنْ يصيحَ عبدُ بنيْ جُمَحٍ، يصيحُ بما يصيحُ بهِ على بيتِ أبي طلحَةَ.

وقد طلبَ رسولُ اللهِ منَ المشركينَ أنْ يسمحوا لهُ بأنْ يدخلَ الكعبةَ، فأبوا، وقالوا: لم يكنْ في شرطِكَ. وكانَ النبيُّ محمدٌ يكايدُهمْ كلمّا استطاعَ، وأقامَ هو وأصحابُهُ ثلاثةَ أيامٍ. وبعد انتهاءِ عُمرةِ القضاءِ خطبَ جعفرٌ بنُ أبي طالبٍ لرسولِ الله ميمونَةً بنتَ الحارثِ الهلاليَّةَ وكانتْ آخرَ زوجاتهِ. لمّا علِمَتْ ميمونةُ بأمرِ الخِطبةِ وكانتْ على بعيرها، قالتْ: البعيرُ وما عليهِ للهِ ولرسولهِ، وكانَ رسولُ اللهِ يريدُ الزواجَ بها في مكّةَ. فلمّا تمّتْ الثلاثةُ التي هي أمدُ الصُلحِ، جاءَ حويطبُ بنُ عبدِ العُزّى، ومعهُ سهيلٌ بنُ عمرو إلى رسولِ الله، وهو في مجلسٍ منْ مجالسِ الأنصارِ، يتحدّثُ مع سعدٍ بنِ عبادةَ، فقالا: قد انقضى أجلُكَ، فاخرجْ عنّا. فقالَ : وما عليكُمْ لو تركتموني، فأعرسْتُ بين أظهُرِكمْ، فصنعْتُ لكم طعاماً؟ فقالا: لا حاجةَ لنا في طعامِكَ، نناشدُكَ اللهَ، والعقدَ إلاّ ما خرجْتَ منْ أرضنا، فقد مضَتْ الثلاثُ، وكانَ النبيُّ لم يدخلْ تحتَ سقفِ بيتٍ منْ بيوتِ مكةَ، بلْ ضُرِبَتْ لهُ قُبّةٌ من أدمٍ بالأبطحِ، بقيَ فيها إلى أنْ خرجَ منْ مكةَ. فغضِبَ سعدٌ بنُ عبادةَ، لما رأى منْ غِلْظةِ كلامِهمْ للنبيّ، فقالَ لسهيلٍ: كذبْتَ، لا أمَّ لكَ، ليستْ بأرضِكَ، ولا أرضِ أبيكَ. واللهِ، لا يبرحُ منها إلاّ طائعاً راضياً. فتبَسّمَ رسولُ الله، ثم قال: يا سعدُ، لا تؤذِ قوماً زارونا في رحالِنا. ثم أمرَ النبيُّ بالرحيلِ، وقالَ: لا يُمسيَنَّ بها أحدٌ منَ المسلمينَ، وركبَ حتى نزلَ سرفًا، وجاءَ جميعُ الناسِ معهُ ثم جاءتْ الخيلُ، وجاؤوا بالسلاحِ الذي كانَ ببطنِ يأجُجَ، ولحقوا برسولِ الله ثم سارَ النبيُّ ليلاً منْ سرفٍ حتى قدِمَ المدينةَ.(٤٩٤)

وكانَ لما انصرفَ رسولُ الله من الحديبيّةِ، لم يبقَ أحدٌ من خزاعةَ إلاّ وقد أسلمَ مصدقاً بالنبيّ، فكتبَ لهم رسولُ الله كتاباً جاءَ فيه: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، منْ محمدٍ رسولِ اللهِ إلى بديلٍ، وبِشْرٍ، وسرواتِ بني عمرو.

سلامٌ عليكم، فإني أحمدُ اللهَ إليكمْ، اللهُ لا إلهَ إلا هو. أمّا بعدُ. فإنّي لم آثَمْ بإلّكُمْ ولم أضعْ في جنبِكمْ. وإنَّ أكرمَ تُهامَةَ عليَّ أنتُمْ وأقربَهمْ رحِماً أنتُمْ، ومَنْ تبعَكمْ منَ المطيّبينَ. فإني قد أخذتُ لمَنْ قد هاجرَ منكمْ مثلَ ما أخذتُ لنفسي-ولو هاجرَ بأرضهِ-غيرَ ساكنٍ مكّةَ إلاّ معتمراً، أو حاجّاً وإني لمْ أضعْ فيكُمْ إذْ أسلمْتُمْ، و إنّكمْ غيرُ خائفينَ منْ قِبَلي، ولا مخفِرينَ.

إنّ هذا الكتابَ أظهرَ ما كانَ يكنّهُ النبيُّ محمدٌ لهؤلاءِ الناسِ الأوفياءِ، منْ محبّةٍ واحترامٍ وتقديرٍ إذْ إنّه جعلَ عدمَ سُكنى مكةَ، والبقاءَ في الأرضِ بمنزلةِ الهجرةِ، منْ حيثُ الثوابِ، ومنْ حيثُ سائرِ الامتيازاتِ التي تُعطى للمهاجرِ، تعطى لهذا المقيمِ.(٤٩٥)

حادِثةُ الكِساءْ

وفي هذه السنةِ دخلَ رسولُ اللهِ على زوجتهِ أمِّ سلَمَةَ مرّةً وكانتْ ابنتُهُ فاطمةُ عندها. فسلَّمَ ثمّ قالَ: يا فاطمةُ، إنّي أَجِدُ في بَدَني ضَعفاً، فَقالتْ فاطمةُ لَهُ: أُعِيذُكَ باللّهِ يا أَبَتاهُ مِنَ الضَّعفِ فَقَالَ: إيتيني بِالكِساءِ اليَمانِيِّ فَغَطّيِني بهِ.

فأتتْهُ بِالكِساءِ اليَمانِيّ فغطَّتْهُ بِهِ وهي تتطلّعُ إلى وجههِ مذهولةً يتلألأُ كأنّهُ البدرُ في تمامِهِ. ثمّ أتتْ فاطمةُ لهُ بإناءٍ بهِ بعضُ الحَساءِ. فقالَ لها: ادعِ زوجَكِ وابنَيكِ فجاءَ عليٌّ و الحسنُ والحسينُ وسلموا على رسولِ اللهِ وجلسوا معهُ يأكلونَ من ذلكَ الحَساءِ وجلسَتْ فاطمةُ معهمْ، فأخذَ رسولُ اللهِ فضْلَ الكساءِ فغشَّاهمْ بهِ، ثمّ أخرجَ يدَهُ فألوى بها نحوَ السماءِ ثمّ قالَ: اللَّهمَّ

---

١ الإل: العهد، والمعنى: لم أخن عهدكم فآثم.

٢ أي لم انتقص من قدركم.

٣ أي لم أسرع.

٤ مخفرين: أي منقوضي العهد.

٥ الكِساء: اللباس، والغطاء.

إنّ هؤلاءِ أهلُ بيتيْ وخاصتي فأَذهِبْ عنهمُ الرجسَ، وطَهِّرهم تطهيراً. هنا نزلَ جبريلُ وقالَ: العليُّ الأعلى يُقرِئُكَ السلامَ ويقولُ إنّيْ ما خلقْتُ سماءً مَبنيَّةً ولا أرضاً مدحيّةً ولا قمراً منيراً ولا شمساً مضيئةً ولا فَلَكاً يدورُ ولا بحراً يجري ولا فلَكاً يسريْ إلاّ لأجلِكمْ ومحبّتِكمْ، وقد أذنِ ليْ أنْ أدخلَ معكمْ، فهلْ تأذنُ ليْ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ: وعليكَ السلامُ يا أمينَ وحيِ اللهِ، إنّهُ نعمْ قد أذنْتُ لكَ. فدخلَ جبرائيلُ معهمْ تحتَ الكِساءِ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ :﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٤١٢) وأهلُ البيتِ هم محمدٌ وعليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ، فاللهُ أرادَ لأهلِ هذا البيتِ أنْ يُطهّرَهمْ ويُنزّهَهُمْ ويعصِمَهمْ منْ كلِّ الذنوبِ والمعاصي.



شكل(٤٩): النبي يغطي أهل بيته بالكساء.

وكانتْ أمُّ سلَمَةَ تصلّي في الحُجْرةِ، فسمعَتْ ما يجري فأرادَتْ أنْ تكونَ معهمْ، فجاءتْ إلى الحجرةِ التي اجتمعوا فيها ثمّ أقبلَتْ ورفعَتْ الكساءَ لتدخُلَ معهمْ، وقالتْ: وأنا معكمْ يا رسولَ اللهِ؟ فجذَبَهُ منْ يدها رسولُ اللهِ ولم يسمحْ لها بالدخولِ معهمْ وقالَ لها: إنّكِ إلى خيرٍ إنّكِ إلى خيرٍ. وبهذه المناسَبةِ سمُّوا أولئكَ النفَرَ الذينَ اجتمعوا تحتَ الكساءِ بأصحابِ الكِساءِ.(٤١٣)

السنةُ الثامنَةُ بعد الهجرةْ (٦٢٩ – ٦٣٠ م)

وفي سنةِ ثمانيةٍ للهجرةِ جاءَ خالدٌ بنُ الوليدِ وعمرو بنُ العاصِ إلى رسولِ اللهِ وأعلَنا إسلامَهما وكانا يُعتبَرانِ منْ أكابرِ قريشٍ وقاداتها. (٤١٤)

غَزْوةُ مُؤتَةْ

ثمّ في نفسِ السنةِ بعثَ رسولُ اللهِ أوّلَ رسولٍ إلى خارجِ الجزيرةِ العربيةِ، وداخلِ الأراضي الشاميّةِ، التابعةِ للرُومِ. وهو الحارثُ بنُ عميرٍ الأزْدِيْ حيثُ بعثَهُ إلى مَلِكِ بُصرى بكتابٍ، فلمّا نزَلَ مُؤتَةَ، أوقفَهُ شُرحبيلُ بنُ عمرو الغسانيُّ، وهو منْ أمراءِ قَيْصَرَ على الشّامِ، فقالَ: أينَ تريدُ؟ قالَ الحارثُ: الشّامَ. قالَ : لعلّكَ منْ رُسلِ محمدٍ؟ قالَ : نعمْ، أنا رسولُ رسولِ اللهِ . فأمرَ بهِ، فأُوثِقَ رِباطاً، ثمّ قدَّمَهُ، فضربَ عنقَهُ صبراً. ولم يُقتَلْ لرسولِ اللهِ رسولٌ غيرُهُ. فبلغَ رسولَ اللهِ الخبرُ،فحِزنَ وتأثَّرَ كثيراً، وندَبَ الناسَ، وأخبرَهمْ بمقتلِ الحارثِ، ومَنْ قتلَهُ. فأسرعَ الناسُ وخرجوا فعسكروا بالجُرفِ، ولم يبيِّنْ رسولُ اللهِ الأمرَ وما يُخطِّطُ لهُ. والجُرْفُ يقعُ على بُعدِ ما يُقاربُ الخمس مائةَ كيلومترٍ منْ المدينةِ نحو الشّامِ، وخرجَ النبيُّ في إثرِهمْ، وصلّى الظهْرَ بالمسلمينَ في ذلكَ الموضِعِ، ثمّ عَيَّنَ أُمراءَ الجيشِ. وعقدَ لهمْ رسولُ اللهِ لواءً أبيضَ، ودفعهُ إلى جعفرٍ بنِ أبي طالبٍ. وقالَ لهمْ: إنْ أُصيبَ جعفرٌ، فأميرُكمْ زيدٌ بنُ حارثةَ، فإنْ أُصيبَ زيدٌ فأميرُكمْ عبدُ اللهِ بنُ رُواحةَ. ثمّ خرجَ رسولُ اللهِ مُشيّعاً للجيشِ المُتّجهِ إلى مؤتةَ حتى بلغَ ثنيَّةَ الوداعِ، فوقَفَ ووقفوا حولَهُ، فقالَ: "أوصيْكُمْ بتقوى اللهِ، وبمَنْ معكمْ منَ المسلمينَ خيراً. اغزوا باسمِ اللهِ، في سبيلِ اللهِ مَنْ كفرَ باللهِ. لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيتُمْ عدوَّكمْ منَ المشركينَ فادعوهُمْ إلى إحدى ثلاثٍ، فأيَّتُهُنَّ أجابوكُمْ إليها فاقبلوا

---

١ تقع مدينة بصرى على بعد حوالي ١٤٠ كيلومتراً جنوب دمشق، وهي معروفة بآثارها الرومانية بما في ذلك مدرج المسرح الشهير.

٢ مؤتة: موضع معروف عند الكرك بالأردن.

منهمْ، وكفُّوا عنهمُ الأذى؛ ادعوهُمْ إلى التحوّلِ منْ دارِهمْ إلى دارِ المهاجرينَ، فإنْ فعلوا فأخبرِوهمْ أنّ لهمْ ما للمهاجرينَ، وعليهِمْ ما على المهاجرينَ. فإنْ أبوا أنْ يتحولوا منها، فأخبِروهمْ أنّهمْ يكونونَ كأعرابِ المسلمينَ، يجري عليهِمْ حكمُ اللهِ الذي يجري على المؤمنينَ، ولا يكونُ لهمْ في الغَنيمَةِ والفيءِ شيءٌ إلاّ أنْ يجاهدوا معَ المسلمينَ. فإنْ هم أبوا فَسلُوهُمُ الجِزْيَةَ، فإنْ فعلوا فاقبلوا منهُمْ، وكفُّوا عنهُمْ. فإنْ همْ أبوا فاستعينوا باللهِ عليهِمْ وقاتِلوهمْ. وإنْ حاصرتُمْ أهلَ حِصنٍ أو مدينةٍ فأرادوكُمْ أنْ تجعلوا لهمْ ذِمَّةَ اللهِ وذمّةَ رسولهِ، فلا تجعلوا لهمْ ذمّةَ اللهِ، ولا ذِمّةَ رسولهِ، ولكنْ اجعلوا لهمْ ذِمّتَكمْ، وذمّةَ آبائكُمْ، إنْ تخفروا ذِممَكمْ وذمِمَ أصحابِكمْ أهونُ منْ أنْ تخفروا ذِمّةَ اللهِ وذِمّةَ رسولهِ. اغزوا باسمِ اللهِ، فقاتلوا عدوَّ اللهِ وعدوَّكمْ بالشّامِ، وستجدونَ رجالاً في الصوامعِ معتزلينَ الناسَ، فلا تعرضوا لهمْ، وستجدونَ آخرينَ للشيطانِ فـي رؤوسِهِمْ مفاحِصُ فافلقوها بالسيوفِ. لا تقتلوا امرأةً، ولا صغيراً ضَرعاً، ولا كبيراً فانياً، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بيتاً."(٤١٥)

---

١ أخْفَرَ: نقضَ عهدَهُ وغدر به.

٢ صوامع: جمع صومعة، وهي مكان عبادة الرهبان من النصارى.

٣ للشيطان في رؤوسهم مفاحص: أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص، كما تستوطن القطا مفاحصها. والقطا: هو نوعٌ من اليمام يُؤْثِرُ الحياةَ في الصحراء ويحفر الأرض لوضع بيوضه كالعش على الشجرة، وتسمى الحفرة التي حفرها الطائر بالمفحص وجمعها مفاحص.



شكل(٥٠): صورة تخيلية لعبد الله بن رواحة.

إنّ النبيَّ كانَ يرصدُ كلَّ تحرّكاتِ أعدائهِ و كانَ على علمٍ بمخطّطاتِ الرومِ الاستعماريةِ في المنطقةِ وكانَ على علمٍ تامٍ بجموعِ الرومِ المحتشدةِ، وبمقاصدِهمْ منَ الانقضاضِ على منطقةِ الحجازِ بأسرها، و القضاءِ على دعوةِ الإسلامِ ولربما احتلالُ جزيرةِ العربِ كلِّها. فكانَ الواجِبُ على المسلمينَ أنْ يمنعوا ذلكَ الجيشَ العظيمَ منَ الزحْفِ نحو المدينةِ.

لمّا ودَّعَ رسولُ اللهِ عبدَ اللهِ بنَ رواحةَ، قالَ ابنُ رواحةَ: يا رسولَ اللهِ، مُرْنيْ بشيءٍ أحفظُهُ عنكَ. قالَ : إنّكَ قادمٌ غداً بلداً؛ السجودُ فيهِ قليلٌ، فأكثِرِ السجودَ. قالَ عبدُ اللهِ بن رواحةَ: زِدْنيْ يا رسولَ اللهِ. قالَ: إذكُرْ اللهَ، فإنّهُ عونٌ لكَ على ما تطلبُ. فقامَ منْ عندهِ حتى إذا مضى ذاهباً رجعَ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ، إنّ اللهَ وِتْرٌ يحبُّ الوتْرَ. فقالَ : يا بنَ رواحةَ، ما عَجِزْتَ، فلا تعجزنَّ إنْ أسأْتَ عشراً أنْ تُحسِنَ واحدةً. قالَ ابنُ رواحةَ : لا أسألُكَ عنْ شيءٍ بعدها.

لقد كان عددَ المسلمينَ ذلكَ اليومِ لا يتجاوزُ ألفاً وخمسمائةً لكنّ النبيَّ أرسلَ في العربِ ينذِرُهمْ بخطَرِ الرومِ، ويستنفِرُهمْ إلى الشّامِ ممّا زادَ عددَ الجيشِ إلى الثلاثَةِ آلافٍ.

فتجهَّزَ الناسُ للحربِ، ثمّ تهيأوا للخروجِ، فودّعَ الناسُ أُمراءَ رسولِ اللهِ وسلّموا عليهمْ. وبكى عبدُ اللهِ بنَ رواحةَ. فقالوا : ما يُبكيكَ يابنَ رواحةَ؟. فقالَ : أما واللهِ، ما بيْ حبُّ الدنيا، ولا

صَبابَةٌ بكمْ، ولكنّيْ سمعْتُ رسولَ اللهِ يقرأُ آيةً من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ يذكرُ فيها النارَ : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ۝﴾(٤١٦). فلستُ أدري كيفَ ليْ بالصّدْرِ بعدَ الورودِ؟ فقالَ المسلمونَ : صَحِبَكُمُ اللهُ، ودفعَ عنكم، وردَّكمْ إلينا صالحينَ.

مِنَ القادةِ الثلاثةِ كانَ جعفرٌ وزيدٌ أقوى منْ ابنِ رواحةَ على مواجهَةِ هذا الأمرِ وأنفذَ بصيرةً منهُ وأثبتَ جأشاً. فجاءتْ وصِيّةُ رسولِ اللهِ لهُ لتعطيهِ شحناتٍ روحيَّةً قويةً، تُخوّلُهُ إنجازَ مهمّةٍ بالغةِ الحساسيّةِ. فأخبرَهُ أنّ عليهِ أنْ لا يعتمدَ على قدراتهِ الذاتيّةِ، لأنّ نفسَهُ قد تخذُلُهُ في أحرجِ اللحظاتِ. ولا علاجَ لهذا الأمرِ إلاّ بذكرِ اللهِ الذي تشعرُ هذه النفسُ بهيْمَنتِهِ عليها، وبمالكيّتِهِ لها، وبأنّهُ هو الحافظُ، وهو المدبّرُ لها والرحيمُ والرؤوفُ بها. وأنْ لا يستسلمَ للشعورِ بالعجزِ في مواجهةِ تمرُّداتِ نفسهِ المتكررةِ، وأنّ عليهِ أنْ يعيدَ المحاولةَ مرّاتٍ ومراتٍ، حتى لو بلغَتْ عشراً، فإنّ الإخفاقَ في ذلكَ كلِّهُ لا يمنعُ منَ النجاحِ مرّةً واحدةً بعدها، ليكونَ في هذه المرّةِ الفوزُ العظيمُ.

كانتْ الحروبُ الجاريةُ بينَ الإمبراطوريَّتينِ البيزنطيّةِ والفارسيّةِ في الفترةِ بينَ سنةِ ٦٠٢ إلى سنةِ ٦٢٨ ميلاديّةً، قد أرهقَتْ الطرفانِ منْ دونِ تغييرِ مساحةِ كِلتا الإمبراطوريَّتينِ. وفي سنةِ ٦٢٩ ميلاديةً حدثَتْ معركةُ مؤتَةَ حيثُ كانَ عددُ الجنودِ الرومِ يُقدَّرُ بعشرةِ آلافِ مقاتل (٤١٨). معسكرينَ في البلْقاءِ قد انضمَّتْ إليهمْ بعضُ القبائلِ العربيةِ المواليةِ للرومِ. فمضى المسلمونَ حتى إذا كانوا بتُخومِ البلقاءِ ثمّ دنا العدوُّ وانحازَ المسلمونَ إلى قريةٍ يقالُ لها مؤتَةُ

---

١ الصّدر والصُّدور: الانصراف عن المكان أو الماء. والورود: الحظور إلى مكان أو إلى الماء.

٢ كان عبد الله بن رواحة يقصد بكلامه الآيتين من سورة مريم: (وإن منكم إلاّ واردها كان على ربّك حتماً مقضياً ۝ ثمّ ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) وتعني: ما من احد منكم أيها الناس - متق او ظالم- الا سيحظر ويشرف ويرى النار يوم القيامة، وهذا الايراد أمراً أكيداً مقضيا على ربك، ثم ينجي الله الذين اتقوا منها ونترك الظالمين فيها لظلمهم باركين علي ركبهم. وقد رُوي عن االنبي محمد أنه قال حول هذه الآية: يرد الناس النار ثم يصدرون عنها، باعمالهم، فاولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب في رحله ثم كشد الرجل ثم كمشيه. فأبن رواحة أبدى قلقه، النابع من إيمانه، أن لا ينصرف من ذلك المشهد بسبب أعماله. (٤١٧)

فتعبَّأَ الجيشُ الرومانيُّ لهم هناكَ بقيادةِ ثيودورْ - أخُو الأمبراطورْ هِرقِلْ – حيثُ كانَ على علْمٍ بتحرُّكاتِ الجيشِ الإسلاميّ منْ خلالِ جواسيسِهِ، فكمنوا لجيشِ المسلمينَ، وعند وصولِ الجيشِ الإسلاميّ لمؤتَةَ، أخذوهُمْ على حينِ غفْلَةٍ، فأرتَبكَ الجيشُ وتزعزعَتْ وحداتُهُ واشتبَكَ الجيشُ الروميُّ مع المقدّمَةِ التي فيها القادةُ الثلاثةُ واقتتلوا قتالاً شديداً (٤١٩).

في البدْئِ كانتْ الرايةُ بيدِ جعفرٍ بنِ أبي طالبٍ فقاتلَ بها حتى قُطعَتْ يمينُهُ، فأخذَ الرايةَ بيسارهِ، فقُطعَتْ يسارُهُ، فاحتضنَ الرايةَ لإبقاءها مرفوعةً ليراها المسلمونَ، ويواصلوا القتالَ أطولَ وقتٍ ممكنٍ، وحينَ قُتِلَ أخذَ الرايةَ زيدٌ بنُ حارثةَ فقاتلَ حتى قُتِلَ فأخذَ الرايةَ عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ، ثمّ تقدّمَ بها وهو على فرسِهِ، فجعلَ يستنزِلُ نفْسَهُ ويتردّدُ بعضَ الشيءِ ثمّ ألقاها منْ يدهِ، ثمّ أخذَ سيفَهُ، ثمّ تقدّمَ فقاتلَ حتى قُتِلَ. ووقعَ اللواءُ منْ يدهِ، فاختلطَ المسلمونَ والمشركونَ، وانهزمَ بعضُ الناسِ، فجعلَ قطبَةُ بنُ عامرٍ يصيحُ: يا قومُ يُقتَلُ الرجلُ مقبلاً أحسنَ مِنْ أنْ يُقتلَ مُدبِرًا. وبعد أنْ استُشهِدَ عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ بادرَ خالدٌ بنُ الوليدِ فأخذَ الرايةَ وانهزمَ بها وتبِعَهُ سائرُ الناسِ فكانتْ الهزيمةُ، وقُتِلَ منْ المسلمينَ اثنا عشرَ رجلاً، وأتبعُهُمُ المشركونَ.

كانَ رسولُ اللهِ قد وصفَ لأصحابِهِ في المدينةِ ما كانَ يجري في مؤتَةَ لحظَةَ وقوعِها. فقالَ: إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ رفعَ ليَ الأرضَ حتى رأيْتُ معتَرَكَهمْ. لمّا أخبرَ النبيُّ الناس بقتلِ القادةِ الثلاثةِ بكى أصحابُ رسولِ اللهِ، وهمْ حولَهُ، فقالَ لهمُ النبيُّ: وما يُبكيكُمْ؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي، وقد ذهبَ خيارُنا وأشرافُنا، وأهلُ الفضلِ منّا؟! فقالَ لهمْ: لا تبكوا، فإنما مَثَلُ أُمّتيْ كمثلِ حديقةٍ قامَ عليها صاحبُها، فأصلحَ رواكِبها، وبنى مساكنَها، وحَلَقَ سَعْفَها، فأطعمَتْ

---

١ في النخل: إذا كانتِ الفَسِيلة في الجِذْعِ و لم تكن مُسْتَأْرِضةً، فهي من خَسِيسِ النَّخْلِ، و العرب تُسَمِّيها الرَّاكِبَ.

عاماً فَوجاً، ثمّ عاماً فوجاً، ثمّ عاماً فوجاً. فلعلَّ آخرها طَعْماً أنْ يكونَ أجودَها قِنواناً، وأقومَها شِمْراخاً! والذي بعثني بالحقِّ نبيّاً، ليجدنَّ عيسى بنُ مريمَ في أُمّتيْ خَلَفاً منْ حُواريهِ.

حينَ اقتربَ الهاربونَ بقيادةِ خالدٍ منَ المدينةِ لقيَهمُ الصبْيانُ مسرعينَ، ورسولُ اللهِ مقبلٌ معَ القومِ على دابةٍ، فقالَ النبيُّ: خذوا الصبْيانَ فاحمِلوهمْ، واعطوني ابنَ جعفرٍ، فتلقّاهُمْ رسولُ اللهِ والمسلمونَ، وجعلَ الناسُ يَحْثُونَ على الجيشِ الترابَ، ويقولونَ: يا فُرَّارَ فررْتُمْ في سبيلِ اللهِ! فقالَ رسولُ اللهِ: ليسوا بالفُرّارِ ولكنّهمُ الكُرّارُ إنْ شاءَ اللهُ. ولقيَهمْ أهلُ المدينةِ بالتأنيبِ الشديدِ، حتى إنّ الرجلَ لينصَرفُ إلى بيتهِ وأهلِهِ، فيُدَقُ عليهمُ البابُ، فيأبى أنْ يفتحَ لهمْ، فيقولونَ لهُ: ألا تقدّمْتَ معَ أصحابِكَ؟ فأمّا مَنْ كانَ كبيراً منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ، فجلسَ في بيتهِ استِحياءً، حتى جعلَ النبيُّ يُرسلُ إليهمْ رجلاً رجلاً، يقولُ: أنتمُ الكُرّارُ في سبيلِ اللهِ! فخرجوا ورسولُ اللهِ حاضرٌ وناظرٌ، لا يلومُ أحداً على فعلهِ، ولا يُظهِرُ تغيُّظاً، لأنّ النبيَّ أرادَ معالجةَ سلبِيّاتِ الهزيمةِ بالتخْفيفِ والمُسامحَةِ.

يُعتَبرُ الفِرارُ في المعركةِ أمامَ العدوّ المُتقَدِّمِ حَسْبَ القرآنِ أمرًا غيرَ جائزٍ، فعلى المسلمينَ الصمودُ والمواجَهَةُ، ومَنْ يفرُّ منَ المعركةِ منهزماً فسوفَ يعودُ بغضبِ اللهِ وعقابٍ منهُ ثمّ سيكونُ مصيرُهُ إلى النارِ، ويُستثْنى منْ هذا الأمرِ؛ المقاتلونَ الذينَ يُغيّرونَ مواقِعَهُمْ لغرضِ مراوغَةِ العدوّ أو مَنْ يخرجُ منْ موقعِهِ ليذهبَ إلى جماعةٍ أو فئةٍ ليستنْجَدَ بهمْ أو يُنجدَهُمْ، وهذه الحقيقةُ كانتْ واضحةً لدى المسلمينَ في المدينةِ، فالجميعُ يعلمُ ماذا يعنيْ الفَرارُ في الحربِ.(٤٢٠) لذلكَ اعتبرَ رسولُ اللهِ الفارّينَ كأنّهمْ قد تحيَّزوا إلى فئةٍ حتى لا يكونوا منَ الفُرَّارِ وتشملُهمُ الآيةُ القرآنيّةُ، فقالَ لهمُ النبيُّ: وأنا فِئتُكُمْ. أيْ أنّهُ اعتبرَهمْ تحيّزوا إلى فئةٍ في الحربِ وهي رسولُ اللهِ. ولقد قالَ ذلكَ لهمْ على سبيلِ التَشْبيهِ والتنزيلِ والمَجازِ تخفيفاً

---

١ قنوان: أعذاق وعراجين كالعناقيد في النخلة.

٢ الشمراخ: وهو الغصن عليه تمر أو عنب.

عليهمْ، لا على سبيلِ الحقيقةِ، إذْ ليس في ظاهرِ حالِهمْ حينَ فرارِهمْ ما يدلُّ على أنّهمْ كانوا يقصدونَ بهذا الفرارِ التحيُّزَ إلى فئةٍ، بلْ كانَ هَمُّهُمُ النجاةَ بأنفُسِهِمْ وحَسْبٌ.

ثمّ دخلَ رسولُ اللهِ على أسماءَ بنتِ عُميسٍ زوجةِ جعفرٍ ، فقالَ: إيتينِيْ بِبَنِيّ جعفرٍ. فأتتْهُ بهمْ فضمَّهمْ، وشمَّهمْ، وذرفَتْ عيناهُ، فقالتْ: يا رسولَ اللهِ بأبيْ أنتَ وأميْ، ما يُبكيكَ؟ أبلغَكَ عنْ جعفرٍ وأصحابِهِ شيءٌ؟ قالَ وهو يبكيْ: نعمْ أُصيبوا هذا اليومَ. فقامَتْ تصيحُ. واجتمعَ إليها النساءُ. فجعلَ رسولُ اللهِ يقولُ :يا أسماءُ، لا تقولي هُجْراً، ولا تضربيْ صدراً. فخرجَ رسولُ اللهِ حتى دخلَ على ابنتهِ فاطمةَ وهي تقولُ: وا عماهُ! فقالَ: على مِثْلِ جعفرٍ فلتبكِ الباكيَاتُ، ثمّ قالَ: اصنعوا لآلِ جعفرٍ طعاماً، قد شُغلوا عنْ أنفُسِهِمْ اليومَ. ثمّ جاءَ جمعٌ منَ المسلمينَ فيهمْ خالدٌ بنُ الوليدِ وسعدٌ بنُ عبادةَ إلى رسولِ اللهِ ، فَجَهَشَتْ بنتُ زيدٍ بنِ حارثةَ في وجهِ رسولِ اللهِ، فبكى حتى انتحَبَ. فقالَ لهُ سعدٌ بنُ عبادةَ : يا رسولَ اللهِ، ما هذا؟! قالَ: هذا شوقُ الحبيبِ إلى حبيبِهِ.

كانتْ خطّةُ رسولِ اللهِ في مؤتةَ تقضي بالمقاومةِ، حتى استشهادِ القادةِ، ثمّ تتواصلُ الحربُ ويصمدُ جيشُ المسلمينَ، ولو ساعةً واحدةً ليُدرَكَ قادةُ جيشِ الرومِ، وعلى رأسِهمْ الأمبراطورُ الرومانيُّ الخبيرُ بأمورِ الحربِ، أنّ الحربَ معَ المسلمينَ لا نهايةَ لها، فلا بُدَّ منْ حسابِ الأمورِ بطريقةٍ أخرى تحملُ في طيّاتها، التَراجُعَ وإيقافَ الحربِ، وإعادةَ النظرِ في أمرِ هذا الدينِ وإعادةِ حساباتِهمْ تجاهُهُ، بلْ ربّما يفكّرُ في دراسَةِ تعاليمِهِ وحقائقِهِ. (٤٢١)

---

١ الهُجْرُ: الهذَيانُ والقبيحُ من القول.

٢ أي رفع صوته بالبكاء.

مؤامرةٌ في بيتِ النبيِّ

كانتْ لزوجاتِ النبيِّ مكانةٌ خاصةٌ في المجتمعِ الإسلاميِّ إذْ اعتبرَ الإسلامُ أنّ زوجاتِ النبيِّ كأُمّهاتٍ لكلِّ المؤمنينَ، ولأجلهِ اكتسبَتْ أزواجُهُ منزلةَ واحترامَ الأُمِّ. وهي بالتأكيدِ أُمومةٌ معنويّةٌ وروحيّةٌ، كما أنّ النّبيَّ أبٌ روحيٌّ ومعنويٌّ للأُمّة. (٤٢٢)

إنّ تأثيرَ هذا الارتباطِ المعنويِّ كانَ منحصراً في مسألةِ حفظِ واحترامِ أزواجِ النّبيِّ وحُرمةِ الزواجِ منهنّ في حياتهِ وبعدَ وفاتهِ. فكانَ الإسلامُ يحرِصُ على تحديدِ طُرقِ التعاملِ معَ نساءِ النبيِّ بما يحفظُ كرامَتَهُنَّ ومنزلَتَهنَّ، لذلكَ فقد جاءتْ تشريعاتٌ خاصةٌ بنساءِ النبيِّ دونَ كلِّ النساءِ. فكانَ على سبيلِ المثالِ؛ منَ المتعارفِ بينَ العربِ. وكثيرٍ منَ الناسِ في ذلكَ المجتمعِ البسيطِ، أنّهم إذا احتاجوا شيئاً من لوازمِ الحياةِ ووسائلها فإنّهم يستعيرونها منْ جيرانهم مؤقّتاً، ولم يكنْ بيتُ النّبيِّ مستثنى منْ هذه العاداتِ، بلْ كانوا يأتونَ إليهِ سواءً كانَ الوقتُ مناسباً أم غيرَ مناسبٍ، ويستعيرونَ من نساءِ النّبي شيئاً (٤٢٣) ، لذلكَ جاءتْ الآياتُ القرآنيةُ لتوضحَ للناسِ أسلوبَ التعاملِ الصحيحِ مع نساءِ النبيِّ، فتكليفُ الناسِ إذا أرادوا شيئاً من نساءِ النّبي أنْ يأخذوهُ منْ وراءِ حجابٍ، أيْ حاجزٍ، لظروفِ نساءِ النّبي الخاصّةِ، وليس المرادُ منَ الحجابِ في الآياتِ لباسَ النساءِ، بلْ هو حكمٌ إضافيٌّ يخصُّ نساءَ النّبيِّ ولا يعنى منهُ الحجابَ المعروفَ لعامةِ النساءِ. كما يجبُ على نساءِ النبيِّ أنْ لا يخرجنَّ إلى الناسِ ويظهرنَّ لهمْ في مثلِ هذه المواردِ حتّى وإنْ كُنَّ محجّباتٍ، وهذا الحكمُ لم يرِدْ طبعاً في شأنِ النساءِ الأُخرياتِ، بلْ يكفيهُنَّ أنْ يُراعيْنَ الحجابَ الإسلاميّ.

لقد تعدّتْ التوجيهاتُ أيضاً إلى تحديدِ آدابِ الدخولِ إلى بيوتِ النبيِّ، حيثُ أكدَّ القرآنُ على ضرورةِ الاستئذانِ عند الدخولِ إلى بيوتِ النبيِّ وعدمِ إطالةِ البقاءِ هناكَ بشكلٍ قد يسبِّبُ الحرجَ للنبيِّ، بالرغمِ منْ ذلكَ كانَ بعضُ المنافقينَ في المدينةِ يريدونَ أنْ يؤذوا رسولَ اللهِ، بلْ كانَ بعضُهمْ مَنْ يُصرِّحُ بذلكَ، فقد قالَ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ معترضاً على هذه التعليماتِ: لئنْ ماتَ محمدٌ لأتزوّجَنَّ عائشةَ. وحينَ سمعَ رسولُ اللهِ كلامَهُ تألّمَ لذلك. (٤٢٤)

لقد حَرَّمَ اللهُ الزواجَ منْ زوجاتِ النبيِّ منْ بعد وفاتِهِ حفاظاً على قدسيّةِ النبيِّ والإسلامِ، فزوجاتُ النبيِّ عليهِنَّ أنْ يرضَينَ بالعيشِ دونَ زواجٍ بعد وفاةِ النبيِّ محمدٍ وإنْ كانَ صعباً على البعضِ منهُنّ، إذْ إنّه قد تُطرحُ أحياناً مسائلُ مهمّةٌ على مدى حياةِ الإنسانِ، يجبُ أنْ يُظهِرَ تجاهها التضحيةَ والإيثارَ، وأنْ يغضَّ النظرَ عن بعضِ الحقوقِ التي ثبتَتْ لهُ، خاصّةً وأنّ الإفتخاراتِ العظيمةَ تصاحبُها مسؤولياتٌ خطيرةٌ، ولا شكَّ أنّ أزواجَ النّبيِّ قد اكتسبْنَ فخراً لا يُضاهى وعزّاً لا يُسامى بزواجهنّ من النّبي، واكتسابُ هذا الفخرِ يحتاجُ إلى مثلِ هذه التضحيةِ. لهذا السببِ كانتْ نساءُ النّبيِّ يعشنَ منْ بعدهِ بكلّ احترامٍ وتقديرٍ بينَ الأُمّةِ الإسلاميّةِ، وكنَّ راضياتٍ جدّاً عن حالهنّ، ويعتبرنَ حرمانَهُنَّ منَ الزواجِ بعد وفاةِ النبيِّ مقابلَ هذه الكراماتِ أمراً تافهاً. منْ جانبٍ آخرَ كانَ منَ الممكنِ أنْ يستخدمَ المنافقونَ الارتباطَ بنساءِ النبيِّ لتحقيقِ أهدافِهمْ والارتقاءِ إلى مركزٍ اجتماعيٍّ مرموقٍ. أو يُمكنُ أنْ يبدأوا في تشويهِ الإسلامِ عبرَ الزواجِ منْ نساءِ النبيِّ، معتبرينَ أنّهمْ يحملونَ معلوماتٍ خاصةً منْ داخلِ بيتِ النبيِّ. لذا، كانَ على نساءِ النبيِّ قبولُ هذه التضحيةِ بصدرٍ رَحْبٍ.

ظلّتْ المواقفُ العدائيّةُ ضدَّ البيتِ النبويِّ مستمرةً، بهدفِ تشويهِ صورتِهِ في المجتَمعِ الإسلاميِّ، فراحوا ينشرونَ الشائعاتِ التي تتهِمُ هذا البيتَ الطاهرَ. أرادَ المنافقونَ استهدافَ النبيِّ بشخصهِ وسُمعتهِ، وكانوا مصمِّمينَ على هذا العملِ للانتقامِ منَ النّبيِّ وإهانةً لقدسيتّهِ، وكانوا يريدونَ أنْ يُنزلوا ضربةً بكيانهِ عنْ هذا الطريقِ. ففي السنةِ الثامنةِ بعد الهجرةِ اتهمَتْ جماعةٌ منَ المنافقينَ أنّ أَمَةَ رسولِ الله ماريّةَ القبطيّةَ كانتْ تخونُهُ سِرّاً معَ أحدِ أقاربها. لم يُمْكَرْ بالمسلمينَ مكراً أشدَّ بشاعةً منْ هذه الإشاعةِ، وهي إشاعةٌ مُختَلَقَةٌ هزَّتْ البيتَ النبويَّ شهراً كاملاً، وعصفَتْ بالمدينةِ بأسرِها بلْ اضطربَ المجتمعُ المسلِمُ بكاملهِ. لقد كانتْ هذه الإشاعةُ حلقَةً من سلسلةِ المؤامراتِ على الدعوةِ ومحاولةَ تشويهِ رموزِها وذلكَ؛ لأنّ العدوَّ

---

١ النساء مِن الرقيق، وهنّ الإماء، يحقّ لمالكهنّ أن يطأهنّ مِن غير عقد زواج، ولا شهود، ولا مهر، فهنّ لسن أزواجاً لكن ينبغي أن تكون العلاقة بين الرجل وأمَته معلَنة غير سريَّة؛ وذلك لترتب أحكامٍ على هذا الإعلان، ومنها: ما قد يكون بينهما من أولاد.

يعلمُ أنّ هذا الدينَ إنّما يقومُ على المثالِ النموذجِ؛ والقُدوةِ الأُسوةِ؛ فترى المنافقينَ يواصلونَ نَسْجَ المؤامراتِ؛ ويشيعونَ حربَ الشكِّ والريبَةِ والخيانةِ حولَهُ.

كانتْ ماريةُ امرأةً طيبّةً ومتدينّةً وصالحَةً، وعفيفةً وكانتْ تعيشُ في بستانها حياةً عادِيةً رتيبةً خاليةً منْ أيِّ حَدَثٍ مثيرٍ وغير عادي. وكانَ أحدُ أقاربها يُدعى مأبورٌ(جُرَيجْ) القِبْطيْ يدخلُ عليها فيساعدها في بعضِ الحاجاتِ ويُسلّيها. أثارَتْ صفاتُ ماريّةَ وجمالُها واهتمامُ النبيِّ بها الغيرةَ في نفسِ عائشةَ. كانَ النبيُّ قد أنزلَ ماريّةَ في بيتٍ لحارثةَ بنِ النعمانِ، فأصبحَتْ جارةً قريبةً لعائشةَ وحفْصَةَ، فكانتْ ماريّةُ تعاني منْ إيذاءِ عائشةَ وحفصةَ لها، فقرّرَ النبيُّ نقْلَها إلى العاليةِ لتنعُمَ بالهدوءِ لكنّهمْ لم يكفّوا عنْ أذيَّتِها. فتواطأتْ جماعةٌ كانتْ لها علاقةٌ بعائشةَ وحفصةَ زَوْجَتَي النبيِّ، على نشرِ شائعاتٍ عنْ ماريّةَ، كلُّ ذلكَ كانَ لأغراضٍ ومطامعَ سياسيّةٍ. فكانَ ممنْ تواطأ معهمْ على قَذْفِ ماريّةَ: حسّانُ بنُ ثابتٍ، ومسطحٌ بنُ أثاثةَ، ورِفاعةُ بنُ زيدٍ، وعبدُ الله بنُ أُبَيْ، وحمنَةُ بنتُ جحشٍ وأخرونَ.

يقولُ اللهُ إنّ الذينَ جاؤوا بهذه الأُكذوبةِ، جاؤوا بها منْ عند أنفسِهمْ وهم جماعةٌ منكم. لا تتصوروا يا أيها المسلمونَ بأنّ هذه المؤامرةَ شراً لكمْ، بلْ هي خيرٌ لكمْ لأنها كشفَتْ القناعَ عنِ العناصرِ المنافقةِ التي تريدُ أنْ تشوّهَ سُمعَةَ النبيِّ في بعضِ نسائهِ، فلكلِّ واحدٍ من أصحابِ هذه الجماعةِ سهمُهُ منَ الإثمِ والمعصيةِ بمقدارِ خَوضهِ فيهِ، وأمّا الذي كانَ قُطْبَ رحى هذه الحادثةِ ونشرَها وأذاعها فلهُ عذابٌ عظيمٌ. (٤٢٥)

كانَ النبيُّ يعدلُ بينَ نسائهِ في المبيتِ، فعندما كانَ يومُ حفصةَ ذهبَتْ لزيارةِ أبيها، فأرسلَ النبيُّ إلى ماريّةَ القبطيّةِ، وجاءتْ إلى بيتِ حفصةَ حيثُ كانَ النبيُّ هناكَ وحفصةُ غيرَ موجودةٍ. ولكنْ عندما رجعَتْ حفصةُ وعرفَتْ بما جرى، قالتْ وهي غاضبةٌ: يا رسولَ اللهِ، أتفعلُ هذا في بيتي وفي يومي؟! غضبَتْ حفصةُ منْ ماريةَ واتهمَتْها بعدمِ الإخلاصِ لزوجها وبخيانتِهِ مع رجلٍ آخرَ ولفَّقتْ عليها تلكَ التُهَمَ بالاتفاقِ معَ عائشةَ ممّا حدى بالنبيِّ أنْ يقولَ لحفصةَ: إنها حرامٌ عليَّ، ولا تُخبريْ بذلكَ أحدًا، ولكنّ حفصةَ لم تُبقِ هذا سرًّا، وأخبرتْ عائشةَ بذلكَ.

لم يكنْ هناكَ أيُّ قبحٍ بما قامَ بهِ النبيُّ مع ماريّةَ ولم تكنْ ماريةُ خاطئةً كما يدّعونَ، لذلكَ عاتبَ اللهُ نبيَّهُ لمنعِ نفسهِ مِمّا أحلَّ اللهُ لهُ. (٤٢٦) وفضحَ اللهُ حفصةَ لإفشائها السرَّ، الذي استودعَها إيّاهُ رسولُ الله. وحينَ أخبرها النبيُّ بما قامَتْ بهِ من إفشاءِ السرِّ، تعجَّبتْ وسألتْهُ: منْ قالَ لكَ إني قمتُ بذلكَ، ظنًّا منها أنّ عائشةَ قد أخبرتْهُ. لكنّهُ فاجأها بأنّ اللهَ هو الذي أخبرهُ بذلكَ. لقد وبَّخَهُما اللهُ لتصرُّفِهما القبيحِ هذا، وأخبرها أنّ عليها وعلى عائشةَ التوبةَ إلى اللهِ وأنّ باستطاعتهِ أنْ يُطلّقَهما ويبدِلَهُنَّ اللهُ لنبيّهِ بزوجاتٍ خيرٍ منهما. (٤٢٧)

عندما علمَ النبيُّ بالمؤامرةِ التي كانتْ تُحاكُ ضدَّهُ وببراءةِ ماريّةَ، أعادَ النظرَ في حِرمانِهِ لنفسهِ منْ ماريةَ وعادَ إليها، لكنّ الغيرةَ والحِقدَ في قلوبِ بعضِ زوجاتهِ لم يزلْ باقياً. وعندما حملَتْ ماريّةُ بطفلٍ، اعتنى بها النبيُّ حتى ولَدَتْ الطفلَ، فازدادَ حقدُ عائشةَ وحفصةَ على ماريةَ وازدادَتْ أذيّتُهما لها. بعد بضعَةِ أشهرٍ تُوفّي إبراهيمُ بنُ النبيّ منْ ماريةَ، وقد حزنَ النبيُّ على وفاةِ ابنهِ حزناً شديداً، سألتْ عائشةُ حقداً منها: ما الذي يُحزنُهُ عليهِ، وهو ابنُ جُرَيجَ القِبْطيّ؟! فهي أرادَتْ بقولها أنْ تشكّكَ مجدداً في نِسبةِ إبراهيمَ إلى النبيّ وتُشكّكَ في شرفِ وعِفّةِ ماريّةَ. حينَ سَمِعَ النبيُّ منها هذا الكلامَ تأذّى كثيراً وعندها أمرَ النبيُّ عليّاً بقتلِ جُريجَ، فذهبَ عليٌّ إليهِ ومعهُ السيفُ وكانَ جُريجُ القبطيُّ في بستانٍ، فضربَ عليٌّ بابَ البستانِ فأقبلَ إليهِ جُريجُ ليفتَحَ لهُ البابَ، فلمّا رأى عليًّا، عرفَ في وجههِ الشرَّ فأدبرَ راجعاً ولم يفتحِ البابَ. فوثبَ عليٌّ على الحائطِ ونزلَ إلى البستانِ واتَّبَعهُ وولّى جريجُ مدبراً، فلمّا خشيَ أنْ يرهقَهُ صعدَ على نخلةٍ وصعدَ عليٌّ في إثرِهِ، فلمّا دنا منهُ رمى جريجُ بنفسهِ منْ فوقِ النخْلةِ فبَدتْ عورتُهُ، فإذا ليس لهُ ما للرجالِ ولا لهُ ما للنساءِ أيْ كانَ مجبوبًا خَصيّاً.

لمّا رأى عليٌّ ذلكَ، انصرفَ راجعاً إلى النبيّ وقالَ: يا رسولَ الله إذا بعثْتَني في الأمرِ أكونُ فيهِ كالمسمارِ المُحمَّى أمْ أتثبَّتُ؟ قالَ: لا بلْ تثبَّتْ، قالَ: والذي بعثَكَ بالحقِّ ما لَهُ ما للرجالِ وما لهُ ما للنساءِ، فقالَ: الحمدُ للهِ الذي صرفَ عنّا السُّوءَ أهلَ البيتِ. وبهذا أثبتَ عليٌّ براءةَ

---

١ محبوب: أي استؤصل الذكر مع الخصيتين.

ماريّةَ منْ هذه التُهمَةِ. ما كانَ رسولُ الله ليأمرَ بالقتلِ حقيقةً. ولكنّ النبيَّ قرّرَ أنْ يُظهِرَ براءةَ ماريّةَ بطريقةٍ واضحةٍ، لكي يعرفَ الناسُ الحقيقةَ والقصدَ الخبيثَ منْ هذه المؤامرةِ، وهو تشويهُ سُمعةِ البيتِ النبويّ. كما لم يُقِمْ النبيُّ الحدَّ على المتآمرينَ عليهِ وعلى زوجاتهِ، لأنّ في إقامةِ الحدِّ عليهمْ قد تترتَّبُ مفسدةٌ كبرى وأخطارٌ جسيمَةٌ قد تهدِّدُ بناءَ المجتمعِ الإسلاميّ ومستقبلَ الدعوةِ الاسلامية، فارتأى أنْ يتجاوزَ عنْ أخذِ القَصاصِ منهمْ. وكانَ هذا هو نهجهُ في غيرها منَ المواقفِ؛ في التغاضي عنْ تنفيذِ الحدودِ ببعضِ كُبراءِ القومِ، إذا كانتْ المصلحةُ العامةُ بتجنُّبِ ذلكَ تفوقُ الفائدةَ منْ تأديبِهمْ بالحدِّ، فهو مثلاً لم يُقِمْ الحدَّ على خالدٍ بنِ الوليدِ لِما قامَ بهِ في بني جُذيمةَ و لم يعاقِبْ ابنَ أُبيٍّ لأفعالهِ وغيرها مِنَ المواقفِ. (٤٢٨)

غزوةُ ذاتِ السَّلاسِلْ

لم تنتهِ الأخطارُ المحدِقةُ بالإسلامِ و المسلمينَ وذلك لأنّ الأحقادَ والحسدَ وأطماعَ الأعرابِ منَ المحيطينَ بالمدينةِ ما زالتْ تتزايدُ وما زالتْ مخطّطاتُهمْ مستمرةً للقضاءِ على النبيِّ محمدٍ ورسالَتِهِ. في السنةِ الثامنةِ تعاقدَ أهلُ وادي اليابسِ وتعاهدوا على أنْ لا يتخلَّفَ رجلٌ عنْ رجلٍ، ولا يغدرُ بصاحبِهِ، ولا يخذلُ أحدٌ أحداً، ولا يفرُّ عنْ صاحبِهِ، حتى يموتوا كلُّهمْ،



شكل(٥١): أهل وادي اليابس.

أو يقتلوا محمداً، وعليًّا بنَ أبي طالبٍ فاجتمعَ منهمْ اثنا عشرَ ألفَ فارسٍ. فنزلَ جبريلُ على النبيِّ، وأخبرَهُ بالأمرِ، وأمرَهُ أنْ يبعثَ أبا بكرٍ في أربعةِ آلافِ فارسٍ، منَ المهاجرينَ والأنصارِ. فخطبَ النبيُّ بالناسِ، وأخبرَهمْ بما أخبرَهُ بهِ جبريلُ عنْ أهلِ وادي اليابسِ، وأنّ جبريلَ أمرَهُ بأنْ يُسيَّرَ إليهمْ أبا بكرٍ بأربعةِ آلافِ فارسٍ. ثمّ أمرَهمْ أنْ يتجهزوا للمسيرِ معَ أبي بكرٍ يومَ الإثنينِ، فلمّا حانَ وقتُ المسيرِ أمرَ أبا بكرٍ أنْ إذا رآهُمْ أنْ يَعرِضَ عليهمُ الإسلامَ، فإنْ اتبعوهُ، تركَهمْ، وإلاّ واقَعَهُمْ، فيقتلُ مقاتِليهِمْ، ويَسْبي ذراريهِمْ، ويصادرُ أموالَهُمْ. فسارَ أبو بكرٍ بهمْ سيراً رفيقاً، حتى نزلَ قريباً منهمْ، فخرجَ إليهِ منهمْ مئتا فارسٍ، وهمْ مُدجَّجونَ بالسلاحِ، فسألوهُمْ: منْ أينَ أقبلوا؟ وإلى أينَ يريدونَ؟ ثمّ طلبوا مقابلةَ صاحِبِهِمْ. فخرجَ إليهمْ أبو بكرٍ، فسألوهُ، فأخبرَهمْ بما جاءَ لهُ. فقالوا : أما واللّاتِ والعُزَّى،

---

١ وهو وادي الريان و حدوده تمتد من شمال عجلون في الأردن حتى الحدود السورية عند (درعا).

لولا رحِمٌ ماسَّةٌ، وقرابةٌ قريبةٌ لقتَلْناكَ وجميعَ أصحابِكَ قتلَةً تكونُ حديثاً لمَنْ يكونُ بعدَكُمْ، فارجعْ أنتَ ومَنْ معكَ، وارتجوا العافيةَ، فإنّما نريدُ صاحبَكمْ بِعَينِهِ، وأخاهُ عليًّا بنَ أبي طالبٍ. فقالَ أبو بكرٍ لأصحابِهِ: يا قومُ، القومُ أكثرُ منكُمْ أضعافاً، وأعدُّ منكمْ، وقد نَأَتْ دارُكُمْ عنْ إخوانِكُمْ منَ المسلمينَ، فارجعوا نُعلِمْ رسولَ اللهِ بحالِ القومِ. فقالوا جميعاً: خالَفْتَ يا أبا بكرٍ رسولَ اللهِ، وما أمركَ بهِ، فاتقِ اللهَ وواقِعِ القومَ، ولا تخالِفْ قولَ رسولِ اللهِ . فقالَ: إنّي أعلمُ ما لا تعلمونَ، الشاهدُ يرى ما لا يرى الغائبُ. ورجعوا إلى النبيِّ ، فأعلنَ على المنبرِ أنّ أبا بكرٍ قد عصى أمرَهُ، وأنّه لمّا سمعَ كلامَهمْ انتفخَ صدرُهُ، ودخَلُهُ الرعبُ منهمْ ثمّ قالَ: وإنَّ جبريلَ أمرني عنِ اللهِ أنْ أبعثَ إليهمْ عمرَ مكانَهُ في أصحابِهِ، في أربعةِ آلافِ فارسٍ، فسِرْ يا عمرُ على اسمِ اللهِ، ولا تعملْ كما عملَ أبو بكرٍ أخوكَ، فإنّه عصى اللهَ وعصاني. وأمرَهُ بما أمرَ بهِ أبا بكرٍ. فسارَ بهمْ يقتَصِدُ بهمْ في سيرِهِمْ، حتى نزلَ قريباً منْ القومِ، وخرجَ إليهِ مئتا رجلٍ، وقالوا لهُ ولأصحابِهِ مثلَ مقالتِهمْ لأبي بكرٍ. فانصرف، وانصرفَ الناسُ معهُ، وكادَ أنْ يطيرَ قلبُهُ ممّا رأى من عُدَّةِ القومِ وجمْعِهمْ، ورجعَ هارباً منهمْ. فنزلَ جبريلُ وأخبرَ النبيَّ محمداً بما صنعَ عمرُ. فصعدَ النبيُّ، وأخبرَهمْ بما صنعَ عمرُ، وأنّه خالفَ أمرَهُ وعصاهُ. فلمّا قدِمَ عمرُ قالَ: يا عمرُ، عصيتَ اللهَ في عرشِهِ، وعصيتني، وخالفْتَ قولي، وعملْتَ برأيكَ، ألا قَبَّحَ اللهُ رأيكَ. ثمّ ذكرَ أنّ جبريلَ أمرَهُ أنْ يُرسلَ عليّاً مع الأربعةِ آلافٍ، وأنّ اللهَ سيفتحُ عليه وعلى أصحابِهِ، ثم دعاهُ وأخبرهُ بذلكَ. فخرجَ عليٌّ فسارَ بأصحابهِ سيراً غيرَ سيرِ أبي بكرٍ وعمرَ، فقد أعنفَ بهمْ في السيرِ، حتى خافوا أنْ ينقطعوا منَ التعبِ، وتحفى دوابُّهُمْ، فقالَ لهم: لا تخافوا، فإنّ رسولَ الله قد أمرني بأمرٍ، وأخبرني أنّ اللهَ سيفتحُ عليّ، وعليكم، فأبشروا، فإنّكمْ على خيرٍ، وإلى خيرٍ. فطابتْ نفوسُهمْ وقلوبُهمْ، وواصلوا سيرَهمْ مع كلِّ ذاك التّعبِ، حتى نزلوا بالقربِ من العدوّ. فخرجَ إليه منهم مائتا رجلٍ بالسلاحِ، فلمّا رآهمُ عليٌّ خرجَ إليهم في نفرٍ من أصحابهِ، فقالوا لهم: مَنْ أنتمْ؟ ومنْ أين أنتم؟ ومن أين أقبلتُمْ؟ وأين تريدونَ؟ قال : أنا عليٌّ بن أبي طالبٍ، ابنُ عمِّ رسولِ الله، وأخوهُ ورسولُهُ إليكم، أدعوكمْ إلى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلاّ الله، وأنّ محمداً عبدهُ ورسولهُ، ولكم ما للمسلمينَ، وعليكم ما عليهم منْ خيرٍ وشرٍّ. فقالوا لهُ : إيّاكَ أردنا، وأنتَ طِلْبَتُنا، قد سمعنا

مقالتكَ، فاستَعِدَّ للحربِ العوانِ، واعلمْ أنّا قاتلوكَ وقاتلو أصحابِكَ، والموعودُ فيما بيننا وبينكَ غداً ضحوةً، وقد أعذرْنا فيما بيننا وبينكَ. فقال لهم عليٌّ: ويلَكُمْ تُهدِّدونيْ بكثرتِكُمْ وجمْعِكمْ؟!

فأنا أستعينُ باللهِ وملائكتهِ والمسلمينَ عليكم، ولا حولَ ولا قوةَ إلاّ باللهِ العليّ العظيمْ. فانصرفوا إلى معسكرهم، وانصرفَ عليٌّ إلى معسكرهِ. فلمّا جَنّهُ الليلُ أمرَ أصحابَهُ أنْ يحسنوا إلى دوابِّهِمْ، ويقضموا، ويسرجوا. فلمّا انشقَّ عمودُ الصبحِ صلى بالناسِ بِغَلَسٍ[1]، ثم أغارَ عليهم بأصحابهِ، فلم يعلموا حتى وطأتْهُمُ الخيلُ، فما أدركَ آخرُ أصحابهِ حتى قتلَ مقاتِليهِمْ، وسبِى ذراريَهُمْ، واستُبيحَتْ أموالُهمْ، وأقبلَ بالأسارى والأموالِ معه. ونزلَ جبريلُ فأخبرَ رسولُ الله بما فتحَ اللهُ على يدِ عليٍّ ومَنْ معهُ، فصعدَ المنبرَ، فحمدَ الله، وأثنى عليهِ، وأخبرَ الناسَ بما فتحَ اللهُ على المسلمينَ، وأعلَمَهمْ أنّه لم يُصَبْ منهمْ إلاّ رجلانِ.

ونزلتْ سورةُ العادياتِ وجيوشُ الإسلامِ لم تصلْ إلى المدينةِ بعدُ، وفي ذاتِ اليومِ صلى



شكل(٥٢): الهجوم المباغت لعلي على وادي اليابس.

رسولُ الله بالناسِ الصبحَ و قرأ سورةَ العادياتِ، والتي تبدأ ببسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا...﴾[2]

---

١ الغَلَسُ: ظُلْمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

٢ العاديات ضبحا: الخيول الجارية المندفعة وهي تتنفس بشدة.

أقسمَ اللهُ بخيولِ المجاهدينَ التي تجري بسرعةٍ في سبيلِ الله فتُجهِدُ نفسها وتُحدِثُ نَفَساً شديداً عالياً يَحكيْ تعبَها في جهادِ العدوّ، وأقسمَ بالخيولِ التي تجري بسرعةٍ فيقتَدِحُ منْ حوافرها النارُ والشررُ، وأقسمَ بالخيولِ التي تهجمُ وقتَ الصباحِ فتأخذُ الأعداءَ وتنالُ منهم على حينِ غِرّةٍ، وحركةُ هذه الخيولِ تثيرُ الغبارَ وتحرّكهُ صباحاً فيندهشُ العدوّ وتأخذهُ المفاجأةُ فيسقطُ ما في يدهِ بينما تقتحمُ خيولُ المجاهدينَ صفوفَ الأعداءِ فتصبحُ في وسطِ جيشِ الأعداءِ فتهزمُهُ. يقسمُ اللهُ بكلِّ هذه اللحظاتِ البطوليّةِ للمجاهدينَ، وجوابُ هذا أقسمُ بأنّ الإنسانَ يتخذُ طريقَ الجحودِ والكفرِ فينسى ربَّهُ ولا يؤدّي شُكْرَ نِعمِهِ، وهذا الإنسانُ يشهدُ على نفسهِ ويقرُّ بأقوالهِ وأفعالهِ أنّهُ جاحدٌ لنِعمِ الله وذلك منهُ ظاهرٌ واضحٌ وسوف يشهدُ كذلك على نفسهِ يومَ القيامةِ بهذه الحقيقةِ عندما يُواجَهُ بالأدّلةِ الدامغةِ، وهذا ممّا أقسمَ اللهُ بهِ حيثُ أقسمَ أنّ هذا الإنسانَ يحبُّ المالَ حبّاً شديداً متناسياً شُكرَ نِعَمِ الله، أفلا يعلمُ هذا الإنسانُ إذا جاءتْ القيامةُ تحرّكتْ الأمواتُ منْ قبورها وخرجَتْ للحسابِ عندها تكونُ المصيبةَ الكبرى ويتعرّضُ هذا الإنسانُ لأعظمِ الأخطارِ وأشدّها فداحةً وقساوةً. (٤٢٩)

فلمّا فرغَ منْ صلاتهِ، قالَ أصحابُ النبيِّ: هذه سورةٌ لم نعرفها، فقالَ رسولُ الله : نعمْ إنّ عليّاً ظفرَ بأعداءِ الله وبشَّرني بذلكَ جبريلُ في هذه الليلةِ. ونزلَ فخرجَ يستقبلُ عليّاً في جميعِ أهلِ المدينةِ منَ المسلمينَ حتى لقيَهُ على أميالٍ منَ المدينةِ. فلمّا رآهُ عليٌّ مقبلاً نزلَ عن دابتهِ، ونزلَ النبيُّ حتى التزمَهُ، وقبّلهُ ما بينَ عينيهِ. ونزلَ جماعةٌ من المسلمينَ مع عليٍّ حيثُ نزلَ رسولُ الله، وأقبلَ بالغنيمةِ والأسارى، وما رزقَهمُ اللهُ منْ أهلِ الوادي اليابسِ.(٤٣٠)

مَذْبَحَةُ بني خُزاعَةْ

كانتْ العداوةُ والحروبُ مستمرةً بينَ بني بكرٍ وخُزاعةَ حتى بُعِثَ رسولُ الله فمنعَ بالإسلامِ ما بينهُمْ، وتشاغلَ الناسُ بهِ، وهُمْ على ما هُمْ عليه من العداوةِ في أنفسهم. فلمّا كانَ صلحُ الحديبيّةِ بين رسولِ الله وبينَ قريشٍ، وكانَ أحدُ الشروطِ ينصُّ على أنّ: «مَنْ أحبَّ أنْ يدخلَ

في عَقْدِ محمدٍ فليدخلْ، ومنْ أرادَ أنْ يدخلَ في عقدِ قريشٍ فليدخلْ»، فدخلَتْ خزاعةُ في عقدِ رسولِ الله، وأغاظَ هذا القرارُ غريمَهمْ منْ بني بكرٍ.

وفي شهرِ شعبانَ، بعد سنتينِ من صُلحِ الحديبيّةِ قامَ أحدُ بني نفاثةَ بهجاءِ رسولِ الله، فأنذرَهُ رجلٌ من خزاعةَ كي يكفَّ، فلم يرتدعْ، فضربَهُ الخزاعيُّ، فاستنصرَ الذي منْ بني نفاثةَ قومَهُ، فأزادَتْ الوضعَ حِدَّةً فكلّمَتْ بنو نفاثةَ وبنو بكرٍ أشرافَ قريشٍ أنْ يُعينوهمْ بالرجالِ والسلاحِ على عدوّهمْ من خزاعةَ، وذكّروهمْ بالقتلى الذينَ أصابتْهمُ خزاعةُ منهمْ قبلَ الإسلامِ، وناشدوهمْ بأرحامِهمْ، وأقنعوهم بأنّهمْ حُلفاؤهُمْ وأنّهمْ دخلوا في عقدهم، ولم يدخلوا في عقدِ محمدٍ، خِلافَ بني خزاعةَ، التي دخَلتْ في عقدِ محمدٍ وعهدِهِ. فأسرعَتْ قريشٌ بالتحرُّكِ، إلاّ أنّ أبا سفيانَ بنَ حربٍ لم يعلمْ بذلكَ لأنّهمْ لم يشاوروهُ. فأعانوهم بالسلاحِ والكِراعِ والرجالِ، وخططوا ذلكَ سرّاً لئلّا تحذرَ خزاعةُ، وخُزاعةُ آمِنونَ، لحالِ الموادعةِ بينهم في ظلِّ الإسلامِ. ثم اتفقَتْ قريشٌ وبنو بكرٍ وبنو نفاثةَ أنْ يأتوا إلى الوتيرِ، وهو موضعٌ أسفلَ مكةَ، وهو من منازلِ خزاعةَ، فوافوا للميعادِ واجتمعوا، وفيهمُ رجالٌ منْ قريشٍ، ومن كبارِهمْ، وهم متنكِّرونَ كلٌّ بنقابِهِ ومنهمْ: سهيلٌ بنُ عمرو، وصفوانُ بن أميّةَ، وعكرمةُ بن أبي جهلٍ، وحويطبُ بنُ عبد العزّى، وشيبةُ بن عثمانَ ومكرزٌ بنُ حفصٍ. فبيّتوا لخزاعةَ ليلاً، وهم غارونَ آمنونَ وعامَّتُهُمْ صبيانٌ، ونساءٌ، ورجالٌ ضُعفاءُ، ثم انقضّوا عليهم، فلم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا إلى أنصابِ الحَرَمِ. فقالَ أصحابُ نوفلَ بنِ معاويةَ - وهو من بنيْ نفاثةَ - لهُ: يا نوفلُ، إلهكَ، إلهكَ! قد دخلتَ الحرَمَ! فقالَ: لا إلهَ ليَ اليومَ، يا بني بكرٍ، لَعمريْ إنكم لتسرِقونَ الحاجَّ في الحَرمِ، أفلا تدركونَ ثأرَكمْ منْ عدوّكمْ، ولا يتأخرُ أحدٌ منكم بعد يومهِ عن ثأرهِ! فلمّا انتهَتْ خزاعةُ إلى الحرَمِ، دخلَ بعضُهمْ إلى دارِ بديلٍ بنِ ورقاءَ، ودارِ مولىً لهمْ يقالُ لهُ: رافعٌ الخزاعيُّ. ودخلتْ رؤساءُ قريشٍ منازلَهمْ، وهم يظنّونَ أنّ فِعلتَهمْ لن يتمَّ كشفُها، وأنّه لا يبلغُ هذا رسولَ الله. وأصبحَتْ خزاعةُ مقتّلينَ على بابِ بديلٍ ورافعٍ.

---

١ غارون: أَيْ غَافِلُونَ.

وكانوا قد قتلوا منهمْ عشرينَ رجلاً. قالَ سهيلٌ بن عمرو لنوفلَ بنِ معاويةَ: قد رأيتَ الذي صنعنا بهمْ، ومن قتلْتُ منَ القومِ، وأنتَ قد حصدتَهمْ، تريدُ قتلَ مَنْ بقيَ، وهذا ما لا نطاوعَكَ عليهِ، فاتْركْهمْ. فتركَهمْ، وانصرفوا. ندِمَتْ قريشٌ على ما فعلَتْ، وعرفوا أنّ هذا الذي صنعوهُ نقضٌ للذمَّةِ والعهدِ الذي بينهمْ وبينَ رسولِ اللهِ .

وجاءَ الحارثُ بن هشامٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي ربيعةَ إلى صفوانَ بن أميّةَ، وإلى سهيلٍ بنِ عمرو، وعكرمةَ بن أبي جهلٍ، فلاموهمُ بما صنعوا منْ عَونِهمْ بنيْ بكرٍ على خزاعةَ، وقالوا: إنّ بينكمْ وبينَ محمدٍ مُدّةً، وهذا نقضٌ لها.

في صبيحةِ ذلك اليومِ الذي وقعَتْ فيه المذبحةُ قالَ رسولُ الله لعائشةَ: يا عائشةُ، لقد حَدثَ في خزاعةَ أمرٌ. فقالتْ عائشةُ :يا رسولَ الله، أترى قريشاً تجترئُ على نقضِ العهدِ الذي بينكَ وبينَهمْ، وقد أفناهمُ السيفُ؟ فقالَ رسولُ الله: ينقضونَ العهدَ لأمرٍ يريدهُ اللهُ. فقالتْ: يا رسولَ الله، خيرٌ؟ قالَ: خيرٌ.

ندمَتْ قريشٌ على تعاونها مع بنيْ نفاثةَ، وقالوا: إنّ محمداً غازينا. فقالَ عبدُ اللهِ بنُ أبي سَرْحٍ: إنّ عندي رأياً، إنّ محمداً لن يغزوكم حتى يعذُرَ إليكم، ويُخيّرَكمْ في خصالٍ كلُّها أهونُ عليكم منْ غزوهِ. قالوا : ما هي؟ قالَ: يرسلُ إليكمْ أنِ ادفعوا دِيّاتِ قتلى خزاعةَ، وهم ثلاثةٌ وعشرونُ قتيلاً، أو تبَرّؤوا من حِلفِ مَنْ نقضَ الصلحَ، وهم بنو نفاثةَ ،أو يُنبَذُ إليكمْ على سواءٍ، فما عندكم في هذه الخصالِ؟ فاستحسنَ القومُ ما قالَ ابنُ أبي سرحٍ. قالَ سهيلٌ بن عمرو : ما قلتَهُ أهونُ علينا منْ أنْ نبرَأَ منْ حلفِ بني نفاثةَ. فقالَ شيبةُ بنُ عثمانَ العبدريُّ: حفظتَ أخوالكَ، وغضبتَ لهم. قال سهيلٌ: وأيُّ قريشٍ لم تلدْهُ خزاعةُ؟ قالَ شيبةُ : ولكنّ دَفْعَ ديّاتِ قتلى خزاعةَ، فهو أهونُ علينا. وقالَ قرظةُ بنُ عبدِ عمرو: لا واللهِ لا يُودونَ

---

١ أي يرْدُدْ عليهم عهدهم ردًا واضحًا أي عهد النبي.

٢ أي يدفعون الديات.

ولا نبرأُ من حلفِ بني نفاثةَ، ولكنّا ننبذُ إليهِ على سواءَ. وقالَ أبو سفيانَ: ليس هذا بشيءٍ، وما الرأيُ إلاّ جحدُ هذا الأمرِ، أنْ تكونَ قريشٌ دخلتْ في نقضِ عهدٍ، أو قطعِ مدّةٍ، فإنّ قطعَهُ قومٌ بغيرِ رضىً منّا ولا مشورةٍ، فما علينا؟! قالوا: هذا الرأيُ لا رأيَ غيرَهُ. فبينما رسولُ الله بينَ أصحابهِ قال: لكأنّكمْ بأبي سفيانَ قد جاءَ يقولُ: جدّدْ العهدَ، وزدْ في الهُدنةِ ليشدَّ العقدَ ويزيدَ في المدّةِ، وهو راجعٌ بسَخَطِهِ.

في هذه الأثناءِ مشى الحارثُ بنُ هشام، وعبدُ اللهِ بنُ أبي ربيعةَ إلى أبي سفيانَ بنِ حربٍ، فقالا: هذا أمرٌ لا بدَّ لهُ من أنْ يصلحَ، واللهِ لئنْ لم يصلحْ هذا الأمرُ لا يروعكم إلاّ محمدٌ في أصحابهِ. فقال أبو سفيانَ: قد رأتْ هندٌ بنتُ عتبةَ رؤيا كرهتْها وأفزعتها وخفتُ منْ شرّها. قالوا: وما هي؟ قالَ :رأتْ دماً أقبلَ من الحجونِ يسيلُ حتى وقفَ بجبلِ الخنْدمَةِ بعضَ الوقتِ، ثمّ كأن ذلكَ الدمُ لم يكنْ، فكرِهَ القومُ الرؤيا. فتكلموا في قضيةِ بنيْ نفاثةَ وما حصلَ لخزاعةَ. قالَ أبو سفيانَ: هذا.واللهِ ـ أمرٌ لم أشهدْهُ، ولم أغِبْ عنهُ، لا يحملُ هذا إلاّ عليٌّ، ولا واللهِ ما شُوِّرْتُ فيهِ، ولا هويتُهُ حينَ بلغني، واللهِ، ليغزونا محمدٌ إنْ صدقني ظَنّيَ، وهو صادقي، ولا بدَّ من أنْ آتي محمداً فأكلمُهُ أنْ يزيدَ في الهُدنةِ، ويجدِّدَ العهدَ. فقالتْ قريشٌ :قد واللهِ أصبْتَ.

خرجَ أبو سفيانَ متوجّهاً إلى المدينةِ، وخرجَ معهُ مولىً لهُ على راحِلتَين، فأسرعَ السيرَ، وهو يرى أنّه أوّلُ مَنْ خرجَ منْ مكةَ إلى رسولِ الله، فلقيَ بديلًا بنَ ورقاءَ بعسفانَ، فأشفقَ أبو سفيانَ أنْ يكونَ بديلٌ قد ذهبَ إلى رسولِ الله بلْ كانَ اليقينُ عندهُ، فقالَ للقومِ: أخبرونا عن يثربَ متى عهدُكمْ بها؟ قالوا : لا علمَ لنا بها. فعلمَ أنّهمْ كتموهُ، فقالَ : أما معكمْ منْ تمرِ يثربَ شيءٌ تُطعِموناهُ؟ فإنّ لتمرِ يثربَ فضلاً على تمورِ تهامةَ. قالوا : لا. فأبَتْ نفسهُ أنْ تقرّهُ حتى قالَ : يا بديلُ: هل جئتَ محمداً؟ قال : لا ما فعلتُ، ولكنْ سرتُ في بلادِ بني كعبٍ وخزاعةَ من هذا الساحلِ، في قتيلٍ كانَ بينَهمْ، فأصلحْتُ بينَهمْ. ثم قايَلَهُمْ أبو سفيانَ في بضاعةٍ حتى راحَ بديلٌ وأصحابُهُ، فجاءَ أبو سفيانَ منزلَهمْ ففتَّتَ أبعارَ أبلِهِمْ، فوجدَ فيها نُوى منْ تمرِ عجوةٍ وهو تمرُ المدينةِ المعروفُ، فقالَ أبو سفيانَ: أحلفُ باللهِ لقد جاءَ القومُ محمداً.

وكانَ القومُ لما كانتْ الواقعةُ خرجوا منْ صبحِ ذلكَ اليومِ فساروا ثلاثا، وخرجوا منْ ذلكَ اليومِ فساروا إلى حيثُ لقيَهمْ أبو سفيانَ ثلاثاً، وكانتْ بنو بكرٍ قد حبستْ خزاعةَ في دارَيْ بديلٍ ورافعٍ ثلاثةَ أيامٍ يتكلمونَ فيهم، وءاتَمرَتْ قريشٌ في أنْ يخرجَ أبو سفيانَ، فأقامَ يومينِ، فهذه خمسٌ بعد مقتلِ خزاعةَ.

أقبلَ أبو سفيانَ حتى دخلَ المدينةَ، فدخلَ على ابنتِهِ أمِّ حبيبةَ زوجِ النبيِّ، فأرادَ أنْ يجلسَ على فراشِ رسولِ اللهِ فطوتْهُ دونَهُ. فقالَ: يا بنيّةَ، أرغبْتِ بهذا الفراشِ عنّي أو بيْ عنهُ؟! قالتْ : بلْ هو فراشُ رسولِ الله، وأنتَ امرؤٌ مشرِكٌ نجِسٌ، فلم أحبَّ أنْ تجلسَ على فراشِ رسولِ الله. قالَ: يا بنيّةُ لقد أصابَكِ بعدي شرٌّ. فقالتْ: بلْ هداني اللهُ للإسلامِ. وأنتَ يا أبتِ سيّدُ قريشٍ وكبيرُها، كيفَ يسقطُ عنكَ الدخولُ في الإسلامِ، وأنتَ تعبدُ حجراً لا يسمعُ ولا يبصرُ؟ فقامَ من عندها، فأتى رسولَ الله وهو في المسجدِ، فقالَ: يا محمدُ، إنّي كنتُ غائباً في صلحِ الحُديبيّةِ، فاشدُدِ العهدَ، وزِدْنا في المدّةِ. فقالَ رسولُ الله: فلذلكَ جئتَ يا أبا سفيانَ؟ قالَ : نعمْ. فقالَ رسولُ اللهِ: هلْ كانَ مِنْ قِبلِكمْ مِنْ حَدَثٍ؟ قالَ :معاذَ اللهِ، نحنُ على عهدِنا وصلحِنا يومَ الحديبيّةِ، لا نغيّرُ ولا نبدّلُ. فقالَ رسولُ الله: فنحنُ على مُدّتِنا وصلحنا يومَ الحُديبيّةِ لا نغيّرُ ولا نبدّلُ. فأعادَ أبو سفيانَ على رسولِ اللهِ القولَ، فلم يردَّ عليهِ شيئاً. فذهبَ إلى أبي بكرٍ فكلمَهُ، وقالَ : كلّمْ محمداً، أو تجيرُ أنتَ بينَ الناسِ. فقالَ أبو بكرٍ : جواري في جوارِ رسولِ اللهِ.فأتى إلى عمرَ بنِ الخطابِ، فكلّمَهُ بمثلِ ما كلّمَ بهِ أبا بكرٍ و ردّهُ عمرُ. فأتى إلى عثمانَ بنِ عفانَ فقالَ : إنّه ليس في القومِ أحدٌ أقربَ رحِماً منكَ، فزدْ في المُدّةِ، وجدّدِ العهدَ، فإنّ صاحبَكَ لا يردّهُ عليكَ أبداً. فقالَ عثمانُ : جواري في جوارِ رسولِ الله. فأتى إلى عليٍّ ، فقالَ : يا عليُّ، إنكَ أمسُّ القومِ بي رحِماً، وإني جئْتُ في حاجةٍ فلا أرجعُ كما جئتُ خائباً، فاشفعْ لي إلى محمدٍ. فقالَ : ويحكَ يا أبا سفيانَ! واللهِ لقد عزمَ رسولُ اللهِ على أمرٍ ما نستطيعُ أنْ نكلّمَهُ فيه. فأتى إلى سعدِ بنِ عبادةَ، فقال : يا أبا ثابتٍ، أنتَ سيّدُ هذه البحيرةِ، فأجِرْ بين الناسِ، وزِدْ في المُدّةِ. فقالَ سعدٌ : جواري في جوارِ رسولِ الله، وما يجيرُ أحدٌ على رسولِ الله. فأتى إلى أشرافِ قريشٍ والأنصارِ، فكلُّهمْ يقول : جواري في جوارِ رسولِ الله، ما يجيرُ أحدٌ على رسولِ الله. فلمّا آيسَ ممّا عندهم، دخلَ على فاطمةَ والحسنُ غلامٌ

يدبُّ بينَ يديها، فقالَ: يا بنتَ محمدٍ، هل لكِ أنْ تجيري بين الناسِ؟ لكنّ فاطمةَ أجابَتْهُ حسبَ منطقهِ و فهمِهِ، فقالتْ : إنما أنا امرأةٌ. أيْ لا يحقُّ للمرأةِ أنْ تتصدّى لأمرٍ كهذا بزعمِكَ فلماذا تريدُ أنْ تدفعني إلى أمرٍ لا تؤمنُ أنتَ به؟! قالَ : قد أجارتْ أختُكِ زينبُ أبا العاصِ بنَ الربيعِ، وأجازَ ذلك محمدٌ. قالت : إنما ذاكَ إلى رسولِ الله. إنّ زينبَ حينَ أجارتْ أبا العاصِ بنَ الربيعِ، فإنما أرادتْ أنْ تمنعَ الناسَ منَ التعرُّضِ لأبي العاصِ، إلى أنْ يبتَّ النبيُّ في أمرهِ، ويصدرَ عليهِ حُكمَهُ. ولم تردْ أنْ تمنعَ رسولَ الله من إجراءِ حكمِ اللهِ في حقِّهِ. فقالَ : مُرِيْ ابنَكِ هذا ـ أيْ الحسنَ بنَ عليٍّ ـ فيجيرَ بين الناسِ، فيكونَ سيّدَ العربِ إلى آخرِ الدهرِ. قالت: واللهِ ما بلغَ ابني ذلكَ، أنْ يجيرَ بين الناسِ، وما يجيرُ أحدٌ على رسولِ اللهِ. قالَ: فكلِّميْ عليّاً، فقالتْ : أنتَ تكلّمُهُ. فحينَ كلّمَ عليّاً، أجابهُ عليٌّ : يا أبا سفيانَ، إنّه ليس أحدٌ من أصحابِ رسولِ الله يفعلُ أمراً دونَ مشورةِ رسولِ الله. فقالَ لعليٍّ : يا أبا الحسنِ، إنّي أرى الأمورَ قد اشتدَّتْ عليَّ فانْصحنيْ. قالَ عليٌّ: واللهِ ما أعلمُ شيئاً يغني عنكَ شيئاً، ولكنّكَ سيّدُ بنيْ كِنانةَ. قالَ : صدقْتَ، وأنا كذلكَ. قالَ : فَقُمْ فأجرْ بينَ الناسِ ثمّ الحَقْ بأرضِكَ. قالَ : أوترى ذلكَ مغنياً عني شيئاً؟ قالَ : لا واللهِ، ولكنْ لا أجدَ لكَ غيرَ ذلكَ. فقامَ أبو سفيانَ في المسجدِ، فقالَ : أيها الناسُ إني قد أجرتُ بينَ الناسِ، ولا واللهِ ما أظنُّ أنْ يخفرني أحدٌ. ثم دخلَ على رسولِ الله، فقالَ : يا محمدُ، إنّي قد أجرتُ بين الناسِ. فقالَ رسولُ الله لهُ: أنتَ تقولُ ذلك يا أبا حنظَلةَ ! ثم ركبَ بعيرَهُ وانطلقَ. إنما أرادَ أبو سفيانَ أنْ يجدّدَ العهدَ بينهُ وبين المسلمينَ ليغطّيَ على المجزرةِ التي قامتْ بها قريشٌ، لكنّهُ لم يوفَّقْ إلى ذلك.

---

١ يعني زينب زوجة أبي العاص بن الربيع، وسماها أختها حسب ما كان متداولا بين الناس.

٢ أي يطلب الامأن والعهد.

٣ أبو حنظلة: هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ويكني بأبي سفيان وأبي حنظلة بسبب أبنه حنظلة.

عندما قامَ رسولُ الله ليلاً ليتوضأَ إلى الصلاةِ سمعتَهُ زوجتهُ ميمونَةُ يقولُ في مُتَوضَّئِهِ: لبّيْكَ، لبّيكَ، لبّيكَ، نُصرتَ، نصرتَ، نصرتَ. فقالتْ: يا رسولَ الله، سمعتُكَ تقولُ في متوضئِكَ: لبّيكَ، لبّيكَ ـ ثلاثاً ـ نُصرتَ، نصرتَ، نصرتَ ـ ثلاثاً، كأنّكَ تكلّمُ إنساناً، فهلْ كانَ معكَ أحدٌ؟ قالَ : هذا عمرو بنُ سالمٍ يستصرخُني، ويزعمُ أنّ قريشاً أعانَتْ عليهمْ بكرًا بنَ وائلٍ.

وكانَ عمرو بنُ سالمٍ الخُزاعيّ خرجَ في أربعينَ راكباً من خزاعةَ يستنصرونَ رسولَ الله ويخبرونَهُ بالذي أصابَهمْ، وما ظاهرَتْ عليهم قريشٌ، ومعاونتها لهمْ بالرجالِ، والسلاحِ، والكراعِ، وحضورِ صفوانَ بنِ أميّةَ، وعكرمةَ، ومَنْ حضرَ منْ قريشٍ. وأخبروهُ بالخبرِ، ورسولُ اللهِ جالسٌ في المسجدِ بين أظْهُرِ الناسِ، فلمّا فرغوا، قامَ عمرو بنُ سالمٍ، فأنشدَ (٤٣١)

يَا ربُّ إنّي نَاشِدٌ مُحمّدا ... حِلفَ أبينَا وأبيهِ الأتلَدا

قَد كُنتُمُ وِلْدَاً وكُنّا وَالِدا ... ثمَّ أَسلَمْنَا فَلم نَنزِعْ يَدا

فانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نصرًا أعتدا ... وادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأتُوا مدَدا

فيهمْ رسُولُ اللهِ قَد تجرّدا ... إنْ سِيمَ خَسْفًا وجهُهُ تَربَّدا

فِي فَيلقٍ كالبَحرِ يجري مُزبِدا ... إنْ قريشٌ أخلَفُوكَ المَوعِدا

---

١ الأتلدا: أي الحلف القديم الذي بيننا.

٢ ولم ننزع يدا أي: لم نخرج يدا عن طاعتك.

٣ أعتدا: وهو من الشيء العتيد، وهو المهيّأ الحاضر، أي: نصرا تاما متعديا إلينا.

٤ أي إن قصد بذلّ له أو لأحد من أهل عهده، تربد وجهه وتغير.

٥ الفيلق كالجحفل: الجيش العظيم، وجمعه فيالق.

ونَقَضُوا مِيثَاقَكَ المُؤكَّدا   وجَعلُوا ليْ في كدَاءٍ رَصَدا

وزعمُوا أنْ لستُ أدعُو أحَدا   وهُم أذَلُّ وأقَلُّ عَددا

هم بَيِّتونَا بالوَتيرِ هُجَّدا   وقَتَّلُونَا رُكّعَاً وسُجّدا

فدمعَتْ عينا رسولِ اللهِ وقالَ: حسبُكَ يا عمرو. فغضِبَ رسولُ اللهِ ممّا كان منْ شأنِ بنيْ كعبٍ غضباً شديداً. وقالَ: لا نصرني اللهُ إنْ لم أنصرْ بني كعبٍ ثم قالَ: والذي نفسيْ بيدهِ، لأمنعنَّهمْ ممّا أمنعُ منه نفسي، وأهلي، وبيتي. فما برِحَ حتى مرّتْ سحابةٌ منَ السماءِ فرعدَتْ، فقالَ رسولُ الله : إنّ هذه السحابةَ لتستهِلُّ بنصرِ بني كعبٍ، ثم قالَ لعمرٍو بنِ سالمٍ وأصحابهِ :ارجعوا وتفرقوا في الأوديةِ. ثم سألَهمْ رسولُ اللهِ : فمَنْ تُهْمُتُكمْ وظِنَّتُكُمْ؟ قالوا : بنو بكرٍ. قال : أكلُّها؟ قالوا : لا، ولكنْ بنو نفاثةَ قَصْرَةٌ، ورأسُ القومِ نوفلُ بنُ معاويةَ النفاثيّ. قالَ : هذا بطنٌ منْ بني بكرٍ، وأنا باعثٌ إلى أهلِ مكةَ، فسائلُهُمْ عنْ هذا الأمرِ، ومخيّرُهمْ في خصالٍ ثلاثٍ. فبعثَ إليهمُ ضَمرةَ ليُخيّرَهمْ بينَ أنْ يَدوا قتلى خزاعةَ، أو يبرأوا منْ حلفِ بنيْ نفاثةَ، أو يَنْبُذَ إليهمْ على سَواءٍ.

تأخرَ أبو سفيانَ بالرجوعِ وطالتْ غيبتُهُ، فاتهَمتُهُ قريشٌ بالخيانةِ، وقالوا: واللهِ إنّا نراهُ قد صَبأَ، واتبعَ محمداً سِرّاً، وكتمَ إسلامَهُ. فلمّا دخلَ على هندٍ امرأتِهِ ليلاً، قالت : لقد احتبسْتَ حتى اتهمَكَ قومُكَ، فإنْ كنتَ مع الإقامةِ جئتَهمْ بنُجْحٍ فأنتَ الرجلُ. ثم دنا منها، فجلسَ مجلسَ الرجلِ منْ امرأتِهِ. فقالتْ : ما صنعتَ؟ فأخبرها الخبرَ، وقالَ : لم أجدْ إلاّ ما قالَ لي عليٌّ.

---

١ كدَاء: اسم لأعلى مكة بالحجون.

٢ لست أدعو: أي أعبد أحدا.

٣ الوتير: عين ماء يقع جنوب غربي مكة وهو المكان الذي أغارت به بنو بكر على خزاعة.

٤ يقال بني فلان قَصْرَةً: أي دونَ الناس.

فضربتْهُ برجلها في صدرهِ وقالتْ : قُبِّحتَ منْ رسولِ قومٍ، فما جئْتَ بخيرٍ. فلمّا أصبحَ أبو سفيانَ حلَقَ رأسَهُ عند إسافٍ ونائِلَةَ، وذبَحَ لهما، وجعلَ يمسحُ بالدمِ رؤوسَهُما، ويقولُ: لا أفارقُ عبادَتِكُما حتى أموتَ على ما ماتَ عليهِ أبي، إبراءً لقريشٍ ممّا اتهموهُ بهِ. فلمّا رأتْهُ قريشٌ، قاموا إليهِ، فقالوا : ما وراءكَ؟ هلْ جِئتَ بكتابٍ منْ محمدٍ، أو زيادةٍ في مدّةٍ ما نأمَنُ بهِ أنْ يغزونا محمدٌ؟ فقال : واللهِ، لقد أُبيَ عليَّ، إلاّ أنّ عليّاً لمّا ضاقَتْ بي الأمورُ قال : أنتَ سيّدُ بني كنانةَ، فأجرْ بين الناسِ، فناديْتُ بالجوارِ. فواللهِ، لا أدري أيُغنيَ عني شيئاً أمْ لا. فقالَ محمدٌ : أنتَ تقولُ ذلكَ يا أبا حنظَلَةَ! لم يزدْنيْ. قالوا: رضِيتَ بغيرِ رضىً، وجئتَ بما لا يُغنيَ عنّا ولا عنكَ شيئاً، ولَعمْرُ اللهِ ما جِوارُكَ بجائزٍ، وإنَّ إخفارَكَ عليهمْ لَهيّنٌ، ما زادَ عليٌّ منْ أنْ لعِبَ بكَ تلعُّباً. قالَ : واللهِ ما وجدتُ غيرَ ذلكَ.

ولمّا أتى ضمرةُ رسولُ النبيِّ محمدٍ إلى مكةَ، أناخَ راحلتَهُ ببابِ المسجدِ، فدخلَ وقريشٌ في أندِيَتِها، فأخبرَهمْ أنّه رسولُ رسولِ اللهِ وأخبرهمْ بالذي أمرَهُ رسولُ اللهِ به. فقالَ قُرظَةُ بنُ عبدِ عمرو الأعمى : أمّا أنْ نَديَ قتلى خزاعةَ، فإنّ نفاثةَ قد أكثرَتْ فيهمُ القتلَ، فلا نَديهُمُ حتى لا يبقى لنا سَبَدٌ ولا لَبَدٌ، وأمّا أنْ نتبرأَ منْ حلفِ نفاثةَ فإنّه ليس قبيلةٌ منْ العربِ تحجُّ هذا البيتَ أشدُّ تعظيماً لهُ منْ نفاثةَ، وهم حلفاؤنا، فلا نبرأَ منْ حلْفِهِمْ، أو لا يبقى لنا سبدٌ ولا لبدٌ، ولكنْ ننبِذُ إليهِ على سواءٍ. أيْ همْ يريدونَ نقضَ العهدِ مع رسولِ اللهِ، فرجعَ ضمرةُ إلى رسولِ اللهِ ليُوصِلَ إليهِ ما اتفقَتْ عليهِ قريشٌ. (٤٣٢)

---

١ أساف ونائلة: هما صنمان معروفان من أصنام قريش، نصبا عند الكعبة في الجاهلية.

٢ أي لا يبقى لنا مال قليل أو كثير.

فَتْحُ مَكّةَ

مكثَ النبيُّ بعد خروجِ أبي سفيانَ فترةً من الزمنِ ولم يقمْ بأيّ ردّةِ فعلٍ مباشرةً حتى لا يظنَّ الناسُ أنّه يريدُ التحركَ إلى مكةَ، ثمّ قالَ لعائشةَ: جَهّزينا، وأخفي أمرَكِ. وقالَ: اللهمَّ خذْ على أسماعِهِمْ وأبصارِهِمْ، فلا يرونا إلاّ بغْتةً، ولا يسمعونَ بنا إلاّ فجأةً.

دخلَ أبو بكرٍ على عائشةَ وهي تحضِّرُ بعضَ جهازِ رسولِ اللهِ، فقالَ: أمرَكُنَّ رسولُ الله بتجْهيزِهِ؟ قالتْ : نعمْ، فتجهّزْ. قالَ : فأينَ ترينَهُ يريدُ؟ قالتْ : لا واللهِ ما أدري. قالَ : ما هذا زمانُ غَزوِ بنيْ الأصفرِ فأينَ يريدُ؟ قالت : لا علمَ لي. ودخلَ على رسولِ الله ، فقالَ : يا رسولَ الله، أردتَ سفَراً؟ قالَ : نعمْ. قال: أفأتجهّزُ؟ قالَ : نعمْ. قالَ: فأينَ تريدُ يا رسولَ الله؟ قالَ: قريشاً. وأخفِ ذلكَ يا أبا بكرٍ. قالَ: يا رسولَ الله، أليس بينَكَ وبينَهمْ مُدّةٌ؟ قالَ: إنّهمْ غدروا، أوَلمْ يبلغْكَ ما صنعوا بخزاعةَ. ثم قالَ لأبي بكرٍ: اطوِ ما ذكرْتُ لكَ. لم يعلمِ المسلمونَ وجهَ النبيّ بالتحديدِ، فظانٌّ يظنُّ أنّ رسولَ اللهِ يريدُ الشّامَ، وظانٌّ يظنُّ ثقيفاً، وظانٌّ يظنُّ هوازنَ. كما أمرَ رسولُ الله جماعةً أن تقيمَ في المسالِكِ بينَ الجبالِ. وأرسلَ إلى أهلِ الباديةِ، ومَنْ حولَهمْ منَ المسلمينَ، يقولُ لهم : منْ كانَ يؤمنُ باللهِ وباليومِ الآخرِ فليحضرْ رمضانَ بالمدينةِ. وبعثَ رسلاً في كل ناحيةٍ حتى قدموا على رسولِ الله ودعا رئيسَ كلِّ قومٍ مُسلِمَهُمْ وكافرَهمْ، فطلبَ منهُ أنْ يأتيَ قومَهُ، فيستنفِرَهمْ للحضورِ إلى المدينةِ. ولم يُبيّنْ لهم سببَ هذا الطلبِ، ولا الغايةَ منْ حضورِهمْ. ثم بعثَ بسَريّةٍ تمويهيّةٍ إلى منطقةِ بطنِ إضَمٍ، لكي يظنَّ الناسُ أنّ رسولَ الله متوجهٌ إلى تلك الناحيةِ، وأنْ لا تذهبَ الأخبارُ بأنّهُ يريدُ مكّةَ.

---

١ بنو الأصفر: أي الرُّوم.

٢ اطوِ: أي أخفيه واكتمه.

٣ بطن إضم: وهي فيما بين ذي خشب وذي المروة في الجهة الشمالية من المدينة على بعد ٤٠ كم.

رغمَ جهودِ النبيِّ لإخفاءِ خطّةِ تحرّكهِ وعملِهُ بِسرِّيَّةٍ تامّةٍ وتوصيتهُ بكتْمِ الخبر عنْ قريشٍ، رغمَ كلِّ ذلك، قامَ أحدُ أصحابهِ وهو حاطبٌ بنُ أبي بلْتَعَةَ بإرسالِ كتابٍ إلى قريشٍ يخبرُهمْ بالذي أجمعَ عليهِ رسولُ اللهِ منَ الأمرِ في المسيرِ إليهم، وأعطاهُ لامرأةٍ لكي توصلَهُ إلى مكةَ مقابلَ مبلغٍ منَ المالِ. وقالَ لها : اخفيهِ ما استطعْتِ، ولا تمرّيْ على الطريقِ، فإنّ عليها حَرساً. فجعلتْهُ في رأسها، ثم فتلَتْ عليهِ قَصيبَتَها، ثمّ خرجَتْ بهِ وسلكَتْ طريقًا آخرَ. كانَ حاطبٌ بنُ أبي بلتعةَ قد أسلمَ وهاجرَ إلى المدينةِ، وكانَ عيالُهُ ما يزالونَ في مكةَ. وكانتْ قريشٌ تخافُ أنْ يغزوهمْ رسولُ الله، فصاروا إلى عِيالِ حاطبٍ، وسألَوهمْ أنْ يكتبوا إلى حاطبٍ، يسألونَهُ عن خبرِ محمدٍ: هل يريدُ أن يغزو مكةَ؟ فكتبوا إلى حاطبٍ يسألونهُ عن ذلك. وأتى رسولَ الله الخبرُ من السماءِ بما صنعَ حاطبٌ، فاستدعى عليًّا وقالَ له: إنّ بعضَ أصحابي قد كتبَ إلى أهلِ مكةَ يخبرهم بخبرِنا، وقد كنتُ سألتُ اللهَ أنْ يعمي أخبارَنا عليهم، والكتابُ مع امرأةٍ سوداءَ قد أخذتْ على غيرِ الطريقِ، فخذْ سيفكَ والحقْها. ثم قالَ: فخذوهُ منها وخَلّوا سبيلَها، فإنْ أبتْ فاضربوا عنقَها. ثمّ استدعى الزبـيرَ بنَ العوّامِ وقالَ له: امضِ مع عليٍّ بنِ أبي طالبٍ في هذه الجهةِ. فمضيا، وأخذا على غيرِ الطريقِ، فأدركا المرأةَ، فسبقَ إليها الزبيرُ، فسألها عنِ الكتابِ الذي معها فأنكرَتْ، وحلفتْ: أنّهُ لا شيءَ معها، وبكَتْ. فقال الزبيرُ :ما أرى يا أبا الحسنِ أنّ معها كتاباً، فارجعْ بنا إلـى رسولِ الله نخبرُهُ ببراءةِ ساحتِها. فقالَ له عليٌّ : يخبرني رسولُ الله أنّ معها كتاباً ويأمرني بأخذهِ منها، وتقولُ أنتَ إنّهُ لا كتابَ معها! ثمّ اخترطَ السيفَ، وتقدّمَ إليها، فقالَ: أما واللهِ لئنْ لم تُخرجي الكتابَ لأكشفنَّكِ، ثمّ لأضربنَّ عنقَكِ. فقالتْ: إذا كان لا بدَّ منْ ذلكَ فأعرضْ يا بنَ أبي طالبٍ بوجهِكَ عنّي، فأعرضَ بوجهِهِ عنها، فكشَفتْ قناعَها، وأخرجَتِ الكتابَ من عَقيْصَتِها، فأخذَهُ عليٌّ، وصارَ بهِ إلى النبيِّ.

---

١ العقيصة: خصلة من الشعر مضفَّرة باستدارة على الراس أو في القفا.

أمرَ النبيُّ أن يُنادى: الصلاةُ جامعةٌ، فنُوديَ في الناسِ، فاجتمعوا في المسجدِ حتى امتلأَ بهم. ثمّ صعدَ النبيُّ إلى المنبرِ، وأخذَ الكتابَ بيدِهِ وقالَ: أيها الناسُ إني كنتُ سألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يخفيَ أخبارَنا عن قريشٍ، وإنّ رجلاً منكمْ كتبَ إلى أهلِ مكةَ يخبرُهمْ بخبرِنا، فليقُمْ صاحبُ الكتابِ وإلاّ فضحَهُ الوحيُ. فلم يقمْ أحدٌ، فأعادَ رسولُ الله مقالتَهُ ثانيةً، وقالَ: ليقمْ صاحبُ الكتابِ وإلاّ فضحَهُ الوحيُ. فقامَ حاطبٌ بنُ أبي بلتعةَ، وهو يرتعدُ كالسعْفةِ في يومِ ريحٍ عاصفةٍ، فقالَ: أنا يا رسولَ اللهِ صاحبُ الكتابِ، وما أحدثْتُ نفاقاً بعد إسلاميْ، ولا شَكّاً بعد يقيني. فقالَ لهُ النبيُّ : فما الذي حمَلكَ على أنْ كتبتَ هذا الكتابَ؟ قال : يا رسولَ الله، إنّ لي أهلاً بمكّةَ، وليس لي بها عشيرةٌ، فأشفقْتُ أنْ تكونَ دائرةٌ لهم علينا، فيكونَ كتابي هذا كَفّاً لهمْ عنْ أهلي، ويداً لي عندَهمْ، ولم أفعلْ ذلكَ للشكِّ في الدينِ. فقامَ عمرُ بنُ الخطابِ وقال : يا رسولَ الله مُرْنيْ بقتلِهِ، فإنّه منافقٌ. فقالَ رسولُ الله: إنّه منْ أهلِ بدرٍ. ولعلَّ اللهَ اطّلعَ عليهم فغفرَ لهمْ. أخرجوهُ منَ المسجدِ. فجعلَ الناسُ يدفعونُ في ظهرِهِ حتى أخرجوهُ، وهو يلتفِتُ إلى النبيِّ ليرقَّ عليهِ، فأمرَ رسولُ الله بردّهِ، وقالَ لهُ: قد عفوتُ عنكَ وعن جرمِكَ، فاستغفرْ ربَّكَ، ولا تعدْ لمثلِ ما جنيْتَ.

نهى اللهُ المؤمنينَ أنْ يتخذوا عدوَّ اللهِ وعدوَّهمْ أولياءَ وأنْ لا يجعلونَهمْ أحبّةً وأصدقاءَ وأهلَ مودّةٍ أويُسِرّونَ إليهمْ بالمحبّةِ ويبوحونَ لهم بأسرارِ المسلمينَ وما يخطّطونَ، وذلكَ لأنّهمْ كفروا بالنبيِّ المرْسَلِ إليهم وكفروا بما جاءهم منَ القرآنِ المنزَلِ منْ ربِّهِمْ. وكيفَ للمؤمنِ أنْ يجمعَ بينَ الإيمانِ باللهِ ورسولهِ وبينَ مودّةِ مَنْ يكفرونَ بذلكَ، وهم وقد أخرجوا النبيَّ وأخرجوا المسلمينَ من مكةَ وذلك كلُّهُ لإيمانِ المسلمينَ باللهِ وبما جاءَ منْ عندهِ. ثمّ يقولُ اللهُ يا أيها المؤمنونَ إنْ كنتُمْ خرجتُمْ منْ مكةَ مجاهدينَ في سبيلِ ديني وطلبِ مَرضاتيْ، فلا تتولّوا أعدائي وأعداءَكمْ. منكمْ مَنْ يخبرُ عدوّيْ وعدوّكم بمحبّتِهِ لهمْ سرًّا واللهُ يعلمُ الظاهرَ والمستورَ ولا يخفى عليهِ شيءٌ، ومَنْ يُسِرُّ منكمْ إلى الكفّارِ بمحبّتِهِ أو يتّخذُهمْ أولياءَ فقد انحرفَ عن جادّةِ العدلِ والحقِّ وضلَّ الطريقَ المستقيمَ. اعلموا يا أيها المؤمنونَ أنّهمْ إنْ لاقوكُمْ في حربٍ أو في سلمٍ، فسيعاملونَكمْ معاملَةَ الأعداءِ ولا يرحمونَكم ولا يرأفوا بكم بلْ تنالُكُمْ أيديَهمْ بالبطشِ والضربِ والقتلِ وينالونَكم بألسنتِهمْ شَتْماً وسبّاً وإهانةً وإذلالاً ويتمنّونَ

أنْ تكفروا وترجعوا إلى ما كنتم عليه منْ شركٍ. اعلموا أنّ الخائنَ الذي يواليْ عدوَّ اللهِ لن ينفعَهُ أهلُهُ وأولادُهُ يومَ القيامةِ حيثُ يتمُّ الفصلُ في الأمورِ ويحكمُ اللهُ بحكمِهِ العادلِ ويجزي المستحقَّ بما كانَ يفعلُ فكلُّ ما يقومُ بهِ الإنسانُ تحتَ نظرِ اللهِ يعلمُهُ ويشاهدُ أصحابَهُ وسيحاسِبُ الجميعَ ويعطيهِمْ جزاءَهمْ. ولقد كانَ لكم قدوةٌ في النبيِّ إبراهيمَ ومنْ معهُ منَ المؤمنينَ وكيفَ واجهوا المشركينَ وهم مثالٌ يُقتدى بهمْ ويجبُ السيرُ على دربِهِمْ فإنّهمْ قالوا لقومِهِمْ المشركينَ إنّنا بَرَاءٌ منكُمْ كمشركينَ وممّا تعبدونَ منْ دونِ اللهِ لقد كفَرْنا بعقيدتِكمْ ودينِكمْ، وبيننا وبينكم أيها المشركونَ العداوةُ والكراهيةُ والبغضاءُ وسيبقى ذلكَ مستمراً أبداً حتى تؤمنوا باللهِ وحدَهُ وتتركوا عبادةَ الأصنامِ فهي لا تضرُّ ولا تنفعُ. (٤٣٣)

خرجَ رسولُ الله يومَ الأربعاءِ بعد العصرِ، لعشرٍ خلونَ منْ شهرِ رمضانَ، ونادى منادِيهِ: مَنْ أحبَّ أنْ يصومَ فليَصمْ، ومنْ أحبَّ أنْ يفطرَ فليفطرْ، وصامَ رسولُ اللهِ. وجعلَ في مقدّمَةِ القافلةِ مائةَ فارسٍ، تكونُ أمامَ المسلمينَ. فلمّا كانوا بينَ وادي العرجِ و بئرِ الطلوبِ (أنظر شكل ٤٨) أتوا بجاسوسٍ منْ هوازنَ، فاستخبرَهُ رسولُ اللهِ، فأخبرَهُ أنّ هوازنَ تجمعُ له وقد أجابَتهمْ ثقيفٌ، وقد بعثوا إلى الجَّرَشِ ، فعملوا الدبّاباتِ والمنجنيقَ، فقالَ النبيُّ: حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ. ثمّ أمرَ خالدًا بنَ الوليدِ أنْ يحبسَهُ، لئلّا يذهبَ فيحذِّرُ الناس. لم يدري الناسُ إلى أين يسيرونَ، إلى قريشٍ، أو إلى هوازنَ، أو إلى ثقيفٍ و كانوا يحبّونَ أنْ يعلموا ولمّا نزلَ رسولُ اللهِ في وادي العرجِ، جلسَ في أصحابِهِ، وهو يتحدثُ، فقالَ كعبٌ بنُ مالكٍ: آتي رسولَ اللهِ فسأعلمُ لكمْ عِلْمَ وِجْهتهِ. فجاءَ كعبٌ بنُ مالكٍ فبركَ بينَ يديْ رسولِ اللهِ على رُكبتَيهِ، ثمّ قالَ :

---

١ منطقة جرش: مدينة تقع جنوب مكة على بعد ٦٧٠ كم في منطقة عسير و تعتبر محطة وقوف على طريق الحج القادم من اليمن وتسمى اليوم خميس مشيط.

٢ الدبابة: هي آلة'حرب تُصنع من خشب على شكل صندوق كبير يدخل الرجل في وسطه ويجرونها، وتُكسى بجلود سميكه تقيها الضربات والنار. وتقترب من الحصون وتنقب تحتها، ويكون سقفها واقيا لهم وتستعمل في مهاجمة الحصون فقط ولا تصلح لساحات القتال.

قَضَيْنَا مِنْ تهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ   وخيبَرَ ثمَّ أَجْمَمْنَا السّيُوفا

نُخَيّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ   قواطِعُهُنَّ: دوساً أو ثَقيفَا

فَلَسْتُ لِحَاضنٍ إنْ لَمْ تَرُوهَا   بِسَاحَةِ دارِكُمْ منّا أُلُوفَا

وَنَنْتَزِعُ العُروشَ بِبَطْنِ وجٍّ   وتصبحُ دُورُكم منكمُ خَلُوفَا

فتبسّمَ رسولُ الله ولم يزِدْ على ذلكَ. فجعلَ الناسُ يقولونَ: واللهِ ما بيَّنَ لكَ رسولُ اللهِ شيئاً، ما ندري بمَنْ يبدأُ بقريشٍ، أو ثقيفٍ، أو هوازنَ. ثم جاءَ عُيْينةُ إلى النبيِّ محمدٍ وقالَ : يا رسولَ اللهِ، بلغَنيْ خروجُكَ، ومَنْ يجتمعُ إليكَ، فأقبلتُ سريعاً ولم أُشعِرْ، فأجمعَ قومي، فيكونُ لنا جَلَبَةٌ كثيرةٌ، ولستُ أرى هيأةَ الحربِ، ولا أرى ألويةً ولا راياتٍ! فالعُمرَةُ تريدُ؟ فلا أرى هيأةَ الإحرامِ، فأينَ وجهُكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ : حيثُ يشاءُ اللهُ. ولمّا بلغَ قديداً لاقَتْهُ سليمٌ هناكَ، فعقدَ الألويةَ والراياتِ، ودفعَها إلى القبائلِ التي كانتْ معهُ، وكانتْ أكثرُ القبائلِ قد خرجَتْ معهُ، وإنَّ مَنْ بقيَ منهم في البلادِ لا يُخشى منهُ، وقد كانَ النبيُّ عارفاً بالمنطَقةِ وبِمَنْ يسكنُها منَ القبائلِ. فلمّا رأى عُيَيْنَةُ القبائلَ تأخذُ الراياتِ والألويةَ عضَّ على أناملهِ، فقالَ أبو بكرٍ: عَلامَ تندمُ؟ قالَ : على قوميْ ألّا يكونوا نفروا معَ محمدٍ، فأينَ يريدُ محمدٌ يا أبا بكرٍ؟ قالَ: حيثُ يشاءُ اللهُ. ثمّ جاءَ أحدُهمْ إلى رسولِ اللهِ وقالَ لهُ: يا رسولَ الله، هلْ لكَ في

---

١ تهامَة: مَا انخفض من أَرض الْحجاز. والريب: الشَّك. وأجممنا: أَي أَرحْنَا.

٢ نُخَيّرُهَا: أي نعطيها الخيرة، ولو نطقت، لاختارت أن نحارب دوسا أو ثقيفا.

٣ الحاضن: الْمَرْأَة الَّتِي تحضن وَلَدهَا. وَلَعَلَّه: الحاصن، وَهِي الْمَرْأَة العفيفة، كَأَنَّهُ يَقُول: «لست لرشدة إن لم تَرَوْهَا ... إِلَخ» وَهُوَ تهديد لَهُم. وساحة الدَّار: وَسطهَا، أَو فناؤها.

٤ العروش (هُنَا): سقوف الْبيُوت. وَوَج: مَوضِع بِالطَّائِف أَو هُوَ من أسمائها. وخلوف: يُرِيد: دورا تغيب عَنْهَا أَهلهَا.

بِيضِ النساءِ، وأُدْمِ الإبلِ، منْ بنيْ مُدلِجٍ؟ فقالَ رسولُ اللهِ: إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَهنَّ عليَّ ببرِّهِمُ الوالِدَ، ووكْزِهِمْ في لبّاتِ الإبلِ. لقد عرضَ على النبيِّ أنْ يهاجمَ بنيْ مدلجٍ، تحتَ وطأةِ إغراءٍ قويٍّ في اتجاهَين: أحدُهما: إغراءُ الجنسِ، فنساءُ بنيْ مدلجٍ بيضٌ. والآخرُ: إغراءُ المالِ، لأنّ لدى بني مدلجٍ أغلى أنواعِ الإبلِ وهي الإبلُ البيضاءُ، لكِنّهُ رفضَ ذلكَ، لأنّ التشريعَ الإسلاميَّ لا يُبيحُ مُهاجمَةَ الآخرينَ بصورة عشوائيّةٍ، وبلا ضابِطةٍ، وبنو مدلجٍ لا تجوزُ مهاجمَتُهمْ لأنّهمْ يصِلونَ أرحامَهمُ و يبِرّونُ أباءَهمْ و يذبحونَ الإبل بالطريقةِ الصحيحَةِ وِفْقَ أحكامِ شرائعَ كانتْ لديْهِمْ.

كانَ الناسُ متحيّرينَ أينَ يذهبُ بهمْ نبيُّ اللهِ وكانوا لا يعرفونَ أذاهِبونَ إلى مكّةَ، أو إلى ثقيفٍ، أو إلى هوازنَ. وذلكَ لأنّ هذه الاحتمالاتِ كلَّها تحتاجُ لمثْلِ هذا الجمْعِ العظيمِ من المقاتِلينَ، كما أنّها كلُّها تقعُ في منطقةٍ واحدةٍ، وفي أمْكِنةٍ متقاربةٍ، والطريقُ منَ المدينةِ إليها هو نفسُ هذا الطريقِ الذي سلَكهُ إلى قديدٍ.

استمرَّ المسلمونَ بالمسيرِ إلى مكّةَ دونَ أنْ يُفصحَ رسولُ اللهِ للمسلمينَ علانيةً عنْ وجهةِ الرحلَةِ وأهدافِها الحقيقِيّةِ كما وعميَتْ الأخبارُ كذلكَ عنْ قريشٍ، فلم يبلُغْهُمْ حرفٌ واحدٌ عنْ مسيرِ رسولِ اللهِ، ولا يدرونَ ما هو فاعِلٌ. حتى نزلوا في مرِّ الظهرانِ عشاءً، في عشرةِ آلافٍ منَ المسلمينَ فأمرَ أصحابَهُ أنْ يوقدوا عشرةَ آلافِ شعلةٍ منَ النارِ. في هذه الأثناءِ خرجَ أبو سفيانَ بنُ حربٍ يتحسَّسُ الأخبارَ وخرجَ معهُ حكيمٌ بنُ حزامٍ، فلقيا بديلًا بنَ ورقاءَ، فاستتْبَعاهُ، فخرجَ معهما يتحسَّسونَ الأخبارَ، وينظرونَ هلْ يجِدونَ أحدًا قادمًا، أو يسمعونَ خبرًا. فلمّا بلغوا شُجيراتِ مرِّ الظهرانِ، وكانَ ذلكَ عشيّاً، رأوا العسكرَ والقِبابَ والنيرانَ كأنّها نيرانُ عَرفَةَ، وسمعوا صهيلَ الخيلِ، ورُغاءَ الإبلِ، فأفْزعَهمْ ذلكَ المنظرُ فزعاً شديداً. فقالَ بديلٌ

---

١ الآدَمُ من الإبل: الشديد البياض.

٢ قرية في وادي الظهران، قريبة من مكة.

بنُ ورقاءَ: هؤلاءِ بنو عمروجاءتْ بهمُ الحربُ. فقالَ أبو سفيانَ: بنو عمرو أقلُّ منْ ذلكَ ولكنْ لعلَّ هذه تميمٌ أو ربيعةُ. قالوا: أتريدُ هوازنُ الإقامةَ على أرضنا؟! واللهِ ما نعرفُ هذا، إنّ هذا العسكرَ مثلُ حَجِّ الناسِ.

كانَ العبّاسُ قد ركبَ بغلةَ رسولِ اللهِ الشهباءَ وذهبَ خارجَ المعسكرِ. فعرفَ صوتَ أبي سفيانَ، فقالَ: يا أبا حنْظَلَةَ؟! فعرِفهُ أبو سفيانَ وقالَ : لبَّيكَ يا أبا الفضلِ، ما لكَ فِداكَ أبي وأمي! قالَ العباسُ: ويلكَ! هذا رسولُ اللهِ في عشرةِ آلافٍ. ففزِعَ أبو سفيانَ وقالَ: وا صباحَ قريشٍ، واللهِ بأبي أنتَ وأمي، فما تأمرُنيْ؟ هلْ منْ حِيلَةٍ؟ قالَ: نعمْ، اركَبْ عَجُزَ هذه البغْلَةِ، فأذهبُ بكَ إلى رسولِ اللهِ فاستأمِنُهُ لكَ، فإنّه واللهِ إنْ ظُفِرَ بكَ دونَ رسولِ اللهِ لتُقتلَنَّ. قالَ أبو سفيانَ : وأنا واللهِ أرى ذلكَ. فقالَ العباسُ: أسلِموا، فإنّي لكمْ جارٌ حتى تنتهوا إلى رسولِ اللهِ ، فإنّي أخشى أنْ تُقَطَّعوا دونَ النبيِّ. قالوا: فنحنُ معكَ. فركبَ أبو سفيانَ خلفَهُ، وجاءَ بهمْ إلى رسولِ اللهِ، وكلمّا مَرّا بنارٍ منْ نيرانِ المسلمينَ قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلةَ رسولِ اللهِ والعباسُ عليها، قالوا: عمُّ رسولِ الله على بغلَتهِ، حتى مَرّوا بنارِ عمرَ بنِ الخطابِ، فلمّا رآهُمْ، قامَ، فقالَ: مَنْ هذا؟ قالَ: العباسُ، فجاءَ ينظرُ، فرأى أبا سفيانَ خلْفَهُ، فقالَ: أيْ عدوّ اللهِ! الحمدُ للهِ الذي أمكنَ منكَ بغيرِ عقدٍ ولا عهدٍ. فاجتمعا على بابِ قُبّةِ رسولِ اللهِ، فقالَ العباسُ: يا رسولَ اللهِ، أبو سفيانَ بنُ حربٍ، وحكيمٌ بنُ حزامٍ، وبديلٌ بنُ ورقاءَ قد أجرتُهُمْ، وهم يدخلونَ عليكَ. فقالَ رسولُ اللهِ: أدخِلْهمْ. ودخلَ عمرُ على إثرهِ وقالَ: يا رسولَ اللهِ، هذا أبو سفيانَ قد أمكنَ اللهُ منهُ بغيرِ عقدٍ ولا عهدٍ، فدَعْني أضربْ عنقَهُ. فلمّا أكثرَ عمرُ في شأنِهِ، قالَ العباسُ: مهلاً يا عمرُ، فواللهِ لو كانَ من رجالِ بنيْ عديٍّ بنِ كعبٍ ما قُلْتَ هذا، ولكنّكَ قد عرفتَ أنّهُ منْ رجالِ بنيْ عبدِ منافٍ. فمكثوا عند النبيِّ عامّةَ الليلِ يستخبرُهمْ، ويدعوهُمْ إلى الإسلامِ. فقالوا : نشهدُ أنّ لا إلهَ إلاّ الله. فقالَ رسولُ اللهِ: اشهدوا أنّ لا إلهَ إلاّ الله وأنّي رسولُ اللهِ. فشهدَ بديلٌ، وحكيمٌ بنُ حزامٍ. وقالَ أبو سفيانَ: ما أعلمُ ذلكَ، واللهِ إنّ في

---

١ يعني بها خزاعة.

النفسِ منْ هذا لَشيْئاً بعدُ، فأرجِئْها. ثمّ قيلَ لحكيمِ بنِ حزامٍ: بايعْ. فقالَ: أُبايُعكَ قائماً ولا أسجدُ أو أركعُ لكَ. فقالَ رسولُ اللهِ: أمّا منْ قبلنا فلنْ تَخِرَّ إلاّ قائماً. كانَ حكيمٌ يرى أنّ ما للنبيِّ مُلْكاً مثْلَ سائرِ الملوكِ في فارسَ والرومِ ولا بدَّ منْ أنْ يخضعَ الناسُ لهُ إلى حَدِّ أنّهمْ يخرُّونَ سُجّداً أو ركَّعاً بمُجردِ رؤيتهِ تحيّةً له. فكان يريد أنْ يشترطَ لنفسهِ أمراً يمتازُ به وهو أن لا يخرُّ ساجداً أو راكعاً في تحيّتِهِ له، بلْ يحيِّيهِ وهو قائم. ولكنّ جوابَ النبيِّ لحكيمٍ قد بيَّنَ أي أنّه ليس في شرعِ الإسلامِ أيُّ خضوعٍ يصلُ إلى حدِّ الركوعِ والسجودِ لرسولِ الله لأنّ الركوعَ والسجودَ للهِ فقط. وقيل لأبي سفيانَ بايعْ، فقال: كيف أصنعُ باللّاتِ والعُزَّى؟ فقال عمرُ بن الخطابِ ـ وهو خارجُ القبّةِ ـ : إخرأْ عليها، أما والله لو كنْتَ خارجَ القبّةِ ما قلتَها. فقالَ أبو سفيانَ: مَنْ هذا؟ قالوا: عمرُ بن الخطابِ. قال أبو سفيانَ: أُفٍّ لكَ ما أفحشَكَ، ما يدخلُكَ يا عمرُ في كلامي وكلامِ ابن عمِّي. فقال رسولُ الله: أسلِمْ تسلَمْ يا أبا سفيانَ. فقال: يا أبا القاسمِ، ما أكرمَكَ وأحلمَكَ؟ قال: أسلمْ تسلمْ. قال: ما أكرمكَ وأحلمكَ؟ فقال رسولُ الله: اذهبْ به يا عباسُ إلى رحلِكَ، فإذا أصبحتَ فأتني به. فذهبَ به العباس إلى رحله. وكانت قريبةً، فلما جلس في الخيمةِ ندمَ على مجيئهِ مع العباسِ، وقال في نفسهِ: منْ فعلَ بنفسه مثْلَ ما فعلتُ أنا؟ جئتُ فأعطيتُ بيدي، ولو كنتُ انصرفتُ إلى مكةَ فجمعتُ الأحابيشَ وغيرهم فلَعلّيَ كنتُ أهزمهُ. فناداهُ رسولُ الله من خيمَتِهِ، فقالَ: إذاً كانَ الله يخزيكَ. فلما أذّنَ الصبحَ أجابَ العسكرُ كلُّهمْ المؤذِّنَ. ففزعَ أبو سفيانَ منْ أذانهم، فقال: ما يصنعُ هؤلاءِ؟ قال العباسُ: الصلاةُ. ثم رأى أبو سفيانَ كيف يتسابقُ الناسُ على وضوءِ رسولِ الله للتبرُّكِ منه، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ مَلِكاً قطُّ كاليومِ، لا مُلْكَ كسرى ولا قيصرَ.يا أبا الفضلِ! أصبحَ ابنُ أخيك واللهِ عظيمَ المُلكِ! فقال العباسُ: إنّه ليس بمَلكٍ، ولكنّها النبوّةُ. قال: أوذاكَ! فلمّا فرغَ رسولُ الله قال له: يا أبا سفيانَ، ألمْ يئنْ لكَ أن تعلمَ أنّ لا إلهَ إلاّ الله؟ قال: بأبي أنتَ وأمي، ما أحلمَكَ وأكرمَكَ، وأعظمَ عفوِكَ! إنّه لو كانَ مع اللهِ إلهٌ لقد أغنى عنّي شيئاً يومَ بدرٍ ويومَ أُحدٍ بعدُ، لقد استنصرْتُ إلهي، واستنصرْتَ إلهَكَ، فوالله ما لقيتُكَ من مرّةٍ إلاّ نُصِرتَ عليَّ، فلو كان إلهي محقّاً وإلهُكَ مبطلاً لكنتُ غلبتَكَ. فقال النبيُّ: ويحكَ يا أبا سفيانَ، ألم يئنْ لك أنْ تعلمَ أنّي رسولُ الله؟ قالَ: بأبي أنتَ وأمي، ما أحلمكَ وأكرمكَ، وأعظمَ عفوكَ! أما هذه فوالله

إنّ في النفس منها شيئاً حتى الآن. ثم عادَ إلى الخيمةِ، فجاءهُ العباسُ، فقال: يريدُ أبو سفيان أن يجيئُكَ يا رسولَ الله. قال: هاتِهِ، فلمّا دخلَ قال النبيُّ: ألَمْ يئنْ أنْ تسلِمَ؟ فقالَ له العباسُ: قلْ، وإلاّ فيقتلَكَ. فقال أبو سفيان: أشهدُ أنّ لا إلهَ إلاّ الله، وأنكَ رسولُ الله. فضحكَ النبيُّ وقال: ردَّهُ إلى عندكَ. فقال العباسُ: إنّ أبا سفيان يحبُّ الشرفَ فشرِّفْهُ. فقال الرسولُ: مَنْ دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ. فقال أبو سفيان: وما تسعُ داري! ثم قال النبيُّ: ومن دخلَ دارَ حكيم بن حزامٍ فهو آمنٌ. ومن أغلق بابهُ فهو آمنٌ، ومن دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ. فقال أبو سفيانَ: وما يسعُ المسجدُ. قال رسولُ الله: ومن أغلقَ بابه فهو آمنٌ. فقال أبو سفيان: هذه واسعةٌ . أرادَ النبيُّ صونَ حرمِ الله والحفاظَ على كرامةِ بيتهِ، لأنّ في ذلك حفظَّ الإسلامِ، فأعلنَ الأمانَ لأهلِ مكةَ، حتى لا تراقَ أيّةُ قطرةِ دمٍ في حرمِ الله. كما أنّ رسولَ الله، وإنْ كان قد أنعمَ لأبي سفيان بهذا الأمرِ وأعطاهُ بعضَ التشريفِ بيدٍ، ولكنّهُ عادَ فأخذهُ منه باليدِ الأخرى، بأسلوبٍ رصينٍ يجعلُ الناسَ يدركونَ للتوّ أنه مجردُ إجراءٍ شَكْليٍّ ليس له مضمونٌ تشريفيٌّ ولا تكريمٌ. فأبو سفيان ليس فقط لم يحصلْ على ما أرادَ منَ الذكرِ والفخرِ، وإنما أُخِذَ منه ما كان قد استلبَهُ بغير حقٍّ. وذلك بأن ساوى الرسولُ بين دخولِ دارِ أبي سفيان مع دخولِ دارِ أيِّ إنسانٍ في مكةَ بلْ ساواهُ بكلِّ من يتخذُ وضعًا غيرَ قتاليٍّ وبذلك حَطَّ من المقامِ الذي جعلهُ أبو سفيان لنفسهِ، وجعلهُ كأيّ إنسانٍ آخرَ من أهلِ مكةَ.

ثم قال أبو سفيانَ، وحكيمٌ بن حزام: يا رسولَ الله جئتَ بأوباشِ الناسِ، مَنْ يعرفُ ومَنْ لا يعرفُ إلى أهلِكَ وعشيرتكَ؟! فقال رسولُ الله: أنتم أظلمُ وأفجرُ، قد غدرتُمْ بعهدِ الحديبيّةِ، وظاهرتمْ على بني كعبٍ بالإثمِ والعدوانِ في حَرمِ الله وأمنِهِ. فقال حكيمٌ، وأبو سفيانَ: صدقتَ يا رسولَ الله. ثم قالا: يا رسولَ الله، لو كنتَ جعلت جِدّكَ ومكيدتِكَ لهوازنَ، فهم أبعدُ رحماً، وأشدُّ عداوةً لك؟ لم يكنْ تحريضُ أبي سفيانَ، وحكيم لرسولِ الله على هوازنَ يهدفُ إلى إقامةِ الحقّ أو نشرِ الدينِ بلْ كان نابعًا من منطلقٍ قبليٍّ ظالمٍ لأنهم ادعوا أنهمْ أبعدُ رحماً، وأشدُّ عداوةً له. فقال رسولُ الله: إني لأرجو من ربّي أن يجمعَ لي ذلكَ كلَّهُ؛ فتحَ مكةَ، وإعزازَ الإسلامِ بها، وهزيمةَ هوازنَ، وغنيمةَ أموالهِمْ وذراريهم، فإني أرغبُ إلى اللهِ في ذلك.(٤٣٤)

لقد مضى على بعثةِ رسولِ اللهِ أكثرُ من عشرينَ سنةً، عاشَ منها النبيُّ ثلاثَ عشرةَ سنةً في مكةَ، وأظهرَ لهم فيها تعاليمَ الإسلامِ، وأحكامَهُ، وقرأ عليهم القرآنَ. إلاّ إنّهمْ ما زالوا يظهرونَ في أفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ ما يشيرُ إلى خطأٍ فاحشٍ في أساسِ نظرتِهِمْ إليه، وإلى تعاليمِهِ. ويتجلّى ذلك بأنَّ ما يرونَهُ لدى محمدٍ هو المُلكُ وليس النبوّةَ.

لم يكنْ رسولُ الله ليقهرَ الناسَ على الإيمانِ ولكنْ مثلُ أبي سفيانَ ممّنْ يرتكبُ جريمةَ محاربةِ الحقّ، ويحاربُ الله ورسولَهُ، ويسعى في قتلِ أهلِ الحقّ لا يسلمُ من الجزاءِ العادلِ على عدوانِهِ هذا، إلا إذا أعلنَ تراجعَهُ عن موقفِهِ هذا. ولمّا ذهبَ أبو سفيانَ لينصرفَ، قال رسولُ الله للعبّاسِ: احبسْهُ بمضيقِ الوادي حتى تمرَّ عليه جنودُ الله. فأدركَهُ العباسُ فحبَسهُ، فقال أبو سفيانَ: أغدراً يا بني هاشمٍ؟! فقال العباسُ: إنّ أهلَ النبوةِ لا يغدرونَ ولكنْ لي إليك حاجةٌ. فقال أبو سفيانَ : فهَلّا بدأتَ بها أوّلاً؟

أعطى رسولُ الله رايةً لسعدٍ بن عبادةَ، فكانَ أمامَ الكتيبةِ ، فلمّا مرَّ سعدٌ برايةِ رسولِ الله نادى أبا سفيانَ فقالَ: اليومَ يومُ المَلْحَمةِ، اليومَ تُستحَلُّ الحُرمَةُ، اليومَ أذلَّ اللهُ قريشاً. ولمّا مرَّ رسولُ الله بأبي سفيانَ، قال: يا رسولَ الله أمرتَ بقتْلِ قومِكَ؟! ألمْ تعلمْ ما قال سعدٌ بن عبادة؟! قال: «ما قالَ»؟! قال : كذا وكذا ، وإني أُنشدُكَ اللهَ في قومِكَ ، فأنتَ أبَرُ الناسِ، وأوصلُ الناسِ، وأرحمُ الناسِ.

يبدو أنّ سعدًا بن عبادةَ أطلقَ كلماتِهِ تلك انسياقاً من مشاعرِهِ الجيّاشةِ إذْ كان يريدُ أنْ يُخيفَ أبا سفيانَ. لكنّ النبيَّ كان يحرصُ على سلميّةِ تحرُّكِهِ للحفاظِ على حَرمِ الله، فقال: كذبَ سعدٌ يا أبا سفيانَ ، اليومَ يومُ المَرْحَمَةِ ، اليومَ يومٌ يعظِّمُ الله فيه الكعبةَ، اليومَ يومٌ تُكسى فيه الكعبةُ، اليومَ يومٌ أعزَّ الله فيه قريشاً، ثم أرسلَ رسولُ الله عليًّا بنَ أبي طالبٍ إلى سعدٍ وقال له: أدركْهُ، وخُذِ الرايةَ ،كنْ أنتَ الذي يدخلُ بها، وادخِلْها إدخالاً رفيقاً. فأخذَها عليٌّ وأضافَهُ إلى لوائِهِ ودخلَ مكةَ بلواءينِ. فخشي النبيُّ أنْ يحزنَ سعدٌ ويتغيّرَ مزاجُهُ، فأمرَ بدفعِها لابنِهِ قيسٍ، ورأى رسولُ الله أنّ اللواءَ لم يخرجْ من يدِ سعدٍ، حتى صارَ إلى ابنهِ. لكنّ سعداً خشيَ

أنْ يقعَ من ابنهِ شيءٌ من العنْفِ، فسألَ رسولَ الله أنْ يأخذها، فحينئذٍ أخذَها الزبيرُ. لم يكنْ أخذُ الرايةِ من سعدٍ يهدفُ إلى إهانتهِ ، أو المسِّ بمقامِهِ. لذلك أُخِذتْ منه لكي تُعطى لمَنْ هو أولى بها منهُ، ألا وهو عليٌّ بنُ أبي طالبٍ ليُدخِلَها إلى مكةَ إدخالاً رفيقاً ، بعيداً عن أجواءِ الإثارةِ والتحدّيْ ويعيدُها إلى قيسِ بنِ سعدٍ بنِ عبادةَ ، ليرْكِزَها عند الحجونِ، لأنّ إعطاءَ الرايةِ للولدِ يرضي الوالدَ، ويحفظُ ماءَ وجههِ.(٤٩٦)

واصلَ المسلمونَ سيرَهمْ، حتى انتهوا إلى ذي طُوى، فوقفوا ينتظرونَ رسولَ اللهِ حتى تلاحَقَ الناسُ، وأقبلَ رسولُ الله في كتيبتهِ الخضراءِ، وهو على ناقتهِ القصواءِ، معتَجِراً وقد طأطأَ رأسَهُ تواضعاً للهِ، وهو يقرأُ سورةَ الفتحِ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا...﴾ (٤٣٥)

الذنْبُ الذي ذُكِرَ في الآيةِ، هو ما اعتبرَهُ المشركونَ ذنباً له، وهو دعوتُهُ إلى الإسلامِ، ورفضُهُ دينَ أهلِ قريشٍ، وما وقعَ من حروبٍ معهمْ، وقتلٌ لرجالهِمْ. فجاءَ فتحُ مكةَ ليكسرَ شوكتهم وليدخلوا في دينِ الله، وليروا أنّ مصلحتَهمْ تقضي بالتقرُّبِ منه فصاروا يصرِّحونَ: بأنّهمْ هم المخطئونَ وهو المصيبُ.

إنّ يومَ فتحِ مكةَ هو يومُ رفعِ الظلمِ ويومُ إعلانِ الحربِ على الفسادِ والمفسدينَ والظلمِ والظالمينَ وهو يومُ تعظيمِ الكعبةِ وكسوتِها وهو يومُ عزِّ قريشٍ التي أعلنَتْ براءتها من الشركِ، والتزامَها بالإيمانِ باللهِ، وبأنبيائهِ ورسلهِ، وقبولِ دينهِ.

دخلَ رسولُ الله من أذاخرَ حتى نزلَ بأعلى مكةَ وأمرَ الزبيرَ بنَ العوّامِ أن يدخلَ من كداءَ من أعلى مكةَ، وأن يغرزَ رايتَهُ بالحجونِ، ولا يبرحَ حتى يأتيهِ، وأمرَ خالدًا بن الوليدِ أن يدخلَ من أسفلَ مكةَ من اللّيطِ (أنظر شكل ٥٣)، وأمرَ جميعَ أُمراءهِ أن يكفوا أيديَهمْ، ولا يقاتلوا إلاّ مَنْ قاتلَهمْ. ولمّا دخلَ برايتهِ البيضاءِ استشرفَهُ الناسُ، فوضعَ رأسَهُ على رحلْهِ متخشّعاً ثمّ قال: اللهمَّ إن العيشَ عيشُ الآخرة. لقد توقَّعَ الناسُ أن يروا هيبةَ الملكِ وزهوَّ

السلطانِ في رسولِ الله ولكنَّهمْ رأوا مظهراً آخرَ من مظاهرِ العبوديّةِ لله، وصورةً رائعةً من صورِ الخضوعِ والخشوعِ له، حتى إنّ هذا الفاتحَ المنتصرَ يطأطِئُ رأسَهُ تخشُّعاً وتواضعاً لله وذلك لما رآهُ من الفتحِ، وكثرةِ المسلمينَ. في هذا الموقفِ، لم يكنِ الرسولُ يتوقعُ الدعمَ من الناسِ أمامَ الله، بلْ كان يقفُ وحدَهُ أمامَ الله. كان يتوسَّلُ إلى الله وحدهُ، دونَ شريكٍ. كان يطلبُ من اللهِ أنْ يمنحَهُ النصرَ وأولئكَ الذينَ معهُ، ولم يكنْ لديهِ رغبةٌ في الانتصارِ بفضلِهمْ.

لمّا دخلَ خالدٌ بن الوليدِ من حيثُ أمرهُ رسولُ الله، وجدَ جمعًا من المشركينَ، فمنعوهُ من الدخولِ، وشهروا في وجههِ السلاحَ، ورموهُ بالنبْلِ، وقالوا: لا تدخلها عُنوةً. فصاحَ في أصحابهِ، فقاتلَهمْ، وقتلَ من قريشٍ أربعةً وعشرينَ رجلاً، وأربعةً من هُذيلٍ. وانهزمَ الباقونَ في كل وجهٍ. وانطلقَتْ طائفةٍ منهم فوقَ رؤوسِ الجبالِ، وتَبِعَهُم المسلمونَ. فلمّا دخلَ رسولُ الله مكةَ شاهدَ بعضَ المشركينَ الفارينَ من جيشِ خالدٍ وهم يحملونَ السلاحَ، فقال: ما هذه الأسلحةُ؟! ألمْ أنْهَ عن القتالِ! ووجّهَ اللّومَ إلى خالدٍ، وقال له: قاتلتَ، وقد نُهيتَ عن القتالِ! قال خالدٌ: هم يا رسولَ الله بدؤونا بالقتالِ، ورمونا بالنبْلِ، ووضعوا فينا السلاحَ، وقد كففْتُ ما استطعْتُ، ودعوتُهمْ إلى الإسلامِ وأن يدخلوا فيما دخلَ فيه الناسُ، فأبوا، حتى إذا لم أجدْ بُدّاً من أن أقاتلَهمْ، قاتلْتُهمْ، فأظفرَنا اللهُ بهمْ، فهربوا في كلِّ وجهٍ. فقال له النبيُّ: كُفَّ عنِ الطلبِ. في الواقعِ، كان خالدٌ قد قتلَ الكثيرَ منهمْ بالرغمِ من عدمِ وجودِ مقاومةٍ حقيقيّةٍ منهمْ، مخالفاً بذلك أوامرَ رسولِ الله. فهرَبتْ مجموعةٌ منهمْ إلى البحرِ والجبالِ وباتجاهِ اليمنِ، ولكنْ واصلَ خالدٌ ملاحقتَهمْ حتى أمرَهُ رسولُ الله بالتوقُّفِ للمرّةِ الثانيةِ. أسرعَ أبو سفيانَ ودخلَ مَكّةَ مع حكيمِ بنِ حزامٍ وهما يصيحانِ: يا معشرَ قريشٍ، هذا محمدٌ قد جاءكُمْ بما لا قِبَلَ لكم بهِ، فَمَنْ دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ. فقامَتْ إليه هندٌ بنتُ عتبةَ، فأخذَتْ بشاربِهِ، وقالت: اقتلوا الحَمِيتَ الدسمَ الأخمشَ الساقينِ، قُبِّحَ من طَلِيعَةِ قومٍ. قال أهلُ مكةَ: قاتلكَ اللهُ، و ما

١ تريد أن تشتمه وتعني: اقتلوا ضخم البطن رفيع الساقين الذي لا خير فيه، أقبح من في قوم.

تغني عنا دارُكَ؟ قال أبو سفيانَ: ومن دخلَ دارِهِ فهو آمنٌ، ومَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ، ومَنْ وضعَ السلاحَ فهو آمنٌ. فتفرَّقَ الناسُ إلى دُورِهِمْ و إلى المسجدِ، وراحوا يغلقونَ عليهمْ، ويطرحونَ السلاحَ في الطرُقِ، حتى يأخذَها المسلمونَ.

تدفقَ المسلمونَ بالآلافِ من كلِّ جهةٍ في مكة. ونزل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً ۝﴾ أيْ قُلْ يا محمدُ: جاءَ الحقُّ وهو الإسلامُ الذي يحملُ الحقَّ في عقائدِهِ وأحكامِهِ وتشريعاتِهِ، فلا يعودُ للباطلِ بعد مجيئِ الحقّ أثرٌ، إنَّ الباطلَ منذُ كانَ، كانَ ميْتاً لأنّه يدعو إلى الموتِ ويحملُ الموتَ في جوفِهِ فلا بقاءَ لهُ بلْ الزوالُ حظّهُ ونصيبُهُ، [٤٣٦] فارتجَّتْ مكّةُ من قولِ أصحابِ رسولِ اللهِ: جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً.

ثمّ نصبَ رسولُ اللهِ خيمَتَهُ في الحُجونِ عند شِعْبِ أبي طالبٍ وأبى أنْ ينزلَ في أيِّ بيتٍ من بيوتِ مكّةَ. فلما أشرفَ من أذاخِرَ ورأى بيوتَ مكّةَ، وقفَ عليها، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ، ونظرَ إلى موضعِ قُبّتهِ، فقالَ:هذا منزلنا يا جابرُ، حيثُ تقاسمَتْ قريشٌ علينا في كفرها. هنا تذكّرَ جابرٌ حديثاً كانَ سمعَهُ منهُ قبلَ ذلكَ بالمدينةِ: منزلنا إذا فتحَ اللهُ علينا مكّةَ في خَيفِ بنيْ كِنانَةَ، حيثُ تقاسموا على الكفْرِ.

وجاءَ رسولُ اللهِ إلى أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالبٍ وقالَ: هلْ عندكِ منْ طعامٍ نأكلُهُ؟ قالتْ: ليس عنديْ إلاّ كِسَرُ خبزٍ يابسٍ، وإنّيْ لأستَحيَ أنْ أقدّمَها إليكَ. فقالَ: هلمّي بهنَّ. فكسّرَهُنَّ في ماءٍ. وجاءتْ بمِلحٍ فقالَ: هلْ منْ إدَامٍ؟ فقالتْ : ما عندي يا رسولَ اللهِ إلاّ شيءٌ منْ خَلٍّ. فقالَ:

---

١ الخَيْفُ: ما انحدرَ من غِلَظِ الجبل وارتفعَ عن مَسِيْل الماء.

٢ فاختة بنت أبي طالب وتعرف بكنيتها التي اشتهرت بها وهي أم هانئ، هي بنت عم رسول الله وأخت علي بن أبي طالب.

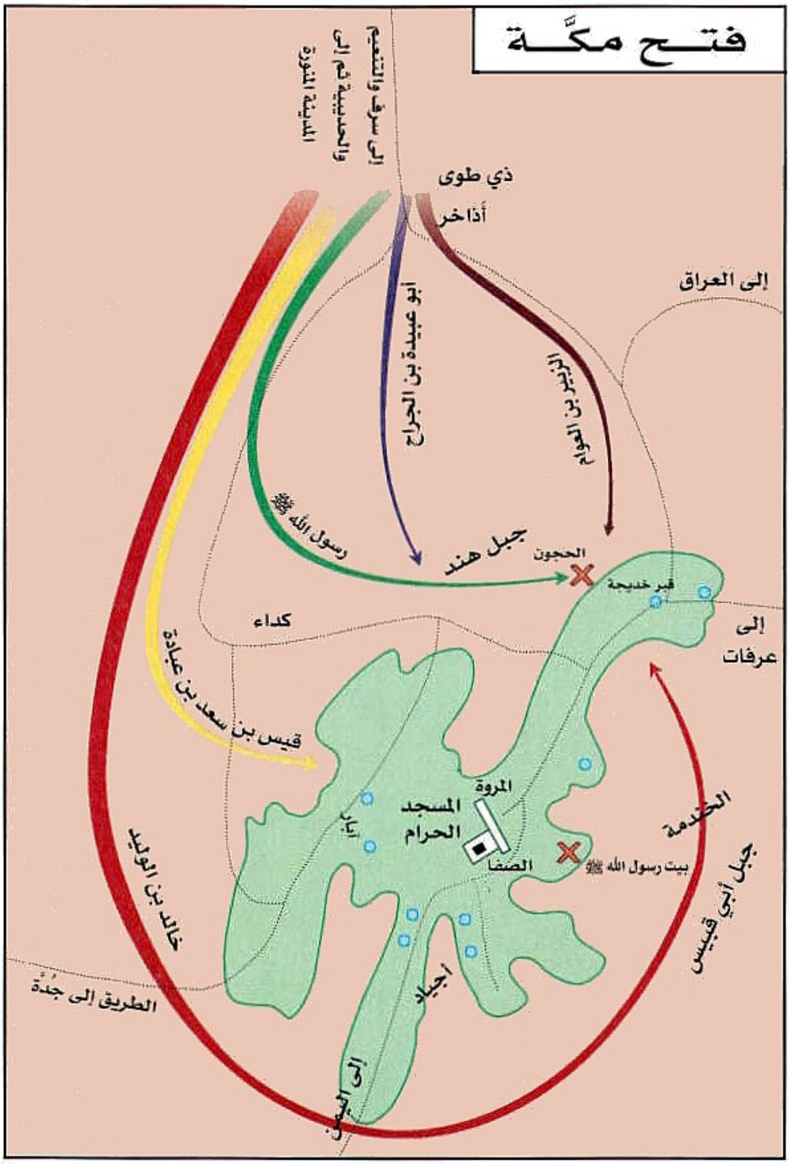
٣ الإدَام: هو ما يغمس فيه الخبز من مرق ونحوه.

هَلُمِّيهِ، فصبّهُ على الطعامِ، وأكلَ منهُ، ثمّ حمدَ اللهَ، ثمّ قالَ: نِعمَ الأدَمُ الخلُّ، يا أمَّ هانئٍ لا يفقرُ بيتٌ منْ أَدَمَ فيهِ خلٌّ.

دخلَ رسولُ اللهِ مكّةَ بغيرِ إحرامٍ وعادَ للبسِ السلاحِ والمغْفَرِ على رأسِهِ، ثمّ دعا براحلتهِ القصواءِ والخيلُ معهُ، فسارَ حتى انتهى إلى الكعبةِ، فرآها ومعهُ المسلمونَ، واستلَمَ الركْنَ بمِحجَنِهِ، وكبّرَ، فكبّرَ المسلمونَ بتكبيرهِ، حتى ارتجَّتْ مكّةُ تكبيراً حتى جعلَ رسولُ اللهِ يُشيرُ إليهمْ أنِ اسكتوا، والمشركونَ فوقَ الجبالِ ينظرونَ. وطافَ رسولُ اللهِ بالبيتِ، فأقبلَ على الحجَرِ فاستلَمَهُ وكانَ حولَ الكعبةِ أصنامٌ كثيرةٌ، فجعلَ رسولُ اللهِ كلما مرَّ بِصَنَمٍ منها يشيرُ إليهِ، ويطعنُهُ في عينِهِ أو في بطنهِ ويقولُ: جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً. فكانتْ الأصنامُ تسقطُ على وجوهها منْ غيرِ أنْ يمسَّها. وأهلُ مكّةَ يقولونَ: ما رأينا رجلاً أسحرَ منْ محمدٍ.

---

١ المحجن: العصا المنعطفه الراس كالصولجان.



شكل(٥٣): مُخطط فتح مكة.

في هذا الزحامِ أرادَ أحدُهمْ قتلَ النبيِّ مستغِلاً الجمْعَ الكبيرَ للناسِ حولَهُ وهو يطوفُ بالبيتِ وهو فُضالَةُ بنُ عُميرٍ بنِ الملوّحِ اللّيثيْ فلما دنا منهُ قالَ رسولُ اللهِ لهُ: أفُضالَةُ؟ قالَ : نعمْ.

قالَ: ماذا كنْتَ تحدِّثُ بهِ نفسَكَ؟ قالَ: لا شيءَ، كنتُ أذكرُ اللهَ، فضحِكَ رسولُ اللهِ ثمّ قالَ: استغفرِ اللهَ. ثمّ وضعَ يدَهُ على صدرهِ فسكَنَ. ثمّ بعد أنْ طافَ صارَ إلى خَلْفِ مقامِ إبراهيمَ فصلّى ركعتينِ. ثمّ جاءَ للأصنامِ فوقَ الكعبةِ وقالَ: يا عليُّ، اصعَدْ على منكبَيَّ، واهدمْ الصنَمَ. فقالَ: يا رسولَ اللهِ، بلْ اصعدْ أنتَ، فإنّي أُكرِمُكَ أنْ أعلوكَ. فقالَ: إنّكَ لا تستطيعُ حَمْلَ ثقلِ النبوّةِ، فاصعدْ أنتَ، فصعدَ عليٌّ. ثمّ قالَ رسولُ اللهِ: ما ترى يا عليُّ؟ قالَ: أرى أنّ اللهَ قد شرَّفنيْ بكَ، حتى لو أردتَ أنْ أمسَّ السماءَ لمسستُها. فقالَ رسولُ اللهِ: طوبى لكَ تعملُ للحقّ، وطوبى ليْ أحملُ للحقِّ وصارَ يأخذُ الأصنامَ عنْ جدارِ الكعبةِ، ويلقيها في النارِ. فلما فرغَ رسولُ اللهِ منْ طوافِهِ أرسلَ بِلالاً إلى عثمانَ بنِ طلحةَ ليأتيَهِ بمفتاحِ الكعبةِ، فذهبَ بلالٌ إلى عثمانَ، وقالَ: إنّ رسولَ اللهِ يأمرُكَ أنْ تأتيَ بالمفتاحِ. فقالتْ أمّهُ: لا. واللّاتِ والعزَّى، لا أدفعُهُ إليكَ أبداً. فأبطأَ عثمانُ ورسولُ اللهِ قائمٌ ينتظرهُ، فكانَ يتصبَّبُ عرَقاً، ويقولُ: ما يحبِسهُ فيسعى إليهِ رجلٌ. حتى جاءوا بالمفتاحِ فتناولَ رسولُ اللهِ المفتاحَ، ففَتحَ الكعبةَ بيدهِ، ودعا عمرَ بنَ الخطابِ، وقالَ لهُ: هذا تأويلُ رؤيايَ. يبدو أنّ عمرَ بنَ الخطابِ كانَ لا يزالُ يشكّكُ في صِدْقِ رؤيا رسولِ اللهِ، معَ أنّ رؤياهُ منَ الوحيْ. ثمّ أرجعَهُ رسولُ اللهِ إلى عثمانَ وقالَ: خذوها خالدةً تالدةً لا ينزعُها منكمْ إلاّ ظالمٌ، يا عثمانُ، إنّ اللهَ استأمَنَكمْ على بيتِهِ، فكلوا ممّا وصلَ إليكم منْ هذا البيتِ بالمعروفِ فلمّا ولّىَ عثمانُ ناداهُ، فرجعَ إليهِ، فقالَ الرسولُ: ألمْ يكنْ الذي قلتُ لكَ؟ فذكرَ رسولُ اللهِ قولَهُ لهُ بمكّةَ قبلَ الهجرةِ: لعلَّكَ سترى هذا المفتاحَ يوماً بيديْ أضعُهُ حيثُ شئتُ. ثمّ دخلَ الكعبةَ وكبَّرَ في زواياها، وأرجائها وصلّى


شكل(٥٤): صورة تخيلية للنبي وهو يخطب بالناس أمام الكعبة.

ركعتَينِ، فأمرَ بصُورٍ في الكعبةِ فطُمِسَتْ. ثمّ فتحَ البابَ والتفَّ الناسُ حولَهُ، وأشرفَ على الناسِ حولَ الكعبةِ وهم جُلوسٌ.

ثمّ قالَ: لا إلهَ إلاّ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، صدقَ وعدَهُ. ونصرَ عبدَهُ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ، يا معشرَ قريشٍ ماذا تقولونَ؟ ماذا تظنّونَ أنّي فاعلٌ بكم؟ قالوا: نقولُ خيراً، ونظنُّ خيراً. نبيٌّ كريمٌ، وأخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ، وقد قدرْتَ. فقالَ رسولُ اللهِ : فإنّي أقولُ كما قالَ أخي يوسفُ :﴿لا تَثْرِيبَ[١] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِـينَ ۝ ﴾ (٤٣٧). إذهبوا فأنتمُ الطُّلقاءُ.

وبذلكَ أعطاهمْ رسولُ اللهِ الحريّةَ في التصرُّفِ كتصرُّفِ الأحرارِ ولم يسترقُّهمْ كما يُفعَلُ بالعبيدِ. ثمّ قالَ رسولُ اللهِ: ألا وإنّ اللهَ قد أذهبَ عنكمْ نَخْوةَ الجاهليّةِ ، وتكبُّرَها بآبائها، كلُّكمْ لآدمَ وآدمُ منْ ترابٍ. ثمّ تلا هذه الآيةَ : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ ۝ ﴾ (٤٣٨) ثمّ جلسَ وقالَ: يا أيُّها الناسُ، الناسُ رجُلانِ، فبَرٌّ تقيٌّ كريمٌ، وكافرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على اللهِ. ألا إنّ اللهَ حرَّمَ

---

١ لا تثريب: أي لا تأنيب لكم ولا توبيخ.

٢ النَّخوَة :العظمةُ والكِبْرُ وتعني أيضاً الحماسة والمُروءة، أي الفخر بالجاهلية.

مكّةَ يومَ خلقَ السماواتِ والأرضَ، ووضعَ هذينِ الأخشبَينِ، فهي حرامٌ بحرامِ اللهِ، لم تحِلَّ لأحدٍ كانَ قبلي، ولنْ تحلَّ لأحدٍ كائنٍ بعدي، لم تحلَّ ليْ إلّا ساعةً منْ نهارٍ وهي محرّمَةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ... ثمّ قامَ بِنُصحِهِمْ وتعليمِهِمْ أحكامَ الدينِ حتى قالَ: أقولُ قوليْ هذا وأستغفرُ اللهَ ليْ ولكمْ.

بعد خطبتِهِ عدَلَ رسولُ اللهِ إلى جانبِ المسجدِ، فأُتيَ بدلْوٍ منْ ماءِ زمزمَ، فغسلَ منها وجهَهُ، وكانَ ما يقعُ منهُ قطرةٌ إلاّ في يدِ إنسانٍ إلاّ مَسَحَ جلدَهُ تبرُّكاً بها. ثمّ جلسَ رسولُ اللهِ في منطقَةٍ مسفلةٍ في مكّةَ، فبايعَ الناسُ على الإسلامِ هناكَ، وجاءهُ الكبارُ والصغارُ، والرجالُ والنساءُ، فبايعَهمْ على الإيمانِ باللهِ، وشهادةِ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهَ، وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ، ولما فرغَ منْ بيعةِ الرجالِ بايعَ النساءَ، وفيهنَّ هندٌ بنتُ عُتبةَ، امرأةُ أبي سفيانَ متنقِّبَةٌ متنكّرَةٌ خوفاً. فلما دنيْنَ منْ رسولِ اللهِ قالَ: بايعْنَنيْ على ألاّ تشرِكْنَ باللهِ شيئاً.

فرفعَتْ هندٌ رأسها وقالتْ: واللهِ إنّكَ لتأخذُ علينا ما لا تأخذُهُ على الرجالِ. فقالَ: ولا تسرِقْنَ. فقالتْ: واللهِ إني كنتُ أصبتُ منْ مالِ أبي سفيانَ الهَنَةَ وما كنُتُ أدري أكانَ ذلكَ حلالاً أم لا؟

فقالَ أبو سفيانَ ـ وكانَ شاهداً لما تقولُ ـ : أمّا ما أصبْتِ فيما مضى فأنتِ منهُ في حلٍّ، عفا اللهُ عنكِ. ثمّ قالَ: ولا تزنينَ. فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، أوَتزني الحُرّةُ؟! ثمّ قالَ: ولا تقتلْنَ أولادَكُنَّ. قالتْ: قد ربّيناهُمْ صغاراً، وقتلتَهمْ كباراً، فأنتَ وهم أعلمُ. فضحِكَ رسولُ اللهِ وعمرُ، ثمّ قالَ: ولا تأتينَ ببُهتانٍ تفتريْنَهُ منْ بينِ أيديكنَّ وأرجلِكُنَّ. فقالتْ: واللهِ، إنّ إتيانَ البهتانِ لقبيحٌ، ولَبعضُ التجاوزِ أمثلُ. ثمّ قالَ: ولا تعصِينَ في معروفٍ. قالتْ: واللهِ ما جلسْنا مجلسَنا هذا وفي أنفسنا أنْ نعصيَكَ. رغمَ أنّ هذه المرأةَ قالتْ كلاماً جارحاً للنبيِّ، إلاّ أنّهُ تجاهلها ولم

---

١ الأخشبان: جبلان في مكة هما جبل أبي قبيس الذي عليه القصر الملكي اليوم، وجبل قعيقعان، وهما مطلان على المسجد الحرام من المشرق.

٢ الهنة: الشيء القليل أو الذنب الصغير.

يعلِّقْ على كلامِها. فدعا بقدَحٍ منْ ماءٍ فأدخلَ يدَهُ ثمّ أخرجها، فقالَ: أدخِلْنَ أيديَكُنَّ في هذا الماءِ، فهي البَيْعَةُ.

لما فرغَ منْ طوافهِ، صَعدَ على الصَّفا حتى يرى البيتَ، فرفعَ يديْهِ، وجعلَ يحمدُ اللهَ ويذكرُهُ، ويدعو ما شاءَ اللهُ أنْ يدعو. والأنصارُ تحتَهُ، فقالَ بعضُهمْ لبعضٍ: أما الرجلُ فأدركتْهُ رغبةٌ في قريتِهِ، ورأفَةٌ بعشيرتِهِ. وجاءَ الوحيُ، فقالَ رسولُ اللهِ: يا معشر الأنصار. قالوا: لبّيكَ يا رسولَ اللهِ. قال: قلتُمْ أما الرجلُ فأدركتْهُ رغبةٌ في قريتهِ، ورأفةٌ في عشيرتهِ. قالوا: قد قلنا ذلكَ يا رسولَ اللهِ. قالَ: فما أُسَمَّى إذنْ؟! كلا، إنّيْ عبدُ اللهِ ورسولُهُ، هاجرتُ إلى اللهِ وإليكمْ، المحيا مَحْياكُمْ، والمماتُ مماتُكمْ. فأقبلوا إليهِ يبكونَ، يقولونَ: واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما قلنا الذي قلنا إلاّ الضَنَّ باللهِ وبرسولهِ. فقالَ رسولُ اللهِ : فإنّ اللهَ ورسولَهُ يعذُرانُكمْ ويصدقانُكمْ. ثمّ قامَ النبيُّ يخطبُ على الصّفا، فقالَ: يا بنيْ هاشمٍ، يا بنيْ عبدِ المطّلبِ، إني رسولُ اللهِ إليكمْ، وإنّيْ شفيقٌ عليكمْ، لا تقولوا: إنّ محمداً منّا، فو اللهِ ما أوليائي منكمْ ولا منْ غيرِكمْ إلاّ المُتّقونَ، فلا أعرفُكمْ تأتوني يومَ القيامةِ تحملونَ الدنيا على رِقابِكمْ، ويأتي الناسُ يحملونَ الآخرةَ، ألا وإنّيْ قد أعذَرْتُ فيما بيني وبينَكمْ، وفيما بينَ اللهِ عزَّ وجلَّ وبينكم، وإنَّ ليْ عملي ولكُمْ عملكُمْ. (٤٣٩)

معاقَبَةُ المجرِمينَ

ثمّ أصدرَ رسولُ اللهِ الحُكمَ بالقَصاصِ على بعضِ المجرمينَ والقتَلةِ، فقالَ لهمْ أمّنوا الناسَ إلاّ هؤلاءِ، أُقتلوهُمْ وإنْ وجَدْتُموهم مُتعلِّقينَ بأستارِ الكعبةِ، ويصلُ عددُهمْ إلى عشرينَ

---

١ الضَّن: البُخْل.

٢ معناه أن من أنذر وحذر لم يترك عذراً لمن إنذره.

شخصًا بينَ رجلٍ وامرأةٍ. جاءَ حكمُ الإعدامِ عليهمْ لأُمورٍ صدَرتْ منهمْ، منها القتْلُ ومحاربَةُ اللهِ ورسولِهِ والتحريضُ ضدَّ المسلمينَ بالقولِ والفعلِ.

حينَ عرفَ هؤلاءِ المجرمونُ الأحكامَ الصادرةَ بحقِّهِمْ هربَ قسمٌ منهمْ، وألتجأَ قسمٌ آخرُ إلى أقربائهِ ليحميَهِ ويشفعَ لهُ. لكنّ أكثرَ هؤلاءِ عادوا إلى رسولِ اللهِ وهمْ مسلمونُ، فعَفا عنهمْ ومَنَحَهمْ الأمانَ. وذلكَ لأنّ جرائمَهمْ التي ارتكبوها، رغمَ بشاعتها، كانتْ في نطاقٍ شخصّيٍّ، يمكنُ تجازوها والعفوُ عنها لمصلحةٍ أقوى تقتضي ذلكَ. فكانَ منهمْ:

- وحشِيٌّ بنُ حربٍ؛ الذي قتلَ حمزةَ عمِّ النبيِّ، ثمّ أسلمَ، فعُفيَ عنهُ.

- عبدُ العُزّى بنُ خطلٍ؛ الذي قتلَ أحدَ الأنصارِ ثمّ ارتدَّ، فقُتِلَ.

- مقيسٌ بنُ صبابةَ؛ الذي قتلَ أحدَ الأنصارِ، فقُتِلَ.

- هندُ بنتُ عُتبةَ؛ التي أمرَتْ بقتْلِ حمزةَ وأكلَتْ كبدَهُ، ثمّ أسلمَتْ، فعُفيَ عنها.

- زهيرٌ بنُ أميةَ، أخو أمِّ سلَمةَ زوجةِ النبيِّ؛ الذي أسلمَ، فعُفيَ عنهُ.

- هبيرةُ بنُ أبي وهبٍ، زوجُ أمِّ هاني؛ الذي هربَ وماتَ كافراً.

- صفوانُ بنُ أميّةَ؛ الذي حاربَ النبيَّ وخطَّطَ لقتْلهِ، ثمّ أسلمَ فعُفي عنهُ.

بلغَ عليّاً أنّ أمَّ هاني بنتَ أبي طالبٍ آوتْ أُناساً مطلوبينَ منْ بنيْ مخزومٍ، منهمْ: الحارثُ بنُ هشامٍ، ورجلٌ آخرُ لتحميهما منْ سائرِ المقاتلينَ حتى يأتيانِ إلى رسولِ اللهِ وهو يحكُمُ فيهِمْ، فقصدَ عليٌ نحو دارها مُقنَّعاً بالحديدِ، فنادى: أخرجوا مَنْ آويتُمْ. فجعلوا يرتجفونَ خوفاً منهُ. فخرجَتْ إليهِ أمُّ هانئ ـ وهي لا تعرفُهُ ـ فقالتْ : يا عبدَ اللهِ، أنا أمُّ هانئ، بنتُ عمّ رسولِ اللهِ، وأختُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، انصرِفْ عنْ داري. فقالَ عليٌّ: أخرِجوهمْ.

فقالتْ: واللهِ لأشكونّكَ إلى رسولِ اللهِ. فنزَعَ المغْفرَ عنْ رأسهِ، فعرفَتْهُ، فقالتْ: فديتُكَ، حلفْتُ لأشكونّكَ إلى رسولِ اللهِ. فقالَ لها: اذهبيْ، فبرّيْ قَسَمَكِ، فإنّهُ بأعلى الوادي. فجاءتْ إلى النبيّ وهو في قبّةٍ يغتسِلُ، وفاطمةُ تسترُهُ، فلما سمِعَ رسولُ اللهِ كلامَها، قالَ: مرحباً بكِ يا أمَّ هانئ وأهلاً. قالتْ: بأبيْ أنتَ وأمّيْ، أشكو إليكَ ما لقيْتُ منْ عليٍّ اليومَ. فقالَ رسولُ الله: قد أجرتُ مَنْ أجرتِ. فقالتْ فاطمةُ: إنما جئتِ يا أمَّ هانئ تشتَكينَ عليّاً في أنّه أخافَ أعداءَ اللهِ وأعداءَ رسولهِ؟! فقالَ رسولُ اللهِ: قد شكَرَ اللهُ لعليٍّ سعْيَهُ، وأجرتُ مَنْ أجارتْ أمُّ هانئ. ثمّ أخذَ رسولُ اللهِ ثوباً فالتحَفَ بهِ، ثمّ صلّى ثمانيَ ركعاتٍ.

ونُفّذَ الحكمُ على أربعةٍ أو خمسةٍ منَ المطلوبينَ فقطْ ممّنْ ارتكَبَ بنفسهِ جرائمَ قتلٍ بحقّ المسلمينَ. كعبدِ العزّى بنِ خطلٍ الذي أسلمَ وارتدَّ بعد أنْ قتلَ غدراً الرجلَ المسلِمَ الأنصاريَّ الذي بعثَهُ رسولُ اللهِ معهُ وسرقَ ما اءتَمَنَهُ عليهِ رسولُ اللهِ من الأموالِ، وذهبَ إلى مكّةَ ليُحرّضَ على حربِ النبيّ بمساعَدةِ مُغَنّيتَينِ فاسِقَتينِ. فلمْ يمنعْ النبيَّ، تعلُّقُهُ بأستارِ الكعبةِ ليحتَميَ منَ العقوبةِ، منْ أنْ يُنزلَ بهِ القصاصُ العادلُ. وكانَ هذا القصاصُ جُزءً منَ احترامِ الكعبةِ وتعظيمها بإقامَةِ العدلِ ومحاسبَةِ المجرمينَ.

أمّا صفوانُ بنُ أميّةَ و عِكرمَةُ بنُ أبي جهلٍ ومَنْ شاركَهمْ في مجزرةِ بنيْ خُزاعةَ، فقد هربوا عند دخولِ النبيّ إلى مكّةَ، لكنّهمْ عادوا بعد فترةٍ وهم مسلمونَ، فعفا النبيُّ عنهم. أمّا هندٌ بنتُ عتبةَ التي خطّطَتْ لقتلِ الحمزةَ عمّ النبيّ ومثّلتْ بجَسدِهِ، فقد أتَتْ رسولَ اللهِ وهو بالأبطَحِ، فأسلمَتْ، وقالتْ: الحمدُ للهِ الذي أظهرَ الدينَ الذي اختارَهُ لنفسهِ، لتمَسَّنيْ رحمتُكَ يا محمدُ، إنّيْ امرأةٌ مؤمنةٌ باللهِ، مصَدّقةٌ بهِ. ثمّ كشفَتْ عنْ نِقابِها، فقالتْ: أنا هندٌ بنتُ عُتبةَ. فقالَ رسولُ اللهِ: مرحباً بكِ. ثمّ قالتْ لهُ: إنّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ، ولا يعطيني ما يكفيني وولْديْ، إلاّ ما أخذتُ منْ مالهِ وهو لا يعلمُ. قالَ: خُذِيْ ما يكفيكِ وولْدَكِ بالمعروفِ.(٤٤٠)

بعد فَتْحِ مَكَّةَ

ولّى رسولُ اللهِ عَتّابًا بنَ أُسيدٍ - وعمرُهُ ثمانيَ عشرةَ سنةً - أمرَ مكّةَ وكانَ قد أسلمَ حديثاً يومَ الفتحِ وعتّابٌ كانَ منْ قريشٍ ويعيشُ في مكّةَ فكانَ حَسَدُ كبارِ قريشٍ لهُ وحساسيّتُهمْ تِجاهَهُ أقلَّ.

ثمّ بعثَ رسولُ اللهِ بعضَ الصحابةِ لهدْمِ الأصنامِ المهمّةِ في المنطقَةِ والتي كانتْ تُعبَدُ منْ دونِ اللهِ، فأرسلَ خالدًا بنَ الوليدِ لهدمِ العُزّى وعمرًا بنَ العاصِ لهدمِ سُواعَ وسعدًا بنَ زيدٍ الأشهليَّ لهدمِ مَناةَ.

لم يتوقَّفْ نبيُّ اللهِ عند مكّةَ، فقد أرسلَ السرايا إلى القبائلِ المُحيطةِ بمكّةَ للدعوةِ إلى الإيمانِ باللهِ ورسولهِ ونبْذِ الأحجارِ والأصنامِ، فمنهُمْ مَنْ أسلمَ ومنهمْ منْ أبى. ومِنْ بينِ القبائلِ التي أرسلَ إليها، بنو جُذيْمَةَ، فأرسلَ إليهمْ خالدًا بنَ الوليدِ يدعوهمْ إلى اللهِ ولم يبعثْهُ مقاتلاً. فلمّا رآهُ القومُ أخذوا السلاحَ، فقالَ خالدٌ: ما أنتُمْ؟ قالوا: مسلمونَ، قد صلّيْنا، وصدَّقْنا، وبنينا المساجدَ في ساحاتِنا، وأذّنّا فيها. قالَ: فما بالُ السلاحِ عليكُمْ؟ قالوا: إنّ بيننا وبينَ قومٍ منَ العربِ عداوةً، فخِفْنا أنْ تكونوا همْ، فأخذَنا السلاحَ. فقالوا: يا خالدُ، إنّا لم نأخذْ السلاحَ على اللهِ وعلى رسولهِ، ونحنُ مسلمونَ، فانظرْ، فإنْ كانَ بعثَكَ رسولُ اللهِ ساعياً فهذهِ إبلُنا وغنمُنا فاغدِ عليها. فقالَ: ضعوا السلاحَ. قالوا: إنّا نخافُ منكَ أنْ تأخذَنا بإحْنَةِ[١] الجاهليّةِ، وقد أماتَها اللهُ ورسولُهُ. وكانَ بينَ خالدٍ وبينَهمْ عداوةٌ لأنّهمْ قتلوا عمَّهُ في الجاهليةِ فلمّا وضعوا السلاحَ، انصرفَ عنهم بمَنْ معهُ، فنزلوا قريباً، ثمّ شَنَّ عليهمْ هجومًا بالخيولِ، فقتلَ وأسرَ منهمْ رجالاً. ثمّ قالَ لأتباعِهِ: ليقتَلَ كلُّ رجلٍ منكمْ أسيرَهُ. فقتلوا الأسرى. فلمّا قدموا على رسولِ اللهِ أخبروهُ الخبرَ، فصُدِمَ النبيُّ وقالَ: أما كانَ فيكمْ رجلٌ رحيمٌ؟! ولمّا قدِمَ خالدٌ بنُ الوليدِ على النبيِّ، أعرضَ رسولُ اللهِ عنهُ، وغضِبَ عليهِ بما صنعَ ببنيْ جُذيمَةَ. وكانَ عبدُ الرحمنِ بنُ

---

١ إحنة - والإحنة: الشحناء.

عَوفٍ قد عابَ على خالدٍ ما صنعَ. قالَ: يا خالدُ، أخذْتَ بأمرِ الجاهليّةِ في الإسلامِ، قتلتَهمْ بعمِّكَ الفاكِهَ؟! وأعانَهُ عمرُ بنُ الخطابِ على خالدٍ. فقالَ خالدٌ: أخذتُهُمْ بقتْلِ أبيكَ. فقالَ عبدُ الرحمنِ: كذبْتَ واللهِ، لقد قتلتُ قاتلَ أبي، وأشهدتُ على قتْلِهِ عثمانَ بنَ عفانَ. ثمّ التفتَ إلى عثمانَ، فقالَ: أُنشِدُكَ اللهَ، هلْ علمْتَ أنّيْ قتلتُ قاتلَ أبي؟ فقالَ عثمانُ: اللهمَّ نعمْ. ثمّ قالَ عبدُ الرحمنِ: ويحكَ يا خالدُ، ولو لم أقتلْ قاتلَ أبي أكنْتَ تقتلُ قوماً مسلمينَ بأبي؟! قالَ خالدٌ: ومَنْ أخبرَكَ أنّهمْ أسلموا؟ فقالَ: أهلُ السريّةِ كلُّهمْ يخبرونا أنّكَ قد وجدتَهُمْ بنوا المساجدَ، وأقرّوا بالإسلامِ، ثمّ حملْتَهمْ على السيفِ. قالَ: جاءني رسولُ رسولِ اللهِ أنْ أغيرَ عليهمْ لامتناعِهمْ عنِ الإسلامِ، فقالَ عبدُ الرحمنِ: كذبْتَ على رسولِ اللهِ. ثمّ دعا رسولُ اللهِ عليّاً، فقالَ: يا عليُّ، أُخرجْ إلى هؤلاءِ القومِ - أيْ بني جُذيْمةَ - فانظرْ في أمرِهمْ، واجعلْ أمرَ الجاهليةِ تحتَ قدَمَيكَ. فخرجَ عليٌّ حتى جاءهُمْ، ومعهُ مالٌ قد بعثَ بهِ رسولُ اللهِ ، فَوَدَىلهمُ الدماءَ، وما أُصيبَ لهمْ منَ الأموالِ، حتى إنّهُ وَدَى لهمْ ثَمَنَ الكلبِ، حتى إذا لم يبقَ شيءٌ منْ دمٍ ولا مالٍ إلاّ وَداهُ، بقيَتْ معهُ بقيّةٌ منَ المالِ، فقالَ لهمْ عليٌّ حينَ فرغَ منهمْ: هلْ بقيَ لكمْ مالٌ لم يُؤدَّ إليكمْ؟ قالوا: لا. قالَ: فإنّيْ أعطيكُمْ منْ هذه البقيَّةِ من هذا المالِ، احتياطاً لرسولِ اللهِ ممّا لا يعلمُ وممّا لا تعلمونَ. ففعلَ، ثمّ رجعَ إلى رسولِ اللهِ، فأخبرَهُ الخبرَ فقالَ: أصبْتَ وأحسنْتَ. ثمّ قامَ رسولُ اللهِ، فاستقبلَ القِبلةَ قائماً شاهراً رافعاً يديهِ، حتى إنّهُ لَيُرى ما تحتَ منكبَيهِ، فقالَ وهو يبكي: اللهمَّ إنّي أبرأُ إليكَ ممّا صنعَ خالدٌ بنُ الوليدِ. ثلاثَ مرّاتٍ. لقد دفعَ خالدٌ بنُ الوليدِ عنْ نفسهِ القصَاصَ بزعمِهِ أنّهُ اشتبَهَ بأنّ بنيْ جُذيمَةَ كانوا كفّاراً حينَ قتَلَهُمْ وبذلكَ سقطَ عنهُ القَصاصُ و وجَبَ عليهِ دفعُ دِيّاتِ القتلى، وتعويضُهمْ عنْ كلِّ ما فقدوهُ فقطْ. مكثَ رسولُ اللهِ مُعرِضاً عنْ خالدٍ حِيْناً، وخالدٌ يتعرّضُ لهُ، ويحلفُ ما قتلَهمْ على ثأرٍ، ولا عداوةٍ، وإنه لم يسمعْ منهم تشهُّداً.

---

١ أي دفع دية.

لقد حَزِنَ رسولُ اللهِ حزناً شديداً على ما قامَ بهِ خالدٌ بنُ الوليدِ، لكنْ ما هوّنَ عليهِ هذا المصابَ أنّ عليّاً قد حكمَ فيهمْ بحُكْمِ اللهِ وعوّضَهمْ عنْ بعضِ ما فقدوهُ. فقالَ رسولُ اللهِ لعليٍّ: لَمَا فعلْتَ أحبُّ إليَّ منْ حُمْرِ النعَمِ. وكانَ عليٌّ، قد بذلَ لبنيْ جُذيمَةَ أموالاً منْ أجلِ أنْ يفرحوا بقدْرِ ما حزنوا. حتى أنّه فَضُلَتْ معهُ فُضْلَةٌ، فأعطاهُمْ لِروعَةِ نسائهِمْ، وفزِعِ صِبْيانِهِمْ. بلْ قالَ لرسولِ اللهِ : وفَضُلَتْ معي فُضْلَةٌ، فأعطيْتُهمْ ليرضوا عنكَ يا رسولَ اللهِ. رغمَ حزنهِ، كانتْ فرحةُ رسولِ اللهِ كبيرةً بما سمِعَ منْ عليٍّ، فقالَ لهُ: يا عليُّ، أعطيتَهمْ ليرضوا عنّي؟! رضيَ اللهُ عنكَ، يا عليُّ، إنَّما أنتَ منّي بمنزلَةِ هارونَ منْ موسى، إلاّ أنّهُ لا نبيَّ بعدي. ثمّ قالَ: أنتَ هاديَ أُمّتيْ. ألا إنّ السعيدَ كلَّ السعيدِ مَنْ أحبّكَ، وأخذَ بطريقَتِكَ. ألا إنّ الشقيَّ كلَّ الشقيِّ مَنْ خالفَكَ، ورغِبَ عنْ طريقِكَ إلى يومِ القيامَةِ. (٤٤١)

غزوةُ حُنَيْنْ

لما فتحَ رسولُ اللهِ مكّةَ مشَتْ أشرافُ هوازِنَ، وثقيفٍ بعضها إلى بعضٍ، وكانَ أهلُها عُتاةً، مرَدَةً، مبارزينَ للهِ ورسولهِ بالمعصيةِ، فخشوا أنْ يغزوهُمْ رسولُ اللهِ، وقالوا: قد فرغَ لنا فلا ناهيَةَ لهُ دونَنا، والرأيُ أنْ نغزوهُ. فحشّدوا الحشودَ، وقالوا: واللهِ، إنّ محمداً لاقى قوماً لا يُحسنونَ القتالَ، فأجْمعوا أمرَكمْ، فسيروا في الناسِ، وسيروا إليهِ قبلَ أنْ يسيرَ إليكمْ. فأجمعَتْ هوازِنُ أمرَها، وجَمَعَها مالكٌ بنُ عوفٍ بنِ سعدٍ بنِ ربيعةَ النصريِّ، وهو ابنُ ثلاثينَ سنةً، فاجتمعَ إليهِ معَ هوازنَ ثقيفٌ كلُّها، ونَصْرٌ، وجُشَمُ كلُّها، وسعدٌ بنُ بكرٍ، وناسٌ منْ بنيْ هلالٍ، -وهم قليلٌ- ولم يحضرْها منْ هوازنَ كَعْبٌ ولا كلابٌ. فلمّا عزمَتْ هوازنُ على حربِ رسولِ اللهِ سألَتْ دُريدَ الرياسةَ عليها، وكانَ دريدُ بنُ الصِمَّةَ يومَئذٍ ابنَ مائةٍ وعشرينَ سنةً وهو شيخٌ كبيرٌ قد عميَ وكانَ شيخاً مُجرّباً قد عُرِفَ بالشجاعَةِ والفروسيّةِ ، فقالَ: وما ذاكَ؟! وقد عمِيَ بَصريْ، وما استمْسِكُ على ظهرِ الفرسِ، ولكنْ أحضرُ معكمْ لأنْ أشيرَ عليكمْ برأييْ على أنْ لا أُخالَفَ، فإنْ كنتُمْ تظنّونَ أنّيْ أُخَالَفُ أقمْتُ ولم أخرجْ. قالوا: لا نخالفُكَ. وجاءَهُ مالكٌ بنُ عوفٍ، وكانَ جِماعُ أمرِ الناسِ إليهِ، فقالوا لهُ: لا نخالفُكَ في أمرٍ

تراهُ. فقالَ لهُ دريدٌ : يا مالكُ، إنّكَ تقاتلُ رجلاً كريماً، قد أوطأَ العربَ، وخافتْهُ العجَمُ، ومَنْ بالشّامِ، وأجلى يهودَ الحجازِ، إمّا قتلاً وإمّا خروجاً على ذُلٍّ وصَغارٍ، ويومُكَ هذا الذي تلقى فيهِ محمداً لهُ ما بعدَهُ. قالَ مالكٌ: إنّيْ لأطمعُ أنْ ترى غداً ما يسُرُّكَ. قالَ دريدٌ: منزليْ حيثُ ترى، فإذا جمعْتَ الناسَ صِرتُ إليكَ، فلمّا خرجَ منْ عندهِ أخفى عنهُ مالكٌ أنّهُ يسيرُ بالنساءِ والأطفالِ والأموالِ معَ الناسِ. كانَ مجموعُهمْ كلُّهمْ ثلاثينَ ألفاً، وجعلوا أمرَ الجميعِ إلى مالكِ بنِ عوفٍ. فلمّا أجمعَ مالكٌ المسيرَ بالناسِ إلى رسولِ اللهِ ، أمرَ الناسَ، فأخرجوا معهمْ أموالَهمْ، ونساءَهُمْ، وأبناءَهمْ. ثمّ انتهى إلى أوطاسَ، فعسكَرَ بها، وجعلتِ الإمدادتُ تأتي من كلِّ جهةٍ، وأقبلَ دريدٌ بنُ الصمّةِ في هودجٍ صغيرٍ لهُ يُقادُ بهِ بسببِ كِبَرِ سنّهِ، فلمّا نزلَ الشيخُ لمسَ الأرضَ بيدهِ، وقالَ: بأيِّ وادٍ أنتُمْ؟ قالوا : بأوطاسَ. قالَ: نعمْ سهلَةٌ للخيلِ، لا هي أرضٌ جبليّةٌ وعرةٌ ولا تربَةٌ ليّنَةٌ. ماليْ أسمعُ بكاءَ الصغيرِ، ورُغاءَ البعيرِ، ونهاقَ الحميرِ، وبعارَ الشاءِ، وخوارَ البقرِ؟ قالوا : ساقَ مالكٌ معَ الناسِ أبناءَهمْ، ونساءَهُمْ، وأموالَهمْ. فقالَ دريدٌ: قد شَرَطَ ليْ ألّا يخالفني، فقد خالفني، فأنا أرجعُ إلى أهلي وتارِكٌ ما هنا. قيلَ: أفتلقى مالكاً فتكَلِّمُهُ؟ فدُعي لهُ مالكٌ، فقالَ: يا مالكُ، إنكَ قد أصبحْتَ رئيسَ قومِكَ، وإنّ هذا يومًا كائنٌ لهُ ما بعدَهُ منَ الأيامِ. مالي أسمعُ بكاءَ الصغيرِ، ورُغاءَ البعيرِ، ونُهاقَ الحميرِ، وبُعارَ الشاءِ، وخوارَ البقرِ؟! قالَ: قد سقتُ مع الناسِ أبناءَهمْ، ونساءَهمْ، وأموالَهمْ. قالَ دريدٌ: ولِمَ؟ قالَ مالكٌ: أردتُ أنْ أجعلَ خلْفَ كلِّ إنسانٍ أهلَهُ ومالَهُ يقاتلُ عنهم. فقاطعَهُ دريدٌ، وقالَ: أحمقٌ واللهِ، ما لهُ وللحربِ. وصفَّقَ دريدٌ بإحدى يديهِ على الأخرى تعجُّباً، وقالَ: هلْ يردُّ المنهزمَ شيءٌ؟ إنها إنْ كانتْ لكَ لم ينفعْكَ إلاّ رجلٌ بسيفهِ ورمحِهِ، وإنْ كانَتْ عليكَ فُضِحتَ في أهلِكَ ومالِكَ، يا مالكُ، إنكَ لم تصنعْ بتقديمِ البيضَةِ، بيضَةِ هوازنَ إلى نحورِ الخيلِ شيئاً، فارفعِ الأموالَ، والنساءَ، والذراريْ إلى عليا قومِهمْ، ومُمْتَنِعِ بلادِهمْ، ثمّ القِ القومَ على مُتونِ الخيلِ، والرجالَ بينَ أصفافِ الخيلِ، أو متقدّمَةً دريّةً أمامَ الخيلِ، فإنْ كانتْ لكَ لحقَ بكَ مَنْ وراءكَ، وإنْ كانتْ عليكَ ألفاكَ ذلكَ، وقد أحرزتَ أهلَكَ ومالَكَ. فقالَ مالكٌ بنُ عوفٍ: واللهِ، لا أفعلُ، ولا أغيّرُ أمراً صنعتُهُ، إنكَ قد كبرتَ وقلَّ عقلُكَ. وجعلَ يضحكُ ممّا يشيرُ بهِ دريدٌ فغضبَ دريدٌ وقالَ: هذا أيضاً يا معشرَ هوازنَ، واللهِ ما هذا لكمْ برأيٍ، إنّ هذا فاضحُكمْ في

عورتِكمْ، ومُمَكّنُ منكمْ عدوَّكمْ، ولاحقٌ بحصنِ ثقيفٍ وتاركُكمْ، فانصرفوا واتركوهُ. فسلَّ مالكٌ سيفَهُ، ثمّ نكَّسهُ، ثمّ نادى بأعلى صوتهِ: يا معشرَ هوازنَ، واللهِ، لَتُطيعُنَّني، أو لأتّكِأنَّ على هذا السيفِ حتى يخرجَ منْ ظهري! وكرهَ أنْ يكونَ لدريدٍ فيها ذِكرٌ أو رأيٌ. فمشى بعضُهمْ إلى بعضٍ، وقالوا: واللهِ، لئنْ عصينا مالكاً ليقتلَنَّ نفسَهُ وهو شابٌ، ونبقى مع دريدٍ وهو شيخٌ كبيرٌ لا قتالَ معهُ، فأجمعوا رأيَكمْ مع مالكٍ، فلمّا رأى دريدٌ أنهمْ قد خالفوهُ، قالَ: يا معشرَ هوازنَ، ما فعلَتْ كعبٌ وكلابٌ؟ قالوا: ما شهدها منهمْ أحدٌ. قالَ: غابَ الحدُّ والجدُّ، لو كانَ يومَ علاءٍ ورِفْعةٍ ما تخلَّفوا عنهُ، يا معشرَ هوازنَ، ارجعوا، وافعلوا ما فعلَ هؤلاءِ. فأبوا عليهِ. قالَ: فمَنْ شهدها منكمْ؟ قالوا: عمرو بنُ عامرٍ، وعوفُ بنُ عامرٍ. قالَ: ذانكَ الجذعانِ منْ بنيْ عامرٍ لا ينفعانِ ولا يضرّانِ. قالَ مالكٌ لدريدٍ: هلْ منْ رأيٍ غيرِ هذا فيما قد حضرَ من أمرِ القومِ؟ قالَ دريدٌ: نعمْ، تجعلُ كَميْناً، يكونونَ لكَ عوناً، إنْ حمَلَ القومُ عليكَ جاءهمُ الكمينُ منْ خلفهمْ، وكرَرْتَ أنتَ بِمَنْ معكَ، وإنْ كانتْ الحملةُ لكَ لم يفلِتْ منَ القومِ أحدٌ. قالَ دريدٌ: مَنْ مقدّمَةُ أصحابِ محمدٍ؟ قالوا: بنيْ سليمٍ. قالَ: هذه عادةٌ لهم غيرُ مستنكَرَةٍ، فليتَ بعيري يُنَحّى من سِنانِ خيلِهمْ، فنحّى بعيرَهُ مولّياً منْ حيثُ جاءَ.

لم تكنْ هوازنُ في حربها رسولَ اللهِ تريدُ أنْ تُحِقَّ حقّاً، أو تبطلَ باطلاً ولم تكنْ تريدُ الدفاعَ عن نفسٍ ولا الدفاعَ عنْ حريةٍ أو كرامةٍ ولا دفاعاً عن قيمٍ إنسانيّةٍ وإنّما كانتْ حربَ العُصاةِ البُغاةِ، والمُعتدينَ الطُغاةِ.

لمّا سمعَ رسولُ اللهِ بخبرِ هوازنَ تريّثَ و لم يتسرّعْ باتخاذِ قرارٍ في الهجومِ عليهمْ بلْ بعثَ عبدَ اللهِ بنَ أبي حدردٍ، وأمرَهُ أنْ يدخلَ في القومِ فيُقيمَ فيهمْ، وقالَ: اعلَمْ لنا علمَهمْ. فوصلَ عبدُ اللهِ إلى خيمةِ مالكٍ بنِ عوفٍ، فوجدَ عندهُ رؤساءَ هوزانَ، فسمعَهُ يقولُ لأصحابهِ: إنّ

---

١ عوف بن عامر بن هوازن أحد أشراف قبيلة هوازن، شارك هو وأخوه عمرو بن عامر في غزوة حنين.

محمداً لم يقاتلْ قوماً قطُّ قبلَ هذه المرّةِ، وإنما كانَ يلقى قوماً أغماراً لا علمَ لهمْ بالحربِ، فيظهَرُ عليهمْ، فإذا كانَ السحرَ فصفّوا مواشيَكُمْ ونساءَكمْ منْ ورائكمْ، ثمّ صفّوا، ثمّ تكونُ الحملةُ منكمْ، واكسروا جفونَ سيوفِكمْ، فتَلقونَهُ بعشرينَ ألفَ سيفٍ مكسورةِ الجفونِ، واحملوا حملةَ رجلٍ واحدٍ، واعلموا أنّ الغلَبَةَ لمَنْ حملَ أوّلاً. ثمّ عادَ عبدُ اللهِ إلى رسولِ الله ، فأخبرَهُ الخبرَ، فقالَ: رسولُ الله لعُمرَ بنِ الخطابِ: ألا تسمعُ ما يقولُ ابنُ أبي حدردٍ؟ فقالَ عمرُ: كذبَ. فقالَ ابنُ أبي حدردٍ: واللهِ لئنْ كذَّبتني يا عمرُ طالما كذَبتَ بالحقِّ. فقالَ عمرُ: ألا تسمعُ يا رسولَ الله ما يقولُ ابنُ أبي حدردٍ؟ فقالَ رسولُ الله لعمرَ: قد كنْتَ ضالّاً فهداكَ اللهُ، وابنُ أبي حدردٍ صادقٌ.

بعدها جمعَ النبيُّ القبائلَ، ورغّبَهمْ في الجهادِ، ووعدَهمُ النصرَ، وأنّ اللهَ قد وعدَهُ أنْ يُغنِمَهُ أموالَهمْ، ونساءهُمْ، وذراريهِمْ. وجهَّزَ الجيشَ واستعارَ منْ صفوانَ بنِ أميّةَ أدْرُعاً وسلاحاً ومن نوفلَ بنِ الحارثِ ثلاثةَ آلافِ رُمحٍ. فرغِبَ الناسُ، وخرجوا على راياتِهِمْ، وعقدَ اللواءَ الأكبرَ، ودفعَهُ إلى عليِّ بنِ أبي طالبٍ . وكلُّ منْ دخلَ مكّةَ برايةٍ، أمرَهُ أنْ يحملها. وخرجَ في اثنيْ عشرَ ألفِ رجلٍ. وتوجّهَ إلى حُنينٍ ومعهُ أهلُ مكةَ لم يغادرْ منهمْ أحداً، رُكباناً ومُشاةً، كما خرجَ معهُ حتى النساءُ، اللّاتيْ يمشينَ معهُ على غيرِ دينٍ، ينظرونَ، ويرجونَ الغنائمَ، ولا يكرهونَ أنْ تكونَ الصدمَةُ لرسولِ اللهِ. فساروا مع رسولِ الله حتى إذا كانَ عشيّةً، حضرَتْ صلاةُ الظهرِ، فصلّوا، وجاءَ رجلٌ على فرسهِ مسرِعاً، فقالَ: يا رسولَ الله، إنّي انطلقتُ بينَ أيديكم حتى طلعتُ جبلَ كذا وكذا، فإذا بهوازنَ قد جاءتْ عنْ بَكرةِ أبيهمْ، بأبنائهمْ، وأنعامِهمْ، ونسائهمْ، اجتمعوا. فتبسّمَ رسولُ الله وقالَ: تلكَ غنيمةٌ للمسلمينَ غداً إنْ شاءَ اللهُ. ثمّ التفتَ إلى أصحابهِ وأرادَ أنْ يؤمّنَ المعسكَرَ لقتالِ يومِ غدٍ، فقالَ: مَنْ يحرسُنا الليلةَ؟ وكانتْ ليلةَ الثلاثاءِ لعشرٍ خلونَ منْ شوّالَ.

---

١ أعمار: جهلة.

كانَ مالكٌ بنُ عوفٍ قد سبقَ المسلمينَ، فأدخلَ جيشَهُ بالليلِ في ذلكَ الوادي، وفرَّقهمْ على الطرقِ والمداخلِ. فأرسلَ مالكٌ ثلاثةَ جواسيسَ ليجمعوا أخبارَ جيشِ المسلمينَ لكنَّهم عادوا بسرعةٍ وهم مرعوبونَ فقالَ: ويلَكمْ ما شأنُكمْ. فقالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بيضٍ، فواللهِ، ما تماسكْنا أنْ أصابنا ما ترى، واللهِ ما نقاتلُ أهلَ الأرضِ، إنْ نقاتلُ إلاّ أهلَ السماواتِ، وإنْ أطعْتَنا رجعْتَ بقومِكَ، فإنّ الناسَ إنْ رأوا مثلَ الذي رأينا أصابَهمْ مثلُ ما أصابَنا. فقالَ: أُفٍّ لكمْ، أنتمْ أجبنُ أهلِ العسكرِ.فحبسَهمْ عندهُ، فَرِقاً منْ أنْ يشيعَ ذلكَ الرعبُ في العسكرِ. وقالَ: دُلّوني على رجلٍ شجاعٍ. فأجمعوا لهُ على رجلٍ، فبعثَه، ثمّ رجعَ إليهِ وقد أصابَهُ كنحوِ ما أصابَ مَنْ قبلَهُ منهمْ. فقالَ: ما رأيْتُ؟ قالَ: رأيتُ رجالاً بيضاً على خيلٍ بيضٍ، ما يُطاقُ النظرُ إليهمْ، فواللهِ ما تماسكْتُ أنْ أصابني ما ترى. فلمْ يثنِ ذلكَ مالكاً عنْ وجهَتهِ. ولمّا كانَ ثلثا الليلِ عمدَ مالكٌ بنُ عوفٍ إلى أصحابهِ فعبّأهمْ في وادي حُنينٍ، وهو وادٍ أجوفُ ذو خطوطٍ، وذو شِعابٍ ومضايقَ. وفرّقَ الناسَ فيها. وأوعزَ إليهمْ أنْ يحملوا على رسولِ اللهِ وأصحابهِ حملةً واحدةً. قالَ مالكٌ بنُ عوفٍ لقومِهِ: ليُصيّرَ كلُّ رجلٍ منكمْ أهلَه ومالَه خلفَ ظهرهِ واكسروا أغمادَ سيوفِكمْ، واكمنوا في شعابِ هذا الوادي، وفي الشجرِ، فإذا كانَ في غَبَشِ الصبحِ، فاحملوا حملةَ رجلٍ واحدٍ، وهدّوا القومَ، فإنّ محمداً لم يلقَ أحداً يُحسنُ الحربَ.

وعبّأَ رسولُ اللهِ أصحابَهُ وصفَّهمْ صفوفاً في السحَرِ، ووضعَ الألويةَ والراياتِ في أهلها، ولبسَ درعَهُ، والمغْفَرَ. وركبَ بغلتَهُ البيضاءَ، واستقبلَ الصفوفَ، وطافَ عليها، بعضُها خلفَ بعضٍ، ينحدِرونَ، فحضَّهمْ على القتالِ، وبشّرَهمْ بالفتحِ إنْ صدقوا وصبروا. وقدّمَ خالدًا بنَ الوليدِ في بنيْ سُليمٍ وأهلِ مكةَ، وجعلَ ميمَنةً وميسَرةً وقلْباً كانَ رسولُ اللهِ فيهِ. أمّا مالكٌ بنُ عوفٍ، فصفَّ الخيلَ ثمّ الرجّالَةَ المقاتِلةَ، ثمّ صفَّ النساءَ على الإبلِ، ثمّ صفَّ الإبلَ، ثمّ البقرَ. ثمّ قالَ للناسِ: إذا رأيتُمونيْ شددْتُ شُدّوا عليهمْ شدَّةَ رجلٍ واحدٍ.

لمّا شاهدَ المسلمونَ أنفُسَهمْ وجَمْعَهمْ، وكثرةَ عُدَّتِهمْ وسلاحِهمْ، ظنّوا أنّهمْ لنْ يُغلَبوا، فهمْ لم يبلغْ عددُهمْ وعدّتُهمْ بهذا القدْرِ سابقاً. وأُعجبَ أبو بكرٍ بالكثرةِ يومَئذٍ، فقالَ: لنْ نُغلبَ اليومَ

من قلّةٍ. فشقَّ ذلكَ على رسولِ اللهِ، وساءتْهُ تلكَ الكلمةُ. وباهى العباسُ بكثرةِ العسكرِ أيضاً، فمنعَهُ النبيُّ وقالَ: تستنصِرُ بصعاليكِ الأُمّةِ؟! لقد أعُجبَ هؤلاءِ بجَمْعِهِمْ وأعتبروا أنّ الكثرةَ هي المعيارُ في النصرِ والظفَرِ، وليس التأييدَ الإلهيَّ والتوكُّلَ على اللهِ، ولذلكَ قبّحَ اللهُ ذلكَ منهمْ، ولامَهُمْ وذمَّهمْ عليهِ، مصرِّحاً بأنّهمْ قد اعتمدوا على كثرتِهِمْ، واعتبروا أنّها تُغنيْهِمْ وتكفيْهِمْ.

كانَ زعماءُ قريشٍ في جيشِ النبيِّ محمدٍ ما يزالونَ على وثنيَّتِهِمْ حتى بعدَ أنْ ادّعى بعضُهُمْ الإسلامَ نفاقاً، قد ملأتْهمُ الأحقادُ ضدَّ رسولِ اللهِ، فخططوا للإطاحَةِ بالمسلمينَ عبرَ خطّةٍ مُحكَمةٍ ومن ثمّ اغتيالُ النبيِّ محمدٍ، فاجتمعوا على تلٍّ في جانبِ المشركينَ وفيهمْ أبو سفيانَ وابنُهُ معاويةَ، وصفوانُ بنُ أميّةَ، وحكيمٌ بنُ حِزامٍ معَ النضيرِ بنِ الحارثِ بنِ علقمَةَ وهمْ ينظرونَ لمَنْ تكونُ الدائرةَ حتى ينقضّوا معَ المشركينَ على المسلمينَ.

بعد أنْ صلّى المسلمونَ الصبحَ، وما إنْ طلعَ ضياءُ الشمسِ بدأ مالكٌ بحمْلتِهِ وما إنْ التقى المسلمونَ والكفارُ، حتى كرَّتْ مقدِّمَةُ جيشِ المسلمينَ فجأةً، فانهزموا واختلطَتْ الصفوفُ، ثمّ انهزمَتْ باقي الصفوفِ معَ المقدِّمةِ. لقد تآمرَ بنو سليمٍ معَ أهلِ مكّةَ في إلحاقِ الهزيمةِ بالمسلمينَ، وتعاطفوا معَ هوازنَ، فراحوا يركضونَ إلى التلالِ وهربَ زعماءُ قريشٍ معَ جنودِهمْ منَ المعركةِ. فشاهدَ أبو بشيرٍ المازنيّ الأنصاريّ كيفَ يفرّونَ وقالَ متعجِّباً: يا للأنصارِ، بأبيْ وأميْ، عنْ رسولِ اللهِ تولّونَ؟! أمّا الطُّلقاءُ منْ أهلِ مكةَ فقالَ بعضُهمْ لبعضٍ وهمْ يركضونَ: أخذُلوهُ فهذا وقْتُهُ! فانهزموا أوّلَ منِ انهزمَ، وتبِعَهمْ الناسُ. وانحازَ رسولُ اللهِ ذاتَ اليمينِ، ثمّ راحَ النبيُّ ينادِيْهِمْ: أيُّها الناسُ، هلمّوا إليَّ. أيُّها الناسُ، هلمّوا إليَّ. أنا رسولُ اللهِ، أنا محمدٌ بنُ عبدِ اللهِ. وكانتْ أمُّ الحارثِ الأنصاريّةُ آخذةً بخُطامِ جملِ الحارثِ زوجِها ، فقالتْ: يا حارثُ، أتتركُ رسولَ اللهِ والناسُ يُولّونَ منهزمينَ؟! وهي لا تفارقُ النبيَّ.

١ الصعاليك هم من جاءوا لأجل الغنائم واستلاب أموال الناس ممن لا يهمه أن ينتصر الدين ولا نصرة المظلوم، ولا يفكرون إلا بأنفسهم وشهواتهم، ويهربون عند أدنى خطر يشعرون به.

فمرَّ عليها عمرُ بنُ الخطابِ وهو مُنهزمٌ، فقالتْ: يا عمرُ، ما هذا؟! قالَ: أمرُ اللهِ! ورسولُ اللهِ ينادي بأعلى صوتهِ: يا عبادَ اللهِ. أنا عبدُ اللهِ ورسولُهُ، يا أيُّها الناسُ، إنّي أنا عبدُ اللهِ ورسولهُ. لكنّهمْ لا يجيبونَهُ ولا يرجعونَ إليهِ، ولم يبقَ معهُ إلاّ القليلُ منَ المؤمنينَ وفيهمْ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ.

في هذه اللحظاتِ الصعْبةِ، لم يترُكْ اللهُ نبيَّهُ، فأنزلَ السكينَةَ على رسولهِ وعلى عليٍّ ومَنْ صمدَ معهمْ وأيّدَهمْ بجنودٍ لا يراها أحدٌ إلاّ الكافرونَ.

استغلَّ مَنْ كانَ على التلِّ منْ كفّارِ قريشٍ الفوضى وانهزامَ المسلمينَ وبقاءَ النبيِّ مع قلّةٍ حولَهُ فأرسلوا النضيرَ بنَ الحارثِ بنِ علقمَةَ ليستغلَّ هذه الفرصةَ ويأخذَ النبيَّ على حينِ غَفْلةٍ ويقتلُهُ. فعمدَ إليهِ، فإذا هو في وجهِ المشركينَ واقفٌ على بغلةٍ شهباءَ، حولها رجالٌ بيضُ الوجوهِ، فأقبلَ عامداً إليهِ، فصاحوا بهِ بصوتٍ عالٍ وغليظٍ: إليكَ! فأرتعَبَ النضيرُ



شكل(٥٥): صورة حاكية لهجوم المشركين على النبي في معركة حُنين.

رعباً شديداً، وارتعَدتْ جوارحُهُ وكَرَّ خائفاً لم يستطعْ أنْ يقومَ بشيءٍ.

جلسَتْ مجموعةٌ منْ وجوهِ قريشٍ ممّنْ جاءَ معَ النبيِّ في الجيشِ، يسخرونَ منَ النبيِّ ويتباشرونَ بهزيمتِهِ، أو قتْلهِ. قالَ أبو سفيانَ بنُ حربٍ وهو يراقبُ، وكانَ يحملُ في جُعبتِهِ

الأزلامَ: لا تنتهي هزيمةُ المسلمينَ دونَ البحرِ. وصرخَ جِبِلَّةُ بنُ الحنبلِ: ألا بطلَ السحْرُ اليومَ! فقالَ لهُ صفوانُ: اسكُتْ فضَّ اللهُ فاكَ! واللهِ، إنْ يرُبُّني رجلٌ منْ قريشٍ أحبُّ إليَّ منْ أنْ يرُبَّني رجلٌ منْ هوازنَ، ومرَّ رجلٌ من قريشٍ بصفوانَ بنِ أميّةَ، فقالَ: أبشرْ بهزيمةِ محمدٍ وأصحابِهِ، فواللهِ، لا يجبرونها أبداً. فقالَ صفوانُ: أتبشّرُنيْ بظهورِ الأعرابِ؟! فوالله، لربٌّ منْ قريشٍ أحبُّ إليَّ منْ ربٍّ منَ الأعرابِ. وغضِبَ صفوانُ لذلكَ.

تفاقمَتْ الهزيمةُ حتى اضطرَّ جميعُ جيشِ المسلمينَ للفرارِ، باستثناءِ عددٍ قليلٍ منهمْ. وكانَ رسولُ اللهِ على بغلةٍ لهُ شهباءَ رافعاً يدَهُ إلى السماءِ، وهو يقولُ: اللهمَّ لكَ الحمدُ وإليكَ المشتكى وأنتَ المستَعانُ. فنزلَ جبريلُ، وقالَ: يا رسولَ اللهِ، دعوتَ بما دعا بهِ موسى حيثُ فَلَقَ لهُ البحرَ، ونجّاهُ منْ فرعونَ. ولمّا رأى رسولُ اللهِ هزيمةَ القومِ عنهُ، قالَ للعبّاسِ: نادِ في القومِ وذكِّرْهمُ العهدَ، فنادى العبّاسُ بأعلى صوتهِ: يا أهلَ بيعَةِ الشجَرةِ، يا أصحابَ سُورةِ البقرةِ، إلى أينَ تفرّونَ؟! اذكروا العهدَ الذي عاهدتُمْ عليهِ رسولَ اللهِ. والقومُ على وجوهِهمْ قد ولّوا مُدبرينَ. فطفِقَ رسولُ اللهِ يركضُ ببغلَتِهِ إلى الكفّارِ، والعباسُ آخذٌ بلجامِ بغلةِ رسولِ اللهِ يكفُّها أنْ لا تسرعَ، ورسولُ اللهِ لا يبالي ما أسرعَتْ نحو المشركينَ. وهو يقولُ:

أنا النَّبيُّ لا كَذِبْ　　　أنا ابنُ عَبدِ المُطَّلِبْ

ثمّ قالَ رسولُ اللهِ لأبي سفيانَ بنِ الحارثِ وكانَ يمسكُ رِكابَ بغْلةِ رسولِ اللهِ: ناولْنيْ كفّاً منْ حصى، فناولَهُ، فرماهُ في وجوهِ المشركينَ، ثمّ قالَ النبيُّ: شاهَتْ الوجوهُ. ثمّ رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ، وقالَ: اللهمَّ إنْ تهلِكَ هذه العصابةُ لم تُعبدْ، وإنْ شئْتَ أنْ لا تُعبَدَ لا تُعبَدُ. ثمّ رفعَ يدَيهِ إلى اللهِ يدعو ويقولُ: اللهمَّ إني أنشدُكَ ما وعدتني. اللهمَّ لا ينبغي لهمْ أنْ يظهروا علينا.

١　الازلام: هي سهام صغيرة كان أهل الجاهلية يستعملونها للاستخارة.

ولم يبقَ مع النبيِّ إلّا عشرةَ أنفسٍ فقطْ؛ تسعةٌ منْ بنيْ هاشمٍ خاصةً، وعاشرُهمْ أيمنُ بنُ أمِّ أيمنَ، الذي قُتِلَ بعدها، وثبتَ التسعةُ الهاشِميّونَ، وهمْ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ بينَ يديهِ يضربُ بالسيفِ والعبّاسُ بنُ عبدِ المطلبِ، عن يمينِ رسولِ اللهِ. والفضْلُ بنُ العباسِ عنْ يسارهِ. وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ ممسكٌ بسرجِ بغلَتِهِ. ونوفلُ بنُ الحارثِ، وربيعةُ بنُ الحارثِ، وعبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ بنُ عبدِ المطلبِ، وعُتْبَةُ، ومعتّبٌ ابنا أبي لهبٍ حولَهُ.

وبينما رسولُ اللهِ والقِلّةُ القليلةُ الذينَ معهُ صامدونَ يقاتلونَ الكفارَ إذا بشَيبَةَ بنُ ربيعةَ يتسلّلُ منْ خلفِهمْ ليقتلَ النبيَّ محمدًا انتقاماً لأبيهِ وعمّهِ في معركةِ بدرٍ فقالَ: اليومَ أُدركُ ثأري منْ محمدٍ، وأكونُ أنا الذي قمْتُ بثأرِ قريشٍ كلِّها. فنزلَ إليهِ وجاءهُ منْ ورائهِ و رفعَ سيفَهُ يريدُ أنْ يضربَهُ فأصابتْهُ رعدةٌ ولم يطقْ ذلكَ فأنسحبَ خائفاً وأخبرهم أنّه لم يستطعْ أنْ يصيبَهُ لأنّهُ ممنوعٌ.

فكانَ هذا حالهمْ حتى انقضى اليومُ وغشيَهُمُ الليلُ، ورسولُ اللهِ في الوادي، والمشركونَ قد خرجوا عليهِ منْ شِعابِ الوادي، وجنباتِهِ، ومضايِقِهِ، مصلِتينَ سيوفَهمْ، ورماحَهمْ، وأقواسَهَم. فنظرَ رسولُ اللهِ إلى الناسِ على التلالِ ببعضِ وجههِ في الظلماءِ، فأضاءَ كأنّهُ



شكل(٥٦): صورة تشبيهيّة لهجوم علي بن أبي طالب على جيش المشركين في حُنين.

القمرُ ليلةَ البدرِ. ثمّ نادى المسلمينَ بصوتٍ مرتفعٍ: أينَ ما عاهدتُمْ اللهَ عليهِ؟ فأسمَعَهمْ كلَّهمْ، فانحدرَ بعضُهمْ إلى حيثُ كانوا منَ الوادي.

كانَ التقدُّمُ واضحًا لجيشِ هوزانَ، ومع استمرارِ انهزامِ آلافِ المسلمينَ تقلُّ فرصةُ انتصارِ المسلمينَ أمامَ الكفارِ، إلاّ أنّ القلّةَ المؤمِنةَ المتمثّلَةَ برسولِ اللهِ وعليِّ بنِ أبي طالبٍ لم تفقدْ الأملَ باللهِ و وعدَهُ بنصرِ الإسلامِ والمسلمينَ، فبقيَتْ صامدةً بوجهِ الكافرينَ.

انطلقَ عليٌّ بن أبي طالبٍ نحو جيشِ الأعداءِ متوجِّهاً إلى حاملِ لوائهِمْ أبي جَرولَ وهو راكبٌ على جملٍ أحمرَ أمامَ هوزانَ فضربَ عُرقوبَيِّ الجملِ، فوقعَ على عجزهِ، ووثبَ على الرجلِ، فضربَهُ وقتلَهُ، فتاهفتوا على عليٍّ فصدَّهمْ وضربَ منهمْ أربعينَ رجلاً. التفتَ العباسُ وقد أنقشَعَ الناسُ عن بكرةِ أبيهمْ عنْ نبيِّهِمْ، ولم يرَ عليّاً في مَنْ تبقّى معَ النبيِّ، فقالَ: شوهَةٌ بوهَةٌ [1]، أفي مثلِ هذا الحالِ يرغبُ ابنُ أبي طالبٍ بنفسِهِ عنْ رسولِ اللهِ، وهو صاحِبُ ما هو صاحبُهُ [2]؟ فقالَ ابنُهُ الفضلُ: نقِّصْ قولَكَ لابنِ أخيكَ يا أبَهْ. قالَ: ما ذاكَ يا فضلُ؟ قالَ الفضلُ: أما تراهُ في الرعيلِ الأوّلِ؟ أما تراهُ في الرهَجِ [3]؟ قالَ: أشْعِرْهُ لـيْ يا بنيَّ. قالَ: ذو كذا، ذو البُرْدَةَ. قالَ: فما تلكَ البرقَةُ؟ قالَ الفضلُ: سيفُهُ يزيِّلُ بهِ بينَ الأقرانِ. قال: بَرٌّ، ابنُ بَرٍّ، فِداهُ عمٌّ وخالٌ. وضربَ عليٌّ يومئذٍ أربعينَ مبارِزاً كلَّهمْ يقدُّهُم قَدّاً، وكانتْ ضرباتُهُ بِكْراً.

بعد مقتَلِ حاملِ اللواءِ تعرضّتْ حركةُ الجيشِ للتشويشِ وأُصيبَتْ وحداتُهُ بالإحباطِ، فكانَ ذلكَ نقطةٌ تُحسَبُ للمسلمينَ. وبينما جنودُ مالكٍ يسوقونَ المسلمينَ في أدبارِهمْ إذِ التقوا بصاحِبِ بغلَةٍ، فإذا هو رسولُ اللهِ وبينَهمْ وبينَهُ رجالٌ بيضٌ حسانُ الوجوهِ على خيلٍ بيضٍ، فصاحوا بهم: شاهَتْ الوجوهُ، ارجعوا! فرجعوا مرعوبينَ. ثمّ أخذَ رسولُ اللهِ حصيّاتٍ وترابًا

---

١ شوهة بوهة: أسلوب عربي قديم تستخدم لذم الرجل و تعني بُعداً له و سحقاً. والشُّوهَةُ: القُبح. والبُوهَة: من الرجال الضعيف الطائش.

٢ يعني بالرغم من إنه بطل المعارك والمواطن المشهورة له.

٣ الرهج: الغبار المتطاير والمثار.

فرمى بهنّ وجوهَ الكفّارِ، ثمّ قالَ: انهزموا، وربِّ محمدٍ! فما هو إلاّ أنْ رماهُمْ، فأصابتْهُمْ وامتلأتْ أعينُهمْ وأفواهُهمْ تراباً وصاروا ضعفاءَ مدبِرينَ، وسمعوا صلصلَةً منَ السماءِ كصوتِ الحديدِ، فانهزمَ القومُ وقتلَ اللهُ منهمْ مَنْ قتلَ، وانهزمَ منهمْ منْ انهزمَ، ولمّا سمعَتْ الأنصارُ نداءَ العباسِ عطفوا، وكسروا جَفونَ سيوفِهِمْ، وهمْ يقولونَ: لبّيكَ، ومرّوا برسولِ اللهِ، واستحيوا أنْ يرجعوا إليهِ، ولحقوا بالرايةِ، فقالَ رسولُ اللهِ، للعباسِ: منْ هؤلاءِ يا أبا الفضلِ؟ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، هؤلاءِ الأنصارُ. فقالَ النبيُّ: الآنَ حميَ الوطيسُ. فالتفتَ عن يمينِهِ، فقالَ: يا معشرَ الأنصارِ، أنا عبدُ اللهِ ورسولُهُ. فقالوا: لبّيكَ يا رسولَ الله، نحنُ معكَ. ثمّ التفتَ عن يسارِهِ، فقالَ: يا معشرَ الأنصارِ، أنا عبدُ اللهِ ورسولُهُ. فقالوا: لبّيكَ يا رسولَ اللهِ، نحنُ معكَ. فقالَ لهمْ: يا أنصارَ اللهِ وأنصارَ رسولِهِ، يا بنيْ الخزرجِ، وأمرَ العباسَ بنَ عبدِ المطلبِ فنادى في القومِ بذلكَ، فأقبلَ إليهِ أصحابُهُ سِراعاً. فجعلوا يقولون: يا بنيْ عبدِ الرحمنِ، يا بنيْ عبدِ اللهِ، يا بنيْ عبيدِ اللهِ، يا خيلَ اللهِ.

وكانَ رسولُ اللهِ قد سمَّى خيلَهُ خيلَ اللهِ، وجعلَ شعارَ المهاجرينَ: بنيْ عبدِ الرحمنِ، وجعلَ شعارَ الأوسِ: بنيْ عُبيدِ اللهِ، وشعارَ الخزرجِ: بنيْ عبدِ اللهِ.

حينَ رجعَ الناسُ منْ فوقِ الجبالِ والتلالِ، وجدوا الأسارى مكتَّفينَ عند رسولِ اللهِ، وما رموا بسهمٍ، ولا طعنوا برمحٍ، ولا ضربوا بسيفٍ. لكنّهمْ حنقوا على المشركينَ، فقتَلوهمْ حتى أسرعَ القتلُ في ذراري المشركينَ. فبلغَ ذلكَ رسولَ اللهِ، فقالَ: ما بالُ أقوامٍ بلغَ بهمُ القتلُ حتى بلغَ الذريّةَ! ألا لا تُقتَلُ الذريّةُ، ألا لا تُقتَلُ الذريّةُ، ثلاثاً. فقالَ أُسيدٌ بنُ الحضيرِ: يا رسولَ اللهِ، أليس إنّما همْ أولادُ المشركينَ؟ فقالَ رسولُ اللهِ: كلُّ نسمَةٍ تولدُ على الفِطرَةِ، حتى يُعرِبَ عنها لسانُها، فأبواها يُهوّدانِها أو يُنصِّرانِها.

وبعثَ صفوانُ غلاماً لهُ ليُعلِمَ كفّارَ قريشٍ الذينَ كانوا على التلِّ إلى منْ آلَ الأمرُ، فقالَ: اسمعْ لمَنِ الشعارُ. فجاءهُ فقالَ: سمعتُهمْ يقولونَ: يا بنيْ عبدِ الرحمنِ، يا بنيْ عُبيدِ اللهِ، يا بنيْ عبدِ اللهِ. فقالَ: ظَهَرَ محمدٌ.

وفي مكةَ، فقد أسرعَ فريقٌ منَ المنهزمينَ منْ أوّلِ القومِ، حتى دخلوا مكةَ، ساروا يوماً وليلةً، يخبرونَ أهلَ مكةَ بهزيمةِ رسولِ اللهِ وقالَ قائلٌ منهمْ: ترجعُ العربُ إلى دينِ آبائها، وقد قُتِلَ محمدٌ وتفرَّقَ أصحابُهُ. فتكلّمَ عتّابٌ بنُ أسيدٍ، فقالَ: إنْ قُتلَ محمدٌ، فإنّ دينَ اللهِ قائمٌ. والذي يعبدُهُ محمدٌ حيٌّ لا يموتُ. فما أمسوا منْ ذلكَ اليومِ حتى جاءَ الخبرُ بأنَّ رسولَ اللهِ أوقعَ بهوازنَ، فَسُرَّ عتّابٌ بنُ أسيدٍ، ومعاذٌ بنُ جبلٍ. وأسلمَ عند ذلكَ ناسٌ كُثُرٌ منْ أهلِ مكةَ، لكنْ لم يكنْ لأجلِ انصياعِهِمْ لما تحكمُ بهِ عقولُهمْ حبّاً بالحقِّ، بلْ كانَ إسلامُهمْ انصياعاً للقوّةِ واستجابَةً لإغراءاتها، فقد رأوا نصرَ اللهِ رسولَهُ، وإعزازَهُ دينَهُ، فهمْ يعتبرونَ أنّ أمراً منْ هذا القبيلِ يعنيهِمْ، ولا بدَّ لهمْ منَ الحصولِ عليهِ، لكي يَدُرَّ عليهمْ بالمنافعِ والأموالِ وغيرِها.

وذَكّرَ اللهُ المسلمينَ بمِنَنِهِ وأفضالهِ عليهمْ، حيثُ قالَ: لقد نصرَكمُ اللهُ في مواقفَ كثيرةٍ كانَ فيها قتالٌ؛ كبدرٍ وأُحدٍ والأحزابِ ولكنْ في يومِ حُنينٍ اغترَرْتُمْ بقوّتكِمْ وكثرَتِكُمْ وقلتُمْ: لنْ نُغلبَ اليومَ منْ قلّةٍ مستندينَ إلى الأسبابِ الظاهِريّةِ غافلينَ عنِ اللهِ وقدرتهِ ولكنّ هذه الكثرَةُ سقطَتْ ولم تحقّقْ نصراً ولم تدفعْ هزيمةً بلْ بلغَتْ بكم الأمورُ عند الهزيمةِ أنْ ضاقَتْ الدنيا بسِعَتِها عليكُمْ لشدّةِ الخوفِ والفزعِ ثمّ بعد هذه الحالةِ عدتُمْ مهزومينَ قد مُنيتُمْ بفشلٍ عظيمٍ. ثمّ أنزلَ اللهُ السكينَةَ والطمأنينَةَ والرحمةَ واستقرارَ النفسِ على رسولهِ وعلى المؤمنينَ وأنزلَ أيضاً جنوداً لم تروها - ورأها المشركونَ فخافوا ودبَّ الرعبَ في قلوبِهِمْ فانهزموا - وعندها عادَتْ الأمورُ لصالحِ المسلمينَ وانتصرتُمْ وعذّبَ اللهُ الذينَ كفروا بالقتْلِ والسبيِ وذلكَ جزاءُ الكافرينَ بسببِ كفرِهمْ وجحودِهمْ وبُعدِهمْ عنِ اللهِ. (٤٤٢)

انهزمَ مالكٌ بنُ عوفٍ هو وأناسٌ منْ أشرافِ قومِهِ معَ جيشهِ، فلجأوا إلى حِصنِ الطائفِ والمسلمونَ مستمرّونَ في طلبِهِمْ حتى إنّ الرجلَ ليدخلُ منهمْ حصنَ الطائفِ، وهو يظنُّ أنّهمْ على إثْرِهِ. وأدركَ رجلٌ دريدَ بنَ الصِمَّةِ فقتلَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ : إلى النارِ وبئسَ المصيرُ، إمامٌ منْ أئمّةِ الكفرِ، إنْ لم يكنْ يعينُ بيدهِ، فإنّهُ يعينُ برأيهِ. ومرَّ أصحابُ رسولِ اللهِ على امرأةٍ مقتولَةٍ ممّا أصابَتْ المقدّمَةُ، فوقفوا ينظرونَ إليها متعَجّبينَ، حتى لحِقَهمْ رسولُ اللهِ

على راحلتِهِ، فانفرجوا عنها. فوقفَ عليها رسولُ اللهِ ، فقالَ: ما كانتْ هذه لتقاتِلَ، فقالَ لأحدهِمْ: اِلحَقْ خالداً وقلْ لهُ لا تقتلْ ذريّةً ولا عسيفا.

وكانتْ هُذَيلٌ بعثَتْ قبلَ حربِ حُنينٍ ابنَ الأكوعِ للتجسُّسِ على النبيِّ حتى علِمَ عِلْمَهُ، فجاءَ إلى هُذيلٍ بخبَرهِ. لكنّهُ أُسِرَ يومَ حنينٍ، فمرَّ بهِ عمرُ بنُ الخطابِ، فلمّا رآهُ أقبلَ على رجلٍ منَ الأنصارِ، وقالَ: عدوُّ اللهِ الذي كانَ عَيْناً عليناً، ها هو أسيرٌ، فاقْتلْهُ. فضربَ الأنصاريُّ عنقَهُ. وبلغَ ذلكَ النبيَّ فكرِهَهُ، وقالَ : ألمْ آمُرْكمْ ألاّ تقتلوا أسيراً؟ وكذلكَ قُتِلَ جميلٌ بنُ مَعْمَرٍ بنِ زهيرٍ وهو أسيرٌ. فبعثَ النبيُّ إلى الأنصارِ، وهو مغضَبٌ، فقالَ: ما حمَلَكُمْ على قتلِهِ، وقد جاءكُمْ الرسولُ: ألاّ تقتلوا أسيراً ؟! فقالوا: إنّا قتلناهُ بقولِ عمرَ. فأعرضَ رسولُ اللهِ ، حتى كلّمَهُ عميرٌ بنُ وهبٍ بالصفحِ عنْ ذلكَ.

أنّه منَ العجيبِ والمؤسِفِ أنّ رسولَ اللهِ ينهى عنْ قتلِ الأسرى والذريّةِ والنساءِ ثمّ يصرُّ عمرُ بنُ الخطابِ وخالدٌ بنُ الوليدِ على مخالفَةِ أمرِ النبيِّ، فهلْ كانَ عمرُ يتلذَّذُ بقتلِ الأسرى؟ أينَ كانتْ شجاعتُهُ فـي المعاركِ عندما كانَ الرسولُ وحدَهُ ينادي على المنهزِمينَ؟ (٤٤٣)

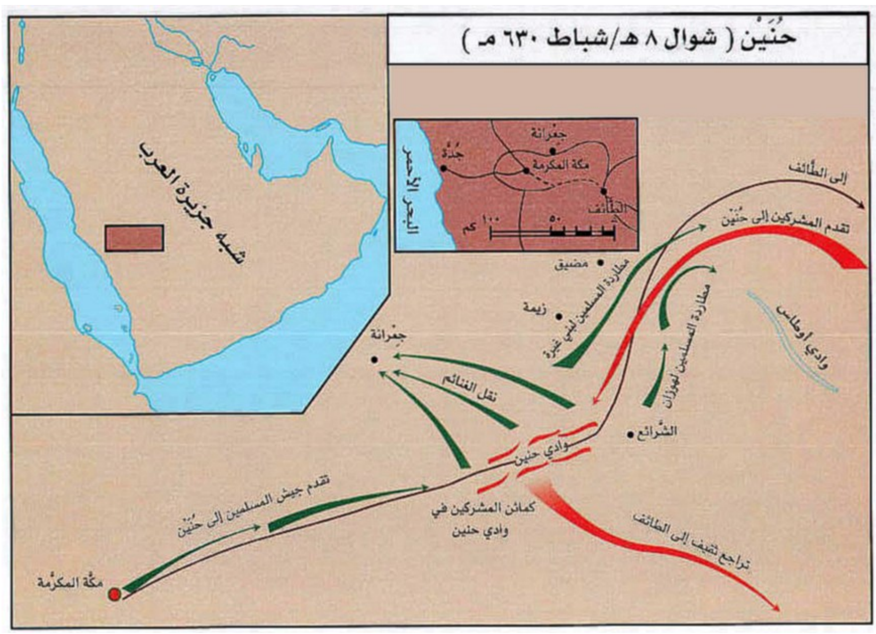
---

١ العسيف: هو الأجير.

٢ العين: الجاسوس الذي يتلمس الأخبار خُفية.

إلى الطائفْ

أوطاسُ هو وادٍ في ديارِ هوازنَ، وهو موضعٌ قُربَ جبلِ حُنَينٍ إلى جِهَةِ الطائفِ. وكانتْ هوازنُ وثقيفٌ في بادئِ الأمرِ قد عسكروا هناكَ، ثمّ التقوا هُمْ والمسلمونَ بحُنينٍ، فانهزمَتْ هوازنُ ومَنْ معها، فصارَتْ طائفةٌ منَ المشركينَ إلى الطائفِ، وأخرى إلى نخيْلَةَ، وثالثةٌ إلى أوطاسَ.



شكل(٥٧): مخطط معركة حنين.

بعد أنْ حصلَتْ الهزيمةُ لم يغَيّرْ النبيُّ التعبِئةَ التي خرجَ عليها منْ مكةَ، فأبقى خالداً على مقَدّمَةِ الجيشِ التي كانتْ تتكوّنُ منْ أهلِ مكةَ، ومنْ بنيْ سليمٍ، وكانوا ألفَ رجلٍ. وذلكَ لكي لا يعطي الانطباعَ للمسلمينَ بأنَّ حضورَ أهلِ مكةَ في جيشِ المسلمينَ قد كانَ نوعاً منَ المجاراةِ لزعماءِ مكةَ ولم ينبعْ عنْ قناعَتِهمْ الشخصيّةِ، فلم يغيّرْ أماكنَهمْ حتى لا يؤدي ذلكَ إلى تشْكيكِ الناسِ بالدينِ أو يثيرُ مخاوفَ تمنعُهمْ منَ التفكيرِ بدخولِ الإسلامِ، إذا رأوا انسحابَ كبارِ قريشٍ، لذلكَ كانَ لا بدَّ أنْ تنتهيَ الحربُ، وأهلُ مكةَ في مواقعِهمْ .

وفي نهايةِ المعركةِ، بعثَ رسولُ اللهِ أبا عامرٍ الأشعريَّ معَ أبي موسى الأشعريِّ في فريقٍ من الخيّالةِ لتفريقِ شمْلِ الجماعاتِ المتبقيّةِ منَ العدوِّ، ولمنعِهمْ منَ التجمُّعِ مرّةً أخرى ومباغَتَةِ جيشِ المسلمينَ. ثمّ سلكَ رسولُ اللهِ في طريقٍ يُقالُ لها: الضيّقَةُ، فلمّا توجّهَ إليها سألَ عن اسمها، فقيلَ: الضيّقَةُ. فقالَ: بلْ هي اليسرى. ثمّ وصلَ منْ حُنينٍ إلى الطائفِ فابتنى بها مسجداً، فصلى فيهِ. وكانَ معهُ منْ نسائهِ أمُّ سلمةَ وزينبُ، فضربَ لهما قُبَّتينِ، وكانَ يصلّيْ بينَ القبَّتينِ مَدّةَ حصارِ الطائفِ. فبعثَ خالدًا بنَ الوليدِ ونادى خالدٌ: مَنْ يبارزُ؟ فلمْ يطلعْ إليهِ أحدٌ، ثمّ عادَ فلم ينزلْ إليهِ أحدٌ، ثمّ عادَ فلم ينزلْ إليهِ أحدٌ. فنادى أحدُ المشركينَ: لا ينزلُ إليكَ أحدٌ، ولكنّا نقيمُ في حصننا، خبأْنا فيهِ ما يصلحُنا سنينَ، فإذا أقمتَ حتى يذهبَ هذا الطعامُ خرجْنا إليكَ بأسيافِنا جميعاً حتى نموتَ عنْ آخرنا. وأشرفَتْ ثقيفٌ على حصنِهِمْ وأقاموا رُماتَهُمْ، فرموا بالسهامِ والمقاليعِ، مِنْ حصنِهِمْ، وألقوا قطعَ الحديدِ المُحَمّاةَ بالنارِ على من يقتربُ منْ الحصنِ، ورموا المسلمينَ بالنبْلِ رمياً شديداً حتى أُصيبَ أناسٌ منَ المسلمينَ بجراحٍ، وقتِلَ منهمُ اثنا عشرَ رجلاً. فقاتلَهمْ رسولُ اللهِ بالرمي عليهمْ بالمنْجَنيقِ[١]، وهم يقاتلونَهُ بالرمي من وراءِ الحصنِ، واستمرَّ الحصارُ لأربعينَ يوماً. ونثرَ رسولُ اللهِ الحسَكَ، شقَّتينِ منْ حسكِ السعدان[٢] حولَ حصنِهِمْ، ودخلَ المسلمونَ منْ تحتِ الدبّابةِ. ثمّ زحفوا بها إلى جدارِ الحصنِ ليحفروهُ، فرمتْهُمْ ثقيفٌ بقطعِ الحديدِ المحَمّاةِ بالنارِ، فأحرقَتْ الدبّابةَ، فخرجَ المسلمونَ منْ تحتها وقد أُصيبَ منهمْ مَنْ أُصيبَ، فرمَتْهمْ ثقيفٌ بالنبْلِ، فقتِلَ منهمْ رجالٌ، فأمرَ رسولُ اللهِ بقطعِ أعنابِهمْ ونخيلِهمْ وتحريقها، للضغطِ عليهمْ وإجبارِهمْ على الاستسلامِ. قالَ جابرٌ للنبيِّ: يا رسولَ اللهِ، أحرقَتْنا نارُ ثقيفٍ، فادعُ اللهَ عليهمْ، فقالَ: اللهمَّ اهدِ ثقيفاً، وأتِ بهم.

---

١ المنجنيق: آلة من آلات الحرب، تُصنع من جلود وخشب وحديد، يُقذف بها الحجاره بقوة إلى مسافة بعيدة.

٢ حسك السعدان: نبات صحراوي له ثمار شوكية يلقى حول المعسكر فينشب في حوافر الخيل.

كانتْ محاولاتُ المسلمينَ لاختراقِ الحصنِ تبوءُ بالفشلِ نتيجةَ مقاومةِ الأعداءِ، فكانوا يشكونَ لقائدِهمْ صعوبةَ المهمّةِ ويطلبونَ منهُ المساعدةَ. كما أتى عُيَيْنَةُ بنُ حصنٍ إلى النبيِّ وقالَ: ائذَنْ لي حتى آتي حِصنَ الطائفِ فأكلّمُهمْ. فأذِنَ رسولُ اللهِ لهُ لعلَّهُ يقنعُهمْ على النزولِ على حُكْمِ النبيِّ وعلى الدخولِ في الإسلامِ، فجاءهُمْ وقالَ عُيَيْنَةُ: أدنو منكمْ وأنا آمِنٌ؟ قالوا: نعمْ. وعرفَهُ أبو مِحْجَنٍ، فقالَ: أُدنُ. فدخلَ عليهمْ، فقالَ: فداكُمْ أبي وأمّيْ، واللهِ، لقد سرَّنيْ ما رأيتُ منكمْ. وما في العربِ أحدٌ غيركمْ. إيّاكمْ أنْ تعطوا بأيديكُمْ، ولا يتكاثَرْ عليكمْ قَطْعُ هذا الشجرِ. ولقد قلَّ المقامُ وطعامُكمْ كثيرٌ، وماؤكُمْ وافرٌ، لا تخافونَ قَطْعَهُ. فلمّا خرجَ قالَتْ ثقيفٌ لأبي محجنٍ: فإنّا قد كرهنا دخولَهُ، وخشينا أنْ يخبرَ محمداً بخَلَلٍ، إنْ رآهُ فينا، أو في حصنِنا. فقالَ أبو محجنٍ: أنا كنتُ أعرَفَ بهِ، ليس أحدٌ منّا أشدَّ على محمدٍ منهُ، وإنْ كانَ معهُ. فلمّا رجعَ إلى رسولِ اللهِ قالَ: قلْتُ لهمْ ادخلوا في الإسلامِ، فواللهِ لا يبرحُ محمدٌ منْ عُقْرِ دارِكمْ حتى تنزلوا، فخذوا لأنفسِكمْ أماناً، فَخَذَّلْتُهُمْ ما استطعْتُ. فقالَ لهُ رسولُ اللهِ: لقد كذبْتَ، لقد قلْتَ لهمْ: كذا .. وكذا .. وعاتَبَهُ جماعةٌ منَ الصحابَةِ، فقالَ عُيَيْنَةُ: أستغفرُ اللهَ، وأتوبُ إليهِ، ولا أعودُ أبداً.

ما زالَ هؤلاءِ يُضمِرونَ الشرْكَ في قلوبِهمْ والحربَ لرسولِ اللهِ ويظهرونَ المحبَّةَ والولاءَ نفاقًا. وكانَ كلُّ همِّهِمْ وجهدِهمْ مُنصَبًّا على إفشالِ هذا الدينِ والقضاءِ عليهِ، وهذا ما حصلَ بالفعلِ في حربِ حُنينٍ ولا يزالُ يتكرّرُ في الطائفِ وفي غيرها.

لم ييأسِ النبيُّ في اتّباعِ السبُلِ المختلفةِ لدفْعِ العدوِّ إلى التنازلِ والاستسلامِ، فدعا مناديهِ أنْ ينادي في ثقيفٍ: أيّما عبدٍ نزلَ منَ الحصنِ وخرجَ إلينا فهو حرٌّ. فنزلَ منْ حصنِ ثقيفٍ إلى رسولِ اللهِ أربعونَ رجلاً، فشقَّ ذلكَ على أهلِ الطائفِ مشقّةً شديدةً، واغتاظوا على غِلمانِهمْ، فأعتقَهمْ رسولُ الله. ودفعَ كلَّ رجلٍ منهم إلى رجلٍ منَ المسلمينَ، فأسلموا وأمرَهمْ رسولُ اللهِ أنْ يُقرِئوهمْ القرآنَ، ويعلموهمُ السُنةَ. استمرَّ الحصارُ على حصونِ الطائفِ فترةً طويلةً، مدةَ أربعينَ ليلةً، دونَ أنْ يتمكَّنَ المسلمونَ منْ اقتحامِها وفتحِها، فكانَ المسلمونَ يتساءلونَ عنْ جدوى الاستمرارِ بالحصارِ والبقاءِ.

كانَ الرجالُ والنساءُ منَ المسلمينَ يتوجّهونَ إلى النبيّ بشكلٍ متكررٍ لمعرفةِ مدّةِ بقائهِمْ، وفي هذا السياقِ، جاءتْ خولةُ بنتُ حكيمٍ السلْميّةُ إلى رسولِ اللهِ، وقالتْ: يا رسولَ اللهِ، أعطني، إنْ فتحَ اللهُ عليكَ الطائفَ حُلِيَّ بعضِ نساءِ ثقيفٍ. فقالَ لها: وإنْ كانَ لم يُؤذنْ لنا في ثقيفٍ يا خولةُ؟ فحينَ أنهَتْ حديثَها معَ النبيِّ خرجَتْ ولقيَتْ عمرَ بنَ الخطابِ فذكرَتْ لهُ ما قالَ لها النبيُّ، فذهبَ عمرُ ودخلَ على رسولِ اللهِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ما حديثٌ حدَّثَتْنيهِ خولةُ؟ زعمتْ أنّكَ قلتَهُ. قالَ النبيُّ: قد قلتُهُ. قالَ: أوما أذِنَ فيهِمْ؟ قالَ: لا، لم يؤذَنْ لنا في قتالِهِمْ. فقالَ عمرُ متعجباً: كيفَ نُقبِلُ في قومٍ لم يأذَنِ اللهُ فيهِمْ؟! ثمّ قالَ عمرُ: أفلا أُأذِّنَ الناسَ بالرحيلِ؟ قالَ رسولُ اللهِ : بلى. فأذّنَ عمرُ بالرحيلِ.

لا ندري على مَنْ يعترضُ عمرُ بنُ الخطابِ، هل يعترضُ على اللهِ، لأنّهُ لم يأذَنْ بأهلِ الطائفِ؟! أمْ يعترضُ على رسولِ اللهِ، لأنّهُ أقبلَ بِهِمْ إلى قومٍ لم يأذَنِ اللهُ فيهِمْ؟! رغمَ علمِ كلِّ أحدٍ أنّ النبيَّ معصومٌ، ومسدَّدٌ بالوحي، ولا يفعلُ إلاّ ما يريدُهُ اللهُ، وما يأمرُهُ بهِ .

لقد دعا رسولُ اللهِ بالرحيلِ بمجردِ حضورِ عليٍّ من سراياهُ التي كانَ قد أرسلَهُ فيها لتحطيمِ الأصنامِ. فلمّا رأى النبيُّ عليّاً، كبّرَ للفتحِ، وأخذَهُ بيدِهِ، فخلا بهِ، وناجاهُ طويلاً. ثمّ أتاهُ عمرُ بنُ الخطابِ، فقالَ منزعِجاً: أتُناجيهِ دوننا، وتخلو بهِ دوننا؟! وقالَ أبو بكرٍ مثلَ قولِ عمرَ بنِ الخطابِ. فقالَ رسولُ اللهِ: يا عمرُ، ما أنا انتجَيْتُهُ، بلِ اللهُ انتجاهُ. فأعرضَ عمرُ وهو يقولُ بغضبٍ: هذا كما قلْتَ لنا قبلَ الحُديبيّةِ : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾(٤٤٤)، فلم ندخلْهُ، وصُدِدنا عنهُ. فناداهُ النبيُّ: لم أقلْ إنّكمْ تدخلونَهُ في ذلكَ العامِ!

ثمّ قالَ النبيُّ محمدٌ لأصحابِهِ، حينَ أرادوا أنْ يرتحلوا: قولوا: لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، صدَقَ وعدَهُ، ونصرَ عبدَهُ، وأعزَّ جندَهُ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ. فلمّا تحركوا قالَ لهمْ: قولوا: آيبونَ، إنْ شاءَ اللهُ، تائبونَ، عابدونَ، لربّنا حامدونَ.

---

١ المعصوم: هو المنزّه من الوقوع في المعصية والخطأ.

لم يُردِ النبيُّ محمدٌ أنْ يخبرَ الناسَ بمراسلَةِ أهلِ الطائفِ لهُ بالابتعادِ عنْ حصنِهِمْ، لكي يأتوهُ مسلمينَ مستسلمينَ وبذلكَ يحفظُ بعضَ ماءِ وجهِهِمْ، فاكتفى بقولِهِ: إنّهُ لم يؤذنْ لهُ فيهمْ. فإنّهمْ إذا كانوا قد أبلغوهُ بعزمِهِمْ على الاستسلامِ، فاللهُ لا يأذنُ لهُ فيهمْ، بلْ يجبُ إفساحُ المجالِ لهمْ لتنْفيذِ ما عقدوا العزمَ عليهِ.

لمّا أسلمَتْ ثقيفٌ تكلّمَ أشرافُهمْ، ومنهمُ الحارثُ بنُ كِلْدَةَ، في هؤلاءِ المعتَقينَ، يريدونَ إرجاعَهمْ إلى الرقِّ، فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ: أولئكَ عُتقاءُ اللهِ، لا سبيلَ إليهمْ. فسارَ حتى نزلَ مكةَ، فقدِمَ عليهِ نفرٌ منْ ثقيفٍ بإسلامِ قومِهِمْ. ولم يطعِ القومُ لهُ بالصلاةِ ولا الزكاةِ. فاستاءَ رسولُ اللهِ لسماعِ ذلكَ وقالَ: أيُّها الناسُ، إنّيْ لكمْ فرط، وإنَّ موعِدَكمُ الحوضُ، وأوصيكُمْ بعِترَتيْ خيراً. إنّهُ لا خيرَ في دينٍ لا ركوعَ فيهِ ولا سجودَ. أما والذي نفسي بيدهِ ليقيمَنَّ الصلاةَ، وليَؤْتُنَّ الزكاةَ، أو لأبعثنَّ إليهمْ رجلاً هو منّيْ كنفسي، فليضرِبَنَّ أعناقَ مقاتِليهمْ، وليسبيَنَّ ذراريهم. فرأى أناسٌ: أنّهُ يعني أبا بكرٍ أو عمرَ. فأخذَ بيدِ عليٍّ، فقالَ: هو هذا. فقالَ: ما استعصى علَيَّ أهلُ مملكةٍ، ولا أمةٌ إلاّ رميتُهمْ بسهمِ اللهِ عزَّ وجلَّ. قالوا: يا رسولَ اللهِ: وما سهمُ اللهِ؟ قالَ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ. ما بعثْتُهُ في سريّةٍ إلاّ رأيتُ جبريلَ عنْ يمينِهِ، وميكائيلَ عنْ يسارِهِ، ومَلَكاً أمامَهُ، وسحابةً تظلُّهُ، حتى يعطي اللهُ عزَّ وجلَّ حبيبيَ النصرَ والظفرَ.

فرجعَ بنو ثقيفٍ إلى قومِهِمْ بالطائفِ أخبروهُمْ بما سمعوا منْ رسولِ اللهِ، فأقرّوا لهُ بالصلاةِ، وأقرّوا لهُ بما شَرَطَ عليهمْ. (٤٤٥)

---

١ الفَرَط: هو السابق المتقدم على غيره، أي أنا امامكم أو قدامكم يوم القيامة.

توزيعُ الغنائمِ

تمَّ تجميعُ الأسرى في الجعرانَةِ (أنظر شكل ٥٧) وقد عيَّنَ رسولُ اللهِ مسؤولًا على توزيعِ الغنائمِ والسبْيِ في يومِ حُنَينٍ، وكانتْ الغنائمُ تشملُ أربعةَ آلافِ فَرسٍ، واثنيْ عشرَ ألفِ ناقةٍ، بالإضافةِ إلى الغنائمِ التي لم يتمَّ تحديدُها. كانَ منْ بينِ السبايا الشيماءُ بنتُ الحارثِ بنِ عبدِ العُزَّى، أختُ رسولِ اللهِ منَ الرضاعَةِ، فساقوها معَ السبايا وكانتْ امرأةً عجوزًا فتعبَتْ، فجعلَتْ تقولُ: إنّي واللهِ أختُ صاحبِكمْ. لكنّهمْ لا يصدّقونَها. فأخذَها طائفةٌ منَ الأنصارِ، وكانوا أشدَّ الناسِ على هوازنَ، فأتوا بها إلى رسولِ اللهِ، فقالتْ: يا محمدُ، إنّي أختُكَ. فعرفَها رسولُ اللهِ، فوثَبَ قائماً، وبسطَ رداءَهُ، ثمّ قالَ: اجلسي عليهِ، ورحَّبَ بها، ودمعَتْ عيناهُ، وسألَها عنْ أمِّها وأبيها، فأخبرتْهُ بموتِهما. كلّمتْهُ أختُهُ شيماءُ عنْ مالكٍ بنِ عوفٍ، فقالَ: إنْ جاءني فهو آمنٌ ورَدَدْتُ عليهِ أهلَهُ ومالَهُ وأعطيتُهُ مائةً منَ الأبلِ. ثمّ قالَ: إنْ أحببتِ، فأقيمي عندنا محبَّبَةً مكرَّمةً، وإنْ أحببْتِ أنْ ترجعي إلى قومكِ أوصلْتُكِ، ورجعتِ إلى قومكِ. قالتْ: بلْ أرجعُ إلى قومي، فأسلمَتْ، فأعطاها رسولُ اللهِ ثلاثةَ عبيدٍ وجاريةً، وأمرَ لها ببعيرٍ أو بعيرينِ، وقالَ لها: ارجعي إلى الجعرانَةِ تكونينَ معَ قومِكِ، فأنا أمضي إلى الطائفِ، فرجعَتْ إلى الجعرانةِ، ووافاها رسولُ اللهِ بالجعرانةِ، فأعطاها نَعَماً وشاةً، ولمَنْ بقيَ منْ أهلِ بيتِها. فلمّا بلغَ مالكًا بنَ عوفٍ ما فعلَ رسولُ اللهِ في قومهِ، وما وعدَهُ رسولُ اللهِ، لحِقَ بهِ، فأدركَهُ بالجعرانةِ. فرَدَّ عليهِ رسولُ اللهِ أهلَهُ ومالَهُ، وأعطاهُ مائةً منَ الإبلِ، وأسلمَ مالكٌ، وقالَ:

مَا إنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِمِ بِمِثْلِ مُحَمَّدِ

أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إذَا اُجْتُدِيْ ... وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ

---

١ أجْتُدِيَ: أي طلب منه الجدوى أو المعونة أو الحاجة.

وَإِذَا الْكَتِيبَةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابُهَا بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ

فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسْطَ الْهَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ

كما أختارَهُ رسولُ اللهِ مسؤولاً على مَنْ أسلمَ من قومِهِ، وعلى القبائلِ من هوازنَ، وفهمًا، وسَلَمَةَ، وثُمالَةَ.

بالطريقِ إلى الجعرانَةِ لقيَ سراقةُ بنُ جَعشَمٍ رسولَ اللهِ فتوجَّهَ إليهِ، والناسُ يمضونَ أمامَهُ أرسالاً، فوقفَ في خيلِ الأنصارِ، فجعلوا يخوّفونَهُ بالرماحِ ويقولونَ: إليكَ إليكَ! ما أنتَ؟ وأنكروهُ. حتى إذا دنا، وعرفَ أنّ رسولَ اللهِ يسمعُ صوتَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ : هذا يومُ وفاءٍ وبرٍّ، أُدنوهُ. فأدنوهُ منهُ، فأعطاهُ رسولُ اللهِ كتابَ الأمانِ. وكانَ لسُراقَةَ موقفٌ عند هجرةِ الرسولِ إلى المدينةِ، حيثُ ردَّ الذينَ يبحثونَ عنِ النبيِّ منْ قريشٍ. فأسلمَ بعدها وقالَ: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ الضَّالَّةَ منَ الإبلِ تأتي أحواضي، وقد ملأتُها لإبلي، هلْ ليْ منْ أجرٍ إنْ سقيتُها؟ قالَ رسولُ اللهِ: نعمْ، في كلِّ ذاتِ كَبِدٍ حَرَّى أجرٌ.

انتظرَ رسولُ اللهِ في الجعرانةِ بضعَ عشرةَ ليلةً، لكي يقدمَ عليهِ وفْدُ هوزانَ، قبلَ أنْ يبدأ بتوزيعِ السبيِ. حينَ أدركَ وفدُ هوازنَ رسولَ اللهِ بالجعرانةِ، وقد أسلموا، قالوا: يا رسولَ اللهِ، لنا أصلٌ وعشيرةٌ، وقد أصابَنا منَ البلاءِ ما لم يخفَ عليكَ، فامننْ علينا ممّا منَّ اللهُ عليكَ. فقالَ رسولُ اللهِ: معي مَنْ ترونَ وأحبُّ الحديثِ إلـيَّ أصدَقُهُ، فاختارَوا إحدى الطائفَتينِ، إمّا السبيَ، وإمّا المالَ. وقد كنتُ استأنيْتُ بكم. فقامَ خطيبُهمْ زهيرٌ بنُ صردٍ، وقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنّا لو مَلكّنا الحارثُ بنُ أبي شَمِرٍ، أو النعمانُ بنُ المنذرِ، ثمّ ولّيَ منّا مثْلَ الذي وليتَ لعادَ علينا بفضلِهِ وعطفِهِ، وأنتَ خيرُ المكفولينَ، وإنَّما في الحظائرِ خالاتُكَ وبناتُ خالاتِكَ، وحواضِنُكَ، وبناتُ حواضنِكَ اللّاتيْ أرضعنَكَ، ولسنا نسألُكَ مالاً، إنّما

١ السَّمْهَرِيُّ: الرمحُ الصليبُ العودِ.

٢ الْهَبَاءَةِ: ما تطاير من الغبار في الجوِ. وخَادِرٌ: لزم مكانه، كخَدَرَ الأَسَدُ فِي عَرِينِهِ.

نسألُكَهُنَّ. وقالوا: يا رسولَ اللهِ، خيَّرْتنا بينَ أحسابِنا وأموالِنا؟ بلْ أبناؤنا ونساؤنا أحبُّ إلينا، ولا نتكلمُ في شاةٍ ولا بعيرٍ. فقالَ رسولُ اللهِ: أمّا ما كانَ ليْ ولبنيْ عبدِ المطلبِ فهو لكمْ، وإذا أنا صلّيْتُ بالناسِ فأظْهروا إسلامَكمْ، وقولوا: إنّا إخوانُكمْ في الدينِ، وإنّا نستشفعُ برسولِ اللهِ إلى المسلمينَ، وبالمسلمينَ إلى رسولِ اللهِ، فإنّي سأعطيكُمْ ذلكَ، وأسالُ لكمُ الناسَ.

كانَ رسولُ اللهِ قد علَّمَهُمُ التشهُّدَ، وكيفَ يكلّمونَ الناسَ. فلمّا صلى بالناسِ الظُهرَ، قاموا فاستأذنوا رسولَ اللهِ في الكلامِ، فأذِنَ لهم، فتكلَّمَ خُطباؤهمْ بما أمرَهمْ بهِ رسولُ اللهِ ، فأصابوا القولَ، وأبلغوا فيهِ، ورغبوا إليهمْ في ردِّ سبيِهِمْ. فقامَ رسولُ اللهِ حينَ فرغوا، ليشفعَ لهمْ، فقامَ في المسلمينَ، وحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ بما هو أهلُهُ، ثمّ قالَ: أمّا بعدُ .. فإنّ إخوانَكمْ قد جاءونا تائبينَ، وإنّيْ قد رأيتُ أنْ أردَّ عليهمْ سَبْيَهُمْ، فمَنْ أحبَّ أنْ يطيبَ ذلكَ فليفعَلْ، ومَنْ أحبَّ منكمْ أنْ يكونَ على حظِّهِ حتى نعطيهِ إيّاهُ منْ أوّلِ فيءٍ يفيئُهُ اللهُ علينا فليفعلْ. فقالَ الناسُ: قد طبْنا ذلكَ يا رسولَ اللهِ. فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ: إنّا لا ندري مَنْ أذِنَ منكمْ مِمّنْ لم يأذنْ، فارجعوا حتى يرفعَ إلينا عُرفاؤكمْ أمرَكمْ. فرجعَ الناسُ فكلّموا عُرفاءَهمْ، فكلّموهُ: أنهمْ طيَّبوا وأذنوا.

فقالَ رسولُ اللهِ: أمّا ما كانَ ليْ ولبنيْ عبدِ المطّلبِ فهو لكمْ. فقالَ المهاجرون: وما كانَ لنا فهو للهِ ولرسولِهِ. وقالتْ الأنصارُ: وما كانَ لنا فهو للهِ ولرسولهِ. فقالَ الأقرعُ بنُ حابسٍ: أمّا أنا وبنو تميمٍ فلا. وقالَ عُيينَةُ بنُ حصنٍ: أمّا أنا وبنو فزارةَ فلا. وقال العباسُ بنُ مرداسٍ: أما أنا وبنو سليمٍ فلا. فقالتْ بنو سليمٍ: ما كانَ لنا فهو لرسولِ اللهِ. فقالَ العباسُ بنُ مرداسٍ: وهَّنتموني. فقالَ رسولُ اللهِ: مَنْ أمسكَ منكمْ بحقِّهِ فلهُ بكلِّ إنسانٍ ستُّ فرائضَ منْ أوّلِ فيءٍ يفيئُهُ اللهُ، فردَّ المسلمونَ إلى الناسِ نساءَهُمْ وأبناءَهم، ولم يتخلَّفْ منهمْ أحدٌ غيرُ عُيينةَ بنُ حصنٍ، فإنّه أخذَ عجوزاً وأبى أنْ يردَّها، بالرغمِ منْ أنّهُ لا حقَّ لعُيَيْنَةَ، ولا لغيرِهِ في هذا السبيْ، لأنّها كانتْ فَيْئًا، فتصيرُ مُلْكاً للنبيِّ حصراً، إلاّ إنّ رسولَ الله يتحدّثُ معهمْ وكأنّ لهمْ فيها حقًّا تكرُّماً منهُ ورحمَةً.

---

١ العرفاء: مفردها عريف: وهو القيّم بأمر القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم، ويتعرف الأمير منه أحوالهم.

لمّا فرغَ رسولُ اللهِ منْ ردِّ سبايا هوازنَ، ركبَ بعيرَهُ وتبعَهُ الناسُ، يقولونَ يا رسولَ اللهِ، قَسِّمْ علينا فيْئَنا. حتى اضطرّوهُ إلى شجرةٍ، فانتزعوا رداءَهُ، فقالَ: يا أيُّها الناسُ، رُدّوا عليَّ ردائيَ، فوالذيْ نفسيْ بيده لو كانَ لكمْ عندي عددُ شجرِ تُهامةَ نَعَماً لقسَّمْتُهُ عليكمْ، ثمّ ما ألفيتُمونيْ بخيلاً ولا كذّاباً .ثمّ قامَ رسولُ اللهِ إلى جنْبِ بعيرِهِ، فأخذَ منْ سنامِهِ وبَرَةً، فجعلها بينَ إصبعيْهِ، فقالَ: أيها الناسُ، واللهِ، ما ليَ من فيئِكُمْ ولا هذه الوبرَةُ إلاّ الخُمُسُ، والخمسُ مردودٌ عليكمْ، فأدوا الخياطَ والمخيطَ. وإيّاكمْ والغُلولَ، فإنّ الغلولَ عارٌ، ونارٌ، وشنارٌ[1] على أهلهِ يومَ القيامةِ. فجاءَ رجلٌ منَ الأنصارِ بكُبَّةِ خيطٍ منْ خيوطِ شَعرٍ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أخذتُ هذه الوبرةَ لأخيطَ بها بَرذَعَةَ[2] بعيرٍ ليْ دَبِرٍ. فقالَ رسولُ اللهِ: أمّا حقّي منها فهو لكَ. فقالَ الرجلُ: أمّا إذا بلغَ الأمرُ فيها هذا، فلا حاجةَ لي بها، فرمى بها من يدهِ. ثمّ أدركَ أعرابيٌّ النبيَّ، فجذبَهُ جذبةً شديدةً، ثمّ قالَ: مُرْ ليْ منْ مالِ اللهِ الذي عندكَ. فالتفَتَ إليهِ رسولُ اللهِ وهو يضحكُ، ثمّ أمرَ لهُ بعَطاءٍ ورداءٍ. كانَ رسولُ اللهِ قد قَسَّمَ الغنائمَ فأعطى للمُتَأَلِّفينَ[3] منْ قريشٍ وسائرِ العربِ القسمَ الأكبرَ فكانَ للرجلِ مائةٌ منَ الإبلِ، ولم يكنْ في الأنصارِ منها شيءٌ قليلٌ ولا كثيرٌ.

ثمّ جاءَ رجلٌ حيثُ كانوا مجتمعينَ وسَلّمَ، لكنّهُ لم يُسلِّمْ على النبيِّ، وقالَ: يا محمدُ، قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليومِ. فقالَ رسولُ الله: أجلْ، فكيفَ رأيتَ؟ قالَ: لم أركَ عدلْتَ، اعدلْ! فغضبَ رسولُ اللهِ منْ قولهِ وقالَ: شقيتُ إنْ لم أعدِلْ. ويحكَ، إذا لم يكنْ العدلُ عنديْ فعندَ منْ يكونُ؟! ثمّ قالَ: ألا ترى قسّمْتُ الشّياهَ حتى لم يبقَ لي شاةٌ؟! أوَلمْ أُقسّمْ البقرَ حتى لم يبقَ معي بقرةٌ واحدةٌ؟! أولمْ أقسِّمْ الإبلَ حتى لم يبقَ معي بعيرٌ واحدٌ؟! فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ: يا

---

١ الشَّنَار: العَيْبُ والعَار.

٢ جمع برذعات وبراذعُ: بَرْذعَة؛ ما يُوضع على ظهر الحِمار أو البغْل ليُرْكَبَ عليه، وهي كالسَّرج للفرس.

٣ المؤلفة قلوبهم (المتألفون): هم الذين تم أعطائهم الصدقات من المنافقين والمسلمين الضعفاء لتأليف قلوبهم إلى الإسلام أو لدفع شرهم أو لتقوية إيمانهم.

رسولَ اللهِ، دعْني أقتلْ هذا المنافقَ. فقالَ رسولُ اللهِ: معاذَ اللهِ أنْ يتحدَّثَ الناسُ أني أقتلُ أصحابي، دعوهُ فإنّهُ سيكونُ لهُ شيعةٌ، ثمّ قالَ: إنّ هذا وأصحابَهُ يقرؤونَ القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهمْ، يمرقونَ منهُ كما يمرقُ السهمُ منَ الرميَّةِ، يخرجونَ على حينِ فُرقَةٍ منَ الناسِ يقتلُهمُ اللهُ على يدِ أحبِّ الخلقِ إليهِ بعدي.



شكل(٥٨): صورة حاكية للأنصار وهم يبكون ندما في حضرة النبي.

لقد أغضبَ تقسيمُ الغنائمِ قومًا منَ الأنصارِ، حتى كثُرَ بينهمُ الكلامُ والاعتراضُ وحتى قالَ قائلُهمْ: يغفرُ اللهُ لرسولِ اللهِ، إنّ هذا لَهوَ العجَبُ يعطي قريشاً ويتركُنا وسيوفُنا تقطرُ منْ دمائهِمْ! ودِدْنا أنّا نعلمُ ممَّنْ كانَ هذا، فإنْ كانَ منْ أمرِ اللهِ صبرْنا، وإنْ كانَ منْ رأي رسولِ اللهِ استعتَبْناهُ. فقالَ رجلٌ منَ الأنصارِ لأصحابهِ: لقد كنتُ أحدِّثُكمْ أن لو استقامَتْ لهُ الأمورُ، سيُؤثِرُ عليكمْ غيرَكمْ. فردّوا عليهِ ردّاً عنيفاً. فمشى سعدُ بنُ عبادةَ إلى رسولِ الله، وقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنّ هذا الحيَّ قد وجِدوا عليكَ في أنفسِهمْ. قالَ: فيمَ؟ قالَ: فيما كانَ منْ قَسْمِكَ هذه الغنائمِ في قومِكَ وفي سائرِ العربِ، ولم يكنْ فيهمْ منْ ذلكَ شيءٌ. فقالَ رسولُ اللهِ: فأينَ أنتَ منْ ذلكَ يا سعدُ؟ قالَ: ما أنا إلاّ امرؤٌ منْ قومي. فقالَ رسولُ اللهِ: فاجمعْ ليْ قومَكَ في هذه الحظيرةِ. فأرسلَ إلى الأنصارِ، فجمعَهُمْ ولم يدعُ غيرَهمْ، حتى إذا لم يبقَ أحدٌ منَ الأنصارِ

---

١ تحققت هذه النبوءه بعد ثلاثين سنة من وفاة النبي، وكان هذا الرجل هو زعيم ما سُمّي فيما بعد بالخوارج، الذين خرجوا على علي بن أبي طالب، ونكثوا بيعته وحاربوه، فقاتلهم في حرب النهروان، فلم ينجو منهم إلا نفر قليل.

إلاّ اجتمعَ لهُ، أتاهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، قد اجتمعَ لكَ هذا الحيُّ منَ الأنصارِ حيثُ أمرتني أنْ أجمعَهمْ. فجاءَ النبيُّ يتبعُهُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ حتى جلسَ وسَطْهُمْ، ثمّ قالَ لهمْ: اجلسوا، ولا يقعدْ معكمْ أحدٌ منْ غيرِكمْ. فلمّا قعدوا. قامَ النبيُّ خطيباً، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ، ثمّ قالَ: يا معشرَ الأنصارِ إني سائلُكُمْ عنْ أمرٍ فأجيبوني عنهُ. فقالوا: قلْ يا رسولَ اللهِ. قالَ: ألستُمْ كنتُمْ ضالّينَ فهداكمْ اللهُ بيْ؟ قالوا: بلى، فلِلّهِ المِنّةُ ولرسولهِ. قالَ: ألمْ تكونوا على شفا حفرةٍ منَ النارِ، فأنقذَكمْ اللهُ بي؟ قالوا: بلى، فللّهِ المِنّةُ ولرسولهِ. قالَ: ألم تكونوا قليلاً فكثَّرَكمْ اللهُ بي؟ قالوا: بلى، فلِلّهِ المِنّةُ ولرسولهِ. قالَ: ألم تكونوا أعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبِكمْ بي؟ قالوا: بلى، فَلِلّهِ المِنّةُ ولرسولهِ. ثمّ سكتَ النبيُّ هُنيهَةً، ثمّ قالَ: ألا تجيبوني بما عندَكمْ؟ قالوا: بِمَ نجيبُكَ؟ فِداكَ آباؤنا وأمهاتُنا، قد أجبناكَ بأنَّ لكَ الفضلَ والمنَّ والطَّولَ علينا. قالَ: أما لو شِئتُمْ لقلتُمْ: وأنتَ قد كنْتَ جِئْتنا طريداً فآويناكَ، وجئتنا خائفاً فآمناكَ ومخذولاً فنصرناكَ، وجئتنا مُكَذَّباً فصدقْناكَ. فارتفعَتْ أصواتُهمْ بالبكاءِ وقامَ شيوخُهمْ وساداتُهمْ إليهِ، فقبَّلوا يديْهِ ورِجليهِ، ثمّ قالوا: رضينا باللهِ وعنهُ، وبرسولهِ وعنهُ، وهذه أموالُنا بينَ يديكَ، فإنْ شئْتَ فقسّمها على قومِكَ، وإنما قالَ منْ قالَ منّا على غيرِ حقدٍ في صدرٍ، وغِلٍّ في قلبٍ، ولكنّهمْ ظنوا إنّكَ ساخطٌ عليهمْ، وإنَّ بهمْ تقصيراً. وقد استغفروا اللهَ منْ ذنوبِهمْ، فاستغفرْ لهمْ يا رسولَ اللهِ.

فقالَ النبيُّ محمدٌ: إنّ قريشاً حديثو عهدٍ بجاهليّةٍ ومُصيبةٍ، وإني أردتُ أنْ أجبرَهمْ وأتألَّفَهمْ، أوجِدْتُمْ يا معشرَ الأنصارِ في أنفسِكمْ في لَعاعَةٍ منَ الدنيا تألّفْتُ بها قوماً أسلموا، ووكلْتُكمْ إلى ما قسمَ اللهُ لكمْ منَ الإسلامِ؟! أفلا ترضونَ يا معشرَ الأنصارِ أنْ يذهبَ الناسُ إلى رحالِهِمْ بالشاةِ والبعيرِ وتذهبونَ برسولِ اللهِ إلى رحالِكمْ؟! تحوزونَهُ إلى بيوتِكمْ؟! فواللهِ، لَمَنْ تنقلِبونَ بهِ خيرٌ ممّا ينقلبونَ بهِ.فبكى القومُ حتى أخضلوا لحِاهمْ، وقالوا: رضينا باللهِ ورسولهِ حَظّاً

---

١ أراد حديثو عهدٍ بعصر الجاهلية ومُصيبة فتح مكة عليهم.

٢ اللُّعَاعَة: البقية اليسيرة من كل شيء، والشيء القليل البقاء.

وقِسَماً.فقالَ النبيُّ: الأنصارُ كِرشيْ وعَيبَتيْ، لو سلَكَ الناسُ وادياً وسلكَتِ الأنصارُ شِعْباً، لسلكْتُ شِعبَ الأنصارِ، اللهمَّ اغفرْ للأنصارِ.

للأسفِ لم تكنْ القضيّةُ أمراً عابراً، صنعتْهُ يدُ الجهالةِ والطيشِ منْ شبابٍ أغرارٍ، لا تجرِبَةَ لهمْ، بلْ هي قناعةٌ استقرَّتْ في وعيِ كثيرٍ منْ عقلاءِ القومِ ورؤسائِهِمْ، حتى لدى سعدٍ بنِ عبادةَ زعيمِ الخزرجِ، فكيفَ بسائرِ الناسِ. فهمْ حينَ أجمعوا رأيَهمْ وجاءوا يستعتِبونَ رسولَ اللهِ، حطَّ اللهُ نورَهُمْ. وفرضَ اللهُ للمؤلَّفَةِ قلوبُهمْ سهْماً في القرآنِ. وكانَ المفروضُ منهمْ هو التسليمُ المطلَقُ، حتى لو كانتْ الأموالُ لهمْ في الحقيقةِ، فإنّ النبيَّ أولى بالمؤمنينَ منْ أنفسهِمْ، فكيفَ إذا كانتْ الأموالُ لهُ.

لكنْ مَنْ همُ المؤلَّفَةُ قلوبُهُمْ؟! المؤلَّفَةُ قلوبُهمْ همْ قومٌ شهدوا أنّ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنّ محمداً رسولُ اللهِ ، وهمْ في ذلكَ شكّاكٌ في بعضِ ما جاءَ بهِ محمدٌ، فأمرَ اللهُ نبيَّهُ أنْ يتألَّفَهُمْ ويُحبِّبَهمْ للإسلام بالمالِ والعطاءِ، لكي يحسُنَ إسلامُهمْ ويقوى، ويثبتوا على دينِهمْ. (٤٤٦)

١ أي بطانتي وخاصتي وموضع سري وأمانتي.

السنةُ التاسعةُ بعد الهجرةْ (٦٣٠ ـ ٦٣١ م)

سرايا و بَعَثاتْ

لم يتوقَّفْ نبيُّ اللهِ عنْ إرسالِ الرسُلِ والسرايا للدعوةِ إلى اللهِ وتنظيفِ الجزيرةِ العربيةِ منْ مظاهرِ الشّركِ والتخلُّفِ، فبعثَ خالدًا بنَ الوليدِ بجيشٍ إلى أهلِ اليمنِ يدعوهُمْ إلى الإسلامِ. فأصابَ خالدٌ بعضَ السبْي بسبِبِ القتالِ، فكتبَ خالدٌ إلى رسولِ اللهِ: ابعثْ إلينا مَنْ يُخَمِّسُهُ. وفي السبيِ وصيفَةٌ وهي منْ أفضلِ السبيِ. فبعثَ رسولُ اللهِ عليّاً إلى خالدٍ ليقسِّمَ الفيءَ، وقالَ: إذا كانَ قتالٌ فَعَلِيٌّ الأميرُ. ثمّ جرى فتحُ بعضِ الحصونِ على يدِ عليٍّ، ثمّ قَسَّمَ وخَمَّسَ الفيءَ واصطفى عليٌّ بنُ أبي طالبٍ هذه الوصيفةَ. فقالَ بريدةُ بنُ الحصيبِ: يا أبا الحسنِ، ما هذا؟ ، ألمْ ترَ إلى الوصيفَةِ، فإنها صارَتْ في الخُمسِ، ثمّ صارتْ في آلِ محمدٍ، ثمّ في آلِ عليٍّ. فكتبَ خالدٌ إلى رسولِ اللهِ يريدُ أنْ يخبرَهُ ما فعلَ عليٌّ، فدعا خالدٌ بُريدةَ، فقالَ: يا بريدةُ قد عرفتَ الذي صنعَ، فانطلِقْ بكتابي هذا إلى رسولِ اللهِ. فسارَ بريدةُ، حتى انتهى إلى بابِ النبيِّ، فلقيَهُ عمرُ، فسألَهُ عنْ حالِ غزوتِهِمْ، وعنِ الذي أقدَمَهُ، فأخبرَهُ أنّهُ إنما جاءَ ليقَعَ في عليٍّ، وذكَرَ لهُ اصطفاءَهُ الجارِيَةَ منَ الخُمسِ لنفْسهِ، فقالَ لهُ عمرُ: امضِ لما جئْتَ لهُ، فإنّهُ سيغضَبُ لابنتِهِ ممّا صنعَ عليٌّ فدخلَ على النبيِّ وقرأ الكتابَ، وجعلَ يحدِّثُهُ بما جرى، فتغيّرَ وجهُ النبيِّ، ثمّ قالَ بريدةُ للنبيِّ: إنّكَ إنْ رخَصتَ للناسِ في مثلِ هذا ذهبَ فَيْؤهُمْ. فتكلّمَ بريدةُ في عليٍّ عند الرسولِ، فوقعَ فيهِ، فلمّا فرغَ رفعَ رأسَهُ، فرأى رسولَ اللهِ غَضِبَ غضباً لم يرهُ غِضَبَ مثلَهُ إلاّ يومَ قُريظةَ والنضيرِ. فقالَ رسولُ اللهِ: والذي نفسيَ بيدهِ لَنصيبُ عليٍّ في الخُمسِ أفضلُ منْ وصيفَةَ، وإنْ كنْتَ تحبُّهُ فازددْ لهُ حُبّاً. فأمسَكَ بيدهِ، وقالَ: يا بريدةُ أتبغضُ

---

١ الوصيفة: الخادمة، والجارية.

عليّاً ؟ يا بريدةُ، أحبَّ عليًّا، فإنّهُ يفعلُ ما آمرَهُ. فقالَ بريدةُ: أعوذُ باللهِ منْ غَضَبِ اللهِ وغضَبِ رسولِهِ، إنما أنا رسولٌ.

بعدَ ستةَ أشهرٍ منْ محاولاتِ خالدٍ لدعوةِ الناسِ إلى الإسلامِ، لم يستجِبْ لهُ منْ أهلِ اليمنِ أحدٌ. لقد أساءَ خالدٌ في المهمَّةِ التي انتدبَهُ النبيُّ إليها. حيثُ كانَ هو المشكلةَ والعائقَ في نفورِ الناسِ منَ الاستجابةِ للدخولِ في الإسلامِ، فأمرَ النبيُّ بإرجاعِهِ، وبعثَ عليًّا بنَ أبي طالبٍ مكانَ خالدٍ وأمرَهُ أنْ يُرجعَ خالداً، وقالَ: مُرْ أصحابَ خالدٍ منْ شاءَ منهمْ أنْ يعقبَ معكَ فليعقبْ، ومنْ شاءَ فليُقبِلْ. فذهبَ عليٌّ في جماعةٍ إلى اليمنِ ولمّا دنوا منَ القومِ خرجوا إليهمْ، فدعاهُمْ إلى الإسلامِ ونصحَهمْ فأستجابوا لهُ، ثمّ صلى بهمْ عليٌّ، ثمّ صفَّهمْ صفّاً واحداً، ثمّ تقدَّمَ بينَ أيديهم وقرأَ عليهم كتابَ رسولِ اللهِ، فأسلمَتْ همدانُ جميعاً. فكتبَ عليٌّ إلى رسولِ اللهِ بإسلامِهِمْ. وحينَ قرأ رسولُ اللهِ الكتابَ خَرَّ ساجداً، ثمّ رفعَ رأسَهُ وقالَ: السلامُ على همدانَ، السلامُ على همدانَ. ثمّ قالَ: نِعمَ الحيُّ همدانُ ما أسرعَها إلى النصرِ!

وفي شهرِ ربيعِ الآخرِ منْ سنةِ تسعٍ بعثَ رسولُ اللهِ عليًّا بنَ أبي طالبٍ في خمسينَ ومائةِ رجلٍ منَ الأنصارِ على مائةِ بعيرٍ وخمسينَ فرساً، ومعهُ رايةٌ سوداءَ إلى الفلسِ ليهدِمَهُ وهو صنمٌ لطيّئٍ ومَنْ يليها، فحطَّمَ صنَمَهمْ ورجعَ بالغنيمَةِ. وحينَ أسلمَتْ ثقيفٌ بعثوا بعبدِ يَلْيَلَ بنْ عمرو، وعمرو بنِ أميةَ إلى رسولِ اللهِ يسألونَهُ عنْ صنَمِهمْ المُسمَّى الربَّةُ وقالوا: أرأيتَ الربّةَ ماذا نصنعُ فيها؟ قالَ رسولُ اللهِ: اهدموها. قالوا: هَيْهاتَ، لو تعلمُ الربّةُ أنّا خطَّطنا في هدمِها قتلَتْ أهلَنا. قالَ عمرُ بنُ الخطابِ: ويحكَ يا عبدَ يَاليلَ ما أحمقَكَ، إنّما الربّةُ حَجَرٌ لا يدري منْ عبَدُهُ ممّنْ لم يعبدْهُ. قالَ عبدُ يَلْيَل: إنّا لم نأتِكَ يا عمرُ. وقالوا: يا رسولَ اللهِ، اتركْها ثلاثَ سنينَ لا تهدمْها، فأبى. فقالوا: سنتينِ، فأبى. فقالوا: سنةً. فأبى. فقالوا: شهراً واحداً. فأبى أنْ يوقِّتَ لهم وقتاً، وإنَّما كانوا يريدونَ تَرْكَ الربّةِ لتمسُّكِ نفرٍ منْ قومِهمْ منْ خفيفِيْ العقلِ منَ الرجالِ والنساءِ والصبيانِ بها، فكرهوا أنْ يُروِّعوا قومَهمْ بهدمِها الآنَ ويصبروا حتى يثبُتَ الإسلامُ في صدورِهمْ. فسألوا رسولَ اللهِ أنْ يعفيَهمْ منْ هدمِها، وقالوا: يا رسولَ اللهِ، اتركْ أنتَ هدمَها، فإنّا لا نهدمُها أبداً. فقالَ رسولُ اللهِ: أنا أبعثُ أبا سفيانَ بنَ حربٍ،

والمغيرةَ بنَ شُعبَةَ يهدمانها. فعادَ الوفدُ، وأخبروا قومَهم بِخَبَرِ الربّةِ. فقالَ شيخٌ منْ ثقيفٍ: فذاكَ واللهِ مِصداقُ ما بيننا وبينَهُ، فإنْ قدرَ على هدمِها فهو محقٌّ ونحنُ مبطلونَ، وإنْ امتنعَتْ ففي النفسِ منْ هذا بعدُ شيءٌ. فقالَ عثمانُ بنُ أبي العاصِ: مَنَّتْكَ واللهِ نفسُكَ الباطلَ وغرَّتْكَ الغَرُورُ. الربّةُ واللهِ ما تدري مَنْ عبدَها ومنْ لم يعبدْها.وخرجَ أبو سفيانَ بنُ حربٍ، والمغيرةُ بنُ شعبةَ وأصحابُهما لهدمِ الربّةِ. فقالَ المغيرةُ لأصحابهِ الذينَ قدموا معهُ: لأُضحِكَنَّكُمُ اليومَ منْ ثقيفٍ. فاجتمعَتْ ثقيفٌ كلُّها، الرجالُ، والنساءُ، والصبيانُ حزناً يبكونَ على صَنَمِهِمْ، و كانوا لا يصدِّقونَ منْ شدّةِ الخوفِ أنّها مهدومةٌ وذلكَ لأنهم يظنّونَ أنها ممتَنِعةٌ. فقامَ المغيرةُ بنُ شعبةَ واستوى على رأسِ الدابَّةِ ومعهُ المِعولُ، وقامَ معهُ بنو مُعتبٍ يحملونَ السلاحَ مخافةَ أنْ يُصابَ. وجاءَ أبو سفيانَ وصمَّمَ على ذلكَ، فأخذَ الكرْزينَ، وضربَ المغيرةَ بالكرزينَ ثمّ سقطَ مغشيّاً عليهِ يركضُ برجليهِ، فارتجَّ أهلُ الطائفِ بصيحةٍ واحدةٍ وقالوا: أسعدَ اللهُ المغيرةَ، قد قتلَتْهُ الربّةُ. زعمتُمْ أنّ الربّةَ لا تمتنِعُ، بلى واللهِ لتمتَنِعَنَّ. وفرحوا حينَ رأوهُ ساقطاً، وقالوا: منْ شاءَ منكمْ فليقترِبْ، وليجتهِدْ على هدمِها، فواللهِ لا يستطيعُ أبداً. فوثبَ المغيرةُ بنُ شعبةَ وقالَ: قبَّحكمُ اللهُ يا معشرَ ثقيفٍ إنّما هي حجارةٌ ومَدَرٌ، فاقبلوا عافيَةَ اللهِ ولا تعبدوها، ثمّ ضربَ البابَ فكسرَهُ، ثمّ سُورَها وعَلَتِ الرجالُ معهُ، فما زالوا يهدمونَها حَجَراً حجراً حتى سوُّوها بالأرضِ، وجعلَ السادنُ يقولُ: ليغضَبَنَّ الأساسُ، فليخسِفَنَّ بهمْ. فلمّا سمعَ بذلكَ المغيرةُ حفرَ أساسَها، فخرّبَهُ حتى أخرجوا ترابَها، وانتزعوا حِليتَها وكسوتَها، وما فيها منْ طِيبٍ وذهبٍ وفضّةٍ، وثيابٍ.

كانَ تهديمُ الأصنامِ خيرَ وسيلةٍ وأبلغَ منْ كلّ قولٍ، وأدلَّ منْ أيّةِ حُجّةٍ لإسقاطِ الاعتقادِ بها، وإظهارِ خُرافتِها وزيفها. لذلكَ أمرَ رسولُ اللهِ بهدمِ الأصنامِ التي كانتْ تُعبَدُ في تلكَ المناطقِ، ممّا مثّلَ تحديّاً كبيراً للقبائلِ التي كانتْ تلزمُ نفسها بعبادتها لعشراتِ السنينَ، و ما يعتقدونَ بهِ على أنها قادرةٌ على أنْ تضرَّهمْ وتنفَعَهمْ.

وفي شهرِ رمضانَ بعثَ رسولُ اللهِ عليّاً مجدَّداً إلى اليمنِ - وكانتْ في اليمنِ أقسامٌ لم تسلِمْ بعدُ - بعد أنْ عقدَ لهُ لواءً وعمَّمَهُ بيدِهِ، قالَ لهُ: انطلقْ يا عليُّ إلى أهلِ اليمنِ، ففقِّهْهُمْ في

الدينِ وعلّمْهُمْ السُنَنَ، واحكُمْ فيهمْ بكتابِ اللهِ. وقالَ: امضِ ولا تلتفِتْ. فقالَ عليٌّ : يا رسولَ اللهِ، ما أصنعُ؟ قالَ: إذا نزلتَ بساحتِهِمْ فلا تقاتلْهُمْ حتى يقاتلوكَ، وادعُهمْ إلى أنْ يقولوا: لا إلهَ إلاّ اللهُ، محمدٌ رسولُ اللهِ، فإنْ قالوا: نعمْ، فَمُرْهمْ بالصلاةِ، فإنْ أجابوا، فمرْهمْ بالزكاةِ، فإنْ أجابوا فلا تبغِ منهمْ غيرَ ذلكَ، واللهِ، لأنْ يهدي اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ ممّا طلعَتْ عليهِ الشمسُ أو غربَتْ، ولكَ ولاؤهُ يا عليُّ. ثمّ أوصاهُ فقالَ: يا عليُّ، أوصيكَ بالدعاءِ، فإنّ معهُ الإجابةَ، وبالشكرِ فإنّ معهُ المزيدَ، وإيّاكَ عنْ أنْ تخفِرَ عهداً وتعينَ عليهِ، وأنهاكَ عنِ المكْرِ، فإنّهُ لا يحيقُ المكرُ السيّئُ إلاّ بأهلهِ، وأنهاكَ عنِ البغيِ، فإنّه منْ بُغيَ عليهِ لينصرنَّهُ اللهُ. فضربَ على صدرِ عليٍّ، ثمّ قالَ: اذهبْ، فإنّ اللهَ سيهدي قلبَكَ، ويثبّتُ لسانكَ. لقد نصحَهُ رسولُ اللهِ ودعا لهُ وذلكَ لأنّ عليًّا أُرسلَ في مهمّةٍ جديدةٍ وهي الحُكْمُ والقضاءُ بينَ الناسِ وهي مهمّةٌ تحتاجُ إلى علمٍ ومعرفةٍ وخبرةٍ. فخرجَ عليٌّ في ثلاثمائةِ فارسٍ، فكانتْ خيلُهمْ أوّلَ خيلٍ، ثمّ لقيَ جمعَهمْ، فدعاهُمْ إلى الإسلامِ، فأبوا، ورموا أصحابَهُ بالنبْلِ والحجارةِ. فلمّا رأى أنّهمْ لا يريدونَ إلاّ القتالَ صفَّ أصحابَهُ ثمّ حملَ عليهمْ عليٌّ وأصحابُهُ، فقتلَ منهمْ عشرينَ رجلاً، فتفرَّقوا وانهزموا، وتركوا لواءَهمْ قائماً، فأصابوا سبياً وغنائمَاً، وكفَّ عليٌّ عنْ طلبِهمْ، ثمّ دعاهُمْ إلى الإسلامِ، فأسرعوا وأجابوا. وتقَدّمَ نفرٌ منْ رؤسائِهِمْ، فبايعوهُ على الإسلامِ وقالوا: نحنُ على مَنْ وراءَنا منْ قومِنا. وهذه صدقاتُنا، فخذْ منها حقَّ اللهِ. (٤٤٧)

الوفُودْ

بعد أنْ انتشرَ الإسلامُ في شبهِ الجزيرةِ العربيةِ بدأتْ الوفودُ تأتي إلى رسولِ اللهِ لمقابَلتِهِ والتحدُّثِ معهُ؛ منهمْ مَنْ جاءَ بأسئلةٍ، أرادَ إجاباتٍ لها. ومنهمْ مَنْ جاءَ ليُعلنَ إسلامَهُ ومنهمْ مَنْ أرادَ أنْ يتبرَّكَ ويستزيدَ منْ نبيِّ اللهِ. فكانَ الناسُ يرونَ أنّ النبيَّ مسؤولٌ عن شفاءِ مَرضاهمْ، وعنْ حلِّ مشاكلِهمْ، وحتى عن تزويدِهمْ بالطعامِ.

فلمّا قَدِمَ وفدُ بنيْ ثعلبَةَ وكانوا أربعةَ أنفارٍ نزلوا في دارِ رملَةَ بنتِ الحارثِ، جاءهُمْ بلالٌ، فنظرَ إليهمْ وقالَ: أمعَكمْ غيرُكُمْ؟ قالوا: لا. فانصرفَ عنهمْ، فلم يلبثْ إلاّ يسيراً حتى أتاهُمْ

بجفْنَةٍ منْ ثريدٍ بلبَنٍ وسمنٍ، فأكلوا حتى شبعوا. ثمّ خرجوا الظهْرَ، فإذا رسولُ اللهِ قد خرجَ منْ بيتهِ ورأسُهُ يقطرُ ماءً، فرمى ببصرِهِ إليهمْ، فأسرعوا إليهِ، وبلالٌ يُقيمُ الصلاةَ. فسلموا عليهِ وقالوا: يا رسولَ اللهِ، نحنُ رسُلُ مَنْ خلفَنا منْ قومِنا، ونحنُ مقِرّونَ بالإسلامِ، وهم في أعمالِهمْ ومواشيهِمْ، وقد قيلَ لنا يا رسولَ اللهِ: لا إسلامَ لمَنْ لا هجرةَ لهُ. ويقصدونَ هجرةَ النبيّ مع المسلمينَ منْ مكةَ إلى المدينةِ، حيثُ كانَ بعضُ المسلمينَ يفخرونَ فيما بينهمْ بذلكَ. فقالَ رسولُ اللهِ: حيثُما كنتمْ واتقيتُمُ اللهَ فلا يضرُّكمْ. وفرغَ بلالٌ منَ الأذانِ، وصلى رسولُ اللهِ بهم الظهرَ، ثمّ انصرفَ إلى بيتهِ، فدخلَ، فلم يلبثْ أنْ خرجَ إليهم بعد أنْ صلى في بيتهِ ركعتينِ. فدعاهُمْ، فقالَ: أين أهلُكمْ؟ فقالوا: قريباً يا رسولَ اللهِ، هم بهذه الخيمَةِ. فقالَ: كيفَ بلادُكمْ؟ فقالوا: مُخْصِبونَ. فقالَ: الحمدُ للهِ. فأقاموا أياماً، وتعلَّموا القرآنَ والسُّنَنَ، وضيافتُهُ تجري عليهمْ، ثمّ جاؤوا يودّعونَهُ منصرِفينَ، فقالَ لبلالٍ: أجِزْهُمْ كما تُجيزُ الوفودَ. فجاءَ بنُقَرٍ منْ فِضّةٍ، فأعطى كلَّ رجلٍ منْهمْ خمسَ أواقٍ وقالَ: ليس عندنا دراهِمٌ، فانصرفوا إلى بلادهِمْ.



شكل(٥٩): بعض الوفود العربية في طريقها الى النبي.

وقدِمَ وفدُ عبدِ قيسٍ وهي قبيلةٌ، تسكنُ البحرينَ وما والاها منْ أطرافِ العراقِ إلى النبيِّ، فقامَ عمرُ، فتوجهَ نحوَهمْ، فلقيَ ثلاثةَ عشرَ راكباً، فقالَ: مَنِ القومُ ؟ فقالوا: منْ بنيْ عبدِ القيسِ. قالَ: فما أقدَمَكُمْ؟ التجارَةُ؟ قالوا: لا. قالَ: أما إنّ النبيَّ قد ذَكرَكمْ آنفاً فقالَ خيراً. وكانَ نبيُّ اللهِ قد نظرَ إلى الأفُقِ صبيحةَ اليومِ الذي قدموا فيهِ وقالَ: ليأتِينَّ رَكْبٌ منَ المشرقِ، لم

يُكرَهوا على الإسلامِ، قد أنضوا الركابَ، وأفنوا الزادَ، بصاحبِهِمْ علامةٌ، اللهمَّ اغفرْ لعبدِ قيسٍ، أتوني لا يسألونني مالاً، همْ خيرُ أهلِ المشرقِ. ثمّ مشوا معَ عمرَ حتى أتوا النبيَّ. فقالَ عمرُ للقومِ: هذا صاحبُكمْ الذي تريدونَ، فرمى القومُ بأنفسِهمْ عنْ ركائبِهمْ، فمنهُمْ مَنْ مشى، ومنهمْ منْ هرولَ، ومنهمْ مَنْ سعى حتى أتوا النبيَّ وسلموا عليهِ، فجعلوا يقَبِّلونَ يدَ رسولِ اللهِ ورِجلَهُ. وسألَهمْ رسولُ اللهِ: أيُّكمْ عبدُ اللهِ الأشَجُّ؟ فقالَ: أنا يا رسولَ اللهِ، وكانَ رجلاً دميماً. فنظرَ إليهِ رسولُ اللهِ، فقالَ: إنهُ لا يُستَقى فـي مسوكِ الرجالِ، إنما يُحتاجُ منَ الرجلِ إلى أصغرَيْهِ: لسانِهِ وقلبِهِ. ومعنى ذلكَ أنّ الشكلَ الخارجيَّ لا قيمةَ لهُ في ميزانِ الرجالِ وإنما يُوزَنُ الرجلُ منْ كلامِهِ ومنطقِهِ وحُسْنِ سيرتهِ وأخلاقهِ. ثمّ قالَ: يا رسولَ اللهِ، إنّ معي رجلاً خالاً ليْ، مصاباً فادعُ اللهَ لهُ. فقالَ: أينَ هو؟ ائتنِي بهِ. ثمّ ضربَ ظهْرَهُ وقالَ: أُخرجْ عدوَّ اللهِ. كانَ جِنيًّا متلبِّسًا بهذا الرجلِ يؤذيهِ، فأخرجَهُ منهُ رسولُ اللهِ . فأقبلَ ينظرُ نَظَرَ الصحيحِ ليس بنظرِهِ الأوّلِ، ثمّ أقعَدَهُ بينَ يديهِ فدعا لهُ وقالَ: مرحباً بالقومِ غيرَ خزايا ولا ندامى. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنّا نأتيكَ منْ شُقَّةٍ بعيدةٍ، وإنهُ يحولُ بيننا وبيْنَكَ هذا الحيُّ منْ كفارِ مُضَرَ، وإنّا لا نصلُ إليكَ إلاّ في شهرِ حرامٍ، فَمُرْنا بأمرٍ فصلٍ، إنْ عملْنا بهِ دخلنا الجنَّةَ. قالَ: آمرُكمْ بأربعٍ، وأنهاكُمْ عنْ أربعٍ. قالَ: أمرُكمْ بالإيمانِ باللهِ وحدَهُ وقالَ: هلْ تدرونَ ما الإيمانُ باللهِ؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ. قالَ: شهادةُ ألاّ إلهَ إلاّ اللهُ، وأنّ محمداً رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، ثم قالَ: وأنْ تعطوا الخُمسَ منْ المغْنمِ. وأنهاكمْ عنْ أربعٍ: عنْ الدبّاءَ، والحنْتَمِ، والمزفتِ، والنقيرِ فاحفظوهنَّ، وادعوا إليهنّ مَنْ وراءكم.

---

١ أنضوا الركاب: أي قد تعبت إبلهم.

٢ الدّميم: قبيح المنظر.

٣ أي لا يُشرب الماء في جلودهم.

٤ والمراد انه لم يكن منهم تاخر عن الاسلام ولا عناد، ولا اصابهم اسر ولا سبي، ولا ما اشبه ذلك، مما يستحيون بسببه او يندمون، فهذا اظهار لشرفهم؛ حيث دخلوا في الاسلام طائعين من غير خزي.

٥ وهي تسميات مختلفة لأوعية كانوا يجعلون فيها التمر أو الزبيب مع الماء حتى يحلو ويتخمر ثم يشربونه.

قالوا: يا نبيَّ الله، ما علمُكَ بالنقيرِ؟ قالَ: بلى، جذعٌ تنقرونَهُ فتقذفونَ فيهِ من التمرِ ثم تصبّونَ فيهِ منَ الماءِ، حتى إذا سكنَ غليانُهُ شربتموهُ. قالَ: يا معشرَ عبدِ قيسٍ ما ليَ أرى وجوهَكمْ قد تغيّرتْ؟ قالوا: يا نبيَّ الله، نحنُ بأرضٍ وخمَةٍ لا ينبتُ العشبُ فيها، وكنا نتخذُ من هذه الأنْبِذَةِ ما يخفِّفُ علينا، وقد اضطرَّتنا لهذه الأشربةِ الظروفُ، فذلك الذي ترى في وجوهنا. فقالَ رسولُ الله: إنّ الظروفَ لا تُحِلُّ ولا تحرّمُ، ولكنْ كلُّ مسكرٍ حرامٌ، وليس أنْ تجلسوا فتشربوا، حتى إذا ثَملَتْ العروقُ تفاخرتُمْ، فوثَبَ الرجلُ على ابنِ عمّهِ بالسيفِ فتركَهُ أعرجَ. قالوا: ففيمَ نشربُ يا رسولَ الله؟ قالَ: في أسقيةِ الأدم التي يُلاثُ على أفواهها. فقالوا: يا رسولَ الله، إنّ أرضنا كثيرةُ الجُرذانِ، ولا تبقى بها أسقيةُ الأدمِ. فقالَ نبيُّ الله: وإنْ أكلتْها الجرذانُ، مرتينِ أو ثلاثاً. فقالَ الأشجُّ: يا رسولَ الله، إنّ أرضنا ثقيلةٌ وخمَةٌ وإنّا إذا لم نشربْ هذه الأشربَةَ هِيجَتْ ألوانُنا، وعظمُتْ بطونُنا، فرخّصْ لنا في هذه. فأومأ بكفيهِ. فقالَ: يا أشجُّ، إني إنْ رخّصتُ لكَ في مثلِ هذه ـ وأومأ بكفّيهِ هكذا ـ شربتَهُ في مثلِ هذه ـ وفرَجَ يديهِ وبسَطَهُما. يعني أعظمَ منها ـ حتى إذا ثمِلَ أحدُكمْ منْ شرابهِ قامَ إلى ابن عَمّهِ فهزرَ ساقَهُ بالسيفِ. فجعلَ الحارثُ يسدلُ على ثوبهِ لمّا سمعها منْ رسولِ الله ليغطّيَ الضربةَ بساقِهِ، وقد أبداها اللهُ لنبيّهِ .

ثمّ حدَّثهُمْ رسولُ اللهِ عنِ التمورِ عندهم. فقالَ: لكم تمرةٌ تدعونها كذا، وتمرةٌ تدعونها كذا. حتى عدَّ ألوانَ تمرِهمْ أجمعَ. فقالَ لهُ رجلٌ من القومِ: بأبي أنتَ وأميْ يا رسولَ الله، لو كنتُ ولدتُ في هَجَرٍ ما كنتُ بأعلمَ منكَ الساعةَ، أشهدُ أنكَ رسولُ الله. فقالَ: إنّ أرضكم رُفِعَتْ ليْ منذُ قعدتُمْ إليّ، فنظرتُ من أدناها إلى أقصاها، فخيرُ تمرِكمْ البُرْنِيِّ الذي يذهَبُ بالداءِ ولا داءَ معهُ. فقرَّبَ رسولُ الله الأشبحَ وأجلسَهُ إلى جانبهِ وقالَ لهُ: تبايعونَ على أنفسِكمْ وقومِكمْ؟ فقالوا: نعمْ. فقالَ الأشجُّ: يا رسولَ الله، إنكَ لن تزاودَ الرجلَ على شيءٍ أشدَّ عليه من دينهِ، نبايعُكَ على أنفسنا، ونرسلُ مَنْ يدعوهُمْ، فمَنْ اتبعَنا كانَ منّا، ومَنْ أبى قتلناهُ.

---

١ أوعية من الجلد يوضع فيها الماء واللبن، وتُلف بحبل.

قالَ: صدقْتَ. إنّ فيكَ خِصلَتينِ: الحِلْمَ والأناةَ قالَ الأشجُ: يا رسولَ الله، أنا أتخلّقُ بهما، أمِ اللهُ جبلني عليهما؟ قالَ: بلِ اللهُ جبلَكَ عليهما. قالَ الأشجُ: الحمدُ لله الذي جبلني على خِلّتينِ يحبهما اللهُ ورسولهُ. فأمرَ النبيُّ لهم بجوائزَ كما كانَ يجيزُ مَنْ كانَ قبلَهمْ، ثمّ رجعوا إلى بلادهم. (٤٤٨)

كانَ رسولُ الله قد كتبَ إلى أهلِ نجرانَ كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلامِ، يقولُ فيه: "بسمِ إلهِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، منْ محمدٍ النبيِّ إلى أُسقُفِ نجرانَ وأهلِ نجرانَ، إنْ أسلمْتُمْ فإني أحمدُ إليكمْ إلهَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ. أمّا بعدُ، فإني أدعوكم إلى عبادةِ اللهِ منْ عبادةِ العبادِ، وأدعوكم إلى ولايةِ اللهِ منْ ولايةِ العبادِ، فإنْ أبيتُمْ فالجزْيةُ، فإنْ أبيتُمْ فقد آذنْتُكمْ بحربٍ والسلامُ." فلمّا وصلَ الكتابُ إلى الأسقفِ أبي حارثةَ بنِ علقمةَ قرأهُ وذُعرَ ذعراً شديداً. فبعثَ إلى علماءِ أهلِ نجرانَ ليستشيرَهمْ فقالوا لهُ: قد علمتَ ما وعدَ اللهُ إبراهيمَ في ذُريّةِ إسماعيلَ منَ النبوّةِ، فما تؤمنُ أنْ يكونَ هذا هو ذاكَ الرجلُ. فأمرَ الأسقفُ بالناقوسِ فضرِبَ بهِ، ورفعَتْ النيرانَ السُرُجُ في الصوامعِ فاجتمعَ أهلُ الوادي أعلاهُ وأسفلَهُ. فقرأَ عليهمُ الأسقفُ كتابَ رسولِ الله، وسألَهمْ عنِ الرأي فيهِ. فاجتمعَ رأيُ أهلِ الرأيِ منهمْ على أنْ يبعثوا وفداً فيأتوهم بخبرِ رسولِ الله، وكانَ هذا سنةَ عشرةٍ، فذهبَ إلى المدينةِ وفدُ نصارى نجرانَ لمقابلةِ النبيِّ محمدٍ، والوفدُ يتكوّنُ منْ ستينَ راكباً، فيهم أربعةُ عشرَ رجلاً منْ أشرافِهِمْ وفيهم أميرُ القومِ واسمُهُ عبدُ المسيحِ وقائدُ رَحْلِهِمْ واسمهُ الأيْهَمُ وأبو حارثةَ بنُ علقمةَ أُسقفُهُمْ.

فانطلقَ الوفدُ حتى إذا كانوا بالمدينةِ وضعوا ثيابَ السفرِ عنهم، ولبسوا حُلَلاً لهم، وتختَّموا بالذهبِ. فدخلوا على رسولِ اللهِ في مسجدهِ في المدينةِ في باحةِ المسجدِ، فتعجّبَ مَنْ رآهمْ منْ منظرهم. فقاموا في المسجدِ ليُصلّوا، فأرادَ الناسُ مَنْعَهمْ. فقالَ رسولُ الله: دعوهُمْ. ثمّ أتوا رسولَ الله، فسلّموا عليه، فردَّ عليهم سلامهم فقالَ العاقِبُ، عبدُ المسيحِ، والسيّدُ أبو

١ نجران: بلد كبير بالقرب من صنعاء ما بين عدن وحضرموت، وكان أهل نجران صنفين نصارى وأميين.

حارثةَ بنُ علقمةَ: قد أسلمْنا يا محمدُ. فقالَ: إنكما لم تسلِما. قالا: بلى، قد أسلمنا قبلَ أنْ نأتيكَ. قالَ: كذبْتما، إنْ شئتُما أخبرتُكُما ما يمنعُكما منَ الإسلامِ؟ قالا: فهاتِ. قال: حبُّ الصليبِ، وشربُ الخمرِ، وأكلُ لحمِ الخنزيرِ. فقالوا: يا محمدُ، ما تقولُ في عيسى ؟ قال: هو روحُ اللهِ وكلمتُهُ، وعبدُ الله ورسولُهُ. فلم يقتَنِعوا وقالوا: لا، إنّه ليس كذلكَ، فهلْ رأيتَ قطُّ إنساناً خُلِقَ منْ غيرِ أبٍ؟ فأطرَقَ رسولُ الله ثمّ أنزلَ اللهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[١] ۝﴾ (٤٤٩) ، فلمّا أصبحوا عادوا إليهِ، فقرأ عليهم الآياتِ، فأبوا أنْ يَقرُّوا. فأمرَ اللهُ نبيَّهُ بِمباهلَتِهِمْ فقال: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ ۝ إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ۝﴾. (٤٥٠)

عند ذلك دعاهمْ رسولُ الله إلى المُباهلَةِ، فقال: إنّ اللهَ أمرني إنْ لم تقبلوا هذا أنْ أُباهِلَكُمْ. فقالوا: أخِّرْنا ثلاثةَ أيامٍ، فخلا بعضُهمْ إلى بعضٍ وتشاوروا في الأمرِ. فقالَ أميرُ القومِ عبدُ المسيحِ: واللهِ يا معشرَ النصارى، لقد عرفتُمْ أنّ محمداً لنبيٌّ مرسَلٌ، ولئنْ لاعنتُموهُ ليخْسفَنَّ بأحدِ الفريقَينِ، إنّه لاستئْصالٌ لكم، وما لاعنَ قومٌ قطُّ نبيّاً فبقيَ كبيرُهمْ، ولا نبَتَ صغيرُهمْ. قالوا: فما الرأيُ يا أبا مريمَ؟ فقالَ: رأييْ أنْ أُحكِّمَهُ، فإنّي أرى رجلاً لا يحكمُ شَطَطاً أبداً. فقالَ الأيهمُ: فإنْ كنتُمْ قد أبيْتُمْ إلاّ إلفَ دينِكمْ، والإقامةَ على ما أنتُمْ عليهِ من القولِ في صاحبِكمْ، فَوادِعوا الرجلَ، ثم انصرفوا إلى بلادِكمْ. فرضوا بمُباهَلَةِ النبيّ .فلمّا رجعوا إلى منازِلِهِمْ قالَ رؤساؤهمُ: إنْ باهَلَنا بقومِهِ باهلْناهُ، فإنّهُ ليس نبيّاً، وإنْ باهلَنا بأهلِ بيتِهِ خاصةً لم نباهلْهُ، فإنّهُ لا يقدُمُ على أهلِ بيتِهِ إلاّ وهو صادقٌ.

---

١ الامتراء: الشك، والممترون: المشككون.

٢ المباهلة في الإسلام هي الملاعنة، أي الدعاء بنزول اللعنة على الكاذب من المتباهلين المتلاعنين.

فلمّا انقضَتْ المدَّةُ وجاءَ يومُ المُباهلةِ، حضرَ أهلُ نجرانَ للمباهلةِ ووقفوا يترقَّبونَ قُدومَ النبيِّ محمدٍ، فأقبلَ رسولُ الله مشتَمِلاً على الحسنِ والحُسينِ في خميلَةٍ لهُ، وفاطمةُ تمشي خلفَهُ وعليٌّ خلفها، فقالَ رسولُ الله: إنْ أنا دعوتُ فأمّنوا أنتمْ. قالَ أُسقفُ نجرانَ وهو يراقبُ النبيَّ مع أهلِ بيتهِ: إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا اللهَ أنْ يزيلَ جبلاً منْ مكانهِ لأزالَهُ. فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجهِ الأرضِ نصرانيٌّ إلى يومِ القيامةِ. واللهِ، لقد عرفْتُمْ نبوّتَهُ، ولقد جاءكمْ بالفصلِ في أمرِ صاحبِكمْ، فواللهِ، ما باهلَ قومٌ نبيّاً إلاّ هلكوا، فإنْ أبيتُمْ إلاّ دِينَكُمْ فوادعوا الرجلَ، وانصرفوا. فتوجهوا إلى النبيِّ وقالوا: يا أبا القاسمِ، لا نلاعِنُكَ. فقالَ رسولُ الله: فأسلموا، يكنْ لكم ما للمسلمينَ وعليكم ما عليهمْ. فأبوا. فقالَ النبيُّ: فإنّي أُناجزُكمْ.فقالوا: ما لنا بحربِ العربِ طاقةٌ. ولكنْ نصالحُكَ. فصالحَهمْ، وقال: والذي نفسي بيدهِ، إنّ العذابَ تدلّى على أهلِ نجرانَ، ولو تلاعنوا لَمُسخوا قردةً وخنازيرَا، ولاضطرمَ عليهمُ الوادي ناراً، ولاستأصَلَ اللهُ نجرانَ وأهلَها حتى الطيرَ على الشجرِ. وبعد امتناعِهِمْ عنِ الدخولِ في المُلاعَنةِ، وتقرَّرَ ضربُ الجزْيَةِ على أهلِ نجرانَ، انصرفوا عنهُ، حتى إذا كانَ منَ الغدِ كتبَ لهم كتاباً، فلمّا قبضَ الأسقفُ الكتابَ استأذنَ بالرجوعِ إلى قومِهِ ومَنْ معهُ، فأذِنَ لهمْ فانصرفوا.

استمرَّتْ الوفودُ إلى السنةِ العاشرةِ فكانَ فيمَنْ وفدَ وفدٌ من مُحارِبَ سنةَ عشرٍ، وهم عشرةُ أنفارٍ، منهمْ سَواءُ بنُ الحارثِ، وابنهُ خزيمةُ بنُ سواءَ، فأُنْزِلوا دارَ رملةَ بنتِ الحارثِ وكانَ بلالٌ يأتيهمْ بغداءٍ وعشاءٍ إلى أنْ جلسوا مع رسولِ الله يوماً منَ الظهرِ إلى العصرِ، فأسلموا وقالوا: نحنُ على مَنْ وراءَنا. كانَ من بينِ الوفدِ شخصٌ منْ محاربَ عرفَهُ رسولُ الله، حيثُ لمّا كانَ رسولُ اللهِ في مكةَ يعرضُ دعوتَهُ على القبائلِ في مواسمِ الحجِّ، ويدعوهُمْ إلى اللهِ وإلى نُصرتِهِ، تعرَّضَ لهُ جماعةٌ بفظاظَةٍ وغُلظٍ وكانَ في الوفدِ رجلٌ منهمْ، فعرفهُ رسولُ

١ الخميلة: القطيفة أو الكساء.

٢ يعني عيسى بن مريم.

اللهِ وأطالَ النظرَ فيهِ، فلمّا رآهُ المُحاربيُّ يديمُ النظرَ إليهِ قالَ: كأنكَ يا رسولَ اللهِ توهَّمُنيْ، قالَ: لقد رأيتُكَ. قالَ المُحاربيُّ : أيْ واللهِ، لقد رأيتَنيْ وكلَّمْتنيْ، وكلّمْتُكَ بأقبَحِ الكلامِ، ورددْتُ عليكَ بأقبحِ الردِّ بعُكاظَ، وأنتَ تطوفُ على الناسِ. فقالَ: نعمْ. فقالَ المُحاربيُّ: يا رسولَ اللهِ، ما كانَ في أصحابيْ أشدُّ عليكَ يومئذٍ ولا أبعدُ عنِ الإسلامِ مني، فأحمدُ اللهَ الذي أبقاني حتى صدّقتُ بكَ، ولقد ماتَ أولئكَ النفرُ الذينَ كانوا معي على دينِهِمْ. فقالَ النبي: إنّ هذه القلوبَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ. فقالَ: يا رسولَ الله، استغفرْ ليْ مِنْ مراجعتي إياكَ. فقالَ رسولُ الله: إنّ الإسلامَ يَجبُّ ما كانَ قبلَهُ منَ الكفرِ. وحينما أرادوا الرحيلَ رفعَ النبيُّ يديهِ وأستقبلَ القِبلةَ ودعا لهمْ ثمّ أجازَهمْ كما يجيزُ الوفُودَ، وانصرفوا إلى أهليْهِمْ. (٤٥١)

غَزْوةُ تَبوكْ

كانتْ تأتي الأخبارُ إلى رسولِ الله عن مَلِكِ دَومَةِ الجَنْدَلِ، وهو أُكَيْدِرُ بنُ عبدِ الملكِ الكِنْدِي، لهُ مملكةٌ عظيمةٌ ممّا يليْ الشامَ، وكانَ يهدّدُ رسولَ الله بأنّهُ يقصدُهُ، ويقتلُ أصحابَهُ، ويبيدُ خضراءَهمْ. وكانَ أصحابُ رسولِ الله خائفينَ وجِلينَ منهُ لارتِباطهِ بالرومِ، حتى كانوا يتناوبونَ على رسولِ اللهِ كلَّ يومٍ عشرونَ منهمْ، وكلَّما صاحَ صائحٌ ظنّوا أنّه قد طلعَ أوائلُ رجالهِ وأصحابهِ.



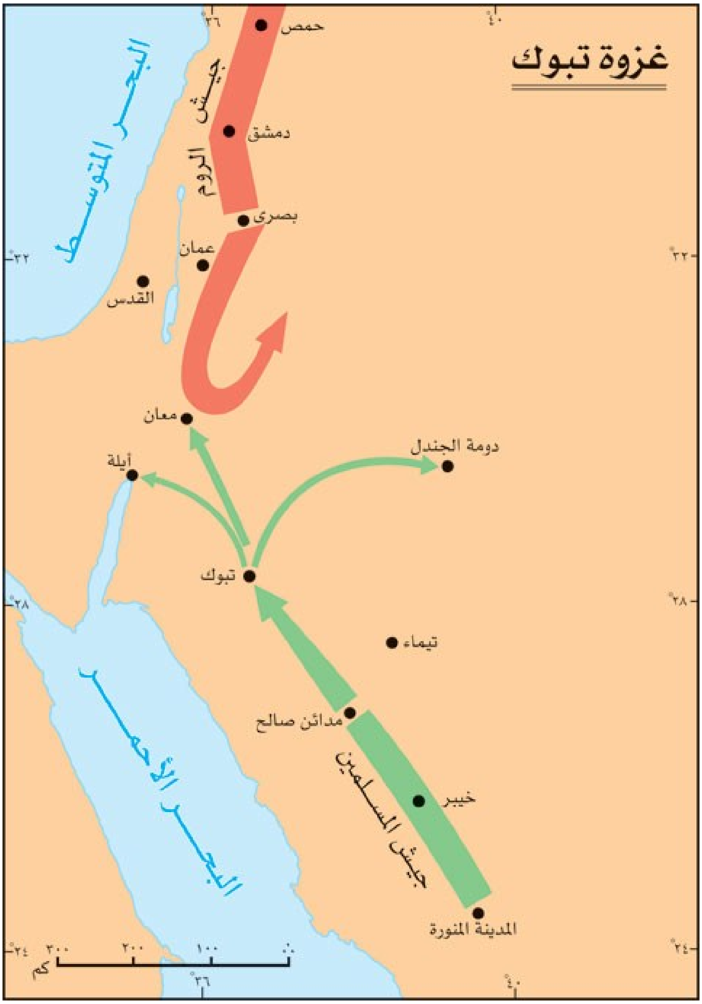
شكل(٦٠): صورة حاكية لاجتماع المنافقين للتآمر على النبي

وأكثرَ المنافقونَ الأراجيفَ والأكاذيبَ، وجعلوا يتخلّلونَ أصحابَ محمدٍ، ويقولونَ: إنّ أكيدرَ قد أعدَّ منَ الرجالِ كذا، ومن الكراعِ كذا، ومنَ المالِ كذا، ثمّ يوسوِسونَ إلى ضعفاءِ المسلمينَ يقولونَ لهمْ: فأينَ يقعُ أصحابُ محمدٍ منْ أصحابِ أكيدرَ؟ يوشكُ أنْ يقصدَ المدينةَ فيقتلُ رجالَها، ويسبيْ ذراريها ونساءها. حتى آذى ذلكَ قلوبَ المؤمنينَ، فشكوا إلى رسولِ اللهِ ما همْ عليهِ منَ الخُدعِ.

لم يقفْ المنافقونَ عند نشرِ الإشاعاتِ بينَ المسلمينَ بلِ اتصلوا بأنفُسِهمْ بأكيدرَ في دَومَةِ الجَنْدَلِ، ليقصدَ المدينةَ وينصرَهمْ على الإيقاعِ بالرسولِ والمسلمينَ، لكي تكونَ السلطةُ بأيديهِمْ، فاتفقوا مع أبي عامرٍ الراهبِ وبايعوهُ وجعلوهُ أميراً عليهِمْ، فقالَ لهمْ: الرأيُ أنْ أغيبَ عنِ المدينةِ، لئلّا أُتَّهَمُ بتدبيرِكُمْ. كانَ الوضعُ الداخليُّ في المدينةِ متأزِّمًا، نتيجةَ تنامي الحربِ النفسيّةِ التي يشنُّها المنافقونَ بإسنادٍ منْ قوّةٍ خارجيّةٍ، الأمرُ الذي استوجَبَ تدبيرًا وعلاجًا لهذا الوضعِ المتأزّمِ.

كانَ النبيُّ يدركُ الخطرَ الذي يتهدَّدُ الأُمّةَ الإسلاميةَ، وكانَ يعي أنّهُ يتعيّنُ عليهمُ التصرُّفُ لمواجهةِ هذا الخطرِ، فكانَ يتوجّهُ بالدعاءِ إلى اللهِ طالباً المساعدةَ والنصرَ، قائلاً: اللهمَّ إنْ تهلِكَ هذه العصابةُ لن تُعبَدَ في الأرضِ. لقد قالَ رسولُ اللهِ نفسَ هذه الكلمةِ في بدرٍ، وهو ساجدٌ، وذلكَ لأنّ حربَ بدرٍ كانتْ مصيريَّةً بالنسبَةِ إلى الإسلامِ، والمسلمينَ، فقولُهُ هذه الكلمةِ هذه المرَّةُ يفيدُ أنّ ثَمّةَ خطرًا حقيقيّاً يتهددُ عصابَةَ أهلِ الإيمانِ كلَّها، وإنّهُ لا ريبَ في أنّ هلاكَ تلكَ العصابةِ سينتجُ أنْ لا يُعبَدَ اللهُ على الأرضِ، وهذا يساوي محوَ معالمِ الدينِ، وإزالةَ كلِّ أثرٍ لهُ منَ العقولِ والنفوسِ. فأوحى اللهُ إلى النبيِّ محمدٍ، وعرّفَهُ عن اجتماعاتِ المنافقينَ وما تآمروا عليهِ، وأمرَهُ بالمسيرِ إلى تبوكَ بالجيشِ والإيقاعِ بهمْ. وتقعُ مدينةُ تَبوكَ تحديداً على بُعدِ سبعِ مئةِ كيلومترٍ شمالَ المدينةِ.

كانَ رسولُ اللهِ إذا أرادَ أنْ يغزوَ، أخفى نِيّتَهُ وخُطّتَهُ، إلاّ غزوةَ تبوكَ، فإنَّهُ أظهرَ ما كانَ يريدُهُ، وأمرَهمْ أنْ يتزوَّدوا لها، وأخبرَ رسولُ الله أصحابَهُ أنّ اللهَ، أوحى إليهِ أنّهُ سيظفِرُهُ على أكيدرَ، فيُمَكّنُهُ منَ القبضِ عليهِ وإجبارهِ على المصالحَةِ وعلى دفْعِ ألفِ أوقيَّةٍ منْ ذَهَبٍ ومائتي حلّةٍ في شهرِ صفرٍ، ودفعِ ألفِ أوقِيّةٍ مثلها منْ ذهبٍ ومائتيْ حلّةٍ في شهرِ رجبٍ وينصرفُ النبيُّ والمسلمونَ بعدها سالمينَ في ثمانينَ يوماً. فقالَ لهم رسولُ اللهِ: إنّ موسى



شكل(٦١): خريطة غزوة تبوك.

وعدَ قومَهُ أربعينَ ليلةً، وإنّيْ أعِدُكمْ ثمانينَ ليلةً، ثم أرجعُ سالماً غانِماً، ظافرا بلا حربٍ تكونُ، ولا أحدٍ يُستأسَرُ من المؤمنينَ. فسمعَ نفرٌ منَ المنافقينَ قولَهُ، فتكلموا فيما بينهم وقالوا: لا واللهِ، ولكنها آخرُ كَسْراتِهِ التي لا ينجبِرُ بعدها، إنّ أصحابَهُ ليموتُ بعضُهمْ في هذا الحرّ، ورياحِ البوادي، ومياهِ المواضعِ المؤذِيةِ الفاسدةِ، ومَنْ سلِمَ منْ ذلكَ فبينَ أسيرٍ في يدِ أكيدرَ، وقتيلٍ وجريحٍ.

وفي رجبٍ سنةَ تسعٍ نَفَّذَ النبيُّ خطَّتَهُ. وكتبَ إلى قبائلِ العربِ، ممنْ قد دخلَ الإسلامَ، وبعثَ إليهم الرسُلَ، يُرغِّبُهمْ في الجهادِ والغزوِ. وكانَ ذلكَ في شدّةٍ منَ الحرّ، وجَدْبٍ منَ البلادِ، وحينَ طابتْ الثمارُ، والناسُ يحبونَ المقامَ في بساتينِهمْ وظلالِهمْ ويكرهونَ الخروجَ في الصيفِ اللّاهبِ. لمّا عزمَ رسولُ اللهِ على الرحلةِ إلى تبوكَ، عمدَ هؤلاءِ المنافقونَ على بناءِ مسجدٍ خارجَ المدينةِ، بدعوى إنّهُ مكانٌ للصلاةِ والعبادةِ، لكنّهمْ كانوا يجتمعونَ فيهِ ويخطّطونَ ضدَّ الإسلامِ والنبيّ، وكانتْ هذه فكرةُ قائدِهمْ أبي عامرٍ، حيثُ أمرَهمْ قبلَ خروجهِ إلى الشّامِ وقالَ: ابنوا مسجدَكمْ، واستمدّوا فيهِ بما استطعْتُمْ منْ قوةٍ وسلاحٍ، فإنّي ذاهبٌ إلى قيصرَ ملكِ الرومِ، فآتيْ بجيشٍ من الرومِ. وبعد أن انتهوا منْ بناءِ المسجدِ، جاءتْ جماعةٌ منهم إلى رسولِ الله وقالوا: يا رسولَ الله إنّ بيوتنا قاصيَةٌ عنْ مسجدِكَ وإنّا نكرَهُ الصلاةَ في غيرِ جماعةٍ، ويصعبُ علينا الحضورُ، وقد بنينا مسجداً، فإنْ رأيتَ أنْ تقصُدَهُ وتصلّيَ فيهِ لنتيمّنَ ونتبرَّكَ بالصلاةِ في موضعِ مُصلّاكَ. فلمْ يعرِفْ رسولُ اللهِ نواياهمُ الحقيقيّةَ، لأنّ اللهَ لم يُعَرّفْهُ أمرَهمْ ونفاقَهمْ. فقالَ: إنّي على جناحِ سفرٍ، وحالِ شُغْلٍ، وإذا قدِمْنا إنْ شاءَ اللهُ صَلَّينا لكمْ فيهِ.

كانَ قومٌ منَ المنافقينَ، لمّا خرجَ رسولُ اللهِ إلى تبوكَ، يتحدثونَ فيما بينَهمْ ويقولونَ: أيرى محمدٌ أنّ حربَ الرومِ مثلَ حربِ غيرِهمْ. لا يرجعُ منهم أحدٌ أبداً، فقالَ بعضُهمْ على حدِّ الاستهزاءِ: ما أظنُّ أنّ اللهَ سيخبرُ محمداً بما كنّا فيهِ وبما في قلوبِنا وينزلُ عليهِ بهذا قرآناً

---

١ ثم خرج إلى الروم فمات بها سنة تسع أو عشر للهجرة. ٤٩٧

يقرأُهُ الناسُ. لكنّ اللهَ أوحى لنبيِّهِ ما أسرُّوا بينَهمْ، فقالَ رسولُ الله لعمّارٍ بنِ ياسرٍ: اِلحَقْ القومَ فإنّهمْ قد احترقوا، فلحقَهمْ عمارٌ فقالَ: ما قلتُمْ؟ قالوا: ما قلْنا شيئاً إنما كنّا نقولُ شيئاً على حدِّ اللعِبِ والمزاحِ! فأنزلَ اللهُ قرآناً يفضحُهمْ وقالَ: قلْ لهمْ يا محمدُ أباللهِ وآياتِهِ ورُسلِهِ كنْتُمْ تستهزِئونَ! لقد أسقطَ اللهُ اعتذارَهمْ ورفضَهُ لأنهُ عذرٌ كاذبٌ وعدَّ استهزاءَهُمْ كفراً مكشوفاً بعد أنْ كانَ مستوراً، فقالَ اللهُ رحمةً بهمْ: إنّنا سنتجاوزُ عنْ جماعةٍ منكم لأنّهمْ تابوا ورجعوا إلى الحقِّ، ولكنْ سنعذّبُ أيضاً جماعةً أخرى بقيَتْ مصــرّةً على نفاقِها وانحرافِها واستمرَّتْ في إجرامِها. (٤٥٢)

عندما خرجَ الجيشُ الإسلاميُّ، تخلَّفَ رجالٌ منَ المسلمينَ لأسبابٍ منعَتْهمْ منَ الخروجِ. واستأذنَ النبيَّ بضعَةٌ وثمانونَ رجلاً منَ المنافقينَ بِعِلَلٍ ذكروها، بعضُهمْ يعتلُّ بالحرِّ، وبعضُهمْ بمرضٍ يَجِدُهُ، وبعضُهمْ بمرضِ عيالِهِ، وبعضُهمْ يأتي النبيَّ وليس لهُ عِلَّةٌ، فكانَ رسولُ الله يأذنُ لهمْ. وفي هذا السياقِ، أتى الجدُّ بنُ قيسٍ إلى رسولِ اللهِ وهو في المسجدِ معهُ نفرٌ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ اِئذنْ ليْ في القعودِ، فإنّي ذو ضيعَةٍ وعِلّةٍ فيها عذرٌ ليْ. فقالَ رسولُ اللهِ: تَجَهَّزْ تجَهَّزْ فإنّكَ موسِرٌ. قالَ الجدُّ: ائذنْ ليْ ولا تَفْتِنِّيْ، فواللهِ لقد عرفَ قوميْ ما أحدٌ أشدُّ عجباً بالنساءِ منّي، وإنّيْ أخشى إنْ رأيتُ نساءَ بنيْ الأصفرِ ألّا أصبرَ عنهنَّ. فأعرضَ عنهُ رسولُ الله وقالَ: قد أذِنّا لكَ. فجاءهُ ابنهُ عبدُ اللهِ بنُ الجدِّ، فقالَ لأبيهِ: لِمَ تردُّ على رسولِ اللهُ مقالتَهُ؟! فواللهِ ما في بنيْ سلمَةَ أحدٌ أكثرُ مالاً منكَ، فلا تخرجُ ولا تحمِلُ؟! فقالَ: يا بنيَّ، ما ليَ وللخروجِ في الريحِ، والحرِّ الشديدِ إلى بنيْ الأصفرِ، فوَ اللهِ ما آمنُ خوفاً من بنيْ الأصفرِ وأنا في منزليْ، أفأذهبُ إليهمْ أغزوهم؟! إنّي واللهِ يا بنيَّ، عالمٌ بالدوائرِ. فغضِبَ عليهِ ابنُهُ وقالَ: لا واللهِ ولكنّهُ النفاقُ. فغضبَ الأبُ ورفعَ نَعْلَهُ وضربَ بهِ وجهَ ولَدِهِ، فانصرفَ ابنُهُ ولم يكلّمْهُ. فردَّ اللهُ عليهِ، بأنّهُ أرادَ كذباً الهروبَ منْ فِتنَةِ نساءِ بنيْ الأصفرِ، فسقطَ في فتْنةٍ أكبرَ وهي فِتنَةُ النفاقِ والتخلّفِ عنِ الجهادِ والمعصيةِ للهِ ورسولِهِ وقالَ لهُ ولأمثالِهِ بأنَّ جهنَّمَ جزاؤهُمْ وهي محيطَةٌ بهمْ جميعاً. (٤٥٣)

كما تخلّفَ ابنُ أُبيٍّ راجعاً إلى المدينةِ، فيمَنْ تخلّفَ منَ المنافقينَ، وقالَ: يغزو محمدٌ بنيْ الأصفرِ، مع جهدِ الحالِ، والحرِّ، والبلدِ البعيدِ إلى ما لا طاقةَ لهُ بهِ، يحسبُ محمدٌ أنّ قتالَ بنيْ الأصفرِ معهُ اللَّعِبَ! واللهِ لَكأنّيْ أنظرُ إلى أصحابهِ مُقرَّنينَ في الحِبالِ.

لم يكتفِ المنافقونَ بالتغَيُّبِ بلْ كانوا يحرِّضونَ غيرَهُمُ أيضاً بالبقاءِ، فجعلَ الجدُّ بنُ قيسٍ وغيرهُ منَ المنافقينَ يثبِّطونَ المسلمينَ عنِ الخروجِ، قالَ المنافقونَ والجدُّ لجبّارٍ بنِ صخرٍ ومَنْ معهُ منْ بنيْ سَلَمَةَ: لا تنفروا فِي الحرِّ، ليُزَهِّدُوهمْ بالجهادِ وليُشَكِّكوا بذلكَ في قراراتِ رسولِ اللهِ بالخروجِ في هذه الأوقاتِ.

لقد ذمَّ اللهُ المنافقينَ لبقائهم في المدينةِ وتخلّفهم عنِ الرسولِ وفرحِهِمْ لعدَمِ مشارَكتِهِمْ في الجهادِ بأنفُسِهِمْ أو بأموالِهِمْ لمساعدةِ المسلمينَ وقالوا لإخوانِهِمْ المسلمينَ لا تخرجوا معَ الرسولِ للحربِ فإنّ الوقتَ حارٌ تصعُبُ فيهِ الحركةُ ويُشقُّ فيهِ الجهادُ، فقالَ اللهُ: يا محمدُ، قلْ لهم: إنَّ نارَ جهنَّمَ أشدُّ حَرّاً لو كان يفهمونَ الأمورَ على حقيقتها، فليضحكْ هؤلاءِ المنافقونَ قليلاً لتخلُّفِهِمْ عنْ رَكْبِ المجاهدينَ ولكنّهُ فرحٌ قليلٌ وضحكٌ يسيرٌ، يعقُبهُ في الآخرةِ بكاءٌ كثيرٌ وندمٌ جزاءَ أعمالِهِمْ السيِّئةِ ونفاقِهِمْ المستمرِّ. (٤٥٤)

كانتْ المشكلةُ الأساسيّةُ في المشاركةِ في حربِ تبوكَ؛ هي الخوفُ والرعبُ من بنيْ الأصفرِ كما إنّ المسلمينَ كانوا لا يتوقّعونَ من تلكَ الغزوةِ غنائمَ ولا سبايا، ولا فتحَ بلادٍ لذلكَ كرهوا أنْ ينفِروا في الحَرِّ.

قبلَ انطلاقِهِمْ أوحى اللهُ إلى رسولهِ: يا محمدُ، إنّ العليَّ الأعلى يُقرِئُكَ السلامَ ويقولُ لكَ: إمّا أنْ تخرجَ أنتَ ويقيمَ عليٌّ، وإمّا أنْ يخرجَ عليٌّ وتقيمَ أنتَ. فقالَ رسولُ الله ذاكَ لعليٍّ. فقالَ عليٌّ: السمعُ والطاعةُ لأمرِ اللهِ وأمرِ رسولهِ، وإنْ كنتُ أحبُّ أنْ لا أتخَلَّفَ عنْ رسولِ اللهِ في حالٍ من الأحوالِ. فقالَ رسولُ اللهُ: أما ترضى أنْ تكونَ منّي بمنزلةِ هارونَ منْ موسى إلاّ أنّهُ لا نبيَّ بعدي؟ إنّهُ لا ينبغي أنْ أذهبَ إلاّ وأنتَ خليفَتيْ. فقالَ: رضيتُ يا رسولَ الله. فقالَ له رسولُ اللهِ: يا أبا الحسنِ، إنّ لكَ أجرَ خروجِكَ معي في مُقامِكَ بالمدينةِ، وإنّ اللهَ قد جعلكَ

أُمّةً وحدَكَ، كما جعلَ إبراهيمَ أمةً، تمنعُ جماعةَ المنافقينَ والكفارِ هيبتُكَ عنِ الحركةِ على المسلمينَ.

كانَ المنافقونَ في المدينةِ يعيّرونَ عليًّا لبقائهِ فيها وعدمِ ذهابِهِ مع النبيِّ محمدٍ ويقولونَ: لم يستخلفْهُ رسولُ اللهِ إكراماً لهُ، وإجلالاً ومودةً، وإنما خلَّفَهُ استثقالاً لهُ. وقالَ آخرونَ: مَلَّهُ وكرِهَ صحبتَهُ. فلمّا بلغَ عليًّا إرجافُ المنافقينَ بهِ، أرادَ تكذيبَهمْ، وإظهارَ فضيحتَهمْ، فلحِقَ بالنبيِّ وسألَهُ: يا رسولَ اللهِ، إنّ المنافقينَ يزعمونَ أنّكَ خَلَّفتَني استثقالاً ومَقْتاً؟! فقالَ النبيُّ: ارجعْ يا أخي إلى مكانِكَ، فإنّ المدينةَ لا تصلحُ إلاّ بيْ أو بكَ. فأنتَ خليفَتي في أهلِ بيتي، ودارِ هجرتي وقومي.

ثمّ انطلقَ الرسولُ بأصحابهِ، وأقامَ عليٌّ في المدينةِ لإدارةِ شؤونها أثناءَ غيابهِ. وبقيَ بعضُ المنافقينَ الذينَ اعتذروا للبقاءِ في المدينةِ بدلاً منَ الانضمامِ إلى الجيشِ الإسلامي. كانَ وجودُ هؤلاءِ المنافقينَ في المدينةِ يشكِّلُ خطراً، حيثُ كانَ منَ الممكنِ أنْ يخططوا للانقلابِ والسيطرةِ على المدينةِ والحُكْمِ. كانوا يقولونَ بينَهمْ: هي كَرَّةُ محمدٍ التي لا يؤوبُ منها. وكانوا كلمّا خططوا لإلحاقِ الضرَرِ بالمسلمينَ، كانَ عليٌّ يُفشلُ مكائدَهمْ.

لقد أحزنَ رسولَ الله تخلُّفُ الكثيرِ منْ أصحابهِ عنِ الخروجِ معهُ وعدمُ إطاعةِ أوامرِهِ وبقائهِمْ في المدينةِ أو تأخرهمْ عنِ المسيرِ معَ المسلمينَ، فبينما هم في الطريقِ شاهدَ المسلمونَ أحدَ الرجالِ خلفَهمْ، فقالَ أصحابُ النبيِّ: يا رسولَ اللهِ، تخَلَّفَ فلانٌ. فأجابَهمْ النبيُّ: دعوهُ، فإنْ يكُنْ فيهِ خيرٌ فسيُلحِقُهُ اللهُ بكم، وإنْ يكُنْ غيرَ ذلكَ فقد أراحَكمُ اللهُ منهُ. فتكرَّرَ الموقفُ معَ عِدّةِ أشخاصٍ تأخروا عنْ مسيرِ المسلمينَ، والنبيُّ يجيبُهمْ بنفسِ الإجابةِ حتى قيلَ للنبيِّ: يا رسولَ الله، تخلّفَ أبو ذرٍّ وأبطأَ بهِ بعيرُهُ. فقالَ رسولُ الله: دعوهُ، فإنْ يكُنْ فيهِ خيرٌ فسيُلحِقهُ اللهُ بكم، وإنْ يكُنْ غيرَ ذلكَ فقد أراحَكمُ اللهُ منهُ.

كانَ المسلمونَ يراقبونَ كيفَ يشدُّ أبو ذرٍّ على بعيرِهِ ليُسرعَ بالسيرِ، لكنّهُ كانَ لا يطاوعُهُ منْ شدَّةِ التعبِ، فلمّا أبطأ عليهِ أخذَ أبو ذرٍّ متاعَهُ فحملَهُ على ظهرِهِ، وأخذَ يتبعُ رسولَ اللهِ

ماشياً، فتأخُّرُ أبي ذرٍّ كانَ بسببِ بعيرهِ البطيءِ وليس بسببِ عِصيانِ أمرِ النبيّ، وفي منتَصفِ النهارِ تمكنَ أبو ذرّ منَ الاقترابِ منْ قافلةِ رسولِ الله وقد أخذَ منهُ العطشُ كلَّ مأخذٍ، فنظرَ ناظرٌ منَ المسلمينَ فقالَ: يا رسولَ الله، إنّ هذا الرجلَ يمشي في الطريقِ وحدَهُ! فقالَ رسولُ الله: كنْ أبا ذرٍّ! فلمّا تأمَّلهُ القومُ قالوا: يا رسولَ الله، هو ـ واللهِ ـ أبو ذرٍّ. فقالَ رسولُ الله: رحمَ اللهُ أبا ذرٍّ، يمشي وحدَهُ، ويموتُ وحدَهُ، ويُبعَثُ وحدهُ. فلمّا قَدِمَ أبو ذرٍّ على رسولِ الله أخبرَهُ خبرَهُ، فقالَ: قد غفرَ اللهُ لكَ يا أبا ذرٍّ بكلِّ خطوةٍ ذنباً إلى أنْ بلغَتَنيْ.

كانَ منَ المؤمنينَ أمثالُ أبي ذرٍّ مِمنْ عزمَ أنْ يخرجَ معَ رسولِ الله واضِعاً متاعَهُ على ظهرهِ، وأتي بإناءٍ منْ ماءٍ فشربَهُ وسارَ في تلكَ الصحراءِ القاحلةِ في أيامِ القيظِ والحرِّ، يواجهُ بوجههِ لفحاتِ الهجيرِ، ويعرّضُ نفْسَهُ لمخاطرِ الموتِ جوعاً وعطشاً، أو لأخطارِ الافتراسِ، منْ حيواناتها الكاسرَةِ. ذلكَ القادمُ وحدهُ منْ قلبِ الصحراءِ بأيِّ شيءٍ كانَ يطمعُ غير الثوابِ والأجرِ، والشهادةِ في سبيلِ الله؟!

لمّا مرَّ رسولُ اللهِ بمنطقةِ الحجرِ، تقنَّعَ بردائهِ وهو على الجملِ وخفضَ رأسَهُ حتى عبرَ بيوتَ ثمودَ، ولمّا نزلَ هناكَ سارعَ الناسُ إلى منازلِ الحجرِ يدخلونَ عليهمْ، واستقى الناسُ منَ الآبارِ التي كانتْ تشربُ منها ثمودُ، فعجنوا ونصبوا القدورَ باللَّحمِ. فبلغَ ذلكَ رسولَ الله، فنودِيَ في الناسِ: الصلاةُ جامِعةٌ، فلمّا اجتمعوا قالَ: لا تدخلوا مساكنَ الذينَ ظلموا أنفسَهمْ، إلاّ أنْ تكونوا باكينَ أنْ يصيبَكمْ ما أصابَهمْ، ولا تشربوا منْ مائها، ولا تتوضأوا منهُ للصلاةِ، واعلفوا العجينَ الإبلَ. أيْ العجينُ الذي صنعوهُ بذلكَ الماءِ. ثمّ ارتحلَ بهم حتى نزلَ على العينِ التي كانتْ تشربُ منها الناقةُ، وقالَ: لا تسألوا الآياتِ. فقد سألَها قومُ صالحٍ، سألوا نبيَّهُمْ أنْ تُبعَثَ آيةٌ، فبعثَ اللهُ تباركَ وتعالى لهمُ الناقةَ، فكانتْ تَردُ هذا الفجَّ، وتصدرُ منْ هذا الفجِّ، فعتوا عنْ أمرِ ربِّهمْ فعقروها، وكانتْ تشربُ مياهَهُمْ يوماً، ويشربونَ لَبنَها يوماً، فعقروها، فأخذتْهمْ صيحَةٌ، أهمدَ اللهُ منْ تحتِ أديمِ السماءِ إلاّ رجلاً واحداً كانَ في حَرمِ اللهِ. فلمّا خرجَ منَ الحرمِ أصابَهُ ما أصابَ قومَهُ. فقالَ رجلٌ: أنْ هذا شيءٌ عجيبٌ. فقالَ رسولُ الله: ألا أنبّئكُمْ بأعجبَ من ذلكَ؟ رجلٌ منْ أنفسِكمْ، فينبّئكُمْ بما كانَ قبلَكمْ، وما هو كائنٌ بعدَكمْ

، فاستقيموا وسدِّدوا، فإنّ اللهَ لا يعبأُ بعذابِكمْ شيئاً... ثمّ قالَ: ستهبُّ عليكمُ الليلةَ ريحٌ شديدةٌ، فلا يقومَنَّ أحدٌ، ومَنْ كانَ لهُ بعيرٌ فليوثِقْ عقالَهُ، ولا يخرجنَّ أحدٌ منكم إلاّ ومعهُ صاحبٌ لهُ. ففعلَ الناسُ ما أمرَهمْ بهِ رسولُ الله إلاّ رجلينِ منْ بنيْ ساعِدَة، خرجَ أحدهما لحاجَتهِ، والآخرُ في طلبِ بعيرهِ، فأمّا الذي خرجَ لحاجتهِ، فإنّهُ أُصيبَ بالاختناقِ وأمّا الذي خرجَ في طلبِ بعيرهِ، فاحتَملتْهُ الريحُ حتى طرحتْهُ بجبلَيْ طيء. فأُخبِرَ بذلكَ رسولُ اللهِ، فقالَ: ألمْ أنهَكُمْ عنْ أنْ يخرجَ منكمْ أحدٌ إلاّ ومعهُ صاحبُهُ، ثمّ دعا للذي أُصيبَ بالاختناقِ فشفيَ، وأمّا الآخرُ فإنّ أهلَ طيء أحضروهُ لرسولِ اللهِ حينَ رجعَ إلى المدينةِ.

ارتحلَ المسلمونَ ثمّ نزلوا منزلًا آخرَ وليس معهمْ ماءٌ. فشكوا ذلكَ إلى رسولِ اللهِ، فقامَ فصلَّى ركعتينِ، ثمّ دعا فأرسلَ اللهُ سحابةً فأمطرَتْ عليهم حتى استقوا منها. فقالَ رجلٌ منَ الأنصارِ لآخرَ منْ قومهِ يُتَّهمُ بالنفاقِ: ويحَكَ، أترى ما دعا رسولُ اللهِ، فأمطرَ اللهُ علينا السماءَ؟ فقالَ: إنما أُمطِرنا بِنَوءِ كذا وكذا. فقالَ لهم رسولُ اللهِ مُوبِّخاً لهم عنِ الله: كيفَ تجعلونَ شكرَكمْ لنِعمةِ المطرِ منَ اللهِ، بأنّكمْ تكذبونَ بآياتِ اللهِ وتُنكِرونَها؟! (٤٥٥)

لمّا سارَ رسولُ اللهِ ببعضِ الطريقِ فأصبحَ في منزلٍ أخرَ، وضلّتْ ناقتُهُ، فخرجَ أصحابُهُ في طلبها، قالَ أحدُ المنافقينَ وهو زيدٌ بنُ اللصيتِ وكانَ في خيمةِ عمارةَ بنِ حزمٍ حاضرًا معَ جماعةٍ منَ المسلمينَ: محمدٌ يزعمُ أنّه نبيٌّ، وهو يخبرُكمْ عنْ خبرِ السماءِ، وهو لا يدري أينَ ناقتُهُ! كانَ عمارةُ ساعتَها عند النبيِّ فسمعَ النبيَّ يقولُ: إنّ منافقاً قالَ هذا محمدٌ يزعمُ أنّه نبيٌّ، ويخبركم بأمرِ السماءِ، ولا يدري أينَ ناقَتُهُ، وإنّي واللهِ لا أعلمُ إلاّ ما علمني اللهُ، وقد دلَّنيْ اللهُ عليها، وهي في الوادي في شِعْبِ كذا وكذا، لشعبٍ أشارَ لهمْ إليهِ، حبستْها شجرةٌ بزمامِها، فانطلِقوا حتى تأتوني بها. فذهبوا، فجاءوا بها. لم يكنْ النبيُّ محمدٌ حاضراً عندما قالَ زيدٌ ما قالَ، إلاّ أنّ الوحيَ أبلغَهُ بما جرى. فرجعَ عمارةُ متعجباً إلى رحلهِ فقالَ: واللهِ، العجَبُ لشيءٍ حدَّثَناهُ رسولُ اللهِ آنفاً عنْ مقالةِ قائلٍ أخبرها اللهُ عنهُ! فذكرَ ما قالَ رسولُ اللهِ.

---

١ قصد رسول الله بذلك الرجل علي بن أبي طالب.

فقالَ رجلٌ مِمنْ كانَ في رَحْلِ عمارةَ وهو عمرو بنُ حزمٍ أخو عمارةَ: زيدٌ واللهِ قائلُ هذه المقالةِ، قبلَ أنْ تطلعَ علينا. فأقبلَ عمارةُ على زيدٍ يسحبُهُ من عنقهِ، ويقولُ: يا عبادَ اللهِ، إنّ في رحليْ لداهيةً وما أشعرُ، أُخرُجْ يا عدوَّ اللهِ منْ رحليْ فلا تصحبْني.

استمرَ رسولُ الله بالمسيرِ حتى وصلَ إلى تبوكَ فأسندَ ظهرَهُ على نخلةٍ وخطبَ في الناسِ وقالَ بعد أنْ حمدَ اللهَ وأثنى عليه: أيها الناسُ، أمّا بعدُ، فإنّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأوثقَ العُرَى كلمةُ التقوى، وخيرَ المِلَلِ مِلّةُ إبراهيمَ... فراحَ النبيُّ يعِظُهمْ ويعلّمُهمْ أحكامَ دينِهِمْ حتى قالَ: ومَنْ يعفُو يعفُ اللهُ عنهُ، ومنْ يكظمُ الغيظَ يأجرْهُ اللهُ، ومنْ يصبرُ على الرزيَّةِ يعوضْهُ اللهُ...

لمّا انتهى رسولُ الله إلى تبوكَ، وضعَ حجراً وحدَّدَ بهِ اتجاهَ القِبلةِ ثمّ بنى مسجدًا في ذلكَ الموضعِ وصلّى معَ المسلمينَ فيهِ وكانَ المسجدُ نقطةَ الارتكازِ في تحرُّكهِمْ في تلكَ المنطقةِ ، ثمّ أقبلَ عليهمْ فقالَ: ما هاهنا شامٌ، وأشارَ بيدهِ إلى جهةِ الشّامِ وما هاهنا يَمَنٌ وأشارَ بيدهِ إلى جهةِ المدينةِ. ليعرفوا قبلَ كلِّ شيءٍ موقعَهمْ، والجِهةَ التي يتربصُ بهمْ عدوُّهمْ فيها، أو يأتيَهمُ الخطرُ منها.

كانَ أُولى مهمّاتِ جيشِ المسلمينَ هو تأمينُ القرى المحيطةِ بالمنطقةِ منْ أي تهديدٍ قد يصيبُ الدولةَ الإسلاميةَ منَ الشمالِ فبادروا إلى عقدِ معاهداتٍ مع القبائلِ الساكنةِ جنوبي باديةِ الشامِ، والتي كانتْ تبحثُ عن الأمانِ لنفسها، فوافقوا على دفعِ الجِزيةِ وأنْ يكونوا مع المسلمينَ وأنْ يتركوا المشركينَ ولهم بذلكَ الأمانُ فوفدَ إلى رسولِ اللهِ أهلُ مقنا، وأيلَةَ، وجَرْبا، وأذْرحَ، ومالكٌ بنُ أحمرَ لعقدِ المعاهداتِ. أمّا هرقلُ فكانَ في حِمْصَ أو في دِمشْقَ فأرسلَ النبيُّ لهُ مرّةً أخرى كتاباً يدعوهُ فيهِ إلى الإسلامِ أو الاستسلامِ ودفعِ الجِزيَةِ وقالَ رسولُ الله: مَنْ يذهبُ بهذا الكتابِ إلى قيصرَ ولهُ الجَنةُ؟ فقالَ رجلٌ: وإنْ لم يقبلْ؟ فقالَ النبيُّ: وإنْ لم يقبلْ. فانطلقَ الرجلُ فأتاهُ بالكتابِ. لكنّ قيصرَ الرومِ رفضَ مجدداً دعوةَ النبيِّ . لمّا سمعَ هرقلُ بقربِ جنودِ النبيّ منْ دولةِ الرومِ وعقدِ المعاهداتِ بينَ الرسولِ والإماراتِ في جنوبِ باديةِ الشامِ والتي كانتْ تُواليْ دولةَ الرومِ سابقاً، قرّرَ سحْبَ جيشهِ وتجَنُّبَ الاشتباكِ

الحربي معَ المسلمينَ وتركِ مواقعِهمْ دونَ قتالٍ للدولةِ الإسلاميةِ وبذلكَ حققَ الرسولُ مكاسبَ بتأمينِ المناطقِ شمالَ بلادِ المسلمينَ منَ الخطرِ. (٤٥٦)

في أثناءِ إقامتهِ في تبوكَ أرسلَ النبيُّ سريةً بقيادةِ خالدٍ بنِ الوليدِ إلى منطقةِ دومَةِ الجنْدلِ وتقعُ دومةُ الجندلِ على بعدِ حوالي ٤٠٠ كم شرقاً منْ مدينةِ تبوكَ وهي منطقةٌ ذاتُ خضرَةٍ وماءٍ، يحكمُها رجلٌ مسيحيٌّ هو أكيدرُ بنُ عبدِ الملكِ. فأرسلَ النبيُّ قوةً لإخضاعهِ، فتمكَّنَ خالدٌ بنُ الوليدِ منَ الإمساكِ بهِ بصورةٍ مفاجئةٍ عندما كانَ في رحلةِ صيدٍ وقامَ بإحضارِهِ إلى الرسولِ، فأعلنَ أكيدرُ خضوعَهُ وقبولَهُ دَفْعَ الجزيةِ والبقاءَ على دِينهِ، وكتبَ معاهدةً معَ النبيِّ فأرجعَهُ رسولُ اللهِ إلى بلدهِ بحراسةٍ خاصةٍ. وانتهَتْ بذلكَ الأعمالُ العسكريةُ في تبوكْ.

(٤٥٧)

رغمَ أنّ جيشَ المسلمينَ لم يصطدِمْ بجيشِ الرومِ مثلما كانَ مخططًا، لكنّ الانسحابَ المفاجئَ للرومِ أمامَهُ، وتجنّبَهمْ مقاتلةَ المسلمينَ، نصّبَتْهُمُ القوةَ الأبرزَ في الجزيرةِ العربيةِ بأسرِها. وضمنوا عنْ طريقِ المعاهداتِ مع البلْداتِ في الشمالِ أمنَ المنطقةِ، وتمكَّنوا منْ بَسْطِ هيبةِ الدولةِ الإسلاميةِ على العديدِ منَ المدنِ المعزولةِ إلى شمالي الحجازِ والتي كانَ سكانُها بلا حمايةٍ ولم يكنْ أمامَهمْ سوى خيارِ السلامِ معَ الإسلامِ.

مُؤامَرَةُ العَقَبَة[1]

لم يكنِ الجميعُ فرحينَ بانتصارِ المسلمينَ على الرومِ فقد كانَ لفريقٍ آخرٍ في الجيشِ الإسلاميِّ منَ المنافقينَ رأيٌ آخرُ وخطةٌ أخرى. إنّ هؤلاءِ الناسِ قد رأوا في تبوكَ تباشيرَ مستقبلٍ عظيمِ الأهمية، لا بدَّ منْ أنْ يكونَ لهم نصيبٌ فيهِ، ومنَ الواضحِ أنّ وجودَ النبيِّ سيكونُ مانعاً لهمْ منَ التصرفِ وِفقَ ما تشتَهيهِ أنفسُهمْ، فكيفَ وهم يرونَ أنّهُ لم يزلْ يؤكدُ إمامَةَ وخلافةَ عليٍّ منْ بعدِهِ، وهم يعلمونَ أنّ حالَهمْ معَ عليٍّ سوفَ لن تختلفَ عنْ حالِهمْ معَ النبيِّ، فإنّه

١ العقبة: و هي طريق صعب في أعلى الجبل.

نسخَةٌ طِبقَ الأصلِ منهُ، فخططوا للتخلُّصِ منَ النبيّ في الطريقِ دونَ إشعارِ أحدٍ منَ المسلمينَ بذلكَ وإظهارِ موتهِ على أنّهُ موتٌ نتيجةَ حادثٍ عَرَضيٍّ في الطريقِ وذلكَ من خلالِ تنفيرِ ناقتهِ ممّا يؤدي إلى اختلالِ توازنِها وسقوطهِ في الوادي أو دحرجةِ الأحجارِ عليهِ منَ الجبلِ.

أخبرَ اللهُ رسولَهُ بكيدِهِمْ، فأرادَ رسولُ اللهِ فضْحَ أمرِهِمْ والتمْكينَ منْ تحديدِ هُويّةِ فاعليها. ولمّا كانَ رسولُ الله ببعضِ الطريقِ إلى المدينةِ عائداً منْ تبوكَ، وصلَ إلى منطقةِ العقبَةِ. كانتْ منطقةُ العقبةِ تنقسمُ إلى طريقٍ ضيّق ووادٍ واسعٍ.


شكل(٦٢): تجمع المنافقين للقيام بخطتهم على العقبة.

فنادى مناديهِ للناسِ أنّ رسولَ الله أخذَ العقبةَ فلا يأخذْها أحدٌ، واسلكوا أنتمُ بطنَ الوادي، فإنّه أسهلُ لكم وأوسعُ. فانتهزَ المنافقونَ هذه الفرصةَ لينفردوا بالنبيِّ ويَسهُلَ لهمْ تنفيذُ خُطتِهِمْ، لذلكَ تسلَّلوا فوقَ الجبلِ الذي قبْلَها وانتظروا مرورَ النبيِّ في العقبةِ. وقالوا: إذا أخذَ الطريقَ في العقبةِ دفعناهُ عنْ راحلتِهِ في الوادي.

سلكَ الناسُ بطنَ الوادي إلاّ النفرَ الذينَ مكروا برسولِ اللهِ، فإنّهمْ سلكوا طريقَ العقبةِ فوقَ الجبلِ وهم يغَطّونَ وجوهَهُمْ، منتهزينَ فرصةَ غيابِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عنِ النبيّ محمدٍ. أمرَ النبيُّ حُذيفَةَ أنْ يقعدَ في أصلِ العقبةِ، وينظرَ مَنْ يمرُّ بهِ، وأمرَهُ أنْ يتشبَّهَ بحجَرٍ، فقالَ حذيفةُ: يا رسولَ الله، إني أتبيَّنُ الشرَّ في وجوهِ رؤساءِ عسكرِكَ، وإنّيْ أخافُ إنْ قعدتُ في

أصل الجبلِ، ثمّ جاءَ منهمْ مَنْ أخافُ أنْ يتقدّمَكَ إلى هناكَ، للتدبيرِ عليكَ، يحسُّ بيْ، ويكشفُ عنّي، فيعرفَني، وموضعي منْ نصيحتِكَ، فيتَّهِمَنيْ ويخافني فيقتلَنيْ.

قامَ حذيفةُ بما أمرهُ بهِ النبيُّ، فرأى أربعةً وعشرينَ رجلاً على جِمالِهِمْ، يقولُ بعضُهمْ لبعضٍ: مَنْ رأيتموهُ ها هنا كائناً منْ كانَ فاقْتلوهُ، لئلّا يُخبرَ محمداً بأنّهُ قد رآنا هنا، فَيَنْكُصُ محمدٌ، ولا يصعدُ هذه العقبةَ إلاّ نهاراً، فيبطلُ تدبيرُنا عليهِ. فسمعَها حذيفةُ، واستقصوا فلمْ يجدوا أحداً، بعدها عادَ حذيفةُ إلى النبيّ وأخبرَهُ بما سمِعَ.

سلكَ رسولُ اللهِ العقبةَ معَ عمارٍ بنِ ياسرٍ وحذيفةَ بنِ اليمانِ، وأمرَ عمارًا بنَ ياسرٍ أنْ يأخذَ بزمامِ الناقةِ ويقودَها، وأمرَ حذيفةَ بنَ اليمانِ أنْ يسوقَ منْ خَلْفِهِ. فبينما كانَ رسولُ اللهِ يسيرُ في العقبةِ، سَمِعوا حِسَّ القومِ وقد غَشوهُمْ، فأنفروا ناقةَ رسولِ اللهِ حتى سقطَ بعضُ متاعِهِ، ودحرجوا الدبابَ منَ الجبلِ على النبيِّ لإسقاطهِ في الوادي، فغَضِبَ رسولُ اللهِ وأمرَ حذيفةَ أنْ يردهم، فرجِعَ حذيفةُ إليهمْ، وقد رأى غضبَ رسولِ اللهِ ومعهُ مِحْجَنٌ، يضربُ وجوهَ رواحلِهِمْ وقالَ: إليكمْ إليكمْ يا أعداءَ اللهِ. وهنا ضربَ جبريلُ بجناحيهِ فأضاءَ العقبةَ وبانَتْ رواحلُهمْ و وجوهُهُمْ الملثَّمَةُ. فعلمَ القومُ أنّ رسولَ اللهِ قد علِمَ بأمرِهمْ فنزلوا منَ العقبةِ مسرعينَ حتى خالطوا الناسَ. أقبلَ حذيفةُ حتى أتى رسولَ اللهِ، فقالَ: اضربْ الراحلةَ يا حذيفةُ، وامشِ أنتَ يا عمّارُ، فأسرعوا حتى استوى بأعلاها. وخرجَ رسولُ اللهِ منَ العقبةِ ينتظرُ الناسَ، وقالَ لحذيفةَ: هلْ عرَفْتَ أحداً من الركْبِ، الذينَ رددْتَهمْ؟ قالَ حذيفةُ: يا رسولَ اللهِ، قد عرفتُ رواحلَهمْ، وكانَ القومُ ملثَّمينَ فلم أُبصرْهمْ بسببِ ظلمةِ الليلِ. قالَ رسولُ الله: هل علِمْتُمْ ما كانَ منْ شأنِهمْ وما أرادوا؟ قالوا : لا واللهِ يا رسولَ اللهِ. قالَ النبيُّ : فإنّهمْ مكروا ليسيروا معي، فإذا طلعْتُ العقبةَ زاحموني فطرحوني منها، وإنَّ اللهَ قد أخبرني بأسمائِهمْ، وأسماءِ آبائهم، وسأخبرُكمْ بهمْ إنْ شاءَ اللهُ. قالوا: أفلا تأمرُ بهمْ يا رسولَ اللهِ إذا

---

١ الدِّبَاب: جمع دَبَّة، وهو ظرف من الجلد يوضع فيه الحبوب ونحوها. ولكنهم وضعوا فيها الحصى والحجارة، ثم ألقوها.

جاءَ الناسُ أنْ تُضرَبَ أعناقُهمْ؟ قالَ: أكرهُ أنْ يتحدثَ الناسُ ويقولوا إنّ محمداً قد وضعَ يَدَهُ في أصحابِهِ. فسَمّاهُمُ لهما، ثمّ قالَ: اكتماهُمْ ؛ فانْطَلِقا إذا أصبحتُما واجمَعاهمْ ليْ. فقالا: يا رسولَ اللهِ، هؤلاءِ ليسوا بأصحابٍ. فقالَ رسولُ الله: أليسَ يُظهرونَ شهادةَ أنْ لا إلهَ إلاّ الله؟ قالا: بلى. قالَ: أليسَ يظهرونَ أنّي رسولُ اللهِ؟ قالا: بلى. قالَ: فقد نُهِيتُ عنْ قتلِ أولئكَ.

لم يكنْ مرورُ النبيِّ على العقبةِ بما يحملُهُ منْ مخاطرَ ليخفّفَ على الجيشِ المرورَ بالوادي أو كانَ ليقلّلَ الزحامَ حيثُ أنّ تقليلَ شخصٍ أو اثنينِ أو ثلاثةٍ ليس لهُ تأثيرٌ على حركةِ الجيشِ المؤلَّفِ منْ مئاتِ الأشخاصِ ولكنْ كانَ الهدفُ الحقيقيُّ منْ مرورِ النبيِّ على العقبةِ هو فضحُ هذه الفئةِ الضّالةِ المنافقةِ التي تكيدُ للرسولِ للتخَلُّصِ منهُ حتى يتَمكَّنوا منَ السيطرةِ على الحُكمِ، فلقد كانتْ لهذه الجماعةِ مكانةٌ مرموقةٌ في المجتمعِ الإسلامي تؤهِّلُها بنظرِ الناسِ إلى طلبِ هذا الأمرِ. وكانوا مرهوبيْ الجانبِ ولهم قوّتُهمْ وشوكتُهمْ التي لا مجالَ لأحدٍ لمواجهتها حتى لقد أخفى حذيفةُ أسماءَهمْ خوفاً منهمْ، وكانَ مِمنْ شاركَ بهذه المؤامرةِ: أبو بكرٍ بنُ أبي قُحافَةَ، عمرُ بنُ الخطابِ، عثمانُ بنُ عفّانَ، طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ، أبو سفيانَ بنُ حربٍ، معاويةُ بنُ أبي سفيانَ، المغيرةُ بنُ شُعبَةَ، عمرو بنُ العاصِ، سعدٌ بنُ أبي وقّاصٍ، عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ، أبو موسى الأشعريِّ، خالدٌ بنُ الوليدِ. ولم تكنْ هذه المؤامرةُ على النبيِّ وليدَةَ ساعتِها، بلْ جاءتْ ضمنَ خطّةٍ شاملةٍ ودقيقةٍ، حدَّدَتْ الأهدافَ وطريقةَ العملِ، وتوقَّعَتْ النتائجَ، وتوخَّتْ أنْ تكونَ ضرباتُها حاسمةً ومؤثِّرةً، وحسبَتْ لكلِّ أمرٍ حسابَهُ .

يذكرُ اللهُ أنّ جماعةً مِمنْ خرجَ معَ النبيِّ تواطأوا في مكّةَ على أنْ يمكروا بالنبيِّ وأسرُّوا ذلكَ فيما بينهم، فكفروا بعد إسلامِهمْ ثمّ همّوا في العقبةِ أنْ يفعلوا ما اتفقوا عليهِ منْ عمليّةِ اغتيالٍ للنبيِّ، فأبطلَ اللهُ كيدَهمْ وفضحَهمْ فلم يفلحوا فيما خطَّطوا إليهِ ولمّا سُئلوا خافوا وحلفوا أنّهمْ لم يقولوا شيئاً، فكذَّبَهمُ اللهُ، وثَبَّتَ صِحّةَ ما نسبَ إليهمْ. وقد كانَ كثيرٌ منهم في ضنكٍ منَ العيشِ يُقاسونَ مرارةَ البؤسِ والفقرِ قبلَ أنْ يسلموا، وبعد أنْ أسلموا، تدَفقَتْ عليهمُ الأرزاقُ، لأنّ النبيّ كانَ يساويهُمُ في الغنائمِ بسائرِ المسلمينَ، وفّى دُيونَ بعضِهمْ، فكانَ

جزاؤهُ منهمْ أنْ قالوا عنهُ ما قالوا ثمّ همّوا باغتيالِهِ. فوبَّخَهمُ اللهُ على عُقوقِهِمْ وكُفرانِ النِّعَمِ بهذا الأسلوبِ. ويقولُ اللهُ لهمْ بالرغمِ منْ ذلكَ إنّ بابَ اللهِ مفتوحٌ على مِصراعَيْهِ لكلِّ طارقٍ، والسبيلُ إليهِ سهلٌ يسيرٌ، حتى على الكافرينَ والمنافقينَ لِمنْ أرادَ أنْ يتوبَ، ولا يُكلِّفُهمْ سوى الاعتذارِ عمّا سلفَ، والصدقِ فيما يأتي، فإذا أصرّوا على أفعالِهِمْ ولم يرجعوا فإنّ عذابَ اللهِ شديدٌ في الدنيا والأخرةِ ولنْ يجدوا مَنْ ينصرُهمْ منَ اللهِ عندها.(٤٥٨)

بعد أنْ يعودَ رسولُ اللهِ منْ تبوكَ إلى المدينةِ غانِماً ظافراً، سيكونُ عليهِ أنْ يُتِمَّ المهمَّةَ ويفضحَ قائدَ المنافقينَ أبا عامرٍ. وحينَ دنا رسولُ اللهِ منَ المدينةِ قالَ لأصحابهِ: إنّ بالمدينةِ أقواماً ما سُرتُمْ مسيراً ولا قطَعتُمُ وادياً إلاّ كانوا معكمْ. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، وهمْ في المدينةِ؟ قالَ: وهمْ بالمدينةِ، حَبَسَهُمُ العذرُ. فهو يعني أنّ الرجالَ الذينَ لم يتمَكَّنوا منَ المشاركةِ في الجهادِ بسببِ المرضِ أو غيرِهِ منَ الأعذارِ وبقوا في المدينةِ، سيحصلونَ على نفسِ الثوابِ كأولئكَ الذينَ شاركوا فعليًا. هذا لأنّ نواياهُمُ كانتْ صادقةً وكانوا يرغبونَ في المشاركةِ. وقد أكدَّ النبيُّ هذا لمَنْ معهُ لِيُطمْئنَهمْ ولِيمنَعَهمْ منَ التفاخرِ أو التقليلِ منْ قَدْرِ غيرِهمْ. كما حصلَ حينَ نصرَ أسماءَ بنتَ عُمَيسٍ على عمرَ بنِ الخطابِ الذي قالَ لها إنّهُ أحقُّ بالنبيِّ منها بسببِ الهِجرةِ (راجع صفحة ٢٠٠).

لمّا قدِمَ رسولُ اللهِ المدينةَ خرجَتْ النساءُ والصبيانُ إلى ثَنِيّةِ الوداعِ لاستقبالِهِ وهمْ ينشدونَ بفرحَةِ مَجيئِهِ:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيـنَا مِنْ ثَنـِيَّاتِ الوَدَاعْ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا للهِ دَاعْ

أَيُّهَا المَبْعُوثُ فينَا جِئْتَ بالأَمْرِ المُطَاعْ

جِئْتَ شَرَّفْتَ المَدِينَةْ مَرْحَباً يَا خَيـْرَ دَاعْ

فدخلَ المسجدَ ثمّ صلّى ركعتينِ وجلسَ للناسِ. وقالَ: الحمدُ للهِ الذي رزقنا في سَفَرِنا هذا أجراً وحسنَةً...

كانَ المنافقونَ الذينَ تخلَّفوا عنْ رسولِ اللهِ يخبرونَ عنهُ أخباراً سيِّئةً، ويقولونَ: إنّ محمداً وأصحابَهُ قد جهِدوا في سفرِهمْ وهلكوا. فحينما بلغَهمْ تكذيبُ حديثِهمْ وأنّ الرسولَ و أصحابَهُ في عافيةٍ، ساءهُمْ ذلكَ. (٤٥٩)

يكشفُ اللهُ عنْ نفوسِ هؤلاءِ المنافقينَ المريضةِ؛ فإنّهمْ إنْ رأوا على النبيِّ خيراً مِنْ نصرٍ وغنيمَةٍ وظَفَرٍ ساءهُمْ ذلكَ وتأذّوا منهُ، وأمّا إذا أصابتْهُ مصيبةٌ منْ هزيمةٍ أو جرحٍ فإنّهُم يقولونَ إنّهمْ أعدّوا لهذا الأمرِ أسبابَهُ منْ قبلِ وقوعِهِ حيثُ لم يخرجوا معهمْ ولم يقعوا بما وقعَ فيهِ المسلمونَ، وينصرفونَ عنِ الرسولِ وهمْ فرحونَ بما أصابَ المسلمينَ! (٤٦٠)

هَدْمُ مَسجِدِ المنافِقِينْ

حينما وصلَ رسولُ الله، نزلَ عليهِ جبرائيلُ يخبرهُ بدوافعِ المنافقينَ منْ بناءِ المسجدِ للإضرارِ بالمسلمينَ وينهاهُ عنِ الصلاةِ فيهِ، عندها (٤٦١) دعا مجموعةً منْ أصحابهِ وقالَ: انطلقوا إلى هذا المسجدِ الظالمِ أهلُهُ، فهدّموهُ، وحرّقوهُ. فخرجوا مسرعينَ وأخذوا سَعَفاً منَ النخيلِ فأشعلوا فيه ناراً، ثمّ خرجوا يشتدّونَ حتى أتوا المسجدَ بينَ المغربِ والعشاءِ، وفيه أهلُهُ، وحرّقوهُ، وهدموهُ حتى وضعوهُ بالأرضِ، وتفرّقَ عنهُ أهلُهُ وأمرَ أنْ يُتَخذَ موضعُهُ مزبلَةً تُلقَى فيهِ الجيَفُ.

إنَّ المنافقينَ أرادوا ببناءِ هذا المسجدِ أنْ يتستَّرواعلى مكائدِهمْ ومؤامراتِهمْ، بإظهارِ أنّهمْ أهلُ دينٍ وعبادةٍ والتزامٍ. ثمّ طلبوا منَ النبيِّ أنْ يصلّي لهم فيهِ، ليأخذوا شرعِيَّةً بذلكَ، وليظهروا للناسِ أنّهمْ يقَدّسونَ الرسولَ، ويتبرّكونَ بهِ وبصلاتِهِ في مسجدِهمْ. واغتنموا الفرصةَ باختيارِ هذا الوقتِ الحَسّاسِ، وهو وقتُ خروجِ النبيِّ إلى تَبوكَ، إذْ إنّ الناسَ منشغلونَ بأمرِ السفَرِ، وبالتفكيرِ بمواجهةِ العدوِّ، ودفعِ خطرهِ. ولكنّ النبيَّ لم يعاقِبْ أيَّ أحدٍ

منَ الذين شاركوا في هذه المؤامرةِ الخطيرةِ، واكتفى بهدمِ مسجدِ الفِتْنةِ الذي أقاموهُ وكانوا بهِ يجتمعونَ وفيه يخطّطونَ ضدَّ النبيِّ. كانَ هدمُ هذا المسجدِ هو السبيلُ الأمثلُ لاقتلاعِ جُرثومةِ الفسادِ، وإفهامِ الناسِ أنْ لا هوادةَ في أمرِ النفاقِ، ولا مهادنةَ مع المنافقينَ إذْ إنّ بقاءَ المسجدِ والاكتفاءَ بالاستنكارِ كانَ منَ المُمكنِ أنْ يدعوهُمْ إلى أنْ يمارسوا أسلوباً تضليليّاً آخرَ، وذلكَ بادّعائهِمْ أنّ ما اتّهموا بهِ لم يكنْ حقيقيّاً، وإنما هو مجرّدُ شائعاتٍ مكذوبةٍ، ولربما يتمكّنونَ منَ استمالةِ كثيرٍ منَ ضعفاءِ العقولِ والإيمانِ. (٤٦٢)

تبليغُ سورةِ براءةْ

في موسمِ الحجِّ في السنةِ التاسعةِ منَ الهجرةِ أمرَ النبيُّ محمدٌ أبا بكرٍ أنْ يسيرَ إلى مكةَ ليقيمَ للناسِ حجَّهمْ، وليبلّغَ عنهُ إلى الناسِ سورةَ بَراءةْ، بالإضافةِ إلى قراراتٍ يريدُ أنْ يُلزمَ الناسَ بمراعاتها، لذلكَ بعَثَهُ رسولُ اللهِ بكتابَينِ: الأولُ يحملُ آياتٍ من سورةِ براءةْ والتي تبدأُ ب ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...﴾ (٤٦٣)

وكتبَ أيضاً:

- أنْ لا يطوفنّ أحدٌ بالبيتِ عريانًا.
- وأنْ لا يجتمعَ المسلمونَ والمشركونَ.
- ومنْ كانَ بينَهُ وبينَ رسولِ الله عهدٌ، فأجلُهُ إلى مُدّتِهِ ومنْ لم يكنْ لهُ عهدٌ فأجُلُهُ إلى أربعةِ أشهرٍ.
- وأنْ لن يدخلَ الجنّةَ إلاّ منْ كانَ مسلِماً.
- وأنْ لا يقربَ المسجدَ الحرامَ مشركٌ بعد عامهِ هذا. وغيرها منَ الوصايا والإرشاداتِ. وأمّا الكتابُ الثاني فكانَ يشتملُ على سُنَنِ الحجِّ.

فلمّا كانَ أبو بكرٍ برفقةِ عمرَ بنِ الخطابِ ببعضِ الطريقِ، إذْ سمعا رُغاءَ ناقةِ رسولِ الله، وإذا بعليٍّ يرافقهُ عمارٌ بنُ ياسرٍ، فسألا عليّاً وعمارًا عنْ سببِ مجيئهما، فأخبرهما عليٌّ أنّ رسولَ الله قد بعثُهُ وأنّه يحملُ معهُ كتاباً من النبيِّ إلى أبي بكرٍ وفيه أنّه استبدَلَهُ بعليٍّ لينادِيَ بهذه الكلماتِ في الموسمِ، ويقيمَ للناسِ حجَّهُمْ مكانَ أبي بكرٍ. وأخبَرَهُ أنْ يُخيّرَ أبا بكرٍ بينَ أنْ يسيرَ معهُ أو أنْ يرجعَ إلى المدينةِ، فاختارَ أبو بكرٍ أنْ يرجعَ إلى رسولِ الله. انزعجَ أبو بكرٍ وعمرُ منْ إرسالِ عليٍّ، وأحبّا أنْ يرسلَ منْ هو أكبرُ سناً منهُ، حيثُ كانَ عليٌّ يبلُغُ حينها ٣٢ عامًا منَ العمرِ بينما يبلغُ أبو بكرٍ ٥٩ سنةً وعمرُ ٤٩ سنةً، أمّا عمارُ بنُ ياسرٍ فكانَ الأسَنَّ بينَهمْ حيثُ بلغَ ٦٥ سنةً.

حاولَ أبو بكرٍ وعمرُ إخافةَ عليٍّ وعمّارٍ بأهلِ مكةَ، وتصعيبَ الأمرِ عليهما، فقالا لهما: إنّ أبا سفيانَ، وأهلَ مكةَ قد جمعوا لكما. فقالَ عليٌّ: حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ. ومضيا.

رجعَ أبوبكرٍ وعمرُ إلى المدينةِ وهما يقولانِ باستياءٍ: بعثَ هذا الصبيَّ، ولو بعثَ غيرَهُ إلى أهلِ مكّةَ، وفي مكّةَ صناديدُ قريشٍ ورجالُها. واللهِ، الكفرُ أولى بنا ممّا نحنُ فيهِ! لمّا دخلَ أبو بكرٍ على رسولِ الله قالَ بقلقٍ: يا رسولَ الله، إنكَ أهَّلتَني لأمرٍ طالتْ الأعناقُ فيهِ إليّ، فلمّا توجَّهْتُ لهُ ردَدْتَني عنهُ؟ ما ليَ؟ أنَزَلَ فيَّ قرآنٌ؟ فقالَ الرسولُ: لا. ثمّ أخبرَهُ النبيُّ بأنّ جبريلَ جاءهُ وقالَ لهُ: إنّه لا يبَلِّغُ عنهُ إلاَّ هو أو رجلٌ منهُ، وهو عليٌّ.

قرأَ عليٌّ في موقفِ الحجّ سورةَ بَراءةْ حتى ختمَها، كما أعلنَ عليٌّ في مكةَ وفي مِنى، وفي عَرفَةَ، وبالمشاعرِ كلها بأنّ رسولَ الله بريءٌ منْ كلِّ مشركٍ حجَّ بعد هذا العامِ، أو طافَ بالبيتِ عريانًا. ثمّ أتى عليٌّ مكّةَ وقرأَ عليهمْ كتابَهُ فتلقَّوهُ بالتهديدِ والوعيدِ وأبدوا لهُ البغضاءَ. فلقيَهُ خراشٌ بنُ عبدِ اللهِ وقالَ: ليس بيننا وبينَ ابنِ عَمِّكَ إلاّ السيفُ والرمحُ، وإنْ شئتَ بدأنا بكَ. فقالَ عليٌّ: أجلْ، أجلْ، إنْ شئتَ فهلُمَّ. وبعد أنْ انتهى، انصرفَ إلى المدينةِ وهو يقصدُ في السيرِ، فتأخرَ رجوعُهُ إلى المدينةِ، كما وأبطأَ الوحيُ عنِ النبيِّ في أمرِ عليٍّ وما كانَ منهُ، فخَشِيَ النبيُّ عليهِ أنْ يكونَ أصابَهُ شيءٌ. وكانَ من عادتهِ أنّهُ إذا صلى الصبْحَ استقبلَ القِبلةَ، وعليٌّ يستقبلُ الناسَ الذينَ خلفَ النبيِّ، ويُجيبُهمْ في حوائجِهمْ. فلمّا غابَ عليٌّ في مكةَ،

لم يجعلِ النبيُّ أحداً مكانَ عليٍ، بلْ كانَ هو نفسُهُ يستقبلُ الناسَ ويقضيَ حوائجَهمْ. أحسَّ أبو ذرٍّ بقلَقِ رسولِ الله على عليّ وذلكَ لخطورةِ المهمَّةِ التي أُوكِلتْ إليهِ، فأرادَ الخروجَ والنظرَ إذا ما كانَ اقتربَ منَ المدينةِ أمْ لا، فاستأذنَ النبيَّ بالخروجِ، فأذِنَ لهُ. فخرجَ أبو ذرٍّ يستقبلُ عليّاً، فلقيَهُ ببعضِ الطريقِ، فاحتضنَهُ وقبَّلهُ، ثمّ أسرعَ وسبقَهُ إلى رسولِ الله وبشّرهُ بقدومهِ، فقالَ النبيُّ لأبي ذرٍّ بفرحٍ شديدٍ: لكَ بذلكَ الجنّةُ! ثمّ ركبَ النبيُّ وركبَ معهُ الناسُ، فلمّا رأى عليّاً، أناخَ ناقَتَهُ، ونزلَ رسولُ الله، فتلقّاهُ، والتزمَهُ وعانقَهُ، ووضعَ خدَّهُ على منْكبِ عليٍّ وبكى فرحاً بقدومِهِ، فبكى عليٌّ معهُ، ثمّ سألَهُ النبيُّ عمّا صنعَ، فأخبرَهُ عليٌّ بما صنعَ، فقالَ رسولُ الله: كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أعلمَ بكَ منّي حينَ أمرني بإرسالِكَ.

لمّا أذّنَ عليٌّ في مكةَ أنْ لا يدخلَ المسجدَ الحرامَ مشرِكٌ بعد ذلكَ العامِ. جزِعَتْ قريشٌ جزعاً شديداً، وقالوا: ذهبتْ تجارتُنا، وضاعَتْ عيالُنا، وخرِبَتْ دورنا، (٤٦٤) فقالَ اللهُ: قلْ لهمْ يا محمدُ: إنْ كانَ آباؤكم الذينَ ولَدوكُمْ وأبناؤكمْ الذينَ هم أقربُ الناسِ إليكم وإخوانُكمْ الذينَ خرجتُمْ وإيّاهمْ منْ صُلبٍ واحدٍ أو رحمٍ واحدةٍ، والذينَ تعيشونَ معهم، وأموالٌ تعبْتُمْ في سبيلِ تحصيلها واكتسابِها، وأموالٌ تجاريّةٌ تخافونَ تجميدَها وامتناعَ التداولِ بها، ومنازلُ بنيتموها ترغبونَ بها وهي عزيزةٌ عليكم، إنْ كانتْ هذه الأمورُ أحبَّ إليكم منْ اللهِ ورسولِهِ والجهادِ في سبيلِهِ، فانتظروا عقوبَةً عاجلةً وأخرى آجلَةً ينزلُها اللهُ بكمْ فيُخزيَكمْ في الدنيا وفي الآخرةِ. (٤٦٥)

السنةُ العاشرةُ بعد الهجرة (٦٣١ - ٦٣٢ م)

حِجَّةُ الوداعْ

بعد عامٍ وعند اقترابِ موسمِ الحجِّ في السنةِ العاشرةِ بعد الهجرةِ، أعلنَ النبيُّ في ذي القِعدةِ عنْ عزمِهِ حَجَّ البيتِ الحرامِ وأخبرَ المسلمينَ بذلكَ كما أمرَ المؤذِّنينَ أنْ يؤذنوا بأعلى أصواتِهمْ: بأنّ رسولَ الله سيحجُّ في عامِهِ هذا، حتى بلغَتْ دعوتُهُ إلى أقاصي بلادِ الإسلامِ، فتجهَّزَ الناسُ للخروجِ معهُ، وحضرَ المدينةَ، منْ ضواحيها، ومِنْ حولِها خَلْقٌ كثيرٌ. كما كتبَ إلى مَنْ بلغَهُ كتابُهُ، ممَّنْ دخلَ الإسلامَ أنّ رسولَ اللهِ يريدُ الحجَّ، ليُعلِمَهمْ بذلكَ ليحجَّ مَنْ أطاقَ الحجَّ، فأقبلَ الناسُ بكثرةٍ ليحجّوا معهُ ووافاهُ في الطريقِ خلْقٌ لا يُحصى، وكانوا منْ بينِ يديهِ، ومنْ خلفِهِ، وعنْ يمينهِ، وعنْ شمالهِ، مَدَّ البصرِ بينَ ٧٠ إلى ١٢٠ ألفَ إنسانٍ ما عدا أهلَ مكّةَ. وأخرجَ معهُ نساءَهُ كلَّهُنَّ في الهوادجِ، وسارَ معهُ أهلُ بيتِهِ، وعامةُ المهاجرينَ والأنصارِ، ومنْ شاءَ اللهُ منْ قبائلِ العربِ، وكثيرٌ منَ الناسِ مِمَّنْ لا قبيلةَ لهمْ.

صلى رسولُ اللهِ الظهرَ بالمدينةِ ثمّ خطبَ بالناسِ وعلّمهمْ ما أمامَهُم منَ المناسكِ ثمّ ترجَّلَ وادَّهَنَ بزيتٍ، واغتسلَ قبلَ ذلكَ، وتجرّدَ في ثوبَينِ صحاريِّينِ، وهما إزارٌ ورداءٌ وأبْدَلَهُما بالتنْعيمِ قريبَ مكةَ بثوبينِ منْ جِنسِهما، ثم قالَ: اللَّهمَّ اجعلْهْ حجّاً مبروراً، لا رياءَ فيهِ، ولا سُمْعَةٌ. وجعلَ على المدينةِ أبا دُجانَةَ، وخرجَ نهاراً لأربعٍ بقينَ منْ ذي القِعدةِ فسارَ حتى أتى ذا الحليفَةِ (أنظر شكل ٦٣)، عبرَ واديَ العقيقِ فنزلَ بهِ، تحتَ سُمْرَةٍ في موضعِ المسجدِ، ليجتمعَ إليهِ أصحابُهُ، وصلى بهمُ العصرَ رَكعَتينِ وأمرَ بالصلاةِ في ذلكَ الوادي في مسجدِ الشجرةِ، وساقَ هَدْيَهُ معهُ مائةَ بُدنَةٍ وأحرمَ النبيُّ منْ مسجدِ الشجرةِ، فلبَّى للحجِّ -وكانَ حَجُّهُ

قِرَانا - وقالَ: لبّيكَ اللَّهمَّ لبّيكَ، إنّ الحمدَ والنِعمَةَ لكَ والمُلْكَ، لا شريكَ لكَ. ثمّ قادَ راحلتَهُ حتى انتهى إلى البيداءِ.

ومضى النبيُّ يسيرُ بينَ المنازلِ و يؤمُّ أصحابَهُ في الصَّلواتِ، وكانَ أصحابُهُ يبنونَ مساجدَ في المواضعِ التي كانَ يُصلّي فيها ليتبرَّكوا ويتأسّوا بهِ. كانَ رسولُ اللهِ يكثرُ منْ قراءةِ سورةِ



شكل(٦٣): طريق حجة الوداع و الطريق الى غدير خم.

١ حج القِرَان: هو أحد أقسام الحج الثلاثة، وهو فرض لمن كان أهله حاضر المسجد الحرام، أو قريب من مكة ويشترط فيه أن يصحب المكلف معه الهدي وقت ألاحرام.

المعارجِ، وكانَ يُلَبِّي كلمّا لقيَ راكباً، أو علا أكَمَةً، أو هبطَ وادياً، وفي آخرِ الليلِ، وفي أدبارِ الصلواتِ، حتى دخلَ مكّةَ لأربعٍ مضيْنَ منْ ذي الحِجّةِ منَ الثنيَّةِ العليا منْ أعلى مكةَ، التي تُشرفُ على الحُجونِ، فلمّا انتهى إلى بابِ المسجدِ الحرامِ، استقبلَ الكعبة، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ، وصلى على أبيهِ إبراهيمَ، ثمّ أتى الحجرَ فاستلَمَهُ ومسحَهُ بيدهِ ومسحَ بها وجهَهُ، ثمّ وضعَ شَفتَيهِ عليهِ وبكى طويلاً. لم يكنْ بُكاؤهُ حينما أستلمَ الحجرَ خوفاً منْ عقوبةٍ على ذنبٍ اقترفَهُ، فإنّهُ نبيٌّ معصومٌ عنِ الخطأِ، مُبَرَّأٌ منَ الزلَلِ، ولكنّهُ بكاءُ الشوقِ إلى اللهِ، والفرحِ بالوفاءِ بالميثاقِ .

ثمّ طافَ بالبيتِ سبعةَ أشواطٍ وهو راكبٌ على ناقَتِهِ العضْباءِ ولم يطُفْ ماشياً لضَعْفِ بدنِهِ وما أصابَهُ منَ المرضِ، ثمّ جعلَ يستلمُ الأركانَ بمحْجَنِهِ. ولمّا فرغَ رسولُ اللهِ منْ طوافِهِ بالبيتِ، وطافَ الناسُ معهُ، أناخَ فصلى ركعتَينِ خَلْفَ مقامِ إبراهيمَ. ثمّ جاءَ إلى بئرِ زمزمَ وشربَ منْ مائها، ثمّ قالَ: اللهمَّ إنّي أسألُكَ عِلْماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، و شفاءً منْ كلِّ داءٍ وسَقَمٍ . وكانَ يقولُ للناسِ حينَ وصولِهِ مكةَ وشُروعِهِ بالإعمالِ والمناسِكِ: خذوا عنّي مناسِكَكُمْ، فإنّي لا أدري لَعلّي لا أحجُّ بعد حِجّتي هذه، وكانَ يكَرِّرُ ذلكَ في عَرَفَةَ وحينَ رمى الجمَراتِ ويومَ النحْرِ.

ثمّ أتى رسولُ اللهِ الصَّفا فصعدَ عليها، واستقبلَ الركنَ اليمانيَّ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثمّ قالَ: إنّ هذا جبرائيلُ - وأومأَ بيدهِ إلى خلفِهِ - يأمرني أنْ آمُرَ منْ لم يَسُقْ هَدْياً أنْ يَحلَّ، وهو شيءٌ أمرَ اللهُ بهِ، فأحلَّ الناسُ. وقالَ رسولُ اللهِ: لو كنتُ استقبلتُ منْ أمري ما استدبَرتُ لفعلتُ كما أمرتُكمْ، ولكنّي سقْتُ الهديَ، ولا ينبغيْ لسائقِ الهديِ أنْ يحلَّ حتى يَبلُغَ الهديُ مَحِلَّهُ. فقالَ لهُ سُراقةُ بنُ جَشْعَمَ: يا رسولَ اللهِ بيّنْ لنا دِينَنا كأنّا خُلِقْنا، فهذا الذي أمرتَنا بهِ لعامِنا هذا أمْ لِما يُستَقبَلُ؟ فقالَ رسولُ الله: بلْ هو للأبدِ، إلى يومِ القيامةِ، ثمّ شبكَ أصابعَهُ وقال: دخلَتْ العُمرةُ في الحَجِّ إلى يومِ القيامةِ. فسألَ عمرُ بنُ الخطابِ رسولَ اللهِ مستنكِراً: لنخرُجَنَّ حُجّاجاً

---

١ أكمة: تلال.

ورؤوسُنا وشُعورُنا تقطرُ؟! فقالَ رسولُ اللهِ: أما إنّكَ لن تُؤمنَ بهذا أبداً. اعترضَ عمرُ على أمرِ النبيِّ محتجّاً بأنّهُ كيفَ يجوزُ لنا التَمَتُّعُ بالنساءِ في ما بينَ العُمرةِ والحجِّ، فنُحرمُ للحجِّ ونخرجُ إلى عَرَفاتَ وماءُ غُسْلِ الجنابَةِ يتقاطرُ من رؤوسِنا وشعورنا؟! [٤٦٦]، كانَ على الناسِ الذينَ جاؤوا مع رسولِ الله ولم يسوقوا معهمُ الهدْيَ كما فعلَ رسولُ الله، أنْ يؤدّوا حجَّ التَمَتُّعِ . لكنّ هذا لم يَرُقْ لعمرَ بنِ الخطابِ لأنّ قريشًا كانوا لا يعتمرونَ في موسمِ الحجِّ بلْ يفصلونَها حتى يأتيَ الحُجّاجُ مُجَدَّداً إلى مكةَ للعمرةِ بعد الحجِّ وبذلكَ يبقون في مكةَ وتزدهرُ تجارةُ مكةَ أكثرَ، فكانَ عمرُ وسائرُ الصحابةِ القَرشيّينَ يريدونُ لأهلِ مكةَ أنْ ينتفعوا بورودِ المُعتمرينَ عليهمْ. وقالتْ حفصَةُ لرسولِ اللهِ: يا رسولَ الله، ما شأنُ الناسِ حَلّوا بعمرَةٍ؟ ولم تحلُلْ أنتَ منْ عمرتِكَ؟ فقالَ: إنّي لبدتُ رأسيْ، وقلَّدتُ هَدْييْ، فلا أحلُّ حتى أنحرُ.

---

١ حج التمتع: هو أحد الأقسام الثلاثة من الحج في الإسلام، وهذا النوع من الحج يجب على من كان البعد بين أهله والمسجد الحرام أكثر من ٧٧ كيلومتر، ويتكون حج التمتع من جزئين: عمرة التمتع وحج التمتع، وعلى الحاج أن يؤدي أعمال العمرة قبل الحج.

٢ أي دَهِنَ رأسه بالزيت.



شكل(٦٤): خريطة توضيحية لمنازل مناسك الحج.

وأمّا عليٌّ بنُ أبي طالبٍ فقد قَدِمَ منَ اليمنِ وهو محرِمٌ، فسألهُ النبيُّ: بما أهللْتَ؟ قالَ: إهلالاً كإهلالِ النبيّ. فقالَ له رسولُ الله: أبقَ على إحرامِكِ مثليْ، وأنتَ شريكي في الهَدْيِ. ثمّ أمرَهُ أنْ يعودَ إلى سريّتِهِ ويصحبُهمْ إلى مكةَ.

ثمّ نزلَ رسولُ اللهِ بمكّةَ بالبطحاءِ شرقي المدينةِ في قُبَّةٍ ضُرِبتْ لهُ في أربعةِ أيامٍ. فلمّا كانَ يومُ الترويَةِ، عند زوالِ الشمسِ، أمرَ الناسَ أنْ يغتسلوا ويهلّلوا بالحجِّ، وخرجَ النبيُّ وأصحابُهُ مهلّلينَ بالحجِّ حتى أتى مِنَىً(أنظر شكل ٦٤)، فصلّى الظهرَ والعصرَ، والمغربَ والعشاءَ، والفجرَ. وفي اليومِ التاسعِ منْ ذي الحجّةِ توجَّهَ رسولُ اللهِ وجموعُ المسلمينَ نحو عرفاتَ ثمّ انتهى إلى نمرَةَ وضُربتْ خيمتُهُ هناكَ ولمّا زالتْ الشمسُ، خرجَ رسولُ اللهِ ومعهُ قريشٌ وقد اغتسلَ وقطعَ التلبِيَةَ حتى وقفَ بالمسجدِ، فوعظَ الناسَ وصلّى ثمّ مضى إلى الموقفِ فوقفَ فيهِ. فراحَ الناسُ يقفونَ إلى جانبِ ناقتهِ، فقالَ رسولُ اللهِ: أيها الناسُ، ليس موضعُ أخفافِ ناقتيْ بالموقِفِ، و لكنْ هذا كلُّه.

ثمّ نزلتْ سورةُ المائدةِ فقرأها رسولُ اللهِ على الناسِ ثمّ جاءَ جبريلُ يأمرُهُ عنِ اللهِ بإبلاغِ ولايةِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، فقالَ: إنّ قومي قريبو عهدٍ بالجاهليّةِ، وفيهمْ تنافسٌ وفخرٌ، وما منهمْ رجلٌ إلاّ وقد وتَرهُ وليُّهمْ، وإنّيْ أخافَ متى أخبرتُهمْ بهذا في ابنِ عمِّيْ أنْ يقولَ قائلٌ: حابَى ابنَ عمِّهِ و أنْ يطعنوا في ذلكَ، فأنزلَ اللهُ في القرآنِ :﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾ (٤٦٧) نزلتْ هذه الآيةُ، لتؤكدَ على لزومِ تبليغِ النبيّ ما أمرَ بهِ من أمرِ الإمامةِ وولايةِ عليٍّ على الناسِ. (٤٦٨)

إنّ النبيَّ كانَ يعرفُ أنّ معظمَ الناس قد أعلنوا الإسلامَ بعد فتحِ مكةَ، أيْ في السنتينِ الأخيرَتينِ منْ حياتهِ، وأنّ إسلامَ أكثرِهمْ كانَ سطحيّاً، بلْ صُوريّاً، فرضتْهُ الظروفُ التي نشأتْ في المنطقةِ بعد فتحِ مكةَ، حيثُ لم يكونوا يعرفونَ عن هذا الدينِ الشيءَ الكثيرَ، لأنّهمْ كانوا يعيشونَ في بواديهِمْ، ووفْقَ مناهجِهمْ الجاهليةِ، وعاداتِهِمْ القبليّةِ، ولم يكنْ زعماؤهُمْ يسمحونَ للمبلّغينَ المسلمينَ بأنْ يصلوا إليهم، أو أنْ يحدّثوهمْ بشيءٍ عن هذا الدينِ وأحكامِهِ، ومفاهيمهِ وتفاصيلهِ. وحتى الذينَ أسلموا منهمْ، فإنّهمْ قد عاشوا حياتَهمْ بِمَفاهيمِ الجاهليةِ أيضاً.

ولم يفارِقوا عاداتِها، ولم يتربّوا بعدُ على معاني الإيمانِ والإسلامِ. بلْ كانَ زعماؤهم همُ الذينَ يتحكَّمونَ بهم، ويُسيّرونَ أمورَهُمْ، ويُهيمِنونَ على حركتِهِمْ. ومنْ جهةٍ أخرى : فقد كانَ هناكَ أناسٌ طامعونَ وطامحونَ قد أذكى طموحَهمْ هذا التوسُّعُ السريعُ والهائلُ الذي كانَ منْ نصيبِ أهلِ الإسلامِ في فترةٍ وجيزةٍ جداً. وهو توسعٌ قد هيّأ لهمُ المالَ الوفيرَ والجاهَ العريضَ، والنفوذَ، والقوةَ وما إلى ذلكَ منْ أمورٍ لم يكونوا يحلمونَ بها. ومن جهةٍ ثالثةٍ : فقد كانَ في المدينةِ وحولها، مَنْ لم يرُقْ لهمْ الانصهارُ في المجتمعِ الإسلاميْ والذوبانُ فيهِ، والانطلاقُ بهِ في الحياةِ، فكانوا يكيدونَ في الخفاءِ، ويشاركونَ في كلِّ ما يلحقُ بالإسلامِ ضرراً مهما كانَ حجمُهُ ونوعُهُ، وقد وجدَ هؤلاءِ في كثيرٍ منْ مُسْلِمَةِ الفتحِ سنداً وعضداً في هذا الاتجاهِ أيضاً. هذا عدا عنْ غيرِهمْ منَ الفئاتِ التي ما أسلمَتْ ولكنها استسلمَتْ، فما إنْ وجدَتْ الفرصةَ لإظهارِ أمرها لنْ تتوانَى في ذلكَ. وكلُّ هذا منْ شأنِهِ أنْ يصعّدَ منْ درجةِ الخطورةِ التي يواجهها الإسلامُ، والمخلصونَ من أهلهِ بعد وفاةِ رسولِ الله. وكانَ الهدفُ الأعظمُ والأهمُّ هو حفظُ تعاليمِ هذا الدينِ، وصيانةُ عقائدهِ ومفاهيمهِ، وتمكينها منَ اجتيازِ هذه السدودِ، وتذليلِ كلِّ العقباتِ التي تواجهها، وتمنعُ من حصولِ الأجيالِ الآتيةِ عليها. وهذا بالذاتِ هو ما فعلهُ رسولُ الله في حجَّةِ الوداعِ، وفي العديدِ من المفاصلِ الحساسَةِ بعدها. وهذا ما يفَسِّرُ لنا جمعَهُ لهذه الجموعِ العظيمةِ والهائلةِ، التي جاءَ بها إلى أقدسِ مكانٍ، في أقدسِ زمانٍ، لأداءِ شعيرةٍ عباديَّةٍ هي منْ أعظمِ الشعائرِ.

لقد أفصحَ القرآنُ لنا عنْ وجودِ فئاتٍ منَ الناسِ، كانتْ تقفُ في وجهِ الرسولِ مباشرةً، وتسعى لعرقلَةِ حركتهِ، وتمنعُهُ منْ بيانِ أمرِ الإمامَةِ، وإقامَةِ الحُجَّةِ فيها، حتى احتاجَ إلى طلبِ العِصمَةِ منَ اللهِ، ليتمكَّنَ منْ مواجهةِ هؤلاءِ، فَمَنْ همْ هؤلاءِ الأشرارِ المجرمينَ؟ إنّهمْ ـ للأسفِ ـ قومُ رسولِ الله، وقريشٌ، بالذاتِ. هي التي حاربَتْ الإسلامَ في بدءِ ظهورهِ، وحاربَتْهُ وهو غَضٌّ طريٌّ العودِ، ثمّ حاربتْهُ بعد أنْ ضربَ بِجِرانِهِ، وعمَلتْ على زعزعَةِ أركانِهِ.

فقامَ النبيُّ في عرفاتَ، قبلَ زوالِ الشمسِ، وهو على راحلتِهِ القصواءِ وخطبَ في الناسِ و عليٌّ يقفُ في مكانٍ آخرَ، ويوصلُ كلامَهُ إلى مَنْ هم في الجهةِ الأخرى، فقالَ بعد أنْ حمدَ اللهَ وأثنى عليهِ: أيها الناسُ إنّ ربَّكمْ واحدٌ، و إنّ أباكمْ واحدٌ، كلُّكمْ لآدمَ وآدمُ منْ ترابٍ، إنّ أكرمَكمْ عندَ اللهِ أتقاكُمْ، ليس لعربيٍّ على أعجميٍّ فضلٌ إلاّ بالتقوى، ألا هلْ بَلَّغْتُ ؟ قالوا: نعمْ قالَ: فليبلِغْ الشاهدُ منكمُ الغائبَ. أيها الناسُ إنّ دماءَكمْ وأموالَكمْ عليكمْ حرامٌ إلى أنْ تلقوا ربَّكمْ، كحُرمَةِ يومِكمْ هذا، في شهرِكمْ هذا، في بلَدِكمْ هذا، إنّكمْ ستلقونَ ربَّكمْ فيسألُكمْ عنْ أعمالِكُم، وقد بَلَّغْتُ، فمَنْ كانتْ عندهُ أمانةٌ فليردَّها لمَنْ ائتمنَهُ عليها. ألا إنّ كلَّ شيءٍ منْ أمرِ الجاهليةِ موضوعٌ تحتَ قدميَّ... واستمرَّ النبيُّ محمدٌ في خُطبَتِهِ ثمّ أوصى بالنساءِ وقالَ: أيها الناسُ، اتقوا اللهَ، واستوصوا بالنساءِ خيراً، فإنهُنَّ عندَكمْ عَوانٌ لا يملِكْنَ لأنفسِهمْ شيئاً...

ولمّا انتهى منْ وصيَّتِهِ بالنساءِ، ظلَّ يَعِظُهمْ ويوصيهِمْ وهو يشيرُ بإصبعِهِ السَّبابَةِ إلى السماءِ وينكتُها على الناسِ وهو يقولُ اللهمَّ اشهَدْ، اللهمَّ اشهَدْ، لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ... ثمّ قالَ: فاعقلوا أيُّها الناسُ قَوليْ، فإنّيْ قد بلَّغْتُ، إني تركتُ فيكم ما إنْ أخذتُمْ به لنْ تضِلُّوا: كتابَ اللهِ وعِترَتيْ أهلَ بيتيْ... ثمّ بدأَ رسولُ اللهِ يتعَرّضُ لموضوعِ الإمامةِ، فأخذَ يمهّدُ لذلكَ بأنَّ الأئمَّةَ منْ بعدهِ اثنا عشرَ فقالَ: لا يزالُ هذا الدينُ عزيزاً ظاهراً على مَنْ ناواهُ، منيعاً، يُنصرَونُ على مَنْ ناواهمْ عليهِ، حتى يَلِيَ هذا الأمرَ اثنا عشرَ، وكلُّهُمْ لا يُرى مثلُهُم، كلُّهمْ تجتمعُ عليهِ الأمةُ، كلُّهُمْ يعملُ بالهدى ودينِ الحقِّ، كلُّهمْ... وهنا ضجَّ الناسُ وصرخوا وكَبَّروا ثمّ أُخفيَ صوتُ النبيِّ ثمّ لَغَطَ القومُ وتكلّموا فجعلَ الناسُ يقومونَ و يقعدونَ فلم يُفهَمْ قولُ رسولِ اللهِ بعدَ كلمةِ "كلُّهُمْ" فسألَ أحدُ الجالسينَ أبيهِ فقالَ: ما قالَ رسولُ اللهِ؟ ما بعدَ كلمةِ كلُّهُمْ؟ قالَ لهُ: قالَ رسولُ اللهِ كلُّهُمْ منْ قريشٍ أو كلُّهُمْ منْ بنيْ هاشمٍ. عند ذلكَ أنهى رسولُ اللهِ خُطبتَهَ منْ دونِ أنْ يتمكَّنَ منْ تبليغِ الناسِ رسالةَ ربِّهِ.

---

١ العوان: الاسير وهنا المعنى كالاسرى عندكم.

لقد خشيَ رسولُ اللهِ منْ قومِهِ، ومنْ أهلِ النفاقِ والشقاقِ، في أنْ يتفرقوا ويرجعوا إلى الجاهليّةِ، وذلكَ لِما عرفَ منْ عداوتِهِمْ، ولِما تنطوي عليهِ أنفسُهمْ منَ العداوةِ والبغضاءِ لابنِ عَمِّهِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، فسألَ جبريلَ أنْ يسألَ ربَّهُ العِصمةَ منَ الناسِ.

وقفَ رسولُ اللهِ في عرفاتَ حتى غروبِ اليومِ التاسعِ، و وقفَ معهُ الناسُ ومعَ الظلامِ ركبَ ناقَتَهُ وأفاضَ وأمرَ الناسَ بالتحرُّكِ حتى انتهوا إلى المُزْدَلِفَةِ وهو المَشْعَرُ الحرامُ، فصلّى وأقامَ في المزدلفةِ. فلمّا طلعَ الفجرُ، بعد الصلاةِ أمرَ الفضلَ بنَ العباسِ أنْ يلقطَ لهُ سبعَ حُصيّاتٍ ثمّ أفاضَ معَ طلوعِ الشمسِ واتجَهَ إلى مِنَىً في الطريقِ عند مسجدِ الخَيفِ، فجاءهُ جبريلُ، فأمرَهُ بذلكَ مرّةً أخرى، ولم يأتهِ بالعِصمَةِ ثمّ رمى جمرَةَ العقَبةِ ثمّ انصرفَ إلى النحْرِ بِمِنَى، وكانَ يمسكُ الهديَ وعليٌّ ينحرُ. ثمّ أمرَهُ أنْ يتصدَّقَ بجلودِها ولحومِها على المساكينِ ثمّ حلَقَ رأسَهُ.

وفي مِنَىً أنزلَ رسولُ اللهِ الناسَ منازلَهمْ، ففصلَ بينَ المهاجرينَ والأنصارِ وجعلَ كلاً على حِدَةٍ، لكي يعرفَ الناسُ مَنِ الذي سيثيرُ الشغَبَ ضدَّهُ حينَ يخطبُ في مِنىً ويذكرُ الأئمَّةَ منْ بعدهِ. فقالَ: لينزلَ المهاجرونَ ها هنا. وأشارَ إلى يمينِ القِبلةِ. ثمّ قالَ: والأنصارُ ها هنا. وأشارَ إلى ميسرَةِ القِبلةِ. ثمّ قالَ: ولينزلَ الناسُ حولَهمْ. ثمّ أرادَ أنْ يخطبَ بهمْ، فسُئلَ إذا كانَ يريدُ أنْ يُبنى لهُ بناءٌ يُظلُّهُ منَ الحرِّ، فلم يقبلْ، ثمّ خطبَ خطبَةً بليغةً وهو على ناقتِهِ، فقالَ: أيُّها الناسُ إنّ ربَّكمْ واحدٌ، وإنَّ أباكُمْ واحدٌ، كلُّكُمْ لآدمَ وآدمُ منْ ترابٍ، إنّ أكرمَكمْ عندَ اللهِ أتقاكُمْ، ليس لعربيٍّ على أعجميٍّ فضلٌ إلاّ بالتقوى، ألا هلْ بلَّغْتُ؟ قالوا: نعمْ قالَ: فليُبلِغْ الشاهدُ منكُمُ الغائبَ.

كانَ النبيُّ يخطبُهمْ، ويصلُ صوتُهُ إلى كلِّ مَنْ كانَ في مِنىً، حيثُ فتحَ اللهُ أسماعَ أهلِ مِنَىً حتى سمِعوهُ في منازِلِهمْ وحتى لا يتجرَّأَ عليهِ أحدٌ ويُحدِثُ ضجيجاً ويمنعُهُ منْ تبليغِ مُرادِهِ، كما حصلَ في عرفاتَ. ثمّ قالَ: أمّا بعدُ أيُّها الناسُ، ألا إنّ ربَّكُم واحدٌ، ألا وإنَّ أباكُمْ واحدٌ،

ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأعجَمِيٍّ على عربيٍّ، ولا لأسودَ على أحمرَ، ولا لأحمرَ على أسودَ إلاّ بالتقوى، إنّ أكرَمَكمْ عندَ اللهِ أتقاكُمْ. ألا هلْ بلَّغْتُ؟ قالوا: بَلَّغَ رسولُ اللهِ. قالَ: فلْيُبَلِّغْ الشاهدُ الغائبَ، فرُبَّ مبلّغٍ أوعى منْ سامعٍ ثمّ قالَ: أيُّ شهرٍ هذا؟ فسكتوا. فقالَ: شهرُ حرامٍ، أيُّ بلدٍ هذا؟ فسكتوا. فقالَ: بلدٌ حرامٌ. أيُّ يومٍ هذا؟ فسكتوا. فقال: يومٌ حرامٌ. ثم قالَ: إنّ اللهَ قد حَرَّمَ دماءَكُمْ وأموالَكمْ وأعراضَكمْ، كحُرمَةِ شهرِكمْ هذا، في بلدِكمْ هذا في يومِكمْ هذا، إلى أنْ تلقوا ربَّكُمْ، ألا هلْ بَلَّغْتُ؟ قالوا: نعمْ قالَ: اللهمَّ اشهَدْ ثم قالَ: إنكم ستلقونَ ربَّكمْ فيسألُكمْ عنْ أعمالِكمْ، ألا هلْ بلَّغْتُ؟ قالَ الناسُ: نعمْ قالَ: اللهمَّ اشهَدْ، فليبلِّغْ الشاهدُ الغائبَ، ألا إنّ كلَّ مسلمٍ محرَّمٌ على كلِّ مسلمٍ. ثمّ قالَ: اسمعوا منّيْ تعيشوا، ألا لا تظلِموا، ألا لا تظلِموا، ألا لا تظلموا، إنّهُ لا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلمٍ إلاّ بطيبِ نفسٍ منهُ...واستمرَّ رسولُ اللهِ كما فعلَ في عرفاتَ بتبليغِ الناسِ أحكامَ دينِهِمْ ونُصحِهمْ حتى قالَ: إنّي تركْتُ فيكُمْ ما إنْ أخذتُمْ بهِ لن تضلّوا، كتابَ اللهِ، وعِترَتيْ أهلَ بيتي. ألا هل بلَّغْتُ؟ قالَ الناسُ: نعمْ. قالَ: اللهمَّ اشهَدْ... لكنّ ما جرى في عرفاتَ جرى أيضاً في مِنى، فقد تجَرّأوا على اللهِ وعلى النبيِّ وحاولوا أنْ يمنعوا الناسَ منَ الاستماعِ و الإنصاتِ إليهِ وأنْ يصدّوهُ عن إبلاغِ أمرِ الإمامَةِ كما فعلوا في عرفاتَ، فضجّوا ورفعوا أصواتَهمْ ومنعوهُ منْ إكمالِ كلامِهِ و واجهوهُ بالسوءِ والإهانةِ والغوغائيَّةِ.

أدركَ رسولُ اللهِ أنّ قريشًا لن تسمحَ لهُ بإبلاغِ رسالتِهِ فقرَّرَ أنْ يترُكَ مكةَ على عَجَلٍ دونَ أنْ يودِّعَ بيتَ اللهِ ليدرِكَ جموعَ الحجيجِ الذينَ غادروا ويحبِسُهمْ عنِ المسيرِ ويبلِّغُ موضوعَ الإمامَةِ بعيداً عنْ ضجيجِ قريشٍ وتشويشِها. وذلكَ، لأنّ أيَّ تأخيرٍ، سوفَ يكونُ معناهُ أنْ يخرجَ أشتاتٌ منَ الناسِ إلى بلادِهمْ، ولا يتمكَّنُ النبيُّ، مِنْ إيصالِ ما يريدُ إيصالَهُ إليهمْ . إنّ تأخيرَهُ إبلاغَ ما أُنزِلَ إليهِ في شأنِ الإمامَةِ والولايَةِ، قد كانَ بسببِ المعارضةِ الكبيرةِ التي يجدُها لدى قريشٍ، التي كانتْ لا تتورَّعُ عنْ مواجهةِ النبيِّ ليس بالضجيجِ والصخَبِ فقطْ،

---

١ أحمر: أي أبيض البشرة.

وإنَّما باتهامِ شخصِهِ، والطعنِ والتشكيكِ في نزاهَتِهِ، وفي خُلوصِ عملِهِ ونيَّتِهِ، وخوفاً منْ أنْ يقولوا: حابَى ابنَ عمِّهِ، وأنْ يطعنوا في ذلكَ. فنفَرَ النبيُّ في اليومِ الحادي عشرَ منْ مِنى حتى انتهى إلى الأبطحِ، فطلبَتْ عائشةُ أنْ تؤديَ العُمرَةَ، فلم يرضَ باعتمارِها وأخبرَها أنّ طوافَها بالبيتِ وبالصفا والمروَةَ قد أجزأَ عنْ حجِّها وعُمرَتِها. فقالتْ: أترجعُ نساؤكَ بحجَّةٍ وعُمرةٍ معاً، وأرجعُ بحجّةٍ؟ وأبَتْ إلاّ أنْ تعتمرَ عمرةً منفردَةً. فأرسلها معَ أخيها عبدِ الرحمنِ وبقيَ رسولُ اللهِ ينتظرُها، فاعتمرَتْ، ثمّ أتَتْ النبيَّ ليلاً، فارتحلَ منْ يومِهِ، ولم يدخلْ المسجدَ الحرامَ، ولم يطُفْ بالبيتِ. خرجَ رسولُ اللهِ منْ مكّةَ عندَ غروبِ الشمسِ، وصلّى المغربَ في سَرَف، ثمّ سارَ معَ المسلمينَ مسرعاً في أربعةِ أيامٍ مسافةَ أكثرَ منْ مئةٍ وخمسينَ كيلومترٍ بينَ مكةَ والجُحفَةِ حيثُ وصلَ إلى غديرِ خُمٍّ. (٤٦٩)

في غديرِ خُمٍّ

في غديرِ خُمٍّ في يومِ الخميسِ الثامنِ عشرَ منْ ذي الحجّةِ، نزلَ أمرُ اللهِ: يا أيُّها الرسولُ بَلِّغْ الناسَ بولايَةِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ وأخبَرَهمْ ما أنزلَ اللهُ إليكَ وإنْ لم تقمْ بتبليغِ هذا الأمرِ العظيمِ، فكأنَّكَ لم تؤدِ رسالةَ اللهِ ولم تبلّغْها لأهلِها وتذهبُ كلُّ أعمالِكَ سُدىً، ولا تخشى منْ أحدٍ فسوفَ يحميكَ اللهُ عند التبليغِ منَ التمرّدِ والعصيانِ، إنّ اللهَ لا يهديْ مَنْ ينكرُ ويكفرُ بذلكَ. (٤٧٠)

أمرَ رسولُ اللهِ أنْ يُردَّ مَنْ تقدَّمَ منهمْ، ويُحبَسَ منْ تأخرَ عنهم في ذلكَ المكانِ، ونهى عن خمسِ دوحاتٍ متقارباتٍ، أنْ لا ينزلَ تحتَهنَّ أحدٌ، وأمرَ بإزالةِ الشوكِ، وتمهيدِ المكانِ عندها، فقاموا بما أمرَهمْ وأخذَ القومُ أماكنَهمْ. وحينَ رأى رسولُ اللهِ تأخُّرَ بعضِ الناسِ عليهِ شقَّ عليه ذلكَ، فأمرَ عليًّا فجَمعَهمْ، فلمّا اجتمعوا قامَ فيهمْ، مُتَّكِئًا على عليٍّ بن أبي طالبٍ، فحمدَ اللهَ، وأثنى عليهِ، ثمّ قالَ: أيها الناسُ، إنّه قد كرهْتُ تخلُّفَكمْ عنّي حتى خُيّلَ إليّ، أنهُ ليس

---

١ دوحات جمع دَّوحة: وهي الشجرة العظيمة .

شجرةٌ أبغضَ إليكم منْ شجرةٍ تليني. فجعلَ ناسٌ من أصحابهِ يستأذنونَ بالرحيلِ، فجعلَ يأذنُ لهمْ. فقالَ رسولُ اللهِ بحسْرةٍ: ما بالُ شقِّ الشجرةِ التي تليْ رسولَ اللهِ أبغضُ إليكمْ منَ الشقِّ الآخرِ؟! فتأثّرَ الناسُ لسماعِ ذلكَ وأجهشوا بالبكاءِ. ثمّ نُوديَ بصلاةِ الظهرِ، فتوجّهَ النبيُّ إلى الشجراتِ وصلّى بالناسِ تحتهنَّ، فقد كانَ يوماً هاجراً شديدَ الحرارةِ، يضعُ الرجلُ بعضَ ردائهِ على رأسهِ، وبعضَهُ تحتَ قدمَيهِ، منْ شدَّةِ الرمضاءِ، وظُلِّلَ لرسولِ اللهِ بثوبٍ على شجرةِ سُمْرَةٍ منَ الشمسِ.

فلمّا انصرفَ من صلاتهِ، قامَ خطيباً وسَطَ القومِ على أقتابِ الإبلِ، وأسمعَ الجميعَ رافعاً صوتَهُ قائلاً: الحمدُ للهِ و نستعينُهُ ونؤمنُ به، ونتوكّلُ عليهِ، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنا، ومنْ سيّئاتِ أعمالنا، الذي لا هاديَ لمنْ أضلَّ، ولا مضِلَّ لمنْ هدى، وأشهدُ أنّ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنّ محمداً عبدهُ ورسولهُ. أمّا بعدُ، أيُّها الناسُ، قد نَبّأَنيَ اللطيفُ الخبيرُ أنّه لم يعمِّرْ نبيٌّ إلاّ مثلَ نصفِ عُمُرِ الذي قبْلَهُ، وإنِّي أوشكُ أنْ أُدعَى فأجيبُ، وإني مسؤولٌ، وأنتمْ مسؤولونَ، فماذا أنتم قائلونَ؟ قالوا : نشهدُ أنكَ قد بلّغتَ ونصحتَ وجاهدتَ، فجزاكَ اللهُ خيراً. قالَ : ألستُمْ تشهدونَ أنّ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنّ محمداً عبدهُ ورسولُهُ، وأنّ جنّتَهَ حقٌّ، ونارَهُ حقٌّ، وأنّ الموتَ حقٌّ، وأنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنّ اللهَ يبعثُ مَنْ في القبورِ؟ قالوا: بلى نشهدُ بذلكَ. قالَ: اللهمَّ اشهَدْ. ثم قالَ: أيها الناسُ ألا تسمعونَ؟ قالوا: نعمْ. قالَ: فإني فَرطٌ على الحوضِ، وأنتمْ واردونَ عليَّ الحوضَ، وإنّ عرضَهُ ما بينَ صنعاءَ وبُصرى، فيهِ أقداحٌ عددُ النجومِ منْ فِضَّةٍ، فانظروا كيفَ تخلُفوني في الثَّقَلَينِ. فنادى منادٍ: وما الثقلانِ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: الثقْلُ الأكبرُ كتابُ اللهِ، طرفٌ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وطرفٌ بأيديكمْ، فتمَسَّكوا بهِ لا تضِلّوا،

---

١ القَتَبُ: الرَّحْلُ الصغير على قدر سَنام البعير. والجمع: أَقْتَاب.

٢ صنعاء: عاصمة اليمن اليوم. وبُصرى: مدينة جنوب دمشق في سوريا.

٣ الثِّقل: كلّ شيء خطير ونفيس.

والآخرُ الأصغرُ عِتْرَتيْ، وإنَّ اللطيفَ الخبيرَ نبَّأني أنّهما لن يتفرّقَا حتى يرِدا عليَّ الحوضَ، فسألْتُ ذلكَ لهما ربِّي، فلا تَقْدُموهمَا فتهلِكوا، ولا تقصّروا عنهما فتهلكوا.

ثمّ أخذَ بيدِ عليٍّ فرفعها حتى رُؤيَ بياضُ إبطيهما، وعَرفَهُ القومُ أجمعونَ، فقالَ: أيُّها الناسُ مَنْ أولى الناسِ بالمؤمنينَ من أنفُسِهمْ؟ قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ. قالَ : إنّ اللهَ مولايَ، وأنا مولى المؤمنينَ، وأنا أولى بهمْ منْ أنفسِهمْ، فمنْ كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ، - قالها ثلاثَ مرّاتٍ - ثمّ قالَ: اللهمَّ والِ مَنْ والاهُ، وعادِ مَنْ عاداهُ، وأحبَّ مَنْ أحبَّهُ، وأبغضْ مَنْ أبغضَهُ، وانصرْ منْ نصرَهُ، واخذلْ منْ خذلَهُ، وأدرْ الحقَّ معهُ حيثُ دارَ، ألا فليبلِّغْ الشاهدُ الغائبَ. ثمّ لم يتفرقوا حتى نزلَ أمينُ وحيِ اللهِ بقوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [٤٧١]. فقالَ رسولُ اللهِ : اللهُ أكبرُ على إكمالِ الدينِ، وإتمامِ النعمَةِ، ورضى الربِّ برسالتي، والولايةِ لعليٍّ منْ بعدي. ثمّ عَمَّمَ رسولُ اللهِ عليًّا يومَ غديرِ خُمٍّ بعمامَةٍ، فسدَلَ طرفيها على منكَبَيهِ، ثمّ قالَ: إنّ اللهَ أيَّدني يومَ بدرٍ وحُنينٍ بملائكةٍ يعتمّونَ هذه العِمَّةَ. ثم قالَ: معاشرَ الناسِ، قولوا: أعطيناكَ على ذلكَ عهداً عن أنفسنا وميثاقاً بألسنَتِنا وصفقةً بأيدينا نؤدّيهِ إلى أولادنا وأهالينا لا نبغي بذلك بدلاً وأنت شهيدٌ علينا وكفى بالله شهيداً، قولوا ما قلتُ لكم، وسلِّموا على عليٍّ بإمرَةِ المؤمنينَ وقولوا: الحَمدُ للهِ الّذي هَدانا لِهذا وَما كُنّا لِنَهتَدِيَ لَوْلا أن هَدانَا الله [٤٧٢]؛ فإنَّ اللهَ يعلمُ كلّ صوتٍ وخائنةَ كلِّ نفسٍ، فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّما يَنْكُثُ على نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسيُوتِيهِ أجْراً عَظيماً [٤٧٣]، قولوا ما يُرضي اللهَ عنكم فإنْ تَكْفُروا فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عَنكُم[٤٧٤]. ثمّ طَفِقَ القومُ يهنّئونَ أميرَ المؤمنينَ. ومِمّنْ هنّأَهُ في مقَدّمَةِ الصحابةِ: الشيخانِ أبو بكرٍ وعمرُ ثمّ بايعَ طلحةُ والزبيرُ، كلٌّ يقولُ: بَخٍ بَخٍ لكَ يا بنَ أبي طالبٍ أصبحْتَ وأمسيْتَ مولايَ ومولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ. فعند ذلكَ بادرَ الناسُ بقولِهمْ: نعمْ، سمِعْنا وأطعْنا لِما أمرنا اللهُ ورسولُهُ، بقلوبِنا، وأنفسِنا، وألسِنتِنا، وجميعِ جوارحِنا.

---

١ المولى: الناصر والسيد والمتولي للامور، وفي هذا الموضع يعني المعنى الاخير.

ثمّ انكبّوا على رسولِ اللهِ، وعلى عليٍّ بأيديهِمْ، إلى أنْ صُلِّيتْ الظهرُ والعصرُ في وقتٍ واحدٍ، والمغربُ والعشاءُ الآخرةُ في وقتٍ واحدٍ، و واصلوا البيعَةَ والمُصافَقَةَ ثلاثةَ أيامٍ،

ورسولُ اللهِ كلمّا بايعَهُ فوجٌ بعد فوجٍ يقولُ: الحمدُ للهِ الذي فَضَّلَنا على جميعِ العالَمِينَ. وجلسَ رسولُ اللهِ في خيْمةٍ تختصُّ بهِ، وأمرَ أميرَ المؤمنينَ عليّاً أنْ يجلسَ في خيمةٍ أخرى، وأمرَ أطباقَ الناسِ أنْ يُهنِّئوا علياً في خيمَتِهِ. ولمّا فرغَ الناسُ منَ التهْنِئةِ لهُ، أمرَ رسولُ اللهِ أُمّهاتِ المؤمنينَ بأنْ يسرنَ إليهِ ويُهنئْنَهُ، ففعلْنَ.

في هذه المناسبةِ قالَ حَسّانُ: ائذنْ ليْ يا رسولَ اللهِ أنْ أقولَ في علـيٍّ أبياتاً تسمَعهُنَّ. فقالَ : قلْ على بركةِ اللهِ. فقامَ حسانُ، فقالَ :



شكل(٦٥): النبي يعلن إمامة علي بن أبي طالب.

يُنَادِيهِمُ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيُّهُمْ   بَخمٍّ فَأَسْمِعْ بِالرَّسُولِ مُنَادِيا

يَقُولُ: فَمَنْ مَوْلاَكُمُ وَوَلِيُّكُمْ؟   فَقَالُوا وَلَمْ يُبْدُوا هُنَاكَ التَّعَامِيَا

إلَهُكَ مَوْلاَنا وَأَنْتَ وَلِيُّنَا   وَلَمْ تَرَ مِنَّا فِي الْوَلاَيَةِ عَاصِيَا

---

١ المُصافَقَة: من الفعل: صَفَقَ، وكانت العرب إذا أرادت إنفاذ أمر البيع أو البيعة، ضرب أحدُهُما يده على يد صاحبه.

فَقَالَ لَهُ: قُمْ يا عَلِيُّ فَإِنَّنِي رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِي إمَامًا وَهَادِيا

فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيُّهُ فَكُونُوا لَهُ أَنْصَارَ صِدْقٍ مَوَالِيا

هُنَاكَ دَعَا: اللَّهُمَّ وَالِ وَلِيَّهُ وَكُنْ لِلَّذِي عَادَى عَلِيّاً مُعَادِيا

قالَ عمرُ بنُ الخطابِ : يا رسولَ اللهِ! كانَ بجنْبيَ شابٌّ حَسَنُ الوجهِ طَيِّبُ الريحِ، قالَ ليْ: يا عمرُ لقد عقدَ رسولُ اللهِ عقداً لا يحلُّهُ إلاّ منافقٌ. فأخذَ رسولُ اللهِ بيدِ عمرَ وقالَ: إنّهُ ليس منْ وِلْدِ آدمَ، لكنّهُ جبريلُ أرادَ أنْ يؤكِّدَ عليكُمْ ما قلتُهُ في عليٍّ.

وجدَ المنافقونَ أنفُسَهمْ أفراداً قليلينَ، لا يتجاوزُ عددُهُمْ بضعَ عشراتٍ منَ الناسِ بينَ عشَراتِ الألوفِ، فقد خلفوا حُماتِهمْ، وهمْ أهلُ مكّةَ وما حولَها فلم يجرؤوا على التفوُّهِ ببنْتِ شَفَةٍ إلاّ همْساً. وربّما كانَ السببُ في هذه الجُرأةِ الظاهرةِ، والوقاحةِ السافرةِ التي تجلَّتْ في حِجّةِ الوداعِ ؛ هو شعورُ هذا الفريقِ منْ مهاجريْ قريشٍ بالقوّةِ وهمْ في بلدِهِمْ، وبينَ أنصارِهمْ ومحبِّيهِمْ في مكّةَ ومُحيطِها.

طارَ خبرُ ما جرى في غديرِ خُمٍّ في البلادِ، فأتى الحارثُ بنُ النعمانِ الفهريّ إلى النبيِّ وقالَ : يا محمدُ، أمرتَنا منَ اللهِ أنْ نشهدَ أنّ لا إلهَ إلاّ الله، وأنّكَ رسولُ اللهِ، وبالصلاةِ، والصومِ، والحجِّ، والزكاةِ، فقَبِلْنا منكَ، ثمّ لم ترضَ بذلكَ حتى رفعْتَ بِضِبْعِ ابنِ عَمِّكَ، ففضَّلْتُهُ علينا، وقلتَ: مَنْ كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ، فهذا شيءٌ منكَ أمْ منَ اللهِ؟! فقالَ رسولُ اللهِ : والذي لا إلهَ إلاّ هو، إنّ هذا منَ اللهِ. فولَّى الحارثُ يريدُ راحلتَهُ، وهو يقولُ: اللهمَّ، إنْ كانَ ما يقولُ محمدٌ حَقّاً فأمطِرْ علينا حجارةً منَ السماءِ، أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ. فما وصلَ إلى راحلَتِهِ، حتى رماهُ اللهُ بحجَرٍ فسقطَ على هامتِهِ، وقتلَهُ، فأنزلَ اللهُ: إنّ هذا السائلَ سألَ لنفسِهِ العذابَ الذي أعدّهُ اللهُ للكافرينَ ولكنّهُ استعْجلَهُ وهو واقعٌ بالكافرينَ لا يدفعُهُ دافعٌ، نازلٌ عليهِمْ منَ اللهِ ذي الدرجاتِ الرفيعَةِ والمقاماتِ العالية (٤٧٥).

و بعد ذلكَ سارَ الناسُ إلى المدينةِ عائدينَ ومنهمْ منْ رجعَ في الطريقِ إلى ديارهِ مفارقاً رسولَ اللهِ ومودِّعَهُ. إنّ كلَّ مَنْ رافقَ النبيَّ في هذا السفَرِ العباديِّ، لسوفَ يحتفظُ في ذاكرتِهِ بأدَقِّ الذكرياتِ، لأنّها ستكونُ ذكرياتٍ عزيزةً وغاليَةً على قلبِهِ، تبقى حَيَّةً غَضَّةً في روحِهِ وفي وجدانِهِ، على مدى الأيامِ والشهورِ، والأعوامِ والدهورِ، ما دامَ أنّ هذه هي آخرُ مرَّةٍ يرى فيها رسولَ اللهِ. (٤٧٦)

السنَةُ الحاديةُ عشرةَ بعدَ الهِجرَةْ (٦٣٢ ـ ٦٣٣ م)

سَرِيَّةُ أُسامَةْ

أقامَ رسولُ اللهِ بعد حجّتِهِ بالمدينةِ بقيَّةَ ذي الحجّةِ، والمحَرَّمَ، وما زالَ يذكرُ مقتلَ زيدٍ بنِ حارثةَ، وجعفرٍ بنِ أبي طالبٍ وأصحابِهِ، الذينَ استُشهِدوا في سريّةِ مُؤتَةَ ضدَّ الرومِ، ووجِدَ النبيُّ عليْهِمْ وجْداً شديداً.

وفي صفرٍ سنةَ إحدى عشرةَ أمرَ رسولُ اللهِ بالتهيّؤِ لغزوِ الرومِ، وأمرَهمْ بالجدِّ، ثمّ دعا في اليومِ التالي أسامةَ بنَ زيدٍ فقالَ: يا أسامةُ، سِرْ على اسمِ اللهِ وبركتِهِ، حتى تنتهيَ إلى موضعِ مقتلِ أبيكَ، فأوطِئْهُمُ الخيلَ، فقد ولَّيْتُكَ هذا الجيشَ، فأغزُ صباحاً على أهلِ أبنى وحَرِّقْ عليهمْ. وأسرعْ السيرَ تسبقُ الأخبارَ، فإنْ أظفرَكَ اللهُ، فأقلِلِ اللّبْثَ فيهمْ، وخُذْ معكَ الأدِلَّاءَ، وقَدِّمِ العيونَ والطلائعَ أمامَكَ. كانَ النبيُّ يريدُ أنْ يحميَهُ منْ أنْ يتمَكَّنَ هرقلُ منْ إرسالِ جيوشهِ الهائلةِ لنجدةِ أهلِ أبنى، ويتمكَّنَ منْ إلحاقِ الأذى بأُسامةَ وبجيشِهِ، فأمرَ بأنْ يُقِلَّ اللبْثَ في أهلِ أبنى.

وبعد بضعةِ أيامٍ بدأَ برسولِ اللهِ وجعُهُ، فحُمَّ وصُدِعَ. فلمّا أصبحَ يومَ الخميسِ عقدَ لأُسامةَ اللواءَ بيدِه. ثمّ قالَ: أُغْزُ بسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، فقاتِلْ مَنْ كفرَ باللهِ، ثمّ قالَ لأهلِ العسكرِ أُغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأةً، ولا تتمنّوا لقاءَ العدوِّ فإنّكُمْ لا تدرونَ لعلَّكمْ تبتلونَ بهمْ، ولكنْ قولوا: اللهمَّ اكفِناهُمْ بما شئْتَ، واكفُفْ بأسَهمْ عنّا. فإنْ لقوكُمْ قد جلبوا وضَجّوا، فعلَيكمْ بالسكينةِ والصمْتِ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهَبَ ريحُكمْ، وقولوا: اللهمَّ

---

١ أبنى: ناحية بالبلقاء بين عسقلان والرملة، وهي قريبة من مؤتة.

إنّا نحنُ عبيدُكَ وهم عبادُكَ، نواصينا ونواصيهِمْ بيدِكَ، وإنّما تغلبُهمْ أنتَ، واعلموا أنّ الجَنّةَ تحتَ البارِقَةِ.

فخرجَ أسامةُ بلوائهِ، فدفعَهُ إلى بُريدةَ بنِ الحصيبِ الأسلَميّ، وعسكَرَ بالجُرفِ، فلم يبقَ أحدٌ منْ وجوهِ المهاجرينَ الأوَّلينَ والأنصارِ إلاّ أُنتُدِبَ في تلكَ الغزوةِ منهمْ أبو بكرٍ، وعمرُ بنُ الخطابِ، وأبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ، وسعدٌ بنُ أبي وقاصَ، وأبو الأعورِ سعيدٌ بنُ زيدٍ بنِ عمرو بنِ نُفيلٍ، مع رجالٍ آخرينَ منَ الأنصارِ، مثلَ: قتادةَ بنِ النعمانِ، وسَلَمَةَ بنِ أسلَمَ بنِ حريشٍ. أمّا الشخصيّةُ المُهمَّةُ الوحيدةُ التي لم تتلَقَّ أمراً منَ النبيِّ محمدٍ بالانضمامِ إلى جيشِ أسامةَ هي عليٌّ بنُ أبي طالبٍ. وكانتْ هذه خطوةً استراتيجيّةً منْ قِبلِ النبيِّ محمدٍ لتسهيلَ نَقْلِ السلْطةِ إلى خليفتِهِ المُعيَّنِ عليٍّ. (٤٩٨)

كانَ عُمُرُ أسامةَ لم يتجاوزْ الثامنةَ عشرةَ حينَ تسلَّمَ قيادةَ جيشٍ يضمُّ كبارَ المسلمينَ منْ المهاجرينَ والأنصارِ، ممّا أثارَ غضبَ بعضِهِمْ وامتِعاضَهِمْ، لأنّهمْ كانوا يرونَ أنّهمْ أحقُّ بهذا المنْصبِ منهُ. فقالَ رجلٌ منَ المهاجرينَ وهو عيّاشٌ بنُ أبي ربيعةَ المخزوميّ: يستعملُ هذا الغُلامَ على المهاجرينَ؟! ويقصدُ بذلكَ أسامةَ بنَ زيدٍ، فكثُرَتْ المقالةُ، وسمِعَ عمرُ بنُ الخطابِ بعضَ ذلكِ فردَّهُ على مَنْ تكلمَ بهِ، وأخبرَ رسولَ اللهِ، فغضِبَ النبيُّ غضباً شديداً، فخرجَ رسولُ اللهِ وقد عصبَ رأسَهُ بعُصابَةٍ وعليهِ قطيفَةٌ، ثمّ صعدَ المنْبرَ، فحمدَ اللهِ، وأثنى عليهِ، ثمّ قالَ: أمّا بعدُ، أيُّها الناسُ، فما مقالةٌ قد بلغَتْنيَ عنْ بعضِكمْ في تأميرِيَ أُسامةَ، ولئنْ طعنْتُمْ في إمارةِ أسامةَ لقد طعنتُمْ في إمارةِ أبيهِ منْ قبْلِهِ، وأيمُ اللهِ، إنّه كانَ للإمارةِ لَخليْقاً، وإنَّ ابنَهُ منْ بعدهِ لخليقٌ للإمارةِ، وإنْ كانَ لَمِنْ أحبِّ الناسِ إلـيَّ، وإنَّهما لمخيلانِ لكلِّ خيرٍ، فاستوصوا بهِ خيراً، فإنهُ منْ خيارِكمْ. ثمّ نزلَ رسولُ اللهِ فدخلَ بيتَهُ، وجاءَ الذينَ يخرجونَ معَ أسامةَ يودِّعونَ رسولَ اللهِ - فيهمْ عمرُ بنُ الخطابِ - ويمضونَ إلى العسكرِ بالجُرفِ وهو يحضُّهُمْ على التعجيلِ. ودخَلتْ أمُّ أيمنَ فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، لو تركَتْ أسامةَ يقيمُ في

---

١ البارقة: أي السيوف.

معسكرهِ حتى تتماثَلَ، فإنْ أسامةَ خرجَ على حالتهِ هذه لم ينتفِعْ بنفسِهِ. فقالَ الرسولُ: أنفذوا بَعْثَ أسامةَ. فمضى الناسُ إلى المعسكرِ فباتوا ليلةَ الأحدِ. وبعد بضعِ أيامٍ أخرى نزلَ أسامةُ ورسولُ اللهِ ثقيلٌ مغمورٌ، وكانوا قد أعطوهُ دواءً فدخلَ عليهِ وعيناهُ تهمِلانِ، وعندَهُ رجالٌ والنساءُ حولَهُ، فطأطأَ عليهِ أسامةُ فقبَّلهُ، والنبيُّ لا يتكلمُ، فجعلَ يرفعُ يديهِ إلى السماءِ ثمّ يضعُها على أسامةَ، كأنّهُ يدعو لهُ. ورجعَ أسامةُ إلى مُعسكَرِهِ.

تثاقلَ أسامةُ بتنفيذِ المهمَّةِ، وتثاقلَ الجيشُ بتثاقُلِهِ، ودخلَ المسلمونَ الذي عسكروا بالجُرفِ إلى المدينةِ، ودخلَ بريدةُ بنُ الحصيبِ باللواءِ، فغرزَهُ عند بابِ رسولِ اللهِ. وجعلَ رسولُ الله في مرضِهِ يثقلُ ويخفُّ، ويؤكدُ القولَ في تنفيذِ ذلكَ البَعْثِ، حتى قالَ لهُ أسامةُ: بأبيْ أنتَ وأُميْ، تأذنَ أنْ أمكُثَ أياماً حتى يشفيَكَ اللهُ؟ قالَ: أخرجْ، وسِرْ على بركةِ اللهِ. فقالَ: يا رسولَ الله ! إنّي إنْ خرجْتُ وأنتَ على هذه الحالَةِ خرجْتُ وفي قلبي قرحةٌ منكَ. فقالَ: سِرْ على النصرِ والعافيَةِ. فقالَ: يا رسولَ اللهِ ! إنّي أكرهُ أنْ أسألَ عنكَ الركبانَ. فقالَ: أنفِذْ لِما أمرتُكَ بهِ. ثمّ أُغميَ على رسولِ اللهِ. كانَ للكبارِ في جيشِ أسامةَ والشيوخِ دورٌ في هذا التثاقُلِ، إذْ أنّ مصلحتَهمْ تقتضي بقاءَهمْ في المدينةِ في هذه الظروفِ الحسّاسةِ، الأمرُ الذي يدفعُهمْ إلى أنْ يتوصلوا إلى تفاهمٍ حولَ هذا التثاقُلِ معَ أسامةَ، إذا لم يكونوا همُ الذينَ دفعوهُ نحوَهُ، أو فرضوهُ عليهِ لفتْرةٍ استمرَّتْ حَواليْ نصفَ شهرٍ.

كانَ عند رسولِ اللهِ سبعةُ دنانيرَ وضعَها عند عائشةَ، فلمّا كانَ في مرضِهِ، قالَ: يا عائشةُ، ابعثي الذهبَ إلى عليٍّ، ثمّ أُغميَ عليهِ، وشَغَلَ عائشةَ ما بهِ، ولمّا أفاقَ، قالَ: يا عائشةُ، ما فعلْتِ بذلكَ الذهبِ؟ قالتْ: هي عندي. قالَ: فأنفقيها، ثمّ غشيَ عليهِ ، فلمّا أفاقَ. قالَ: هلْ أنفقْتِ ذاكَ الذهبَ يا عائشةُ؟! قالتْ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ. فدعا بها فوضَعَتْها في كفِّهِ، فعدَّها، فإذا هي سبعةُ دنانيرَ، فقالَ: ما ظنُّ محمدٍ بربِّهِ أنْ لو لقيَ اللهَ وهذه عندَهُ؟ فأنفقَها كلَّها. (٤٧٧)

رَزِيَّةُ الخميسْ

في الخامسِ والعشرينَ منْ شهرِ صفرٍ اشتدَّ برسولِ اللهِ وجعُهُ وكانَ على فِراشهِ وحولَهُ أصحابُهُ فقالَ وهو في مرضهِ: ائتونيْ بِكَتِفٍ ودَواةٍ أكتبْ لكُمْ كتاباً لنْ تضلّوا بعدَهُ. وكانَ في البيتِ لَغَطٌ، فحاولَ عمرُ أنْ يصرفَ النبيَّ عنْ عَزْمِهِ، فرفضَها رسولُ اللهِ. فقالَ عمرُ: إنّ النبيَّ يَهْجُرُ وعندنا كتابُ اللهِ، حسبُنا كتابُ اللهِ. فاختلفَ أهلُ البيتِ واختصموا، واختلفوا، وكثُرَ اللَّغَطُ، بينَ مَنْ يقولُ: قَرِّبوا يكتبُ لكمْ، وبينَ مَنْ يقولُ: القولُ ما قالَ عمرُ، فتنازعوا، فقالوا: ما شأنُهُ أهَجَرَ؟! استفْهِموهُ. فقالَ رسولُ اللهِ : قوموا عنّي، لا ينبغي عندَ نبيٍّ تنازُعٌ. فذهبوا يعيدونَ عليهِ، فقالَ رسولُ اللهِ: قوموا، دعوني، فالذي أنا فيهِ خيرٌ ممّا تدعونني إليهِ. فقالتْ امرأةٌ مِمّنْ حضرْنَ: ويحَكمْ، عهدُ رسولِ اللهِ إليكمْ. فقالَ بعضُ القومِ: اسكُتي، فإنّهُ لا عقلَ لكِ. فقالَ النبيُّ وهو غاضبٌ: أنتُمْ لا أحلامَ لكمْ. فخرجَ ابنُ عبّاسٍ وهو يقولُ: الرزِيَّةُ كلُّ الرزيّةِ ما حالَ بينَ رسولِ اللهِ وبينَ كتابِهِ لاختلافِهِمْ ولَغَطِهِمْ!

لقد خالفوا أمرَ الرسولِ ورفعوا أصواتَهُمْ ولغطوا وتنازعوا في محضَرِهِ، فأغضَبوهُ. حتى قالوا: حسبُنا كتابُ اللهِ، وهذا قرارٌ منهمْ باستبعادِ السُنَّةِ النبويّةِ. ولكِنّهمْ لم يعملوا بالقرآنِ الذي كانَ يأمرُهمْ بإطاعةِ اللهِ ورسولِهِ.

حينما رأى النبيُّ وهو على فراشِ الموتِ جُرأةَ وإصرارَ كبارِ الصحابةِ على مخالفةِ رأيِ نبيِّهِمْ ومَنْعِهِ من كتابةِ ذلكَ الكتابِ، عدلَ عنْ ذلكَ بعدما كانَ هو مَنْ طلبَ بنفسهِ أنْ يكتُبَهُ لهمْ، وذلكَ لأنّ كلماتِهِمْ تلكَ التي فاجأوهُ بها اضطرَّتْهُ إلى ذلكَ، إذْ لم يبقَ بعدها أثرٌ لكتابةِ الكتابِ سوى الفِتنَةِ، والاختلافِ.

---

١ الكَتِف: عظم لوح الكتف، كانت العرب تكتب عليه، كما يكتبون على القرطاس.

٢ يهجر: أي يهذي أو يتكلم بكلام قبيح.

٣ رزية: أي مصيبة عظيمة.

كانَ عمرُ بنُ الخطابِ يقولُ: لقد أرادَ في مرضِهِ أنْ يُصرِّحَ باسمِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ فمَنعْتُهُ منْ ذلكَ، إشفاقاً وحيطَةً على الإسلامِ. لا وربِّ هذه البَنِيَّةِ لا تجتمعُ على عليٍّ بنِ أبي طالبٍ قريشٌ أبداً. (٤٧٨)

موتُ رسولِ اللهِ

في الثامنِ والعشرينَ منْ شهرِ صفرٍ كانَ رسولُ اللهِ قد انهكَهُ المرضُ وهو طريحُ الفراشِ، فجاءهُ بِلالٌ يؤذِنَهُ بالصلاةِ. وكانتْ صلاةَ الصبحِ. فقالَ النبيُّ بصوتٍ ضعيفٍ: "يا بلالُ ، قد بلّغتُ. فمَنْ شاءَ فليصلِّ بالناسِ، ومَنْ شاءَ فليدَعْ." فتقدَّمَ لها أبو بكرٍ، ولمّا علِمَ رسولُ اللهِ بذلكَ أرادَ بنفسهِ أنْ يتدخلَ، فوجدَ في نفسهِ قوةً، فقامَ عاصِباً رأسَهُ يُهاديْ بينَ رجُلينِ، ورِجْلاهُ تخطّانِ في الأرضِ حتى دخلَ المسجدَ. فانفرجَ الناسُ لهُ، وعرفَ أبو بكرٍ أنّ الناسَ لم يفعلوا ذلكَ إلاّ لرسولِ اللهِ، فعزلَهُ رسولُ اللهِ عنِ الصلاةِ ورجعَ أبو بكرٍ إلى الخلفِ عنْ مُصلّاهُ، فصلّى النبيُّ بالناسِ. بعدها استأذنَ أبو بكرٍ النبيَّ أنْ يذهبَ إلى بيتهِ في السنْحِ.

ثمّ قالَ النبي: ادعو ليْ عليًّا بنَ أبي طالبٍ، وأُسامةَ بنَ زيدٍ ، فجاءا، فوضعَ يدَهُ على عاتقِ عليٍّ، والأخرى على أسامةَ، ثمّ قالَ: انطلقا بيْ إلى فاطمةَ. فجاءا بهِ والحسنُ والحسينُ هناكَ. فقالَ: مرحباً يا ابنَتي. فأجلَسها عنْ يمينِهِ ، أو عنْ شمالِهِ ، فأكبَّتْ عليهِ تُقبّلِهُ، فأسرَّها بشيءٍ، فبكَتْ، ثمّ أسرَّها فضحِكَتْ. فسألتاها عائشةُ وأمُّ سَلَمةَ: أخْبرينا بما سارَّكِ؟ قالتْ: ما كنْتُ لأفْشيَ سِرَّ رسولِ اللهِ. فلمّا تُوفِيَ قالتْ لها: أسألُكِ بما ليَ عليكِ منَ الحقِّ لَما أخبرْتِنيْ. قالتْ : أمّا الآنَ فنعمْ ، سارَّنيْ فقالَ : إنّ جبريلَ كانَ يُعارضُنيْ بالقرآنِ في كلِّ سنةٍ مرَّةً، وإنّهُ عارضني العامَ مرَّتَينِ ولا أرانيَ إلاّ وقد حَضَرَ أجلي وإنّكِ لأوّلُ أهلِ بيتي لحوقاً بيْ،

---

١ البَنِيَّةُ : كلُّ ما يُبْنَى، وكانت تُطلق على الكعبة.

٢ السنح : موضع بالمدينة بينه وبين منزل النبي قدر ٦٠٠ متر. كان لأبي بكر منزل هناك يسكن فيه مع زوجته أسماء بنت خارجة.

ونِعمَ السلفُ أنا لكِ. بكَيْتُ لذلكَ ثمّ قالَ: ألا ترضَينَ أنْ تكوني سيِّدَةَ نساءِ المؤمنينَ فضحكْتُ لذلكَ.

كانَ بعضُ أصحابِ رسولِ اللهِ عندهُ وفيهمْ عمارٌ بنُ ياسرٍ، فقالَ لهُ: فِداكَ أبي وأُميْ يا رسولَ اللهِ، مَنْ يغسِّلُكَ منّا، إذا كانَ ذلكَ منكَ؟! قالَ: ذاكَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ، لأنّهُ لا يهمُّ بِعضوٍ منْ أعضائي إلاّ أعانَتْهُ الملائكةُ على ذلكَ. فقالَ عمارٌ: فداكَ أبي وأُميْ يا رسولَ اللهِ ، فمَنْ يُصلّيَ عليكَ منّا إذا كانَ ذلكَ منكَ؟! قالَ: مِهْ رحِمَكَ اللهُ! ثمّ قالَ لعليّ: يا بنَ أبي طالبٍ، إذا رأيْتَ روحيَ قد فارقَتْ جسدي فاغْسِلْني. وضَعْ يا عليُّ رأسيَ في حِجْرِكَ، فقد جاءَ أمرُ اللهِ تعالى ، فإذا فاضَتْ نفسي فتَناولْها بيدِكَ، وامسَحْ بها وجهَكَ ثمّ وجِّهْني إلى القِبْلَةِ وتولَّ أمرِيْ وصَلِّ عَلَيَّ أوّلَ الناسِ ولا تفارقْني حتى تُواريَنيْ في رَمْسيْ.

كانَ النبيُّ محمدٌ في بيتِ ابنتِهِ فاطمةَ على فراشِ الموتِ مُحاطًا بأحبَّتِهِ منْ أهلِ بيتِهِ وهمْ ينتهِلونَ منهُ في لحَظاتِهِ الأخيرةِ آخِرَ النظراتِ وآخِرَ الكلماتِ التي لطالما أضاءتْ لهمْ حياتَهُمْ وأنارَتْ دربَهمْ.

ولأنَّ صِحَّةَ رسولِ اللهِ لا تسمحُ بالزيارةِ، كانتْ ابنَتُهُ فاطمةُ تحرِصُ على أنْ لا يُثقِلَ عليهِ أحدٌ بزيارتهِ وهو في حالَةِ الضعفِ الشديدِ هذه، فراحَتْ تعتذِرُ منهمْ وتردُّهمْ، ولكنْ رجلٌ غريبٌ ألحَّ بسؤالِهِ عنْ رسولِ اللهِ ، فقالتْ لهُ فاطمةُ: إنّ رسولَ اللهِ مشغولٌ عنكَ. فرجِعَ، ثمّ عادَ فاستأذنَ مرّةً أخرى، فأخبرَ جبريلُ النبيَّ: إنّ مَلَكَ الموتِ يستأذِنُ عليكَ، وما استأذنَ أحداً قبْلَكَ ولا بعدَكَ. عندها أخبرَ النبيُّ فاطمةَ بأنّهُ مَلكُ الموتِ، فأذِنَتْ لهُ، فدخلَ. فسألَهُ النبيُّ: أتفعلُ ذلكَ يا مَلكَ الموتِ؟ قالَ: نعمْ، بذلكَ أُمِرْتُ أنْ أطيعَكَ فيما تأمرُني. فقالَ لهُ جبريلُ: يا أحمدُ، إنّ اللهَ قد اشتاقَ إلى لِقائِكَ. فقالَ رسولُ اللهِ: يا مَلكَ الموتِ امضِ لِما أُمِرتَ لهُ. فقالَ جبريلُ: هذا آخرُ وطْئيَ الأرضَ، إنَّما كنْتَ حاجتي منَ الدنيا. فأخذَ عليٌّ رأسَهُ، فوضعَهُ في

---

١ الرَّمْسُ : القبرُ مستويًا مع وجه الأرضِ.

حِجْرِهِ. ثمّ قُبِضَ، ويدُ أميرِ المؤمنينَ تحتَ حَنَكِهِ، ففاضَتْ نفسُهُ فيها، فرفعَها إلى وجهِهِ، فَمَسَحَها بها. ثمّ وجَّهَهُ، وأغمضَ عينَيهِ، ومَدَّ عليهِ إزارُهُ، واشتغَلَ بالنظَرِ في أمرِهِ.

فور انتقالِ رسولِ اللهِ إلى الرفيقِ الأعلى ضَجَّ أهلُ بيتِهِ بالبُكاءِ والعويلِ. وباقي المسلمينَ مجتمعينَ حولَ دارِ النبيِّ في المسجدِ كأنّ على رؤوسِهُمُ الطيرَ. كانَ الناسُ يغلبُها الترقُّبُ والحزنُ الممزوجُ بالخوفِ. وما أنْ سمعوا صوتَ الواعِيَةِ والبابُ مُغلَقٌ على مَنْ فيهِ، حتى هرعوا واجتمعوا في مسجدِهِمْ والطُّرقاتِ، نُكَّساً أبصارُهمْ مُطأطِئيْ رؤوسِهِمْ. ولم تبقَ عينٌ لم تدمَعْ، ولا قلبٌ لم يجزَعْ، ولا نفسٌ لم تتقطَّعْ. فليس هناكَ ما يدعوهُمْ إلى تكذيبِ النُعاةِ. وحينَ سمعَ عمرُ بنُ الخطابِ صُعِقَ إلى الأرضِ فلمّا أفاقَ أبى أنْ يُصدِّقَ الناسَ بما يقولونَ أنَّ النبيَّ محمداً قد ماتَ، حيثُ طلعَ صارِخاً مهدِّداً وقد قَطَعَ عليهِمْ تفكيرَهمْ وهواجِسَهمْ. فبادرَ إلى إنكارِ موتِهِ وقالَ: ما ماتَ رسولُ اللهِ، ولا يموتُ، حتى يَظهَرَ دينُهُ على الدينِ كلِّهِ، وليرجَعَنَّ وليقطعَنَّ أيديْ رجالٍ وأرجُلَهُمْ مِمّنْ أرجفَ بموتِهِ. لا أسمعُ رجلاً يقولُ ماتَ رسولُ اللهِ إلاّ ضربتُهُ بسيفي. واستمرَّ على هذا الحالِ يحلفُ للناسِ على صَحَّةِ ما يقولُ مُؤجِّجاً بذلكَ العواطِفَ، إلى أنْ جاءَ أبو بكرٍ منَ السنحِ، فكشَفَ عنْ وجهِ رسولِ اللهِ، ثمّ خرجَ فقالَ لِعُمَرَ الذي ما زالَ يحلِفُ: أيُّها الحالِفُ على رِسْلِكَ. وأمرَهُ ثلاثَ مرّاتٍ بالجلوسِ، فلم يفعلْ. ثمّ قامَ خطيباً في ناحيةٍ أخرى، فترَكَ الناسُ عمرَ وتوجَّهوا إلى أبي بكرٍ، فقالَ: مَنْ كانَ يعبدُ محمداً، فإنّ محمداً قد ماتَ، ومَنْ كانَ يعبدُ اللهَ فإنّ اللهَ حَيٌّ لا يموتُ، ثمّ تلا الآيةَ القرآنيَّةَ: ﴿أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ﴾[٤٧٩]. فسلَّمَ عمرُ وصَدَّقَ، قائلاً: كأنّيَ لم أسمعْ هذه الآيةَ! وحينَ شاهدَ أبو بكرٍ عليًّا وحُزنَهُ على رسولِ اللهِ، أنكرَ عليهِ ذلكَ وقالَ: ما ليَ أراكَ متحازِماً؟! فقالَ لهُ عليٌّ : إنّهُ قد عنانيَ ما لم يعنِكَ.

لم تكنْ العواطفُ المتأجِّجَةُ متشابِهَةً، فبينما الأُمّةُ في مُصيبَةٍ وحزنٍ وفاجعةٍ لِفَقدِهِمْ نبيَّهِمْ، كانَ هناكَ نفرٌ منَ المنافقينَ الانتهازيّينَ يُخفونَ مشاعرَ الفرحةِ بالخلاصِ والأملِ بالتغْييرِ وهم يتطلّعونَ للسيطرةِ والفوزِ بالمناصِبِ التي تدرُّ عليهمُ المالَ والجاهَ.

دفن رسولُ اللهِ

لم يتمَّ دفنُ جَسَدِ رسولِ اللهِ بعدُ، وقد اجتمعَتْ الأنصارُ في سقيفَةِ بنيْ ساعِدةَ للمناقشةِ في أمرٍ شَغلَهُمْ، وهو مصيرُ الأُمّةِ بعد رحيلِ النبيِّ، وحينَ علِمَ أبو بكرٍ وعمرُ بنُ الخطابِ بهذا الاجتماعِ تركوا رسولَ اللهِ وتبعهما أبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ، فمشوا إلى الأنصارِ ثلاثتُهُمْ والتحقوا بهمْ مسرعينَ. أمّا عليٌّ ومَنْ في الدارِ منْ بني هاشمٍ، وباقي المهاجرينَ والمسلمينَ، فلم يعلموا بكلِّ الذي حَدَثَ، ولا بما عزمَ عليهِ أبو بكرٍ وعمرُ.

كانَ ممّا أوصى بهِ رسولُ اللهِ أنْ يُدفَنَ في بيتِهِ الذي قُبِضَ فيهِ، ويُكفَّنَ بثلاثةِ أثوابٍ ولا يدخلُ قبرَهُ غيرُ عليٍّ. فقامَ عليٌّ بتغْسيلِ النبيِّ في قميصِهِ كما أمرَهُ النبيُّ، بمساعدَةِ الفضلِ بنِ العبّاسِ وهو معصوبُ العيْنَينِ كي لا يرى جَسَدَ النبيِّ. و وضعَ عليٌّ خَدَّ النبيِّ على الأرضِ، موجَّهًا إلى القِبلَةِ على يمينِهِ ولم ينظرْ أحدٌ إلى بَدنِ النبيِّ غيرُ عليٍّ وهو يقولُ: بأبيْ وأُميْ، طِبْتَ حيّاً، وطبْتَ مَيْتاً، انقطعَ بموتِكَ ما لم ينقطِعْ بموتِ أحدٍ مِمّنْ سواكَ، منَ النبوّةِ، والأنبياءِ، خَصَصْتَ حتى صِرتَ مُسْلِيَاً عمَّنْ سواكَ، وعَمَّمْتَ حتى صارَ الناسُ فيكَ سواءً. ولولا أنّكَ أمرْتَ بالصبْرِ، ونهيْتَ عنِ الجزَعِ لأنفَذْنا عليكَ الشُّؤونَ، ولكانَ الداءُ مُماطِلاً، والكمَدُ مُحالِفَاً ، وقَلّا لكَ ، ولكنّهُ ما لا يُملَكُ ردُّهُ، ولا يُستَطاعُ دفعُهُ. بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ! ثمّ أكبَّ عليهِ فقَبَّلَ وجهَهُ .

---

١ السّقيفة: العريش يُستظل به، أوظُلة يُجلس تحتها.

٢ بنو ساعدة: بطن من الأنصار وكانت السقيفه لهم.

٣ الشؤون: منابع الدمع.

٤ الداء مماطلا: وهو ما لا يمكن علاجه.

٥ الكمد محالفا: أي هو حزن ملازم لا ينفك.

٦ أي مماطلة الداء ومحالفة الكمد قليلتان لك.

لمّا غسَّلَهُ أميرُ المؤمنينَ كفَّنَهُ وسَجّاهُ، ثمّ أدخلَ عليهِ عشرةً عشرةً منَ المؤمنينَ، ليُسلِّموا عليهِ ويقولوا: سلامٌ عليكَ أيُّها النبيُّ، ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ، فداروا حولَهُ ثمّ وقفَ أميرُ المؤمنينَ في وسَطِهِمْ للصلاةِ عليهِ، فقالَ: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾(٤٨٠) فقالَ القومُ مثلَ ما قالَ أميرُ المؤمنينَ حتى صلّى عليهِ أهلُ المدينةِ وما حولَها.

دخلَ أميرُ المؤمنينَ والعبّاسُ بنُ عبدِ المطّلبِ، والفضلُ بنُ العباسِ، وأسامةُ بنُ زيدٍ ليتَولّوا دَفْنَ رسولِ اللهِ، فنادَتِ الأنصارُ منْ وراءِ البيتِ: يا عليُّ، إنّا نُذْكِرُكَ اللهَ وحَقَّنا اليومَ منْ رسولِ اللهِ أنْ يذهَبَ، أدخِلْ منّا رجلاً يكونُ لنا بهِ حَظٌّ منْ مُواراةِ رسولِ اللهِ. فقالَ : ليدخُلَ أوسٌ بنُ خَوليْ، وكانَ بدرِيًّا فاضلاً منْ بنيْ عوفٍ منَ الخزرجِ، فلمّا دخلَ قالَ لهُ عليٌّ : انزَلِ القبرَ. فنزلَ ووضعَ أميرُ المؤمنينَ رسولَ اللهِ على يديْهِ ووضعَهُ في حُفرتِهِ، فلمّا استقرَّ في الأرضِ قالَ لهُ: أُخرجْ. فخرجَ، ونزلَ عليٌّ في القبرِ، فكشفَ عنْ وجهِ رسولِ اللهِ ووضعَ خدَّهُ على الأرضِ مُوَجَّهاً إلى القِبْلَةِ على يمينهِ، ثمّ وضعَ عليهِ طُوبَ اللِّبْنِ، وأهالَ عليهِ الترابَ، وكانَ ذلكَ في يومِ الإثنينِ لليلَتَينِ بقيتا منْ شهرِ صفرَ سنةَ إحدى عشرةَ منْ هِجْرتِهِ، وهو ابنُ ثلاثٍ وستينَ سنةً.

اغتنَمَ القومُ فرصةَ انشغالِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ بدفْنِ رسولِ اللهِ وانقطاعِ بنيْ هاشمٍ عنهُمْ بمُصابِهِمْ برسولِ اللهِ، فتبادروا إلى مناقَشةِ أمرِ الخِلافةِ. ولم يحضرْ دفنَ رسولِ اللهِ أكثرُ الناسِ لِما جرى بينَ المهاجرينَ والأنصارِ منَ التشاجُرِ في أمرِ الخِلافةِ، وفاتَتْ أكثرَهمْ الصلاةُ عليهِ لذلكَ.

ولمّا دُفِنَ النبيُّ قالتْ ابنتُهُ فاطمةُ وهي تبكي:

اِغبرَّ آفاقُ السماءِ وكُوِّرَتْ	شمسُ النهارِ وأظلمَ العصرانِ
فَالأرضُ مِنْ بعدِ النبيّ كئيبةٌ	أَسفاً عليهِ كثيرةُ الرجفانِ

فَلَيبكهِ شرقُ البلادِ وغربُها   وَليَبكهِ مضرٌ وكلُّ يَماني

وَلَيبكهِ الطَّودُ المعظّمُ جوّهُ   وَالبيتُ ذو الأستارِ والأركانِ

يا خاتمَ الرّسلِ المباركِ ضوؤهُ   صلّى عليكَ مُنَزِّلُ الفرقانِ

نَفسيْ فداؤكَ ما لرأسكَ مائلاً   ما وسَّدوكَ وِسادةَ الوسنانِ

لمّا سُوِّيَ الترابُ على قبرِ رسولِ اللهِ جاءتْ فاطمةُ، فوقفَتْ على قبرهِ وأخذَتْ قبضَةً منْ ترابِ القبرِ فوضعتْهُ على عينيها وبكَتْ، وأنشأتْ تقولُ :

ماذا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ   أنْ لا يَشُمَّ مدى الزمانِ غواليا

صُبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أنّها   صُبَّتْ على الأيامِ صِرنَ لياليا

فما زالتْ بعد أبيها معصوبَةَ الرأسِ، ناحلةَ الجسمِ، مهدودَةَ الركْنِ باكيةَ العينِ، محترقَةَ القلبِ، يُغشى عليها ساعةً وتفيقُ ساعةً، وتقولُ لولَدَيْها: أينَ أبوكما الذي كانَ يكرمُكَما ويحمِلُكما مرّةً بعد مرّةٍ؟ أينَ أبوكما الذي كانَ أشدَّ الناسِ شفقةً عليكما فلا يدَعَكُما تمشيانِ على الأرضِ؟ ولا أراهُ يفتحُ هذا البابَ أبداً ولا يحمِلُكُما على عاتقِهِ كما لم يزلْ يفعلُ بكما. وأصبحَتْ فاطمةُ تنادي: وا سُوءَ صَباحاهْ.(٤٨١)

---

١ مضرٌ: مدينة قديمة في اليمن.

٢ الطود المعظّمُ: الجبل الطويل الذي يرتفع فوق الكعبة في مكة.

٣ الوسنان: النعسان.

٤ غوالي: جمع غالٍ: ثمين، وما ارتفع سعره وعَلى قدْرُهُ.

الانقِلابُ

تصوّرَ الأنصارُ منْ جهةٍ أنّهمْ الذينَ آووا ونصروا، وأسلموا، فبذلوا للإسلامِ نفوسَهمْ وأموالَهمْ، فكانوا بحقٍّ أنصاراً كما سمّاهُمُ النبيُّ، فرأوا أنّ لأنفُسِهمْ حقّاً في الإسلامِ لا يُنكَرُ، ولهم في تشييدِهِ يدٌ مشهودةٌ وذِكْرٌ جميلٌ. وهذا ما يُطمِعُهُمْ في إمارةِ المسلمينَ كجزاءٍ لتَضحِيَتِهِمْ في سبيلِ الإسلامِ. منْ جهةٍ أخرى كانَ تحرُّكُ الأنصارِ والاجتماعُ في سقيفَةِ بنيْ ساعدةَ نابعًا أيضاً منَ الخوفِ منْ إمكانيّةِ خروجِ الأمرِ عنْ أهلهِ وأنْ يصيرَ إلى مَنْ قتلوا أبناءهمْ وآباءهمْ وإخوانَهمْ. فهمُ الذينَ وَتَروا قريشاً والعربَ وقتلوا صناديدَهمْ وأسروا رجالَهمْ وجَعْجَعوا بهمْ حتى دانتْ بأسيافِهِمُ العربُ. فكانتْ الأنصارُ والحالُ هذه تتخَوّفُ منْ هؤلاءِ الذينَ وتَروهمْ إذا خَلُصَتْ إليهمْ الإمارةُ، أنْ يأخذوهمْ بقتْلاهُمْ، خاصةً وأنّ قولَ رسولِ اللهِ يدورُ في أخلادِهمْ: ستلقونَ بعدي أثرةً[١]، فاصبروا حتى تُلاقوني على الحوضِ. فخرجوا سرّاً متسابقينَ لأخذِ زمامِ المبادرةِ والسيطرةِ على الوضعِ قبلَ فواتِ الأوانِ، فهُمْ لم يطلبوا الإمارة ليملكوا مقدِراتِ الأمّةِ وشؤونَها بلْ حفاظاً عليها.

لكنّ الأنصارَ لم يكونوا بمثلِ دهاءِ قريشٍ وقوّتِها، فهمْ أضعفُ في العزائمِ والتدبيرِ، كما إنّهُ لا يُنكَرُ ما همْ عليهِ منْ استكانةٍ وقِصَرٍ في الرأيِ. كما أنّ الأنصارَ وإنْ أرادوا البيْعَةَ لسعدٍ بنِ عبادةَ، فإنّما هم الخزرجُ فقطْ دونَ الأوسِ. وإذا كانَ الأوسُ اجتمعوا في السقيفَةِ مع الخزرجِ فإنّما هو على ظاهرِ الحالِ، ولِحِسٍّ مشتَرَكٍ بالخوفِ، لكنهم يُبطِنونَ في نفسِ الوقتِ للخزرجِ أحقادًا ومخاوفَ نتيجَةَ جروحٍ قديمةٍ.

حينما وصلَ أبو بكرٍ وعمرُ بنُ الخطابِ وأبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ إلى السقيفةِ، كانَ سعدٌ بنُ عبادةَ يشجِّعُ الأنصارَ أنْ يأخذوا بزمامِ المبادرةِ، غيرَ مكتَرثينَ بآراءِ الناسِ قائلاً: استبِدّوا

---

١ والأثرة هي الانفراد بالشيء دون مستحقيه، فيُمنع صاحب الحق، ويستأثر من بيده السلطة أو الولاية أو نحو ذلك بهذا المال.

بهذا الأمرِ دونَ الناسِ. فتناقشوا في الأمرِ وأجمعوا على ذلكَ القرارِ واتَّفقوا إنْ جُوبِهوا باعتراضٍ منَ المهاجرينَ أنْ يقولوا: منّا أميرٌ ومنكمْ أميرٌ ولن نرضى بدونِ هذا الأمرِ أبداً. فقالَ سعدٌ بنُ عبادةَ حينَ سمعها: هذا أوّلُ الوهْنِ. فحصلَتْ مُشادّاتٌ كلاميّةٌ مشينَةٌ وأوشكَتْ أنْ تؤدّي إلى العنفِ والاعتداءِ. ثمّ تكلّمَ أبو بكرٍ وأنصتَ القومُ، فقالَ: "بعثَ اللهُ محمداً بالهُدى، ودِينُ اللهِ حقٌّ، فدعا رسولُ اللهِ إلى الإسلامِ، فأخذَ اللهُ بقلوبنا ونواصينا، إلى ما دعانا إليهِ، فكنّا معشرَ المهاجرينَ أوّلَ الناسِ إسلاماً، ونحنُ عشيرتُهُ، وأقارِبُهُ، وذو رحِمِهِ، فنحنُ أهلُ النبوّةِ، وأهلُ الخِلافةِ، وأوسطُ الناسِ[1] أنساباً في العربِ، ولدتْنا كلُّنا، فليس منّا قبيلةٌ إلاّ لقريشٍ فيها ولادةٌ، ولن تعترفَ العربُ ولا تصلحُ إلاّ على رجلٍ منْ قريشٍ. همْ أصبَحُ الناسِ وجوهاً، وأبسطُهمْ لساناً، وأفضلُهمْ قولاً، فالناسُ لقريشٍ تَبَعٌ، فنحنُ الأمراءُ وأنتمُ الوزراءُ، وهذا الأمرُ بيننا وبينَكمْ قِسْمَةٌ إلاّ بثلْمَةٍ وأنتمْ يا معشرَ الأنصارِ إخوانُنا في كتابِ اللهِ، وشركاؤنا في الدينِ، وأحبُّ الناسِ إلينا، وأنتمْ الذينَ آووا ونصروا، وأنتمْ أحقُّ الناسِ بالرضا بقضاءِ اللهِ والتَّسليمِ لفضيلةِ ما أعطى اللهُ إخوانَكمْ منَ المهاجرينَ، وأحقُّ الناسِ ألاّ تحسُدوهمْ على خيرٍ آتاهمُ اللهُ إيّاهُ. وأمّا ما ذكرْتُمْ فيكمْ منَ خيرٍ، فأنتمْ لهُ أهلٌ، ولنْ تعرفَ العربُ هذا الأمرَ، إلاّ لهذا الحيِّ منْ قريشٍ همْ أوسطُ العربِ نسباً وداراً، وقد رضيتُ لكم أحدَ هذينِ الرجُلَينِ، فبايعوا أيُّهما شِئتُمْ"، وأخذَ بيدِ عمرَ بنِ الخطابِ وبيدِ أبي عبيدةَ بنِ الجرّاحِ. (٤٨٢) فقالَ عمرُ وأبو عبيدةَ: ما ينبغي لأحدٍ بعد رسولِ اللهِ أنْ يكونَ فوقَكَ يا أبا بكرٍ، أنتَ صاحبُ الغارِ معَ رسولِ اللهِ، وثانيَ اثنينِ، وأمَّرَكَ رسولُ اللهِ حينَ اشتكى، فصلّيْتَ بالناسِ، فأنتَ أحقُّ بهذا الأمرِ. فقالتْ الأنصارُ: واللهِ ما نحسدُكمْ على خيرٍ ساقَهُ اللهُ إليكمْ، وما خلقَ اللهُ قوماً أحبَّ إلينا، ولا أعزَّ علينا منكمْ، ولا أرضى عندنا هَدْياً منكمْ، ولكنّا نشفِقُ بعد اليومِ، فلو جعلتُمُ اليومَ أصلاً منكمْ، فإذا ماتَ أخذتُمْ رجلاً منَ الأنصارِ فجعلْناهُ، فإذا ماتَ أخذنا رجلاً منَ المهاجرينَ فجعَلناهُ، فكنّا كذلكَ أبداً ما بقِيَتْ هذه الأُمّةُ، بايعْناكُمْ، ورضينا بذلكَ منْ أمرِكمْ، وكانَ ذلكَ أجدرَ أنْ يشفِقَ القرشيُّ، إنْ زاغَ، أنْ ينقضَّ عليهِ الأنصاريُّ.

---

١ أوسطُ الناسِ: أيْ أشرفُ الناسِ.

فقالَ عمرُ : لا ينبغي هذا الأمرُ، ولا يصلحُ إلاّ لرجلٍ منْ قريشٍ، ولن ترضى العربُ إلاّ بهِ، ولن تعرفَ العربُ الإمارةَ إلاّ لهُ، ولن يصلُحَ إلاّ عليهِ، واللهِ لا يخالفُنا أحدٌ إلاّ قتلْناهُ. فكثُرَ اللّغَطُ، وارتفعَتِ الأصواتُ، حتى خشوا الاختلافَ، فقالَ أحدُ الأنصارِ: أُبسطْ يدكَ يا أبا بكرٍ، فبسَطَ يدَهُ فبايَعَهُ، وبايَعَهُ المهاجرونُ، ثمّ بايَعَهُ الأنصارُ. ووثَبَ عمرُ فأخذَ بيدِ أبي بكرٍ، وقامَ أُسيدٌ بنُ حُضيرٍ الأشهَليُّ، وبشيرٌ بنُ سعدٍ بنِ ثعلبَةَ يستبِقانِ ليُبايعَا أبا بكرٍ، فسبَقَهُما عمرُ فبايعَ، ثمّ بايعا معاً. ووثَبَ أهلُ السقيفةِ يسرعونَ إلى البيْعَةِ، وسعدٌ بنُ عبادةَ مُضطَجِعٌ منْ شدّةِ المرضِ، فازدَحَمَ الناسُ على أبي بكرٍ، فقالَ رجلٌ منَ الأنصارِ: اتَّقوا سعداً، لا تَطَأوهُ، فتَقْتلوهُ. فقالَ عمرُ، وهو مغضَبٌ: قتلَ اللهُ سعداً، فإنّهُ صاحبُ فِتْنَةٍ.

لمّا فرغَ أبو بكرٍ منَ البيْعَةِ رجعَ إلى المسجدِ، فقعدَ على المنْبرِ، فبايعَهُ الناسُ.

لكنّ عليّاً لم يحضُرْ السقيفَةَ، بلْ كانَ في بيتِهِ مشغولاً بدفْنِ النبيّ.(٤٨٣) فجاءَ رجلٌ إلى أميرِ



شكل(٦٦): أستيلاء أبي بكر على السلطة.

المؤمنينَ وهو يُسوّيَ قبرَ رسولِ اللهِ بمِسْحاةٍ في يدهِ، فقالَ لهُ: إنّ القومَ قد بايعوا أبا بكرٍ، ووقعَتْ الخَذْلَةُ في الأنصارِ لاختلافِهِمْ وبَدْرِ الطُّلَقاءَ بالعَقْدِ للرجلِ خوفاً منْ إدراكِكُمُ الأمرَ. فوضعَ طَرَفَ المسحاةِ في الأرضِ ويدُهُ عليها ثمّ قالَ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ ۝﴾ (٤٨٤)

بعد أنْ تمَّتْ البيعَةُ لأبي بكرٍ في المسجدِ النبويِّ، توجَّهتْ جماعةٌ منهمْ إلى بيتِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ لأخْذِ البيْعَةِ منهُ لأبي بكرٍ فطرقوا البابَ عليهِ، وكانتْ زوجتُهُ فاطمةُ وراءَ البابِ عند قبرِ النبيِّ، حيثُ أنّ النبيَّ محمداً كانَ قد دُفنَ هناكَ، فسألتْ: مَنِ الطارِقُ؟! وإذْ بهِمْ يقتحمونَ عليها البابَ بعُنْفٍ بمجرَّدِ أنْ عرفوا أنّ في داخلِ البيتِ أحداً، فعصروها بينَ البابِ والحائطِ، فجُرِحَتْ وصَرخَتْ، وأسقطَتْ جَنينَها.

كانَ المهاجِمونَ يريدونَ أنْ يُحضِروا عليّاً للبيْعَةِ. وعندما سمِعَ عليٌّ صوتَها، بادرَ إلى المهاجِمينَ، فهربوا، وخَلّوها، وكلُّ ذلكَ كانَ قد حصلَ في ثوانٍ مَعدودَةٍ. وانصرفَ عليٌّ لإسعافِ السيِّدَةِ فاطمةَ، وبقيَ معها إلى الصباحِ، وهمْ مُحيطونَ ببابِ دارِهِ.

في هذه الأثناءِ كانتْ قد دخَلتْ إلى المدينةِ ليلةَ الثلاثاءِ بعد دَفنِ النبيِّ مباشرةً آلافٌ منَ المقاتلينَ، منْ قبائلِ النِفاقِ التي كانتْ حولَ المدينةِ، ولا سيَّما قبيلَةُ أسْلَمَ، فقويَ بهمْ جانِبُ أبي بكرٍ، وأيقنَ عمرُ بالنصرِ، واختبأَ المؤمنونَ في بيوتِهِمْ، وهمْ قِلَّةٌ قليلةٌ جداً، وصارَ عمرُ وجماعةٌ معهُ يدورونَ على البيوتِ، ويبحثونَ عنْ كلِّ مَنْ لم يُبايعْ أبا بكرٍ، والناسُ يدلّونَهمْ عليهِمْ، فيقولونَ لهمْ: في هذا البيتِ يوجدُ اثنانِ، وفي ذاكَ يوجدُ ثلاثةٌ، أو واحدٌ أو أكثرُ، فيقتَحِمونَ عليهمُ البيوتَ، ويُخرِجونَهمْ بالقوّةِ، ويسحبونَهمْ إلى المسجدِ للبيعَةِ. لم يكنْ معَ عليٍّ في بيتهِ مَنْ يصولُ بهِ على المهاجِمينَ، أو مَنْ ينتصِرُ بهِ. ولو أنّهُ أبدى أدنى مقاومةٍ لهمْ، لم يبقَ مؤمنٌ في المدينةِ على قيدِ الحياةِ، لأنّ الطُرقَ كانتْ مليئةً بالمقاتلينَ، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُظهِرَ رأسَهُ منها، فَضْلاً عنْ أنْ يتمكَّنَ منَ الالتحاقِ بعليٍّ لنُصرتهِ، أو ليقاتِلَ معهُ.

كانَ الزبيرُ قد تسَلَّلَ في هذه الفتْرةِ إلى داخلِ بيتِ عليٍّ وفاطمةَ ليُعلِنَ لعليٍّ أنّهُ معهُ. ثمّ جاءَ عمرُ، وخالدٌ، وأسيدٌ بنُ حضيرٍ، ومعاذٌ بنُ جبلٍ، وثابتٌ بنُ قيسٍ بنِ شمّاسٍ الخزرجيِّ، وسلامَةُ بنُ وقْشٍ، وقُنفُذٌ، والمغيرةُ في عصابةٍ آخرينَ مرّةً أخرى إلى بيتِ فاطمةَ وعليٍّ. وجاؤوا بالحطَبِ، وأضرموا النارَ ببابِ فاطمةَ . فخرجَ الزبيرُ إليهمْ في تلكَ اللحظةِ، فأخذوا سيفَهُ فضربوا بهِ حجرًا فكسَروهُ. ثمّ اقتحموا البيتَ على عليٍّ ، وحاولَتْ زوجتُهُ أنْ تدفعَهمْ

مرّةً أخرى، فضربوها، ودخلوا وأخرجوا عليًّا مُلَبَّباً ، لكي يبايعَ، فخرجَتْ خلفَهُ، فضـربوها ثانيةً، وأرجعها سلْمانُ إلى البيتِ بأمرٍ منْ عليٍّ. وعندما بايعَ عليٌّ مكرهاً، تُركوهُ، فعادَ إلى البيتِ. وبعد ثمانيةَ أيامٍ أُخِذَتْ منْ فاطمةَ أرضُ فَدَكَ، وتعرَّضَتْ للضربِ مرّةً أخرى!(٤٨٥)

الحقيقةُ المؤلمةُ هي أنّ العربَ كرهَتْ أمرَ محمدٍ، وحسدَتْهُ على ما آتاهُ اللهُ منْ فضْلهِ، فمكروا بهِ وحاولوا قتلَهُ وآذوهُ وآذوا أهلَ بيتهِ، بالرغمِ منْ عظيمِ إحسانِهِ إليهمْ، وجَسيمِ مِنَنهِ عليهمْ، فأجمعَتْ العربُ مذْ كانَ حيّاً على صَرْفِ الأمرِ عنْ أهلِ بيتهِ بعد موتهِ. ولولا أنّ قريشاً جعلَتْ اسمَهُ ذريعَةً إلى الرياسَةِ، وسُلّماً إلى العزِّ والإمرَةِ، لَمَا عبدَتِ اللهَ بعد موتهِ يوماً واحداً، ولارتَدَّتْ إلى جاهليتِها.(٤٨٦)

الخاتِمَةُ

كانَ النبيُّ محمدٌ، كما وصفَهُ مَنْ عاشرَهُ؛ أكثرَ الناسِ تبسَّماً، وكانَ عنْ طعامِهِ لا يرُدُّ أحداً، كانتْ لهُ حصيرَةٌ ينامُ عليها في الليلِ، ويبسطُها في النهارِ ليجلسَ عليها، ولكنّهُ كانَ يعطي كلَّ ما يصلُ إليهِ، عطاءَ مَنْ لا يخشى الفقرَ، كما وصفَهُ أعرابيٌّ. وليس معنى هذا أنّهُ كانَ يحبُّ الفقرَ، ويرضى بهِ، كلّا، بلْ كانَ يستَعيذُ منهُ، ويقولُ: اللهمَّ إنّي أعوذُ بكَ منَ الفقرِ والقِلّةِ والذِلّةِ ... ولكنْ ما دامَ يعيشُ في مجتمعٍ فيهِ فقراءَ، فخيرُ الأنظمَةِ، هو النظامُ الذي يجعلُ الحاكِمَ في جانِبِ الفقراءِ ويساوي بينَهُ وبينَهمْ في المأكَلِ والمسْكَنِ والملبَسِ.

أنذرَ النبيُّ أوّلَ مَنْ أنذرَ عشيرتَهُ الأقرَبينَ، وذلكَ حينَ أمَرَهُ اللهُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٤٨٧)، وقالَ لهمْ فيما قالَ: «فأيُّكُمْ يُوازِرُني على هذا الأمرِ، على أنْ يكونَ أخي ووصِيّي وخليفَتيْ فيكُمْ». فأحجموا جميعاً إلاّ عليًّا بنَ أبي طالبٍ قالَ: أنا يا نبيَّ اللهِ. فأخذَ

---

١ أي أخذين بتلابيبه، أمسكوه متمكّنيناً منهُ.

برقبَتِهِ، و قالَ: هذا أخي ووصيِّيْ وخليفَتيْ فيكمْ، فاسْمَعوا لهُ وأطيعوا. فقامَ القومُ يضحَكونَ ويقولونَ لأبي طالبٍ: قد أمرَكَ أنْ تسمَعَ لابنِكَ وتطيعَ .

ثمّ دعا محمدٌ قومَهُ العربَ، ثمّ كُلَّ مَنْ بَلَّغَهُ الدعوةَ منَ الأوّلينَ والآخرينَ، وبهذا شَهِدَ اللهُ :﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(٤٨٨). أمّا غيرُهُ منَ الأنبياءِ فقد أُرسِلَ إلى قومِهِ، أو أهلِ زمانِهِ، فَنُوحٌ وإبراهيمُ وهودٌ وصالحٌ وموسى وغيرُهمْ يخاطبونَ الذينَ يدعونَهمْ إلى الإيمانِ ب (يا قومُ). أمّا محمدٌ فقد خاطَبَ جميعَ الناسِ على اختلافِ أعراقِهِمْ ولُغاتِهِمْ في كلِّ مِصْرٍ وعَصْرٍ، فكتَبَ إلى ملوكِ الأرضِ، وفي طليعَتِهِمْ كسرى وقَيْصرَ، وأرسلَ إليهِمْ رُسلَهُ يدعوهُمْ إلى الإيمانِ برسالتِهِ ويقولُ ما أمرَهُ اللهُ بهِ:﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾(٤٨٩).

إنّ محمداً بَشَرٌ، ومَنْ وصفَهُ بشيءٍ منْ صِفاتِ الخالقِ الرازقِ فقد غالى فيهِ وكفرَ باللهِ، ولكنْ ليس كلُّ البشَرِ كَمُحَمَّدٍ. فَسِرُّ عظَمتهِ يكمُنُ في أنّهُ كانَ يحملُ همومَ الناسِ جميعاً، ولا يُكلّفُ قريباً أو بعيداً بشيءٍ منْ هُمومِهِ، كانَ يمشي معَ الأرمَلَةِ والمسكينِ، فيقضي حاجَتَهما، ولا يحولُ دونَ مقابَلَتِهِ حاجِبٌ، وما منْ أحدٍ صديقاً كانَ أو عدوّاً إلاّ ويجدُ عندَهُ الاهتمامَ بهِ، والعطْفَ عليهِ، والرعايَةَ لهُ. فقالَ اللهُ عنهُ: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾(٤٩٠). ومعنى هذا أنّ عَطْفَهُ واهتمامَهُ ليس وقْفاً على عشيرَتِهِ الأقرَبينَ، ولا أتباعِهِ الموالِينَ، بلْ هي مُباحَةٌ للناسِ أجمَعينَ أعداءً وأولِياءَ.

جرَحوهُ وشَجّوا وجهَهُ، فقالَ: اللهمَّ اهدِ قَوميْ إنهمْ لا يعلمونَ ... فلم يكتفِ أنْ سألَ اللهَ لهمُ الهدايَةَ، حتى اعتذَرَ عنهمْ بالجهلِ وعَدَمِ العِلمِ. ولا غَرابَةَ إذا لم يغضَبْ محمدٌ لنفسهِ، و لم يحتَجزْ لها شيئاً منْ أعراضِ الدنيا، وإنَّما الغريبُ أنْ يغضَبَ لها ويحتجزَ. إنّ هذا الخُلُقَ هو حَتْمٌ وفَرضٌ لِمَنْ بُعِثَ لِيُتِمّمَ مكارمَ الأخلاقِ، ودعا الناسَ، كلَّ الناسِ، لتَصديِقِهِ والإيمانِ برسالتِهِ، ولا معنى لتصديقِهِ إلاّ تصديقَ العدلِ والإحسانِ، ولا للإيمانِ بهِ إلاّ الإيمانَ بالحقِّ والإنسانيّةِ، لا بشخصِهِ وذاتِهِ.

ناداهُ يوماً رجلٌ وقالَ: يا سيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا، وخيرَنا وابنَ خيرِنا .. فقالَ: لا يستَهوِيَنَّكُمُ الشيطانُ ... أنا محمدٌ عبدُ اللهِ ورسولُهُ ... واللهِ ما أحبُّ أنْ ترفعوني فوقَ منزِلَتيْ... وكانَ أصحابُهُ إذا رأوهُ قادماً لم يقوموا لهُ، وهو أحبُّ الناسِ إليهِمْ، لأنّهمْ يعرفونَ كراهيّتَهُ لقيامِهِمْ، وكانَ يكرهُ أنْ يمشيَ أصحابُهُ وراءَهُ، ويأخذَ بيدِ مَنْ يفعلُ ذلكَ، فيدفعُهُ إلى السيرِ بجانِبِهِ. هذه هي أخلاقُ محمدٍ، وليس كلُّ الناسِ كمحمدٍ، ما في ذلكَ رَيْبٌ، ولكنّ أخلاقَهُ تعبيرٌ وانعكاسٌ عنْ حقيقَةِ الإسلامِ.

لقد رحلَ رسولُ اللهِ عنّا جَسَداً ولكنّهُ ما زالَ حاضراً روحاً وتشريعاً ورسالةً، تاركاً خلفَهُ ميراثاً ضَخْماً غيَّرَ مسارَ البشريَّةِ إلى الأبدِ وغيَّرَ نظْرةَ الناسِ للحياةِ وأعادَ ما نُسيَ منْ تعاليمِ الأنبياءِ السابقينَ، هذا الميراثُ مُتَمثِّلٌ بالقرآنِ والسُنَّةِ النبويَّةْ.(٤٩١)

المحتويات

الحواشي

١: سنن الترمذي , أبو عيسى التِّرْمِذِي ٣٧٨٨.

٢: سورة النساء، الآية ١٧٤ .

٣: تفسير العياشي ,محمد بن مسعود العياشي ,مؤسسة البعثة ,الطبعة الاولى ,ج ,١ص .٣١١/١١٥٣ ,٤٥٧ تفسير القمي ,علي بن أبراهيم القمي ,مؤسسة الإمام المهدي ,الطبعة الاولى ,ج , ١ ص ٢٣٤ .

٤: Quranic Arabic, Marijn van Putten, ISBN ٩٧٨-٩٠-٠٤-٥٠٦٢٤-٤, ٢٠٢٢, ch ٨, p ٢١٧.

٥: سورة الحجر ,الآية ٩ .

٦: Quranic Arabic,Marijn van Putten, ISBN ٩٧٨-٩٠-٠٤-٥٠٦٢٤-٤, ٢٠٢٢, ch.١ , p ٨,٩.

٧: Cook, Muhammad, ٧٠.

٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم،جعفر مرتضى العاملي،دار الحديث للطباعة والنشر، ج١ ، ص ١١ .

٩: Doctrina Iacobi, ٢٠٨–٢١٠, v.١٦.

١٠: Fragment on the Arab Conquests, ١١. ٨-١١, ١٤-١٦, ١٧-٢٣.

١١: Wright, Catalogue, ١,٦٥ (no. ٩٤); Noldeke, "Zur Geschichte der Araber," ٧٦.

١٢: J. Walker, A Catalogue Of The Muhammadan Coins In The British Museum, ١٩٤١, Volume I - Arab-Sassanian Coins, British Museum: London, p. ٩٧..

١٣: Watt, Muhammad at Mecca, ١٠٣.

١٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ٢٠١ .

١٥: Crone and Cook, Hagarism, esp. ٣–٣٤.

١٦: I. Goldziher, Muhammedanische Studien (Halle, ١٩٩٠), ٢,٥.

١٧: In particular see H. Lammens,‘Qoran et tradition: Comment fut composé la vie de Mahomet’,Recherches de science religieuse, ١ (١٩١٠): ٢٧–٥١. The term ‘packets of historical truth’ is found in his‘L’âge de Mahomet et la chronologie de la Sîra’, Journal asiatique, ١٧ (١٩١١): ٢٤٩.

١٨: P. Crone, Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, ١٩٨٧), ٢١٤ –١٥.

١٩:سورة قريش ١٠٦ :٤-١.

٢٠: Cook, Muhammad, ٧٢.

٢١: *Crone, Meccan Trade, 204–13, 210.*

٢٢: Serjeant, R. B.; Crone, Patricia (١٩٩٠). "Meccan Trade and the Rise of Islam Misconceptions and Flawed Polemics". Journal of the American Oriental Society. ١١٠ (٣) ٤٧٢. doi:١٠,٢٣٠٧/٦٠٣١٨٨. JSTOR ٦٠٣١٨٨.

٢٣: الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج٢٠، ص ٤٧٣-٤٨٠ .

٢٤: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج ٢٠، ص ٣٦٦ .

٢٥: راجع تفسير أوضح البيان للسيد عباس علي الموسوي .

٢٦: , Writing the Biography of the Prophet, Muhammad: Problems and Solutions, Robert Hoyland , :

٢٧: Watt, Muhammad at Medina, ٣٣٨;Watt, Muhammad at Mecca, xiii.

٢٨: The Origins of Muhammadan Jurisprudence, ١٩٥٠, p. ١٧١-١٧٩.

٢٩: Kurt Bangert: Muhammad: eine historisch-kritische Studie zur Entstehung des Islams und seines Propheten. Springer VS, Wiesbaden, ٢٠١٦. S. ١٤٧–١٥١..

٣٠: الشيعة في الميزان - محمد جواد مغنية- علم الحديث عند الامامية - الصفحة ٣١٧ .

٣١: فائِقُ المَقالِ فِي الحَديثِ والرِّجالِ، الشيخ مهذّب الدين أحمد البصري .

٣٢: الشيعة في الميزان - محمد جواد مغنية- علم الحديث عند الامامية - الصفحة ٣١٨-٣٢٠.

٣٣: سپهری، سیرت جاودانه، ۱۳۸۴ش، ج۱، ص۱۹ .

٣٤: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ١ ص ١٤٠ فما بعدها .

٣٥: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ١ ص ١٥٧ فما بعدها .

٣٦: راجع شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ١٧٤ .

٣٧: صحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩ : ج ٣ ص ١٣٣ .

٣٨: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ف١٢٠ ، ج١٥ ، ص ١١٤.

٣٩: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ف١١٤ ، ج١٤ ، ص ٢٣١.

٤٠: Goldziher: Was ist unter „Al-Ğâhilijja" zu verstehen? In: Goldziher: Muhammedanische Studien. Band ١. ١٨٨٩, S. ٢١٩–٢٢٨..

٤١: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج١ ، ف٢ ، ص ٤٠.

٤٢: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج١ ، ف٢ ، ص ٣٧.

٤٣: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج١ ، ف٢ ، ص ٣٨.

٤٤: Encydopaedia Britannica, ٩th edition, ١٨٨٣, Vol. ١٦, pp. ٥٤٦.

٤٥: ديوان امرئ القيس، امرؤ القيس، دار المعارف .

٤٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ٣٤-٣٥

٤٧: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج٧ ، ص ٩.

٤٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١٢٢.

٤٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ٣٨-٤٠ .

٥٠: أصنام الكتابات، جواد علي، دار الوراق، الطبعة الأولى٢٠٠٧ ص ١٠-١١

٥١: Inscription CIH ٥٤٣ .

٥٢: أصنام الكتابات، جواد علي، دار الوراق، الطبعة الأولى٢٠٠٧ ، ص ٣٩-٤٠ .

٥٣: Inscriptions of the Museum of Ẓafār ٥+٨+١٠ .

٥٤: Glaser ٥٥٤, ٤٠٦-٤١٠, Halevy ٦٣, CIH, Pars ٤, Tomus, I, Capt. I, ١ft. ٦. p. ٩ -١٥, n, ٥٣٧ - ٥٤٣, p. ٢٥٧ - ٣٠٠, CIH, ٦, ٤٥, ٥٣٧ - ٥٤٢, MM, Attsud., ١٩, Rep. Epig., ٣٩٠٤, ٤٠٦٩, ٤١٠٩, Stambul, ٧٦٠٨, Asmara, I, Le Museon, Ltl, p. ٥١..

٥٥: Margoliouth, The Relation Between Arabs and Israelttes Prior to The Rise of Islam, P. ٦٧..

٥٦: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج ,١١ ص٣٧-٣٨ .

٥٧: Ford، .. Clifford (٢٠٠١). Healey, Derek. Oxford Music Online. Oxford University Press

٥٨: كتاب الأصنام، شام الكلبي، ص٦ وما بعدها .

٥٩: سورة فصلت ٤١:٣٧ .

٦٠: سورة النجم٥٣: ١٩-٢٠

٦١: سورة نوح ٧١: ٢٣

٦٢:المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج١٢ ، فصل٧٥ ، ص . ٣٨

٦٣: Reste, S., J.A. Montgomry, Ascetic Strains in Eariy Judaism , JBL, vol, LI. ١٩٣٢, p. ٢٣٨.

٦٤: سورة البقرة ٢:١٣٥ .

٦٥: بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٥ - الصفحة ١٨٤ .

٦٦: ٢ ابن هشام" ١ /٢٤٤ وما بعدها"، ارشاد اساري" ٦ /١٩٠"، أسد الغابة" ٢ /٢٣٦"، طبقات الشعراء" ص ٦٦" "طبعة ليدن"، البداية والنهاية" ٢ /٢٣٧"، ابن خلدون، القسم الأول، المجلد الثاني" ص ٧٠٧"، المسعودي، مروج" ١ /٧٠" "محمد محيي الدين عبد الحميدي "الأغاني" ٣ /١١٣"، البخاري" ٥ /٥٠ "المعارف" ٢٧ .."

٦٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص٤٥-٤٦.

٦٨: راجع : الاحتجاج ، للطبرسي ج ٢ ص ٩١ ـ ٩٢ والبحار ط مؤسسة الوفاء ج ٧٨ ص ٨ .

٦٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص٣٩-٤٠ .

٧٠: DASI: Digital Archive for the Study of pre-islamic arabian -Ry ٥٠٦ Murayghān DASI Digital Archive for the Study of pre-islamic arabian - DAI Ja ٥٤٧+Ja ٥٤٦+Ja ٥٤٤+Ja ٥٤٥ Sadd Maʾrib

http://dasi.cnr.it/index.php?id=٩١&prjId=١&corId=٢٧&colId=٠&navId=٢٨١٩٢٧٩٧٢&recId=

ttp://dasi.cnr.it/index.php?id=٩١&prjId=١&corId=٢٧&colId=٠&navId=٦٣٨٤٤٠٤٠٤&recId=٢٤١٣

٧١: ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٢٨.

٧٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١١٥ .

٧٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١١٨ .

٧٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١١٩ .

٧٥: سيرة ابن هشام ٢ :١٩٠، وكذلك هو في ابن كثير ١ :٢٣٠ .

٧٦: سيرة مغلطاي ص ٦ ـ ٧ وتاريخ الخميس ج ١ ص ١٩٥ .

٧٧: وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي، ج ١٠، ص ٤٥٦، حديث ١٣٨٣٤ .

٧٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١٧٣ .

٧٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١٦٣-١٦٤.

٨٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١٤٨-١٤٩ .

٨١: الطبقات الكبير، أبن سعد، ج ١، ص .٩٢ النويري، ج١٦ ، ص ٨٦ .

٨٢: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص .١٠ تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٥٧٣ .

٨٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١٧٤ .

٨٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١٧٥ .

٨٥: مختصر تاريخ دمشق .١٦٢ ١٦١ / ٢ .

٨٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٢، ص ١٧٥ .

٨٧: مصنف الحافظ عبد الرزاق ج ٥ ص ٣١٨ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٤ .

٨٨: السيرة النبوية - ابن كثير، ج١ - الصفحة .٢٥٤-٢٥٦ .

٨٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص ٢٢٥ .

٩٠: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٤ ص ١٢٩ ، ونسب قريش لمصعب ص٣٨٣ ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩٣ .

٩١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص ٢٢٨-٢٢٩ .

٩٢: الإصابة في تمييز الصحابة ج ٤ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ والبداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩٤ وتاريخ الإسلام للذهبي ج ٢ الترجمة النبوية ص ١٥٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٦٤ .

٩٣: البحار ج ١٦ ص ٢٢ عن البكري وص ٣ عن الخرائج والجرائح ص ١٨٦ و ١٨٧ .

٩٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص ١٩٢ .

٩٥: كشف الغمة ج ٢ ص ١٣٩ ، والبحار ج ١٦ ص ١٢ والواقدي ص ١٩ .

٩٦: الكافي ج ٥ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ، والبحار ج ١٦ ص ١٤ عنه وص ١٦ عمن لا يحضره الفقيه ص ٤١٣ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٣٩.

٩٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص ٢٠٠ .

٩٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص ١٩٢ .

٩٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص ٢٠٩ .

١٠٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص ١٠٧ .

١٠١: تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، ص ١٤٦-١٤٧ .

١٠٢: البلاذري ٨٤/١ .

١٠٣: تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، ص ١٤٩-١٥٠ .

١٠٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص ٢٤٩ .

١٠٥: مناقب آل أبي طالب ج ٢ص١٨٠، الصحيح من سيرة الإمام علي، جعفر مرتضى العاملي، ج٠١، ص١٢٧-١٢٨ .

١٠٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص٢٥٩-٢٦٤ .

١٠٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص٢٩٩-٣٠٠ .

١٠٨: تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، ص ١٧٨-١٧٩ .

١٠٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢ ، ص٢٨٩-٢٩٠ .

١١٠: سورة العلق ٩٦: ١-٥ .

١١١: Nöldeke, I, S. ٥.

١١٢: مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٤ ، والتمهيد ج ١ ص ٥٠ عنه .

١١٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ١٣-٤٠ ..

١١٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٤٣-٥٢ .

١١٥: سورة البقرة ١١٩:٢ .

١١٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ٦٦-٧٦.

١١٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ٧٩-٨٥ .

١١٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ٧٥-٧٨.

١١٩: سورة الشعراء ٢٦ :٢١٤.

١٢٠: إبن الأثير، فقه السيرة ص٧٧ ، ٧٨ .

:١٢١الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص١٥٢-١٩٦ .

١٢٢: سورة الحجر .١٥:٩٤-٩٥

١٢٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ٧٣-٧٤.

١٢٤: راجع : تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٣٤ عن تفسير القمي .

١٢٥: السيرة النبوية، ابن هشام، ج ١، الصفحة ١٩١ .

١٢٦:سورة الاسراء ١٧ :٩٠-٩٥

١٢٧: الكافي : ج ١ ص ٤٤٩ نشر مكتبة الصدوق ، ومنية الراغب : ص ٧٥ .وراجع : الغدير : ج ٧ ص ٣٥٩ و ٣٨٨ وج ٨ ص .

١٢٨: إمتاعالأسماع ج١٤،ص:٣٣١-٣٣٢، أنساب الأشراف، ج١، ص ٣١ .

١٢٩: مجمع البيان، الطبرسي، ج٧ ، ص ٢١١ .

١٣٠:سورة الفرقان :الآية .٢٧ .

١٣١: السيرة النبوية، ابن هشام، ج١ ، الصفحة ١٩٥ .

١٣٢: انساب الاشراف،البلاذري، الجزء١ ، صفحة ١٤٠ .

١٣٣: سورة الأعراف :الآية .١٨٥.

١٣٤: صورة المسد ١١١ :١-٥

١٣٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ٢٠٠-٢٠١ ..

١٣٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ٩٢.

١٣٧: تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، ج ٢ ، الصفحة ٣ .

١٣٨: هداية الرواة، أبن حجر العسقلاني، الرقم٥٨٦٣ : ، بحار الأنوار ، العلامة المجلسي ، ج ٨١،الصفحة ١٥١، صحيفة الرضا ، مؤسسة الإمام المهدي، الصفحة ٢٢٧، رقم ١١٥ .

١٣٩: الأمالي، الشيخ الصدوق، الصفحة ٥٣٤، ٢ / ٧٢٠ .

١٤٠: تفسير فرات الكوفي، فرات بن ابراهيم ، الجزء١ ، صفحة ٢٠٨ .

١٤١: التوحيد - الشيخ الصدوق - الصفحة ٢٦٣ .

١٤٢: تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي - ج ٢ - الصفحة ٢٤٣ .

١٤٣: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٢٨٦.

١٤٤: بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٨ - الصفحة ٣٧٣ .

١٤٥: بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٨ - الصفحة ٣٧٤ .

١٤٦: سورة البقرة ٢ : ٢٨٥-٢٨٦

١٤٧: البرهان في تفسير القرآن، البحراني،الجزء٤ ، صفحة٦٤١ ، [٣] /٩٠٦٨ .

١٤٨: علل الشرائع ١٤ .

١٤٩: وسائل الشيعة، الحر العاملي - ج ٥ - الصفحة ٣٦٩ .

١٥٠: علل الشرائع ٥٥ .

١٥١: تفسير العياشي - محمد بن مسعود العياشي - ج ٢ - الصفحة ٢٧٩، البرهان ج ٢ :٤٠١ .البحار ج ٦ :٣٩٢ .

١٥٢: الأمالي - الشيخ الصدوق - الصفحة ٥٣٣ .

١٥٣: تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي ،جزء ٥ ، صفحه ١٥٥ .

١٥٤: سورة النجم ٥٣ :١-١٨
١٥٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ١٢٤-١٢٥ .
١٥٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص١٠٦-١٠٧.
١٥٧: سبل الهدى والرشاد - الصالحي الشامي - ج ٥ - الصفحة ٢٤٤ .
١٥٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٢٠١-٢٠٢.
١٥٩: بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٣٥ - الصفحة ٨٧، دلائل النبوة للبيهقي، أبو بكر البيهقي، ج٢، ص ١٨٨ .
١٦٠: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٦ ، والبدء والتاريخ ج ٤ ص ١٤٧ و ١٤٩ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٥ ـ ٦٨ .
١٦١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٢٠٤-٢٠٦ .
١٦٢: سورة النحل ١٦: ١٠١-١٠٣
١٦٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٢٠٧-٢٠٨.
١٦٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ٢٠٩.
١٦٥: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ٣/٦٤٨ .
١٦٦: أسد الغابة - ابن الأثير - ج ٤ - الصفحة ٤٤ .
١٦٧: تفسير الميزان عن الدر المنثور -السيد الطباطبائي - ج ١٢ - الصفحة ٣٥٧ .
١٦٨: البغوي :معالم التنزيل٥/٣١٦ ، ابن الجوزي :زاد المسير في علم التفسير٤/٤٩٨ ، والرازي :مفاتيح الغيب٣٢/٣٢٠ ، وابن كثير :تفسير القرآن العظيم، ٨/٥٠٤ .
١٦٩: صحيح البخاري - الجزء - ٤ الصفحة ٢١ ، أعلام الورى :ص .١٥٠ البحار :ج٤٣ ، ص ٤٠ .
١٧٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٢٤١-٢٤٦.
١٧١: البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٣ ، والبحار ج ١٨ ص ٤١٨ ، وإعلام الورى ص ٤٥-٤٦ عن قصص الأنبياء .
١٧٢: سورة مريم ١٩: ١٦-٢١
١٧٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٢٤٢-٢٥٦.
١٧٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص ٢٥٨ .
١٧٥: سورة الروم ٣٠: ١-٥
١٧٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٢٧٧-٢٨٠.
١٧٧: إعلام الورى ٤٩ و ٥٠ وتلميذه الراوندي في قصص الأنبياء ٣٢٩ .
١٧٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٣٢٧-٣٣٠.
١٧٩: ديوان أبي طالب٤١ ، ذكره ابن أبي الحديد نقلا عن الأمالي ٣١٠ : ٣ .
١٨٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٣٣٥-٣٤٦.
١٨١: سورة القمر ٥٤ : ١-٢
١٨٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٣٤٦-٣٤٨.
١٨٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٣٥١-٣٥٢ .
١٨٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٣ ، ص٣٥٨-٣٥٩.
١٨٥: سيرة أبن هشام، ج١،ص٢٤٥، غاية المطالب، ص١٠٠ ، دلائل الإعجاز ص ٤٠ و٤١ ، الجوهرة في نسب النبي ج١، ص ٢٥٢، أعيان الشيعة ج٨ ، ص ١٢١ .
١٨٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص٧٣-٨١.
١٨٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص ٨٥ .

١٨٨: الطبراني ، الدعاء ص ٣١٥/واللفظ له وعزاه بعض أهل العلم إلى " المعجم الكبير " للطبراني، الضياء المقدسي ، المختار ٩/١٧٩،ابن عدي، الكامل،٦/١١١، ابن عساكر٤٩/١٥٢ ، لخطيب البغدادي ، لجامع لأخلاق الراوي ، (٢/٢٧٥) .

١٨٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص٨٧-٩٠.

١٩٠: سورة الانعام ٦: ١٥١-١٥٢

١٩١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص٩١-٩٣.

١٩٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص١٢١-١٢٢.

١٩٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص١٢٧-١٣٢ .

١٩٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص١٣٣ - ١٤٧.

١٩٥: تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٦٨ والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٥ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٢١ و ٣٢٢ .

١٩٦: سورة الأنفال ٨ :٣٠.

١٩٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص١٧٩-١٨٠.

١٩٨: سورة يس ٣٦ :٩

١٩٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص٢١٣-٢١٥.

٢٠٠: سورة البقرة ٢ :٢٠٧

٢٠١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص١٨١-١٨٦.

٢٠٢: تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي - ج ١ - الصفحة ٢٧٦ .

٢٠٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص١٨٧-١٨٨.

٢٠٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص١٩٤-١٩٦.

٢٠٥: سورة التوبة ٩ :٤٠

٢٠٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص٢٠١-٢١٣.

٢٠٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص٢٧٣-٢٧٦.

٢٠٨: سورة آل عمرآن ٣: ١٩١-١٩٥.

٢٠٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص٢٧٦-٢٧٩ .

٢١٠: سورة العنكبوت ٢٩: ١٠

٢١١: راجع تفسير الامثل للشيخ ناصر الشيرازي، تفسير الميزان للسيد الطبطبائي .

٢١٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ٢٨٦-٢٩٣.

٢١٣: مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ١٠ ، ص ١٠

٢١٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤ ، ص٣٣٥-٣٣٦.

٢١٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٧٧-٩٥ .

٢١٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٩-١١.

٢١٧: الإصابة، إبن حجر، ج٣ ، ص .١١٩

٢١٨: سلمان الفارسي، جعفر مرتضى العاملي، ص ١٩ عن تاريخ الخميس، ج١، ص .٣٥١

٢١٩: سلمان الفارسي، جعفر مرتضى العاملي، ص ٢٠ عن الاصابة ج ٢ص٦٢ ، قاموس الرجال ج٤ ، راجع أيضا الإستيعاب وأسد الغابة، البحار ج ٢٢ ونفس الرحمان والمصنف لعبد الرزاق ج ٨ ص ٤١٨ و تاريخ الخميس ..

٢٢٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٩٩-١٢٣ .

٢٢١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص١٢٧-١٤٤.

٢٢٢: The Israeli Democracy Index ٢٠١٣, Tamar Hermann,Ella Heller, Nir Atmor, Yuval Lebel, https://en.idi.org.il/media/٣٩٥٨/democracy-index-english-٢٠١٣.pdf, p. ٧٢-٧٤ , موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - د.عبد الوهاب المسيري المجلد الخامس - الجزء الثانى - الباب الثانى .

٢٢٣: همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد، صـ ٨٨ -٥٤ نقلا عن August Rohling , Der Talmudjude,١٨٧١.

٢٢٤: إعلام الورى ص ٦٩ ، والبحار ج ١٩ ص ١١٠ و ١١١ عنه ، والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٧٥ ..

٢٢٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢١٠-٢٢٠ .

٢٢٦: السيرة النبوية لابن هشام، المطبعة الخيرية، الطبعة الأولى، ج٢ ، ص ١٩٠.

٢٢٧: صحيح البخاري - الحديث ٣٧٠٣ .

٢٢٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢٢٣-٢٣٨ .

٢٢٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢٢٧-٢٢٨ .

٢٣٠: سورة البقرة ٢: ٢١٧.

٢٣١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص ٢٦٩.

٢٣٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٨، ص ١٢-٣٢ .

٢٣٣: سوره البقرة ٢: ١٤٤.

٢٣٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٦، ص ٢٨٥-٢٨٨.

٢٣٥: تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي - ج ٧ - الصفحة ١٥٦ .

٢٣٦: سورة الحج ٢٢: ٣٩-٤٠.

٢٣٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢٧٠-٢٧١ .

٢٣٨: سورة الأنفال ٨ :٥-٦.

٢٣٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢٧٥-٢٧٨ .

٢٤٠:سيرة ابن هشام، ج١، ص ٦١٩ .

٢٤١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢٨٠-٢٨١.

٢٤٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢٩٦-٢٩٧ .

٢٤٣: السيرة النبوية - ابن كثير - ج ٢ - الصفحة ٣٩٨ .

٢٤٤: سورة المائدة ٥: ٢٤.

٢٤٥: سورة الانفال ٨ :٧.

٢٤٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢٨٢-٢٩٣ .

٢٤٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٢٩٤-٢٩٧ .

٢٤٨: سورة الأنفال ٨: ١١.

٢٤٩: سورة الانفال ٨ :٩.

٢٥٠: سيرة ابن هشام، ٢٦٦ /٢ ، معرفة الصحابة) ق (١ /٣٠٣ ، ابن الأثير في أسد الغابة ، (٣٣٢/ ٢) .

٢٥١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٣٠٢-٣٠٣ .

٢٥٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٣١٠-٣١٣ .

٢٥٣: الإصابة في تمييز الصحابة، ٥٣٩١ .

٢٥٤: سورة الأحزاب ٣٣: ٢٣، شواهد التنزيل - الحاكم الحسكاني - ج ٢ - الصفحة ٥، تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي - ج ٨ - الصفحة ١٤٥ .

٢٥٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص ٣١٧.
٢٥٦: سورة الأنفال٨ :١٧، راجع تفسير الامثل، سورة الانفال .
٢٥٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص ٣٤٠.
٢٥٨: سورة الأنفال ٨: ٤٣-٤٤ .
٢٥٩: سورة الأنفال ٨ :٤٨، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص ٣٢٠.
٢٦٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص٣٢٣-٣٢٩ .
٢٦١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥ ، ص ٣٣٠وما بعدها .
٢٦٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٢٢-٢٦ .
٢٦٣: سورة الأنفال ٨ :٦٧.
٢٦٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٢٨-٤٢.
٢٦٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٦٧-٦٨ .
٢٦٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٤٩-٥٠ .
٢٦٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص ٧٨.
٢٦٨: المستدرك، الحاكم ، ج٣ ، ص٢٤ ، ح ٤٣٠٥ .
٢٦٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٤٢-٤٨ .
٢٧٠: سورة الأنفال ٨: ٧٠.
٢٧١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٥٥-٥٦.
٢٧٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٦٦-٦٧.
٢٧٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢.
٢٧٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٦٨-٧٠ .
٢٧٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٦،ص١٨٨-١٩٥ .
٢٧٦: سورة الأحزاب٣٣ :٣٣.
٢٧٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٦، ص٢٩٢-٢٩٣.
٢٧٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٧، ص ٧-١٩.
٢٧٩: سورة المائدة ٥ :٥٢ .
٢٨٠: سورة آل عمران ٢ : ١٢-١٣.
٢٨١: سورة الأنفال ٨ :٥٨.
٢٨٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٧، ص ٣٢-٣٩ .
٢٨٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٧، ص٥١-٥٢.
٢٨٤: سنن النسائي ، كتاب النكاح تحلة الخلوة حديث رقم . ٣٣٧٥ .
٢٨٥: الحاكم في المستدرك٢/١٦٧ ، الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢٠٤ .
٢٨٦: عيون أخبار الرضا - الشيخ الصدوق - ج ٢ - الصفحة ٢٠٣ .
٢٨٧: الشيخ الطوسي، الأمالي، مصدر سابق، ص ٤٠-٤١.
٢٨٨: الجاحظ - العثمانية - رقم الصفحة .٢٩٩ / ٢٨٩.
٢٨٩: سورة النساء ٤: ١٥٣، التبيان، الطوسي، ج٣ ، ص ٣٧٥ .
٢٩٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٦ ، ص٣٤٢،٣٤٧، ٣٥٠.

٢٩١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٧،٧ ،١٠، ١١و ج٨، ص٢٨٩ ،٢٩٤،٢٩٠ ، ج٣٨،٩ ،٧١ ، ٨٦،٨١ ، ١١٥ .

٢٩٢: سورة الحجر ١٥ :٢-٤ .

٢٩٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٥٣،٩ ، ٥٤، الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٥٧ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ٤٢٥ والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ٢٦٠ وزاد المعاد ج ٢ ص ٧١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٦٣ وعمدة القاري ج ١٧ ص ١٢٥ ..

٢٩٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٨٣،٩ ،١٢٠ ،١٢١ ،١٢٦ ،١٢٨ ،١٤٠ ،١٥٩ ، ١٦٠ .

٢٩٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٤٠،٩ ،١٦٣ ، ١٦١ .

٢٩٦: سورة الحشر ٥٩ :٥.

٢٩٧: سورة الحشر ٥٩ :٩ .

٢٩٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢٣٥،٩ ،٢١٧ ،٢١١ ،٢١٣،٢١٢، ٢٥٢-٢٤٨ .

٢٩٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٦، ص ١٩٨-١٩٥.

٣٠٠: الكافي - الشيخ الكليني - ج ٥ - الصفحة ٣٣٩ .

٣٠١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٦، ص٢٩٧-٣٠٥.

٣٠٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٦، ص٢٠٩-٢١١.

٣٠٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٦، ص٣٢٩-٣٣٠.

٣٠٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٧، ص٥٢ ،٥٣ ، ٥٥ .

٣٠٥: الفايق في غريب الحديث للزمخشري ج .١ :١٧٧ .

٣٠٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٧، ص٦٣ ،٦٤ ،٦٥ ،٦٦ ،٧٥ ،٩٠ ،١٠٦ ، ١٠٧ .

٣٠٧: سورة آل عمران ٢: ١٦٦-١٦٧.

٣٠٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٧، ص ١٠٧ .

٣٠٩: سورة آل عمران٢ :١٢٢.

٣١٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٧، ص ١٢٣ ،١٣٠-١٣٢ ،١٥١ ، ١٤٥-١٤٦.

٣١١: سورة آل عمران ٢ :١٥٢.

٣١٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٧، ص ١٤٨، ١٥١-١٥٣.

٣١٣: سورة آل عمران ٢ :١٥٣.

٣١٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٧، ص١٤٧-١٤٩ ،١٩٧-١٩٨ ،٢٠٢-٢٠٤ ،٢٠٠ ،-٢٢٤ ٢٢٩،٢٢٣ ،٢٥٥ ،٢٢٦-٢٢٧ ، ٢٦٢ .

٣١٥: السيرة النبوية لا بن هشام، ج٣ ، ص ٩٤ .

٣١٦: رواه الإمام أحمد١٥٤٩٢ ، والبخاري في الأدب المفرد٦٩٩ ، وصححه الحاكم ٤٣٠٨ والألباني .

٣١٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٧ ، ص ٢٥٩، ٢٩٩-٣٠٠ .

٣١٨: سورة آل عمران ٢: ١٥٩-١٦٠.

٣١٩: سورة آل عمران ٢ :١٦٨.

٣٢٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٧ ، ص ٣٠٢-٣٠٣.

٣٢١: سورة آل عمران ٢: ١٤٠ .

٣٢٢: سورة آل عمران ٢: ١٦٦-١٦٧.

٣٢٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٧ ، ص ٣١٨-٣٢٠ .

٣٢٤: سورة آل عمران ٢ : ١٣٩، راجع : مجمع البيان ج ٢ ص ٥٠٩ ، والبحار ج ٢٠ ص ٢٢ .

٣٢٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٧،ص ٣١٤، ٣١٧،٣١٨، ٣١٩،٣٢٠، ٣٢٥ .

٣٢٦: سورة آل عمران ٢ :١٧٢، ١٧٣، ١٧٥.

٣٢٧: سورة آل عمران ٢: ١٧٤ .

٣٢٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٧،ص ٣٢٣.

٣٢٩: لصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٧،ص٣٥-٦٠ .

٣٣٠: وسائل الشيعة ٣١٣ / ١٠ : ، حديث رقم ١٣٤٩٤ ، للشيخ الحُر العاملي .

٣٣١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٨ ،ص٦٩-٧٨.

٣٣٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ١٠،ص٧٧-١٠٤.

٣٣٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٠، ص١٣٩ ،١٤٠، ١٤٣، ١٩٢، ١٩٣، ٢١٩، ٢٢٢، ، ٢٥٨ .

٣٣٤: سورة الأحزاب ٣٣ :١٢ .

٣٣٥: سورة الحجرات ٤٩ :١٧ .

٣٣٦: سورة الأحزاب ٣٣: ٢٢.

٣٣٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٠، ص٢٤٦-٢٤٧ ،٢٦٧-٢٧٠ ، ٢٠٨-٢٠٩ ، ٢٣٦،٣١١-٣١٩، ٣٠٧-٣٠٨ ج١١، ص٦٩-٧٠ ،٨٠-٨١ ، ١١.

٣٣٨: سورة الأحزاب ٣٣: ١٠-١١ .

٣٣٩: سورة الأحزاب ٣٣: ١٢-١٩.

٣٤٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١١، ص١١٣ ،١٩، ١٥.

٣٤١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١١، ص١١٤ ،١٢٠ ،١٢٥، ١٢٣،١٣٢ ،١٤٤، ١٤٨-١٤٩، ٢٠٢،٢١٠ ، ٢١٥ ، سورة الأحزاب٣٣: ٩ .

٣٤٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١١، ص٢١٧ ،٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣ ، ٢٠ .

٣٤٣: سورة الأحزاب ٣٣: ٢٠.

٣٤٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١١، ص ٢٤٣-٢٤٥ .

٣٤٥: ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦١ وابن كثير :السيرة النبوية٣٢٢ /٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية .٥٠٣ /١

٣٤٦: راجع تفسير الرازي في سورة الأنفال٨: ٥٥-٥٦ عن إبن عباس .

٣٤٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١١، ص ٢٥٩ .

٣٤٨: سورة الأنفال ٨ :٥٥-٥٨.

٣٤٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١١، ص٣١٢ ،٢٧٨-٣٠٢، ١٥٧، ٢٦٠ ، ٥٠-٧١ .

٣٥٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٢، ص٣٠ ،٦٦ ، ٨٢-٨٥ .

٣٥١: كتاب الأموال، أبن زنجويه، ص٢٩٩ ، ح ٤٦١ .

٣٥٢: سورةالأحزاب ٣٣ :٢٦-٢٧.

٣٥٣: https://www.antislavery.org/slavery-today/modern- ,
slavery/https://en.wikipedia.org/wiki/Slavery_in_the_٢١st_century,

٣٥٤: حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ٣٨٦-٣٨٧ .

٣٥٥: صحيح – البخاري،كتاب الإيمان، برقم٣٠ ، مسلم، كتاب الإيمان والنذور، باب :إطعام المملوك مما يأكل، رقم ١٦٦١ .

٣٥٦: صحيح - أبو داود ، باب حق المملوك، ح (٤٤٩٢) .
٣٥٧: صحيح - أبو داود ،حديث ٥١٥٦ ، أحمد،حديث ٥٨٥ .
٣٥٨: سورة النساء ٩٢:٤ ، سورة المائدة٨٩:٥ ، سورة المجادلة ٣:٥٨ .
٣٥٩: سورة البقرة ١٧٧:٢ ، سورة التوبة ٦٠:٩ .
٣٦٠: سورة البلد ١٣:٩٠ .
٣٦١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٢، ص٢٠٧-٢٢٨ .
٣٦٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٨، ص١٤٣-١٤٥.
٣٦٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٨، ص ١٤٥وما بعدها .
٣٦٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٢، ص٢٣٣-٢٥٧.
٣٦٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ١٢ ص ٢٧٩-٢٨٠ .
٣٦٦: سورة المنافقون ٦٣: ٧-٨ .
٣٦٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ١٢ ص ٢٨٤-٢٨٨.
٣٦٨: سورة المنافقون ٦٣: ٥.
٣٦٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٢، ص٢٦١-٢٧٥ .
٣٧٠: سورة الأحزاب ٣٣ :٣٦.
٣٧٢ سورة الأحزاب ٣٣ :٣٧ .
٣٧٢:الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٤، ص٤١-٧٩.
٣٧٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٥، ص٣٣-٣٨ .
٣٧٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٥ ، ص٥٩ ، ٦٠.
٣٧٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٥ ، ص ٧١ .
٣٧٦: سورة الفتح ٤٨: ١١.
٣٧٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ١٥، ص ٧٩،٧٥-٨١ .
٣٧٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٥ ، ص ٨٥-١١٤،٨٦.
٣٨٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٥ ، ص١١٥ ، ,١١٦
٣٨١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٥ ، ص٢٢٥ ،١١٦،٢٣٠-١١٥، سورة التوبة ٩ :٨٠.
٣٨٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٥ ، ص٢٥٦-٢٦٠.
٣٨٣: سورة الحجرات ٤٩ :١.
٣٨٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٥ ، ص ٢٦٠-٢٦٢ .
٣٨٥: سورة الفتح ٤٨ :٢٦.
٣٨٦: سورة الفتح ٤٨: ٢٤-٢٨.
٣٨٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ١٥، ص ٢٨٩-٢٩٥، ٣٢٢-٣٢٤ .
٣٨٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٦، ص٩-١١ ، ص ١٧-١٩.
٣٨٩: سورة الفتح ٤٨ :١٨-١٩.
٣٩٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٦، ص٥٠-٥٣ ،٥٧-٧٤ ، ٥٤-٥٦ .
٣٩١: سورة الفتح ٤٨ :٢٥.
٣٩٢: سورة الفتح ٤٨: ١-٣ .

٣٩٣: سورة الفتح ٤٨ :٥.

٣٩٤: سورة الفتح ٤٨: ١-٣.

٣٩٥: سورة الأحزاب ٣٣ : ١٠.

٣٩٦سورة الفتح ٤٨ :٢٧.

٣٩٧: سورة الممتحنة ٦٠: ١٠ .

٣٩٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٦ ، ص١٧٣-١٧١ ،١٣٥، ١٤٤-١٤٥ ، ١٥١-١٥٤ ، ١٥٨-١٥٦، ٨٨ -٨٣ .

٣٩٩: سورة المجادلة ٥٨: ١-٢.

٤٠٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٦، ص١٥٦-١٥٨ ٢١٥-٢٠٨ ، ٨٨ -٨٣ .

٤٠١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٧ ، ص٧٥-٧٨ ،٨٩ -٨٥ ،٨٨ ،١٠١-١٠٩ ، ١١٧-١١٩،١٢٦ ، ١٣٤-١٤٢،١٤٦ ، ١٥٠-١٥٥ .

٤٠٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٧ ، ص١٩٨ ،١٥٢ -١٥١ ،١٧١-١٧٦ ،١٩٣ ،٢٣٤ -٢٣٣ ، ٢١٨ -٢١٧،٢٢٧-٢٣٠ ،٣١٥-٣١٧ ،٢٩١-٢٩٤، ٢٤٠ .

٤٠٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٨ ، ص٦١-٦٢ ،٨٠-٩٠ ، ٢١٩-٢٢٥ .

٤٠٤: سورة الأحزاب ٣٣ : ٢٩.

٤٠٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٨، ص ٢٩١-٣٠٧ .

٤٠٦: سورة النساء ٤: ٩٤.

٤٠٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٩، ص٥٢-٥٥ ،٦٤-٧٨ ، ١٠٩-١١٣ .

٤٠٨: سورة آل عمران٢: ٦٤.

٤٠٩: سورة آل عمران٢: ٦٤.

٤١٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٦، ص ٢٣٥ فما بعده .

٤١١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٩ ، ص٣٤٨ -٣١٦ ، ج ١٠، ص٥٣-٥٤ ، ٣٩-٥٣ .

٤١٢: سورة الأحزاب ٣٣: ٣٣.

٤١٣: السعدي في " أحاديث الزهري " ص ٤٦٢ / ح .٤٠٣ / أحمد بن حنبل في " المسند . (٢٩٢ / ٦) " الطحاوي في " مشكل الآثار (٢٢٨ / ١) " ح .٧٧٥ / الطبراني في " المعجم الكبير (٥٤ / ٣) " ح ٢٦٦٨ / ابن عساكر في " تاريخه ٢٠٥ / ١٣) " (ح . ٣١٨٦ / ابن جرير في " جامع البيان (/ ٢٢) " ح . (/ ٢٢) ٢١٧ / أبو يعلى الموصلي في " المسند (٧٣ / ٦) " ح / ٦٨٥٢، ابن أبي شيبة في " المصنف (٣٧٣ / ٦) " ح .٣٢٠٩٣ مسلم في " الجامع الصحيح (٢٨٣ / ٢) " ح . ٢٤٢٤ / ابن أبي حاتم في " تفسير القرآن (٣١٣١ / ٩) " ح .١٧٦٧٤ / ابن جرير في " جامع البيان . (٥ / ٢٢) " الحاكم في " المستدرك ٣) " ١٤٧ /ابن عساكر في " تاريخه (٢٠٢ / ١٣) " ح .(٢٦٠ / ٤٢) ٣١٧٩ / راجع كذلك عوالم العلوم والمعارف والأحوال،الشيخ عبدالله البحراني عَنْ جَابر بن عَبْدِ اللهِ الأنْصَاري ..

٤١٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٩ ، ص١٥٢-١٥٧ ،١٦٤ ،١٩٠-١٩٦ ،٢٠١-٢٠٣ ،٢٦٠-٢٥٢.

٤١٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٩ ، ص ٢٧٥-٣١٤ .

٤١٦: سورة مريم ١٩ : ٧١.

٤١٧: سنن الترمذي، الرقم٣١٥٩ ، أخرجه أحمد ، رقم٤١٢٨ ، والدارمي ، رقم٢٨١٠ ، والحاكم ، رقم ٨٧٤١ .

٤١٨: Kaegi, Walter E. (١٩٩٢). Byzantium and the Early Islamic Conquests. Cambridge: Cambridge University Press ISBN ٩٧٨-٠٥٢١٤١١٧٢١, p. ٧٢.

٤١٩: The Chronicle of Theophanes, tr. Harry Turtledove, University of Pennsylvania, p. ٣٦, ١٩٨٢, ISBN ٩٧٨-٠-٨١٢٢-١١٢٨-٣.

٤٢٠: سورة الأنفال ٨ :١٥-١٦.

٤٢١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج١٩ ، ص٣٢٢-٣٢٩ ، ج ٢٠، ص١٢-٢١،١٢١-١٤٧ ، ١٠١- ١٠٣، ٣٣٤ .

٤٢٢: سورة الأحزاب ٣٣ :٦.

٤٢٣: سورة الأحزاب ٣٣ :٥٣.

٤٢٤: سورة الأحزاب ٣٣ :٥٣.

٤٢٥: سورة النور ٢٤ :١١-١٣.

٤٢٦: سورة التحريم ٦٦ :١.

٤٢٧:سورة التحريم ٦٦: ٣-٥.

٤٢٨: راجع الصحيح من سيرة النبي الأعظم لجعفر العاملي، الجزء ١٣ أو حديث الإفك لنفس المؤلف .

٤٢٩: سورة العاديات١٠٠ :١-١١.

٤٣٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢٠ص٢٣٧-٢٤٦،٢٤١-٢٤٧.

٤٣١: السيرة النبوية ,ابن هشام ,ج ٢ ص ٣٩٤ .

٤٣٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢١ ، ص٢٢ ،٣٠-٣٢، ٣٧، ٧٥-٨٦ ، ٤٧-٤٨ .

٤٣٣: سورة الممتحنة ٦٠: ١-٤.

٤٣٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢١ ، ص١٣١ ،١٦٨-١٧٣، ٢١٦-٢١٧، ٢٢٣، ٢٣٣-٢٣٤ ، ٢٩٤-٣٠٦.

٤٣٥: سورة الفتح ٤٨ :١-٣.

٤٣٦: سورة الإسراء ١٧: ٨١.

٤٣٧: سورة يوسف ١٢: ٩٢.

٤٣٧: سورة الحجرات ٤٩ :١٣.

٤٣٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢٢ ، ص٥٨-٨٨، ١٢٢، ١٤١، ١٢٧- ١٨١-١٨٣، ٢٧٨، -٢٤٩، ٢٤٨،٢٩٢ -٢٩١، ٢٣٣-٣١٩-٣٢٠ ، ٢٩٤-٣٠٦ .

٤٤٠: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢٣ ، ص٩ ،٥٨ ، ١٢-١٠٠ .

٤٤١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢٣ ، ص٢٠١ ،٢٤٦-٢٦١، ٢٩١ ، ٣٢٢ .

٤٤٢: سورة التوبة ٩ :٢٥-٢٦.

٤٤٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج٢٤ ، ص١٧ -١١ ،٢٠-٢٦ ،٣٥، ٦٦، ٨٤، ١٠٤، ١٢٦، -١٩٧ ١٩١،٣٠٨ ، ٢٧٣-٢٧٤ ، ج ٢٥ ص ٢٢٠-٢١٨ .

٤٤٤: سورة الفتح ٤٨: ٢٧.

٤٤٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٢٥ ص١٧-١٨ ،٤٨-٥٤، ١١٢، -١٠٩ ، ١٦٥-١٦٦ .

٤٤٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٢٥ ص١٨١-١٨٨، ١٣٤، ٢٣٧-٢٣٩، ٢٦٣-٢٦٨ ، ٢٨٦ .

٤٤٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٢٦ ص٢٠٥ ، ٢٢١-٢٢٢ ،٢٥٩ ، ٢٤٥-٢٤٦ ، ج ٢٧ ص-١٣ ١١.

٤٤٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٢٧ ص٢٨١-٢٨٢ ، ٣٠٩-٣١٦ .

٤٤٩: سورة آل عمران ٣: ٥٩-٦٠.

٤٥٠: سورة آل عمران ٣: ٦١-٦٣.

٤٥١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٢٨ ص٣٠٠-٣٠٩ ، ١٥٦-١٥٧ .

٤٥٢: سورة التوبة ٩: ٦٤-٦٦، راجع تفسير علي بن ابراهيم وتفسير أوضح البيان لعباس الموسوي.

٤٥٣: سورة التوبة ٩ :٤٩.

٤٥٤: سورة التوبة ٩ :٨١-٨٢.

٤٥٥: سورة الواقعة٥٦: ٨٢.

٤٥٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٣٠ ص١٥٣-١٥٦ ،١٦٥ ، ٢٠٤-٢٠٥ ،١٩ ،٥١ ، ج-١٩٦ ٢٩ ١٩٥،١١١ ،٢٧٤-٢٧٥ ،١٤٨-١٤٩ ،١٦٦ ،٢٩٠-٢٩١ ، ٣٠٤-٣٠٥ .

٤٥٧: السيرة المحمدية – الشيخ جعفر السبحاني عن بحار الأنوار ٢٤٦/٢١ ، طبقات أبن سعد ١٦٦/٢ .

٤٥٨: سورة التوبة٩ :٧٤.

٤٥٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٣٠ ص١٢٣-١٦٢ ،١٧٩ ، ٢٠١ .

٤٦٠: سورة التوبة ٩ :٥٠.

٤٦١: سورة التوبة ٩ :١٠٧.

٤٦٢: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٣٠ ص٢٠٨-٢١٧ .

٤٦٣: سورة التوبة ٩: ٣.

٤٦٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٣٠ ص٢٣٧-٢٤٢ ،٢٦٩ ، ٢٨٠-٢٨١ .

٤٦٥: سورة التوبة ٩: ٢٤.

٤٦٦: بحوث في شرح مناسك الحج نويسنده، الشيخ أمجد رياض والشيخ نزار يوسف ،الجزء ٩ ، صفحة ٤٨٤ .

٤٦٧: سورة المائدة ٥: ٦٧.

٤٦٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج٢٨٨-٣٠٤ ٣٠ ، ج ٣١ ص٤٦-٤٧ ،١١-١٦ ،٨٧ ،٣٠ ، ١٧٢ .

٤٦٩: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٣١ ص٢٠٠-٢٠٤ ،١٣٤ ،٧١-٧٥ ،١٦٣-١٦٩ ،١٦-١٨ ،-٩٠ ٨٥، ٩٣-٩٥ .

٤٧٠: سورة المائدة ٥: ٦٧.

٤٧١: سورة المائدة ٥: ٣.

٤٧٢: سورة الاعراف ٧: ٤٣.

٤٧٣: سورة الفتح ٤٨: ١٠.

٤٧٤: سورة الزمر ٣٩: ٧.

٤٧٥: سورة المعارج ٧٠: ١.

٤٧٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٣١ ص٢٢٦-٢٢٩ ،١٧٢ ،٢٣٣-٢٣٨ ،٢٠١ ،٣٢٥ ، ٢٠٩ .

٤٧٧: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٣٢ ص١٦٥ ،١٧٣ ،١٨٣-١٨٤ ،١٦٦-١٧٠ ، ١٤٢ .

٤٧٨: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٣٢ ص٢١٥-٢١٩ ،٢٢٥ ، ٢٤٦ .

٤٧٩: سورة آل عمران ٣: ١٤٤.

٤٨٠: سورة الأحزاب ٣٣: ٥٦.

٤٨١: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٣٢ ص٣٣٥-٣٣٦ ، ٢٦٠، ٢٦٨، ٦٩-٧٠، ٢٤، ٩٠-٩٤، ٥٣-٥٢.

٤٨٢: السقيفة - الشيخ محمد رضا المظفر – الصفحة ٩٦-١٠٠ .

٤٨٣: الصحيح من سيرة الأمام علي ج٩ ، ص ١٢٥-١٤٣ .

٤٨٤: سورة العنكبوت٢٩: ١-٤، بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢٢ - الصفحة ٥١٩ .

٤٨٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٣٣ ص٢٨٦-٢٨٧، ٣١٧، ٣٢٤ .

٤٨٦: ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢٩٨ / ٢٠.

٤٨٧: سورة الشعراء ٢٦: ٢١٥.

٤٨٨: سورة سبأ ٣٤: ٢٨.

٤٨٩: سورة الأعراف ٧: ١٥٨.

٤٩٠: سورة الأنبياء ٢١: ١٠٧.

٤٩١: تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، سورة آل عمران، ١٥٩ :٣ .

٤٩٢: البلاذري،١/٢٩٢ ؛ قارن :أبو الفرج،٤/١٧٣ .١٧٤ ، الواقدي،١/٣٣ .

٤٩٣: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ج ٧ ص٣٤ ،٤٢ .

٤٩٤: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٩ ، ص ١٥٠-٢١٤.

٤٩٥: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج١٩ ، ص ٢٥٢-٢٥٤.

٤٩٦: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي،ج ٢٢ ص ٢٢-٤٤.

٤٩٧: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٤، ص١٣ .

٤٩٨: بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٣٨ - الصفحة ٣٠١، مسند أحمد ,٣٠٠ :٦ المستدرك على الصحيحين ١٤٩ :٣ صححه الحاكم ووافقه الذهبي كما في ذيل المستدرك ,مجمع الزوائد .١٤٩ :٣

٤٩٩: Pirtea, Adrian C., "Preliminary Notes on the Maronite Chronicle of ٧١٣", Medieval Worlds, No. ٢٣ (٢٠٢٥). Hoyland, Robert G., Theophilus of Edessa's Chronicle and the Circulation of Historical Knowledge in Late Antiquity and Early Islam, Liverpool University Press (٢٠١١). Hoyland, Robert G., Seeing Islam as Others Saw It, Darwin Press (١٩٩٧). Sinai Manuscripts Digital Library, Manuscript Sinai Arabic ٥٩٧.

قائمة المراجع

- القرآن الكريم
- السيرة النبوية لإبن هشام، المتوفي سنة ٢١٨ هـ
- الطبقات الكبرى لابن سعد البغدادي، المتوفي سنة ٢٣٠ هـ
- المسند لأحمد بن حنبل، المتوفي سنة ٢٤١ هـ
- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب للمهزمي، المتوفي سنة ٢٥٧ هـ
- صحيح مسلم للنيسابوري، المتوفي سنة ٢٦١ هـ
- أنساب الأشراف للبلاذري، المتوفي سنة ٢٧٩ هـ
- تاريخ الطبري لابن جرير الطبري، المتوفى سنة ٣١٠ هـ
- تفسير القمي لعلي بن أبراهيم القمي، المتوفي سنة ٣٢٩ هـ
- الأمالي للشيخ الصدوق، المتوفي سنة ٣٨١ هـ
- علل الشرائع للشيخ الصدوق، المتوفي سنة ٣٨١ هـ
- مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي، المتوفي سنة ٥٤٨هـ
- البداية والنهاية لأبن كثير، المتوفي سنة ٧٧٤ هـ
- إمتاع الأسماع لتقي الدين المقريزي، المتوفي سنة ٨٤٥ هـ
- تاريخ الخميس للديار بكري، المتوفي سنة ٩٦٨ هـ
- تفسير الصافي للكاشاني، المتوفي سنة ١٠٩١ هـ
- البرهان في تفسير القرآن للبحراني، المتوفي سنة ١١٠٩ هـ
- بحار الأنوار للمجلسي، المتوفي سنة ١١١١ هـ

- تفسير نور الثقلين للحويزي، المتوفي سنة ١١١٢ هـ
- السقيفة للشيخ محمد رضا المظفر، المتوفي سنة ١٣٨٣ هـ
- تفسير المبين للشيخ محمد جواد مغنية المتوفي سنة ١٤٠٠ هـ
- الميزان في تفسير القرآن للطبطبائي، المتوفي سنة ١٤٠٢ هـ
- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي المتوفي سنة ١٤٠٧ هـ
- تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي المتوفي سنة ١٤٠٧ هـ
- تاريخ العرب في الإسلام للدكتور جواد علي المتوفي سنة ١٤٠٧ هـ
- أصنام العرب للدكتور جواد علي المتوفي سنة ١٤٠٧ هـ
- حديث الإفك للعلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي، المتوفي سنة ١٤٤١ هـ
- الصحيح من سيرة النبي الأعظم للعلامة جعفر مرتضى العاملي، المتوفي سنة ١٤٤١ هـ
- الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري المتوفي سنة ١٤٢٧ هـ
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، المتولد سنة ١٣٤٥ هـ
- السيرة المحمدية للشيخ المحقق جعفر السبحاني، المتولد سنة ١٣٤٧ هـ

- تأريخ خاتم الأنبياء رسول الله محمد للشيخ كاظم ياسين، المتولد سنة ١٣٦٩ هـ
- Kaegi، Walter E. (١٩٩٢). Byzantium and the Early Islamic Conquests. Cambridge: Cambridge University Press. ISBN ٩٧٨-٠٥٢١٤١١٧٢١
- Muhammad: A Very Short Introduction Jonathan Brown
- أوضح البيان في تفسير القرآن للعلامة السيد عباس علي الموسوي
- Writing the Biography of the Prophet, Muhammad: Problems and Solutions, Robert Hoyland

وغيرها من المصادر الكثيرة؛ انظر الحواشي لمراجع إضافية.